الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

١٤

بسم الله الرحمن الرحیم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل

کاتب:

آیت الله ناصرمکارم شیرازی

نشرت فی الطباعة:

مدرسه الامام علی بن ابی طالب (علیه السلام)

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل المجلد ۱۴

اشاره

سرشناسه : مکارم شیرازی، ناصر، - ۱۳۰۵

عنوان و نام پدیدآور : الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل/ تالیف ناصر مکارم شیرازی؛ [با همکاری جمعی از فضلا]

وضعیت ویراست : [ویرایش]۲

مشخصات نشر : قم: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)، ۱۴۲۱ق. = ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری : ج ۲۰

شابک : ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۳-X(دوره) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۹-۱(ج.۱) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۳-۲(ج.۲) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۸-۳(ج.۳) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۲-۴(ج.۴) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۷-۵(ج.۵) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۱-۶(ج.۶) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۶-۷(ج.۷) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۰-۸(ج.۸) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۵-۹(ج.۹) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۴-۰(ج.۱۰) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۲-۱(ج.۱۱) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۷-۲(ج.۱۲) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۱-۳(ج.۱۳) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۰-۵(ج.۱۵)

وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی

یادداشت : کتاب حاضر ترجمه و تلخیص "تفسیر نمونه" است

یادداشت : کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر گردیده است

یادداشت : کتابنامه

موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده : مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)

رده بندی کنگره : BP۹۸/م ۷ت ۷۰۴۴۷ ۱۳۷۹

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی : م ۷۹-۱۰۳۹۱

ص: ۱

اشاره

سوره فاطر

اشاره

محتوى السوره:

سمّيت هـذه السوره ب«فـاطر»أو«الملائكه»لابتـداء آياتهـا بآيه ذكر فيها «فاطر»و«الملائكه».و هى من السور المكيّه،مع أنّ البعض يستثنى منها الآيات (۲۹ و ۳۲)و يعتبرها مدنيه،إلّا أنّنا لم نجد دليلا على صحّه هذا الاستثناء.

و لكونها مكيه النّزول،فانّ محتواها العام يعكس الملامح العامّه للسور المكيه، كالحـديث فى المبـدأ و المعاد و التوحيد،و دعوه الأنبياء،و ذكر نعم اللّه عزّ و جلّ و مصير المجرمين يوم الجزاء.

و يمكن تلخيص آيات هذه السوره فى خمسه أقسام:

۱-قسم مهم من آيات هذه السوره يتحدّث حول آثار عظمه اللّه فى عالم الوجود،و أدلّه التوحيد.

۲-قسم آخر من آياتهـا يبحث فى ربوبيه اللّه و تـدبيره لجميع امور العـالم، بالأخصّ امور الإنسان،و عن خالقيته و رزاقيته،و خلق الإنسان من التراب و مراحل تكامل الإنسان.

۳-قسم آخر يتحدّث حول المعاد و نتائج الأعمال فى الآخره،و رحمه اللّه الواسعه فى الدنيا،و سنّته الثابته فى المستكبرين.

۴-قسم من الآيات يشـير إلى مسأله قياده الأنبياء و جهادهم الشديـد و المتواصل ضـدّ الأعداء المعاندين.و مواساه الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى هذا الخصوص.

۵-القسم الأخير منها يتعرّض للمواعظ و النصائح الإلهيه فيما يخصّ المواضيع المذكوره أعلاه،و يعتبر مكمّلا لها.

ص: ۷

بعض المفسّرين لخصّ جميع هذه السوره فی موضوع واحد و هو:هیمنه و قهّاریه اللّه فی جمیع الأمور (۱) .

هذا الإعتبار و إن کان منسجما مع القسم الأعظم من آیات السوره،إلّا أنّه لا یمکن إنکار وجود موضوعات مختلفه اخری فیها.

فضیله هذه السوره:

ورد فی الحدیث الشریف عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «من قرأ سوره الملائکه، دعته یوم القیامه ثلاثه أبواب من الجنّه أنّ ادخل من أی الأبواب شئت» (۲) .

و مع الالتفات إلی ما نعلمه من أنّ أبواب الجنّه هی تلک العقائد و الأعمال الصالحه التی سبّبت الوصول إلی الجنّه،کما ورد فی بعض الروایات من أنّ هناک بابا باسم«باب المجاهدین»أو أمثاله،فیمکن أن تکون الروایه السالف ذکرها إشاره إلی أبواب القاعده الاعتقادیه الثلاثیه الأساس«التوحید-المعاد-النبوّه».

و نقرأ

فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّ«الحمدین:حمد سبأ،و حمد فاطر،من قرأهما فی لیله لم یزل فی لیلته فی حفظ اللّه و کلاءته، فمن قرأهما فی نهاره لم یصبه فی نهاره مکروه،و أعطی من خیر الدنیا و خیر الآخره ما لم یخطر علی قلبه و لم یبلغ مناه» (۳) .

و نقول کما قلنا سابقا بأنّ القرآن برنامج عمل،و تلاوته بدایه للتفکّر و الإیمان الذی هو بدوره وسیله للعمل بمحتوی الآیات،و کلّ هذا الثواب العظیم یتحقّق بهذه الشروط«فتأمّل!!».

***

۱- ۱) -تفسیر فی ظلال القرآن،بدایه سوره فاطر.

۲- ۲) -مجمع البیان،المجلّد ۴،صفحه ۳۹۹.

۳- ۳) -نور الثقلین،المجلّد ۴،صفحه ۳۴۵،حدیث ۱.

الآیات [سوره فاطر (۳۵): الآیات ۱ الی ۳]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ فٰاطِرِ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ جٰاعِلِ اَلْمَلاٰئِكَهِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَهٍ مَثْنىٰ وَ ثُلاٰثَ وَ رُبٰاعَ يَزِيدُ فِي اَلْخَلْقِ مٰا يَشٰاءُ إِنَّ اَللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱) مٰا يَفْتَحِ اَللّٰهُ لِلنّٰاسِ مِنْ رَحْمَهٍ فَلاٰ مُمْسِكَ لَهٰا وَ مٰا يُمْسِكْ فَلاٰ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَ هُوَ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ (۲) يٰا أَيُّهَا اَلنّٰاسُ اُذْكُرُوا نِعْمَتَ اَللّٰهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خٰالِقٍ غَيْرُ اَللّٰهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ اَلسَّمٰاءِ وَ اَلْأَرْضِ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ فَأَنّٰى تُؤْفَكُونَ (۳)

التّفسير

اشاره

فاتح مغاليق الأبواب!

تبدأ هذه السوره-كما هو الحال في سوره الفاتحه و سبأ و الكهف-بحمد اللّه و الثناء عليه لخلقه هذا الكون الفسيح،يقول تعالى: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ فٰاطِرِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ .

«فاطر»من مادّه«فطر»و أصله الشقّ طولا،لأنّ خلق الموجودات يشبه شقّ

ظلمه العدم و ظهور نور الوجود،استخدم هذا التعبير فيما يخصّ الخلق،خصوصا إذا لا حظنا ما يقوله العلم الحديث من نظريات تشير إلى أنّ مجموعه عالم الوجود كانت فی البدء كومه واحده ثمّ انشقّت تدريجيّا عن بعضها.

و إطلاق كلمه«فاطر»على اللّه سبحانه و تعالى،يعطی للكلمه مفهوما جديدا و أكثر وضوحا.نعم فنحن نحمد اللّه و نشكره على خالقيته،لأنّ كلّ ما هو موجود منه تعالى،و ليس لأحد ممّن سواه شیء من ذاته (۱) .

و لأنّ تدبير امور هذا العالم قد نيطت من قبل الباری عزّ و جلّ-بحكم كون عالمنا عالم أسباب-بعهده الملائكه،فالآيه تنتقل مباشره إلى الحديث فی خلق الملائكه و قدراتها العظيمه التی وهبها اللّه إيّاها! جَاعِلِ الْمَلاٰئِكَهِ رُسُلاً أُولِی أَجْنِحَهٍ مَثْنیٰ وَ ثُلاٰثَ وَ رُبٰاعَ يَزِيدُ فِی الْخَلْقِ مٰا يَشٰاءُ إِنَّ اللّٰهَ عَلیٰ كُلِّ شَیْءٍ قَدِيرٌ .

هنا تطرح ثلاثه أسئله:

الأوّل:ما هی رساله الملائكه التی ورد ذكرها فی الآيه؟هل هی رساله تشريعيه و جلب الأوامر من الباری إلى الأنبياء،أم أنّها رساله تكوينيه،أی تحمّل مسئوليه المأموريات المختلفه فی عالم الخلق،كما سترد الإشاره إليه لاحقا،أم يقصد منه الاحتمالان؟ يتّضح من ملاحظه ما ورد فی الجمله الاولى،من الحديث حول خلق السموات و الأرض،و ما ورد فی الجمله الأخيره من الحديث حول الأجنحه المتعدّده للملائكه،و التی تدلّ على قدرتهم،و كذلك بملاحظه إطلاق مفهوم «الرساله»بالنسبه إلى جميع الملائكه(يلاحظ أنّ الملائكه لفظه جمع لاقترانها بالألف و اللام و تدلّ على العموم)يتّضح من ذلك كلّه أنّ المقصود من الرساله

ص:۱۰

۱- ۱) -فيما يخصّ معنى«فاطر»و«فطر»تحدّثنا فی ذيل الآيه العاشره من سوره إبراهيم،و كذلك فی تفسير الآيه (۱۴)من سوره الأنعام.

مفهوم واسع يشمل كلا من«الرساله التشريعيّه»و«الرساله التكوينيه».

إنّ إطلاق لفظه الرساله على«الرساله التشريعيه»و إبلاغ الوحى إلى الأنبياء ورد فى القرآن بكثره،و إطلاق هذه اللفظه أيضا على«الرساله التكوينيه»ليس بالقليل كذلك.

فى الآيه(٢١)من سوره يونس نقرأ إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ .

و فى الآيه(٦١)من سوره الأنعام نقرأ حَتّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا .

و فى الآيه(٣١)من سوره العنكبوت ورد وَ لَمّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هٰذِهِ الْقَرْيَهِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ .

و فى آيات اخرى من القرآن نرى أنّه قد عهد إلى الملائكه أيضا بمأموريات مختلفه عدّت من رسالاتهم أيضا،و عليه فإنّ للرساله مفهوما واسعا.

الثانى:ما هو المقصود بالأجنحه التى عبّر عنها ب مَثْنى وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ .

ليس من المستبعد أن يكون المقصود بالأجنحه هنا هو القدره على الانتقال و التمكّن من الفعل،بحيث يكون بعضهم أفضل من بعض و له قدره أكبر.

و عليه فقد ذكرت لهم سلسله من المراتب بالأجنحه،فبعضهم له أربعه أجنحه (مثنى اثنان اثنان)،و البعض له ستّه أجنحه،و البعض ثمانيه،و هكذا.

«أجنحه»جمع(جناح)ما يستعين به الطائر على الطيران،و هو بمثابه اليد فى الإنسان،و لأنّ الجناح فى الطائر يستخدم كوسيله مساعده على الانتقال و الحركه و الفعّاليه،فقد استخدمت هذه الكلمه كنايه عن وسيله الحركه ذاتها و عامل القدره و الاستطاعه،فمثلا يقال:إنّ فلانا احترقت أجنحته،كنايه عن فقدانه قدره الحركه أو الإمكانيه،أو أنّ الإنسان يجب أن يطير بجناحى العلم و العمل،و الكثير من هذه التعبيرات التى تشير إلى المعنى المستعار لهذه الكلمه.

كما يلاحظ أنّ المقصود من تعبيرات مثل«العرش»و«الكرسى»و«اللوح»و

ص:١١

«القلم»هی المفاهیم المعنویه لها،و لیس واقعها المادّی.

من الطبیعی أنّه لا ـ یمکن حمـل ألفـاظ القرآن علی غیر معانیهـا الظـاهریه بـدون قرینه،و لکن حیثما ظهر أثر لتلک القرائن فلیس هناک مشکله.

ورد فی بعض الروایـات أنّ«جبرئیـل»رسول الوحی الإلـهی،له سـتمائه جنـاح، و کان یملأ ما بین الأرض و السـماء حینما یلتقی به الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم (1) .

أو ما

ورد فی«نهج البلاغه» حینما تحدّث أمیر المؤمنین عن عظمه الملائکه.

فقال:«و منهم الثابته فی الأرضـین السـفلی أقدامهم،و المارقه من السـماء العلیا أعناقهم،و الخارجه من الأقطار أرکانهم،و المناسـبه لقوائم العرش أکتافهم» (2) .

أو أنّ هناک ملائکه ما بین شحمه آذانهم و عیونهم مسیره خمسمائه عام من الطیران (3) .

و من الواضح انّ هذه التعبیرات لا یمکن حملها علی البعد الجسمانی و المادّی، بل المراد بیان العظمه المعنویه و أبعاد القدره.

و نعلم أنّ الجناح-عاده-یستفاد منه فی جو الأرض،لأنّ الأخیره محاطه بغلاف غازی من الهواء الضاغط،و الطیور إنّما تستفید من أمواج الهواء للطیران، و الارتفـاع و الانخفاض،و لکن بمجرد خروجنا من المحیط الغازی للأرض حیث ینعـدم الهواء فانّ الجناح لیس له أدنی تأثیر فی تحقیق الحرکه،و یکون حاله حال سائر الأعضاء.

ناهیـک عـن أنّ الملـک الـذی تکـون أقـدامه فی أعمـاق الأـرض و رأسه أعلی من أعلی السـموات،لیس له حـاجه إلی الطیران الجسمانی!! البحث فی هل أنّ«الملائکه»أجسام لطیفه أو من المجردات بحث آخر،

١- ١) -نور الثقلین،ج ۴،ص ٣۴٩-ح ٢٠.

٢- ٢) -نهج البلاغه،خطبه رقم ١.

٣- ٣) -تفسیر علی بن إبراهیم طبقا لما نقله نور الثقلین،المجلّد ۴،الصفحه ٣۴٩.

سنشیر له فی البحوث ان شاء اللّه.المقصود الآن هو أن نعلم أنّ الجناح و الریش بالنسبه لها وسیله الفعّالیه و الحرکه و القدره،و الذی عبّرت عنه القرائن المشار إلیها أعلاه بقدر کاف،بالضبط کما قلناه بالنسبه ل«العرش»و«الکرسی»،فانّ هاتین الکلمتین تشیران إلی قدره اللّه فی العالم من أبعاد مختلفه!! و

فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام «الملائکه لا یأکلون و لا یشربون و لا ینکحون،و إنّما یعیشون بنسیم العرش» (1) .

السؤال الثالث:هل أنّ عباره یَزِیدُ فِی الْخَلْقِ مٰا یَشٰاءُ إشاره إلی زیاده أجنحه الملائکه؟کما قال به بعض المفسّرین؟أم أنّ لها معنی أوسع من ذلک بحیث یشمل عدا الزیاده فی أجنحه الملائکه الزیادات التی تحصل فی خلق الموجودات الاخری؟ إطلاق الجمله من جهه،و دلاله بعض الروایات التی جاءت فی تفسیر هذه الآیات من جهه اخری،یشیر إلی أنّ المعنی الثانی هو الأنسب.

فمن جمله ما

ورد،حدیث عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی تفسیر هذه الجمله أنّه قال:

«هو الوجه الحسن،و الصوت الحسن،و الشعر الحسن».

و نقر

فی حدیث آخر عنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «حسّنوا القرآن بأصواتکم فإنّ الصوت الحسن یزید القرآن حسنا»و قرأ یَزِیدُ فِی الْخَلْقِ مٰا یَشٰاءُ .

بعد الحدیث عن خالقیه اللّه سبحانه و تعالی،و رساله الملائکه الذین هم واسطه الفیض الإلهی،تنتقل الآیات إلی الحدیث عن رحمه اللّه سبحانه،و التی هی الأساس لکلّ عالم الوجود،تقول الآیه الکریمه: مٰا یَفْتَحِ اللّٰهُ لِلنّٰاسِ مِنْ رَحْمَهٍ فَلاٰ مُمْسِکَ لَهٰا وَ مٰا یُمْسِکْ فَلاٰ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ .

الخلاصه أنّ تمام خزائن الرحمه عنده،و هو یشمل بها کلّ من یراه أهلا لها، و یفتح أبوابها حیثما اقتضت حکمته،و لن یستطیع الناس بأجمعهم أن یغلقوا ما

ص:13

1- 1) -فی معنی«العرش»راجع شرحنا لهذه الکلمه فی تفسیر الآیه(54)من سوره الأعراف.

فتح و لو كان بعضهم لبعض ظهيرا،أو أن يفتحوا بابا أغلقه سبحانه و تعالى،و هذا المفهوم فى الحقيقه فرع مهم من بحث التوحيد حيث يتفرّع عنه فروع اخرى «تأمّل».

و قد ورد شبيه هذا المعنى فى الآيات القرآنيه الاخرى،ففى الآيه ١٠٧-سوره يونس يقول تعالى: وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللّٰهُ بِضُرٍّ فَلاٰ كٰاشِفَ لَهُ إِلاّٰ هُوَ وَ إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاٰ رٰادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

ملاحظات

١-التعبير ب«يفتح»-من مادّه«فتح»-إشاره إلى وجود خزائن الرحمه الإلهيه التى ورد ذكرها أيضا فى آيات اخرى من القرآن الكريم،و الملفت للنظر أنّ هذه الخزائن بمجرّد فتحها تجرى الرحمه على الخلائق بلا أدنى حاجه إلى شىء آخر، و بدون أن يستطيع أحد منعها من ذلك.

و تقدّم مفهوم«فتح الرحمه»على«إمساكها»،لأنّ رحمه اللّه تسبق غضبه دوما.

٢-تعبير«الرحمه»له معنى واسع و شامل،لكلّ المواهب الإلهيّه فى الكون، معنويه و ماديه،و لهذا السبب يحسّ المؤمن عند ما توصد أمامه جميع الأبواب بأنّ الرحمه تنساب فى قلبه و روحه،فيكون مسرورا و قانعا هادئا و مطمئنا،حتّى و إنّ كان مأسورا فى السجن.

و تاره ينعكس الحال،و ذلك حينما تكون جميع الأبواب الظاهريه مفتوحه أمام الإنسان،و مع ذلك يحسّ فى أعماقه بالضيق و الضغط و يرى الدنيا على سعتها سجنا مظلما موحشا،لمجرد عدم انفتاح باب الرحمه الإلهيه فى أعماقه.و هذا أمر محسوس و ملموس للجميع.

٣-استعمال صفتى«العزيز»و«الحكيم»لتوضيح قدره اللّه سبحانه و تعالى

ص: ۱۴

على«إرسال»و«إمساك»الرحمه،و فى عين الحال إشاره إلى أنّ الفتح و الإغلاق فى أىّ وقت شاء تعالى إنّما هو على أساس الحكمه،لأنّ قدره البارى و حكمته مقرونتان.

و على كلّ حال فإنّ الانتفاع من محتوى هذه الآيه،يمنح الإنسان المؤمن هدوءا و سكينه،و يجعله مقاوما لكلّ أنواع الحوادث،و لا يخاف من المشاكل، و يبعده عن الغرور فى حال النجاح و الفوز.

و تشير الآيه التاليه إلى«توحيد العباده»على أساس«توحيد الخالقيه و الرازقيه»فتقول الآيه الكريمه: يا أَيُّهَا النّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ .

فكّروا مليا ما هو منشأ كلّ هذه المواهب و البركات و الإمكانيات الحياتيه التى فيّضت لكم.. هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللّٰهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ .فمن الذى يرسل عليكم من الشمس نورها الذى ينشر الحياه،و حبّات المطر التى تحيى الموات،و النسيم الذى ينعش الروح؟و من الذى يخرج لكم من الأرض معادنها و ذخائرها و غذاءها و أنواع نباتاتها و ثمارها و بركاتها الأخرى؟ فإذا علمتم أنّ مصدر كلّ هذه البركات هو اللّه،فاعلموا أنّ: لا إِلٰهَ إِلاّ هُوَ .

و عليه فكيف تنحرفون عن طريق الحقّ إلى الباطل،و تسجدون للأصنام بدلا من السجود للّه سبحانه؟ فَأَنّى تُؤْفَكُونَ .

«تؤفكون»:من مادّه«إفك»،بمعنى«كلّ مصروف عن وجهه الذى يحقّ أن يكون عليه»و لذا قيل لكلّ حديث ينصرف عن الصدق فى المقال إلى الكذب «إفك»و إن كان البعض يرى أنّ هذه الكلمه تطلق على الكذب الفاحش و التهمه الشنيعه.***

ص :15

«بحث»

اشاره

الملائكه فى القرآن الكريم:

تعرّض القرآن الكريم كثيرا لذكر الملائكه..فقد تحدّثت آيات عديده عن صفات،خصائص،مأموريات،و وظائف الملائكه.حتّى أنّ القرآن الكريم جعل الإيمان بالملائكه مرادفا للإيمان باللّه و الأنبياء و الكتب السماويه،ممّا يدلّل على أهميّه هذه المسأله الأساسيه.

آمَنَ الرَّسُولُ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ مَلاٰئِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ . (۱)

و ممّا لا شكّ فيه أنّ وجود الملائكه من الأمور الغيبيه التى لا يمكن إثباتها بتلك الصفات و الخصائص إلاّ بالأدلّه النقليه،و يجب الإيمان بها على أنه إيمان بالغيب.

و بالجمله يطرح القرآن الكريم خصائص الملائكه كما يلى:

۱-الملائكه موجودات عاقله لها شعور،و هم عباد مكرمون من عباد اللّه بَلْ عِبٰادٌ مُكْرَمُونَ (۲) .

۲-مطيعون لأوامر اللّه و لا يعصونه أبدا: لاٰ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (۳) .

۳-أنّ لهم وظائف مهمّه و كثيره التنوّع كلّفوا بها من قبل البارى عزّ و جلّ.

مجموعه تحمّل العرش وَ الْمَلَكُ عَلىٰ أَرْجٰائِهٰا وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمٰانِيَةٌ (۴) .

مجموعه تدبّر الأمر فَالْمُدَبِّرٰاتِ أَمْراً (۵) .

۱- ۱) -البقره،۲۸۵.

۲- ۲) -الأنبياء،۲۶.

۳- ۳) -الأنبياء،۲۷.

۴- ۴) -الحاقه،۱۷.

۵- ۵) -النازعات،۵.

و اخرى لقبض الأرواح ...حَتّٰى إِذٰا جٰاءَتْهُمْ رُسُلُنٰا يَتَوَفَّوْنَهُمْ... (۱) .

و آخرون يراقبون أعمال البشر وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحٰافِظِينَ* كِرٰاماً كٰاتِبِينَ* يَعْلَمُونَ مٰا تَفْعَلُونَ (۲) .

مجموعه تحفظ الإنسان من المخاطر و الحوادث وَ هُوَ الْقٰاهِرُ فَوْقَ عِبٰادِهِ وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتّٰى إِذٰا جٰاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنٰا وَ هُمْ لاٰ يُفَرِّطُونَ (۳) .

و اخرى مأموره بإحلال العذاب و العقوبه على أقوام معيّنه وَ لَمّٰا جٰاءَتْ رُسُلُنٰا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَ ضٰاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قٰالَ هٰذٰا يَوْمٌ عَصِيبٌ (۴) و آخرون يمدّون المؤمنين حال الحرب يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جٰاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنٰا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهٰا وَ كٰانَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيراً (۵) .

و أخيرا مجموعه لتبليغ رسالات الوحى و إنزال الكتب السماويه للأنبياء يُنَزِّلُ الْمَلاٰئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلىٰ مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ أَنَا فَاتَّقُونِ . (۶)

و لو أردنا الاسترسال فى ذكر وظائف الملائكه لطال البحث و اتّسع.

۴-الملائكه دائمو التسبيح و التقديس للّه سبحانه و تعالى وَ الْمَلاٰئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِى الْأَرْضِ (۷) .

۵-و بناء على أنّ الإنسان بحسب استعداده للتكامل يمكنه أن يكون أعلى مقاما و أشرف موضعا من الملائكه فقد سجدت الملائكه بدون استثناء لخلق آدم،

ص: ۱۷

۱- ۱) -الأعراف،۳۷.

۲- ۲) -الإنفطار،۱۰-۱۳.

۳- ۳) -الأنعام،۶۱.

۴- ۴) -هود،۷۷.

۵- ۵) -الأحزاب،۹.

۶- ۶) -النحل،۲.

۷- ۷) -الشورى،۵.

و عدّوا آدم معلّما لهم«الآيات ٣٠-٣۴ سوره البقره».

۶-إنّ الملائکه یظهرون بصوره الإنسان للأنبیاء و غیر الأنبیاء،کما نقرأ فی الآیه(١٧)من سوره مریم: فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا .

کذلک یذکر القرآن الکریم تجلّیهم بصوره إنسان لإبراهیم و لوط(هود-۶٩ و ٧٧)کما أنّه یستفاد من أواخر تلک الآیات أنّ قوم لوط أیضا رأوهم بتلک الصوره الإنسانیه السویه«هود-٧٨».

فهل أنّ ذلک الظهور بالشکل الإنسانی،له واقع عینی،أم هو بصوره تمثّل و تصرّف فی قوّه الإدراک؟ظاهر الآیات القرآنیه یشیر إلی المعنی الأوّل،و إن کان بعض من کبار المفسّرین قد اختار المعنی الثانی.

٧-یستفاد من الروایات أنّ أعداد الملائکه کثیره بحیث انّه لا یمکن مقایسه أعدادهم بالبشر بأی شکل من الأشکال،فحینما

سئل الإمام الصادق علیه السّلام:هل الملائکه أکثر أم بنو آدم؟قال:«و الذی نفسی بیده لملائکه اللّه فی السموات أکثر من عدد التراب فی الأرض،و ما فی السماء موضع قدم إلاّ و فیها ملک یسبّحه و یقدّسه،و لا فی الأرض شجره و لا مدر إلاّ و فیها ملک موکّل بها یأتی اللّه کلّ یوم بعملها و اللّه أعلم بها،و ما منهم أحد إلاّ و یتقرّب کلّ یوم إلی اللّه بولایتنا أهل البیت،و یستغفر لمحبّینا و یلعن أعداءنا،و یسأل اللّه أن یرسل علیهم العذاب إرسالا» (١) .

٨-الملائکه لا یأکلون و لا یشربون،و لا یتزوجون،

فقد ورد عن الإمام الصادق فی حدیث طویل قوله: «إنّ الملائکه لا یأکلون و لا یشربون و لا ینکحون، و إنّما یعیشون بنسیم العرش» (٢) .

٩-لا ینامون و لا یضعفون و لا یغفلون،

ففی الحدیث عن أمیر المؤمنین علی

١- ١) -بحار الأنوار،الجزء ۵٩،صفحه ١٧۶ حدیث ٧.

٢- ٢) -المصدر السابق،صفحه ١٧۴-حدیث ۴.و قد نقلت روایات متعدّده فی هذا الشأن فراجع.

بن أبی طالب علیه أفضل الصلاه و السلام «و ملائکه خلقتهم و أسکنتهم سماواتک، فلیس فیهم فتره و لا عندهم غفله،و لا فیهم معصیه هم أعلم خلقک بک،...و لا یغشاهم نوم العیون و لا سهو العقول،و لا فتره الأبدان،لم یسکنوا الأصلاب و لم تضمّهم الأرحام»الحدیث (۱) .

۱۰-إنّ لهم مقامات،و مراتب متفاوته مٰا مِنّٰا إِلاّٰ لَهُ مَقٰامٌ مَعْلُومٌ وَ إِنّٰا لَنَحْنُ الصّٰافُّونَ وَ إِنّٰا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (۲) .

و کذلک نقرأ

فی الحدیث المذکور عن الإمام الصادق علیه السّلام: «و إنّ للّه ملائکه رکعا إلی یوم القیمه،و إنّ للّه ملائکه سجدا إلی یوم القیامه» (۳) .

و لمزید نقرأ

فی الحدیث المذکور عن الإمام الصادق علیه السلام: «و إنّ للّه ملائکه رکعا إلی یوم القیامه،و إنّ اللّه ملائکه سجدا إلی یوم القیامه»۳.

و لمزید الاطلاع علی أوصاف الملائکه و أصنافهم یراجع کتاب«السماء و العالم»من بحار الأنوار،أبواب الملائکه(المجلد ۵۹-الصفحات ۱۴۴-إلی ۳۲۶)و کذلک نهج البلاغه الخطب(۱ و ۹۱-خطبه الأشباح-و ۱۰۹ و ۱۷۱).

هل أنّ الملائکه بتلک الأوصاف التی ذکرناها،موجودات مجرده أم مادیه؟ لا شکّ أنّ من غیر الممکن أن تکون الملائکه بهذه الأوصاف من هذه المادّه الکثیفه،و لکن لا مانع من أن تکون أجساما لطیفه الخلق،أجساما فوق هذه المادّه المألوفه لنا.

إثبات(التجرد المطلق)للملائکه من الزمان و المکان و الجزئیه،لیس بالأمر الهیّن،و الوصول إلی تلک النتیجه لیس وراءه کثیر فائده،المهمّ هو أن نعرف الملائکه بالصفات التی وردت فی القرآن و الروایات الثابته.و أنّها من الموجودات العلویه الراقیه عند اللّه فی مقامها و مکانتها،و لا نعتقد لها بغیر مقام العبودیه للّه سبحانه،و أن نعلم بأنّ الإعتقاد بأنّها شریکه مع اللّه فی أمر اللّه الخلق أو فی العباده کفر

ص: ۱۹

۱- ۱) -بحار الأنوار،ج ۵۹،ص ۱۷۵،ج ۶.

۲- ۲) -الصافات،۱۶۴-۱۶۶.

۳- ۳) -بحار الأنوار،المجلد ۵۹،صفحه ۱۷۴-حدیث ۴.

محض و شرك بيّن.

نكتفى بهذا القدر من التفصيل حول الملائكه و نوكّل التفاصيل الأكثر إلى الكتب التى كتبت بهذا الشأن.

و نرى فى الكثير من عبارات«التوراه»لدى الحديث عن الملائكه عباره «الآلهه»و هو تعبير مشرك و من علائم تحريف التوراه الحاليه،و لكن القرآن الكريم نقى من هذه التعبيرات،لأنّه لا يرى لها سوى مقام العبوديه و العباده للّه تعالى و إطاعه أوامره،و حتّى أنّ القرآن يصرّح فى بعض آياته يتفوّق الإنسان الكامل على الملائكه فى المرتبه و المقام.***

ص :٢٠

الآيات [سوره فاطر (۳۵): الآيات ۴ الى ۷]

اشاره

وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَ إِلَى اَللّٰهِ تُرْجَعُ اَلْأُمُورُ (۴) يٰا أَيُّهَا اَلنّٰاسُ إِنَّ وَعْدَ اَللّٰهِ حَقٌّ فَلاٰ تَغُرَّنَّكُمُ اَلْحَيٰاةُ اَلدُّنْيٰا وَ لاٰ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللّٰهِ اَلْغَرُورُ (۵) إِنَّ اَلشَّيْطٰانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمٰا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحٰابِ اَلسَّعِيرِ (۶) اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِيدٌ وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (۷)

التّفسير

اشاره

لا يغرنكم الشيطان و الدنيا

ينتقل القسم الثانى من هذه المجموعه من الآيات-و بعد أن كان الحديث حول توحيد الخالقيه و الرازقيه-إلى الحديث فى تفصيل البرامج العمليه للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يوجّه الخطاب إليه أوّلا،ثمّ لعموم الناس و بيان المناهج العمليه لهم بعد تفصيل البرامج العقائديه سابقا.

فى البدايه تقدّم الآيات للرسول درس الاستقامه على الصراط السوى،و الذى

ص :۲۱

هو أهمّ الـدروس له،فتقول الآيه الكريمه: وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فهؤلاء الرسل الذين سـبقوك قاوموا،و لم يهدأ لهم بال فى أداء رسالتهم، و أنت أيضا يجب أن تقف بصـلابه،و تؤدّى رسالتك،و البقيه بعهده اللّه. وَ إِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ فهو الناظر و الرقيب على كلّ شىء،و سوف يحاسب على جميع الأعمال.

فهو تعـالى لا يتغافل عن المشاق التى تتحمّلها فى هـذا الطريق،كما أنّه لن يترك هؤلاء المكـذّبين المخالفين المعانـدين يمضون دون عقاب،فقد يكون للقلق محلّ لو لم يكن ليوم القيامه وجود،أمّا مع وجود تلك المحكمه الإلهيه العظيمه،و تلك الكتابه لكلّ أعمال البشـر لذلك اليوم العظيم،فأىّ داع للقلق بعد؟ ثمّ تنتقل الآيات لتوضيح أهم البرامج للبشريه،فتقول الآيه الكريمه: إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ فالقيـامه و الحسـاب و الكتـاب و الميزان و الجزاء و العقـاب و الجنّه و النـار كلّهـا و عود إلهيه لا يمكن أن يخلفهـا اللّه تعالى.

و مع الانتبـاه إلى هـذه الوعود الحقّه: فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللّهِ الْغَرُورُ فلا ينبغى أن تخـدعكم الحياه الـدنيا،و لا يخدعكم الشيطان بعفو اللّه و رحمته..

أجـل،إنّ عوامـل الإثـاره،و زخـارف الـدنيا و زبارجهـا،إنّمـا تريـد أن تملأ قلوبكم، و تلهيكم عن تلك الوعود الإلهيّه العظيمه،و كـذلك فـإنّ شـياطين الجنّ و الإنـس دائمه السعى بوساوسـها و إغرائهـا و بمختلف وسائل الخـداع و الاحتيال،و هى أيضا تريد إلفات اهتمامكم إليها،و إلهائكم عن التفكير فى ذلك اليوم الموعود،فإن تمكّنت أضاليلهم و خـدعهم منكم،فقد ضاعت عليكم حيـاتكم بأكملهـا،و كـانت سـعادتكم و آمـالكم نقشا على الماء،فالحـذر الحـذر!! إنّ تكرار التنبيه للناس لكى لا يغترّوا بوساوس الشياطين أو بزخارف الدنيا- فى الحقيقه-إشاره إلى أنّ للذنوب طريقين للولوج إلى النفس الإنسانيه:

۱-مظاهر الدنيا الخدّاعه،كالجاه و المقام و المال و الكبرياء و أنواع الشهوات.

۲-الاـغترار بعفو اللّه و كرمه،و هنا فإنّ الشيطان يزيّن الـدنيا فى نظر الإنسان و يصوّرها له متاعا مباحا و محبّبا و جـذّابا و قيّما من جهه.

و من جهه اخرى فإنّه كلّما أراد الإنسان أن يتذكّر الآخره و محكمه العدل الإلهى و مقاومه الجاذبيه الشديده للدنيا و خدعها،فانّه يغريه بعفو اللّه و رحمته، فيدفعه بالنتيجه إلى التسويف و الطغيان و ارتكاب الذنوب.غافلا عن أنّ اللّه سبحانه مع كونه فى موضع الرحمه و«أرحم الراحمين»فهو تعـالى فى موضع العقوبه«أشـدّ المعاقبين»،فإنّ رحمته لا يمكن أن تكون أبـدا باعثا على المعصـيه، كما أنّ غضبه لا يمكن أن يكون سببا لليأس و القنوط.

«غرور»صـيغه مبـالغه بمعنى الخـدّاع أو المضـلّل غير العـادى،و الظـاهر أنّه إشـاره إلى جميع عوامل الإغواء و الخـداع،كما أنّه قد يكـون إشـاره إلى خصـوص الشـيطان.و إن كـان المعنى الثـانى أكـثر مناسـبه للآـيه الثـانيه،خـاصّه إذا علمنـا أنّ القرآن الكريم نسب«الغرور»إلى الشيطان فى آيات مختلفه.

بعض المفسّرين،لهم تحليل خاص هنا ملخّصه:أنّ الناس الذين يتعرضون لعوامل الخداع و الإغراء ثلاثه أصناف:

۱-صنف ضعيف و ليس له قدره بحيث أنّه يخدع بأبسط الحيل.

۲-صـنف أقوى من الأوّل،لا يخـدعون فقط بزخرف الـدنيا و زبرجها،بل مع ضمّ وساوس الشياطين الـذين يعملون على تحريك شهـواتهم و يهوّنـون لهـم مفاسـد أعمـالهم عنـدها يمكـن خداعهم.فالملـذّات الـدنيويه من جهه،و الوسـاوس الشـيطانيه من جهه اخرى،تدفعهم إلى ارتكاب أعمال قبيحه و سيّئه.

۳-أمّا الصنف الثالث و هو الأقوى و الأعلم،فهم لا يغترّون بأنفسهم و لا يمكن لأحد خداعهم.

و جمله فَلاٰ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيٰاةُ الدُّنْيٰا إشاره إلى الصنف الأوّل،و جمله

وَ لاٰ یَغُرَّنَّکُمْ بِاللّٰهِ الْغَرُورُ

إشاره إلی الصنف الثانی،و أمّا الصنف الثالث فهم مصداق قوله: إِنَّ عِبٰادِی لَیْسَ لَکَ عَلَیْهِمْ سُلْطٰانٌ (۱) .

الآیه التالیه تنذر و تنبّه جمیع المؤمنین فیما یخصّ مسأله وساوس الشیطان و مکائده و التی تعرّضت لها الآیه السابقه فتقول: إِنَّ الشَّیْطٰانَ لَکُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا .

تلک العداوه التی شرع بها الشیطان من أوّل یوم خلق فیه آدم علیه السّلام،و أقسم حین طرد من قرب اللّه و جواره بسبب عدم تسلیمه للأمر الإلهی بالسجود لآدم،أقسم و توعّد بأن یسلک طریق العداء لآدم و بنیه،و حتّی أنّه دعا من اللّه أن یمهله و یطیل فی عمره لذلک الغرض.

و قد التزم بما قال،و لم یفوّت أدنی فرصه لإبراز عدائه و إنزال الضربات بأفراد بنی آدم،فهل یصحّ منکم یا بنی آدم أن لا تعتبروه عدوّا لکم،أو أن تغفلوا عنه و لو لحظه واحده،فکیف الحال باتّباعه و اقتفاء خطواته،أو تعدونه ولیّا شفیقا و صاحبا ناصحا أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّیَّتَهُ أَوْلِیٰاءَ مِنْ دُونِی وَ هُمْ لَکُمْ عَدُوٌّ (۲) .

مضافا إلی أنّه عدو یهاجم من کلّ طرف و جانب،فهو نفسه«لعنه اللّه»یقول:

علی ما نقله القرآن الکریم: ثُمَّ لَآتِیَنَّهُمْ مِنْ بَیْنِ أَیْدِیهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَیْمٰانِهِمْ وَ عَنْ شَمٰائِلِهِمْ . (۳)

و هو یکمن لکم و یراکم و لا ترونه: إِنَّهُ یَرٰاکُمْ هُوَ وَ قَبِیلُهُ مِنْ حَیْثُ لاٰ تَرَوْنَهُمْ . (۴)

و مع ذلک،فهذا لا یعنی أنّکم لا تقدرون علی الدفاع عن أنفسکم أمام مکائده و وساوسه،فقد ورد عن أمیر المؤمنین(علیه أفضل الصلوات و السلام):أنّ اللّه

۱- ۱) -تفسیر الفخر الرازی،المجلّد ۲۶،ص ۵.

۲- ۲) -الکهف،۵۰.

۳- ۳) -الأعراف،۱۷.

۴- ۴) -الأعراف،۲۷.

سبحانه و تعالی أوصی موسی علیه السّلام أربع وصایا و طالبه بحفظها:

أولاهنّ ما دمت لا تری ذنوبک تغفر فلا تشتغل بعیوب غیرک! و الثانیه:ما دمت لا تری کنوزی قد نفذت فلا تهتم برزقک! و الثالثه:ما دمت لا تری زوال ملکی فلا ترج أحدا غیری! و الرابعه:ما دمت لا تری الشیطان میتا فلا تأمن مکره (۱) ! علی کلّ حال،فقد وردت فی آیات کثیره الإشاره إلی عداوه الشیطان لبنی آدم،و أطلقت علیه مرارا و تکرارا عباره عَدُوٌّ مُبِینٌ (۲) لذا یجب الحذر الدائم من هذا العدوّ.

فی آخر الآیه یضیف تعالی للتأکید أکثر: إِنَّمٰا یَدْعُوا حِزْبَهُ لِیَکُونُوا مِنْ أَصْحٰابِ السَّعِیرِ .

«حزب»فی الأصل بمعنی الجماعه التی لها فعالیه،و لکنّها تطلق عاده علی کلّ مجموعه تتبع برنامجا و هدفا خاصا.

و المقصود(بحزب الشیطان)أتباعه.

طبیعی أنّ الشیطان لا یمکنه إدخال أیّ أحد من الناس لیکون عضوا رسمیا فی حزبه و یقوده إلی جهنّم،فأعضاء حزبه هم الذین یتّصفون بالصفات المذکوره فی بعض الآیات القرآنیه..

*فهم الذین طوّقوا أنفسهم بطوق العبودیه للشیطان إِنَّمٰا سُلْطٰانُهُ عَلَی الَّذِینَ یَتَوَلَّوْنَهُ . (۳)

*و هم الذین

۱- ۱) -سفینه البحار،المجلد ۱،صفحه ۵۰۱-ماده ربع.

۲- ۲) -لاحظ الآیات ۱۶۱ و ۲۰۸ من سوره البقره،و الآیه(۱۴۲)من سوره الأنعام،و الآیه(۲۲)من سوره الأعراف،و الآیه(۵)سوره یوسف،و الآیه(۶۰)سوره یس،و الآیه(۶۲)من سوره الزخرف.

۳- ۳) -النحل،۱۰۰.

اِسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللّهِ أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ . (۱)

و الملفت للنظر أنّ القرآن الكريم ذكر«حزب اللّه»فى ثلاثه مواضع و كذلك ذكر «حزب الشيطان»فى ثلاثه مواضع أيضا،حتّى يتّضح من الذين يقيّدون أسماءهم فى حزب اللّه،و من هم أعضاء حزب الشيطان؟ و لكن من الطبيعى أنّ الشيطان يدعو حزبه إلى المعاصى و الذنوب و لوث الشهوات..إلى الشرك و الطغيان و الاضطهاد،و بالنتيجه إلى جهنّم و بئس المصير.

و سوف نستوفى الشرح حول خصائص«حزب اللّه»و خصائص«حزب الشيطان»فى تفسير الآيه(۲۲)من سوره«المجادله»إن شاء اللّه.

آخر آيه من هذه الآيات توضّح عاقبه«حزب اللّه»السعيده و خاتمه«حزب الشيطان»المريره،فتقول: اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَهٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ .

من الجدير بالملاحظه هنا أنّ القرآن الكريم اكتفى بذكر«الكفر»كسبب لاستحقاق العذاب،و لكنّه لم يكتف بذكر(الإيمان)وحده كسبب«للمغفره و الأجر الكبير»بل أردف مضيفا له«العمل الصالح».لأنّ الكفر وحده يكفى للخلود فى عذاب السعير،بينما الإيمان بدون العمل لا يكفى لتحقيق النجاه،فإنّهما مقترنان.

و قد ورد فى الآيه ذكر(المغفره)ثمّ ذكر«الأجر الكبير»بعدها،باعتبار أنّ (المغفره)تغسل المؤمنين فى البدء و تهيؤهم لتلقّى«الأجر الكبير».***

۱- ۱) -المجادله،۱۹.

الآيات [سوره فاطر (۳۵): الآيات ۸ الى ۱۰]

اشاره

أَ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اَللّٰهَ يُضِلُّ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ فَلاٰ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرٰاتٍ إِنَّ اَللّٰهَ عَلِيمٌ بِمٰا يَصْنَعُونَ (۸) وَ اَللّٰهُ اَلَّذِي أَرْسَلَ اَلرِّيٰاحَ فَتُثِيرُ سَحٰاباً فَسُقْنٰاهُ إِلىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنٰا بِهِ اَلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا كَذٰلِكَ اَلنُّشُورُ (۹) مَنْ كٰانَ يُرِيدُ اَلْعِزَّةَ فَلِلّٰهِ اَلْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ اَلْكَلِمُ اَلطَّيِّبُ وَ اَلْعَمَلُ اَلصّٰالِحُ يَرْفَعُهُ وَ اَلَّذِينَ يَمْكُرُونَ اَلسَّيِّئٰاتِ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِيدٌ وَ مَكْرُ أُولٰئِكَ هُوَ يَبُورُ (۱۰)

التّفسير

إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصّٰالِحُ يَرْفَعُهُ

:

ممّا مرّ من تقسيم الناس إلى مجموعتين«المجموعه المؤمنه»و«المجموعه الكافره»أو«حزب اللّه»و«حزب الشيطان»،تنتقل هذه الآيات إلى بيان إحدى الخصائص المهمّه لهاتين المجموعتين و التي هي في الواقع المصدر لسائر برامجهما.

ص: ۲۷

تقول الآیه الاولی: أَ فَمَنْ زُیِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً کمن یری الحقائق کما هی من حیث الحسن و القبح؟! فی الحقیقه إنّ هذه القضیّه هی المفتاح لکلّ مصائب الأقوام الضالّه و المعانده، الذین یرون أعمالهم القبیحه أعمالا جمیله،و ذلک لانسجامها مع شهواتهم و قلوبهم المعتمه.

بدیهی أنّ شخصا کهذا،لا یتقبّل نصیحه،و لیس لدیه الاستعداد لسماع النقد و لیس بحاضر أبدا لتغییر مسیره.کما أنّه لا یناقش أعماله و لا یفکّر بعواقبها الوخیمه.

و أدهی من ذلک و أمرّ أنّهم حینما یدور حدیث حول المحسنین و المسیئین، یعتقدون بأنّ الضمیر فی الأوّل یعود علیهم،بینما یعود فی المسیئین علی المؤمنین الصلحاء! و العجب من هؤلاء الکفّار المعاندین أنّهم عند ما یسمعون هذه الآیات تتلی علیهم و هی تتحدّث عن حزب الشیطان و مصیرهم الأسود طبّقوا ذلک علی المؤمنین الصالحین،و عدّوا أنفسهم مصداقا لحزب اللّه!! و تلک مصیبه و فاجعه عظیمه! أمّا من الذی زیّن سوء أعمال هؤلاء فی أنظارهم؟هل هو اللّه،أم هوی النفس، أم الشیطان؟ ممّا لا شکّ فیه أنّ العامل الأصلی لذلک هو الهوی و الشیطان،و لکن لأنّ اللّه هو الخالق لذلک الأثر فی أعمالهم،فیمکن نسبه ذلک إلی اللّه تعالی،لأنّ الإنسان و فی بدایه طریق المعاصی یشعر بعدم الارتیاح حین ارتکاب المعصیه،لسلامه فطرته و حیویه وجدانه و سلامه عقله،و لکن بتکرار تلک الأعمال یقلّ عدم الارتیاح إلی أن یصل إلی درجه عدم الاکتراث.ثمّ إذا استمرّ فی ذلک الطریق یمسی القبیح جمیلا فی نظره،حتّی یصل إلی أن یتوهّم أنّ ذلک من مفاخره و فضائله،و الحال أنّه

يغطّ فی برکه آسنه من التعاسه و الشقاء.

و الملفت للنظر أنّ القرآن عند ما یتساءل أَ فَمَنْ زُیِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ... .

لا یتعرّض إلی ما یقابل ذلک صراحه،و کأنّه یرید أن یفسح المجال أمام المستمع لکی یتصوّر أمورا مختلفه یمکنها أن تکون ما یقابل ذلک و یفهم أکثر و أکثر،و کأنّه یرید أن یقول:هل أنّ شخصا کهذا هو کمن أبصر الحقیقه؟ هل أنّ شخصا کهذا کمن هو نقی القلب و مشغول دوما بمحاسبه نفسه؟.

و هل أنّ هناک أملا بالنجاه لهکذا شخص (۱) ؟.

ثمّ یضیف القرآن موضّحا علّه الفرق بین الفریقین فیقول: فَإِنَّ اللّٰهَ یُضِلُّ مَنْ یَشٰاءُ وَ یَهْدِی مَنْ یَشٰاءُ .

فإذا زیّنت الأعمال السیّئه بنظر المجموعه الاولی،فإنّ ذلک نتیجه الإضلال الإلهی،فاللّه سبحانه و تعالی هو الذی جعل تلک الخاصیه فی النفس البشریه عند تکرارها للأعمال السیّئه،بأن تتطبّع علیها و تعتادها و تنسجم معها و تنطبع بطبیعتها.

و هو سبحانه الذی أعطی للمؤمنین الطاهری القلوب نفاذ البصر و البصیره، و سمعا واعیا لإدراک الحقائق کما هی.

و واضح أنّ هذه المشیئه الإلهیّه توأم لحکمته تعالی،و إنّما تعطی لکلّ ما یناسبه.

لذا فإنّ الآیه تضیف فی الختام: فَلاٰ تَذْهَبْ نَفْسُکَ عَلَیْهِمْ حَسَرٰاتٍ و هذا التعبیر یشابه ما ورد فی الآیه(۳)من من سوره الشعراء: لَعَلَّکَ بٰاخِعٌ نَفْسَکَ أَلاّٰ یَکُونُوا مُؤْمِنِینَ (۲) .

التعبیر ب«حسرات»الذی هو«مفعول لأجله»لما قبله فی الجمله، إشاره إلی أنّه لیس عندک علیهم حسره واحده،بل حسرات:

۱- ۱) -من هنا یتّضح أنّ فی الآیه جمله مقدّره یمکن أن تکون«...کمن لیس کذلک،أو کمن یحاسب نفسه و یری سوء عمله سیّئا...أو:هل یرجی له صلاح أو متاب»و هکذا.

۲- ۲) -ذکر أیضا لهذه الآیه تفسیر آخر،و هو أنّ المقصود منها مخاطبه الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بأن لا یتألّم من شدّه أذی و مخالفات هؤلاء،إذ أنّ اللّه مطّلع علی أعمالهم تماما و سینتقم منهم فی الوقت المناسب.

«حسره»على تضييع نعمه الهدايه.«حسره»على تضييع جوهر الإنسانيه، «حسره»على تضييع حاسّه التشخيص إلى حدّ رؤيه القبيح جميلا،و أخيرا «حسره»على الوقوع فى نار الغضب و القهر الإلهى.

و لكن لماذا لا ينبغى أن تتحسّر عليهم؟!ذلك لأجل إِنَّ اللّٰهَ عَلِيمٌ بِمٰا يَصْنَعُونَ .

واضح من نبره الآيه شدّه تحرّق الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم على الضّالين و المنحرفين، و كذلك هى حال القائد الإلهى المخلص يتألّم لعدم تقبّل الناس الحقّ و تسليمهم للباطل،و ضربهم بكلّ أسباب السعاده عرض الجدار،إلى حدّ كأنّ روحه تريد أن تفارق بدنه.

و استنادا إلى البحوث التى سبقت حول الهدايه و الضلاله و الإيمان و الكفر، تنتقل الآيه التاليه إلى بحث المبدأ و المعاد بعبارات مضغوطه،و تقرن آيات المبدأ بإثبات المعاد بدليل واحد ملفت للنظر،تقول الآيه الكريمه: وَ اللّٰهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيٰاحَ فَتُثِيرُ سَحٰاباً فَسُقْنٰاهُ إِلىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنٰا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا كَذٰلِكَ النُّشُورُ . (1)

نظام دقيق يتحكّم فى حركه الرياح،ثمّ فى حركه السحاب،ثمّ فى نزول قطرات المطر الباعثه للحياه،ثمّ فى حياه الأرض الميته،و هو أحسن دليل على أنّ يد القدره الحكيمه هى من وراء ذلك النظام تقوم على تدبير أموره.

أوّلا،تؤمر الرياح الحاره بالتحرّك من المناطق الإستوائيه إلى المناطق البارده، و فى مسيرها تحمل معها بخار الماء من البحار و تطلقه فى السماء،بعدئذ تتحرّك بجريانات منظّمه للبرد القطبى الذى يعاكس دوما اتّجاه الحركه الأوّل،و تؤمر بتجميع البخار الحاصل لتشكيل الغيوم.

---

1 - 1) -ذكر المفسّرون وجوها مختلفه لتفسير ظاهره التنويع فى الأفعال و الضمائر فى الجمله،ف«أرسل»فعل ماض فى حين«فتثير»فعل مضارع،و الضمير فى الأوّل غائب بينما فى«فسقناه»متكلّم،و قد أشحنا عن ذكرها لما بدا من عدم دقّتها،و يمكن أن يكون ذلك للتفنّن فى البيان و التنويع فى الحديث.

ثمّ تؤمر نفس تلك الريح بحمل تلك الغيوم و إرسالها إلى الصحارى الميته، لتلقى قطرات المطر الباعثه للحياه فيها.

بعد ذلك-بشروط خاصّه-تؤمر الأرض و البذور التى نثرت عليها بقبول الماء و النمو و الاخضرار،و من موجودات حقيره و عديمه القيمه ظاهرا تنبت موجودات حيّه و كثيره التنوّع و الجمال،طريّه خضراء،مفيده و مثمره..تدلّل بدورها على قدرته سبحانه و تعالى،و تشهد على حكمته،و تكون نموذجا من البعث الكبير.

فى الحقيقه إنّ الآيه أعلاه تدعو إلى التوحيد فى عدّه جوانب:

«برهان النظم»دليل على الوحدانيه،و«الحركه»تقتضى وجود محرّك لكلّ متحرّك، و من جانب آخر فإنّ النعم تدعو إلى شكر المنعم فطريا.

و كذلك فهى دليل على مسأله المعاد من جهات أيضا:

فتكامل الموجودات فى حركتها و مسارها و انبعاث الحياه من الأرض الميته تقول للإنسان:أيّها الإنسان إنّك ترى مشهد المعاد فى فصول كلّ عام أمام ناظريك و تحت قدميك.

من اللازم أيضا الالتفات إلى أن(تثير)من مادّه(إثاره)بمعنى النشر و التفريق، و هى إشاره إلى أنّ توليد الغيوم ناتج عن هبوب الرياح على سطح المحيطات،لأنّ مسأله حركه الغيوم وردت فى الجمله التى بعدها فَسُقْنٰاهُ إِلىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ .

و اللطيف ما نقرأ

فى حديث عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حين سأله أحد الصحابه قائلا:يا رسول اللّه،كيف يحيى اللّه الموتى،و ما آيه ذلك فى خلقه؟ قال:«أما مررت بوادى أهلك ممحلا ثمّ مررت به يهتزّ خضرا»؟ قلت:نعم!يا رسول اللّه.

قال:«فكذلك يحيى اللّه الموتى،و تلك آيته فى خلقه» (۱) .

۱- ۱) -تفسير القرطبى،ج ۸،ص ۵۴۰۹،الآيه مورد الحديث.

و لنا بحث آخر حول نفس الموضوع أوردناه عند تفسير الآيه(۴۸)من سوره الروم.

الآن،و بعد هذا المبحث التوحيدى،تشير الآيه إلى الاشتباه الخطير الذى وقع فيه المشركون لاعتقادهم بأنّ العزّه تأتيهم من أصنامهم،و بأنّ الإيمان بالرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سيكون سببا فى تخطّف الناس إيّاهم إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنٰا . (۱) فتقول الآيه: مَنْ كٰانَ يُرِيدُ الْعِزَّهَ فَلِلّٰهِ الْعِزَّهُ جَمِيعاً .

«العزّه»:على ما يقول الراغب فى مفرداته:حاله مانعه للإنسان من أن يغلب..

من قولهم:أرض عزاز،أى صلبه.

و لأنّ اللّه سبحانه و تعالى هو الذات الوحيده التى لا تغلب،و جميع المخلوقات بحكم محدوديتها قابله لأن تغلب،و عليه فإنّ العزّه جميعها من اللّه،و كلّ من اكتسب عزّه فمن بحر عزّته اللامتناهى.

فى حديث ينقل عن أنس عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «إنّ ربّكم يقول كلّ يوم:

أنا العزيز،فمن أراد عزّ الدارين فليطع العزيز».

و فى الحقيقه إنّ الإنسان العاقل يجب أن يتزوّد بالماء من منبعه،لأنّ الماء الصافى و الوافر متوفّر هناك،لا فى الأوانى الصغيره المحدوده أو الملوّثه فى يد هذا و ذاك.

و

فى حديث عن الإمام الحسن بن على عليهما السّلام نقرأ بأنّ«جناده بن أبى أميّه»قال:

دخلت على الحسن بن على بن أبى طالب عليهما السّلام فى مرضه الذى توفّى فيه و بين يديه طست يقذف عليه الدم و يخرج كبده قطعه قطعه،من السم الذى سقاه معاويه (لعنه اللّه)،فقلت:يا مولاى ما لك لا تعالج نفسك؟ فقال:«يا عبد اللّه،بماذا أعالج الموت؟ قلت: إِنّٰا لِلّٰهِ وَ إِنّٰا إِلَيْهِ رٰاجِعُونَ .

۱- ۱) -القصص،۵۷.

ثمّ التفت إلىّ و قال:ضـمن وصايا عديده:«..و إذا أردت عزّا بلا عشـيره،و هيبه بلا سلطان،فاخرج من ذلّ معصيه اللّه إلى عزّ طاعه اللّه عزّ و جلّ»...الحديث.

و لو لا حظنا بعض الآيات الكريمه فى القرآن،فإنّها تذكره العزّه للّه و لرسوله و للمؤمنين وَ لِلّٰهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ . (۱) إذ أنّ الرّسول و المؤمنين اكتسبوا عزّتهم من شعاع عزّه البارى عزّ و جلّ،و ساروا فى طريق طاعته.

ثمّ توضّح الآيه طريق الوصول إلى(العزّه)فيقول تعالى: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصّٰالِحُ يَرْفَعُهُ .

اَلْكَلِمُ الطَّيِّبُ

:طيّب بمحتواه،و ذلـك لأجـل المفـاهيم التى تنطبق على الواقع العينى الظـاهر المشـرق،و مـا هو أطهر و أكثر واقعيه من ذات اللّه تعالى،و مرآه حقّه و عدالته،و هؤلاء الصـلحاء الذين يسـلكون طريق نشـر ذلك؟ لذا فقد فسّر«الكلم الطيّب»بأنّه العقائد الصحيحه فيما يخصّ المبدأ و المعاد و النبوّه،نعم..فعقيده صحيحه هكذا تصعد إلى اللّه،و تجعل المعتقد بها يحلق هو الآخر،حتّى يكون فى قرب جوار الحقّ تعالى،و تغمره فى عزّه اللّه ليكون عزيزا.

بـديهى أن ينبت من هـذا الجـذر الطاهر،ساق و فروع،ثمرها العمل الصالـح،و كلّ عمل لائق و بنّاء و مفيد،سواء كانت دعوه إلى الحقّ،أو حمـايه لمظلوم، أو جهـادا للظلم و الطغيـان،أو تقويم النفس و العباده،أو تعلّم،و بالجمله فكلّ عمل خير يـدخل فى هـذا المفهوم الشامل الواسع،إذا كان لأجله سـبحانه-فقط-و لأجل كسب رضاه فهو يصعد إليه،و يعرج فى سماء لطفه سبحانه و يكون سببا فى تكامل و معراج صاحبه حتّى يجعله أهلا للتعزّز بعزّه الحقّ تعالى.

و ذلك هو ما أشارت إليه الآيه(۲۴)من سوره إبراهيم: أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهٰا ثٰابِتٌ وَ فَرْعُهٰا فِي السَّمٰاءِ تُؤْتِي أُكُلَهٰا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهٰا .

۱- ۱) -المنافقون،۸.

و ممّا ذكرنا،يتّضح أنّ ما قال به بعض المفسّرين من أنّ«الكلمه الطيّبه»هی«لا إله إلاّ اللّه»أو«سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلاّ اللّه و اللّه أكبر»أو«إثبات الرساله للرسول محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الولایه و الخلافه لعلی علیه السّلام بعد التوحید»أو ما ورد فی بعض الروایات من أنّ«الكلم الطیّب»و«العمل الصالح»هو«ولایه أهل البیت علیهم السّلام»أو أمثال هذه التفاسیر،فإنّها جمیعا من قبیل بیان المصادیق الأكثر وضوحا لذلك المفهوم الواسع الشامل،و لیس من قبیل وضع الحدود لذلك المفهوم.إذ أنّ كلّ كلام طیّب و صالح المحتوی یدخل تحت هذا العنوان.

علی كلّ حال هو اللّه سبحانه و تعالی الذی یحیی الأرض المیته بقطرات المطر -بمقتضی الآیه السابقه-هو سبحانه الذی ینمی«الكلام الطیّب»و«العمل الصالح»و یوصله إلی جوار قربه تعالی.

ثمّ تنتقل الآیه إلی ما یقابل كلّ ذلك فتقول: وَ الَّذِینَ یَمْكُرُونَ السَّیِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِیدٌ وَ مَكْرُ أُولئِكَ هُوَ یَبُورُ .

فمع أنّ هؤلاء الفاسدین المفسدین توهّمون أنّهم بالظلم و الكذب و التزویر یستطیعون كسب العزّه و المال و الثروه و القدره،إلاّ أنّهم فی النهایه یضعون أنفسهم فی قبضه العذاب الإلهی من جهه،و كلّ جهودهم تذهب أدراج الریاح من جهه اخری.

أشخاص قال عنهم القرآن: وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّهِ آلِهَهً لِیَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (۱) .

و منافقون اعتقدوا بعزّتهم،و ذلّه المؤمنین یَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَی الْمَدِینَهِ لَیُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ . (۲)

و آخرون اعتقدوا بأنّ القرب من الفراعنه سبب لعزّتهم،و أراد غیرهم الكرامه بالظلم و الاضطهاد،لكنّهم یتساقطون دوما،و الإیمان و العمل الصالح فقط هو

۱- ۱) -مریم،۸۱.

۲- ۲) -المنافقون،۸.

الـذى يصـعد إلى اللّه سبحانه! (مكر):مع أنّ هـذه الكلمه لغويـا بمعنى التفكّر فى حـلّ المشـكل،و لكنّها جاءت فى موارد كثيره بمعنى التفكّر بالحلّ مع اقترانها بالإفساد،كما فى هذه الآيه.

(السـيّئات):كـلّ القبائـح و المـذمومات،أعـمّ مـن القبائـح الاعتقـاديه أو العمليـه،و مـا ذكره بعض المفسّـرين مـن أنّ المعنى هو المؤامرات التى قـام بهـا المشـركون لقتـل رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أو إبعاده عن مكّه،فليس هو إلاّ أحـد مصاديق الكلمه دون مفهومها العامّ.

جمله«يبور»من مادّه«بوار»و«بوران»فى الأصل بمعنى الكساد المفرط، و لأنّ مثل هـذا الكساد يكون سـببا للهلاك،فقد اسـتخدمت هذه الكلمه للتعبير عن الهلاك و الفناء،و كما قيل«كسد حتّى فسد».***

ملاحظتان

اشاره

١-العزّه جميعا من اللّه عزّ اسمه

ما هى حقيقه العزّه؟هل هى سوى بلوغ مرحله المنعه؟و إن كان كذلك فأين يجب البحث عن العزّه؟و أى شىء يمكنه أن يعطى للإنسان العزّه؟!.

يتّضـح لنـا بالتحليـل أنّ حقيقـه العزّه بالـدرجه الأولى-قـدره تتجلّى فى قلب و روح الإنسـان،و تبعـده عن الخضـوع و التسـليم و الاستسلام أمام الطغاه و العصاه، قدره بامتلاكها لا يخضع الإنسان للشهوات أبدا،و لن يجد الهوى و الهوس طريقا للتسلّط عليه.

قدره ترتقى به إلى مستوى الصلابه أمام تأثير زخارف الدنيا.

فهل أنّ هذه القدره لها منبع آخر غير الايمان باللّه،أى الارتباط بالمنبع الأصلى للقدره و العزّه؟

هـذا فی مرحله الفکر و الإعتقـاد و الروح،أمّـا فی مرحله العمل فإنّ«العزّه»تنبع من الأعمال السـلیمه الأصل و الـدقیقه الأسـلوب،و بتعبیر آخر یمکن تلخیص ذلک ب«العمل الصالح»هذان الاثنان یعطیان الإنسان العظمه و الرفعه و العزّه و المنعه.

«السحره»المعاصرون لفرعون،شرعوا بحیلهم باسم فرعون و بعزّته وَ قٰالُوا بِعِزَّهِ فِرْعَوْنَ إِنّٰا لَنَحْنُ الْغٰالِبُونَ . (۱)

و لکنّهـم هزمـوا بســرعه أمـام عصـــی موســی علیـه السّـلام. و بمجرّد أن خرجـوا مـن ذلّـه فرعـون،و لجـأوا إلی ظـلّ التوحیـد و آمنوا،أصـبحوا أقویاء لا یمکن هزیمتهم بحیث لم تؤثّر بهم أشـدّ تهدیـدات فرعون،و قـدّموا أیـدیهم و أرجلهم و حتّی أرواحهم العاشـقه الوالهه و تجرّعوا کأس الشـهاده،و دلّلوا بـذلک العمل علی عدم استسـلامهم أمام الترغیب و الترهیب،و عدم انهزامهم،و أصبح تأریخهم الیوم بالنسبه لنا عالما من الدروس البلیغه.

۲-الفرق بین«الکلام الطیّب»و«العمل الصالح»

قـد یطرح سـؤال هـو:لمـاذا تقـول الآـیه السـالفه الـذکر حـول«الکلاـم الطیّـب» إِلَیْهِ یَصْعَدُ الْکَلِمُ الطَّیِّبُ بینمـا بالنسـبه إلی«العمل الصالـح»قـالت وَ الْعَمَلُ الصّٰالِحُ یَرْفَعُهُ ؟ یمکن الإجابه علی هـذا السؤال بأنّ«الکلم الطیّب»إشاره إلی الإیمان و الإعتقاد السـلیم،و ذلک هو عین الصـعود إلی اللّه،و حقیقه الإیمان لیس سوی ذلک،و لکن«العمل الصالـح»الذی یتقبّله اللّه تعالی و یضاعف الأجر علیه،و یعطیه الدوام و البقاء ثمّ یرفعه(دقّق النظر)!!.***

ص:۳۶

۱- ۱) -الشعراء،۴۴.

الآیتان [سوره فاطر (۳۵): الآیات ۱۱ الی ۱۲]

اشاره

وَ اَللّٰهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوٰاجاً وَ مٰا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثىٰ وَ لاٰ تَضَعُ إِلاّٰ بِعِلْمِهِ وَ مٰا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لاٰ يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاّٰ فِى كِتٰابٍ إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اَللّٰهِ يَسِيرٌ (۱۱) وَ مٰا يَسْتَوِى اَلْبَحْرٰانِ هٰذٰا عَذْبٌ فُرٰاتٌ سٰائِغٌ شَرٰابُهُ وَ هٰذٰا مِلْحٌ أُجٰاجٌ وَ مِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهٰا وَ تَرَى اَلْفُلْكَ فِيهِ مَوٰاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۱۲)

التّفسیر

اشاره

و ما یستوی البحران!!

مع الالتفات إلی ما کان من حدیث فی الآیات السابقه حول التوحید و المعاد و صفات اللّه،تتعرّض هذه الآیات أیضا إلی قسم آخر من آیات«الأنفس و الآفاق»التی تدلّل علی قدره اللّه من جانب،و علی علمه من جانب آخر،و قضیّه إمکانیه المعاد من جانب ثالث.

ص: ۳۷

فی البدایه تشیر إلی خلق الإنسان فی مراحله المختلفه فتقول: وَ اللّٰهُ خَلَقَکُمْ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَهٍ ثُمَّ جَعَلَکُمْ أَزْوٰاجاً .

و هذه ثلاث مراحل من مراحل خلق الإنسان:الطین-و النطفه-و مرحله الزوجیه.

بدیهی أنّ الإنسان من التراب،إذ أنّ آدم علیه السّلام خلق من تراب،کما أنّ جمیع المواد سواء التی یتشکّل منها جسم الإنسان،أو التی یتغذّی علیها،أو التی تنعقد منها نطفته،جمیعها تنتهی إلی مواد هی ذاتها التی یحتویها التراب.

احتمل البعض أنّ الخلق من التراب،إشاره إلی الخلق الأوّل فقط،أمّا الخلق من النطفه فهو إشاره إلی المراحل التالیه التی أوّلها مرحله الخلقه الإجمالیه للبشر (بلحاظ أنّ وجود الجمیع یتلخّص بوجود آدم علیه السّلام)و ثانیها المرحله التفضیلیه بانفصال الإنسان من الآخر.

و علی کلّ حال فإنّ مرحله«الزوجیه»هی مرحله إدامه نسل الإنسان و حفظ نوعه،و أمّا ما احتمله البعض من أنّ معنی«أزواجا»هنا«الأصناف»أو«الروح و الجسم»و أمثالها،فیبدو بعیدا.

ثمّ ینتقل إلی المرحله الرابعه و الخامسه،«حمل النساء»و«الولاده»فیقول تعالی: وَ مٰا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثیٰ وَ لاٰ تَضَعُ إِلاّٰ بِعِلْمِهِ .

نعم،الحمل و التحوّلات و التغیّرات المذهله و المعقّده فی الجنین،ثمّ بلوغ مرحله وضع الحمل و الاضطرابات و التغیّرات المحیّره للامّ من جهه،و للجنین من جهه ثانیه،بشکل و بمقدار منظّم و دقیق لا یمکن تعقّله بدون إسناده إلی العلم الإلهی اللامتناهی،فلو أصیب النظام الذی یحکم هذه العملیه باختلال و لو بمقدار رأس الإبره لأدّی إلی عسر أو اختلال الحمل أو عملیه الولاده،ثمّ إلی ضیاع الجنین و هلاکه.

هذه المراحل الخمس من حیاه الإنسان،إحداها أعجب من الاخری و أکثر

إثـاره للـدهشه.فأين الثرى من الثريّا..أين ذلك التراب الميّت الجامـد من الإنسان الحى العاقل الفطن المبتكر؟!و أين تلك النطفه الحقيره التى تتكوّن من بضع قطرات من المـاء المتعفّن من ذلـك الإنسان الراشـد الجميل و المجهّز بالحواس و الأجهزه العضويه المختلفه (۱) .

بعد هذه المرحله،تأتى مرحله تقسيم النوع البشرى إلى جنسين«المذكّر»و «المؤنّث»بالفروقات الكثيره فى الجسم و الروح،و الأمور الفسـلجيه التى تبـدأ بالتحدّد منذ اللحظات الاولى لانعقاد النطفه،و اتّخاذ مسـيرها الخاص و التكامل فى كلّ جنس باتّجاه الرساله التى انيطت به.

ثمّ تظهر مسـأله رسـاله الامّ فى قبول و تحمّـل ذلـك الحمـل و حفظه و تغـذيته و تربيته و التى حيّرت العلماء لقرون طويله،حتّى اعترفوا بأنّها من أعجب مسائل الوجود.

و آخر مرحله فى هذا المسير هى مرحله الولاده،و هى مرحله تحوّل كامل تقترن بعجائب كثيره.

فما هى العوامل التى تدفع الجنين إلى الخروج من بطن امّه؟ كيف يتمّ التنسيق بين هذا الأمر و بين إعداد جسم الامّ لتحقّق ذلك الأمر؟ كيف يتمكّن الجنين بعد تعوّده على وضع ما لمدّه تسعه أشهر،أن يلبس وضعا جديدا و يطبّق كلّ مفرداته الجديده بلحظه واحـده،ففى لحظه واحـده يقطع صـلته بامّه،و يتنفّس الهواء الطلق!يتناول طعامه من فمه بـدلا من الحبل السـرّى!يخرج إلى محيط غارق فى النور و الإشـراق بـدلا من محيط بطن امّه المظلم؟! أ ليست هـذه أعظم الـدلائل على قدره اللّه و علمه اللامحدودين؟ و هل أنّ هذه المادّه الجامده الميته و هذه الطبيعه غير الهادفه يمكنها أن تنظّم

۱- ۱) -«نطفه»كما ذكرنا سابقا،فى الأصل بمعنى«الماء»أو بالأخصّ«الماء القليل الصافى»ثمّ أطلقت لهذا السـبب على الماء القليل الذى هو مبدأ انعقاد الجنين.

حلقه واحده صغيره من آلاف الحلقات فى سلسله الخلق بالاستفاده من المصادفات العمياء؟ فيا للأسف كيف يتعقّل الإنسان مثل هذا الاحتمال الموهوم فيما يخصّ خلقته؟! ثمّ..تشير الآيه إلى المرحلتين السادسه و السابعه من هذا البرنامج المذهل بانتقالها إلى حلقه اخرى،فتذكر مراحل العمر المختلفه و العوامل المؤثّره فى زيادته و نقصانه فتقول الآيه الكريمه: وَ مٰا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لاٰ يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاّٰ فِى كِتٰابٍ (١) و يخضع لقوانين و مناهج مدروسه يتحكّم فيها علم اللّه و قدرته المطلقه.

فما هى العوامل المؤثّره فى إدامه حياه الإنسان؟و ما هى العوامل التى تهدّد إدامتها؟ و باختصار ما هى العوامل التى يجب أن تتظافر مع بعضها حتّى يستطيع الإنسان أن يعمّر مائه سنه أو أكثر أو أقل؟و أخيرا ما هى العوامل الموجبه لتفاوت أعمار الناس؟كلّ ذلك له حسابات دقيقه و معقّده لا يعلمها إلاّ اللّه.و ما نعلمه نحن اليوم حول هذه الموضوعات بالقياس إلى ما لا نعلمه يعتبر شيئا تافها.

«معمّر»من مادّه«عمر»فى الأصل من«العماره»نقيض الخراب،و العمر اسم لمدّه عماره البدن بالحياه خلال مدّه معيّنه.

«معمر»أى الشخص الطويل العمر.

و أخيرا تختم الآيه بهذه الجمله إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللّٰهِ يَسِيرٌ .

فخلق هذا الموجود العجيب من التراب،و بدء خلق إنسان كامل من«ماء النطفه»و كذلك المسائل المرتبطه بتحديد الجنس،ثمّ الزوجيه،و الحمل،و الولاده،

۱- ۱) -المقصود من«الكتاب»هو العلم الإلهى اللامحدود،و ما ذكره البعض من أنّه«اللوح المحفوظ»أو«صفحه حياه الإنسان»يعود بالنتيجه إلى ذلك العلم الإلهى.

و زياده أو نقص العمر سواء بلحاظ القدره أو بلحاظ العلم و الحسابات كلّها بالنسبه إليه تعالى سهله و بسيطه.و ذلك بمجموعه يمثّل جانبا من«آيات الأنفس»التى تربطنا ببدايه عالم الوجود و التعرّف عليه من جهه،كما تعتبر أدلّه حيّه على مسأله إمكانيه المعاد من جهه اخرى.

فهل أنّ القادر على الخلق الأوّل من التراب و النطفه غير قادر على إعاده الحياه للناس مرّه اخرى!؟ و هل أنّ العالم بكلّ دقائق و تفاصيل الأمور المرتبطه بتلك القوانين،يواجه مشكله فى حفظ أعمال العباد ليوم المعاد.

تشير الآيه التاليه-التى تعتبر قسما آخر من آيات الآفاق الدالّه على عظمته و قدرته سبحانه و تعالى-إلى خلق البحار و بركاتها و فوائدها،فتقول الآيه الكريمه: وَ مٰا يَسْتَوِى الْبَحْرٰانِ هٰذٰا عَذْبٌ فُرٰاتٌ سٰائِغٌ شَرٰابُهُ وَ هٰذٰا مِلْحٌ أُجٰاجٌ (١) .

فمع أنّ كلا البحرين فى الأصل كانا بصوره قطرات من الماء الصافى و السائغ نزلت من السماء إلى الأرض،و أنّ كليهما من أصل واحد،إلاّ أنّهما يظهران على هيئتين متفاوتين تماما بشكل كامل و بفوائد متفاوته أيضا.

و العجيب أنّ الإنسان يحصل على السمك الطازج من كلّ منهما: وَ مِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهٰا علاوه على إمكانيه الإفاده من كليهما للنقل و الانتقال وَ تَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوٰاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

تأمّل الأمور التاليه:

١-«فرات»:على ما ذكر فى لسان العرب هو الماء العذب جدّا.

١- ١) -«عذب»كما يذكر الراغب فى مفرداته بمعنى«الماء النقى البارد»و فى لسان العرب بمعنى:«الماء الطيّب»، و يمكن أن يكون النقى و البارد داخلان فى مفهوم«الطيّب».

«سائغ»:الماء الذی یستمرأ بسهوله لعذوبته،علی عکس الماء المالح-أو الأجاج-و هو الماء المرّ الذی یمجّه الإنسان.

۲-بعض المفسّرین قالوا بأنّ هذه الآیه مثال للفرق بین المؤمن و الکافر،و لکن الآیات السابقه و اللاحقه لها،و التی تتحدّث عن الخلقه،و حتّی نفس هذه الآیه، شاهده علی حقیقه أنّ هذه الجمله أیضا تبحث فی أسرار التوحید،و تشیر إلی تنوّع المیاه و آثارها المتفاوته و فوائدها المشترکه.

۳-ذکرت الآیه ثلاث فوائد من فوائد البحار الکثیره و هی:المواد الغذائیه، و وسائل الزینه،و مسأله الحمل و النقل.

و نعلم بأنّ البحر یشکّل منبعا مهمّا من المنابع الغذائیه للبشر،و کلّ عام یستخرج منه ملایین الأطنان من اللحوم الطازجه،بدون أن یتحمّل الإنسان فی سبیل ذلک تعبا أو مشقّه،فإنّ نظام التوازن فی الطبیعه یشتمل علی برنامج دقیق محسوب بحیث یستطیع الناس الإفاده من تلک المائده الإلهیّه بدون اعتراض و بأقل زحمه و مشقّه.

کذلک یستخرج من البحار أیضا وسائل الزینه المختلفه من أمثال(اللؤلؤ- و المرجان-و الصدف-و الدرّ)،و ترکیز القرآن علی ذکر هذه المسأله لأنّ روح الإنسان تختلف عن الحیوان باحتوائها علی أبعاد مختلفه منها«الحسّ الجمالی» الذی هو منبع ظهور جمیع المسائل الذوقیه و الفنیّه و الأدبیه التی یؤدّی إشباعها بصوره صحیحه بعیدا عن الإفراط و التفریط و الإسراف و التبذیر إلی إشاعه السرور فی النفس،و إعطاء الإنسان النشاط و الهدوء،و تساعد الإنسان علی إنجاز أعمال الحیاه الشاقّه.

و أمّا مسأله الحمل و النقل و التی تعدّ واحده من أهم أسس التمدّن الإنسانی و الحیاه الاجتماعیه،فمع ملاحظه أنّ البحار تشکّل القسم الأعظم من الکره الأرضیه و أنّها مرتبطه مع بعضها،فإنّها تستطیع أن تقدّم للإنسان أهمّ الخدمات

بهذا الخصوص.إذ أنّ البضائع التی یتمّ حملها و نقلها عبر البحار،و کذا أعداد المسافرین الذین یتمّ نقلهم من مکان إلی آخر،علی درجه من الکثره بحیث لا یمکن مقایستها مع أیّه من وسائل النقل الاخری،و علی سبیل المثال فإنّ سفینه واحده تستطیع حمل عشرات الآلاف من السیارات علی ظهرها (۱) .

۴-بدیهی أنّ فوائد البحار لا یمکن حصرها بالأمور التی ذکرت أعلاه، و القرآن الکریم لا یرید بذلک أن یحدّدها ضمن تلک الأقسام الثلاثه المذکوره، فهناک مسأله تکون الغیوم،الأدویه النفط،الألبسه،الأسمده للأراضی البور،التأثیر فی إیجاد الریاح..إلی غیر ذلک من برکات البحار الاخری.

۵-تأکید القرآن الکریم علی مفهوم«لحما طریّا»إشاره عمیقه المحتوی لفوائد التغذیه بهذه اللحوم فی مقابل أضرار اللحوم القدیمه و المعلّبه و أمثال ذلک.

۶-هنا یثار سؤال و هو أنّ البحار المالحه تملأ الکره الأرضیه فی انتشارها، فأین تقع بحور الماء العذب؟ و للإجابه یجب القول أنّ بحر و بحیرات الماء العذب أیضا لیست قلیله فی الکره الأرضیه مثل بحیرات الماء العذب فی الولایات المتحده و غیرها،إضافه إلی أنّ الأنهر الکبیره تسمّی بحارا أیضا فی بعض الأحیان،فقد ورد استعمال کلمه «البحر»ل(نهر النیل)فی قصّه موسی،کما فی سوره البقره-الآیه ۵۰ و الشعراء- ۶۳ و الأعراف-۱۳۸).

کذلک فإنّه یمکن اعتبار مصبّات الأنهار فی البحار و المحیطات عباره عن بحیرات عذبه،لأنّ میاه الأنهار عند انصبابها فی المحیط تدفع میاه البحار و تبقی غیر قابله للاختلاط لمدّه قصیره.

۱- ۱) -لقد صنعت حالیا سفن حمولتها خمسمائه الف طنّ لنقل النفط،و لا یمکن لأیّه وسیله اخری غیر السفینه أن تنقل هذا المقدار الضخم من النفط،کما أنّه لا یمکن لأی طریق أن یحمل مثل هذه الناقله،کما أنّ قدره السفن فی السابق کانت أکثر من قدره الحیوانات.

۷-جمله لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ لها معنی واسع و شامل لکلّ فعّالیه اقتصادیه تعتمد علی البحر.***

بحث

اشاره

العوامل المعنویه المؤثّره فی طول العمر

قام المفسّرون ببحوث مختلفه بما یتناسب مع البحث الوارد فی هذه الآیات حول إطاله و إقصار العمر بأمر اللّه،و ذلک بما یتوافق مع الروایات الوارده فی هذا الخصوص.

طبیعی أنّ هناک سلسله من العوامل الطبیعیه التی تؤثّر علی طول أو قصر العمر، و التی أصبح أکثرها معروفا عند الناس،کالتغذیه الصحیحه بعیدا عن الإفراط و التفریط،العمل و إدامه الحرکه،تحاشی المواد المخدّره،و الإدمانات الخطره و المشروبات الکحولیه،الابتعاد عن المهیّجات المستمره،التمسّک بإیمان قوی یساعد الإنسان علی العیش باطمئنان و هدوء فی الملمّات،و یعطیه القدره علی مواجهه ذلک.

و إضافه إلی ذلک،فإنّ هناک عوامل اخری غیر واضحه الارتباط ظاهرا بقضیّه طول العمر،و لکن الروایات أکّدت علیها،و کنموذج نورد الروایات التالیه:

-أ

عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «إنّ الصدقه و صله الرحم تعمران الدیار و تزیدان فی الأعمار» (۱) .

ب-و

عنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من سرّه أن یبسط فی رزقه و ینسئ له فی أجله فلیصل رحمه» (۲) .

۱- ۱) -تفسیر نور الثقلین،مجلّد ۴،صفحه ۳۵۴ و ۳۵۵.

۲- ۲) -المصدر السابق.

ج-و فیما یخصّ بعض المعاصی مثل الزنا و أثرها فی تقصیر عمر الإنسان نقرأ

فی الروایه المشهوره عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «یا معشر المسلمین إیّاکم و الزنا فإنّ فیه ستّ خصال،ثلاث فی الدنیا و ثلاث فی الآخره،أمّا التی فی الدنیا فإنّه یذهب بالبهاء،و یورث الفقر،و ینقص العمر» (۱) .

د-

عن الإمام الباقر علیه السّلام أنّه قال: «البر و صدقه السرّ ینفیان الفقر و یزیدان فی العمر،و یدفعان عن سبعین میته سوء» (۲) .

کذلک فقد وردت الإشاره إلی المعاصی و الذنوب الاخری کالظلم،بل مطلق المعاصی.

بعض المفسّرین الذین لم یتمکّنوا من التفریق بین«الأجل المحتوم»و«الأجل المعلّق»اعترضوا علی مثل هذه الأحادیث و اعتقدوا بأنّها مخالفه لنصّ القرآن و أنّ عمر الإنسان له حدّ ثابت لا یتغیّر.

توضیح المسأله:-لا شکّ أن للإنسان أجلا محتوما و أجلا معلّقا.

الأجل المحتوم الذی هو نهایه استعداد الجسم للبقاء،و بحلوله ینتهی کلّ شیء بأمر اللّه.

الأجل المعلّق أو المخروم الذی ینتفی بانتفاء شرائطه،مثلا إنسان ینتحر فلو أنّه لم یقم بتلک الکبیره فإنّه سیبقی لسنوات اخری یواصل حیاته.أو أنّه نتیجه تعاطی المشروبات الکحولیه و المواد المخدّره و ممارسه الشهوات بدون قید أو شرط، یفقد الجسم قدراته فی مدّه قصیره.فی حال أنّه بالابتعاد عن هذه الأمور یستطیع أن یعیش لسنوات طویله اخری.

هذه امور قابله للإدراک و التجربه بالنسبه إلی الجمیع،و لا یستطیع أحد أن ینکر ذلک.

۱- ۱) -المصدر السابق.

۲- ۲) -سفینه البحار،المجلّد ۲،صفحه ۳۳-مادّه صدقه.

كذلك فإنّه فيما يخصّ الأقدار فإنّ هناك أمورا ترتبط بالأجل المخروم،و هی أيضا غير قابله للإنكار.

و عليه فإذا ورد فی الروايات أنّ الإنفاق فی سبيل اللّه أو صله الرحم تطيل العمر و تدفع أنواعا من البلاء،فهی فی الحقيقه تقصد هذه العوامل.

و إذا لم نفصل بين الأجل المخروم و الأجل المحتوم لا يمكننا إدراك كثير من الأمور المتعلّقه بالقضاء و القدر،و تأثير الجهاد و السعی و العمل الدائب فی الحياه، و سوف تبقی هذه الأمور غير قابله للحلّ.

هذا البحث يمكن توضيحه بمثال واحد بسيط و هو الآتی:

لو اشتری أحدهم سياره جديده بحيث يتوقّع من صناعتها أن تدوم عشرين عاما،بشرط المحافظه عليها و صيانتها،و فی هذه الحاله فإنّ الأجل الحتمی لهذه السياره هو عشرون عاما،و لكن لو لم تتحقّق لها الصيانه المطلوبه و قام صاحبها بتسليمها إلی أشخاص لا مبالين و غير عارفين بقياده السيارات،أو أن يحملها فوق طاقتها،أو أن يقودها بعنف فی طرق و عره يوميا،فإنّ أجلها المحتوم ذلك يمكن أن يهبط إلی النصف أو العشر،و ذلك هو الأجل المخروم،و نحن نعجب كيف أنّ بعض المفسّرين لم يلتفتوا إلی هذه القضيه الواضحه.***

ص :۴۶

الآیتان [سوره فاطر (۳۵): الآیات ۱۳ الی ۱۴]

اشاره

یُولِجُ اَللَّیْلَ فِی اَلنَّهٰارِ وَ یُولِجُ اَلنَّهٰارَ فِی اَللَّیْلِ وَ سَخَّرَ اَلشَّمْسَ وَ اَلْقَمَرَ کُلٌّ یَجْرِی لِأَجَلٍ مُسَمًّی ذٰلِکُمُ اَللّٰهُ رَبُّکُمْ لَهُ اَلْمُلْکُ وَ اَلَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مٰا یَمْلِکُونَ مِنْ قِطْمِیرٍ (۱۳) إِنْ تَدْعُوهُمْ لاٰ یَسْمَعُوا دُعٰاءَکُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اِسْتَجٰابُوا لَکُمْ وَ یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ یَکْفُرُونَ بِشِرْکِکُمْ وَ لاٰ یُنَبِّئُکَ مِثْلُ خَبِیرٍ (۱۴)

التّفسیر

اشاره

الأصنام لا تسمع دعاءکم!!

تعاود هذه الآیات الإشاره إلی قسم آخر من آیات التوحید و النعم الإلهیه اللامتناهیه،لکی تدفع الإنسان مع تعریفه بتلک النعم إلی شکرها و معرفه المعبود الحقیقی،و لیرجع عن أیّ شرک أو عباده خرافیه،یقول تعالی: یُولِجُ اللَّیْلَ فِی النَّهٰارِ وَ یُولِجُ النَّهٰارَ فِی اللَّیْلِ .

«یولج»من مادّه«إیلاج»بمعنی الدخول فی مضیق.و یمکن أن یکون إشاره إلی أحد المعنیین أو کلیهما،أی:الزیاده و النقص التدریجی فی اللیل و النهار علی مدار السنه.ممّا یؤدّی إلی حصول الفصول المختلفه بکلّ آثارها و برکاتها،أو

الانتقـال التـدريجی من اللیل إلی النهار و بالعکس،و ذلک بواسـطه الشـفق و الغسق الـذی یقلّل من مخاطر الانتقال المفاجئ من النور إلی الظلام و بالعکس (۱) .

ثمّ یشـیر إلی مسأله تسخیر الشمس و القمر فیقول تعالی: وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ .و أیّ تسخیر أفضل من حرکه هذین الکوکبین باتّجاه تحقیق المنافع المختلفه للبشـر،و هذا التسـخیر یعتبر مصدرا لمختلف أنواع البرکات فی حیاه البشـر،فإنّ السحاب و الریح و القمر و الشـمس و الأفلاـک فی حرکه دائبه لکی یسـتطیع الإنسـان إدامه حیـاته،و لیفیق من غفلته فیـذکر الواهب الأصـلی لهـذه المواهب بالنسبه إلی تسخیر الشمس و القمر عرضنا شرحا فی تفسیر الآیه الثانیه من سوره الرعد و الآیه ۳۳ من سوره إبراهیم).

و مع مـا تتمتّع به الشـمس و القمر فی أفلاکها من مسـیر دقیق و منتظم لتؤدّی المنفعه المناسـبه و الجیّـده للبشـر،فإنّ النظام الـذی یحکمها لیس بخالد،فحتّی هذه السـیارات العظیمه بکلّ ذلک النور و الإشـراق ستصیبها العتمه فی النهایه.و تتوقّف عن العمل.لذا یشیر تعالی إلی ذلک بعد ذکر التسخیر فیقول: کُلٌّ یَجْرِی لِأَجَلٍ مُسَمًّی .

فبمقتضی إِذَا الشَّمْسُ کُوِّرَتْ وَ إِذَا النُّجُومُ انْکَدَرَتْ (۲) ،فإنّها جمیعا ستواجه مصیر الانطفاء و الفناء.

بعض المفسّـرین ذکر تفسـیرا آخر لجمله لِأَجَـلٍ مُسَـمًّی ،و ذلک أنّها تعبیر عن حرکه دوران الشـمس و القمر حول محوریهما،و التی تتمّ فی الاولی فی عام،و فی الثانیه فی شهر واحد (۳) .

و لکن بملاحظه الموارد التی استعمل فیها هذا التعبیر فی القرآن الکریم-بمعنی

۱- ۱) -بحثنا موضوع التغییر التدریجی للیل و النهار فی تفسیر الآیه(۲۷)من سوره آل عمران.

۲- ۲) -سوره التکویر،۱-۲.

۳- ۳) -تفسیر«روح البیان»و«أبو الفتوح الرازی».

انتهاء العمر-يتّضح أنّ التّفسير المشار إليه صحيحا،كما أنّ التّفسير الأوّل أيضا- أى نهايه عمر الشمس و القمر-ورد فى الآيات(۶۱-النحل و ۴۵-فاطر ۴۲- الزمر ۴-النور ۶۷-غافر).

ثمّ يقول تعالى مسلّطا الضوء على نتيجه هذا البحث التوحيدى ذٰلِكُمُ اللّٰهُ رَبُّكُمْ اللّه الذى قرّر نظام النوم و الظلام و الحركات الدقيقه للشمس و القمر بكلّ بركاتها. لَهُ الْمُلْكُ وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مٰا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (۱) .

«قطمير»:على ما يقول الراغب:هو الأثر فى ظهر النواه،و ذلك مثل للشىء الطفيف،و يقول«الطبرسى»فى مجمع البيان و القرطبى فى تفسيره:هو الغشاء الرقيق الشفّاف الذى يغلف نواه التمر بكاملها.و على كلّ حال فهو كنايه عن موجودات حقيره تافهه.

نعم فهذه الأصنام لا تضرّ و لا تنفع،لا تدفع عنكم و لا حتّى عن نفسها،لا تحكم و لا تملك حتّى غلاف نواه تمر!فإذا كانت حالها كذلك،فكيف تعبدونها أيّها المغفّلون،و تريدون منها حلا لمشكلاتكم.

ثمّ تضيف الآيه: إِنْ تَدْعُوهُمْ لاٰ يَسْمَعُوا دُعٰاءَكُمْ ،لأنّها قطع من الحجر و الخشب لا أكثر،جمادات لا شعور لها، وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجٰابُوا لَكُمْ .

إذ اتّضح أنّها لا تملك نفعا و لا ضرّا حتّى بمقدار(قطمير)و على هذا فكيف تنتظرون منها أن تعمل لكم شيئا أو تحلّ لكم عقده.

و أدهى من ذلك وَ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ .و يقولون:اللّهم إنّهم لم يعبدوننا،بل إنّهم عبدوا أهواءهم فى الحقيقه.

هذه الشهاده إمّا بلسان الحال الذى يدركه كلّ شخص بآذان وجدانه،أو أنّ اللّه فى ذلك اليوم يعطى فيه جوارح الإنسان و أعضاءه إمكانيه التكلّم فتنطق هذه

---

۱ – ۱) -التعبير ب«الذين»الذى هو عاده لجمع المذكّر العاقل،ذكرت هنا للأصنام بسبب إعتقاد المشركين الوهمى بهذه الموجودات الجامده،و قد ذكره القرآن هكذا،ثمّ ردّ عليه بشدّه.

الأصنام أيضا،و يشهدن بأنّ هؤلاء المشركين المنحرفين إنّما عبدوا فى الحقيقه أوهامهم و شهواتهم.

ما ورد فى هذه الآيه شبيه بما ورد فى الآيه(٢٨)من سوره يونس حيث يقول تعالى: وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكاؤُكُمْ فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ وَ قالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيّانا تَعْبُدُونَ .

احتمل جمع من المفسّرين أنّ أمثال هذه التعبيرات وردت بخصوص معبودات من أمثال الملائكه أو حضره المسيح عليه السّلام،لأنّ الحديث و التكلّم من خصوصيه هؤلاء فقط،و جمله إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ إشاره إلى أنّهم مشغولون بأنفسهم إلى درجه أنّكم لو خاطبتموهم لا يسمعون دعائكم (١) .

و لكن-مع الالتفات إلى سعه مفهوم اَلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ -يظهر أنّ المقصود هو الأصنام،و أنّ جمله إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ ترتبط بالدنيا خاصّه.ثمّ يقول تعالى فى ختام الآيه من أجل تأكيد أكثر:أن لا أحد يخبرك عن جميع الحقائق كما يخبرك اللّه تعالى: وَ لا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ .

فإذا قالت الآيه أنّ الأصنام تتنكّر لكم فى يوم القيامه،و تتضايق منكم،فلا تتعجّبوا من هذا القول،فإنّ من يخبركم هو الذى يعلم بكلّ ما فى هذا الكون بالتفصيل،فهو المحيط علما بالمستقبل و الماضى و الحاضر.***

بحوث

اشاره

١-استقلال آيات القرآن الكريم و تفسيرها المنحرف.

لقد اتّضح لدينا من خلال تفسير الآيه الأخيره بأنّ الأصنام و الأوثان و ما يعبد من دون اللّه تعالى ليس لها آذان صاغيه لما يطلب منها،و إن كان لها فهى غير قادره على حلّ مشكله ما،و ليس لها فى هذا العالم أىّ ملك و لو بقدر رأس الإبره

١- ١) -ورد هذا التّفسير فى مجمع البيان،و تفسير الآلوسى،و القرطبى.

إِنْ تَدْعُوهُمْ لاٰ يَسْمَعُوا دُعٰاءَكُمْ

و على هـذا الأساس اتّخـذ الوهّابيون هـذه الآيه ذريعه لهم للادّعاء بأنّ كلّ شـيء ما خلا اللّه جلّ و علا-و إن كان نبيّا-لا يسـمع دعـاء،و إن سـمع فلاـ يجيب!كمـا رفضوا أى نوع من التوسّـل بـأرواح الأنبيـاء و الأـئمّه و الأولياء. و اعتبروا ذلک مخالفا للتوحيد محتجّين بقوله تعالى: وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاٰ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَ لاٰ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ .

و لو أمعنـا النظر فى الآيـات السـابقه و اللاـحقه لهـذه الآـيه للاحظنـا أنّ المقصود من قوله: مِنْ دُونِهِ هى الأصـنام لاـ غير،و ذلک يصـدق على مجموعه الأحجـار و الأخشـاب و غيرهـا و التى كـانت فى نظر مشـركى الجاهليه بأنّها ذات قـدره إزاء قـدره الخالق الكريم جلّ و علا،كما أنّ الأنبياء و الأولياء و حتّى الشـهداء فى سبيل اللّه أحياء فى البرزخ،و حياه البرزخ-كما هو معلوم-مجرّده من الحجب الماديه و متعلّقات الدنيا ممّا يجعلها أوسع منها.يضاف إلى ذلک فإنّ التوسّل بالأرواح الطاهره للأنبياء و الأئمّه عليهم السّـلام لاـ يعنى إقرارنـا لهم بالاسـتقلاليه إزاء الخالق الكريم، بل إنّنا إنّما نطلب العون و المـدد من مقامهم و جاههم فى حضـره البارئ العزيز، و هذا هو عين التوحيد(تأمّلوا جيدا).

و قد صـرّح القرآن الكريم بأنّ الشـفيع إنّما يشـفع بإذن اللّه تعالى: مَنْ ذَا الَّذِى يَشْـفَعُ عِنْدَهُ إِلاّٰ بِإِذْنِهِ فمن يستطيع إنكار مثل هذه الآيـات الصـريحه غير الجهله المغرورين الـذين هتفوا بمثـل هـذه الادّعاءات لزرع الفرقه بين المسـلمين؟! و فى كثير من الحالات نقرأ فى سيره الصـحابه أنّهم حينمـا تحيق بهم المشـكلات يأتون إلى قبر الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و يتوسّـلون إليه،و يطلبون العون من اللّه عزّ و جلّ بشفاعه روحه الطاهره.

مثالنا على ذلک ما ذكره«البيهقى»من محدّثى العامّه،قال:فى زمن الخليفه الثّانى مرّ فى الناس قحط و جدب،ممّا حدا ببلال و عدد من الصحابه إلى الذهاب لقبر رسول اللّه و قالوا عنده:«يا رسول اللّه،استق لامّتک...فإنّهم قد هلكوا» (۱) .

كما نقل«الآلوسـى»فى(روح المعانى)الكثير من الأحاديث فى هـذا الصـدد، و بعـد المناقشه لهذه الأحاديث يخرج بالقول:إنّنى لا أرى مانعا من التضرّع للّه

۱- ۱) -من كتاب(التوصّل إلى حقيقه التوسّل).

جلّ و علا- بمقام الرّسول الأ-كرم فی حیاته أو بعد مماته...ثمّ انّ الآخرین الـذین یمتلکون مقاما و قربا من الخالق الکریم یجوز التوسّل باللّه سبحانه بواسطتهم.

و لمزید من الاطلاع راجع تفسیرنا هذا،ذیل الآیه ۳۵ من سوره المائده.

ص :۵۲

الآيات [سوره فاطر (۳۵): الآيات ۱۵ الی ۱۸]

اشاره

يَا أَيُّهَا اَلنَّاسُ أَنْتُمُ اَلْفُقَرٰاءُ إِلَى اَللّٰهِ وَ اَللّٰهُ هُوَ اَلْغَنِيُّ اَلْحَمِيدُ (۱۵) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (۱۶) وَ مٰا ذٰلِكَ عَلَى اَللّٰهِ بِعَزِيزٍ (۱۷) وَ لاٰ تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ وَ إِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلىٰ حِمْلِهٰا لاٰ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَ لَوْ كٰانَ ذٰا قُرْبىٰ إِنَّمٰا تُنْذِرُ اَلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ أَقٰامُوا اَلصَّلاٰةَ وَ مَنْ تَزَكّٰى فَإِنَّمٰا يَتَزَكّٰى لِنَفْسِهِ وَ إِلَى اَللّٰهِ اَلْمَصِيرُ (۱۸)

التّفسير

اشاره

لاٰ تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ

بعد الدعوه المؤكّده إلى التوحيد و محاربه أى شكل من أشكال الشرك و عباده الأوثان،يحتمل أن يتوهّم البعض فيقول:ما هى حاجه اللّه لأن يعبد بحيث يصرّ كلّ هذا الإصرار،و يؤكّد كلّ هذا التأكيد على عبادته وحده؟لذا فإنّ هذه الآيات توضّح هذه الحقيقه و هى أنّنا نحن المحتاجون لعبادته لا هو سبحانه و تعالى، فتقول الآيه الكريمه: يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرٰاءُ إِلَى اللّٰهِ وَ اللّٰهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ .

ص: ۵۳

فيا له من حديث مهمّ و قيم ذلک الذی يوضّح موقعنا فی عالم الوجود من خالق الوجود،و يکشف الکثير من الغموض،و يجيب على الکثير من الأسئله.

نعم،فالقائم بذاته غير المحتاج لسواه،واحد أحد،و هو اللّه تعالى،و کلّ البشر بل کلّ الموجودات محتاجه إليه فی جميع شؤونها و فقيره إليه و مرتبطه بذلک الوجود المستقل بحيث لو قطع ارتباطها به لحظه واحده لأصبحت عدم فی عدم، فکما أنّه غير محتاج مطلقا،فإنّ البشر يمثّلون الفقر المطلق،و کما أنّه قائم بذاته، فالمخلوقات کلّها قائمه به تعالى،لأنّه وجود لا متناهی من کلّ ناحيه،و واجب الوجود فی الذات و الصفات.

و مع حال کهذه،ما حاجته تعالى لعبادتنا؟!فنحن المحتاجون و الفقراء إلى اللّه و نسلک سبيل تکاملنا عن طريق عبادته و طاعته،و نقترب بذلک من مصدر الفيض اللامتناهی،و نغترف من أنوار ذاته و صفاته.

و فی الحقيقه فإنّ هذه الآيه توضيح للآيات السابقه حيث يقول تعالى: ذٰلِکُمُ اللّٰهُ رَبُّکُمْ لَهُ الْمُلْکُ وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مٰا يَمْلِکُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ .

و عليه فإنّ البشر محتاجون له لا لسواه،لذا فيجب عليهم أن لا يطأطئوا رؤوسهم لغيره تعالى،و أن لا يطلبوا حاجاتهم إلاّ منه تبارک اسمه،لأنّ ما سوى اللّه محتاج إلى اللّه کحاجتهم إليه،و حتّى أنّ تعظيم أنبياء اللّه و قاده الحقّ إنّما هو لأنّهم رسله تعالى و ممثّلوه،لا لذواتهم مستقلّه.

و عليه فهو«غنی»کما أنّه«حميد»أی إنّه فی عين استغنائه عن کلّ أحد،فهو رحيم و عطوف و أهل بکلّ حمد و شکر،و فی عين انّه أرحم الراحمين،فهو غير محتاج لأحد مطلقا.

الالتفات إلى هذه الحقيقه له أثران إيجابيان على المؤمنين،فهی تستنزلهم من مرکب الغرور و الأنانيه و الطغيان من جانب،و تنبههم إلى أنّهم لا يملکون شيئا من أنفسهم يستقلّون به،و أنّهم مؤتمنون على کلّ ما فی أيديهم من جانب آخر،لکی لا

يمدّوا يد الحاجه إلى غيره،و لا يضعوا طوق العبوديه لغير اللّه فى أعناقهم،و أن يتحرّروا من كلّ تعلّق آخر،و يعتمدوا على همّتهم،و بهذه النظره الشموليه يرى المؤمنون أنّ كلّ موجود فى هذا العالم إنّما هو من أشعّه وجوده تعالى،و أن لا ينشغلوا عن(مسبّب الأسباب)بالأسباب ذاتها.

جمع من الفلاسفه عدّوا هذه الآيه إشاره إلى البرهان المعروف«الإمكان و الفقر»أو«الإمكان و الوجوب»لإثبات واجب الوجود،مع أنّ الآيه ليست فى مقام بيان الاستدلال على إثبات وجود اللّه،بل إنّها شرح لصفاته تعالى،و لكن يمكن اعتبار البرهان المذكور من لوازم مفاد هذه الآيه.

شرح برهان الإمكان و الوجوب«الفقر و الغنى»:

إنّ جميع الموجودات التى نراها فى هذا العالم كانت كلّها ذات يوم«عدما»،ثمّ اكتست بلباس الوجود،أو بتعبير أدقّ:كان يوم لم تكن شيئا فيه،ثمّ صارت وجودا،و هذا بحدّ ذاته دليل على أنّها معلوله فى وجودها لوجود آخر،و ليس لها وجود من ذاتها.

و نعلم بأنّ أى وجود معلول،مرتبط و قائم بعلّته و كلّه احتياج،و إذا كانت تلك (العلّه)أيضا معلوله لعلّه اخرى فإنّها بدورها ستكون محتاجه،و لو تسلسل هذا الأمر إلى ما لا نهايه فسوف تكون الحصيله مجموعه من الموجودات المحتاجه الفقيره،و بديهى أنّ مجموعه كهذه لن يكون لها وجود أبدا،لأنّ منتهى الاحتياج احتياج،و منتهى الفقر فقر،و ما لا نهايه له من الأصفار لا يمكن أن يحصل منه أى عدد،كما أنّه ممّا لا نهايه له من المرتبطات بغيرها لا تنتج أى حاله استقلال.

من هنا نستنتج أنّنا فى النهايه يجب أن نصل إلى وجود قائم بذاته،و مستقل من جميع النواحى،و هو علّه لا معلول،و هو واجب الوجود.

هنا يثار السؤال التالى:لماذا تتعرّض الآيه أعلاه للإنسان و حاجته إلى اللّه

فقط؟بینما جمیع الموجودات تشترک فی هذا الفقر؟ و الجواب:إذا کان الإنسان-الذی یعتبر سیّد المخلوقات-غارقا فی الحاجه و الفقر إلی اللّه،فإنّ حال بقیّه الموجودات واضحه،و بتعبیر آخر فإنّ بقیّه الموجودات تشترک مع الإنسان فی الفقر الذی هو«إمکان الوجود».

و تخصیص الحدیث فی الإنسان إنّما هو لأجل کبح جماح غروره،و إلفات نظره إلی حاجته إلی اللّه فی کلّ حال،و فی کلّ شیء و کلّ مکان،لیکون ذلک أساس الصفات الحسنه و الفضائل و الملکات الأخلاقیه،ذلک الالتفات الذی یؤدّی إلی التواضع و ترک الظلم و الغرور و الکبر و العصبیه و البخل و الحرص و الحسد،و یبعث علی التواضع أمام الحقّ.

و لتأکید هذا الفقر و الحاجه فی الإنسان یقول تعالی فی الآیه التالیه: إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ وَ یَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِیدٍ .

و علیه فهو سبحانه و تعالی لیس بحاجه إلیکم أو إلی عبادتکم،و إنّما أنتم الفقراء إلیه.

و هذه الآیه شبیهه بما ورد فی الآیه(۱۳۳)من سوره الأنعام حیث یقول تعالی:

وَ رَبُّکَ الْغَنِیُّ ذُو الرَّحْمَهِ إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ وَ یَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِکُمْ مٰا یَشٰاءُ کَمٰا أَنْشَأَکُمْ مِنْ ذُرِّیَّهِ قَوْمٍ آخَرِینَ .

فهو تعالی لیس محتاجا لطاعتکم و لا خائفا من معصیتکم،و فی نفس الوقت فإنّ رحمته الواسعه تشملکم جمیعا،و لا ینقص من عظمته شیئا ذهاب العالم بأسره،کما أنّ خلق هذا العالم لا یضیف إلی مقام کبریائه شیئا.

و فی الآیه الثالثه أیضا یعود التأکید مرّه ثانیه فیقول تعالی: وَ مٰا ذٰلِکَ عَلَی اللّٰهِ بِعَزِیزٍ نعم،فإنّما أمره إذا أراد شیئا أن یقول له کن فیکون،و هذا یصدق علی جمیع عالم الوجود.

علی کلّ حال،فإنّه تعالی إذا أمرکم بالإیمان و الطاعه و العباده فإنّما ذلک

لأجلكم أنتم،و كلّ ما ينشأ عن ذلك من فائده أو بركه إنّما يعود عليكم.

الآيه الأخيره من هذه الآيات تشير إلى خمسه مواضيع فيما يتعلّق بما سبق بحثه فى الآيات السابقه:

الأوّل:من الممكن أن يثير ما ورد فى الآيه الماضيه من قوله تعالى: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ سؤالا فى أذهان البعض من أنّ المقصودين فى هذه الآيه ليس المذنبين فقط،إذ أنّ المؤمنين الصالحين موجودون فى كلّ عصر و زمان،فهل يمكن أن يكون هؤلاء أيضا معرضين للعقوبات المترتبه على أعمال الطالحين،و يحكمون بالفناء على حد سواء؟ هنا يجيب وَ لاٰ تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ .

«وزر»بمعنى الثقل،و قد أخذ من«وزر»(على زنه كرب)بمعنى الملجأ فى الجبل،و أحيانا يأتى بمعنى المسؤوليه و يعبّر بذلك عن الإثم كما يعبّر عنه بالثقل، و الوزير المتحمّل ثقل المسؤوليه من أميره،و الموازره:المعاونه (1) ،لأنّ الشخص عند المعاونه يتحمّل قسطا من الثقل عن رفيقه.

و هذه الجمله تعتبر واحده من الاسس الهامّه فى الإعتقادات الإسلاميه، و الحقيقه أنّها ترتبط من جانب بالعدل الإلهى،بحيث يرتهن كلّ بعمله.و هو تعالى إنّما يثيب الشخص على سعيه و اجتهاده فى طريق الخير،و يعاقبه على ذنبه.

و من جانب آخر فإنّ فيها إشاره إلى شدّه العقوبه يوم القيامه،بحيث لا يكون أحد مستعدّا لتحمّل وزر عمل غيره على عاتقه مهما كان قريبا منه.

و الالتفات إلى هذا المعنى له الأثر الفعّال فى البناء الروحى للإنسان،حيث يكون مراقبا لنفسه،و لا يسمح لها بالفساد بحجّه فساد الأقران أو المحيط،ففساد المحيط لا يمكن اعتباره مسوغا لإفساد النفس،إذ أنّ كلا يحمل وحده وزر ذنبه.

و من جانب آخر فإنّه يفهم الناس و يبصرهم بأنّ حساب اللّه للمجتمع لا يكون

1- 1) -الراغب فى مفرداته كتاب الواو.

حسابا جمیعا،بل إنّ کلّ فرد یحاسب بشکل مستقل،أی إنّ الفرد إذا أدّی ما علیه من تطهیر نفسه،و محاربه الفساد،فلیس علیه أدنی بأس أو خوف إذا کان العالم بأسره ملوّثین بالکفر و الشرک و الظلم و المعصیه.

و أساسا فلن یکون لأی برنامج تربوی أثر ما لم یولّ اهتماما لهذا الأصل المهمّ (دقّق النظر)!! هذه المسأله تطرح فی الجمله الثانیه من الآیه بشکل آخر،یقول تعالی: وَ إِنْ تَدْعُ مُثْقَلَهٌ إِلیٰ حِمْلِهٰا لاٰ یُحْمَلْ مِنْهُ شَیْءٌ وَ لَوْ کٰانَ ذٰا قُرْبیٰ (۱) .

فی حدیث عن ابن عبّاس أو غیره،أنّ امّا و ابنها یأتیان فی یوم القیامه و کلاّ منهما علیه ذنوب کثیره،و تطلب الامّ من ابنها أن یحمل عنها بعض تلک المسؤولیات فی قبال تربیتها له و حملها به،فیقول لها ابتعدی عنّی فأنا أسوأ منک حالا (۲) .

و یبرز هنا السؤال التالی:هل أنّ هذه الآیه تنافی ما ورد فی الروایات الکثیره حول السنّه السیّئه و السنّه الحسنه؟حیث أنّ الروایات تقول:

«من سنّ سنّه حسنه کان له أجرها و أجر من عمل بها من غیر أن ینقص من أجره شیء،و من سنّ سنّه سیّئه کان له وزرها و وزر من عمل بها».

و لکنّنا إذا التفتنا إلی نکته واحده،یتّضح الجواب علی هذا السؤال،و هی أنّ عدم تسجیل ذنب أحد علی آخر،إنّما هو فی صوره أن لا یکون له سهم فی ذلک

---

۱ – ۱) –«مثقله»بمعنی«الحامل لحمل ثقیل»و یقصد بها هنا حامل الوزر علی عاتقه،و(حمل):علی ما یقوله الراغب:معنی واحد اعتبر فی أشیاء کثیره،فسوّی بین لفظه فی فعل و فرّق بین کثیر منها فی مصادرها،فقیل فی الأثقال المحموله فی الظاهر کالشیء المحمول علی الظهر(حمل)،و فی الأثقال المحموله فی الباطن(حمل) کالولد فی البطن و الماء فی السحاب و الثمره فی الشجره تشبیها بحمل المرأه،و لأنّ ما ورد فی هذه الآیه،هو تشبیه للذنب بالحمل المحمول علی العاتق،فیجب أن تقرأ بکسر الحاء.

۲ – ۲) –مع أنّ الحدیث ورد فی تفاسیر مختلفه حینا عن الفضیل بن عیّاض،و حینا عن ابن عبّاس،و لکن یستبعد أن یکون الحدیث عنهما مستقلا،فمن الممکن أن یکون أصل الحدیث عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم. راجع تفسیر(أبو الفتوح،و القرطبی،و روح البیان)و قد أوردناه بالمعنی.

العمل،و لكن إذا كان له سهم فى إيجاد سنّه،أو الإعانه و المساعده أو الترغيب و التشجيع،فمن المسلّم أنّه يحسب من عمله و يكون شريكا و مساهما فى ذلك العمل.

و أخيرا،فى الجمله الثالثه من الآيه،ترفع الستاره عن حقيقه أنّ إنذارات الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لها أثرها فى القلوب المهيّأه لذلك فقط،تقول الآيه الكريمه: إِنَّمٰا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ أَقٰامُوا الصَّلاٰهَ .

فإن لم يكن خوف اللّه متمكّنا من القلب،و لم يكن هناك إحساس بمراقبه قوّه غيبيه فى السرّ أو العلن،و لم تنفع الصلاه التى تؤدّى إلى إحياء القلب و التذكير باللّه فى تقويه ذلك الإحساس...فلن يكون لإنذارات الأنبياء أثر يذكر.

و حين لا يكون الإنسان قد اعتنق عقيده ما و لم يؤمن،فلو لم تكن لديه روح البحث عن الحقّ،و إحساس بالمسؤوليه تجاه معرفه الحقيقه،فلن يصغى لدعوه الأنبياء،و لن يتفكّر فى آيات اللّه فى هذه الدنيا.

و فى الجمله الرابعه يعود مرّه اخرى إلى حقيقه(إنّ اللّه غير محتاج لأحد) فتضيف: وَ مَنْ تَزَكّٰى فَإِنَّمٰا يَتَزَكّٰى لِنَفْسِهِ .

و فى الختام يتبّه فى الجمله الخامسه إلى أنّ المحسنين و المسيئين إن لم ينالوا جزاء أعمالهم فى الدنيا فليس لذلك أهمّيه ما دام المصير إلى اللّه وَ إِلَى اللّٰهِ الْمَصِيرُ و بالتالى فانّه سيحاسب الجميع على أعمالهم.***

ص :٥٩

الآيات [سوره فاطر (۳۵): الآيات ۱۹ الى ۲۳]

اشاره

وَ مٰا يَسْتَوِى اَلْأَعْمىٰ وَ اَلْبَصِيرُ (۱۹) وَ لاَ اَلظُّلُمٰاتُ وَ لاَ اَلنُّورُ (۲۰) وَ لاَ اَلظِّلُّ وَ لاَ اَلْحَرُورُ (۲۱) وَ مٰا يَسْتَوِى اَلْأَحْيٰاءُ وَ لاَ اَلْأَمْوٰاتُ إِنَّ اَللّٰهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشٰاءُ وَ مٰا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِى اَلْقُبُورِ (۲۲) إِنْ أَنْتَ إِلاّٰ نَذِيرٌ (۲۳)

التّفسير

اشاره

و ما تستوى الظلمات و لا النّور:

تذكر الآيات مورد البحث-بما يتناسب مع البحوث التى مرّت حول الإيمان و الكفر فى الآيات السابقه- أربعه أمثله جميله للمؤمن و الكافر،توضّح بأجلى شكل آثار الإيمان و الكفر.

فى المثال الأوّل:شبّه«الكافر و المؤمن»ب«الأعمى و البصير»حيث تقول الآيه الكريمه: وَ مٰا يَسْتَوِى الْأَعْمىٰ وَ الْبَصِيرُ .

الإيمان نور و إشراق،يعطى البصيره و المعرفه للإنسان فى النظره إلى العالم، و فى الإعتقاد،و العمل و فى كلّ الحياه،أمّا الكفر فظلمه كالحه،فلا إعتقاد صحيح و نظره سليمه عن العالم،و لا عمل صالح.

ص: ۶۰

تشیر الآیه(۲۵۷)من سوره البقره إلی هذا الموضوع فتقول: اَللّهُ وَلِیُّ الَّذِینَ آمَنُوا یُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَی النُّورِ وَ الَّذِینَ کَفَرُوا أَوْلِیاؤُهُمُ الطّاغُوتُ یُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَی الظُّلُماتِ أُولئِکَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِیها خالِدُونَ .

و بما أنّ العین المبصره وحدها لا تکفی لتحقّق الرؤیه،فیجب توفّر النور و الإضاءه أیضا لکی یستطیع الإنسان-الإبصار بمساعده هذین العاملین-تضیف الآیه التالیه: وَ لاَ الظُّلُماتُ وَ لاَ النُّورُ .

لأنّ الظلام منشأ الضلال،الظلام سبب السکون و الرکود،الظلام مسبّب لکلّ أنواع المخاطر،أمّا النور و الضیاء فهو منشأ الحیاه و المعیشه و الحرکه و الرشد و النمو و التکامل،فلو زال النور لتوقّفت کلّ حرکه و تلاشت جمیع الطاقات فی العالم،و لعمّ الموت العالم المادّی-بأسره،و کذلک نور الإیمان فی عالم المعنی، فهو سبب الرشد و التکامل و الحیاه و الحرکه.

ثمّ تضیف الآیه وَ لاَ الظِّلُّ وَ لاَ الْحَرُورُ فالمؤمن من یستظلّ فی ظلّ إیمانه بهدوء و أمن و أمان،أنمّا الکافر فلکفره یحترق بالعذاب و الألم.

یقول«الراغب»فی مفرداته:الحرور:(علی وزن قبول)الریح الحارّه.

و اعتبرها بعضهم«ریح السموم»و بعضهم قال بأنّها«شدّه حراره الشمس».

و یقول«الزمخشری»فی الکشّاف:«السموم یکون بالنهار،و الحرور باللیل و النهار،و قیل باللیل خاصّه» (۱) ،علی أیّه حال،فأین الحرور من الظلّ البارد المنعش الذی یبعث الارتیاح فی روح و جسم الإنسان.

ثمّ یقول تعالی فی آخر تشبیه: وَ ما یَسْتَوِی الْأَحْیاءُ وَ لاَ الْأَمْواتُ .المؤمنون حیویون،سعاه متحرّکون،لهم رشد و نمو،لهم فروع و أوراق و ورود و ثمر،أمّا الکافر فمثل الخشبه الیابسه،لا فیها طراوه و لا ورق و لا ورد و لا ظلّ لها، و لا تصلح إلاّ حطبا للنار.

۱- ۱) -الکشّاف،الجزء ۳،ص ۶۰۸.

فی الآیه(۱۲۲)من سوره الأنعام نقرأ: أَ وَ مَنْ کٰانَ مَیْتاً فَأَحْیَیْنٰاهُ وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُوراً یَمْشِی بِهِ فِی النّٰاسِ کَمَنْ مَثَلُهُ فِی الظُّلُمٰاتِ لَیْسَ بِخٰارِجٍ مِنْهٰا .

و فی ختام الآیه یضیف تعالی: إِنَّ اللّٰهَ یُسْمِعُ مَنْ یَشٰاءُ لکی یسمع دعوه الحقّ و یلبّی نداء التوحید و دعوه الأنبیاء وَ مٰا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِی الْقُبُورِ .

فمهما بلغ صراخک،و مهما کان حدیثک قریبا من القلب،و مهما کان بیانک معبّرا،فإنّ الموتی لا یسعهم إدراک شیء من ذلک،و من فقد الروح الإنسانیه نتیجه الإصرار علی المعاصی،و غرق فی التعصّب و العناد و الظلم و الفساد،فبدیهی أنّ لیس لدیه الاستعداد لقبول دعوتک.

و علیه فلا تقلق من عدم إیمانهم،و لا تجزع،فلیس علیک من وظیفه إلاّ الإبلاغ و الإنذار إِنْ أَنْتَ إِلاّٰ نَذِیرٌ .

***

بحوث

اشاره

۱-آثار الإیمان و الکفر

نعلم أنّ القرآن لا یعیر اهتماما للحواجز الجغرافیه و العرقیه و الطبقیه و أمثالها ممّا یفرّق بین الناس،فالقرآن الکریم یعتبر أنّ الحدّ هو الحدّ بین[الإیمان و الکفر]

،و علیه فإنّه یقسّم المجتمع البشری إلی قسمین«المؤمنین»و «الکافرین».

و لتعریف«الإیمان»شبّهه القرآن الکریم ب«النور»،کما أنّه شبّه الکفر ب «الظلام»و هذا التشبیه أحسن مؤشّر علی ما یستخلصه القرآن الکریم من مسأله الکفر و الإیمان (۱) .

فالإیمان نوع من الإحساس و النظره الباطنیه،و نوع من العلم و المعرفه متوائمه

۱- ۱) -راجع الآیات ۲۵۷:البقره،۱۵:المائده،۱۶:المائده،۱ و ۵:إبراهیم،۲۲:الزمر،۹:الحدید،۱۱:الطلاق.

مع عقیده قلبیه و حرکه،و نوع من التصدیق الذی ینفذ فی أعماق روح الإنسان لیکون منبعا لکلّ الفعّالیات البنّاءه.

أمّا الکفر،فجهل و عدم معرفه و تکذیب یؤدّی إلی تبلّد،بل فقدان الإحساس بالمسؤولیه،کما یؤدّی إلی کلّ أنواع الحرکات الشیطانیه و التخریبیه.

کذلک نعلم أیضا بأنّ«النور»منشأ لکلّ حیاه و حرکه و نمو و رشد فی الحیاه، بالنسبه إلی الإنسان و الحیوان و النبات،علی عکس الظلام فهو عامل الصمت و النوم و الموت و الفناء فی حال استمراره.لذا فلا عجب حینما یشبه القرآن الکریم«الإیمان و الکفر»«بالنور و الظلمه»تاره و«بالحیاه و الموت»تاره اخری، و فی مکان آخر یشبّههما(بالظلّ الظلیل و الریح السموم)،أو حینما یشبّه(المؤمن و الکافر)(بالبصیر و الأعمی).و قد أوضحنا کلّ ما یتعلّق بهذه التشبیهات الأربعه.

و لا نبتعد کثیرا،فعند ما نجالس(مؤمنا)نحسّ أثر ذلک النور فی کلّ وجوده، أفکاره تنیر لمن حوله،و حدیثه ملیء بالإشراق،أعماله و أخلاقه تعرّفنا حقیقه الحیاه و حیاه الحقیقه.

أمّا الکافر فکلّ وجوده ملیء بالظلمه،لا یفکّر إلاّ بمنافعه المادیّه و کیفیه الترقّی فی الحیاه المادیّه،أفقه و فضاء فکره لا یتجاوز حدود حیاته الشخصیه،غارق فی الشهوات،لا یدفع روح و قلب جلیسه إلاّ إلی أمواج الظلمات.

و علیه فإنّ ما أوضحه القرآن فی هذه الآیات،قابل للإدراک و التعقّل بشکل محسوس و ملموس.

۲-هل أنّ الموتی واقعا لا یدرکون؟

من ملاحظه ما ورد فی الآیات أعلاه،یطرح هنا سؤالان:

الأوّل:کیف یقول تعالی فی القرآن الکریم مخاطبا الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: وَ مٰا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِی الْقُبُورِ ؟مع أنه جاء فی الحدیث المعروف أنّ الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم

أمر يوم بدر بأربعه و عشرين رجلا من صناديد قريش فقذفوا فى طوىّ من أطواء بدر خبيث مخبث،و كان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصه ثلاث ليال فلمّا كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته،فشدّ عليها رحلها ثمّ مشى و اتّبعه أصحابه و قالوا:ما نراه ينطلق إلاّ لبعض حاجته،حتّى قام على شفه الركى مجفل يناديهم بأسمائهم و أسماء آبائهم:يا فلان بن فلان و يا فلان بن فلان أ يسّركم أنّكم أطعتم اللّه و رسوله؟فإنّا قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقّا فهل وجدتم ما وعد ربّكم حقّا؟قال:

فقال عمر:يا رسول اللّه ما تكلّم من أجساد لا أرواح لها؟

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

«و الّذى نفس محمّد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» (۱) .

أو ما ورد فى آداب دفن الموتى من تلقينهم عقائد الحقّ.

فكيف يمكن التوفيق بين هذه الأمور و الآيات مورد البحث أعلاه.

يتّضح الجواب على هذا السؤال إذا أخذنا بنظر الإعتبار ما يلى:إنّ الحديث فى الآيات كان حول عدم إدراك الموتى بالشكل الطبيعى و الاعتيادى،أمّا الروايه التى ذكرناها أو تلقين الميّت فإنّما ترتبط بظروف خاصّه و غير عاديّه،حيث أنّ اللّه سبحانه مكّن حديث الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى تلك الحاله من الوصول إلى أسماع الموتى.

و بتعبير آخر فإنّ الإنسان فى عالم البرزخ ينقطع ارتباطه مع عالم الدنيا،إلاّ فى الموارد التى يأذن اللّه فيها أن يوصل هذا الارتباط،و لذا فإنّنا لا نستطيع عاده الاتّصال بالموتى فى الظروف العاديه.

السؤال الآخر:هو إذا كان حديثنا غير بالغ أسماع الموتى فما معنى لسلامنا على الرّسول الأكرم و الأئمّه عليهم السّلام و التوسّل بهم،و زياره قبورهم،و طلب الشفاعه منهم عند اللّه؟

---

۱ – ۱) -تفسير«روح البيان»ذيل الآيات مورد البحث:و ورد هذا الحديث أيضا فى صحيح البخارى بتفاوت يسير(صحيح البخارى،الجزء الخامس،ص ۹۷ باب قتل أبى جهل).

و قد استندت جماعه من الوهّابيين المعروفين بجمودهم الفكرى على هذا التوهّم الباطل،و بالتمسّك بظواهر الآيات القرآنيه،دون الاهتمام بمحتواها العميق،أو الالتفات إلى الأحاديث الشريفه الكثيره الوارده فى هذا المجال،سعوا إلى نفى و ردّ مفهوم«التوسّل»و إثبات بطلانه.

الجواب على هذا السؤال أيضا يتّضح ممّا ذكرناه كمقدّمه فى الإجابه على السؤال الأوّل،من أنّ التعامل مع الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أولياء اللّه يختلف عنه مع الآخرين،فهؤلاء كالشهداء(بل إنّهم يحتلّون الصفّ الأوّل أمام الشهداء)و هم أحياء و خالدون،و هم مصداق لقوله: أَحْيٰاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ،و بأمر من اللّه فإنّهم يحتفظون بارتباطهم بهذا العالم،كما أنّهم يستطيعون و هم فى هذه الدنيا أن يتّصلوا بالموتى-كما فى حاله قتلى بدر-.

استنادا إلى ذلك نقرأ فى روايات كثيره وردت فى كتب الفريقين أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّه عليهم السّلام يسمعون سلام من يسلّم عليهم سواء كان قريبا أو بعيدا،بل إنّ أعمال الامّه تعرض عليهم (1) .

الجدير بالملاحظه أنّنا مأمورون بالسلام على الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى التشهّد الأخير للصلوات اليوميه،و هذا إعتقاد المسلمين عامّه،أعمّ من كونهم شيعه أو سنّه،فكيف يمكن مخاطبه من لا يمكنه السماع أصلا؟ كذلك

وردت روايات متعدّده فى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى و أبى هريره،عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «لقّنوا موتاكم لا إله إلاّ اللّه» (2) .

كذلك وردت الإشاره فى نهج البلاغه إلى مسأله الارتباط مع أرواح الموتى، فعند ما كان أمير المؤمنين صلوات اللّه و سلامه عليه قال راجعا من صفّين أشرف

۱- ۱) -كشف الارتياب،ص ۱۰۹-كذلك فقد أشرنا إلى روايات(عرض الأعمال)عند تفسير الآيه(۱۰۵)من سوره التوبه-راجع المجلّد السادس من هذا التّفسير.

۲- ۲) -صحيح مسلم،كتاب الجنائز،حديث ۱ و ۲(المجلّد ۲،صفحه ۶۳۱).

على القبور بظاهر الكوفه:

«يا أهل الديار الموحشه...إلى أن قال:أما لو أذن لهم فى الكلام لأخبروكم أنّ خير الزاد التقوى» (۱) .

۳-تنويع التعبيرات جزء من الفصاحه

لوحظ فى التشبيهات الأربعه الوارده فى الآيات أعلاه،تعبيرات متفاوته تماما مثلا-(أعمى-بصير)و(ظلّ-حرور)جاءت بصوره المفرد فى حال أنّ(أحياء- أموات)بصوره الجمع،و جاءت(ظلمات-نور)بصوره جمع و الثانيه بصوره مفرد..هذا من جانب.

و من جانب آخر فقد قدمت التشبيهات ذات المنحى السلبى على غيرها فى التشبيه الأوّل و الثانى(أعمى-ظلمات)فى حال قدمت التشبيهات ذات المنحى الإيجابى فى التشبيه الثالث و الرابع(ظلّ-أحياء).

و من جانب ثالث تكرّرت أداه النفى فى التشبيهات الثانى و الثالث و الرابع فى حين أنّها لم تتكرّر فى التشبيه الأوّل.

و أخيرا،فإنّ جمله مٰا يَسْتَوِي وردت فقط فى التشبيه الأوّل و الأخير،و لا أثر لها فى التشبيهات الاخرى.

بعض المفسّرين علّلوا هذه الاختلافات بتعليلات كثيره بعضها جدير بالاهتمام و بعضها الآخر مورد مساءله.

و ضمن جمله التعليلات اللطيفه أنّ جمع«الظلمات»و إفراد«النور»للتدليل على أنّ الظلمه-التى تعنى الكفر-ذات تشعّبات كثيره،بينما حقيقه«الإيمان» و التوحيد واحده ليس إلاّ.فالإيمان كالخطّ المستقيم الذى يوصل بين نقطتين لا-وجود لسواه بينهما،فى حين أنّ ظلمه الكفر مثل آلاف الآلاف من الخطوط المتعرّجه المنحرفه التى يمكن إيجادها بين نقطتين.

ص: ۶۶

۱- ۱) نهج البلاغه،الكلمات القصار،جمله ۱۳۰.

کذلک فإنّ تقدیم التشبیهات ذات المنحی السلبی فی المثالین الأوّلیین إنّما هو للإشاره إلی الإسلام نقل الناس من الجاهلیه و ظلمات الشرک إلی نور الهدایه.

و أمّا المثالان الأخیران فإشاره إلی المراحل الاخری التی أحکم الإسلام فیها جذوره فی القلوب،و وسّع المناحی الإیجابیه فی المجتمع.

و إذا تجاوزنا کل ذلک فإنّ التنوّع أصلا فی البیان یمنح الحدیث طراوه و روحا خاصّه،ممّا یجعل ذلک مؤثّرا و جمیلا و جذّابا،فی حال إنّ التکرار علی نمط واحد یسلب الحدیث لطافته-إلاّ فی موارد استثنائیه-و بناء علی هذا فإنّ الفصحاء و البلغاء یسعون دائما إلی تنویع تعبیراتهم و جعلها مؤثّره،و نعلم أنّ القرآن علی أعلی درجات الفصاحه و البلاغه.

و علیه،فلو لم یکن غیر مراعاه الفصاحه أمر آخر لکفی،مع أنّ من الممکن أن یتوصّل غیرنا من الأجیال القادمه إلی کشف أسرار اخری غیر ما ذکرنا ممّا هو محجوب عنّا الآن.

الآيات [سوره فاطر (۳۵): الآيات ۲۴ الى ۲۶]

اشاره

إِنّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ إِنْ مِنْ أُمَّهٍ إِلّا خَلا فِيها نَذِيرٌ (۲۴) وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَ بِالزُّبُرِ وَ بِالْكِتابِ اَلْمُنِيرِ (۲۵) ثُمَّ أَخَذْتُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (۲۶)

التّفسير

اشاره

لا عجب من عدم إيمان:

توصّلنا فى الآيات السابقه إلى أنّ هناك أفرادا كالأموات و العميان لا تترك مواعظ الأنبياء فى قلوبهم أدنى أثر،و على ذلك فإنّ الآيات مورد البحث تقصد مواساه الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بهذا الخصوص و تخفيف آلامه لكى لا يغتمّ كثيرا.

أوّلا- تقول الآيه الكريمه: إِنّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ إِنْ مِنْ أُمَّهٍ إِلّا خَلا فِيها نَذِيرٌ .فيكفيك من أداء وظيفتك أن لا تقصّر فيها،أوصل نداءك إلى مسامعهم، بشّرهم بثواب اللّه،و أنذرهم عقابه،سواء استجابوا و لم يستجيبوا.

الملفت للنظر أنّه تعالى قال فى آخر آيه من الآيات السابقه مخاطبا الرّسول الأكرم إِنْ أَنْتَ إِلّا نَذِيرٌ ،و لكنّه فى الآيه الاولى من هذه الآيات يقول: إِنّا

أَرْسَلْنٰاکَ بِالْحَقِّ بَشِیراً وَ نَذِیراً

إشاره إلی أنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لا یقوم بهذا العمل من عند نفسه،و إنّما هو مأمور من قبل اللّه تعالی.

و إذا کانت الآیه السابقه قد رکّزت علی الإنذار فقط،فلأنّ الحدیث کان حول الجاهلین المعاندین الذین هم کالأموات المقبورین الذین لا یتقبّلون أی حدیث، أمّا هذه الآیه فإنّها توضّح بشکل کامل،وظیفه الأنبیاء الثنائیه الهدف«البشاره»و «الإنذار»،مؤکّده فی آخرها من جدید علی«الإنذار»لأنّ الإنذار هو القسم الأساس من دعوه الأنبیاء فی قبال المشرکین و الظلمه.

«خلا»:من(الخلاء)و هو المکان الذی لا ساتر فیه من بناء و مساکن و غیرهما، و الخلوّ یستعمل فی الزمان و المکان،و لأنّ الزمان فی مرور،قیل عن الأزمنه الماضیه«الأزمنه الخالیه»لأنّه لا أثر منها،و قد خلت الدنیا منها.

و علیه فإنّ جمله وَ إِنْ مِنْ أُمَّهٍ إِلاّٰ خَلاٰ فِیهٰا نَذِیرٌ بمعنی أن کلّ امّه من الأمم السالفه کان لها نذیر.

و الجدیر بالملاحظه،طبقا للآیه أعلاه،أنّ کلّ الأمم کان فیها نذیر إلهی،أی کان فیها نبی،مع أنّ البعض تلقّی ذلک بمعنی أوسع،بحیث یشمل العلماء و الحکماء الذین ینذرون الناس أیضا،و لکن هذا المعنی خلاف ظاهر الآیه.

علی کلّ حال،فلیس معنی هذا الکلام أن یبعث فی کلّ مدینه أو منطقه رسول، بل یکفی أن تبلّغ دعوه الرسل و کلامهم أسماع المجتمعات المختلفه،إذ أنّ القرآن یقول: خَلاٰ فِیهٰا نَذِیرٌ و لم یقل«خلا منها نذیر».

و علیه فلا منافاه بین هذه الآیه التی تقصد وصول دعوه الأنبیاء إلی الأمم،مع الآیه(۴۴)من سوره سبأ و التی تقول: وَ مٰا أَرْسَلْنٰا إِلَیْهِمْ قَبْلَکَ مِنْ نَذِیرٍ و التی یقصد منها کون المنذر منهم.

و یضیف تعالی فی الآیه التالیه: وَ إِنْ یُکَذِّبُوکَ فلا عجب من ذلک،و لا تحزن بسبب ذلک،لأنّه فَقَدْ کَذَّبَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ جٰاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَیِّنٰاتِ وَ بِالزُّبُرِ

وَ بِالْكِتٰابِ الْمُنِيرِ

.

فلست وحدك الذى أصبحت موضع تكذيب هؤلاء القوم الجاهلين بما عندك من معجزات و كتاب سماوى،فقد واجه الرسل السابقون هذه المشكله أيضا،لذا فلا تغتمّ و واصل سيرك بحزم،و اعلم أنّ من كتبت له الهدايه فسوف يهتدى.

أمّا ما هو الفرق بين(البيّنات-و الزبر-و الكتاب المنير)؟المفسّرين أظهروا وجهات نظر مختلفه،أوضحها تفسيران:

١-«البيّنات»بمعنى الدلائل الواضحه و المعجزات التى تثبت حقّانيه النبى،أمّا «الزبر»فجمع«زبور»بمعنى الكتب التى كتبت بإحكام(مثل الكتابه على الحجر و أمثالها)و هى كنايه عن استحكام مطالبها (١) .و إشاره إلى الكتب النازله قبل موسى عليه السلام.فى حين أنّ«الكتاب المنير»إشاره إلى كتاب موسى عليه السّلام و الكتب السماويه الاخرى التى نزلت بعده،(لأنّه وردت الإشاره فى القرآن المجيد فى سوره المائده-الآيات ۴۴ و ۴۶ إلى التوراه و الإنجيل على أنّهما(هدى و نور و فى نفس السوره-الآيه ۱۵ عبّر عن القرآن الكريم بالنور أيضا).

٢-المقصود ب«الزبر»ذلك القسم من كتب الأنبياء التى تحتوى على العبره و الموعظه و النصيحه و المناجاه(كزبور داود)،و أمّا«الكتاب المنير»فتلك المجموعه من الكتب السماويه التى تحتوى على الأحكام و القوانين و التشريعات الاجتماعيه و الفرديه المختلفه مثل التوراه و الإنجيل و القرآن.و يبدو أنّ هذا التّفسير أنسب.

تشير الآيه الأخيره من هذه الآيات إلى العقاب الأليم لتلك المجموعه فتقول:

ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا

(٢)

فهم لم يكونوا بمنأى عن العقاب الإلهى،و إن

١- ١) يقول الراغب فى مفرداته:زبرت الكتاب كتبته كتابه عظيمه،و كلّ كتاب غليظ يقال له زبور.

٢- ٢) -(أخذت)من مادّه(أخذ)بمعنى حيازه الشيء و تحصيله،لكنّها هنا كنايه عن المجازاه،لأنّ الأخذ مقدّمه للعقاب.

استطاعوا أن يستمروا بتكذيبهم إلى حين.

فبعض عاقبناهم بالطوفان،و بعض بالريح العاصفه المدمّره،و آخرون بالصيحه و الصاعقه و الزلزله.

أخيرا لتأكيد و بيان شدّه و قسوه العقوبه عليهم يقول: فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ ذلك تماما مثلما يقوم شخص بإنجاز عمل مهمّ ثمّ يسأل الحاضرين:كيف كان عملی؟ على أيّه حال فإنّ هذه الآيات تواسی و تطمئن من جانب كلّ سالكی طريق اللّه و القاده و الزعماء المخلصين منهم بخاصّه،من كلّ امّه و فی أی عصر و زمان،لكی لا ييأسوا و لا يفقدوا الأمل عند سماعهم استنكار المخالفين،و لكی يعلموا أنّ الدعوات الإلهيه واجهت دائما معارضه شديده من قبل المتعصّبين الجاحدين الظلمه،و فی نفس الوقت وقف المحبّون العاشقون المتولّهون إلى جنب دعاه الحقّ وفدوهم بأنفسهم أيضا.

و من جانب آخر فهی تهديد للمعاندين الجاحدين،لكی يعلموا أنّهم لن يستطيعوا إدامه أعمالهم التخريبيه القبيحه إلى الأبد،فعاجلا أو آجلا ستحيط بهم العقوبه الإلهيه.

ص :71

الآيتان [سوره فاطر (۳۵): الآيات ۲۷ الی ۲۸]

اشاره

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اَللّٰهَ أَنْزَلَ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً فَأَخْرَجْنٰا بِهِ ثَمَرٰاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوٰانُهٰا وَ مِنَ اَلْجِبٰالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَ حُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوٰانُهٰا وَ غَرٰابِيبُ سُودٌ (۲۷) وَ مِنَ اَلنّٰاسِ وَ اَلدَّوَابِّ وَ اَلْأَنْعٰامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوٰانُهُ كَذٰلِكَ إِنَّمٰا يَخْشَى اَللّٰهَ مِنْ عِبٰادِهِ اَلْعُلَمٰاءُ إِنَّ اَللّٰهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (۲۸)

التّفسیر

اشاره

العجائب المختلفه للخلقه:

مرّه اخری تعود هـذه الآیات إلی مسأله التوحیـد،و تفتح صـفحه جدیده من کتاب التکوین أمام ذوی البصائر من الناس،لکی ترد بعنف علی المشرکین المعاندین و منکری التوحید المتعصّبین.

لفتت هـذه الصـفحه المشـرقه من کتـاب الخلق العظیم إلی تنوّع الجمادات و المظاهر المختلفه و الجمیله للحیاه فی عالم النبات و الحیوان و الإنسان،و کیف جعل اللّه سبحانه من الماء العدیم اللون الآلاف من الکائنات الملوّنه،و کیف خلق من عناصـر معیّنه و محدوده موجودات متنوّعه أحدها أجمل من الآخر.

فهذا النقاش الحاذق أبدع بقلم واحد و حبر واحد أنواع الرسوم و الأشکال التی

تجذب الناظرین و تحیّرهم و تدهشهم.

أوّلا تقول الآیه الکریمه: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَأَخْرَجْنٰا بِهِ ثَمَرٰاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوٰانُهٰا .

شروع هذه الجمله بالاستفهام التقریری،و بتحریک حسّ التساؤل لدی البشر، إشاره إلی أنّ هذا الموضوع جلی إلی درجه أنّ أی شخص إذا نظر أبصر،نعم، یبصر هذه الفواکه و الزهور الجمیله و الأوراق و البراعم المختلفه بأشکال مختلفه تتولّد من ماء و تراب واحد.

«ألوان»:قد یکون المراد«الألوان الظاهریه للفواکه»و التی تتفاوت حتّی فی نوع الفاکهه الواحد کالتفّاح الذی یتلوّن بألوان متنوعه ناهیک عن الفواکه المختلفه.

و قد یکون کنایه عن التفاوت فی المذاق و الترکیب و الخواص المتنوّعه لها، إلی حدّ أنّه حتّی فی النوع الواحد من الفاکهه توجد أصناف متفاوته،کما فی العنب مثلا حیث أنّه أکثر من ۵۰ نوعا،و التمر أکثر من سبعین نوعا.

و الملفت للنظر هو استخدام صیغه الغائب فی الحدیث عنه عزّ و جلّ،ثمّ الانتقال إلی صیغه المتکلّم،و هذا النوع من التعابیر،غیر منحصر فی هذه الآیه فقط،بل یلاحظ فی مواضع اخری من القرآن المجید أیضا،و کأنّ الجمله الاولی تعطی للمخاطب إدراکا و معرفه جدیده،و تستحضره بهذا الإدراک و المعرفه بین یدی الباری عزّ و جلّ،ثمّ عنده حضوره یلقی علیه الحدیث مباشره.

ثمّ تشیر الآیه إلی تنوّع أشکال الجبال و الطرق الملوّنه التی تمرّ من خلالها و تؤدّی إلی تشخیصها و تفریقها الواحده عن الاخری.فتقول: وَ مِنَ الْجِبٰالِ جُدَدٌ بِیضٌ وَ حُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوٰانُهٰا وَ غَرٰابِیبُ سُودٌ (۱) .

هذا التفاوت اللونی یضفی علی الجبال جمالا خاصّا من جهه،و من جهه

ص: ۷۳

---

۱ – ۱) -قال البعض بأنّ هذه الجمله الاستئنافیه«من الجبال»خبر مقدّم و«جدد»مبتدأ مؤخّر،و ذهب آخرون:إنّ تقدیر الجمله هکذا«ألم تر أنّ من الجبال جدد بیض و حمر مختلف ألوانها».

اخری،یکون سببا لتشخیص الطرق و عدم الضیاع فیما بین طرقها الملیئه بالالتواءات و الانحدارات،و أخیرا فهو دلیل علی أنّ اللّه علی کلّ شیء قدیر.

«جدد»جمع«جدّه»-علی وزن غدّه-بمعنی الجادّه و الطریق.

«بیض»جمع«أبیض»کما أنّ«حمر»جمع«أحمر»و هو إشاره إلی الألوان.

«غرابیب»جمع«غربیب»-علی وزن کبریت-و هو المشبّه للغراب فی السواد، کقولک أسود کحلک الغراب.و علیه فإنّ ذکر کلمه«سود»بعدها و التی هی أیضا جمع«أسود»تأکید علی شدّه و حلک السواد فی بعض الطرق الجبلیه (۱) .

و احتمل أیضا أن یکون التّفسیر:ألم تر أنّ الجبال نفسها مثل طرائق بیضا و حمرا و سودا مختلفا ألوانها خطّت علی سطح الأرض،و خاصّه إذا نظر إلیها الشخص من فاصله بعیده،فانّها تری علی شکل خطوط مختلفه ممدوده علی وجه الأرض بیض و حمر و سود مختلف ألوانها (۲) .

علی کلّ حال فإنّ تشکیل الجبال بألوان مختلفه من جهه،و تلوین الطرق الجبلیه بألوان متفاوته،من جهه اخری،دلیل آخر علی عظمه و قدره و حکمه اللّه سبحانه و تعالی و التی تتجلّی و تتزیّن کلّ آن بشکل جدید.

و فی الآیه التالیه تطرح مسأله تنوّع الألوان فی البشر و الأحیاء الاخری، فیقول تعالی: وَ مِنَ النّاسِ وَ الدَّوَابِّ وَ الْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ .

أجل،فالبشر مع کونهم جمیعا لأب و أمّ واحدین،إلاّ أنّهم عناصر و ألوان متفاوته تماما،فالبعض أبیض البشره کالوفر،و البعض الآخر أسود کالحبر،و حتّی فی العنصر الواحد فإنّ التفاوت فی اللون شدید أیضا،بل إنّ التوأمین الذین یطویان المراحل الجنینیه معا،و اللذین یحتضن أحدهما الآخر منذ البدء،إذا دقّقنا

ص:۷۴

۱- ۱) -استنادا إلی ما صرّحت به بعض کتب اللغه کلسان العرب فإنّ(سود)فی الآیه أعلاه هی بدل عن«غرابیب» لأنّه فی حاله الألوان لا یقدّم التأکید،لاحظ أنّ(غرابیب)أکثر إشباعا للتأکید من ناحیه السواد،لذا قیل إنّ الأصل کان«سود غرابیب».
۲- ۲) -تفسیر المیزان،مجلّد ۱۷،صفحه ۴۲.

النظر نجدهما ليسا من لون واحد،مع أنّهما من نفس الأبوين،و تمّ انعقاد نطفتيهما فى وقت واحد،و تغذّيا من غذاء واحد.

ناهيك عن التفاوت و الاختلاف الكامل فى بواطنهم عدّ أشكالهم الظاهريه، و فى خلقهم و رغباتهم و خصوصيات شخصياتهم و استعداداتهم و ذوقهم،بحيث يتكوّن بذلك كيان مستقل منسجم بكلّ احتياجاته الخاصّه.

فى عالم الكائنات الحيّه أيضا يوجد آلاف الآلاف من أنواع الحشرات، الطيور،الزواحف،الحيوانات البحريه،الوحوش الصحراويه،بكلّ خصائصها النوعيه و عجائب خلقتها.كدلاله على قدره و عظمه و علم خالقها.

حينما نضع قدمنا فى حديقه كبيره من حدائق الحيوان فسوف نصاب بالذهول و الحيره و الدهشه بحيث أنّنا-بلا وعى منّا-نتوجّه بالشكر و الثناء للّه المبدع لكلّ هذا الفن الخلاّب على صفحه الوجود.مع أنّنا لا نرى أمامنا فى تلك الحديقه إلاّ جزء من آلاف الأجزاء من الموجودات الحيّه فى العالم.

و بعد عرض تلك الأدلّه التوحيديه يقول تعالى فى الختام جامعا:نعم إنّ الأمر كذلك كَذٰلِكَ (١) .

و لأنّ إمكانيه الانتفاع من آيات الخلق العظيمه هذه تتوفّر أكثر عند العباد العقلاء و المفكّرين يقول تعالى فى آخر الآيه: إِنَّمٰا يَخْشَى اللّٰهَ مِنْ عِبٰادِهِ الْعُلَمٰاءُ .

نعم فالعلماء من بين جميع العباد،هم الذين نالوا المقام الرفيع من الخشيه «و هى الخوف من المسؤوليه متوافق مع إدراك لعظمه اللّه سبحانه»،حاله(الخشيه) هذه تولّدت نتيجه سبر أغوار الآيات الآفاقيه و الأنفسيه،و التعرّف على حقيقه علم و قدره اللّه و غايه الخلق.

١- ١) -حول ما هو إعراب«كذلك»أعطيت احتمالات عديده،بعضهم قالوا بأنّها جمله مستقلّه تقديرها(الأمر كذلك)و نحن انتخبنا فى تفسيرنا هذا المعنى لكونه الأنسب،و لكن البعض ربطوها بالجمله السابقه فقالوا:إنّ المعنى هو كما أنّ الثمرات و جدد الجبال مختلف ألوانها كذلك الناس و الدواب و الأنعام،و قد احتمل أيضا أن تكون الجمله مرتبطه بما بعدها و المعنى:كذلك تختلف أحوال العباد فى الخشيه.

الراغب فی مفرداته یقول:«الخشیه خوف یشوبه تعظیم،و أکثر ما یکون ذلک عن علم بما یخشی منه،و لذلک خصّ العلماء بها».

قلنا تکرارا بأنّ الخوف من اللّه بمعنی الخوف من المسؤولیه التی یواجهها الإنسان،الخوف من أن یقصّر فی أداء رسالته و وظیفته،ناهیک عن أنّ إدراک جسامه تلک المسؤولیه یؤدّی أیضا إلی الخشیه،لأنّ اللّه المطلق قد عهد بها إلی الإنسان المحدود الضعیف،(تأمّل بدقّه)!! کذلک یستفاد من هذه الجمله ضمنا بأنّ العلماء الحقیقیین هم أولئک الذین یستشعرون المسؤولیه الثقیله حیال وظائفهم،و بتعبیر آخر:أهل عمل لا کلام،إذ أنّ العلم بدون عمل دلیل علی عدم الخشیه،و من لا یستشعر الخشیه لا تشمله الآیه أعلاه.

هذه الحقیقه

وردت فی حدیث عن الإمام زین العابدین علی بن الحسین علیه السّلام حیث یقول: «و ما العلم باللّه و العمل إلاّ إلفان مؤتلفان فمن عرف اللّه خافه،و حثّه الخوف علی العمل بطاعه اللّه،و إنّ أرباب العلم و أتباعهم(هم)الذین عرفوا اللّه فعملوا له و رغبوا إلیه،و قد قال اللّه: إِنَّمٰا یَخْشَی اللّٰهَ مِنْ عِبٰادِهِ الْعُلَمٰاءُ » (1) .

و نقرأ

فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام فی تفسیر هذه الآیه «یعنی بالعلماء من صدق قوله فعله و من لم یصدق قوله فعله فلیس بعالم» (2) .

و

فی حدیث آخر جاء «أعلمکم باللّه أخوفکم للّه» (3) .

ملخّص القول أنّ العلماء-بالمنطق القرآنی-لیسوا أولئک الذین تحوّلت أدمغتهم إلی صنادیق للآراء و الأفکار المختلفه من هنا و هناک و ملیئه بالقوانین و المعادلات العلمیّه للعالم و تلهج بها ألسنتهم،أو الذین سکنوا المدارس

1- 1) -روضه الکافی،طبقا لنقل نور الثقلین،مجلّد 4،صفحه 359.
2- 2) -مجمع البیان،تفسیر الآیات مورد البحث.
3- 3) -...

و الجامعات و المكاتب،بل إنّ العلماء هم أصحاب النظر الذين أضاء نور العلم و المعرفه كلّ وجودهم بنور اللّه و الإيمان و التقوى،و الذين هم أشدّ الناس ارتباطا بتكاليفهم مع ما يستشعرونه من عظمه المسؤوليه إزاءها.

نقرأ فى سوره القصص أيضا أنّه حينما اغترّ«قارون»و استشعر الرضى عن نفسه و ادّعى لها مقام العلم،قام يعرض ثروته أمام الناس،و تمنّى عبّاد الدنيا الذين أسرتهم تلك المظاهر البرّاقه أن تكون لهم مثل تلك الثروه و الإمكانيه الدنيويه، و لكن علماء بنى إسرائيل قالوا لهم:إنّ ثواب اللّه خير و أبقى لمن آمن و عمل صالحا،و لا يفوز بذلك إلاّ الصابرون المستقيمون: وَ قٰالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوٰابُ اللّٰهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً وَ لاٰ يُلَقّٰاهٰا إِلاَّ الصّٰابِرُونَ (1) .

و فى ختام الآيه يقول تعالى،كدليل موجز على ما مرّ: إِنَّ اللّٰهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ .

«عزّته»و قدرته اللامتناهيه منبع للخوف و الخشيه عند العلماء،و(غفرانه)، سبب فى الرجاء و الأمل عندهم،و بذا فإنّ هذين الاسمين المقدسين يحفظان عباد اللّه بين الخوف و الرجاء،و نعلم بأنّه لا يمكن إدامه الحركه باتّجاه التكامل بدون الاتّصاف بهاتين الصفتين بشكل متكافئ.***

1- 1) -القصص-80

الآیتان [سوره فاطر (۳۵): الآیات ۲۹ الی ۳۰]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِینَ یَتْلُونَ کِتٰابَ اَللّٰهِ وَ أَقٰامُوا اَلصَّلاٰهَ وَ أَنْفَقُوا مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ سِرًّا وَ عَلاٰنِیَهً یَرْجُونَ تِجٰارَهً لَنْ تَبُورَ (۲۹) لِیُوَفِّیَهُمْ أُجُورَهُمْ وَ یَزِیدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَکُورٌ (۳۰)

التّفسیر

اشاره

التجاره المربحه مع اللّه:

بعد أن أشارت الآیات السابقه إلی مرتبه الخوف و الخشیه عند العلماء،تشیر الآیات مورد البحث إلی مرتبه«الأمل و الرجاء»عندهم أیضا،إذ أنّ الإنسان بهذین الجناحین-فقط-یمکنه أن یحلّق فی سماء السعاده،و یطوی سبیل تکامله،یقول تعالی أوّلا: إِنَّ الَّذِینَ یَتْلُونَ کِتٰابَ اللّٰهِ وَ أَقٰامُوا الصَّلاٰهَ وَ أَنْفَقُوا مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ سِرًّا وَ عَلاٰنِیَهً یَرْجُونَ تِجٰارَهً لَنْ تَبُورَ (۱) .

بدیهی أنّ«التلاوه»هنا لا تعنی مجرّد القراءه السطحیه الخالیه من التفکّر و التأمّل،بل قراءه تکون سببا و باعثا علی التفکّر،الذی یکون بدوره باعثا علی العمل الصالح،الذی یربط الإنسان باللّه من جهه،و مظهر ذلک الصلاه،و یربطه

۱- ۱) -یلاحظ أنّ«یرجون»خبر«أنّ».

بخلق اللّه من جهه ثـانيه،و مظهر ذلک الإنفاق من کلّ ما تفضّل به اللّه تعالی علی الإنسان،من علمه،من ماله و ثروته و نفوذه،من فکره الخلاّق،من أخلاقه و تجاربه،من جمیع ما وهبه اللّه.

هذا الإنفاق تاره یکون(سرّا)،فیکون دلیلا علی الإخلاص الکامل.و تاره یکون(علانیه)فیکون تعظیما لشعائر اللّه و دافعا للآخرین علی سلوک هذا الطریق.

و مع الالتفات إلی ما ورد فی هذه الآیه و الآیه السابقه نستنتج أنّ العلماء حقّا هم الذین یتّصفون بالصفات التالیه:

*قلوبهم ملیئه بالخشیه و الخوف من اللّه المقترن بتعظیمه تعالی.

*ألسنتهم تلهج بذکر اللّه و تلاوه آیاته.

*یصلّون و یعبدون اللّه.

*ینفقون فی السرّ و العلانیه ممّا عندهم.

*و أخیرا و من حیث الأهـداف،فـإنّ أفق تفکیرهم سـام إلی درجه أنّهم أخرجوا من قلوبهم هـذه الـدنیا المـادیّه الزائله،و یتأمّلون ربحا من تجارتهم الوافره..الربح مع اللّه وحده،لأنّ الید التی تمتدّ إلیه لا تخیب أبدا.

و الجـدیر بالملاحظه أیضـا أنّ«تبور»من«البوار»و هو فرط الکسـاد،و لمّا کان فرط الکساد یؤدّی إلی الفساد کما قیل«کسـد حتّی فسد»عبّر بالبوار عن الهلاک، و بذا فإنّ«التجاره الخالیه من البوار»تجاره خالیه من الکساد و الفساد.

ورد فی حـدیث رائع أنّه جاء رجـل إلی رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم فقال:یا رسول اللّه،ما لی لا أحبّ الموت؟قال:«أ لک مال»قال:نعم.قال:«فقدّمه»قال:لا أستطیع.قال:

«فإنّ قلب الرجل مع ماله،إن قدّمه أحبّ أن یلحق به،و إن أخّره أحبّ أن یتأخّر معه» (1) .

إنّ هذا الحدیث فی الحقیقه یعکس روح الآیه أعلاه،لأنّ الآیه تقول إنّ الذین

1- 1) -مجمع البیان،ج 4،ص 407.

یقیمون الصلاه،و ینفقون فی سبیل اللّه لهم أمل و تعلّق بدار الآخره،لأنّهم أرسلوا الخیرات قبلهم و لهم المیل للحوق به.

الآیه الأخیره من هذه الآیات،توضّح هدف هؤلاء المؤمنین الصادقین فتقول:

انّهم یعملون الخیرات و الصالحات لِیُوَفِّیَهُمْ أُجُورَهُمْ وَ یَزِیدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَکُورٌ (1) .

هذه الجمله فی الحقیقه تشیر منتهی إخلاصهم،لأنّهم لا ینظرون إلاّ إلی الأجر الإلهی،أی شیء یریدونه من اللّه یطلبونه،و لا یقصدون به الریاء و التظاهر و توقّع الثناء من هذا و من ذاک،إذ أنّ أهمّ قضیّه فی الأعمال الصالحه هی«النیّه الخالصه».

التعبیر ب«أجور»فی الحقیقه لطف من اللّه،فکأنّ العباد یطلبون من اللّه مقابل أعمالهم أجرا!!فی حال أنّ کلّ ما یملکه العباد منه تعالی،حتّی القدره علی إنجاز الأعمال الصالحه أیضا هو الذی أعطاهم إیّاها.

و ألطف من هذا التعبیر قوله وَ یَزِیدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ الذی یبشّرهم بأنّه علاوه علی الثواب الذی یکون عاده علی الأعمال و الذی یکون مئات أو آلاف الأضعاف المضاعفه للعمل،فإنّه یزیدهم من فضله،و یعطیهم من سعه فضله ما لم یخطر علی بال،و ما لا یملک أحد فی هذه الدنیا القدره علی تصوره.

جاء فی حدیث عن ابن مسعود عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال فی قوله:

وَ یَزِیدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ

:هو الشفاعه لمن وجبت له النار ممّن صنع إلیه معروفا فی الدنیا (2) .

و بذا فإنّهم لیسوا فقط من أهل النجاه،بل إنّهم یکونون سببا فی نجاه الآخرین بفضل اللّه و لطفه.

1- 1) -جمله«لیوفّیهم»إمّا أنّها متعلّقه بجمله«یتلون کتاب اللّه...»و علیه یکون معناها«إنّ هدفهم من التلاوه و الصلاه و الإنفاق الحصول علی الأجر الإلهی»أو أنّها متعلّقه ب«لن تبور...»و بذا یکون معناها«إنّ تجارتهم لن یصیبها الفساد لأنّ المثیب لهم هو اللّه تعالی».

2- 2) -مجمع البیان،ج 4،ص 407.

و قال بعض المفسّرين بأنّ جمله: وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إشاره إلى مقام «الشهود»الذى يكون للمؤمنين فى يوم القيامه بأن يمكّنهم اللّه من النظر إلى جماله و جلاله و الالتذاذ من ذلك بأعظم اللذّات.و لكن يظهر أنّ الجمله المذكوره لها معنى واسع و شامل بحيث يشمل محتوى الحديث المذكور و عطايا و مواهب اخرى غير معروفه أيضا.

جمله إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ تدلّل على أنّ أوّل لطف اللّه معهم،هو«العفو»عن ذنوبهم و زلاّتهم التى تبدر منهم أحيانا،لأنّ أشدّ قلق المؤمن يكون من هذا الجانب.

و بعد أن يهدأ بالهم من تلك الجهه،فانّه تعالى يشملهم ب«الشكر»أى انّه يشكر لهم أعمالهم و يعطيهم أفضل الجزاء و الثواب.

نقل تفسير«مجمع البيان»مثلا تضربه العرب و هو«أشكر من بروقه»و تزعم العرب أنّها-أى بروقه-شجره عاريه من الورق،تغيم السماء فوقها فتخضر و تورق من غير مطر (۱) .و هو مثل يضرب للتعبير عن منتهى الشكر،ففى قبال أقل الخدمات،يقدّم أعظم الثواب.بديهى أنّ خالق مثل هذه الشجره أشكر منها و أرحم.***

تعليقه

اشاره

شروط تلك التجاره العجيبه:

الملفت للنظر أنّ كثيرا من الآيات القرآنيه الكريمه تشبّه هذا العالم بالمتجر الذى تجّاره الناس،و المشترى هو اللّه سبحانه و تعالى،و بضاعته العمل الصالح،

۱- ۱) -مجمع البيان،ج ۴،ص ۴۰۷.

و القیمه أو الأجر:الجنّه و الرحمه و الرضا منه تعالی (۱) .

و لو تأمّلنا بشکل جیّد فسوف نری أنّ هذه التجاره العجیبه مع اللّه الکریم لیس لها نظیر،لأنّها تمتاز بالمزایا التالیه التی لا تحتویها أیّه تجاره اخری:

۱-إنّ اللّه سبحانه و تعالی أعطی للبائع تمام رأسماله،ثمّ کان له مشتریا!.

۲-إنّ اللّه تعالی مشتر فی حال أنّه غیر محتاج-إلی شیء تماما-فلدیه خزائن کلّ شیء.

۳-إنّه تعالی یشتری«المتاع القلیل»بالسعر«الباهض»«یا من یقبل الیسیر و یعفو عن الکثیر»،«یا من یعطی الکثیر بالقلیل».

۴-هو تعالی یشتری حتّی البضاعه التافهه فَمَنْ یَعْمَلْ مِثْقٰالَ ذَرَّهٍ خَیْراً یَرَهُ .

۵-أحیانا یعطی قیمه تعادل سبعمائه ضعف أو أکثر«البقره-۲۶۱».

۶-علاوه علی دفع الثمن العظیم فإنّه أیضا یضیف إلیه من فضله و رحمته وَ یَزِیدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ (الآیه موضوع البحث).

و یا له من أسف أنّ الإنسان العاقل الحرّ،یغلق عینیه عن تجاره کهذه،و یشرع بغیرها،و أسوأ من ذلک أن یبیع بضاعته مقابل لا شیء.

أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب(علیه أفضل الصلاه و السلام)یقول: «ألا حرّ یدع هذه اللّماظه لأهلها،إنّه لیس لأنفسکم ثمن إلاّ الجنّه،فلا تبیعوها إلاّ بها» (۲) . ***

۱- ۱) -سوره الصف:آیه ۱ و التوبه-آیه ۱۱۱ و البقره ۲۰۷ و النساء-۷۴.

۲- ۲) -نهج البلاغه،الکلمات القصار،جمله ۴۵۶،صفحه ۵۵۶.

الآیتان [سوره فاطر (۳۵): الآیات ۳۱ الی ۳۲]

اشاره

وَ اَلَّذِی أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ مِنَ اَلْکِتٰابِ هُوَ اَلْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمٰا بَیْنَ یَدَیْهِ إِنَّ اَللّٰهَ بِعِبٰادِهِ لَخَبِیرٌ بَصِیرٌ (۳۱) ثُمَّ أَوْرَثْنَا اَلْکِتٰابَ اَلَّذِینَ اِصْطَفَیْنٰا مِنْ عِبٰادِنٰا فَمِنْهُمْ ظٰالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سٰابِقٌ بِالْخَیْرٰاتِ بِإِذْنِ اَللّٰهِ ذٰلِکَ هُوَ اَلْفَضْلُ اَلْکَبِیرُ (۳۲)

التّفسیر

اشاره

الورثه الحقیقیّون لمیراث الأنبیاء:

بعد أن کان الحدیث فی الآیات السابقه عن المؤمنین المخلصین الذین یتلون الکتاب الإلهی و یطبّقون وصایاه،تتحدّث هذه الآیات عن ذلک الکتاب السماوی و أدلّه حقّانیّه،و کذلک عن الحمله الحقیقیین لذلک الکتاب،و بذا یستکمل الحدیث الذی افتتحته الآیات السابقه حول التوحید،بالبحث الذی تثیره هذه الآیات حول النبوّه.

تقول الآیه الکریمه: وَ الَّذِی أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ مِنَ الْکِتٰابِ هُوَ الْحَقُّ .

مع الأخذ بنظر الإعتبار أنّ(الحقّ)یعنی کلّ ما ینطبق مع الواقع و ینسجم معه، فإنّ هذا التعبیر دلیل علی إثبات أنّ هذا الکتاب السماوی نازل من اللّه تعالی،لأنّنا

کلّما دقّقنا النظر فی هذا الکتاب السماوی وجدناه أکثر انسجاما مع الواقع.

فلیس فیه تناقض،أو کذب أو خرافه،بل فمبادئه و معارفه تنسجم مع منطق العقل.قصصه و تواریخه منزّهه عن الأساطیر و الخرافات،و قوانینه تتساوق مع احتیاجات البشر،فتلک الحقّانیه دلیل واضح علی أنّه نازل من اللّه سبحانه و تعالی.

هنا و لأجل توضیح موقع القرآن الکریم،تمّت الاستفاده هنا من کلمه«الحقّ»، فی حال أنّه فی آیات اخری من القرآن الکریم ورد التعبیر عنه ب«النور»و «البرهان»و«الفرقان»و«الذکر»و«الموعظه»و«الهدی»،و کلّ واحده منها تشیر إلی واحده من برکات القرآن و أبعاده،بینما کلمه(الحقّ)تشمل جمیع تلک البرکات.

یقول الراغب فی(مفرداته):أصل الحقّ المطابقه و الموافقه،و الحقّ یقال علی أوجه:

الأوّل:یقال لمن یوجد الشیء علی أساس الحکمه،و لهذا قیل فی اللّه تعالی هو الحقّ،لذا قال اللّه: فَذٰلِکُمُ اللّٰهُ رَبُّکُمُ الْحَقُّ . (۱)

الثّانی:یقال للشیء الذی وجد بحسب مقتضی الحکمه،و لهذا یقال فعل اللّه تعالی کلّه حقّ، قال تعالی: مٰا خَلَقَ اللّٰهُ ذٰلِکَ إِلاّٰ بِالْحَقِّ ، (۲) أی الشمس و القمر و غیر ذلک.

الثّالث:فی العقائد المطابقه للواقع.قال تعالی: فَهَدَی اللّٰهُ الَّذِینَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِیهِ مِنَ الْحَقِّ . (۳)

و الرّابع:یقال للأقوال و الأفعال الصادر وفقا لما یجب،و بقدر ما یجب،و فی الوقت المقرّر،کقولنا:فعلک حقّ،و قولک حقّ (۴) .

ص:۸۴

۱- ۱) -یونس،۳۲.

۲- ۲) -یونس-۵.

۳- ۳) -البقره-۲۱۳.

۴- ۴) -مفردات الراغب-مادّه حقّ.«مع تلخیص و اختصار».

و بناء علیه،فإنّ حقّانیه القرآن المجید هی من حیث کونه حدیثا مطابقا للمصالح و الواقعیات من جهه،کما أنّ العقائد و المعارف الموجوده فیه تنسجم مع الواقع من جهه اخری،و من جهه ثالثه فإنّه من نسج اللّه و صنعه الذی صنعه علی أساس الحکمه،و اللّه ذاته تعالی الذی هو الحقّ یتجلّی فی ذلک الکتاب العظیم، و العقل یصدق و یؤمن بما هو حقّ.

جمله مُصَدِّقاً لِمٰا بَیْنَ یَدَیْهِ دلیل آخر علی صدق هذا الکتاب السماوی،لأنّه ینسجم مع الدلائل المذکوره فی الکتب السماویه السابقه فی إشارتها إلیه و إلی حامله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

جمله إِنَّ اللّٰهَ بِعِبٰادِهِ لَخَبِیرٌ بَصِیرٌ توضّح علّه حقّانیه القرآن و انسجامه مع الواقع و الحاجات البشریه،لأنّه نازل من اللّه سبحانه و تعالی الذی یعرف عباده خیر معرفه،و هو البصیر الخبیر فیما یتعلّق بحاجاتهم.

لکن ما هو الفرق بین«الخبیر»و«البصیر»؟ قال البعض:«الخبیر»العالم بالبواطن و العقائد و النیّات و البعد الروحی فی الإنسان،و«البصیر» العالم بالظواهر و البعد الجسمانی للإنسان.

و قال آخرون:«الخبیر»إشاره إلی أصل خلق الإنسان،و«البصیر»إشاره إلی أعماله و أفعاله.

و طبیعی أنّ التّفسیر الأوّل یبدو أنسب و إن کان شمول الآیه لکلا المعنیین لیس مستبعدا.

الآیه التّالیه تتحدّث فی موضوع مهم بالنسبه إلی حمله هذا الکتاب السماوی العظیم،أولئک الذین رفعوا مشعل القرآن الکریم بعد نزوله علی الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،فی زمانه و بعده علی مرّ القرون و العصور،و هم یحفظونه و یحرسونه، فتقول: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْکِتٰابَ الَّذِینَ اصْطَفَیْنٰا مِنْ عِبٰادِنٰا .

واضح أنّ المقصود من«الکتاب»هنا،هو نفس ما ذکر فی الآیه السابقه و هو

«القرآن الکریم»و الألف و اللام فیه«للعهد».و القول بأنّ المراد هو الإشاره للکتب السماویه،و أنّ اللام هنا«للجنس»یبدو بعید الاحتمال،و لیس فیه تناسب مع ما ورد فی الآیات السابقه.

التعبیر ب«الإرث»هنا و فی موارد اخری مشابهه فی القرآن الکریم،لأجل أنّ «الإرث»یطلق علی ما یستحصل بلا مشقّه أو جهد،و اللّه سبحانه و تعالی أنزل هذا الکتاب السماوی العظیم للمسلمین هکذا بلا مشقّه أو جهد.

لقد وردت روایات کثیره هنا من أهل البیت علیهم السّلام فی تفسیر عباره اَلَّذِینَ اصْطَفَیْنا بالأئمّه المعصومین علیهم السّلام (۱) .

هذه الروایات-کما ذکرنا مرارا-ذکر لمصادیق واضحه و فی الدرجه الاولی.

و لکن لا مانع من اعتبار العلماء و المفکّرین فی الامّه،و الصلحاء و الشهداء،الذین سعوا و اجتهدوا فی طریق حفظ هذا الکتاب السماوی،و المداومه علی تطبیق أوامره و نواهیه،تحت عنوان اَلَّذِینَ اصْطَفَیْنا مِنْ عِبادِنا .

ثمّ تنتقل الآیه إلی تقسیم مهمّ بهذا الخصوص،فتقول: فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَیْراتِ بِإِذْنِ اللّهِ ذلِکَ هُوَ الْفَضْلُ الْکَبِیرُ .

ظاهر الآیه هو أنّ هذه المجامع الثلاثه هی من بین اَلَّذِینَ اصْطَفَیْنا أی:

ورثه و حمله الکتاب السماوی.

و بتعبیر أوضح،إنّ اللّه سبحانه و تعالی قد أوکل مهمّه حفظ هذا الکتاب السماوی،بعد الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی هذه الامّه،الامّه التی اصطفاها اللّه سبحانه،غیر أنّ فی تلک الامّه مجامیع مختلفه:بعضهم قصّروا فی وظیفتهم العظیمه فی حفظ هذا الکتاب و العمل بأحکامه،و فی الحقیقه ظلموا أنفسهم،و هم مصداق ظالِمٌ لِنَفْسِهِ .

و مجموعه اخری،أدّت وظیفتها فی الحفظ و العمل بالأحکام إلی حدّ کبیر،و إن

۱- ۱) -راجع تفسیر نور الثقلین،المجلّد ۴،صفحه ۳۶۱.

كان عملها لا يخلو من بعض الزلّات و التقصيرات أيضا،و هؤلاء مصداق «مقتصد».

و أخيرا مجموعه ممتازه،أنجزت وظائفها العظيمه بأحسن وجه،و سبقوا الجميع فى ميدان الاستباق،و الذين أشارت إليهم الآيه بقولها: سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللّهِ .

و هنا يمكن أن يقال بأنّ وجود المجموعه«الظالمه»ينافى أنّ هؤلاء جميعا مشمولون بقوله«اصطفينا»؟ و فى الجواب نقول:إنّ هذا شبيه بما ورد بالنسبه إلى بنى إسرائيل فى الآيه (۵۳)من سوره المؤمن: وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَ أَوْرَثْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ، فى حال أنّنا نعلم أنّ بنى إسرائيل جميعهم لو يؤدّوا وظيفتهم إزاء هذا الميراث العظيم.

أو نظير ما ورد فى الآيه(۱۱۰)من سوره آل عمران: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّهٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاسِ .

أو ما ورد فى الآيه(۱۶)من سوره الجاثيه بخصوص بنى إسرائيل أيضا وَ فَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ .

و كذلك فى الآيه(۲۶)من سوره الحديد نقرأ: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَ إِبْرَاهِيمَ وَ جَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّهَ وَ الْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ .

و خلاصه القول:إنّ الإشاره فى أمثال هذه التعبيرات ليست للامّه بأجمعها فردا فردا،بل إلى مجموع الامّه،و إن احتوت على طبقات،و مجموعات مختلفه (۱) .

---

۱ – ۱) -أمّا ما احتمله البعض من أنّ التقسيم الوارد فى الآيه يعود على«عبادنا»و ليس على«الذين اصطفينا»، بحيث أنّ هذه المجموعات الثلاثه لا تدخل ضمن مفهوم ورثه الكتاب،بل ضمن مفهوم«عبادنا»و«الذين اصطفينا»فقط المجموعه الثالثه أى«السابقين بالخيرات»،فيبدو بعيدا،لأنّ الظّاهر هو أنّ هذه المجموعات ممّن ذكرتهم الآيه،و نعلم أنّ الحديث فى الآيه لم يكن عن كلّ العباد،بل عن اَلَّذِينَ اصْطَفَيْنَا ،ناهيك عن إضافه«نا»إلى«عباد»و هو نوع من التمجيد و المدح،ممّا يجعل ذلك غير منسجم مع التّفسير المذكور.

و قد ورد فی روایات کثیره عن أهل بیت العصمه علیهم السّلام فی تفسیر«سابق بالخیرات»بالمعصوم علیه السّلام،و«ظالم لنفسه»بمن لا یعرف الإمام،و«المقتصد» العارف بالإمام (۱) .

هذه التّفسیرات شاهد واضح علی ما اخترناه لتفسیر الآیه،و هو أنّه لا مانع من کون هذه المجامیع الثلاثه ضمن ورثه الکتاب الإلهی.

و لا نحتاج إلی التذکیر بأنّ تفسیر الروایات أعلاه هو من قبیل بیان المصادیق الأوضح للآیه،و هم الأئمّه المعصومون،إذ هم الصفّ الأوّل،بینما العلماء و المفکّرون و حماه الدین الآخرون فی صفوف اخری.

کذلک فإنّ التّفسیر الوارد فی تلک الروایات للظالم و المقتصد،هو أیضا من قبیل بیان المصادیق،و إذا لاحظنا أنّ بعض الرّوایات تنفی شمول الآیه للعلماء فی مقصودها فإنّ ذلک فی الحقیقه لإلفات النظر إلی وجود الإمام فی مقدّمه تلک الصفوف.

و من الجدیر بالذکر أنّ جمعا من المفسّرین القدماء و المعاصرین احتملوا الکثیر من الاحتمالات فی تفسیر هذه المجامیع،و التی هی فی الحقیقه جمیعا من قبیل بیان المصادیق (۲) .

۱- ۱) -راجع تفسیر نور الثقلین،المجلّد ۴،صفحه ۳۶۱،کذلک الکافی،المجلّد ۱،باب من اصطفاه اللّه من عباده.

۲- ۲) -ذهب بعض بأنّ السابق بالخیرات هم أعوان الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المقتصد طبقه التابعین،و الظالم لنفسه أفرادا آخرون. و البعض الآخر فسّروا«سابق بالخیرات»بالذین یفضّل باطنهم علی ظاهرهم و«المقتصد»بالذین یتساوی ظاهرهم و باطنهم،و«الظالم لنفسه»بالذین یفضّل ظاهرهم علی باطنهم. و البعض الآخر قالوا إنّ«السابقین»هم الصحابه،و«المقتصدین»هم تابعیهم،و«الظالمین»هم المنافقون. و قال آخرون بأنّ الآیه تشیر إلی المجموعات الثلاثه الوارده فی سوره الواقعه-الآیات ۷ إلی ۱۱. وَ کُنْتُمْ أَزْوٰاجاً ثَلاٰثَهً فَأَصْحٰابُ الْمَیْمَنَهِ مٰا أَصْحٰابُ الْمَیْمَنَهِ وَ أَصْحٰابُ الْمَشْئَمَهِ مٰا أَصْحٰابُ الْمَشْئَمَهِ وَ السّٰابِقُونَ السّٰابِقُونَ أُولٰئِکَ الْمُقَرَّبُونَ . و فی حدیث أنّ«السابق بالخیرات»هم الأئمّه علی و الحسن و الحسین و شهداء آل محمّد علیهم الصلاه و السلام،و المقتصد المتدیّنون المجاهدون،و الظالم لنفسه الذی خلط عملا صالحا و آخر غیر صالح.

و هنا يطرح السؤال التالى:لماذا ابتدأ الحديث بذكر الظالمين كمجموعه اولى، ثمّ المقتصد،ثمّ السابقين بالخيرات،فى حين أنّ العكس يبدو أولى من عدّه جهات؟ بعض كبار المفسّرين قالوا للإجابه على هذا السؤال:إنّ الهدف هو بيان ترتيب مقامات البشر فى سلسله التكامل،لأنّ أوّل المراحل هى مرحله العصيان و الغفله، و بعدها مقام التوبه و الإنابه،و أخيرا التوجّه و الاقتراب من اللّه سبحانه و تعالى، فحين تصدر المعصيه من الإنسان فهو«ظالم لنفسه»،و حين يلج مقام التوبه فهو «مقتصد»،و حين تقبل توبته و يزداد جهاده فى طريق الحقّ،ينتقل إلى مقام القرب ليرقى إلى مقام«السابقين بالخيرات» (۱) .

و قال آخر:بأنّ هذا الترتيب لأجل الكثره و القلّه فى العدد و المقدار،فالظالمون يشكّلون الأكثريه،و المقتصدون فى المرتبه التاليه،و السابقون للخيرات و هم الخاصّه و الأولياء من الناس هم الأقلّيه و ان كانوا أفضل من الناحيه الكيفيّه.

الملفت للتأمّل ما

نقل فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال:(ما مؤدّاه):

«قدّم الظالم لكى لا ييأس من رحمه اللّه،و أخّر السابقون بالخيرات لكى لا يأخذهم الغرور بعملهم» (۲) .

و يمكن أن يكون كلّ من هذه المعانى الثلاثه مقصودا.

و آخر كلام فى تفسير هذه الآيه حول المشار إليه فى جمله ذٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ؟ قال البعض،بأنّه ميراث الكتاب الإلهى،و قال آخرون بأنّه إشاره إلى التوفيق التى شمل حال السابقين بالخيرات،و طيّهم لهذا الطريق بإذن اللّه،لكن يبدو أنّ

(۲

و كلّ هذه التّفسيرات كما قلنا من قبيل بيان المصاديق،و كلّها قابله للتعقّل،عدا التّفسير الأوّل الّذى لا يحتوى على مفهوم صحيح.

۱- ۱) -مجمع البيان،تفسير الآيه مورد البحث.

۲- ۲) -تفسير أبو الفتوح الرازى،المجلّد ۹ تفسير الآيات مورد البحث.

المعنى الأوّل أنسب و أكثر انسجاما مع ظاهر الآيه.

***

ملاحظه

اشاره

من هم حرّاس الكتاب الإلهى؟

على ما ذكر القرآن الكريم فإنّ اللّه سبحانه و تعالى يشمل الامّه الإسلاميه بمواهب عظيمه،من أهمّها ذلك الميراث الإلهى العظيم و هو«القرآن».

و قد اصطفيت الامّه الإسلاميه من باقى الأمم،و تلك نعمه أعطيت لها، و مسئوليه ثقيله أسندت إليها بنفس النسبه التى فضّلت بها و أصبحت بسببها مشموله باللطف الإلهى،و ستكون هذه الامّه فى صف«السابقين بالخيرات»ما أدّت حقّ حفظ و حراسه هذا الميراث العظيم.أى أن تسبق جميع الأمم فى الخيرات،فى تطوير العلوم،فى التقوى و الزهد،فى العباده و خدمه البشريه،فى الجهاد و الاجتهاد،فى التنظيم و الإداره،فى الفداء و الإيثار و التضحيه،فتتقدّم و تسبق فى كلّ هذه الأمور،و إلاّ فإنّها لا تكون قد أدّت حقّ حفظ ذلك الميراث العظيم.خاصّه إذا علمنا أنّ تعبير«السابقين بالخيرات»مفهوم واسع إلى درجه أنّه يشمل التقدّم فى جميع الأمور ذات المنحى الإيجابى من امور الحياه.

نعم،فحمله مثل هذا الميراث هم-فقط-أولئك الذين يتّصفون بتلك الصفات، بحيث أنّهم لو أعرضوا عن تلك الهديه السماويه العظيمه و لم يراعوا حرمتها، فسيكونون مصداقا ل«ظالم لنفسه»،إذ أنّ محتوى تلك الهديه الإلهيه ليس سوى نجاتهم و توفيقهم و انتصارهم،فإنّ من يضرب عرض الحائط بنسخه الدواء التى كتبها له الطبيب،فإنّه يساعد على استمرار الألم و العذاب لنفسه.و إنّ من يحطّم مصباحه الوحيد و هو يسير فى طريق مظلم،إنّما يسوق نفسه إلى التيه و الضياع، لأنّ اللّه سبحانه و تعالى غنى عن الجميع.

ص: ٩٠

و على المـذنبين أيضـا أن لا ينسوا حقيقه أنّهم كانوا مشـمولين بمضـمون الآيه الكريمه فى زمره اَلَّذِينَ اصْطَفَيْنا و إنّ لهم ذلك الاسـتعداد بـالقوّه،فعليهـم أن يتجـاوزوا مرحلـه«الظـالم لنفسـه»و ينتقلـوا إلى مرحلـه«المقتصـد»و ليرتقـوا مـن هنـاك حتّى ينـالوا فخر«السابقين بالخيرات»،حيث أنّهم من جهه الفطره و البناء الروحى من الذين اصطفاهم الحقّ.

***

الآیات [سوره فاطر (۳۵): الآیات ۳۳ الی ۳۵]

اشاره

جَنّاتُ عَدْنٍ یَدْخُلُونَها یُحَلَّوْنَ فِیها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً وَ لِباسُهُمْ فِیها حَرِیرٌ (۳۳) وَ قالُوا اَلْحَمْدُ لِلّهِ اَلَّذِی أَذْهَبَ عَنَّا اَلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَکُورٌ (۳۴) اَلَّذِی أَحَلَّنا دارَ اَلْمُقامَهِ مِنْ فَضْلِهِ لا یَمَسُّنا فِیها نَصَبٌ وَ لا یَمَسُّنا فِیها لُغُوبٌ (۳۵)

التّفسیر

اشاره

الحمد للّه الذی أذهب عنّا الحزن:

هذه الآیات فی الحقیقه نتیجه لما ورد ذکره فی الآیات الماضیه،یقول تعالی:

جَنّاتُ عَدْنٍ یَدْخُلُونَها

(۱)

.

«جنّات»جمع«جنّه»بمعنی(الروضه)و کلّ بستان ذی شجر یستر بأشجاره الأرض.

ص:۹۲

۱- ۱) -«جنّات عدن»:یمکن أن تکون خبرا لمبتدء محذوف تقدیره«جزائهم»أو«أولئک لهم جنّات عدن»،نظیر الآیه(۳۱-سوره الکهف)بعضهم أیضا قال:إنّها(بدل)عن«الفضل الکبیر»،و لکن باعتبار أنّ«الفضل الکبیر» إشاره إلی میراث الکتاب السماوی،فلا یمکن أن تکون«جنّات»بدلا عنها،إلاّ إذا اعتبرنا المسبّب فی مقام السبب.

و«عدن»بمعنى الاستقرار و الثبات،و منه سمّى المعدن لأنّه مستقر الجواهر و المعادن.و عليه فإنّ«جنّات عدن»بمعنى«جنّات الخلد و الدوام و الاستقرار».

على كلّ حال فإنّ هذا التعبير يشير إلى أنّ نعم الجنّه العظيمه خالده و ثابته، و ليست كنعم الدنيا ممزوجه بالقلق الناجم عن زوالها و عدم دوامها،و أهل الجنّه ليست لهم جنّه واحده،بل جنّات متعدّده تحت تصرّفهم.

ثمّ تشير الآيه إلى ثلاثه أنواع من نعم الجنّه،بعضها إشاره إلى جانب مادّى و بعضها الآخر إلى جانب معنوى و باطنى،و بعض أيضا يشير إلى عدم وجود أى نوع من المعوّقات،فتقول الآيه: يُحَلَّوْنَ فِيهٰا مِنْ أَسٰاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً وَ لِبٰاسُهُمْ فِيهٰا حَرِيرٌ .

فهؤلاء لم يلتفتوا فى هذه الدنيا إلى بريقها و زخرفها،و لم يجعلوا أنفسهم أسرى لزبرجها، و لم يكونوا أسرى التفكير باللباس الفاخر،و اللّه سبحانه و تعالى يعوّضهم عن كلّ ذلك،فيلبسهم فى الآخره أفخر الثياب.

هؤلاء زيّنوا حياتهم الدنيا بالخيرات،فزيّنهم اللّه سبحانه و تعالى فى يوم تجسّد الأعمال يوم القيامه بأنواع الزينه.

لقد قلنا مرارا بأنّ الألفاظ التى وضعت لهذا العالم المحدود لا يمكنها أن توضّح مفاهيم و مفردات عالم القيامه العظيم،فلأجل بيان نعم ذلك العالم الآخر نحتاج إلى حروف اخرى و ثقافه اخرى و قاموس آخر،على أيّه حال،فلأجل توضيح صوره و إن كانت باهته عن النعم العظيمه فى ذلك العالم لا بدّ لنا أن نستعين بهذه الألفاظ العاجزه.

بعد ذلك تلك النعمه الماديّه،تنتقل الآيه مشيره إلى نعمه معنويه خاصّه فتقول:

وَ قٰالُوا الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ

.

فهؤلاء يحمدون اللّه بعد أن أصبحت تلك النعمه العظيمه من نصيبهم،و تلاشت عن حياتهم جميع عوامل الغمّ و الحسره ببركه اللطف الإلهى،و تبدّدت سحب الهمّ

المظلمه عن سماء أرواحهم،فلا خوف من عذاب إلهی،و لا وحشه من موت و فناء،و لا قلق،و لا أذی الماکرین،و لا اضطهاد الجبابره القساه الغاصبین.

اعتبر بعض المفسّرین ذلک الغمّ و الحسره إشاره إلی نظیر ما یتعرّض له فی الدنیا،و اعتبره البعض الآخر إشاره إلی الحسره فی المحشر علی نتائج أعمالهم، و لا تضادّ بین هذین التّفسیرین،و یمکن جمعهما فی إطار المفهوم العام للآیه.

«الحزن»:(علی وزن عدم)،و«الحزن»-علی وزن عسر- کلیهما لمعنی واحد کما ذهب إلیه أرباب اللغه،و أصله الوعوره و الخشونه فی الأرض و اطلق علی الخشونه فی النفس لما یحصل فیها من الغمّ و یضادّه الفرح (۱) .

ثمّ یضیف أهل الجنّه هؤلاء إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَکُورٌ .

فبغفرانه أزال عنّا حسره الزلّات و الذنوب،و بشکره و هبنا المواهب الخالده التی لن یلقی علیها الغمّ بظلاله المشؤومه.غفر و ستر بغفرانه الکثیر الکثیر من ذنوبنا،و بشکره أعطانا الکثیر علی أعمالنا البسیطه القلیله القلیله! أخیرا تنتقل الآیه مشیره إلی آخر النعم،و هی عدم وجود عوامل الإزعاج و المشقّه و التعب و العذاب،فتحکی عن ألسنتهم اَلَّذِی أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَهِ مِنْ فَضْلِهِ لا یَمَسُّنا فِیها نَصَبٌ وَ لا یَمَسُّنا فِیها لُغُوبٌ .

الدار الآخره هناک دار إقامه لا کما فی الدنیا حیث أنّ الإنسان ما أن یألف محیطه و یتعلّق به حتّی یقرع له جرس الرحیل!هذا من جانب.. و من جانب آخر فمع أنّ العمر هناک متّصل بالأبد،إلاّ أنّ الإنسان لا یصیبه الملل أو الکلل،أو التعب أو النصب مطلقا،لأنّهم فی کلّ آن أمام نعمه جدیده،و جمال جدید.

«النصب»بمعنی التعب،و«اللغوب»بمعنی التعب و النصب أیضا.هذا علی ما تعارف علیه أهل اللغه و التّفسیر،فی حین أنّ البعض فرّق بین اللفظتین فقال بأنّ (النصب)یطلق علی المشاقّ الجسمانیه،و«اللغوب»یطلق علی المشاقّ

ص: ۹۴

۱- ۱) -مفردات الراغب.

الروحیه [(۱)] .أو أنّه الضعف و النحول الناجم عن المشقّه و الألم،و بذا یکون «اللغوب»ناجما عن«النصب» [(۲)] .

و بذا فلا وجود هناک لعوامل التعب و المشقّه،سواء کانت نفسیه أو جسمانیه.

***

۱- ۱) -انظر تفسیر روح المعانی،مجلّد ۲۲،صفحه ۱۸۴.

۲- ۲) -المصدر السابق.

الآيات [سوره فاطر (۳۵): الآيات ۳۶ الی ۳۸]

اشاره

وَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نٰارُ جَهَنَّمَ لاٰ يُقْضىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَ لاٰ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذٰابِهٰا كَذٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (۳۶) وَ هُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهٰا رَبَّنٰا أَخْرِجْنٰا نَعْمَلْ صٰالِحاً غَيْرَ اَلَّذِي كُنّٰا نَعْمَلُ أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مٰا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جٰاءَكُمُ اَلنَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمٰا لِلظّٰالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (۳۷) إِنَّ اَللّٰهَ عٰالِمُ غَيْبِ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذٰاتِ اَلصُّدُورِ (۳۸)

التّفسير

اشاره

ربّنا أخرجنا نعمل صالحا!

القرآن الكريم يقرن(الوعيد)(بالوعود)و يذكر«الإنذارات»،إلى جانب «البشارات»لتقويه عاملى الخوف و الرجاء الباعثين للحركه التكامليه فى الإنسان،إذ أنّ الإنسان بمقتضى«حبّ الذات»يقع تحت تأثير غريزتى«جلب المنفعه»و«دفع الضرر».

و عليه فمتابعه للحديث الذى كان فى الآيات السابقه عن المواهب الإلهيه

العظیمه و صبر«المؤمنین السابقین فی الخیرات»ینتقل الحدیث هنا إلی العقوبات الألیمه للکفّار،و الحدیث هنا أیضا عن العقوبات المادیه و المعنویه.

تبتدئ الآیات بالقول: وَ الَّذِینَ کَفَرُوا لَهُمْ نٰارُ جَهَنَّمَ ،فکما أنّ الجنّه دار المقامه و الخلد للمؤمنین،فإنّ النار أیضا مقام أبدی للکافرین.

ثمّ تضیف لاٰ یُقْضیٰ عَلَیْهِمْ فَیَمُوتُوا (١) ،فمع أنّ تلک النار الحامیه و ذلک العذاب المؤلم یستطیع القضاء علیهم فی کلّ لحظه،إلاّ أنّهم و لعدم صدور الأمر الإلهی-و هو المالک لکلّ شیء-بموتهم لا یموتون،یجب أن یبقوا علی قید الحیاه لیذوقوا عذاب اللّه.فالموت بالنسبه إلی هؤلاء لیس سوی منفذ للخلاص من العذاب،لکن اللّه تعالی أوصد دونهم ذلک المنفذ.

یبقی منفذ آخر هو أن یبقوا علی قید الحیاه و یخفّف عنهم العذاب شیئا فشیئا، أو أن یزداد تحمّلهم للعذاب فینتج عن ذلک تخفیف العذاب عنهم،و لکن تتمّه الآیه أغلقت هذا المنفذ أیضا وَ لاٰ یُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذٰابِهٰا .

ثمّ تضیف الآیه و للتأکید علی قاطعیه هذا الوعد الإلهی کَذٰلِکَ نَجْزِی کُلَّ کَفُورٍ .

فقد کفر هؤلاء فی بادئ الأمر بنعمه وجود الأنبیاء و الکتب السماویه،ثمّ أتلفوا رصیدهم الذی سخّره اللّه لمساعدتهم علی نیل السعاده،نعم،فجزاء الکفّار لیس سوی الحریق و العذاب الألیم،الحریق بالنار التی أشعلوها بأیدیهم فی الحیاه الدنیا و احتطبوا لها من أفکارهم و أعمالهم و وجودهم.

و بما أنّ کلمه«کفور»صیغه مبالغه،فإنّ لها معنی أعمق من«کافر»،علاوه علی أنّ لفظه«کافر»تستخدم فی قبال«مؤمن»و لکن«کفور»إشاره إلی أولئک الذین کفروا بکلّ نعم اللّه،و أغلقوا علیهم جمیع أبواب الرحمه الإلهیّه فی هذه الدنیا،لذا فإنّ اللّه یغلق علیهم جمیع أبواب النجاه فی الآخره.

١- ١) -«لا یقضی علیهم»بمعنی لا یحکم علیهم.

و تنتقـل الآـيه التـاليه إلى وصف نوع آخر من العـذاب الأـليم،و تشـير إلى بعض النقاط الحسّاسه فى هـذا الخصوص،فتقول الآيه الكريمه: وَ هُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهٰا رَبَّنٰا أَخْرِجْنٰا نَعْمَلْ صٰالِحاً غَيْرَ الَّذِى كُنّٰا نَعْمَلُ (١) .

نعم،فهم بمشاهده نتائج أعمالهم السيّئه،يغرقون فى ندم عميق،و يصـرخون من أعماق قلوبهم و يطلبون المحال،العوده إلى الدنيا للقيام بالأعمال الصالحه.

التعبير ب«صالحا»بصيغه النكره إشاره إلى أنّهم لم يعملوا أقلّ القليل من العمل الصالـح،و لازم هذا المعنى أنّ كلّ هذا العذاب و الألم إنّما هو لمن لم تكن لهم أيّه رابطه مع اللّه سبحانه فى حياتهم،و كانوا غرقى فى المعاصى و الذنوب،و عليه فإنّ القيام بقسم من الأعمال الصالحه أيضا يمكن أن يكون سببا فى نجاتهم.

التعبير بالفعـل المضارع«نعمل»أيضا له ذلك الإشـعاع،و يؤيّـد هـذا المعنى،و هو تأكيـد أيضا على«أنّنا كنّا مسـتغرقين فى الأعمال الطالحه».

قـال بعض المفسّـرين:إنّ الربط بين وصف«صالحـا»و اللاـحق لهـا«كنّـا نعمل» يثير نكته لطيفه،و هى أنّ المعنى هو«إنّنا كنّا نعمل الأعمـال التى عملنـا بنـاء على تزيين هوى النفس و الشـيطان،و كنّا نتوّهم أنّها أعمال صالحه،و الآن قرّرنا أن نعود و نعمل أعمالا صالحه فى حقيقتها غير التى ارتكبناها».

نعم فالمذنب فى بادئ الأمر-و طبق قانون الفطره السـليمه-يشعر و يشخص قباحه أعماله،و لكنّه قليلا قليلا يتطبّع على ذلك فتقل فى نظره قباحه العمل، و يتوغّل أبعد من ذلك فيرى القبيح جميلا،كما يقول القرآن الكريم: زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمٰالِهِمْ (٢) .

و فى مكان آخر يقول تعالى: وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً . (٣)

١- ١) -«يصـطرخون»من مادّه«صـرخ»بمعنى الصياح الشديد الذى يطلقه الإنسان من القلب للاستغاثه و طلب النجده،للتخلّص من الألم أو العذاب أو أى مشكل آخر.

٢- ٢) -التوبه،٣٧.

٣- ٣) -الكهف،١٠۴.

على كلّ حال،ففى قبال ذلك الطلب الذى يطلبه أولئك من اللّه سبحانه و تعالى، يصدر ردّ قاطع عنه سبحانه و تعالى حيث يقول: أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مٰا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جٰاءَكُمُ النَّذِيرُ فإذا لم تنتفعوا بكلّ ما توفّر بين أيديكم من وسائل النجاه تلك و من كلّ الفرص الكافيه المتاحه فَذُوقُوا فَمٰا لِلظّٰالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ .

هذه الآيه تصرّح:لم يكن ينقصكم شىء،لأنّ الفرصه أتيحت لكم بما يكفى، و قد جاءتكم نذر اللّه بالقدر الكافى،و بتحقّق هذين الركنين يحصل الانتباه و النجاه،و عليه فليس لكم أى عذر،فلو لم تكن لكم المهله كافيه لكان لكم العذر، و لو كانت لكم مهله كافيه و لم يأتكم نذير و مرشد و معلّم فكذلك لكم العذر،و لكن بوجود ذينك الركنين فما هو العذر؟! «نذير»عاده ترد فى الآيات القرآنيه للإشاره إلى وجود الأنبياء،و بالأخصّ نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لكن بعض المفسّرين ذكروا لهذه الكلمه هنا معنى أوسع،بحيث تشمل الأنبياء و الكتب السماويه و الحوادث الداعيه إلى الانتباه كموت الأصدقاء و الأقرباء،و الشيخوخه و العجز،و كما يقول الشاعر:

رأيت الشيب من نذر المنايا

لصاحبه و حسبك من نذير (۱)

من الجدير بالملاحظه أيضا أنّه قد ورد فى بعض الروايات أنّ هناك حدّا من العمر يعتبر إنذارا و تذكيرا للإنسان،و ذلك بتعبيرات مختلفه،فمثلا

فى حديث عن ابن عبّاس مرفوعا عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من عمّره اللّه ستّين سنه فقد أعذر إليه» (۲) .

و

عن أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاه و السلام أنّه قال: «العمر الذى أعذر اللّه فيه إلى ابن آدم ستّون سنه» (۳) .

۱- ۱) -مجمع البيان،ج ۴،ص ۴۱۰.

۲- ۲) -المصدر السابق.

۳- ۳) -المصدر السابق.

و

عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا أنّه قال: «إذا كان يوم القيامه قيل:أين أبناء السّتّين؟ و هو العمر الذى قال اللّه: أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مٰا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ (١) .

و لكن

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: إنّ الآيه«توبيخ لابن ثمانى عشره سنه» (٢) .

طبعا،من الممكن أن تكون الروايه الأخيره إشاره إلى الحدّ الأقل،و الروايات السابقه إشاره إلى الحدّ الأعلى،و عليه فلا منافاه بينها،و حتّى أنّه يمكن انطباقها على سنين اخرى أيضا-حسب التفاوت لدى الأفراد-و على كلّ حال فإنّ الآيه تبقى محتفظه بسعه مفهومها.

فى الآيه الأخيره-من هذه الآيات-يرد الجواب على طلب الكفّار فى العوده إلى الدنيا فتقول الآيه: إِنَّ اللّٰهَ عٰالِمُ غَيْبِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذٰاتِ الصُّدُورِ .

الجمله الاولى فى الحقيقه دليل على الجمله الثانيه،أى إنّه كيف يمكن لعالم أسرار السموات و الأرض و غيب عالم الوجود أن لا يكون عالما بأسرار القلوب؟! نعم،فهو سبحانه و تعالى يعلم أنّه لو استجاب لما طلبه منه أهل جهنّم،و أعادهم إلى الدنيا فسوف يعاودون نفس المسيره المنحرفه التى كانوا عليها،كما أشارت إلى ذلك الآيه(٢٨)من سوره الأنعام: وَ لَوْ رُدُّوا لَعٰادُوا لِمٰا نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكٰاذِبُونَ .

إضافه إلى ذلك فالآيه تنبيه للمؤمنين على أن يسعوا لتحقيق الإخلاص فى نيّاتهم،و أن لا يأخذوا بنظر الإعتبار غير اللّه سبحانه و تعالى،لأنّ أقلّ شائبه فى نواياهم سيكون معلوما لديه و باعثا لمجازاتهم على قدر ذلك.

ص: ١٠٠

١- ١) -الدرّ المنثور،ج ۵،ص ٢۵۴.

٢- ٢) -مجمع البيان،ج ۴،ص ۴١٠.

ملاحظتان

اشاره

١-ما هو المقصود من«ذات الصدور»؟

ورد هذا اللفظ بتفاوت يسير فی أکثر من عشره آيات من القرآن الکريم إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ .

لفظه«ذات»التی مذکّرها«ذو»فی الأصل بمعنی«الصاحب»مع أنّها وردت لدی الفلاسفه بمعنی«العين و الحقيقه و جوهر الأشياء»،و لکن علی ما قاله (الراغب)فی مفرداته فإنّ هذا الاصطلاح لا وجود له فی کلام العرب.

و بناء علی ذلک فإنّ المقصود من جمله إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ أنّ اللّه يعلم صاحب و مالک القلوب،و هی کنايه لطيفه عن عقائد و نوايا الناس،إذ أنّ الإعتقادات و النوايا عند ما تستقر فی القلب تکون کأنّها مالک القلب،و الحاکم فيه، و لهذا السبب تعدّ تلک العقائد و النوايا صاحبا و مالکا للقلب الإنسانی.

و ذلک تماما ما صاغه بعض کبار العلماء استفاده من هذا المعنی فقالوا:الإنسان آراؤه و أفکاره،لا صورته و أعضاؤه» (١) .

٢-لا سبيل للرجوع!

من المسلّم به أنّ القيامه و الحياه بعد الموت مرحله تکامليه نسبه إلی الدنيا، و أنّ الرجوع إلی هذه الدنيا ليس معقولا،فهل يمکننا العوده إلی الأمس؟هل يمکن للوليد أن يعود إلی طی الأدوار الجنينيه من جديد؟و هل يمکن للثمره التی قطفت من غصنها أن تعاد إليه مرّه ثانيه؟لهذا السبب فإنّ العوده إلی الدنيا غير ممکنه لأهل الآخره.

و علی فرض إمکانيه تلک العوده فإنّ هذا الإنسان الکثير النسيان سوف لن يقوم بغير إدامه أعماله السابقه!

١- ١) -المرحوم کاشف الغطاء فی کتاب أصل الشيعه و أصولها.

و لا نذهب بعيدا،فنحن مرّات عديده و فى شرائط بعض الضائقات الحياتيه، نتّخذ قرارا مخلصا بيننا و بين اللّه على القيام بعمل ما أو ترك عمل ما،و لكن بمجرّد تغيير تلك الشرائط يتغيّر قولنا و ننسى قراراتنا،إلاّ إذا تحقّق لشخص ما تحوّل جدّى حقيقى،لا تحوّل مشروط بتلك متعدّده الشرائط التى بتغيّرها يعود إلى سابق حاله.

هذه الحقيقه وردت فى آيات متعدّده من القرآن المجيد،من جملتها ما ورد فى الآيه(۲۸)من سوره الأنعام التى أشرنا إليها قبل قليل،حيث تكذّب هؤلاء و تردّهم.

و لكن الآيه(۵۳)من سوره الأعراف تكتفى فقط بأنّ هؤلاء الأفراد خاسرون، و لكن لم تردّ بصراحه على طلبهم للعوده: فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ .

نفس هذا المعنى ورد بشكل آخر فى الآيات(۱۰۷)و(۱۰۸)من سوره المؤمنون: رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنّا ظالِمُونَ قالَ اخْسَؤُا فِيها وَ لا تُكَلِّمُونِ .

على كلّ حال،فتلك مطالب غير ذات جدوى،و أمانى عديمه التحقّق،و يحتمل أنّهم هم أيضا يعلمون ذلك،و لكنّهم لشدّه العذاب و انسداد جميع المنافذ أمامهم يكرّرون هذه المطالب.***

الآيات [سوره فاطر (۳۵): الآيات ۳۹ الى ۴۱]

اشاره

هُوَ اَلَّذِی جَعَلَکُمْ خَلاٰئِفَ فِی اَلْأَرْضِ فَمَنْ کَفَرَ فَعَلَیْهِ کُفْرُهُ وَ لاٰ یَزِیدُ اَلْکٰافِرِینَ کُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاّٰ مَقْتاً وَ لاٰ یَزِیدُ اَلْکٰافِرِینَ کُفْرُهُمْ إِلاّٰ خَسٰاراً (۳۹) قُلْ أَ رَأَیْتُمْ شُرَکٰاءَکُمُ اَلَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ أَرُونِی مٰا ذٰا خَلَقُوا مِنَ اَلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْکٌ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ أَمْ آتَیْنٰاهُمْ کِتٰاباً فَهُمْ عَلیٰ بَیِّنَهٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ یَعِدُ اَلظّٰالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلاّٰ غُرُوراً (۴۰) إِنَّ اَللّٰهَ یُمْسِکُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ أَنْ تَزُولاٰ وَ لَئِنْ زٰالَتٰا إِنْ أَمْسَکَهُمٰا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ کٰانَ حَلِیماً غَفُوراً (۴۱)

التّفسیر

اشاره

السماوات و الأرض بید القدره الإلهیه:

تنتقل الآیات إلی مرحله اخری من تشخیص عوامل ضعف و بطلان مناهج الکفّار و المشرکین فی التعامل أو التفکیر لتکمل البحوث التی مرّت فی الآیات السابقه،فتقول أوّلا: هُوَ الَّذِی جَعَلَکُمْ خَلاٰئِفَ فِی الْأَرْضِ .

«خلائف»هنا سواء كانت بمعنى خلفاء و ممثّلى اللّه فى الأرض،أم بمعنى خلفاء الأقوام السابقين(و إن كان المعنى الثانى هنا أقرب على ما يبدو)فهى دليل على منتهى اللطف الإلهى على البشر حيث أنّه قيّض لهم جميع إمكانات الحياه.

أعطاهم العقل و الشعور و الإدراک،أعطاهم أنواع الطاقات الجسديه،ملأ للإنسان صفحه الأرض بمختلف أنواع النعم و البركات،و علّمه طريقه الاستفاده من تلک الإمكانات،فكيف نسى الإنسان و الحال هذه ولى نعمته الأصلى،و راح يعبد آلهه خرافيه و مصنوعه؟! هذه الجمله فى الحقيقه بيان ل«توحيد الربوبيه»الذى هو دليل على«توحيد العباده».و هذه الجمله أيضا تنبيه للبشر جميعا ليعلموا بأن مكثهم ليس أبديّا و لا خالدا،فكما أنّهم خلائف لأقوام آخرين،فما هى إلّا مدّه حتّى ينتهى دورهم و يكون غيرهم خلائف لهم،لذا فإنّ عليهم أن يتأمّلوا و يفكّروا ماذا يعملون خلال هذه المدّه القصيره،و كيف سيذكرهم التأريخ فى هذا العالم؟ لذا تردف الآيه قائله: فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ لاٰ يَزِيدُ الْكٰافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاّٰ مَقْتاً وَ لاٰ يَزِيدُ الْكٰافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاّٰ خَسٰاراً .

الجملتان الأخيرتان فى الواقع تفسير الجمله فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ فهما تقيمان دليلين على رجوع الكفر على صاحبه كالآتى:

الأوّل:إنّ هذا الكفر يؤدّى إلى غضب اللّه الذى أعطى كلّ هذه المواهب.

و الثانى:أنّه علاوه على هذا الغضب الإلهى فإنّ هذا الكفر سوف لن يزيد الظالمين إلّا خساره و ضررا بإتلافهم رأس مالهم المتمثّل بأعمارهم و وجودهم، و شرائهم للشقاء و الانحطاط و الظلمه،و أى خساره أكثر من هذه.

و كلّ واحد من هذين الدليلين كاف لشجب و إبطال ذلک المنهج الباطل فى التعامل مع الحياه.

تكرار لاٰ يَزِيدُ بصيغه المضارع،إشاره إلى هذه الحقيقه،و هى أنّ الإنسان

المیّال بالطبع إلی البحث عن الزیاده،إذا سار فی طریق التوحید فسیزداد سعاده و کمالا،و إذا سلک طریق الکفر فسوف یتعرّض لمزید من غضب الباری عزّ و جلّ و یکون نصیبه الضرر و الخساره.

من الجدیر بالذکر أیضا أنّ الغضب الإلهی لیس بمعنی الغضب الذی یحصل للإنسان،لأنّ هذا الغضب فی الإنسان عباره عن نوع من الهیجان و الانفعال الداخلی الذی یکون سببا فی صدور أفعال قویّه و حادّه و خشنه،و فی تعبئه کافّه طاقات الإنسان للدفاع أو الانتقام،و أمّا بالنسبه إلی اللّه سبحانه و تعالی فلیس لأیّ من هذه الآثار التی هی من خواص الموجودات المتغیّره و الممکنه أثر فی غضبه،فغضبه بمعنی رفع الرحمه و منع اللطف الإلهی من شمول أولئک الذین ارتکبوا السیّئات.

الآیه التالیه ترد علی المشرکین بجواب قاطع حازم،و تذکّرهم بأنّ الإنسان إذا اتّبع أمرا أو تعلّق بأمر،فیجب أن یکون هناک دلیل عقلی علی هذا الأمر،أو دلیل نقلی ثابت،و أنتم أیّها الکفّار حیث لا تملکون أیّا من الدلیلین فلیس لدیکم سوی المکر و الغرور.

تقول الآیه الکریمه: قُلْ أَ رَأَیْتُمْ شُرَکاءَکُمُ الَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ أَرُونِی ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْکٌ فِی السَّماواتِ (۱) فهل خلقوا شیئا فی الأرض.

أم شارکوا اللّه فی خلق السماوات؟! و مع هذا الحال فما هو سبب عبادتکم لها،لأنّ کون الشیء معبودا فرع کونه خالقا،فما دمتم تعلمون أنّ خالق السماوات و الأرض هو اللّه تعالی وحده،فلن یکون هناک معبود غیره،لأنّ توحید الخالقیه دلیل علی توحید العبودیه.

و الآن بعد أن ثبت أنّکم لا تملکون دلیلا عقلیا علی ادّعائکم،فهل لدیکم دلیل

۱- ۱) -جمله«أرأیتم»بمعنی:ألا ترون؟أو:ألا تفکّرون؟و لکن بعض المفسّرین یقولون بأنّها بمعنی«أخبرونی». و قد أوردنا بحثا مطوّلا بهذا الخصوص فی تفسیر آیه(۴۰)من سوره الأنعام.

نقلی؟ أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلىٰ بَيِّنَهٍ مِنْهُ .

كلاّ،فليس لديهم أى دليل أو بيّنه أو برهان واضح من الكتب الإلهيه،إذا فليس لديهم سوى المكر و الخديعه بَلْ إِنْ يَعِدُ الظّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلاّ غُرُوراً .

و بتعبير آخر،إذا كان لعبده الأوثان و سائر المشركين من كلّ مجموعه و كلّ صنف ادّعاء بقدره الأصنام على تلبيه مطالبهم،فعليهم أن يعرضوا نموذجا لخلقهم من الأرض،و إذا كانوا يعتقدون أنّ تلك الأصنام مظهر الملائكه و المقدّسين فى السماء-كما يدّعى البعض-فيجب أن يقيموا الدليل على أنّهم شركاء فى خلق السماوات..و ان كانوا يعتقدون بأنّ هؤلاء الشركاء ليس لهم نصيب فى الخلقه،بل لهم مقام الشفاعه-كما يدّعى البعض-فيجب أن يأتوا بدليل على إثبات ذلك الادّعاء من الكتب السماويه.

و الحال أنّهم لا يملكون أيّا من هذه البيّنات،فهم مخادعون ظالمون ليس لهم سوى المكر و خديعه بعضهم البعض.

الجدير بالملاحظه أيضا هو المقصود ب«الأرض و السموات»هنا هو مجموعه المخلوقات الأرضيه و السماويه،و التعبير ب مٰا ذٰا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ و شِرْكٌ فِي السَّمٰاوٰاتِ إشاره إلى أنّ المشاركه فى السماوات إنّما يجب أن تكون عن طريق الخلق.

و تنكير«كتابا»،مع استناده إلى اللّه سبحانه،إشاره إلى أنّه ليس هنا أدنى دليل على ادّعائهم فى أى من الكتب السماويه.

«بيّنه»إشاره إلى دليل واضح من تلك الكتب السماويه.

«ظالمون»تأكيد مرّه اخرى على أنّ«الشرك»«ظلم»واضح.

«غرور»إشاره إلى أنّ عبده الأوثان أخذوا هذه الخرافات بعضهم من بعض، و تلافقوها إمّا على شكل شائعات،أو تقاليد من بعضهم الآخر.

و تنتقل الآيه التى بعدها إلى الحديث عن حاكميه اللّه سبحانه و تعالى على

مجموعه السماوات و الأرض،و فی الحقیقه فإنّها تنتقل إلی إثبات توحید الخالقیه و الربوبیه بعد نفی شرکه أی من المعبودات الوهمیه فی عالم الوجود فتقول: إِنَّ اللّٰهَ یُمْسِکُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولاٰ (۱) .

فلیس بدء الخلق-فقط-مرتبطا باللّه،فإنّ حفظ و تدبیر الخلق مرتبط بقدرته أیضا،بل إنّ الخلق له فی کلّ لحظه خلق جدید،و فیض الوجود یغمر الخلق لحظه بعد اخری من مبدأ الفیض.و لو قطعت الرابطه بین الخلق و بین ذلک المبدأ العظیم الفیّاض،فلیس إلاّ العدم و الفناء.

صحیح أنّ الآیه تؤکّد علی مسأله حفظ نظام الوجود الموزون،و لکن-کما ثبت من الأبحاث الفلسفیّه-فإنّ الممکنات محتاجه فی بقائها إلی موجدها کاحتیاجها إلیه فی بدء إیجادها،و بذلک فإنّ حفظ النظام لیس سوی إدامه الخلق الجدید و الفیض الإلهی.

الملفت للنظر أنّ الأجرام و الکرات السماویه،مع کونها غیر مقیّده بشیء آخر، إلاّ أنّها لم تبرح أماکنها أو مداراتها التی حدّدت لها منذ ملایین السنین،دون أن تنحرف عن ذلک قید أنمله،کما نلاحظ ذلک فی المجموعه الشمسیه،فالأرض التی نعیش علیها تواصل دورانها حول الشمس منذ ملایین بل ملیارات السنین فی مسیرها المحدّد و المحسوب بدقّه و الذی یتحقّق من التوازن بین القوی الدافعه و الجاذبه،کما أنّها تدور فی نفس الوقت حول نفسها،ذلک بأمر اللّه.

و للتأکید تضیف الآیه قائله: وَ لَئِنْ زٰالَتٰا إِنْ أَمْسَکَهُمٰا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ .

فلا الأصنام التی صنعتموها و لا الملائکه،و لا غیر ذلک،لا أحد غیر اللّه قادر علی ذلک.

و فی ختام الآیه-لکی یبقی طریق الأوبه و الإنابه أمام المشرکین الضالّین مفتوحا یقول تعالی محبّذا لهم التوبه فی کلّ مرحله من الطریق

۱- ۱) -جمله«أن تزولا»تقدیرها«لئلا تزولا»أو«کراهه أن تزولا».

إِنَّهُ كٰانَ حَلِيماً غَفُوراً

.

فبمقتضى(حلمه)لا يتعجّل عقابهم،و بمقتضى(غفرانه) يتقبّل توبتهم-بشرائطها -فى أى مرحله من مراحل مسيرهم،و عليه فإنّ ذيل الآيه يشير إلى وضع المشركين و شمول الرحمه الإلهيه لهم فى حال توبتهم و إنابتهم.

اعتبر بعض المفسّرين أنّ هذين الوصفين ذكرا لارتباطهما بموضوع حفظ السموات و الأرض،إذ أنّ زوالهما مصيبه عظيمه،و بمقتضى حلم اللّه و غفرانه فإنّه لا يشمل الناس بمثل ذلك العذاب و تلك المصيبه،و إن كانت أقوال و أعمال الكثير من هؤلاء الكفّار موجبه لإنزال ذلك العذاب،كما ورد فى الآيات ۸۸ إلى ۹۰ من سوره مريم وَ قٰالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا تَكٰادُ السَّمٰاوٰاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبٰالُ هَدًّا .

و الجدير بالملاحظه أيضا أنّ جمله وَ لَئِنْ زٰالَتٰا ليست بمعنى أنّه«إذا زالت فليس أحد غير اللّه يحفظها»،بل بمعنى«أنّها إذا شارفت على السقوط و الزوال فإنّ اللّه وحده يستطيع حفظها،و إلاّ فلا معنى للحفظ بعد الزوال».

و قد حدث-على طول التاريخ البشرى-مرارا أنّ علماء الفلك توقّعوا أنّ «النجم الفلانى»المذنّب أو غير المذنّب سيمرّ بمحاذاه الكره الأرضيه و يحتمل أن يصطدم بها،هذه التوقّعات تدفع جميع الناس إلى القلق،و فى هذه الشرائط يحسّ الجميع بأنّه فى مثل حادث كهذا،ليس فى إمكان أحد أن يؤثّر شيئا،بحيث لو انطلقت إحدى الكرات السماويه باتّجاه الكره الأرضيه و اصطدمتا فيما بينهما بتأثير الجاذبيه فلن يبقى للتمدّن البشرى أثر،و حتّى الموجودات الاخرى سوف لن يبقى لها أثر على سطح الأرض،و لن تستطيع أيّه قدره عدا قدره اللّه منع مثل هذه الكارثه من الوقوع.

فى مثل تلك الحالات يحسّ الجميع بالحاجه الماسّه و المطلقه إلى اللّه سبحانه و تعالى،و لكن بمجرّد أن تزول احتمالات الخطر،يلقى النسيان بظلاله على

الإنسان.

هذه الكارثه لا تقع فقط من مجرّد اصطدام السيارات مع بعضها،بل إنّ أىّ انحراف بسيط لأىّ من السيارات-كالأرض مثلا-عن مسارها يؤدّى إلى وقوع فاجعه عظيمه.

***

ملاحظه

اشاره

الصغير و الكبير سيّان أمام قدره اللّه!

الملفت للنظر أنّ الآيات أعلاه ذكرت أنّ السماوات تستند إلى قدره اللّه فى ثباتها و بقائها،و فى آيات اخرى من القرآن ورد نفس التعبير فيما يخصّ حفظ الطيور حال طيرانها فى السماء. أَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرٰاتٍ فِى جَوِّ السَّمٰاءِ مٰا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّٰهُ،إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

ففى موضع يشير إلى أنّ خلق السموات الواسعه دليل على وجوده تعالى،و فى موضع آخر يعتبر خلق حشره صغيره كالبعوضه دليلا على ذلك.

حينا يقسم بالشمس لأنّها منبع عظيم للطاقه فى عالم الوجود،و حينا يقسم بفاكهه مألوفه كالتين.

كلّ ذلك إشاره إلى أنّه لا فرق بين كبير و صغير أمام قدره اللّه.

أمير المؤمنين عليه أفضل الصلوات و السلام يقول: «و ما الجليل و اللطيف و الثقيل و الخفيف و القوى و الضعيف فى خلقه إلاّ سواء».

إنّ هذه الأشياء جميعها تشير إلى شىء واحد،و هو أنّ وجود اللّه سبحانه و تعالى،وجود لا متناه من جميع الجهات،و التدقيق فى مفهوم«اللامتناهى»يثبت هذه الحقيقه بشكل تامه،و هى أنّ مفاهيم مثل«الصعب»و«السهل»و«الصغير» و«الكبير»و«المعقّد»و«البسيط»لها معنى بحدود الموجودات المحدوده-فقط-

و لكن حينما يكون الحديث عن قدره اللّه تعالى المطلقه فإنّ هذه المفاهيم تتغيّر بشكل كلّى و تقف جميعا فى صفّ واحد بدون أدنى تفاوت فيما بينها«دقّق النظر!!».

***

ص :۱۱۰

الآیات [سوره فاطر (۳۵): الآیات ۴۲ الی ۴۴]

اشاره

وَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمٰانِهِمْ لَئِنْ جٰاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدىٰ مِنْ إِحْدَى اَلْأُمَمِ فَلَمّٰا جٰاءَهُمْ نَذِيرٌ مٰا زٰادَهُمْ إِلاّٰ نُفُوراً (۴۲) اِسْتِكْبٰاراً فِي اَلْأَرْضِ وَ مَكْرَ اَلسَّيِّئِ وَ لاٰ يَحِيقُ اَلْمَكْرُ اَلسَّيِّئُ إِلاّٰ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّٰ سُنَّتَ اَلْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اَللّٰهِ تَبْدِيلاً وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اَللّٰهِ تَحْوِيلاً (۴۳) أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي اَلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ كٰانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ مٰا كٰانَ اَللّٰهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ لاٰ فِي اَلْأَرْضِ إِنَّهُ كٰانَ عَلِيماً قَدِيراً (۴۴)

سبب النّزول

ورد فی تفسیر«الدرّ المنثور»و«روح المعانی»و«مفاتیح الغیب»و تفاسیر اخری:«بلغ قریشا قبل مبعث رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّ أهل الکتاب کذّبوا رسلهم فقالوا:لعن اللّه الیهود و النصاری أتتهم الرسل فکذّبوهم،فو اللّه لئن أتانا رسول

لنكوننّ أهـدى من إحدى الأمم» (١) .فلمّا أشـرقت شـمس الإسـلام من أفق بلادهم، و جاءهم النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالكتاب السماوى،رفضوا،بل كذّبوا،و حاربوا،و مارسوا أنواع المكر و الخديعه.

فنزلت الآيات أعلاه تلومهم و توبّخهم على ادّعاءاتهم الفارغه.

التّفسير

اشاره

استكبارهم و مكرهم سبب شقائهم:

تواصل هذه الآيات الحديث عن المشركين و مصيرهم فى الدنيا و الآخره.

الآيه الاولى تقول: وَ أَقْسَمُوا بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ (٢) .

«أيمـان»جمع«يمين»بمعنى القسم،و فى الأصل فإنّ معنى اليمين هو اليـد اليمنى،و اليمين فى الحلف مسـتعار منها اعتبارا بما يفعله المعاهد و المحالف و غيره من المصافحه باليمين عندها.

«جهد»:من«الجهاد»بمعنى السـعى و المشقّه،و بذا يكون معنى جَهْدَ أَيْمانِهِمْ حلفوا و اجتهدوا فى الحلف على أن يأتوا به على أبلغ ما فى وسعهم.

نعم،فعند ما طالعوا صـفحات التأريخ،و اطّلعوا على عدم وفاء و عدم شكر تلك الأقوام و جناياتهم بالنسبه إلى أنبيائهم و خصوصا اليهود،تعجّبوا كثيرا و ادّعوا لأنفسهم الادّعاءات و تفاخروا على هؤلاء بأن يكون حالهم أفضل منهم.

١- ١) -أغلب التفاسير.

٢- ٢) -لأنّ«إحـدى»جاءت بصـيغه المفرد،فمعنى الآيه«أنّهم سـيكونون أكثر اهتداء من واحده من الأمم»و قد تكون الإشاره إلى اليهود(لأنّ صـيغه المفرد فى الجمله المثبته ليس فيها معنى العموم)يبـدو ذلك للوهله الاولى، و لكن كما أشار بعض المفسّرين فإنّ قرائن الحال تشـير إلى أنّ المقصود من الآيه العموم،لأنّ الحديث فى مقام المبالغه و التأكيد،و تشير إلى ادّعائهم بأنّه فى حال بعثه رسول إليهم فانّهم سيكونون أهدى من جميع الأمم السابقه.

و لكن بمجرّد أن واجهوا محكّ التجربه،و دخلوا كوره الامتحان المشتعله، و تحقّق طلبهم ببعثه نبىّ منهم،تبيّن أنّهم من نفس تلك الطينه،حيث أشار القرآن إلى ذلك بعد تلك الجمله الاولى من الآيه بالقول: فَلَمّٰا جٰاءَهُمْ نَذِيرٌ مٰا زٰادَهُمْ إِلاّٰ نُفُوراً .

هذا التعبير يدلّل على أنّهم كانوا قبل بعثه النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم-و على خلاف ما يدّعون-بعيدين عن دين اللّه سبحانه و تعالى،فقد كانت حنيفيه إبراهيم معروفه بينهم،إلاّ أنّهم لم يكونوا يحترمونها،كذلك لم يكن لديهم أى اعتبار لما كان يمليه العقل من تصرفات.و بقيام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و نيله من عقائدهم و أعرافهم و عصبيتهم الجاهليه،و وقوع مصالحهم غير المشروعه فى الخطر،زادت الفاصله بينهم و بين الحقّ،نعم كانوا بعيدين عن الحقّ،لكنّهم ازدادوا بعدا عن الحقّ بعد بعثه النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

الآيه التاليه توضيح لما فى الآيه السابقه،تقول:إنّ بعدهم عن الحقّ لأنّهم سلكوا طريق الاستكبار فى الأرض،و لم تكن لديهم أهليه الخضوع لمنطق الحقّ اِسْتِكْبٰاراً فِي الْأَرْضِ (١) و كذلك لأنّهم كانوا يحتالون و يسيئون وَ مَكْرَ السَّيِّئِ (٢) .

و لكن وَ لاٰ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاّٰ بِأَهْلِهِ .

جمله«لا يحيق»:الفعل(يحيق)من(حاق)بمعنى نزل و أصاب،و الجمله معناها«لا ينزل و لا يصيب و لا يحيط»إشاره إلى أنّ الاحتيال قد يؤدّى-مؤقتا-

---

١- ١) -أغلب المفسّرين قالوا بأنّ«استكبارا»هو«مفعول لأجله»من حيث التركيب النحوى و هى بيان لعلّه «النفور»و ابتعادهم عن الحقّ،و«مكر السيء»عطف على«استكبارا»فى حين أنّ البعض الآخر قال:إنّها عطف على«نفورا».

٢- ٢) -«مكر السيئ»إضافه(للجنس)إلى(النوع)،كما هو نقول:«علم الفقه»لأنّ(مكر)بمعنى(البحث عن حلّ) سواء كان خيرا أو شرّا،لذا فإنّ هذه الكلمه تطلق كصفه للّه سبحانه وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللّٰهُ آل عمران-٥٤،و لكن «السيء»تحصر المكر فى نوع خاصّ منه،و هو الاحتيال.

إلى الإحـاطه بالآـخرين،و لكنّه فى النهايه يعود على صاحبه،فهو مفضوح و ضـعيف و عاجز أمام خلق اللّه،و سـيندمون حتما أمام اللّه سبحانه و تعالى،و ذلك هو المصير المشؤوم الذى انتهى إليه مشركو مكّه.

هـذه الآـيه فى الحقيقه تريـد القول بـأنّهم لم يكتفوا فقـط بالابتعاد عن النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، بل إنّهم اسـتعانوا بكلّ قدرتهم و اسـتطاعتهم لأجل إنزال ضـربه قويّه به و بدعوته، و السبب فى كلّ ذلك لم يكن سوى الكبر و الغرور و عدم الرضوخ للحقّ.

ختام الآيه تهديـد لتلك المجموعه المسـتكبره الماكره و الخائنه،و بجمله عميقه المعنى و بكلمات تهزّ المشاعر،يقول تعالى: فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّ سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ (۱) .

هذه الجمله القصيره تشير إلى جميع المصائر المشؤومه التى أحاقت بالأقوام السالفه كقوم نوح،و عاد،و ثمود،و قوم فرعون،حيث أصـاب كلاـ منهم بلاء عظيم، و القرآن الكريم أشار مرارا إلى جوانب من مصائر هؤلاء الأقوام المشؤومه و الأليمه.و هنا و بتلك الجمله القصيره جسّد جميع ذلك أمام بصيره تلك الفئه فى مكّه.

ثمّ تضـيف الآيه لزياده التأكيد قائله: فَلَنْ تَجِدَ لِسُـنَّتِ اللّهِ تَبْدِيلاً وَ لَنْ تَجِدَ لِسُـنَّتِ اللّهِ تَحْوِيلاً . فكيف يمكن للّه سبحانه و تعالى أن يعاقب قوما على أعمال معيّنه،ثمّ لا يعاقب غيرهم الذين يسـلكون نفس سلوكهم؟أ ليس هو العدل الحكيم،و كلّ ما يفعله بناء على حكمه و عـدل تـامين؟! فـإنّ تغيير السـنن يمكن تصوّره بالنسـبه إلى من يمتلـك اطّلاعـا أو معرفه محـدوده،إذ يزداد معرفه بمرور الزمـان يعرض عن سـنّه سابقه،أو يكون الإنسان عالما،إلاّ أنّه لا يتصـرّف طبقا للحكمه و العـداله،بل طبقا لميول خاصّه فى نفسه، و لكن اللّه سبحانه و تعالى منزّه عن جميع تلك الأمور،و سنّته حاكمه على من يأتى كما كانت تحكم من مضى،و لا تقبل التغيير أبدا.

۱- ۱) -«نظر»و«انتظار»تأتى أحيانا لتشير إلى نفس المعنى.كما يقول الراغب.

و قـد أكّـد القرآن الكريم فى مواضع عديـده على قضيّه ثبات سـنن اللّه و عدم تغيّرها،و قد فصّـلنا الحديث فى ذلك فى تفسـير الآيه(۶۲)من سوره الأحزاب، و بـالجمله فـإنّ فى هـذا العـالم-عـالم التكوين التشـريع-ثمّه قوانين ثـابته لا تتغيّر، عبّر عنها القرآن الكريم«السنن الإلهيّه»و التى لا سبيل إلى تغيّرها.

هـذه القوانين كما أنّها حكمت فى الماضـى فإنّها حاكمه اليوم و غدا.و مجازات المسـتكبرين الكفره الذين لم تنفع بهم الموعظه الإلهيه من هذه السنن،و منها أيضا نصره أتباع الحقّ الذين لا ينثنون عن جدّهم و سعيهم المخلص،هاتان السّنّتان كانتا و لا تزالان ثابتتين أمس و اليوم و غدا (۱) .

الجـدير بالملاحظه أنّه ورد فى بعض الآيات القرآنيه الحـديث عن«عـدم تبـديل»السـنن الإلهيّه،الأحزاب-۶۲،و فى البعض الآخر الحديث عن«عدم تحويل»السنن الإلهيّه،سوره الإسراء-۷۷، و لكن الآيه مورد البحث أكّدت على الحالتين معا.

فهل أنّ هاتين الحالتين تعبير عن معنى واحـد،بحيث أنّهما ذكرتا معا للتأكيـد،أم أنّ كلا منهما يشـير إلى معنى مسـتقل؟ بمراجعه أصـل اللفظين يتّضـح أنّهمـا إشاره إلى معنيين مختلفين:(تبـديل) الشـيء،تعويضه بغيره كاملا،بحيث يرفع الأوّل و يوضع الثانى،و لكن(تحويل) الشيء،هو تغيّر بعض صفات الشيء الأوّل من ناحيه كيفيه أو كميه مع بقائه.

و عليه فـإنّ السـنن الإلهيه لا تقبـل الاسـتبدال و لا التعويض الكامـل،و لا التغيير النسـبى من حيث الشـدّه و الضـعف أو القلّه و الزياده.من جملتها أنّ اللّه سـبحانه و تعالى يوقع عقوبات متشابهه بالنسـبه إلى الذنوب و الجرائم المتشابهه و من جميع الجهات،لا أن يوقع العقـاب على مجموعه و لا يوقعه على مجموعه اخرى.و لا أن يوقع عقابـا أقلّ شـدّه على مجموعه دون اخرى،و هكـذا قانون يستند إلى أصل

۱- ۱) -لنا شرحا مفصّل بهذا الخصوص فى سورتى الأحزاب و الإسراء.

ثابت،لا يقبل التبديل و لا التحويل (۱) .

آخر ما نريد التوقّف عنده هو أنّ الآيه تضيف«سنّه»إلى لفظ الجلاله«اللّه» و فى موضع آخر من نفس الآيه تضيف«سنّه»إلى«الأوّلين»و يظهر فى بادئ الأمر وجود تنافى بين الحالتين،و لكن الأمر ليس كذلك،لأنّه فى الحاله الاولى أضيفت«سنّه»إلى«الفاعل»،و فى الحاله الثانيه أضيفت«سنّه»إلى«المفعول به».

ففى الحاله الاولى تعبير عن مجرى السنّه،و فى الثانيه عمّن أجريت عليه السنّه.

الآيه التاليه تدعو هؤلاء المشركين و المجرمين إلى مطالعه آثار الماضين و المصير الذى وصلوا إليه،حتّى يروا بأمّ أعينهم فى آثارهم و مواطنهم السابقه جميع ما سمعوه،و بذا يتحوّل البيان إلى العيان.فتقول الآيه الكريمه: أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَهُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .

فإذا كانوا يتصوّرون أنّهم أشدّ قوّه من أولئك فهم على اشتباه عظيم تلك،لأنّ الأقوام السالفه كانت أقوى منهم: وَ كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّهً .

فالفراعنه الذين حكموا مصر،و نمرود الذى حكم بابل و دولا اخرى بمنتهى القدره،كانوا أقوياء إلى درجه لا يمكن قياسها مع قوّه مشركى مكّه.

إضافه إلى أنّ الإنسان مهما بلغ من القوّه و القدره،فإنّ قدرته و قوّته لا شىء إزاء قوّه اللّه،لماذا؟لأنّه وَ ما كانَ اللّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ (۲) فهو العليم القدير،لا يخفى عليه شىء،و لا يستعصى على قدرته شىء،و لا يغلبه أحد،فلو تصوّر هؤلاء المستكبرون الماكرون أنّهم يستطيعون

---

۱ – ۱) -جمع من المفسّرين فسّروا«تحويل»هنا بمعنى«نقل مكان العذاب»بمعنى أنّ اللّه سبحانه و تعالى ينقل عقوبته من شخص لينزلها على شخص آخر.و مع ملاحظه أنّ هذا التّفسير لا ينسجم على ما يبدو مع الآيه أعلاه،فالحديث ليس عن نقل العذاب من شخص إلى آخر،بل عن عدم قبول السنن للزياده و النقص أو التغيير و التبديل،فكأنّ هؤلاء المفسّرين خلطوا بين كلمتى«تحوّل»و«تحويل»،و قد ورد فى بعض متون اللغه كمجمع البحرين«التحويل:تصيير الشىء على خلاف ما كان.و التحوّل:التنقّل من موضع إلى موضع».

۲ – ۲) -جمله«ليعجزه»كما ذكرنا سابقا من مادّه«عجز»و هى هنا بمعنى:يجعله عاجزا،لذا ففى كثير من المواضع جاءت بمعنى الفرار من قدره اللّه،أو بمعنى عدم التمكّن من شخص.

الفرار من يد قدرته تعالى فهم مشتبهون أشدّ الاشتباه.و إذا لم ينفضوا أيديهم من تلك الأعمال السيّئه،فسوف يلاقون نفس المصير الذى لقيه من كان قبلهم.

يمرّ بنا مرارا التعرّض لهذا الأمر فى القرآن الكريم،و هو أنّ اللّه سبحانه و تعالى يدعو الكفّار و العاصين إلى«السير فى الأرض»و مشاهده آثار الأقوام الماضين و مصائرهم الأليمه.

و رد فى الآيه(٩)من سوره الروم أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كٰانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ أَثٰارُوا الْأَرْضَ وَ عَمَرُوهٰا أَكْثَرَ مِمّٰا عَمَرُوهٰا وَ جٰاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ فَمٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لٰكِنْ كٰانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

و ورد شبيه هذا المعنى فى سوره يوسف-١٠٩،و الحجّ-۴۶،و غافر ٢١ و ٨٢، و الأنعام-١١ إلى غير ذلك.

هذا التأكيد المتكرّر دليل على التأثير الخاصّ لتلك المشاهدات فى النفس الإنسانيه،فإنّ عليهم أن يروا بأعينهم ما قرءوه فى التأريخ أو سمعوه،ليذهبوا و ينظروا عروش الفراعنه المحطّمه.و قصور الأكاسره المدمّره،و قبور القياصره الموحشه،و عظام نمرود المتفسّخه،و أرض قوم لوط و ثمود الخاليه،ثمّ ليستمعوا إلى نصائحهم الصامته،و أنينهم من تحت التراب،و ينظروا بامّ أعينهم ماذا حلّ بهؤلاء.***

الآیه [سوره فاطر (۳۵): آیه ۴۵]

اشاره

وَ لَوْ یُؤٰاخِذُ اَللّٰهُ اَلنّٰاسَ بِمٰا کَسَبُوا مٰا تَرَکَ عَلیٰ ظَهْرِهٰا مِنْ دَابَّهٍ وَ لٰکِنْ یُؤَخِّرُهُمْ إِلیٰ أَجَلٍ مُسَمًّی فَإِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اَللّٰهَ کٰانَ بِعِبٰادِهِ بَصِیراً (۴۵)

التّفسیر

اشاره

لو لا لطف اللّه و رحمته!

الآیه مورد البحث و هی الآیه الأخیره من آیات سوره فاطر،و بعد تلک البحوث الحادّه و التهدیدات الشدیده التی مرّت فی الآیات المختلفه للسوره، تنهی هذه الآیه السوره ببیان اللطف و الرحمه الإلهیّه بالبشر،تماما کما ابتدأت السوره بذکر افتتاح اللّه الرحمه للناس.و علیه فإنّ البدء و الختام متّفقان و منسجمان فی توضیح رحمه اللّه.

زیاده علی ذلک،فإنّ الآیه السابقه التی تهدّد المجرمین الکفّار بمصیر الأقوام الغابرین،تطرح کذلک السؤال التالی،و هو إذا کانت السنّه الإلهیه ثابته علی جمیع الطغاه و العاصین،فلما ذا لا یعاقب مشرکو مکّه؟!و تجیب علی السؤال قائله: وَ لَوْ یُؤٰاخِذُ اللّٰهُ النّٰاسَ بِمٰا کَسَبُوا و لا یمنحهم فرصه لإصلاح أنفسهم و التفکّر فی

مصیرهم و تهذیب أخلاقهم مٰا تَرَکَ عَلیٰ ظَهْرِهٰا مِنْ دَابَّهٍ .

نعم لو أراد اللّه مؤاخـذتهم علی ذنوبهم لأنزل علیهم عقوبات متتالیه،صواعق، و زلازل،و طوفانات،فیدمّر المجرمین و لا یبقی أثرا للحیاه علی هذه الأرض.

وَ لٰکِنْ یُؤَخِّرُهُمْ إِلیٰ أَجَلٍ مُسَمًّی

و یعطیهم فرصه للتوبه و إصلاح النفس.

هـذا الحلم و الإمهال الإلهی له أبعاد و حسابات خاصّه،فهو إمهال إلی أن یحلّ أجلهم فَإِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللّٰهَ کٰانَ بِعِبٰادِهِ بَصِیراً (۱) فانّه تعالی یری أعمالهم و مطّلع علی نیّاتهم.

هنا یطرح سؤالان،جوابهما یتّضح ممّا ذکرناه أعلاه:

الأوّل:هل أنّ هذا الحکم العام مٰا تَرَکَ عَلیٰ ظَهْرِهٰا مِنْ دَابَّهٍ یشـمل حتّی الأنبیاء و الأولیاء و الصالحین أیضا؟ الجواب واضح،لأنّ المعنی بأمثال هذا الحکم هم الأغلبیه و الأکثریه منهم، و الرسل و الأئمّه و الصـلحاء الذین هم أقلّیه خارجون عن ذلک الحکم،و الخلاصه أنّ کـلّ حکم له استثناءات،و الأنبیـاء و الصالحون مسـتثنون من هـذا الحکم.تماما مثلما نقول:إنّ أهل الـدنیا غافلون و حریصون و مغرورون،و المقصود الأکثریه منهم،فی الآیه(۴۱)من سوره الروم نقرأ ظَهَرَ الْفَسٰادُ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِمٰا کَسَبَتْ أَیْدِی النّٰاسِ لِیُذِیقَهُمْ بَعْضَ الَّذِی عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ .فبـدیهی أن الفسـاد لیس نـتیجه لأعمـال جمیع البشـر،بـل هو نـتیجه لأعمـال أکثریتهم.

و کـذلک فإنّ الآیه(۳۲)من نفس هـذه السوره،التی قسّـمت الناس إلی ثلاث مجموعات«ظالم»و«مقتصد»و«سابق بالخیرات»شاهد آخر علی هذا المعنی.

۱- ۱) -جمله فَإِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ جمله شـرطیه،و جزاؤها یقع فی تقـدیر جواب الشـرط هکذا«فإذا جاء أجلهم یجازی کلّ واحد بما عمـل»،و علیه فـإنّ جمله«فـإنّ اللّه»من قبیـل«علّه الجزاء»و هی تقوم مقـام المعلول المحـذوف.و یحتمـل کـذلک أنّ الجزاء هو لاٰ یَسْتَأْخِرُونَ سٰاعَهً وَ لاٰ یَسْتَقْدِمُونَ کما ورد فی آیات اخری من القرآن الکریم کالآیه ۶۱ من سوره النحـل،و علیه فإنّ جمله فَإِنَّ اللّٰهَ کٰانَ بِعِبٰادِهِ بَصِیراً إشاره إلی أنّ اللّه یعرفهم جمیعا،و یعلم أیّا منهم أبلغ أجله لکی یأخذه بقدرته تعالی.

و علیه فإنّ الآیه أعلاه لیس فیها ما ینافی عصمه الأنبیاء إطلاقا.

الثانی:هل أنّ التعبیر ب«دابّه»فی الآیه أعلاه یشیر إلی شمول غیر البشر،أی أنّ تلک الدواب أیضا سوف تتعرّض للفناء نتیجه إیقاع الجزاء علی البشر؟! الجواب علی هذا السؤال یتّضح إذا علمنا أنّ أصل فلسفه وجود الدواب هو تسخیرها لمنفعه الإنسان،فإذا انعدم الإنسان من سطح الکره الأرضیه فلیس من داع لوجود تلک الدواب (۱) .

و أخیرا نختم هذا البحث بالحدیث التالی الوارد

عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حیث یقول: «سبق العلم،و جفّ القلم،و مضی القضاء،و تمّ القدر بتحقیق الکتاب و تصدیق الرسل،و بالسعاده من اللّه لمن آمن و اتّقی،و بالشقاء لمن کذّب و کفر، و بالولایه من اللّه عزّ و جلّ للمؤمنین،و بالبراءه منه للمشرکین»ثمّ قال:«إنّ اللّه عزّ و جلّ یقول:یا ابن آدم،بمشیتی کنت أنت الذی تشاء لنفسک ما تشاء، و بإرادتی کنت أنت الذی ترید لنفسک ما ترید،و بفضل نعمتی علیک قویت علی معصیتی،و بقوّتی و عصمتی و عافیتی أدّیت إلیّ فرائضی،و أنا أولی بحسناتک منک،و أنت أولی بذنبک منّی،الخیر منّی إلیک واصل بما أولیتک به،و الشرّ منک إلیک بما جنیت جزاء،و بکثیر من تسلّطی لک انطویت علی طاعتی،و بسوء ظنّک بی قنطت من رحمتی،تلی الحمد و الحجّه علیک بالبیان،ولی السبیل علیک بالعصیان،و لک الجزاء الحسن عندی بالإحسان.لم أدع تحذیرک و لم آخذک عند غرّتک،و هو قوله عزّ و جلّ: وَ لَوْ یُؤٰاخِذُ اللّٰهُ النّٰاسَ بِمٰا کَسَبُوا مٰا تَرَکَ عَلیٰ ظَهْرِهٰا مِنْ دَابَّهٍ لم اکلّفک فوق طاقتک،و لم احمّلک من الأمانه إلاّ ما قرّرت بها علی نفسک، و رضیت لنفسی منک ما رضیت به لنفسک منّی،ثمّ قال عزّ و جلّ:

۱- ۱) -«دابه»من ماده«دب»و الدب و الدبیب مشی خفیف،و یستعمل ذلک فی الحیوان و فی الحشرات أکثر، و یستعمل فی کل حیوان و إن اختصت فی التعارف بالخیل.و کذلک تطلق کلمه«الدواب»خاصه علی الحیوانات التی تستعمل للرکوب.

وَ لٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللّٰهَ كٰانَ بِعِبٰادِهِ بَصِيراً

(۱)

.

إلهی،اجعلنا ممّن ینتفعون من الفرصه قبل فواتها،فیرجعون إلی وجهک الکریم،و نوّر ما مضی من أیّامنا بنور حسناتک و رضاک.

إلهی،إذا لم تشملنا برحمتک فإنّ جهنّم التی أشعلناها بأعمالنا السیّئه ستمتدّ بألسنتها إلینا و تلقی بنا فی لهواتها،و إن لم تضیء قلوبنا بنور غفرانک فإنّ قلوبنا ستصبح مرتعا للشیطان اللعین.

إلهی،أعذنا من کلّ شرک،و أسرج مصباح الإیمان و التوحید الخالص فی أعماق قلوبنا و زوّدنا بالتقوی فی أقوالنا و أعمالنا،إنّک مجیب الدعاء.

۱- ۱) -تفسیر علی بن إبراهیم طبقا لنقل نور الثقلین،المجلّد ۴،صفحه ۳۷۰ الحدیث ۱۲۲.

سوره یس

اشاره

مکّیه و عدد آیاتها ثلاث و ثمانون آیه

ص :۱۲۳

محتوى السوره:

هذه السوره من السور المكّيه،لذا فهى من حيث النظره الإجماليه لها نفس المحتوى العام للسور المكّيه،فهى تتحدّث عن التوحيد و المعاد و الوحى و القرآن و الإنذار و البشاره،و يلاحظ فى هذه السوره أربعه أقسام رئيسيّه:

۱-تتحدّث السوره أوّلا-عن رساله النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و القرآن المجيد و الهدف من نزول ذلك الكتاب السماوى العظيم و عن المؤمنين به،و تستمر بذلك حتّى آخر الآيه الحاديه عشره.

۲-قسم آخر من هذه السوره يتحدّث عن رساله ثلاثه من أنبياء اللّه،و كيف كانت دعوتهم للتوحيد،و جهادهم المتواصل المرير ضدّ الشرك،و هذا فى الحقيقه نوع من التسليه و المواساه لرسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و توضيح الطريق أمامه لتبليغ رسالته الكبرى.

۳-قسم آخر منها،و الذى يبدأ من الآيه ۳۳ و حتّى الآيه ۴۴،مملوء بالنكات التوحيديه الملفته للنظر،و هو عرض معبّر عن الآيات و الدلائل المشيره إلى عظمه اللّه فى عالم الوجود،كذلك فإنّ أواخر السوره أيضا تعود إلى نفس هذا البحث التوحيدى و الآيات الإلهيه.

۴-قسم مهمّ آخر من هذه السوره،يتحدّث حول المواضيع المرتبطه بالمعاد و الأدلّه المختلفه عليه،و كيفيه الحشر و النشر،و السؤال و الجواب فى يوم القيامه، و نهايه الدنيا،ثمّ الجنّه و النار،و هذا القسم يتضمّن مطالب مهمّه و دقيقه جدّا.

و خلال هـذه البحوث الأربعه ترد آيات محرّكه و محفّزه لأجل تنبيه و إنـذار الغافلين و الجهّال،لها الأثر القوى فى القلوب و النفوس.

الخلاصه،أنّ الإنسان يواجه فى هـذه السوره بمشاهـد مختلفه من الخلق و القيامه،الحياه و الموت،الإنـذار و البشاره،بحيث تشكّل بمجموعها نسخه الشفاء و مجموعه موقظه من الغفله.

فضيله سوره«يس»:

سوره يس-بشـهاده الأحاديث المتعدّده التى وردت بهذا الخصوص-من أهمّ السور القرآنيه،إلى حدّ أنّ الأحاديث لقّبتها ب«قلب القرآن»

ففى حديث عن رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نقرأ «إنّ لكلّ شىء قلبا،و قلب القرآن يس» (1) .

و

فى حـديث عن أبى بصـير عن الإمام الصادق عليه السّـلام: «إنّ لكلّ شـىء قلبا و قلب القرآن يس،فمن قرأ يس فى نهاره قبل أن يمسـى كان فى نهاره من المحفوظين و المرزوقين حتّى يمسـى،و من قرأها فى ليله قبل أن ينام و كلّ به ألف ملك يحفظونه من كلّ شيطان رجيم و من كلّ آفه...»الحديث (2) .

كذلك نقرأ

عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا «سوره تدعى فى التوراه المعمه!قيل:

و ما المعمه؟قال:تعم صاحبها خير الدنيا و الآخره»الحديث (3) .

و هناك روايات اخرى عديده بهذا الخصوص،وردت فى كتب الفريقين أعرضنا عن ذكرها حذرا من الإطاله.

لذا يجب الإقرار بأنّه ربّما لم تنل سوره من سور القرآن الاخرى كلّ هذه الفضائل الخاصّه بسوره يس.

1- 1) -مجمع البيان،مجلّد 4،صفحه 413.

2- 2) -مجمع البيان،مجلّد 4،صفحه 413.

3- 3) -المصدر السابق.

و كما أشرنا سابقا فإنّ هذه الفضيله و الثواب لا ينالهما من يكتفى بقراءه الألفاظ -فقط-مشيحا عن مفاهيم السوره،بل إنّ عظمه فضيله هذه السوره إنّما هى لعظمه محتواها..

محتوى يوقظ من الغفله و يضخّ فى النفس الإيمان،و يولد روح المسؤوليه و يدعو إلى التقوى،بحيث أنّ الإنسان إذا تفكّر فى هذه الآيه و جعل ذلك التفكّر يلقى بظلاله على أعماله،فإنّه يفوز بخير الدنيا و الآخره.

فمثلا،الآيه(۶۰)من هذه السوره تتحدّث حول عهد اللّه فى التحذير من عباده الشيطان أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِى آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ .

و من الواضح أنّه حينما ينشغل الإنسان بهذا العهد الإلهى-تماما مثلما ورد فى الأحاديث التى ذكرناها-سيكون فى أمان من أى شيطان رجيم،و لكن لو قرئت هذه الآيه بلا رويّه،و فى مقام العمل يكون من الأصدقاء المخلصين و الأوفياء للشيطان،فإنّه لن ينال ذلك الفخر الذى ذكرناه،و هذا يصدق على آيات هذه السوره آيه آيه.

***

الآیات [سوره یس (۳۶): الآیات ۱ الی ۱۰]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ يس (۱) وَ اَلْقُرْآنِ اَلْحَكِيمِ (۲) إِنَّكَ لَمِنَ اَلْمُرْسَلِينَ (۳) عَلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۴) تَنْزِيلَ اَلْعَزِيزِ اَلرَّحِيمِ (۵) لِتُنْذِرَ قَوْماً مٰا أُنْذِرَ آبٰاؤُهُمْ فَهُمْ غٰافِلُونَ (۶) لَقَدْ حَقَّ اَلْقَوْلُ عَلىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ (۷) إِنّٰا جَعَلْنٰا فِي أَعْنٰاقِهِمْ أَغْلاٰلاً فَهِيَ إِلَى اَلْأَذْقٰانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (۸) وَ جَعَلْنٰا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنٰاهُمْ فَهُمْ لاٰ يُبْصِرُونَ (۹) وَ سَوٰاءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ (۱۰)

التّفسیر

هذه السوره تبدأ-کما هو الحال فی ثمان و عشرین سوره اخری-بحروف مقطّعه و هی(یاء)و(سین).

و قد فصّل لنا الحدیث فیما یخصّ الحروف المقطّعه فی بدایه سوره(البقره)و(آل عمران) و(الأعراف)،و لکن فیما یخصّ سوره(یس)فتوجد تفسیرات اخری أیضا لهذه الحروف المقطّعه.

ص :۱۲۸

من جملتها أنّ هذه الكلمه(یس)تتکوّن من«یاء»حرف نداء و«سین»أی شخص الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و علیه فیکون المعنی أنّه خطاب للرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لتوضیح قضایا لاحقه.

و قد ورد فی بعض الأحادیث أنّ هذه الکلمه تمثّل أحد أسماء الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم (۱) .

و منها أنّ المخاطب هنا هو الإنسان و«سین»إشاره له،و لکن هذا الاحتمال لا یحقّق الانسجام بین هذه الآیه و الآیات اللاحقه،لأنّ هذه الآیات تتحدّث إلی الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم وحده.

لذا نقرأ

فی روایه عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «یس اسم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الدلیل علی ذلک قوله تعالی: إِنَّکَ لَمِنَ الْمُرْسَلِینَ عَلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ (۲) .

بعد هذه الحروف المقطّعه-و کما هو الحال فی أغلب السور التی تبتدی بالحروف المقطّعه-یأتی الحدیث عن القرآن المجید،فیورد هنا قسما بالقرآن،إذ یقول: وَ الْقُرْآنِ الْحَکِیمِ .الملفت للنظر أنّه وصف«القرآن»هنا ب«الحکیم»،فی حین أنّ الحکمه عاده صفه للعاقل،کأنّه سبحانه یرید طرح القرآن علی أنّه موجود حی و عاقل و مرشد،یستطیع فتح أبواب الحکمه أمام البشر،و یؤدّی إلی الصراط المستقیم الذی تشیر إلیه الآیات التالیه.

بدیهی أنّ اللّه سبحانه و تعالی لیس بحاجه لأنّ یقسم،و لکن الأقسام القرآنیه تتضمّن-دائما-فائدتین أساسیتین:الاولی التأکید علی الموضوع اللاحق للقسم، و الثانیه بیان عظمه الشیء الذی یقسم به اللّه تعالی،إذ أنّ القسم لا یکون عاده بأشیاء لیست ذات قیمه.

الآیه التی بعدها توضّح الأمر الذی من آجله أقسم اللّه تعالی فی مقدّمه السوره

ص:۱۲۹

۱- ۱) -نور الثقلین،مجلد ۴،صفحه ۳۷۴ و ۳۷۵.

۲- ۲) -نور الثقلین،ج ۴،ص ۳۷۵.

الکریمه: إِنَّکَ لَمِنَ الْمُرْسَلِینَ عَلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ (۱) .

بعد ذلک تضیف الآیه تَنْزِیلَ الْعَزِیزِ الرَّحِیمِ (۲) .

التأکید علی«العزیز»کصفه للّه سبحانه و تعالی،لأجل بیان قدرته سبحانه و تعالی فی قبال کتاب کبیر کهذا، کتاب یقف معجزه شامخه علی مرّ العصور و القرون،و لن تستطیع أیّه قدره مهما کانت أن تمحو أثره العظیم من صفحه القلوب.

و التأکید علی«رحیمیته»لأجل بیان هذه الحقیقه و هی أنّ رحمته أوجبت أن تقیّض للبشر نعمه عظیمه کهذه.

بعض المفسّرین قالوا بأنّ هاتین الصفتین ذکرتا للإشاره إلی نوعین من ردود الفعل المحتمله من قبل الناس إزاء نزول ذلک الکتاب السماوی و إرسال النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،فلو أنکروا و کذّبوا،فإنّ اللّه سبحانه و تعالی یهدّدهم بعزّته،و لو دخلوا من باب التسلیم و القبول،فإنّ اللّه یبشّرهم برحمته الخاصّه.

و علیه فإنّ عزّته و رحمته إحداهما مظهر للإنذار و الاخری للبشاره، و باقترانهما جعل هذا الکتاب السماوی العظیم فی متناول البشریه.

هنا یطرح سؤال:هل یمکن إثبات حقّانیه الرّسول أو الکتاب السماوی، بواسطه قسم أو تأکید؟ الجواب تستبطنه الآیات المذکوره،لأنّها من جانب تصف القرآن بالحکیم، مشیره إلی أنّ حکمته لیست مخفیه عن أحد،و ذلک دلیل علی حقّانیته.

ص:۱۳۰

۱- ۱) -اختلف المفسّرون فی ترکیب جمله عَلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ بعضهم قال«إنّها جار و مجرور»متعلّقان ب «المرسلین»،بحیث یکون المعنی«رسالتک علی صراط مستقیم»و بعضهم قال:«إنّها خبر بعد خبر»و المعنی «إنّک مستقر علی صراط مستقیم»،و البعض الآخر اعتبروها(حال)منصوبه و المعنی«إنّک من المرسلین و حالک علی صراط مستقیم»(من الطبیعی أن لیس هناک تفاوت کثیر فی المعنی).

۲- ۲) -«تنزیل»مفعول منصوب لفعل مقدّر و التقدیر«نزل تنزیل العزیز الرحیم»،کذلک فقد وردت احتمالات اخری لإعراب هذه الجمله.

و من جانب آخر فإنّ وصف الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّه عَلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، بمعنى أنّ محتوى دعوته يتّضح من سبيله القويم،و ماضيه أيضا دليل على أنه لم يسلك فى حياته سوى الطريق المستقيم.

و قد أشرنا فى البحوث التى أوردناها حول أدلّه حقّانيه الرسل،إلى أنّ أحد أهمّ الطرق لإدراك حقّانيه الرسل،هو التحقّق و الاطلاع على محتوى دعواتهم بشكل دقيق،الأمر الذى يؤكّد دائما أنّها متوافقه و منسجمه مع الفطره و العقل و الوجدان، و قابله للإدراك و التعقّل البشرى،إضافه إلى أنّ تأريخ حياه الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يدلّل على أنّه رجل أمانه و صدق،و ليس رجل كذب و تزوير..هذه الأمور قرائن حيّه على كونه رسول اللّه،و الآيات أعلاه فى الحقيقه تشير إلى كلا المطلبين،و عليه فإنّ القسم و الدعوى أعلاه لم يكونا بلا سبب أبدا.

ناهيك عن أنّه من حيث أدب المناظره،فإنّه لأجل النفوذ فى قلوب المنكرين و المعاندين يجب أن تكون العبارات فى طرحها أكثر إحكاما و حسما و مصحوبه بتأكيد أقوى،كيما تستطيع التأثير فى هؤلاء.

يبقى سؤال:و هو لماذا كان المخاطب فى هذه الجمله شخص الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ليس المشركين أو عموم الناس؟ الجواب هو التأكيد على أنّك يا أيّها النّبى على الحقّ و على الصراط المستقيم، سواء استجاب هؤلاء أو لم يستجيبوا،لذا فإنّ عليك الاجتهاد فى تبليغ رسالتك العظيمه،و لا تعر المخالفين أدنى اهتمام.

الآيه التاليه تشرح الهدف الأصلى لنزول القرآن كما يلى لِتُنْذِرَ قَوْماً مٰا أُنْذِرَ آبٰاؤُهُمْ فَهُمْ غٰافِلُونَ (1) أى إنّه لم يأت نذير لآبائهم.

ص:131

1- 1) -أعطى المفسّرون احتمالات مختلفه حول كون«ما»نافيه أو غير ذلك،أغلبهم قالوا بأنّها«نافيه»،و قد اعتمدنا ذلك نحن فى تفسيرنا،أوّلا:لأنّ جمله«فهم غافلون»دليل على ذلك المعنى،فعدم وجود المنذر سبب للغفله.

من المسلّم أنّ المقصود بهؤلاء القوم هم المشركون فی مكّه،و إذا قیل أنّه لم تخل امّه من منذر،و أنّ الأرض لا تخلو من حجّه للّه،علاوه علی أنّه تعالی یقول فی الآیه(۲۴)من سوره فاطر وَ إِنْ مِنْ أُمَّهٍ إِلاّ خَلا فِیها نَذِیرٌ ؟ فنقول:إنّ المقصود من الآیه-مورد البحث-هو المنذر الظاهر و النّبی العظیم الذی ملأ صیته الآفاق،و إلاّ فإنّ الأرض لم تخل یوما من حجّه للّه علی عباده، و إذا نظرنا إلی الفتره من عصر المسیح علیه السّلام إلی قیام الرّسول الأعظم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نجدها لم تخل من الحجّه الإلهیه،بل إنّها فتره من قیام اولی العزم،

یقول أمیر المؤمنین علیه الصلاه و السّلام بهذا الخصوص «إنّ اللّه بعث محمّدا صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لیس أحد من العرب یقرأ كتابا و لا یدّعی نبوّه!» (۱) .

و علی كلّ حال فإنّ الهدف من نزول القرآن الكریم كان تنبیه الناس الغافلین، و إیقاظ النائمین،و تذكیرهم بالمخاطر المحیطه بهم،و الذنوب و المعاصی التی ارتكبوها،و الشرك و أنواع المفاسد التی تلوّثوا بها،نعم فالقرآن أساس العلم و الیقظه،و كتاب تطهیر القلب و الروح.

ثمّ یتنبّأ القرآن الكریم بما یؤول إلیه مصیر الكفّار و المشركین فیقول تعالی:

لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلی أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا یُؤْمِنُونَ

.

احتمل المفسّرون هنا العدید من الاحتمالات فی المراد من«القول»هنا.

الظاهر أنّه ذلك الوعید الإلهی لكل أتباع الشیطان بالعذاب فی جهنّم،فمثله ما ورد فی الآیه(۱۳)من سوره السجده وَ لکِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّی لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ

۱)

الآیه الثالثه من سوره السجده-أیضا-شاهد علی ذلك،حیث یقول سبحانه و تعالی: لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِیرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ یَهْتَدُونَ . و قال بعضهم بأنّ«ما»هنا موصوله،بحیث یكون معنی الجمله«لتنذر قوما بالذی انذر آباؤهم». و بعض احتملوا أنّ«ما»مصدریه،و علیه یكون معنی الجمله«لتنذر قوما بنفس الإنذار الذی كان لآبائهم»، و لكن یبدو أنّ كلا الاحتمالین ضعیف.

۱- ۱) -نهج البلاغه،خ ۳۳ و ۱۰۴.

اَلْجِنَّهِ وَ النّاسِ أَجْمَعِينَ .کذلک فی الآیه(۷۱)من سوره الزمر نقرأ وَ لکِنْ حَقَّتْ کَلِمَهُ الْعَذابِ عَلَی الْکافِرِینَ .

علی کلّ حال فإنّ ذلک یخصّ أولئک الذین قطعوا کلّ ارتباط لهم باللّه سبحانه و تعالی،و أغلقوا علیهم منافذ الهدایه بأجمعها،و أوصلوا عنادهم و تکبرهم و حماقتهم إلی الحدّ الأعلی،نعم فهم لن یؤمنوا أبدا،و لیس لدیهم أی طریق للعوده،لأنّهم قد دمّروا کلّ الجسور خلفهم.

فی الحقیقه فإنّ الإنسان القابل للإصلاح و الهدایه هو ذلک الّذی لم یلوّث فطرته التوحیدیه تماما بأعماله القبیحه و أخلاقه المنحرفه،و إلاّ فإنّ الظلمه المطلقه ستتغلّب علی قلبه و تغلق علیه کلّ منافذ الأمل.

فاتّضح أنّ المقصود هم تلک الأکثریه من الرؤوس المشرکه الکافره الّتی لم تؤمن أبدا،و کذلک کان،فقد قتلوا فی حروبهم ضدّ الإسلام و هم علی حال الشرک و عباده الأوثان،و ما تبقی منهم ظلّ علی ضلاله إلی آخر الأمر.

و إلاّ فإنّ أکثر مشرکی العرب أسلموا بعد فتح مکّه بمفاد قوله تعالی: یَدْخُلُونَ فِی دِینِ اللّهِ أَفْواجاً . (۱)

و یشهد بذلک ما ورد فی الآیات التالیه التی تتحدّث عن وجود سدّ أمام و خلف هؤلاء و کونهم لا یبصرون.و أنّه لا ینفع معهم الإنذار أو عدمه (۲) .

الآیه التی بعدها تواصل وصف تلک الفئه المعانده،فتقول: إِنّا جَعَلْنا فِی أَعْناقِهِمْ أَغْلالاً فَهِیَ إِلَی الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ أی مرفوعی الرأس لوجود الغلّ حول الأعناق.

«أغلال»جمع«غل»:من مادّه«غلل»و یعنی تدرع الشیء و توسطه،و منه

ص:۱۳۳

۱- ۱) -سوره النصر،الآیه ۲.

۲- ۲) -بناء علی ما عرضناه یتضح بأنّ الضمیر فی«أکثرهم»یعود علی قاده القوم و لیس علی القوم،و شاهد ذلک الآیات التالیه لتلک الآیه.

الغلل(على وزن عمل)للماء الجارى بين الشجر.و«الغل»الحلقه حول العنق أو اليدين و تربط بعد ذلك بسلسله،و بما أنّ العنق أو اليدين تقع فى ما بينها فقد استعملت هذه المفرده فى هذا المورد،و حينا تكون الأغلال فى العنق مربوطه بسلسله مستقلّه عمّا تربط به أغلال الأيدى،و حينا تكون جميعها مربوطه بسلسله واحده فيكون الشخص بذلك تحت ضغط شديد و فى محدوديه و عذاب شديدين.

و إذا قيل لحاله العطش الشديد أو الحسره و الغضب«غله»فإنّ ذلك لنفوذ تلك الحاله فى داخل قلب و جسم الإنسان،و أساسا فإنّ مادّه«غل»-على وزن جدّ- بمعنى الدخول أو الإدخال،لذا قيل عن حاصل الكسب أو الزراعه و أمثالها «غله» (۱) .

و قد تكون حلقه«الغل»حول الرقبه عريضه أحيانا بحيث تضغط على الذقن و ترفع الرأس إلى الأعلى،من هنا فإنّ المقيّد يتحمّل عذابا فوق العذاب الذى يتحمّله من ذلك القيد بأنّه لا يستطيع مشاهده أطرافه.

و يا له من تمثيل رائع حيث شبّه القرآن الكريم حال عبده الأوثان المشركين بحال هذا الإنسان،فقد طوّقوا أنفسهم بطوق«التقليد الأعمى»،و ربطوا ذلك بسلسله«العادات و التقاليد الخرافيه»فكانت تلك الأغلال من العرض و الاتّساع أنّها أبقت رؤوسهم تنظر إلى الأعلى و حرمتهم بذلك من رؤيه الحقائق،و بذلك فإنّهم أسرى لا يملكون القدره و الفعّاليه و الحركه،و لا قدره الإبصار (۲) .

على أيّه حال فإنّ الآيه الذى أعلاه،تعتبر شرحا لحال تلك الفئه الكافره فى الدنيا و حالهم فى عالم الآخره الذى هو تجسيد لمسائل هذا العالم،و ليس من الغريب استخدام صيغه الماضى فى تصوير حال الآخره هنا،فإنّ الكثير من الآيات

۱- ۱) -مفردات الراغب،و قطر المحيط،و مجمع البحرين،مادّه غل.

۲- ۲) -على ما أوردناه أصبح واضحا أنّ الضمير«هى»فى جمله فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ يعود على«الأغلال»بحيث إنّها رفعت أذقانهم إلى الأعلى،و جمله«فهم مقمحون»تفريع على ذلك.و ما احتمله البعض من أنّ«هى»تعود على«الأيدى»التى لم يرد ذكرها فى الآيه،يبدو بعيدا جدّا.

القرآنیه الکریمه تتکلّم بصیغه الماضی حینما تتعرّض إلی الحوادث المسلّم بها فی المستقبل للدلاله علی مضارع متحقّق الوقوع،و بذلک یمکن أن تکون إشاره إلی کلا المعنیین حالهم فی الدنیا و حالهم فی الآخره.

جمع من المفسّرین ذکروا فی أسباب نزول هذه الآیه و الآیه التالیه لها أنّهما نزلتا فی(أبی جهل)أو(رجل من مخزوم)أو قریش،الذین صمّموا مرارا علی قتل الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لکن اللّه سبحانه و تعالی منعهم من ذلک بطریقه إعجازیه فکلّما أرادوا إنزال ضربه بالنّبی عمیت عیونهم عن الإبصار أو أنّهم سلبوا القدره علی التحرّک تماما (۱) .

و لکن سبب النّزول ذلک لا یمنع من عمومیه مفهوم الآیه وسعه معناها،بحیث یشمل جمیع أئمّه الکفر و المعاندین،و فی الضمن فهی تعتبر تأییدا لما قلناه فی تفسیر فَهُمْ لاٰ یُؤْمِنُونَ فی أنّ المقصود بهم هم أئمّه الکفر و النفاق و لیس أکثریه المشرکین.

الآیه التالیه تتناول وصفا آخر لحاله تلک المجموعه،و تمثیلا ناطقا عن عوامل و أسباب عدم تقبّلهم الحقائق فتقول: وَ جَعَلْنٰا مِنْ بَیْنِ أَیْدِیهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا و حوصروا بین هذین السدّین و أمسوا لا یملکون طریقا لا إلی الأمام و لا إلی الوراء،آنئذ فَأَغْشَیْنٰاهُمْ فَهُمْ لاٰ یُبْصِرُونَ .

و یا له من تشبیه رائع!!فهم من جهه کالأسری فی الأغلال و السلاسل،و من جهه اخری فإنّ حلقه الغلّ عریضه بحیث أنّها ترفع رؤوسهم إلی السماء،و تمنعهم من أن یبصروا شیئا ممّا حولهم،و من جهه ثالثه فهم محاصرون بین سدود من أمامهم و خلفهم و ممنوعون من سلوک طریقهم إلی الأمام أو إلی الخلف.و من جهه رابعه فَهُمْ لاٰ یُبْصِرُونَ إذ فقدت عیونهم کلّ قدره علی الإبصار.

تأمّلوا ملیّا ماذا ینتظر ممّن هو علی تلک الحال؟ما هو مقدار إدراکه للحقائق؟

۱- ۱) -تفسیر الآلوسی،المجلّد ۲۲،صفحه ۱۹۹.

ماذا یمکنه أن یبصر؟و کیف یمکنه أن ینقل خطاه؟فکذلک حال المستکبرین المعاندین العمی الصمّ فی قبال الحقائق!! لهذا فإنّه تعالی یقول فی آخر آیه من هذه المجموعه وَ سَوٰاءٌ عَلَیْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاٰ یُؤْمِنُونَ .فمهما کان حدیثک نافذا فی القلوب و مهما کان أثر الوحی السماوی،فإنّه لن یؤثّر ما لم یجد الأرضیه المناسبه،فلو سطعت الشمس آلاف السنین علی أرض سبخه،و نزلت علیها میاه الأمطار المبارکه،و هبّت علیها نسائم الربیع علی الدوام،فلیس لها أن تنبت سوی الشوک و التبن،لأنّ قابلیه القابل شرط مع فاعلیه الفاعل.

***

بحوث

اشاره

١-فقدان وسائل المعرفه

یحتاج الإنسان للتعرّف علی العالم الخارجی إلی الاستفاده من وسائل و أدوات تسمّی«وسائل المعرفه».

قسم منها«باطنیه»و القسم الآخر«ظاهریه».

العقل و الوجدان و الفطره من وسائل المعرفه الباطنیه،و الحواس الظاهریه کالأبصار و الأسماع و أمثالها وسائل المعرفه الظاهریه.

و قد أعطی اللّه هذه الوسائل القدره علی الاشتداد شیئا فشیئا إذا استفید منها علی وجه صحیح حتّی تتمکّن من تشخیص الحقائق بصوره أفضل و أدق.

أمّا إذا استغلّت بطریقه خاطئه،أو لم یتمّ الاستفاده منها أصلا،فإنّها تضطرب بشکل کلّی و تعکس الحقائق بشکل مقلوب،تماما کالمرآه الصافیه إذا غطّاها غبار غلیظ أو أنّها تخرّشت بحیث أضحت لا تعکس الصوره علیها،أو أنّها تعکس ما لا ینطبق علی الواقع.

هـذه الأعمال المغلوطه و المواقف المنحرفه هى التى تصادر وسائل المعرفه من الإنسان،و لهـذا السـبب فإنّ المقصّـِر الأصـلى هو الإنسان،و هو الذى جنى على نفسه.

الآيـات أعلاـه تشـبيه معبّر عـن هـذه المسـأله المهمّـِه و المصـيريه،فهى تشـبه المسـتكبرين و المتعصّـِبين و الأنـانيين و المنـافقين بالمقيـدين بالأغلاـل و السـلاسل مـن جهـه،سـلاسل الكـبر و الهـوس و الغرور و التقليـد الأـعمى الـذى وضـعوه على أعنـاقهم و أياديهم.و بأولئك المحاصرين بين سدّين منيعين لا يمكن عبورهما.

و من جهه اخرى فإنّ أعينهم مغلقه و لا تبصر.

الغلّ و السـلاسل وحـدها تكفى لمنعهم من الحركه،و السـدّان العظيمان أيضا وحـدهما كافيان لمنعهم من الفعّاليه،انعـدام البصـر وحده أيضا عامل مستقل.

هـذان السـدّان عاليـان و متقاربـان إلى حـدّ أنّهما وحـدهما كافيان لسـلبهم القـدره على الإبصار،كما أنّهما كافيان لسـلبهم قـدره الحركه.و قـد كرّرنا القول بأنّ الإنسان تبقى هـدايته ممكنه ما لم يصل إلى تلك المرحله،أمّا حينما يبلغ تلك المرحله،فلو اجتمع جميع الأنبياء و الأولياء عليهم السّلام أيضا و قرءوا له جميع الكتب السماويه،فلن يؤثّر ذلك فيه.

و ذلك ما تمّ التأكيـد عليه،سواء فى آيات القرآن أو الروايات،و هو أنّ الإنسان إذا زلّت قدمه أو ارتكب ذنبا فعليه أو يتوب فورا و يتوجّه إلى اللّه،و أن يبتعد عن التسويف و التأخير،و الإصرار و التكرار،و من أجل أن لا يصل إلى تلك المرحله عليه أن ينظف صدأ القلب،و يدمّر السدود و الموانع الصغيره قبل أن تتحوّل إلى سدود كبيره و عظيمه،و يحتفظ بمساره و تكامله و ينفض الغبار عن عينيه لكى يتمكّن من الإبصار.

۲-السدود من الأمام و الخلف

طرح بعض المفسّرين هذا السؤال،و هو أنّ المانع الأساسی من استمرار الحرکه هو السدّ الذی یکون أمام الإنسان،فما معنی السدّ من الخلف؟ و أجاب بعضهم قائلا:«إنّ الإنسان له هدایه فطریه و وجدانیه-و هدایه نظریه استدلالیه-فکأنّه تعالی یقول: جَعَلْنا مِنْ بَیْنِ أَیْدِیهِمْ سَدًّا »أی:حرمناهم من سلوک سبیل الهدایه النظریه و جعلنا مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا أی:منعناهم من العوده إلی الهدایه الفطریه (۱) .

و قال البعض الآخر:انّ السدّ من بین أیدیهم إشاره إلی الموانع التی تمنعهم من الوصول إلی الآخره و سلوک طریق السعاده الخالده،و أمّا السدّ من خلفهم فهو الذی یصدّهم عن تحصیل السعاده الدنیویه (۲) .

کذلک یحتمل التّفسیر التالی أیضا،و هو إنّ السالک إذا انسدّ الطریق الذی قدّامه فقد فاته المقصد و لکنّه یرجع لیبحث عن طریق آخر یوصله إلی المقصد،فإذا أغلق الطریق من خلفه و من قدّامه فسوف یکون محروما من الوصول إلی المقصد حتما.

و فی الثنایا یتّضح الجواب أیضا علی السؤال التالی:و هو لماذا لم یذکر السدود عن الیمین و الشمال؟ذلک لأنّ الإنسان لا یصل إلی المقصد الذی أمامه بالسیر یمینا أو شمالا،إضافه إلی أنّ السدّ عاده یبنی فی مکان یکون طرفاه الأیمن و الأیسر مغلقین،و الممر الوحید هو مکان السدّ الذی ینغلق هو الآخر بوجوده، فیکون الإنسان فی حصار کامل عملیّا.

۳-الحرمان من السیر الآفاقی و الأنفسی

هناک طریقان معروفان لمعرفه اللّه،الأوّل التأمّل و التفکّر فی آثار اللّه فی جسم

۱- ۱) -تفسیر الفخر الرازی الکبیر،تفسیر الآیات مورد البحث مجلّد ۲۶،ص ۴۵.

۲- ۲) -تفسیر القرطبی،تفسیر الآیات مورد البحث،مجلّد ۱۵،ص ۱۰.

الإنسان و روحه،و تلك«الآيات الأنفسيه»،و الثانى التأمّل فى الآيات الخارجيه الموجوده فى الأرض و السماء و الثوابت و السيارات من الكواكب،و الجبال و البحار.و تلك تسمّى«الآيات الآفاقيه»و قد أشار القرآن إليهما فى الآيه(۵۳) من سوره فصّلت سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .

و حينما يفقد الإنسان قدره المعرفه،فإنّه يغلق عليه طريق مشاهده الآيات الأنفسيه و الآفاقيه على حدّ سواء.

فى الآيات الماضيه و فى جمله إِنّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ إشاره إلى المعنى الأوّل،لأنّ الأغلال ترفع رؤوسهم إلى الأعلى بحيث أنّهم لا يملكون القدره على رؤيه أنفسهم،و كذلك فإنّ السدود أمامهم و خلفهم تمنعهم من رؤيه ما حولهم،بحيث أنّهم مهما نظروا فلن يبصروا غير السدود،و بذا يحرمون من مشاهده الآيات الآفاقيه.

***

الآيتان [سوره يس (٣۶): الآيات ١١ الى ١٢]

اشاره

إِنَّمٰا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِنّٰا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتىٰ وَ نَكْتُبُ مٰا قَدَّمُوا وَ آثٰارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنٰاهُ فِي إِمٰامٍ مُبِينٍ (١٢)

التّفسير

اشاره

من هم الذين يتقبّلون إنذارك؟

كان الحديث فى الآيات السابقه عن مجموعه لا تملك أى استعداد لتقبّل الإنذارات الإلهيّه و يتساوى عندهم الإنذار و عدمه،أمّا هـذه الآيـات فتتحـدّث عن فئه اخرى هى على النقيض من تلك الفئه،و ذلك لكى يتّضـح المطلب بالمقارنه بين الفئتين كما هو أسلوب القرآن.

تقول الآيه الاولى من هذه المجموعه إِنَّمٰا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ .

هنا ينبغى الالتفات إلى امور:

١-ذكرت فى هذه الآيه صفتان لمن تؤثّر فيهم مواعظ و إنذارات النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

و هى«أتباع الذكر»و«الخشيه من اللّه فى الغيب».لا شكّ أنّ المقصود من هاتين

الصفتين هو ذلك الاستعداد الذاتى و ما هو موجود فيهم«بالقوّه».أى أنّ الإنذار يؤثّر فقط فى أولئك الذين لهم أسماع واعيه و قلوب مهيّأه،فالإنذار يترك فيهم أثرين:الأوّل إتّباع الذكر و القرآن الكريم،و الآخر الإحساس بالخوف بين يدى اللّه و المسؤوليه.

و بتعبير آخر فإنّ هاتين الحالتين موجودتان فيهم بالقوّه،و إنّها تظهر فيهم بالفعل بعد الإنذار،و ذلك على خلاف الكفّار عمى القلوب الغافلين الذين لا يملكون اذنا صاغيه و ليسوا أهلا للخشيه من اللّه أبدا.

هذه الآيه كالآيه من سوره البقره حيث يقول تعالى: ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ .

٢-باعتقاد الكثير من المفسّرين أنّ المقصود من«الذكر»هو«القرآن المجيد».

لأنّ هذه الكلمه جاءت بهذه الصوره مرارا فى القرآن الكريم لتعبّر عن هذا المعنى (١) ،و لكن لا مانع من أن يكون المقصود من هذه الكلمه أيضا المعنى اللغوى لها بمعنى مطلق التذكير، بحيث يشمل كلّ الآيات القرآنيه و سائر الإنذارات الصادره عن الأنبياء و القاده الإلهيين.

٣-«الخشيه»كما قلنا سابقا،بمعنى الخوف الممزوج بالإحساس بعظمه اللّه تعالى،و التعبير ب«الرحمن»هنا و الذى يشير إلى مظهر رحمه اللّه العامّه يثير معنى جميلا،و هو أنّه فى عين الوقت الذى يستشعر فيه الخوف من عظمه اللّه،يجب أن يكون هنالك أمل برحمته،لموازنه كفّتى الخوف و الرجاء،اللذين هما عاملا الحركه التكامله المستمره.

الملفت للنظر أنّه ذكرت كلمه«اللّه»فى بعض من الآيات القرآنيه فى مورد

---

١ - ١) -انظر النحل:٤٤ و فصّلت:٤١،و الزخرف:٤٤ و القمر:٢٥،و فى نفس الوقت فإنّ لفظه«ذكر»تكرّرت فى القرآن كثيرا بمعنى«التذكير المطلق».

«الرجـاء»و التی تمثّـل مظهر الهیبه و العظمه لِمَنْ کٰانَ یَرْجُوا اللّٰهَ وَ الْیَوْمَ الْآخِرَ (۱) إشـاره إلی أنّه یجب أن یکون الرجاء ممزوجا بالخوف،و الخوف ممزوجا بالرجاء علی حد سواء(تأمّل!!).

۴-التعبیر ب«الغیب»هنـا إشـاره إلی معرفه اللّه عن طریق الاسـتدلال و البرهـان، إذ أنّ ذات اللّه سـبحانه و تعالی غیب بالنسبه إلی حواس الإنسان،و یمکن فقط مشاهده جماله و جلاله سبحانه ببصیره القلب و من خلال آثاره تعالی.

کـذلک یحتمـل أیضـا أنّ«الغیب»هنـا بمعنی«الغیـاب عن عیون النـاس»بمعنی أنّ مقام الخشـیه و الخوف یجب أن لا یتّخـذ طابعا ریائیا،بل إنّ الخشیه و الخوف یجب أن تکون فی السرّ و الخفیه.

بعضـهم فسّـر«الغیب»أیضـا ب«القیـامه»لأنّهـا من المصادیق الواضـحه للأمور المغیبه عن حسّـنا،و لکن یبـدو أنّ التّفسـیر الأوّل هو الأنسب.

۵-جمله«فبشّـره»فی الحقیقه تکمیل للإنذار،إذ أنّ الرّسول صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی البدء ینذر،و حین یتحقّق للإنسان اتّباع الذکر و الخشیه و تظهر آثارها علی قوله و فعله، هنا یبشّره الباری عزّ و جلّ.

بمـاذا یبشّـر؟أوّلا-یبشّـره بشـیء قـد شـغل فکره أکثر من أی موضوع آخر،و هو تلک الزلّات التی ارتکبها،یبشّـره بأنّ اللّه العظیم سیغفر له تلک الزلّات جمیعها، و یبشّره بعدئذ بأجر کریم و ثواب جزیل لا یعلم مقداره و نوعه إلّا اللّه سبحانه.

الملفت للنظر هو تنکیر«المغفره»و«الأجر الکریم»و نعلم بأنّ اسـتخدام النکره فی مثل هـذه المواضع إنّما هو للتـدلیل علی الوفره و العظم.

۶-یری بعض المفسّـرین أنّ(الفـاء)فی جملـه«فبشّـره»للتفریـع و التفضـیل، إشـاره إلی أنّ(اتّبـاع التـذکر و الخشیه)نتیجتها«المغفره»و«الأجر الکریم»بحیث أنّ الاولی و هی المغفره تترتّب علی الأوّل،و الثانیه علی الثانی.

۱- ۱) -الأحزاب،۲۱.

بعد ذلک و بما یتناسب مع البحث الذی کان فی الآیه السابقه حول الأجر و الثواب العظیم للمؤمنین و المصدّقین بالإنذارات الإلهیه التی جاء بها الأنبیاء، تنتقل الآیه التالیه إلی الإشاره إلی مسأله المعاد و البعث و الکتاب و الحساب و المجازاه،تقول الآیه الکریمه: إِنّٰا نَحْنُ نُحْیِ الْمَوْتیٰ .

الاستناد إلی لفظه«نحن»إشاره إلی القدره العظیمه التی تعرفونها فینا!و کذلک قطع الطریق أمام البحث و التساؤل فی کیف یحیی العظام و هی رمیم،و یبعث الروح فی الأبدان من جدید؟و لیس نحیی الموتی فقط،بل وَ نَکْتُبُ مٰا قَدَّمُوا وَ آثٰارَهُمْ و علیه فإنّ صحیفه الأعمال لن تغادر صغیره و لا کبیره إلاّ و تحفظها إلی یوم الحساب.

جمله«ما قدّموا»إشاره إلی الأعمال التی قاموا بها و لم یبق لها أثر،أمّا التعبیر «و آثارهم»فإشاره إلی الأعمال التی تبقی بعد الإنسان و تنعکس آثارها علی المحیط الخارجی،من أمثال الصدقات الجاریه(المبانی و الأوقاف و المراکز التی تبقی بعد الإنسان و ینتفع منها الناس).

کذلک یحتمل أیضا أن یکون المعنی هو أنّ«ما قدّموا»إشاره إلی الأعمال ذات الجنبه الشخصیه،و«آثارهم»إشاره إلی الأعمال التی تصبح سننا و توجب الخیر و البرکات بعد موت الإنسان،أو تؤدّی إلی الشرّ و المعاصی و الذنوب.و مفهوم الآیه واسع یمکن أن یشمل التّفسیرین.

ثمّ تضیف الآیه لزیاده التأکید وَ کُلَّ شَیْءٍ أَحْصَیْنٰاهُ فِی إِمٰامٍ مُبِینٍ .

أغلب المفسّرین اعتبروا أنّ معنی«إمام مبین»هنا هو«اللوح المحفوظ»ذلک الکتاب الذی أثبتت فیه و حفظت کلّ الأعمال و الموجودات و الحوادث التی فی هذا العالم.

و التعبیر ب«إمام»ربّما کان بلحاظ أنّ هذا الکتاب یکون فی یوم القیامه قائدا و إماما لجمیع المأمورین بتحقیق الثواب و العقاب،أو لکونه معیارا لتقییم الأعمال

الإنسانيه و مقدار ثوابها و عقوبتها.

الجدير بالملاحظه أنّ تعبير(إمام)ورد فی بعض آیات القرآن الکریم للتعبیر عن«التوراه»حیث یقول سبحانه و تعالی: أَ فَمَنْ کٰانَ عَلیٰ بَیِّنَهٍ مِنْ رَبِّهِ وَ یَتْلُوهُ شٰاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ کِتٰابُ مُوسیٰ إِمٰاماً وَ رَحْمَهً .

و إطلاق کلمه«إمام»فی هذه الآیه علی«التوراه»یشیر إلی المعارف و الأحکام و الأوامر الوارده فی التوراه،و کذلک للدلائل و الإشارات المذکوره بحقّ نبی الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،ففی کلّ هذه الأمور یمکن للتوراه أن تکون قائدا و إماما للخلق،و بناء علی ذلک فإنّ الکلمه المزبوره لها معنی متناسب مع مفهومها الأصلی فی کلّ مورد استعمال.

***

مسألتان

اشاره

١-أنواع الکتب التی تثبت بها أعمال الناس

یستفاد من الآیات القرآنیه الکریمه أنّ أعمال الإنسان تدون و تضبط فی أکثر من کتاب،حتّی لا یبقی له حجّه أو غدر یوم الحساب.

أوّلها:«صحیفه الأعمال الشخصیه»التی تحصی جمیع أعمال الفرد علی مدی عمره اِقْرَأْ کِتٰابَکَ کَفیٰ بِنَفْسِکَ الْیَوْمَ عَلَیْکَ حَسِیباً . (١)

هناک حیث تتعالی صرخات المجرمین یَقُولُونَ یٰا وَیْلَتَنٰا مٰا لِهٰذَا الْکِتٰابِ لاٰ یُغٰادِرُ صَغِیرَهً وَ لاٰ کَبِیرَهً إِلاّٰ أَحْصٰاهٰا . (٢) و هو الکتاب الذی یأخذه المحسنون فی أیمانهم و المسیئون فی شمائلهم-الحاقّه ١٩ و ٢۵.

ثانیا:«صحیفه أعمال الامّه»و التی تبیّن الخطوط الاجتماعیه لحیاتها،کما

١- ١) -الإسراء،١۴.

٢- ٢) -الکهف،۴٩.

يقول القرآن الكريم: كُلَّ أَمَّةٍ تُدْعیٰ إِلیٰ کِتٰابِهَا . (۱)

و ثالثها:«اللوح المحفوظ»و هو الكتاب الجامع،ليس لأعمال جميع البشر من الأوّلين و الآخرين فقط،بل لجميع الحوادث العالميه،و شاهد آخر على أعمال بنى آدم فى ذلك المشهد العظيم،و فى الحقيقه فهو إمام لملائكه الحساب و ملائكه الثواب و العقاب.

۲-كلّ شىء أحصيناه

ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نزل بأرض قرعاء، فقال لأصحابه:«ائتوا بحطب،فقالوا:يا رسول اللّه،نحن بأرض قرعاء!قال:

فليأت كلّ إنسان بما قدر عليه.فجاءوا به حتّى رموا بين يديه،بعضه على بعض، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.هكذا تجمع الذنوب،ثمّ قال:إيّاكم و المحقّرات من الذنوب، فإنّ لكلّ شىء،طالبا،ألا و إنّ طالبها يكتب ما قدّموا و آثارهم و كلّ شىء أحصيناه فى إمام مبين» (۲) .

هذا الحديث المؤثّر،صوره معبّره عن أنّ تراكم صغائر الذنوب و المعاصى يمكنه أن يولد نارا عظيمه اللهب.

فى حديث آخر ورد أنّ«بنى سلمه»كانوا فى ناحيه المدينه،فأرادوا النقله إلى قرب المسجد،فنزلت هذه الآيه إِنّٰا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتیٰ وَ نَكْتُبُ مٰا قَدَّمُوا وَ آثٰارَهُمْ

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إنّ آثاركم تكتب»- أى خطواتكم التى تخطونها إلى المسجد،و سوف تثابون عليها-فلم ينتقلوا (۳) .

۱- ۱) -الجاثيه،۲۸.

۲- ۲) -نور الثقلين،ج ۴،ص ۳۷۸،ح ۲۵.

۳- ۳) -تفسير القرطبى،ج ۱۵،ص ۱۲،نقل هذا الحديث عن أبى سعيد الخدرى،كما فى صحيح الترمذى و جاء مثله فى صحيح مسلم عن جابر بن عبد اللّه الأنصارى أيضا،و قد ذكره مفسّرون آخرون كالآلوسى و الفخر الرازى و الطبرسى و العلاّمه الطباطبائى-أيضا-بتفاوت يسير.

اتّضح إذا أنّ مفهوم الآيه واسع و شامل،و له فی كلّ من تلك الأمور التی ذكرناها مصداق.

و قد يبدو عدم انسجام ما ذكرنا مع ما ورد من«أهل البيت»عليهم السّلام حول تفسير «إمام مبين»بأمير المؤمنين علی عليه أفضل الصلاه و السلام.كما

ورد عن الإمام الباقر عليه السّلام عن آبائه عليهم السّلام: «لمّا أنزلت هذه الآيه علی رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ قام أبو بكر و عمر من مجلسهما فقالا:يا رسول اللّه،هو التوراه؟قال:لا،قالا:فهو الإنجيل؟قال:لا،قالا:فهو القرآن؟قال:لا،قال:فأقبل أمير المؤمنين علی عليه السّلام فقال رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم:هو هذا،إنّه الإمام الذی أحصی اللّه تبارك و تعالی فيه علم كلّ شیء» (1) .

و

فی تفسير علی بن إبراهيم عن ابن عبّاس عن أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاه و السلام أنّه قال: «أنا و اللّه الإمام المبين،أبيّن الحقّ من الباطل،ورثته من رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم» (2) .

فمع أنّ بعض المفسّرين من أمثال«الآلوسی»،قد إستاء كثيرا من عمليه نقل أمثال هذه الروايات من طرق الشيعه،و نسبهم لذلك إلی عدم المعرفه و الاطلاع و عدم التمكّن من التّفسير،إلاّ أنّه بقليل من الدقّه يتّضح أنّ أمثال هذه الروايات لا تتنافی مع تفسير«الإمام المبين»ب«اللوح المحفوظ».بلحاظ أنّ قلب الرّسول صلّی اللّه عليه و آله و سلّم بالمقام الأوّل،ثمّ يليه قلب وليّه،و يعتبران مرآه تعكس ما فی اللوح المحفوظ،و إنّ اللّه سبحانه و تعالی يلهمهم القسم الأعظم ممّا هو موجود فی اللوح المحفوظ،و بذا يصبحان نموذجا من اللوح المحفوظ،و عليه فإنّ إطلاق«الإمام المبين»عليهما ليس بالأمر العجيب،لأنّهما فرع لذلك الأصل،ناهيك عن أنّ وجود الإنسان الكامل-كما نعلم-يعتبر عالما صغيرا ينطوی علی خلاصه العالم

۱- ۱) -معانی الأخبار للصدوق،باب معنی الإمام،صفحه ۹۵.

۲- ۲) -نور الثقلين،ج ۴،ص ۳۷۹.

الکبیر،و طبقا للشعر المنسوب إلی أمیر المؤمنین علیه الصلاه و السلام.

أ تزعم أنّک جرم صغیر؟

و فیک انطوی العالم الأکبر

و العجیب أنّ«الآلوسی»لا یستبعد هذا التّفسیر مع إنکاره للرّوایات السالفه الذکر،و علی کلّ حال فلیس من شکّ فی کون المقصود من«الإمام المبین»هو «اللوح المحفوظ»فإنّ الروایات السالفه الذکر یمکن تطبیقها علیه«دقّق النظر!!».***

الآيات [سوره يس (۳۶): الآيات ۱۳ الى ۱۹]

اشاره

وَ اِضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحابَ اَلْقَرْيَهِ إِذْ جاءَهَا اَلْمُرْسَلُونَ (۱۳) إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اِثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (۱۴) قالُوا ما أَنْتُمْ إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَ ما أَنْزَلَ اَلرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاّ تَكْذِبُونَ (۱۵) قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (۱۶) وَ ما عَلَيْنا إِلاَّ اَلْبَلاغُ اَلْمُبِينُ (۱۷) قالُوا إِنّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَ لَيَمَسَّنَّكُمْ مِنّا عَذابٌ أَلِيمٌ (۱۸) قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَ إِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (۱۹)

التّفسير

اشاره

و اضرب لهم مثلا أصحاب القريه:

لمتابعه البحوث الماضيه فى الآيات السابقه حول القرآن و نبوّه الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و المؤمنين الصادقين،و الكفّار المعاندين،تطرح هذه الآيات نموذجا من موقف الأمم السابقه بهذا الصدد،إنّ هذه الآيات و بعضا من الآيات التاليه لها،

و التی تشکّل بمجموعها ثمانی عشره آیه،تتحدّث حول تأریخ عدد من الأنبیاء السابقین الذین بعثوا لهدایه المشرکین عبّاد الأوثان الذین سمّاهم القرآن الکریم أَصْحٰابَ الْقَرْیَهِ و کیف أنّهم نهضوا لمخالفه أولئک الأنبیاء،و تکذیبهم،و کانت خاتمتهم أن أخذهم العذاب الألیم،لتکون تنبیها لمشرکی مکّه من جهه،و تسلیه للرسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و فئه المؤمنین القلیله به فی ذلک الیوم.علی کلّ حال فإنّ التأکید علی إیراد هذه القصّه فی قلب هذه السوره التی تعتبر هی بدورها قلب القرآن الکریم،بسبب تشابه ظروف تلک القصّه مع ظروف المسلمین فی ذلک الیوم.

أوّلا تقول الآیات الکریمه: وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحٰابَ الْقَرْیَهِ إِذْ جٰاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (۱) .

«القریه»فی الأصل اسم للموضع الذی یجتمع فیه الناس،و تطلق أحیانا علی نفس الناس أیضا،لذا فمفهومها یتّسع حتّی یشمل المدن و النواحی،و أطلقت فی لغه العرب و فی القرآن المجید مرارا علی المدن المهمّه مثل«مصر»و«مکّه» و أمثالهما.

لکن ما اسم هذه القریه أو المدینه التی ذکرت فی هذه الآیه؟ المشهور بین المفسّرین أنّها«أنطاکیه»إحدی مدن بلاد الشام.و هی إحدی المدن الرومیه المشهوره قدیما،کما أنّها ضمن منطقه نفوذ ترکیا جغرافیا فی الحال الحاضر،و سنتعرض إلی تفصیل الحدیث عنها فی البحوث الآتیه إن شاء اللّه، و علی کلّ حال فإنّه یظهر جیدا من آیات هذه السوره الکریمه أنّ أهل تلک المدینه کانوا یعبدون الأصنام،و أنّ هؤلاء الرسل جاؤوا یدعونهم إلی التوحید و نبذ الشرک.

۱- ۱) -یعتقد البعض بأنّ«أصحاب القریه»مفعول أو للفعل«اضرب»و«مثلا»مفعول ثان مقدّم،و البعض یقول:إنّها بدل عن«مثلا»،و لکن الظاهر رجاحه الاحتمال الأوّل.

بعد ذلک العرض الإجمالی العام،تنتقل الآیات إلی تفصیل الأحداث التی جرت فتقول: إِذْ أَرْسَلْنا إِلَیْهِمُ اثْنَیْنِ فَکَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنّا إِلَیْکُمْ مُرْسَلُونَ (۱) .

أمّا من هم هؤلاء الرسل؟هناک أخذ و ردّ بین المفسّرین،بعضهم قال:إنّ أسماء الإثنین«شمعون»و«یوحنا»و الثالث«بولس»،و بعضهم ذکر أسماء اخری لهم.

و کذلک هناک أخذ ورد فی أنّهم رسل اللّه تعالی،أم أنّهم رسل المسیح علیه السّلام (و لا منافاه مع قوله تعالی: إِذْ أَرْسَلْنا إذ أنّ رسل المسیح رسله تعالی أیضا)،مع أنّ ظاهر الآیات أعلاه ینسجم معه التّفسیر الأوّل،و إن کان لا فرق بالنسبه إلی النتیجه التی یرید أن یخلص إلیها القرآن الکریم.

الآن لننظر ماذا کان ردّ فعل هؤلاء القوم الضالّین قبال دعوه الرسل،القرآن الکریم یقول:إنّهم تعلّلوا بنفس الأعذار الواهیه التی یتذرّع بها الکثیر من الکفّار دائما فی مواجهه الأنبیاء قالُوا ما أَنْتُمْ إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَ ما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَیْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاّ تَکْذِبُونَ .

فإذا کان مقرّرا أن یأتی رسول من قبل اللّه سبحانه،فیجب أن یکون ملکا مقرّبا و لیس إنسانا مثلنا.هذه هی الذریعه التی تذرّعوا بها لتکذیب الرسل و إنکار نزول التشریعات الإلهیه، و المحتمل أنّهم یعلمون بأنّ جمیع الأنبیاء علی مدی التاریخ کانوا من نسل آدم،من جملتهم إبراهیم الخلیل علیه السّلام،الذی عرف برسالته،و من المسلّم أنّه کان إنسانا،و ناهیک عن أنّه هل یمکن لغیر الإنسان أن یدرک حاجات الإنسان و مشکلاته و آلامه؟ و ثمّ لماذا أکّدت الآیه أیضا علی صفه«الرحمانیه»للّه؟لعلّ ذلک لأنّ اللّه سبحانه و تعالی ضمن نقله هذه الصفه فی کلامهم یشعر بأنّ الجواب کامن فی کلامهم،إذ أنّ

---

۱ - ۱) -بعض المفسّرین قالوا بأنّ کلمه«إذ»هنا بدل عن«أصحاب القریه»،و ذهب آخرون بأنّها متعلّق لفعل محذوف تقدیره«اذکر».

اللّه الذى شملت رحمته العالم بأسره لا بدّ أن يبعث الأنبياء و الرسل لتربيه النفوس و الدعوه إلى الرشد و التكامل البشرى.

كـذلك يحتمـل أيضـا أن يكونوا قـد أكّـدوا على وصف الرحمـانيه للّه ليقولوا بـذلك أنّ اللّه الرحمن العطوف لا يثير المشاكل لعبـاده بإرسـال الرسـل و الأنبيـاء،بـل إنّه يتركهم و شـأنهم!و هـذا المنطق الخاوى المتهاوى يتناسب مع مستوى تفكير هـذه الفئه الضالّه.

على كـلّ حال،فإنّ هؤلاء الأنبياء لم ييأسوا جرّاء مخالفه هؤلاء القوم الضالّين و لم يضـعفوا،و فى جوابهم قٰالُوا رَبُّنٰا يَعْلَمُ إِنّٰا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ و مسئوليتنا إبلاغ الرساله الإلهيه بشكل واضح و بيّن فحسب.

وَ مٰا عَلَيْنٰا إِلاَّ الْبَلاٰغُ الْمُبِينُ

.

من المسـلّم به أنّهم لم يكتفوا بمجرّد الادّعـاء،أو القسم بـأنّهم من قبل اللّه،بل إنّ ممّا يسـتفاد من تعبير«البلاغ المبين»إجمالا أنّهم أظهروا دلائـل و معـاجز تشـير إلى صـدق ادّعـائهم،و إلاّ فلا مصـداقيه(للبلاغ المبين)،إذ أنّ البلاغ المبين يجب أن يكون بطريقه تجعل من الميسّر للجميع أن يدركوا مراده،و ذلك لا يمكن تحقّقه إلاّ من خلال بعض الدلائل و المعجزات الواضحه.

و قد ورد فى بعض الرّوايات أيضا أنّ هؤلاء الرسل كانت لهم القدره على شـفاء بعض المرضـى المستعصى علاجهم-بإذن اللّه-كما كان لعيسى عليه السّلام.

و لكن الـوثنيين لم يسـلموا أمـام ذلـك المنطـق الواضـح و تلـك المعجزات،بـل إنّهم زادوا من عنفهم فى المواجهه،و انتقلوا من مرحله التكذيب إلى مرحله التهديد و التعامل الشديد قٰالُوا إِنّٰا تَطَيَّرْنٰا بِكُمْ (١) .

و يحتمل حدوث بعض الوقائع السـلبيه لهؤلاء القوم فى نفس الفتره التى بعث فيها هؤلاء الأنبياء،و كانت إمّا نتيجه معاصـى هؤلاء القوم،أو كإنذارات إلهيه لهم،

١- ١) -تقدّم الكلام عن«التطيّر»بالتفصيل فى تفسير سوره الأعراف،الآيه ١٣١،و ذيل الآيه ۴٧ من سوره النمل.

فكما نقل بعض المفسّرين فقد توقّف نزول المطر عليهم لملمدّه (١) ،و لكنّهم لم يعتبروا من ذلك،بل إنّهم اعتبروا تلك الحوادث مرتبطه ببعثه هؤلاء الرسل.و لم يكتفوا بذلك،بل إنّهم أظهروا سوء نواياهم من خلال التهديد الصريح و العلنى،و قالوا:

لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَ لَيَمَسَّنَّكُمْ مِنّا عَذابٌ أَلِيمٌ

.

هل أنّ«العذاب الأليم»هو تأكيد على مسأله الرجم،أو زياده المجازاه أكثر من الرجم وحده؟ يوجد احتمالان،و لكن يبدو أنّ الاحتمال الثانى هو الأقرب،لأنّ الرجم من أسوأ أنواع العذاب الذى قد ينتهى أحيانا بالموت،و من الممكن أن ذكر العذاب الأليم إشاره إلى أنّنا سنرجمكم إلى حدّ الموت،أو أنّه علاوه على الرجم فإنّنا سنمارس معكم أنواعا اخرى من التعذيب التى كانت تستعمل قديما كإدخال الأسياخ المحمّاه فى العيون أو صبّ الفلز المذاب فى الفمّ و أمثالها.

بعض المفسّرين احتملوا أيضا أنّ(الرجم)هو تعذيب جسمانى أمّا«العذاب الأليم»فهو عذاب معنوى روحى (٢) .و لكن الظاهر أنّ التّفسير الأوّل هو الأقرب.

أجل،فلأنّ أتباع الباطل و حماه الظلم و الفساد لا يملكون منطقا يمكنهم من المنازله فى الحوار،فإنّهم يستندون دائما إلى التهديد و الضغط و العنف،غافلين عن أنّ سالكى طريق اللّه لن يستسلموا أمام أمثال هذه التهديدات،بل سيزيدون من استقامتهم على الطريق،فمنذ اليوم الأوّل الذى سلكت فيها أقدامهم طريق الدعوه إلى اللّه وضعوا أرواحهم على الأكف،و استعدوا لأى نوع من الفداء و التضحيه.

هنا ردّ الرسل الإلهيون بمنطقهم العالى على هذيان هؤلاء: قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَ إِنْ ذُكِّرْتُمْ .

١- ١) -تفسير القرطبى،ذيل الآيات محلّ البحث.

٢- ٢) -و ذلك فى حال كون«لنرجمنّكم»من مادّه«رجم»بمعنى السبّ و الاتّهام و القذف.

فإذا أصابكم سوء الحظّ و حوادث الشؤم،و رحلت بركات اللّه عنكم،فإنّ سبب ذلك فی أعماق أرواحكم،و فی أفكاركم المنحطّه و أعمالكم القبیحه المشؤومه، و لیس فی دعوتنا،فها أنتم ملأتم دنیاكم بعباده الأصنام و أتباع الهوى و الشهوات، و قطعتم عنكم بركات اللّه سبحانه و تعالى.

جمع من المفسّرین ذهبوا إلى أنّ جمله أَ إِنْ ذُكِّرْتُمْ جمله مستقلّه و قالوا:إنّ معناها هو«هل أنّ الأنبیاء إذا جاءوا و ذكروكم و أنذروكم یكون جزاؤهم تهدیدهم بالعذاب و العقوبه و تعتبرون وجودهم شؤما علیكم؟و ما جلبوا لكم إلاّ النور و الهدایه و الخیر و البركه.فهل جواب مثل هذه الخدمه هو التهدید و الكلام السیء؟! (۱) .

و فی الختام قال الرسل لهؤلاء بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ .

فإنّ مشكلتكم هی الإسراف و التجاوز،فإذا أنكرتم التوحید و أشركتم فسبب ذلك هو الإسراف و تجاوز الحقّ،و إذا أصاب مجتمعكم المصیر المشؤوم فبسبب ذلك الإسراف فی المعاصی و التلوّث بالشهوات،و أخیرا ففی قبال الرغبه فی العمل الصالح تهدّدون الهادفین إلى الخیر بالموت،و هذا أیضا بسبب التجاوز و الإسراف.

و سوف نعود إلى شرح قصّه أولئك القوم،و ما جرى لهؤلاء الرسل،بعد تفسیر الآیات الباقیه التی تكمل القصّه.

***

۱- ۱) -التقدیر هو«أئن ذكّرتم قابلتمونا بهذه الأمور»أو«أئن ذكّرتم علمتم صدق ما قلنا».

الآيات [سوره يس (۳۶): الآيات ۲۰ الى ۳۰]

اشاره

وَ جٰاءَ مِنْ أَقْصَا اَلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعىٰ قٰالَ يٰا قَوْمِ اِتَّبِعُوا اَلْمُرْسَلِينَ (۲۰) اِتَّبِعُوا مَنْ لاٰ يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (۲۱) وَ مٰا لِيَ لاٰ أَعْبُدُ اَلَّذِى فَطَرَنِى وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۲۲) أَ أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ اَلرَّحْمٰنُ بِضُرٍّ لاٰ تُغْنِ عَنِّى شَفٰاعَتُهُمْ شَيْئاً وَ لاٰ يُنْقِذُونِ (۲۳) إِنِّى إِذاً لَفِى ضَلاٰلٍ مُبِينٍ (۲۴) إِنِّى آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (۲۵) قِيلَ اُدْخُلِ اَلْجَنَّةَ قٰالَ يٰا لَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ (۲۶) بِمٰا غَفَرَ لِى رَبِّى وَ جَعَلَنِى مِنَ اَلْمُكْرَمِينَ (۲۷) وَ مٰا أَنْزَلْنٰا عَلىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ اَلسَّمٰاءِ وَ مٰا كُنّٰا مُنْزِلِينَ (۲۸) إِنْ كٰانَتْ إِلاّٰ صَيْحَةً وٰاحِدَةً فَإِذٰا هُمْ خٰامِدُونَ (۲۹) يٰا حَسْرَةً عَلَى اَلْعِبٰادِ مٰا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۳۰)

ص: ۱۵۴

التّفسير

اشاره

المجاهدون الذين حملوا أرواحهم على الأكف!

تشير هـذه الآيات إلى جانب آخر من جهاد الرسل الـذى وردت الإشاره إليه فى هـذه القصّه.و الإشاره تتعلّق بالـدفاع المدروس للمؤمنين القلائل و بشجاعتهم فى قبال الأكثريه الكافره المشركه..و كيف وقفوا حتّى الرمق الأخير متصدّين للدفاع عن الرسل.

تشرع هذه الآيات بالقول: وَ جٰاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعىٰ قٰالَ يٰا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ .

هذا الرجل الذى يذكر أغلب المفسّرين أنّ اسمه«حبيب النجّار»هو من الأشخاص الذين قيّض لهم الاستماع إلى هؤلاء الرسل و الإيمان و أدركوا بحقّانيه دعوتهم و دقّه تعليماتهم،و كان مؤمنا ثابت القدم فى إيمانه،و حينما بلغه بأنّ مركز المدينه مضطرب و يحتمل أن يقوم الناس بقتل هؤلاء الأنبياء،أسرع-كما يستشفّ من كلمه يسعى-و أوصل نفسه إلى مركز المدينه و دافع عن الحقّ بما استطاع.بل إنّه لم يدّخر وسعا فى ذلك.

التعبير ب«رجل»بصوره النكره يحتمل انّه إشاره إلى أنّه كان فردا عاديا،ليس له قدره أو إمكانيه متميّزه فى المجتمع،و سلك طريقه فردا وحيدا.و كيف أنّه فى نفس الوقت دخل المعركه بين الكفر و الإيمان مدافعا عن الحقّ،لكى يأخذ المؤمنين فى عصر الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم درسا بأنّهم و إن كانوا قلّه فى عصر صدر الإسلام،إلاّ أنّ المسؤوليه تبقى على عواتقهم،و أنّ السكوت غير جائز حتّى للفرد الواحد.

التعبير ب«أقصى المدينه»يدلّل على أنّ دعوه هؤلاء الأنبياء وصلت إلى النقاط البعيده من المدينه،و أثّرت على القلوب المهيّأه للإيمان،ناهيك عن أنّ أطراف المدن عاده تكون مراكز للمستضعفين المستعدين أكثر من غيرهم لقبول

الحقّ و التصديق به،على عكس ساكنى مراكز المدن الذين يعيشون حياه مرفّهه تجعل من الصعب قبولهم لدعوه الحقّ.

التعبير ب«يا قوم»يوضّح حرقه هذا الرجل و تألّمه على أهل مدينته،و دعوته إيّاهم إلى اتّباع الرسل،تلك الدعوه التى لم تكن لتحقّق له أى نفع شخصى.

و الآن لننظر إلى هذا الرجل المجاهد،بأى منطق و بأى دليل خاطب أهل مدينته؟ فقد أشار أوّلا إلى هذه القضيّه اِتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً .فتلك القضيّه بحدّ ذاتها الدليل الأوّل على صدق هؤلاء الرسل،فهم لا يكسبون من دعوتهم تلك أيّه منفعه ماديّه شخصيه،و لا يريدون منكم مالا و لا جاها و لا مقاما،و حتّى أنّهم لا يريدون منكم أن تشكروهم.و الخلاصه:لا يريدون منكم أجرا و لا أى شىء آخر.

و هذا ما أكّدت عليه الآيات القرآنيه مرارا فيما يخصّ الأنبياء العظام،كدليل على إخلاصهم و صفاء قلوبهم،و فى سوره الشعراء وحدها تكرّرت هذه الجمله خمس مرّات وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ (١) .

ثمّ يضيف:إنّ هؤلاء الرسل كما يظهر من محتوى دعوتهم و كلامهم انّهم أشخاص مهتدون: وَ هُمْ مُهْتَدُونَ إشاره إلى أنّ عدم الاستجابه لدعوه ما إنّما يكون لأحد سببين:إمّا لأنّ تلك الدعوه باطله و تؤدّى إلى الضلال و الضياع،أو لأنّها حقّ و لكن الدعاه لها يكتسبون من تلك الدعوه منافع شخصيه لهم ممّا يؤدّى إلى تشويه النظره إلى تلك الدعوه،و لكن حينما لا يكون هذا و لا ذاك فما معنى التردّد و التباطؤ عن الاستجابه.

ثمّ ينتقل إلى ذكر دليل آخر على التوحيد الذى يعتبر عماد دعوه هؤلاء الرسل، فيقول: وَ ما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي .

فإنّ من هو أهل لأن يعبد هو الخالق و المالك و الوهّاب،و ليس الأصنام التى لا

١- ١) -الآيات:١٠٩-١٢٧-١۴۵-١۶۴-١٨٠.

تضرّ و لا تنفع،الفطره السليمه تقول:يجب أن تعبدوا الخالق لا تلك المخلوقات التافهه.

و التأكيد على«فطرنى»لعلّه إشاره إلى هذا المعنى أيضا و هو:إنّنى حينما أرجع إلى الفطره الأصيله فى نفسى ألاحظ بوضوح أنّ هناك صوتا يدعونى إلى عباده خالقى،دعوه تنسجم مع العقل،فكيف أغضّ الطرف إذا عن دعوه تؤيّدها فطرتى و عقلى؟! و الملفت للنظر أنّه لا يقول:و ما لكم لا تعبدون الذى فطركم؟بل يقول: وَ مٰا لِيَ لاٰ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي لكى يكون بشروعه بالحديث عن نفسه أكثر تأثيرا فى النفوس و بعد ذلك ينبّه إلى أنّ المرجع و المآل إلى اللّه سبحانه فيقول: وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

أى:لا تتصوّروا أنّ اللّه له الأثر و الفاعليه فى حياتكم الدنيا فقط،بل إنّ مصيركم فى العالم الآخر إليه أيضا،فتوجّهوا إلى من يملك مصيركم فى الدارين.

و فى ثالث استدلال له ينتقل إلى الحديث عن الأصنام و إثبات العبوديه للّه بنفى العبوديه للأصنام،فيكمل قائلا: أَ أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمٰنُ بِضُرٍّ لاٰ تُغْنِ عَنِّي شَفٰاعَتُهُمْ شَيْئاً وَ لاٰ يُنْقِذُونِ .

هنا أيضا يتحدّث عن نفسه حتّى لا يظهر من حديثه أنّه يقصد الإمره و الاستعلاء عليهم،و فى الحقيقه هو يحدّد الذريعه الأساس لعبده الأوثان حينما يقولون:نحن نعبد الأصنام لكى تكون شفيعا لنا أمام اللّه،فكأنّه يقول:أيّه شفاعه؟ و أى معونه و نجاه تريدون منها؟فهى بذاتها محتاجه إلى مساعدتكم و حمايتكم، فما ذا يمكنها أن تفعل لكم فى الشدائد و الملمّات؟ التعبير ب«الرحمن»هنا علاوه على أنّه إشاره إلى سعه رحمه اللّه و أنّه سبب لكلّ النعم و المواهب،و ذلك بحدّ ذاته دليل على توحيد العباده،فإنّه يوضّح أنّ اللّه الرحمن لا يريدون أحدا بضرّ،إلاّ إذا أوصلت الإنسان مخالفاته إلى أن يخرج من

رحمه اللّه و يلقى بنفسه فى وادى غضبه.

ثمّ يقول ذلك المؤمن المجاهد للتأكيد و التوضيح أكثر:إنّى حين أعبد هذه الأصنام و أجعلها شريكا للّه فإنّى سأكون فى ضلال بعيد: إِنِّی إِذاً لَفِی ضَلالٍ مُبِینٍ فأى ضلال أوضح من أن يجعل الإنسان العاقل تلك الموجودات الجامده جنبا إلى جنب خالق السموات و الأرض!! و عند ما انتهى هذا المؤمن المجاهد المبارز من استعراض تلك الاستدلالات و التبليغات المؤثّره أعلن لجميع الحاضرين إِنِّی آمَنْتُ بِرَبِّکُمْ فَاسْمَعُونِ .

أمّا من هو المخاطب فى هذه الجمله فَاسْمَعُونِ و الجمله السابقه لها إِنِّی آمَنْتُ بِرَبِّکُمْ ؟ ظاهر الآيات السابقه يشير إلى أنّهم تلك المجموعه من المشركين و عبده الأوثان الذى كانوا فى تلك المدينه،و التعبير ب«ربّكم»لا ينافى هذا المعنى أيضا، إذ أنّ هذا التعبير ورد فى الكثير من آيات القرآن الكريم التى تتحدّث عن الكفّار حينما تستعرض الاستدلالات التوحيديه (۱) .

و جمله«فاسمعون»لا تنافى ما قلنا،لأنّ هذه الجمله كانت دعوه لهم لاتّباع قوله،بالضبط كما ورد فى قصّه مؤمن آل فرعون حيث قال: یا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِکُمْ سَبِیلَ الرَّشادِ غافر-۳۸.

و من هنا يتّضح أنّ ما ذهب إليه بعض المفسّرين من أنّ المخاطب فى هذه الجمله هم أولئك الرسل،و التعبير ب«ربّكم»و جمله«فاسمعون»قرينه على ذلك- لا يقوم عليه دليل سليم.

لكن لننظر ماذا كان ردّ فعل هؤلاء القوم إزاء ذلك المؤمن الطاهر؟ القرآن لا يصرّح بشىء حول ذلك،و لكن يستفاد من طريقه الآيات التاليه بأنّهم ثاروا عليه و قتلوه.

۱- ۱) -راجع الآيات ۳ و ۳۲ يونس-۳ و ۵۲ هود-۲۴ النمل ۲۹-الكهف و غيرها.

نعم فإنّ حـديثه المثير و الباعث على الحماس و الملىء بالاسـتدلالات القويّه الدامغه،و اللفتات الخاصّه و النافذه إلى القلب،ليس لم يكن لهـا الأـثر الإيجـابى فى تلـك القلوب السوداء المليئه بـالمكر و الغرور فحسب،بل إنّها على العكس أثارت فيها الحقـد و البغضـاء و سـعرت فيها نار العـداوه،بحيث أنّهم نهضوا إلى ذلك الرجل الشـجاع و قتلوه بمنتهى القسوه و الغلظه.و قيل انّهم رموه بالحجاره،و هو يقول:

اللهمّ اهد قومى،حتّى قتلوه (۱) .

و فى روايه اخرى أنّهم وطؤوه بأرجلهم حتّى مات (۲) .

و لقد أوضح القرآن الكريم هذه الحقيقه بعباره جميله مختصره هى قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّهَ و هذا التعبير ورد فى خصوص شهداء طريق الحقّ فى آيات أخرى من القرآن الكريم وَ لاٰ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللّهِ أَمْوٰاتاً بَلْ أَحْيٰاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . (۳)

و الجـدير بالـذكر و الملاحظه أنّ هذا التعبير يدلّل على أنّ دخوله الجنّه كان مقترنا باستشـهاده شـهاده هذا الرجل المؤمن،بحيث أنّ الفاصـله بين الإـثنين قليله إلى درجه أنّ القرآن المجيـد بتعـبيره اللطيف ذكر دخوله الجنّه بـدلا عن شـهادته،فمـا أقرب طريق الشهداء إلى السعاده الدائمه!! و واضح أنّ المقصود من الجنّه هنا،هى(جنّه البرزخ)لأنّه يستفاد من الآيات و من الرّوايات أنّ الجنّه الخالده فى يوم القيامه ستكون نصيب المؤمنين،كما أنّ جهنّم ستكون نصيب المجرمين.

و عليه فـإنّ هنـاك جنّه و جهنّم أخريين فى عـالم البرزخ،و همـا نموذج من جنّه و جهنّم يوم القيـامه،فقـد ورد عن أمير المؤمنين على عليه أفضل الصلاه و السلام أنّه قال:«و القبر روضه من رياض الجنّه،أو حفره من حفر النار» (۴) .

ص: ۱۵۹

۱- ۱) -تفسير القرطبى،ج ۱۵،ص ۱۸ و ۱۹.

۲- ۲) -تفسير التبيان،ج ۸،ص ۴۱۴.

۳- ۳) -آل عمران،۱۶۹.

۴- ۴) -بحار الأنوار،ج ۶،ص ۲۱۸.

و ما احتمله البعض من أنّ هذه الجمله إشاره إلى خطاب يخاطب به هذا المؤمن الشهم فی يوم القيامه،و أنّها تحوی جنبه مستقبليه،فهو خلاف لظاهر الآيه.

على كلّ حال فإنّ روح ذلك المؤمن الطاهره،عرجت إلى السماء إلى جوار رحمه اللّه و فی نعيم الجنان،و هناك لم تكن له سوى امنيه واحده قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ .

يا ليت قومی يعلمون بأی شیء بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (1) .

أی:ليست أنّ لهم عين تبصر الحقّ،لهم عين غير محجوبه بالحجب الدنيويه الكثيفه و الثقيله،فيروا ما حجب عنهم من النعمه و الإكرام و الاحترام من قبل اللّه، و يعلموا أی لطف شملنی به اللّه فی قبال عدوانهم علیّ..

لو أنّهم يبصرون و يؤمنون،و لكن يا حسره!!

فی حديث عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيما يخصّ هذا المؤمن«إنّه نصح لهم فی حياته و بعد موته» (2) .

و من الجدير بالملاحظه أنّه تحدّث أوّلا عن نعمه الغفران الإلهی،ثمّ عن الإكرام،إذ يجب أوّلا غسل الروح الإنسانيه بماء المغفره لتنقيتها من الذنوب، و حينها تأخذ محلّها على بساط القرب و الإكرام الإلهی.

و الجدير بالتأمّل أنّ الإكرام و الاحترام و التجليل،و إن كان من نصيب الكثير من العباد،و أصولا فإنّه-أی الإكرام-يتعاظم مع«التقوى»جنبا إلى جنب، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقاكُمْ (3) .و لكن(الإكرام)بشكل مطلق و بدون أدنى قيد أو شرط جاء فی القرآن الكريم خاصا لمجموعتين:

1- 1) -بخصوص موقع(ما)فی الجمله احتملت ثلاثه احتمالات:إمّا مصدريه،أو موصوله،أو استفهاميه،و لكن يبدو أنّ احتمال كونها استفهاميه بعيد،و يبقى أنّ الأقرب كونها موصوله،مع أنّ المعنى لا يختلف كثيرا حينما تكون مصدريه.

2- 2) -تفسير القرطبی،المجلّد 8-صفحه 20.

3- 3) -الحجرات،13.

الاولی:«الملائکه المقرّبون» بَلْ عِبٰادٌ مُکْرَمُونَ لاٰ یَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ یَعْمَلُونَ . (۱)

و الثانیه:الأشخاص الذین بلغوا بإیمانهم أکمل الإیمان و یسمّیهم القرآن «المخلصین»فیقول عنهم: أُولٰئِکَ فِی جَنّٰاتٍ مُکْرَمُونَ . (۲) (۳)

و علی کلّ حال،فقد کان هذا مآل ذلک الرجل المؤمن المجاهد الصادق الذی أدّی رسالته و لم یقصّر فی حمایه الرسل الإلهیین،و ارتشف فی النهایه کأس الشهاده،و قفل راجعا إلی جوار رحمه ربّه الکریم.

و لکن لننظر ما هو مصیر هؤلاء القوم الطغاه الظلمه؟.

مع أنّ القرآن الکریم لم یورد شیئا فی ما انتهی إلیه عمل هؤلاء الثلاثه من الرسل الذین بعثوا إلی هؤلاء القوم،لکن جمعا من المفسّرین ذکروا أنّ هؤلاء قتلوا الرسل أیضا إضافه إلی قتلهم ذلک الرجل المؤمن،و فی حال أنّ البعض الآخر یصرّح بأنّ هذا الرجل الصالح شاغل هؤلاء القوم بحدیثه و بشهادته لکی یتسنّی لهؤلاء الرسل التخلّص ممّا حیک ضدّهم من المؤامرات،و الانتقال إلی مکان أکثر أمنا،و لکن نزول العذاب الإلهی الألیم علی هؤلاء القوم قرینه علی ترجیح القول الأوّل،و إن کان التعبیر«من بعده»(أی بعد شهاده ذلک المؤمن)یدلّل-فی خصوص نزول العذاب الإلهی-علی أنّ القول الثانی أصحّ«تأمّل بدقّه!!».

رأینا کیف أصرّ أهالی مدینه أنطاکیه علی مخالفه الإلهیین،و الآن لننظر ما ذا کانت نتیجه عملهم؟ القرآن الکریم یقول فی هذا الخصوص: وَ مٰا أَنْزَلْنٰا عَلیٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمٰاءِ وَ مٰا کُنّٰا مُنْزِلِینَ .

۱- ۱) -الأنبیاء،۲۷.

۲- ۲) -المعارج،۳۵.

۳- ۳) -المیزان،المجلّد ۱۷،صفحه ۸۲.

بدایه الجزء الثالث و العشرون من القرآن الکریم

ص :۱۶۳

فلسنا بحاجه إلى تلك الأمور،و أساسا فانّه ليس من سنّتنا لإهلاک قوم ظالمین أن نستخدم جنود السماء،لأنّ إشاره واحده کانت کافیه للقضاء علیهم جمیعا و إرسالهم إلى دیار العدم و الفناء،إشاره واحده کانت کافیه لتبدیل عوامل حیاتهم و معیشتهم إلى عوامل موت و فناء،و فی لحظه خاطفه تقلب حیاتهم عالیها سافلها.

ثمّ یضیف تعالى إِنْ کٰانَتْ إِلاّٰ صَیْحَهً وٰاحِدَهً فَإِذٰا هُمْ خٰامِدُونَ .

هل أنّ تلک الصیحه کانت صدى صاعقه نزلت من الغیوم على الأرض و هزّت کلّ شیء،و دمّرت کلّ العمران الموجود،و جعلت القوم من شدّه الخوف و الوحشه یستسلمون للموت؟ أو أنّها کانت صیحه ناتجه عن زلزله خرجت من قلب الأرض فضجّت فی الفضاء بحیث أنّ موج انفجارها أهلک الجمیع.

أیّا کانت فإنّها لم تکن سوى صیحه لم تتجاوز اللحظه الخاطفه فی وقوعها، صیحه أسکتت جمیع الصیحات،هزّه أوقفت کلّ شیء عن التحرّک،و هکذا هی قدره اللّه سبحانه و تعالى،و هکذا هو مصیر قوم ضالّین لا نفع فیهم.

الآیه الأخیره تتعرّض إلى طریقه جمیع متمرّدی التاریخ إزاء الدعوات الإلهیه لأنبیاء اللّه بلهجه جمیله تأسر القلوب فتقول: یٰا حَسْرَهً عَلَى الْعِبٰادِ مٰا یَأْتِیهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ کٰانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ .

وا أسفاه علیهم أن أغلقوا نافذه الرحمه الإلهیه علیهم!وا أسفاه علیهم أن کسّروا مصباح هدایتهم!!،هؤلاء الضالّون المحرومون من السعاده لم یکتفوا بعدم الاستماع بآذان قلوبهم لنداء قاده البشریه العظام فقط،بل إنّهم أصرّوا على السخریه و الاستهزاء منهم ثمّ بادروا إلى قتلهم.مع أنّهم علموا المصیر المشؤوم للطغاه الکفّار من قبلهم،و سمعوا أو قرءوا على صفحات التأریخ کیف کانت خاتمتهم الألیمه،و لکنّهم لم یعتبروا بالمواعظ و سلکوا نفس المسیر،و صاروا إلى

نفس المصير.

و من الواضح أنّ هذه الجمله هی قول اللّه تعالی،لأنّ جمیع هذه الآیات توضیح منه تعالی،غیر أنّ من الطبیعی أن الحسره هنا-بمعناها المتعارف و هو الغمّ علی ما فات-لا تنطبق علی اللّه سبحانه و تعالی،کما أنّ(الغضب)و أمثاله أیضا لا یصدر بمفهومه المتعارف من اللّه سبحانه،بل المقصود أنّ حال تلک الفئه التعیسه سیء إلی حدّ أنّ کلّ إنسان یطّلع علیه یتأسّف و یتحسّر متسائلا:لماذا غرقوا فی تلک الدوامه مع توفّر کلّ وسائل النجاه؟ التعبیر ب«عباد»إشاره إلی أنّ العجب أن یکون هؤلاء العباد غارقین بنعم اللّه سبحانه و تعالی ثمّ یرتکبون مثل تلک الجنایات.

***

بحوث

اشاره

۱-قصّه رسل أنطاکیه

(أنطاکیه)واحده من أقدم مدن الشام التی بنیت-علی قول البعض-بحدود ثلاثمائه سنه قبل المیلاد.و کانت تعدّ من أکبر ثلاث مدن رومیه فی ذلک الزمان من حیث الثروه و العلم و التجاره.

تبعد(أنطاکیه)مائه کیلومتر عن مدینه حلب،و ستّین کیلومترا عن الإسکندریه.

فتحت من قبل(أبی عبیده الجراح)فی زمن الخلیفه الثانی،و قبل أهلها دفع الجزیه و البقاء علی دیانتهم.

احتلّها الفرنسیون بعد الحرب العالمیه الاولی،و حینما أراد الفرنسیون ترک الشام ألحقوها بالأراضی الترکیه خوفا علی أهالی أنطاکیه من أن یمسّهم سوء بعد خروجهم لأنّهم نصاری مثلهم.

(أنطاكيه)تعتبر بالنسبه إلى النصارى كالمدينه المنوره للمسلمين،المدينه الثانيه فى الأهميه بعد بيت المقدس،التى ابتدأ المسيح عليه السّلام منها دعوته،ثمّ هاجر بعض من آمن بالمسيح عليه السّلام- بولس و برنابا- (۱) إلى أنطاكيه و دعوا الناس هناك إلى المسيحيه،و بذا انتشرت المسيحيه هناك،و بهذا اللحاظ أشار القرآن الكريم إلى هذه المدينه لأهميّتها (۲) .

«الطبرسى»-أعلى اللّه مقامه-فى تفسير مجمع البيان يقول:قالوا بعث عيسى رسولين من الحواريين إلى مدينه أنطاكيه،فلمّا قربا من المدينه رأيا شيخا يرعى غنيمات له و هو(حبيب)صاحب(يس)فسلّما عليه.

فقال الشيخ لهما:من أنتما؟ قالا:رسولا عيسى،ندعوكم من عباده الأوثان إلى عباده الرحمن.

فقال:أ معكما آيه؟ قالا:نعم،نحن نشفى المريض و نبرئ الأكمه و الأبرص بإذن اللّه.

فقال الشيخ:إنّ لى ابنا مريضا صاحب فراش منذ سنين.

قالا:فانطلق بنا إلى منزلك نتطلّع حاله،فذهب بهما فمسحا ابنه فقام فى الوقت بإذن اللّه صحيحا،ففشا الخبر فى المدينه و شفى اللّه على أيديهما كثيرا من المرضى.

و كان لهم ملك يعبد الأصنام فانتهى الخبر إليه،فدعاهما فقال لهما:من أنتما؟ قالا:رسولا عيسى،جئنا ندعوك من عباده ما لا يسمع و لا يبصر إلى عباده من يسمع و يبصر.

فقال الملك:و لنا إله سوى آلهتنا؟

---

۱ - ۱) -«بولس»من المبلّغين المسيحيين المعروفين الذى سعى كثيرا فى نشر الديانه المسيحيه.«برنابا»-بفتح الباء-اسمه الأصلى«يوسف»كان من أصدقاء بولس و مرقس،له إنجيل معروف ذكر فيه كثيرا البشاره بظهور نبى الإسلام،و لكن المسيحيين لا يعتقدون بصحّته و يقولون انّ هذا الإنجيل قد كتبه أحد المسلمين.

۲- ۲) -تفسير«أبو الفتوح الرازى»و هامش العالم المرحوم«الشعرانى».

قالا:نعم،من أوجدك و آلهتك.

قال:قوما حتّى أنظر فى أمركما،فأخذهما الناس فى السوق و ضربوهما.

و روى أنّ عيسى عليه السّلام بعث هذين الرّسولين إلى أنطاكيه فأتياها و لم يصلا إلى ملكها،و طالت مدّه مقامهما فخرج الملك ذات يوم فكبّروا و ذكرا اللّه فغضب الملك و أمر بحبسهما،و جلد كلّ واحد منهما مائه جلده،فلمّا كذب الرسولان و ضربا، بعث عيسى(شمعون الصفا)رأس الحواريين على أثرهما لينصرهما،فدخل شمعون البلده متنكّرا فجعل يعاشر حاشيه الملك حتّى أنسوا به فرفعوا خبره إلى الملك فدعاه و رضى عشرته و أنس به و أكرمه،ثمّ قال له ذات يوم:أيّها الملك بلغنى أنّك حبست رجلين فى السجن و ضربتهما حين دعواك إلى غير دينك فهل سمعت قولهما.قال الملك حال الغضب بينى و بين ذلك.قال:فإن رأى الملك دعاهما حتّى نتطلّع ما عندهما فدعاهما الملك.

فقال لهما شمعون:من أرسلكما إلى هاهنا.

قالا:اللّه الذى خلق كلّ شىء لا شريك له.

قال:و ما آيتكما.

قالا:ما تتمنّاه.

فأمر الملك أن يأتوا بغلام مطموس العينين و موضع عينيه كالجبهه.فما زالا يدعوان حتّى انشق موضع البصر،فأخذا بندقتين من الطين فوضعاها فى حديقتيه فصارتا مقلتين يبصر بهما،فتعجب الملك.

فقال شمعون للملك:أ رأيت لو سألت إلهك حتّى يصنع صنيعا مثل هذا فيكون لك و لإلهك شرفا؟ فقال الملك:ليس لى عنك سرّ،إنّ إلهنا الذى نعبده لا يضرّ و لا ينفع.

ثمّ قال الملك للرسولين:إن قدر إلهكما على إحياء ميّت آمنّا به و بكما.

قالا:إلهنا قادر على كلّ شىء.

فقال الملك:إنّ هاهنا ميّتا مات منذ سبعه أيّام لم ندفنه حتّى يرجع أبوه-و كان غائبا-فجاءوا بالميّت و قد تغيّر و أروح،فجعلا يدعوان ربّهما علانيه،و جعل شمعون يدعو ربّه سرّا،فقام الميّت و قال لهم:إنّى قدمتّ منذ سبعه أيّام،و أدخلت فى سبعه أوديه من النار و أنا احذّركم ممّا أنتم فيه،فآمنوا باللّه فتعجّب الملك.

فلمّا علم شمعون أنّ قوله أثّر فى الملك،دعاه إلى اللّه فآمن و آمن من أهل مملكته قوم و كفر آخرون.

و نقل«العياشى»فى تفسيره مثل هذه الروايه عن الإمام الباقر و الصادق عليهما السّلام مع بعض التفاوت (1) .

و لكن بمطالعه الآيات السابقه،يبدو من المستبعد أنّ أهل تلك المدينه كانوا قد آمنوا،لأنّ القرآن الكريم يقول: إِنْ كٰانَتْ إِلاّٰ صَيْحَةً وٰاحِدَةً فَإِذٰا هُمْ خٰامِدُونَ .

و يمكن أن يكون هناك اشتباه فى الروايه من جهه الراوى.

و من الجدير بالملاحظه أيضا أنّ التعبير ب«المرسلون»فى الآيات أعلاه يدلّل على أنّهما أنبياء مرسلون من اللّه تعالى،علاوه على أنّ القرآن الكريم يقول:بأنّ أهالى تلك المدينه قٰالُوا مٰا أَنْتُمْ إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُنٰا وَ مٰا أَنْزَلَ الرَّحْمٰنُ مِنْ شَيْءٍ ،و مثل هذه التعبيرات ترد فى القرآن الكريم عاده فيما يخصّ الأنبياء،و إن كان قد قيل بأنّ رسل الأنبياء هم رسل اللّه،و لكن هذا التوجيه يبدو بعيدا.

۲-ما نتعلّمه من هذه القصّه

نتعلّم من القصّه التى عرضتها الآيات السابقه أمورا عديده منها:

الف-أنّ المؤمنين لا يستوحشون أبدا من سلوك طريق اللّه سبحانه و تعالى منفردين كما هو حال المؤمن«حبيب النجّار»الذى لم ترهبه كثره المشركين فى مدينته.

۱- ۱) -مجمع البيان،المجلّد ۴(الجزء ۸)-صفحه ۴۱۹.

يقول أمير المؤمنين على عليه أفضل الصلاه و السلام: «لا تستوحشوا من طريق الهدى لقلّه أهله» (۱) .

ب-المؤمن عاشق لهدايه الناس،و يتألّم لضلالهم،و حتّى بعد شهادته يتمنّى أن يرى الآخرون مقامه ليكون سببا فى إيمانهم! ج-محتوى دعوه الأنبياء بحدّ ذاتها دليل على هدايتهم و حقّانيتهم وَ هُمْ مُهْتَدُونَ .

د-الدعوه إلى اللّه يجب أن تكون خاليه من أى ترقّب للأجر لكى تكون مؤثّره.

ه-تاره يكون الضلال مكشوفا و واضحا،أى أنّه ضلال مبين،و عباده الأوثان تعدّ مصداقا واضحا ل«الضلال المبين».

و-أهل الحقّ يستندون إلى الواقعيات،و الضالّون يستندون إلى أوهام و ظنون.

ز-إذا كان هناك شؤم و نكبات فإنّ سببها نفس الإنسان و أعماله.

ح-الإسراف سبب لكثير من الانحرافات و النكبات.

ط-وظيفه الأنبياء و أتباعهم«البلاغ المبين»و الدعوه العلنيه،سواء استجاب الناس أو لم يستجيبوا.

ى-التجمّع و الكثره من العوامل المهمّه للنصره و العزّه و القوّه فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ .

ك-إنّ اللّه لا يحتاج لتدمير أئمّه التمرّد و العصيان إلى تجنيد طاقات الأرض و السماء،بل تكفى الإشاره.

ل-لا فاصله بين الشهاده و الجنّه،و الشهيد قبل أن يغادر الدنيا يقع فى أحضان الحصور العين (۲) .

۱- ۱) -نهج البلاغه،الخطبه ۲۰۱،صفحه ۳۱۹.

۲- ۲) -ذكرنا روايه شريفه مفصّله عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى هذا المجال عند تفسير سوره(آل عمران)ذيل الآيه ۱۶۹.

م-إنّ اللّه يطهّر الإنسان من الذنوب أوّلا ثمّ يقربه إلى جوار رحمته بِمَا غَفَرَ لِی رَبِّی وَ جَعَلَنِی مِنَ الْمُکْرَمِینَ .

ن-یجب علی مرید الحقّ أن لا یستوحش من مخالفه الأعداء،لأنّ ذلک دیدنهم علی مدی الدهور یا حَسْرَةً عَلَی الْعِبٰادِ مٰا یَأْتِیهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ کٰانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ .

و أی حسره أکبر و أشدّ من أن یغلق الإنسان-لمجرّد تعصّبه و غروره-عینیه، فلا یبصر الشمس المضیئه الساطعه.

س-کان المستضعفون یؤمنون بالأنبیاء قبل جمیع الناس وَ جٰاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِینَهِ رَجُلٌ... .

ع-و هم الذین لم یتعبوا و لم یکلّوا من طریق الحقّ،و لم یکن لسعیهم و اجتهادهم حدّ. یَسْعیٰ .

ف-یجب تعلّم طریقه التبلیغ و الدعوه إلی اللّه من الرسل الإلهیین الذین استفادوا من جمیع الأسالیب و الطرائق المؤثّره لأجل النفوذ فی قلوب الغافلین، و فی الآیه أعلاه و الروایات التی أدرجناها نموذج علی ذلک.

۳-ثواب و عقاب البرزخ

ورد فی الآیات الماضیه أنّ(المؤمن حبیب النجّار)بعد شهادته دخل الجنّه و تمنّی أن لو یعلم قومه بمصیره.و من المسلّم أنّ هذه الآیات-کما هو الحال فی الآیات الاخری التی تتحدّث عن الشهداء-لیست مربوطه بالجنّه المقصوده بعد یوم القیامه و التی تکون بعد البعث و الحساب فی المحشر.

من هنا یتّضح أنّ وراءنا جنّه و جحیما فی البرزخ أیضا،یتنعّم فیها الشهداء و یحترق فیها الطغاه من أمثال«آل فرعون» و مع الالتفات إلی هذا المعنی،تنحلّ

كثير من الإشكالات فيما يخصّ الجنّه و النار،من أمثال ما ورد فى روايات الإسراء و المعراج و أمثالها.

۴-قاده الأمم

نقل فى تفسير الثعلبى عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «سبّاق الأمم ثلاثه لم يكفروا باللّه طرفه عين:على بن أبى طالب و صاحب يس،و مؤمن آل فرعون،فهم الصدّيقون و على أفضلهم» (۱) .

كما

ورد هذا المعنى تقريبا فى روايه عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أوردها صاحب تفسير«الدرّ المنثور»عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «الصدّيقون ثلاثه:حبيب النجّار مؤمن آل ياسين الذى قال:يا قوم اتّبعوا المرسلين،و حزقيل مؤمن آل فرعون الذى قال:أ تقتلون رجلا أن يقول ربّى اللّه،و على بن أبى طالب و هو أفضلهم» (۲) .

***

۱- ۱) -مجمع البيان،ج ۴،ص ۴۲۱ القرطبى-الميزان،نور الثقلين.

۲- ۲) -تفسير الدرّ المنثور،على ما نقله الميزان،المجلّد ۱۷،صفحه ۸۶.

الآیتان [سوره یس (۳۶): الآیات ۳۱ الی ۳۲]

اشاره

أَ لَمْ یَرَوْا کَمْ أَهْلَکْنٰا قَبْلَهُمْ مِنَ اَلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَیْهِمْ لاٰ یَرْجِعُونَ (۳۱) وَ إِنْ کُلٌّ لَمّٰا جَمِیعٌ لَدَیْنٰا مُحْضَرُونَ (۳۲)

التّفسیر

اشاره

الغفله الدائمه:

تتحدّث هاتان الآیتان-استنادا إلی ما مرّ فی الآیات السابقه-عن الغفله المستمرّه لمجموعه کبیره من البشر فی هذا العالم علی مرّ العصور و القرون،فتقول الآیه: أَ لَمْ یَرَوْا کَمْ أَهْلَکْنٰا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ (۱) .

فهؤلاء الکفّار لیسوا بـدعا من الأمر،فقد کان قبلهم أقوام آخرون تمرّدوا علی الحقّ مثلهم عاشوا فی هذه الدنیا،و مصائرهم الألیمه التی ملأت صـفحات التأریـخ، و الآثار المعبّره التی بقیت فی مـدنهم المدمّره،کلّها شاخصه أمام العیان،فهل یکفی ذلک المقدار لتحقّق العبره و الإعتبار؟ و لکن علی من یعود ضمیر الجمع فی أَ لَمْ یَرَوْا ؟

ص: ۱۷۳

۱- ۱) -الاستفهام فی الآیه أعلاه استفهام تقریری و«کم»خبریه،و هی هنا بمعنی الکثره فی محلّ مفعول به للفعل (یروا)و(من القرون)توضیح لذلک.و«قرون»کما ذکرنا سابقا تأتی بمعنی العصور و هی جمع(قرن)مائه سنه أو بمعنی(الجیل)الذی یعیش فی زمان معیّن.

احتمل المفسّرون عدّه وجوه:

الأوّل:أنّه يعود على«أصحاب القريه»الذين تحدّثت الآيات السابقه حولهم.

و الثانى:أنّه يعود على«أهل مكّه»الذين نزلت هذه الآيات لتنبيههم.

و لكن يستدلّ من الآيه السابقه يٰا حَسْرَةً عَلَى الْعِبٰادِ... على أنّ المقصود هو جميع البشر،إذ أنّ كلمه«العباد»فى الآيه المذكوره تشمل جميع البشر على طول التاريخ،الذين ما إن جاءهم الأنبياء حتّى هبّوا لمخالفتهم و تكذيبهم و الاستهزاء بهم،و على كلّ حال فهى دعوه لجميع البشر بأن يتأمّلوا فى تأريخ القدماء، و يعتبروا من آثارهم التى خلّفوها،بفتح قلوبهم و بصائرهم.

فى آخر الآيه يضيف تعالى: أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاٰ يَرْجِعُونَ (۱) .

أى أنّ المصيبه الكبرى فى استحاله رجوعهم إلى هذه الدنيا لجبران ما فاتهم و تبديل ذنوبهم حسنات،لأنّهم دمّروا كلّ الجسور خلفهم،فلم يبق لهم سبيل للرجوع أبدا.

هذا التّفسير يشبه بالضبط ما

قاله أمير المؤمنين على بن أبى طالب(عليه أفضل الصلاه و السلام) حينما تحدّث فى أخذ العبره من الموتى فقال:«لا عن قبيح يستطيعون انتقالا و لا فى حسن يستطيعون ازديادا». (۲)

و تضيف الآيه التاليه وَ إِنْ كُلٌّ لَمّٰا جَمِيعٌ لَدَيْنٰا مُحْضَرُونَ (۳) .

أى أنّ المسأله لا تنتهى بهلاكهم و عدم استطاعتهم العوده إلى هذه الدنيا،كلاّ فانّ الموت فى الحقيقه بدايه الشوط و ليس نهايته،فعاجلا سيحضر الجميع فى

۱- ۱) -هذه الجمله بدل عن«كم أهلكنا»و التقدير«ألم يروا أنّهم إليهم لا يرجعون»البعض احتمل أيضا أنّ الجمله حاليه(حال الهالكين).

۲- ۲) -نهج البلاغه،خطبه ۱۸۸.

۳ - ۳) -المعروف بين المفسّرين حول تركيب هذه الآيه:«إنّ»نافيه.و البعض قال:إنّها مخفّفه لذا فإنّها لا تنصب ما بعدها،و«لمّا»بمعنى«إلاّ»،بلحاظ أنّ ذلك ورد فى كلام العرب،و(جميع)بمعنى«مجموع»خبر«كلّ»(تنوين كل)بدل عن مضاف إليه محذوف تقديره«هم»و الأصل«كلّهم»)و«محضرون»إمّا خبر بعد خبر،أو صفه ل«جميع»و على ذلك تكون الجمله فى التقدير هكذا«و ما كلّهم إلاّ مجموعون يوم القيامه محضرون لدينا».

عرصه المحشر للحساب،ثمّ العقاب الإلهی المتلاحق و المستمر فی انتظارهم.

إذا کانت الحال کذلک أ فلا ینبغی علیهم الإعتبار من مصیر هؤلاء السابقین لهم، و الاستفاده من الفرصه قبل الفوت للابتعاد عن مواجهه ذلک المصیر المشؤوم.

نعم،فلو کان الموت خاتمه لکلّ شیء،لکان ممکنا أن یقولوا بأنّه بدایه راحتهم،و لکن یا حسره!!و کما یقول الشاعر:

و لو أنّا إذا متنا ترکنا

لکان الموت راحه کلّ حیّ

و لکنّا إذا متنا بعثنا

و نسأل بعده عن کلّ شیء

***

ص:175

الآیات [سوره یس (۳۶): الآیات ۳۳ الی ۳۶]

اشاره

وَ آیَهٌ لَهُمُ اَلْأَرْضُ اَلْمَیْتَهُ أَحْیَیْنٰاهٰا وَ أَخْرَجْنٰا مِنْهٰا حَبًّا فَمِنْهُ یَأْکُلُونَ (۳۳) وَ جَعَلْنٰا فِیهٰا جَنّٰاتٍ مِنْ نَخِیلٍ وَ أَعْنٰابٍ وَ فَجَّرْنٰا فِیهٰا مِنَ اَلْعُیُونِ (۳۴) لِیَأْکُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ مٰا عَمِلَتْهُ أَیْدِیهِمْ أَ فَلاٰ یَشْکُرُونَ (۳۵) سُبْحٰانَ اَلَّذِی خَلَقَ اَلْأَزْوٰاجَ کُلَّهٰا مِمّٰا تُنْبِتُ اَلْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمّٰا لاٰ یَعْلَمُونَ (۳۶)

التّفسیر

اشاره

آیات اخری!!

ممّا مرّ بحثه فی الآیات السابقه حول جهاد الرسل ضدّ الشرک و عباده الأوثان، و کذلک التعرّض إلی مسأله المعاد فی الآیه الأخیره من المقطع السابق،توضّح الآیات-مورد البحث-مسألتی التوحید و المعاد معا لإیقاظ المنکرین لهاتین المسألتین و دفعهم إلی الإیمان.

تتعرّض الآیه الاولی إلی قضیّه إحیاء الأرض المیته و البرکات التی تعود علی الإنسان من ذلک فتقول: وَ آیَهٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَیْتَهُ أَحْیَیْنٰاهٰا وَ أَخْرَجْنٰا مِنْهٰا حَبًّا فَمِنْهُ

يَأْكُلُونَ

(۱)

.

قضيّه الحياه و البقاء من أهمّ دلائل التوحيد،و هى قضيّه فى واقعها معقّده و مليئه بالألغاز و باعثه على الدهشه،إذ أنّها حيّرت عقول العلماء جميعا،فبرغم التطور و التقدّم الحاصل فى وسائل الدراسه و فى العلوم بشكل عام،لا زال الكثير من الأسرار تنتظر الحلّ!و حتّى الآن لم يعلم تحت تأثير أى العوامل تتحوّل موجودات ميته إلى خلايا حيّه؟ حتّى الآن،لم يعرف كيف تتكوّن طبقات خلايا البذور؟و ما هى القوانين المعقّده التى تحكمها؟بحيث أنّها بمجرد توفّر الشرائط المساعده تبدأ بالتحرّك و النمو و الرشد.و تستلّ من ذرّات التراب الميته وجودها،و بهذا الطريق تتحوّل الموجودات الميته إلى أنسجه موجودات حيّه فتعكس فى كلّ يوم مظهرا مختلفا من مظاهر حياتها و نموّها.

قضيّه الحياه فى عالم النباتات و الحيوانات و إحياء الأرض الميته تعتبر من جانب دليلا على وجود معلومات و قوانين دقيقه سخّرت فى خلق ذلك العالم، و من جانب آخر تعتبر دليلا على البعث بعد الموت.

و من الواضح أنّ الضمير فى«لهم»يعود على كلمه«العباد»التى ورد ذكرها فى الآيات السابقه،و المقصود من«العباد»هنا هم جميع الذين وقعوا فى خطأ فى تقدير مسأله المبدأ و المعاد،و الذى عدّ القرآن الكريم وضعهم باعثا على الحسره و الأسف.

تنكير«آيه»،إشاره إلى عظمه و أهميّه و وضوح تلك الآيه التوحيديه.

جمله فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ إشاره من جانب إلى أنّ الإنسان يستفيد من بعض بذور النباتات للتغذيه،بينما بعضها غير قابل للأكل،و لكن له فوائد اخرى كتغذيه

---

۱ - ۱) -وردت احتمالات عديده فى إعراب الآيه،و لكن أوضحها على ما يبدو،هو كون«آيه لهم»خبر مقدّم و «الأرض الميته»مبتدأ مؤخّر،و«أحيينا»جمله استئنافيه و هى توضيح و تفسير للجمله السابقه.

الحيوانات،و صناعه الأصباغ،و الأدويه،و الأمور الاخرى التى لها أهميّه فى حياه الإنسان.

و من جانب آخر فإنّ تقديم«منه»على«يأكلون»و الذى يدلّ عاده على الحصر،هو لبيان أنّ أكثر و أفضل تغذيه للإنسان هى من المواد النباتيه إلى درجه أنّه يمكن القول أنّ جميع غذاء الإنسان يتشكّل منها.

الآيه التاليه توضيح و شرح للآيه الاولى من هذه الآيات،فهى توضّح كيفيه إحياء الأرض الميته،فتقول: وَ جَعَلْنا فِيها جَنّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ وَ فَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ .

كان الحديث فى الآيه الاولى عن الحبوب الغذائيه،بينما الحديث هنا عن الفواكه المقوّيه و المغذّيه و التى يعدّ«التمر»و«العنب»أبرز و أهمّ نماذجها حيث يعتبر كلّ منهما غذاء كاملا.

و كما أشرنا سابقا فقد دلّت دراسات العلماء و بحوثهم على أنّ هاتين الفاكهتين تحتويان على الفيتامينات و المواد الحياتيه المختلفه و اللازمه لجسم الإنسان، إضافه إلى أنّ هاتين الفاكهتين يمكن حفظهما و تناولهما طازجتين أو مجفّفتين على مدار العام.

«أعناب»جمع«عنب»و«النخيل»-كما يقول الراغب فى مفرداته-جمعه «نخل»و لكن باختلاف بين الكلمتين،(فالعنب)يطلق على الثمره نفسها،و من النادر إطلاقه على شجره العنب و لكن«النخل»اسم للشجره،و(الثمره)يقال له «الرطب»أو«التمر».

يرى البعض بأنّ هذا الاختلاف فى التعبير عن الفاكهتين بالإشاره إلى الشجره مرّه و إلى الثمره مرّه اخرى،بسبب أنّ النخله-و كما هو معروف-كلّها مفيده و قابله للاستفاده،جذعها و جريدها و سعفها و أخيرا ثمرها،فى حين أنّ شجره (الكرم)غالبا ما يستفاد من«عنبها»فقط،و أمّا ساقها و أوراقها فلا يستفاد منها إلاّ

قليلا.

و أمّا ما ورد من ذكر الاثنتين بصيغه الجمع،فيبدو أنّه إشاره إلى الأنواع المختلفه لكلّ منهما،إذ أنّ كلا منهما لها عشرات الأنواع تختلف فى أشكالها و خصائصها و مذاقها.

و الجدير بالملاحظه-أيضا-أنّ الحديث فى هذه الآيه تعرّض إلى إحياء الأرض الميته دون أن يقرن ذلك بذكر المطر الذى عاده ما يذكر فى مثل هذه المواضع،و ورد الحديث هنا عن«العيون»،و ذلك لأنّ المطر كاف لزراعه الكثير من المحاصيل و النباتات،فى حين أنّ الأشجار المثمره تحتاج إلى الماء الجارى أيضا.

«فجّرنا»من مادّه«تفجير»و هو شقّ الشىء شقّا واسعا،و من هنا استخدمت الكلمه للتعبير عن العيون،لأنّها تشقّ الأرض و تدفع ماءها إلى سطح الأرض (۱) .

الآيه التاليه تشرح و توضّح الهدف من خلق تلك الأشجار المباركه المثمره فتقول:إنّ الغرض من خلقها لكى يأكلوا من ثمارها دون حاجه إلى بذل جهد فى ذلك و دون تدخّل الإنسان فى صناعتها.. لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ مٰا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَ فَلاٰ يَشْكُرُونَ .

نعم،ثمار على شكل غذاء كامل تظهر على أغصان أشجارها،قابله للأكل بمجرّد جنيها من أغصانها،و لا تحتاج إلى طبخ أو أيّه تغييرات اخرى،ذلك إشاره إلى غايه لطف اللّه بهذا الإنسان و كرمه.

حتّى أنّ ذلك الطعام الجاهز اللذيذ،يمكن تجميعه و تعليبه لكى يحفظ لمدّه طويله بدون أن ينقص من قيمته الغذائيه شىء،على خلاف الأغذيه التى يصنعها الإنسان من المواد الطبيعيه التى أعطاها اللّه له،فهى غالبا ما تكون سريعه التلف

۱- ۱) -من الجدير بالملاحظه أنّ الصيغه الثلاثيه المجرده لها«فجر»بمعنى(الشقّ)و هنا استخدمت على وزن «تفعيل»بمعنى التكثير و التشديد.

و الفساد.

و یوجد تفسیر آخر أیضا لمعنی الآیه،و هو جدیر بالنظر، و ذلک أنّ القرآن الکریم یرید الإشاره إلی الفواکه التی یمکن الاستفاده منها دون إدخال تغییر علیها،و کذلک إلی أنواع الأغذیه المختلفه التی یمکن الحصول علیها من تلک الفواکه،بالقیام ببعض الأمور(فی التّفسیر الأوّل تکون(ما)فی الجمله نافیه،بینما فی التّفسیر الثانی تکون موصوله).

و علی کلّ حال،فالهدف هو تحریک حسّ تشخیص الحقّ،و الشکر فی الإنسان،لکی یضعوا أقدامهم علی أوّل طریق معرفه اللّه عن طریق الشکر،لأنّ شکر المنعم أوّل قدم فی طریق معرفته.

الآیه الأخیره من الآیات موضع البحث،تتحدّث عن تسبیح اللّه و تنزیهه، و تشجب شرک المشرکین الذی ذکرته الآیات السابقه،و توضّح طریق التوحید و عباده الأحد الصمد للجمیع فتقول: سُبْحانَ الَّذِی خَلَقَ الْأَزْواجَ کُلَّها مِمّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمّا لا یَعْلَمُونَ (۱) .

نعم،فاللّه الذی خلق کلّ هذه الأزواج فی هذا العالم الواسع،لا حدّ لعلمه و قدرته و منزّه عن کلّ نقص و عیب،لذا فلا شریک و لا شبیه له،و إن عدّ بعض الناس الحجر و الخشب الجامد المیّت نظائر له،فإنّ تلک النسبه الباطله لا تنقص من مقام کبریائه شیئا.

بدیهی أنّ اللّه سبحانه و تعالی لیس بحاجه إلی أن یسبّحه أحد،إنّما ذلک تعلیم للعباد و منهاج عملی من أجل طی طریق التکامل.

---

۱ – ۱) -«سبحان»علی قول جماعه من المفسّرین و علماء الأدب هی«علم»للتسبیح،لأنّ العلم(الاسم الخاصّ) یکون أحیانا للأشخاص فیسمّی«علم الشخص»،و أحیانا للجنس فیسمّی«علم الجنس»،و أحیانا للمعنی فیسمّی«علم المعنی»بناء علی هذا فمفهوم«سبحان»هو تنزیه و تقدیس اللّه من کلّ عیب و نقص،تنزیها یتناسب و عظمه الخالق،و العلم لا یضاف إلاّ فی«علم المعنی».قال البعض أیضا أنّ«سبحان»لها معنی مصدری،و مفعول مطلق لفعل مقدّر،و فی أیّه صوره فهی تبیّن التنزیه الإلهی بأوکد وجه.

أمّا ما هو المقصود من«أزواج»هنا،فللمفسّرين أقوال كثيره.

ما هو مسلّم به أنّ«أزواج»جمع«زوج»عاده،تطلق على الذكر و الأنثى من أى نوع،سواء كان ذلك فى عالم الحيوان أو فى غيره،ثمّ شمل المعنى كلّ إثنين يقترنان مع بعضهما البعض أو حتّى إذا تضادّا،حتّى الغرفتين المتشابهتين فى البيت يقال لهما زوج،و دفّتى الباب و هكذا،فالمتصوّر أنّ لكلّ مخلوق زوج.

على كلّ حال فليس من المستبعد أن يكون المعنى المقصود هنا هو المعنى الخاصّ،أى جنس المذكر و المؤنث،و القرآن الكريم يخبر من خلال هذه الآيه عن وجود ظاهره الزوجيه فى جميع عوالم النبات و الإنسان و الموجودات الاخرى التى لم يطّلع عليها البشر.

هذه الموجودات يمكن أن تكون النباتات التى لم تحدّد سعه دائره الزوجيه فيها حتّى الآن.أو إشاره إلى الحيوانات التى تعيش فى أعماق البحار،و هذه الحقيقه لم تعرف سابقا،و ما عرف منها فى العصر الحاضر إلاّ جانب يسير.

أو أنّها إشاره إلى موجودات اخرى تقطن كواكب اخرى فى هذا الكون المترامى.أو موجودات حيّه لا ترى بالعين المجرّده،و إن كان العلماء فى وقتنا الحاضر يشيرون إلى أنّ ليس فى تلك الموجودات الحيّه ذكر و أنثى،و لكن عالم هذه الموجودات الحيّه غامض و معقّد إلى درجه أنّ العلم البشرى حتّى الآن لم يلج كلّ غوامضها و مكنوناتها.

و حتّى وجود الزوجيه فى عالم النبات-كما قلنا-لم يكن معلوما منها فى عصر نزول القرآن سوى بعض الحالات المحدوده كما فى النخل و أمثاله،و قد كشف القرآن الكريم الستار عن ذلك كلّه،و قد ثبت أخيرا من البحوث العلميه أنّ الزوجيه قضيّه عامّه و شامله فى عالم النبات.

كذلك احتمل أيضا أن تكون قضيّه الزوجيه هنا إشاره إلى وجود البروتونات الموجبه و الالكترونات السالبه فى الذرّه التى تعتبر الأساس فى تشكيل كلّ

الموجودات فی عالم المادّه و لم یکن الإنسان مطّلعا علی هـذه الحقیقه و الزوجیه قبل تفجیر الـذرّه،و لکن بعـد ذلک ثبت علمیا وجود الأزواج السالبه و الموجبه فی نواه الذرّه و الالکترونات التی تدور حولها.

البعض اعتبر«الزوجیه»هنا إشاره إلی ترکیب الأشیاء من«مادّه»و«صوره» أو«جوهر»و«عرض»،و البعض الآخر قالوا:إنّها کنایه عن«الأصناف و الأنواع المختلفه»للنباتات و البشر و الحیوانات و سائر موجودات العالم.

و لکن الواضح أنّه حینما نستطیع حمل هذه الألفاظ علی المعنی الحقیقی (جنس المذکّر و المؤنّث)و لا نجد قرینه علی خلاف ذلک،فلا داعی لأن نبحث بعد ذلک عن المعانی الکنایه،و کما لا حظنا فإنّ هناک عدّه تفاسیر جمیله للزوجیه بالمعنی الحقیقی لها.

و علی کلّ حال،فإنّ هـذه الآیه واحـده من الآیات التی توضّـح محـدودیه علم الإنسان،و تدلّل علی أنّ هناک الکثیر من الحقائق الخافیه علینا و عن معلوماتنا حتّی الآن.

***

الآیات [سوره یس (۳۶): الآیات ۳۷ الی ۴۰]

اشاره

وَ آیَهٌ لَهُمُ اَللَّیْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ اَلنَّهٰارَ فَإِذٰا هُمْ مُظْلِمُونَ (۳۷) وَ اَلشَّمْسُ تَجْرِی لِمُسْتَقَرٍّ لَهٰا ذٰلِکَ تَقْدِیرُ اَلْعَزِیزِ اَلْعَلِیمِ (۳۸) وَ اَلْقَمَرَ قَدَّرْنٰاهُ مَنٰازِلَ حَتّٰی عٰادَ کَالْعُرْجُونِ اَلْقَدِیمِ (۳۹) لاَ اَلشَّمْسُ یَنْبَغِی لَهٰا أَنْ تُدْرِکَ اَلْقَمَرَ وَ لاَ اَللَّیْلُ سٰابِقُ اَلنَّهٰارِ وَ کُلٌّ فِی فَلَکٍ یَسْبَحُونَ (۴۰)

التّفسیر

هذه الآیات تتحدّث فی قسم آخر من آثار عظمه اللّه فی عالم الوجود،و حلقه اخری من حلقات التوحید التی مرّ منها فی الآیات السابقه ما یتعلّق بالمعاد و إحیاء الأرض المیته،و نمو النباتات و الأشجار.

تقول الآیه الکریمه الاولی وَ آیَهٌ لَهُمُ اللَّیْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهٰارَ فَإِذٰا هُمْ مُظْلِمُونَ .

«نسلخ»من مادّه(سلخ)و تعنی فی الأصل نزع جلد الحیوان،و التعبیر فی الآیه تعبیر لطیف،فکأنّ نور النهار لباس أبیض ألبسه جسد اللیل،ینزع عنه إذا حلّ الغروب لیبدو لونه الذاتی،و التأمّل فی هذا التعبیر یوضّح هذه الحقیقه،و هی أنّ الظلام هو الطبیعه الأصل للکره الأرضیه،و أنّ النور و الإضاءه صفه عارضه علیها

تأتيها من مصدر آخر،فهو كاللباس الذى يرتدى،و حينما يخلع ذلك الثوب،يظهر اللون الطبيعى للبدن (۱) .

هنا يشير القرآن الكريم إلى ظلمه الليل،و كأنّه يريد-بعد أن تعرّض إلى كيفيه إحياء الأرض الميته كآيه من آيات اللّه فى الآيات السابقه-أن يعرض نموذجا عن الموت بعد الحياه من خلال مسأله تبديل النور بظلمه الليل.

على كلّ حال،فعند ما يستغرق الإنسان فى ظلمه الليل،و يتذكّر النور و بركاته و نشاطه و منبعه يتعرّف-بتأمّل يسير-على خالق النور و الظلام.

الآيه التى بعدها تتعرّض إلى النور و الإضاءه و تذكر الشمس فتقول:

وَ الشَّمْسُ تَجْرِی لِمُسْتَقَرٍّ لَها

(۲)

.

هذه الآيه تبيّن بوضوح حركه الشمس بشكل مستمر،أمّا ما هو المقصود من تلك الحركه؟فللمفسّرين أقوال متعدّده:

قال بعضهم:إنّ ذلك إشاره إلى حركه الشمس الظاهريه حول الأرض،تلك الحركه التى ستستمر إلى آخر عمر العالم الذى هو نهايه عمر الشمس ذاتها.

و قال آخرون:إنّه إشاره إلى ميل الشمس فى الصيف و الشتاء نحو الشمال و الجنوب على التوالى،لأنّنا نعلم بأنّ الشمس تميل عن خطّ اعتدالها فى بدء الربيع بطرف الشمال،لتدخل فى مدار(۲۳)درجه شمالا،و تعود مع بدء الصيف قليلا قليلا حتّى تنتهى إلى خطّ اعتدالها عند بدايه الخريف و تستمر على خطّ سيرها ذلك باتّجاه الجنوب حتّى بدء الشتاء،و من بدء الشتاء تتحرّك باتّجاه خطّ

۱- ۱) -الراغب فى«المفردات»يقول:السلخ نزع جلد الحيوان،يقال سلخته فانسلخ،و عنه استعير سلخت درعه نزعتها،و سلخ الشهر و انسلخ،و لكن بعض المفسّرين يقولون:إنّ ذلك فى حاله تعدّى«سلخ»بحرف الجرّ «عن»و إذا تعدّى بالحرف«من»يكون بمعنى الإخراج،و لكن ليس من دليل واضح فى كتب اللغه على هذا التفاوت-على ما نعلم-و إن كان«لسان العرب»يقول:«انسلخ النهار من الليل خرج منه خروجا»و الظاهر أنّ هذا مأخوذ من المعنى الأوّل.

۲- ۲) -هذه الجمله لها إعرابان،فإمّا أن تكون معطوفه على«الليل»و التقدير«و آيه لهم الشمس»،و إمّا أن تكون مبتدأ و خبر،فالشمس مبتدأ و(تجرى)خبر،و قد اخترنا الإعراب الأوّل.

اعتـدالها حتّى تبلغ ذلک عنـد بـدء الربیع.و بدیهی أنّ جمیع تلک الحرکات فی الواقع ناجمه عن حرکه الأرض حول الشـمس و انحرافها عن خطّ مدارها،و ان کانت ظاهرا تبدو و کأنّها حرکه الشمس.

و آخرون اعتبروا الآیه إشاره إلی حرکه الشـمس الموضـعیه بالدوران حول نفسـها،حیث أثبتت دراسات العلماء بشـکل قطعی أنّ الشمس تدور حول نفسها (۱) .

و آخر و أحدث التفاسیر التی ظهرت بخصوص هذه الآیه،هو ما کشفه العلماء أخیرا من حرکه الشمس مع منظومتها باتّجاه معیّن ضمن المجره التی تکون المجموعه الشمسیه جزءا منها،و قیل أنّ حرکتها باتّجاه نجم بعید جدّا أطلقوا علیه اسم«وجا».

کـلّ هـذه المعـانی المشـار إلیهـا لاـ تتضـارب فیما بینها،و یمکن أن تکون جمله «تجری»إشاره إلی جمیع تلک المعانی و معانی اخری لم یصل العلم إلی کشفها، و سوف یتمّ کشفها فی المستقبل.

و علی کـلّ حـال،فإنّ حرکه کوکب الشـمس الـذی یعادل ملیون و مائتی الف مرّه حجم الأرض،بحرکه دقیقه و منظمه فی هـذا الفضاء اللامتناهی،لیس مقدورا لغیر اللّه سـبحانه الذی تفوق قدرته کلّ قدره و بعلمه اللامتناهی،لذا فإنّ الآیه تضـیف فی آخرها ذٰلِکَ تَقْدِیرُ الْعَزِیزِ الْعَلِیمِ .

أمّـا آخر مـا قیـل فی تفسیر هـذه الآـیه فهو أنّ تعبیر الآیه یشـیر إلی نظام السـنّه الشمسـیه الناشـئ عن حرکه الشـمس عبر الأبراج المختلفه،ذلک النظام الذی یعطی لحیاه الإنسان نظاما و برنامجا معیّنا یؤدّی إلی تنظیم حیاته من مختلف النواحی.

لذا فإنّ الآیه التالیه تتحدّث عن حرکه القمر و منازله التی تؤدّی إلی تنظیم أیّام

ص :۱۸۵

۱- ۱) -طبق هذا التّفسیر فإنّ(اللام)فی«لمستقر لها»بمعنی«فی»و یکون التقدیر«فی مستقر لها».

الشهر،و ذلک لأجل تکمیل البحث السابق،فتقول الآیه: وَ الْقَمَرَ قَدَّرْنٰاهُ مَنٰازِلَ حَتّٰی عٰادَ کَالْعُرْجُونِ الْقَدِیمِ .

المقصود ب(المنازل)تلک المستویات الثمانیه و العشرون التی یطویها القمر قبل الدخول فی«المحاق»و الظلام المطلق.لأنّ القمر یمکن رؤیته فی السماء إلی الیوم الثامن و العشرین،و لکنّه یکون فی ذلک الیوم هلالا ضعیفا مائلا لونه إلی الاصفرار،و یکون نوره قلیلا و شعاعه ضعیفا جدّا،و فی اللیلتین الباقیتین من الثلاثین یوما تنعدم رؤیته تماما و یقال:إنّه فی دور(المحاق)،ذلک إذا کان الشهر ثلاثین یوما،أمّا إذا کان تسعه و عشرین یوما،فإنّ نفس هذا الترتیب سیبدأ من اللیله السابعه و العشرین لیدخل بعدها القمر فی(المحاق).

تلک المنازل محسوبه بدقّه کامله،بحیث أنّ المنجّمین منذ مئات السنین یستطیعون أن یتوقّعوا تلک المنازل ضمن حساباتهم الدقیقه.

هذا النظام العجیب ینظّم حیاه الإنسان من جهه،و من جهه اخری فهو تقویم سماوی طبیعی لا یحتاج إلی تعلّم القراءه و الکتابه لمتابعته.بحیث أنّ أیّ إنسان یستطیع بقلیل من الدقّه و الدرایه فی أوضاع القمر خلال اللیالی المختلفه..

یستطیع بنظره واحده أن یحدّد بدقّه أو بشکل تقریبی أیّه لیله هو فیها.

ففی اللیله الاولی یظهر الهلال الضعیف و طرفاه إلی الأعلی،و یزداد حجمه لیله بعد لیله حتّی اللیله السابعه حیث تکتمل نصف دائره القمر،ثمّ تستمر الزیاده حتّی تکتمل الدائره الکامله للقمر فی اللیله الرابعه عشره و یسمّی حینئذ«بدرا».ثمّ یبدأ بالتناقص تدریجیا حتّی اللیله الثامنه و العشرین حیث یصبح هلالا باهتا یشیر طرفاه إلی الأسفل.

نعم،فإنّ النظم یشکّل أساس حیاه الإنسان،و النظم بدون التعیین الدقیق للزمن لیس ممکنا،لذا فإنّ اللّه سبحانه و تعالی قد وضع لنا هذا التقویم الدقیق للشهور و السنین فی کبد السماء.

بعد استعراضنا لأشكال القمر و منازله يتّضح تماما معنى الجمله التاليه حَتّٰى عٰادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (۱) .

و فی الحقیقه فإنّ الشبه بین العرجون و الهلال من جوانب عدیده:من ناحیه الشکل الهلالی،و من ناحیه اللون الأصفر،و الذبول،و إشاره الأطراف إلی الأسفل، و کونه فی وسط دائره مظلمه تکون فی حاله العرجون منسوبه إلی سعف النخل الأخضر،و بالنسبه للهلال منسوبه إلی السماء المظلمه.

و الوصف ب(القدیم)إشاره إلی کون العرجون عتیقا،فکلّما مرّ علیه زمن و تقادم أکثر أصبح ضعیفا و ذابلا و اصفّر لونه و أصبح یشبه الهلال کثیرا قبل دخوله المحاق.

و سبحان اللّه فقد تضمّن تعبیر واحد قصیر کلّ تلک الظرافه و الجمال؟ الآیه الأخیره من هذه الآیات،تتحدّث عن ثبات و دوام ذلک النظم فی السنین و الشهور،و النهار و اللیل،فقد وضع اللّه سبحانه و تعالی لها نظاما و برنامجا لا یقع بسببه أدنی اضطراب أو اختلال فی وضعها و حرکتها،و بذا ثبت تاریخ البشر و انتظم بشکل کامل،تقول الآیه: لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهٰا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لاَ اللَّيْلُ سٰابِقُ النَّهٰارِ وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ .

من المعلوم أنّ الشمس تطوی فی دورانها خلال العام الأبراج الإثنی عشر،فی حین أنّ القمر یطوی منازله خلال شهر واحد،و علیه فحرکه القمر أسرع من حرکه الشمس فی مدارها اثنتی عشره مرّه،لذا فإنّ الآیه تقول بأنّ الشمس بحرکتها لا یمکنها أن تدرک القمر فی حرکته فتقطع فی شهر واحد ما تقطعه فی سنه واحده.

و بذا یختلّ النظام السنوی لها.

ص:۱۸۷

۱- ۱) -«عرجون»کما قال أغلب المفسّرین و أهل اللغه:من الانعراج و هو الاعوجاج و الانعطاف،و علیه فالنون زائده و هو علی وزن فعلون،و یعتقد آخرون أنّه مأخوذ من«عرجن»فالنون لیست زائده،و بمعنی:أصل عنقود الرطب المتّصل بالنخله،و توضیح ذلک أنّ الرطب یظهر علی شکل عنقود من النخله،و أصل ذلک العنقود یکون علی شکل مقوّس أصفر اللون یبقی معلّقا فی النخله،و«قدیم»:بمعنی العتیق الذی مضی زمنه.

كما أنّ الليل لا يتقدّم على النهار،بحيث يدخل جزء منه فی النهار،فيختلّ النظام الموجود،بل إنّهما-على مدى ملايين السنين- ثابتان على مسيرهما دون أدنى تغيير.

يتّضح ممّا قلنا أنّ المقصود من حركه الشمس فی هذا البحث،هی الحركه بحسب حسّنا بها،و الملفت للنظر هنا،هو أنّ هذا التعبير عن حركه الشمس ظلّ يستعمل حتّى بعد أن ثبت للجميع بأنّ الشمس هی المركز الثابت لحركه الأرض حولها،فمثلا يقال:إنّ الشمس قد تحوّلت إلى برج الحمل،أو يقال:وصلت الشمس إلى دائره نصف النهار،أو أنّ الشمس بلغت الميل الكامل(الميل الكامل هو بلوغ الشمس إلى أقصى نقطه ارتفاع لها فی نصف الكره الأرضيه الشمالی فی بدايه الصيف أو بالعكس أدنى نقطه انخفاض فی بدايه الشتاء).

هذه التعبيرات تدلّل دوما على أنّه حتّى بعد أن تمّ الكشف عن دوران الأرض حول الشمس و ثبات الأخيره ظلّت تستخدم،لأنّ النظر الحسّی يستشعر حركه الشمس و ثبات الأرض،و من هنا تستعمل هذه التعبيرات،و على هذا أيضا يكون قوله تعالى: وَ كُلٌّ فِی فَلَكٍ يَسْبَحُونَ .

كذلك يحتمل أن يكون المقصود من(السباحه)هنا حركه الشمس فی فلكها مع المنظومه الشمسيه و المجرّه التی نحن فيها،حيث أنّ الثابت علميا حاليا أنّ المنظومه الشمسيه التی نعيش فيها جزء من مجرّه عظيمه هی بدورها فی حاله دوران. إذ أنّ«فلك»كما يقول أرباب اللغه بمعنى:بروز و استداره ثدی البنت،ثمّ أطلقت على القطعه المدوّره من الأرض أو الأشياء المدوّره الاخرى أيضا،و منه اطلق على مسير الكواكب الدورانی.

جمله كُلٌّ فِی فَلَكٍ يَسْبَحُونَ فی إعتقاد الكثير من المفسّرين،إشاره إلى كلّ من الشمس و القمر و النجوم الاخرى التی تتّخذ لنفسها مسارات و مدارات،و إن لم يرد ذكر النجوم فی الآيه،و لكن بملاحظه ذكر«الليل»و اقتران ذكر النجوم مع

القمر و الشمس،لا يستبعد المعنى المذكور،خاصّه و أنّ«يسبّحون»ورد بصيغه الجمع.

و كذلك يحتمل أن تكون الجمله إشاره إلى كلّ من الشمس و القمر و الليل و النهار،لأنّ كلا من الليل و النهار له مدار خاص،و يدور حول الأرض بدقّه، فالظلام يغطّى نصف الكره الأرضيه دوما،و النور يغطّى النصف الآخر منها،و هما يتبادلان المواضع خلال أربع و عشرين ساعه و يتمّان دوره كامله حول الأرض.

«يسبّحون»من ماده«سباحه»و هى كما يقول«الراغب»فى المفردات:المرّ السريع فى الماء و الهواء.و استعير لحركه النجوم فى الفلك و التسبيح تنزيه اللّه تعالى،و أصله المرّ السريع فى عباده اللّه!»و لذا فإنّها فى الآيه إشاره إلى الحركه السريعه للأجرام السماويه،و الآيه تشبهها بالموجودات العاقله المستمره فى دورانها،و قد ثبت حاليا أنّ الأجرام السماويه تنطلق بسرعه هائله فى الفضاء.

***

بحوث

اشاره

۱-حركه الشمس(الدورانيه)و(الجريانيه)

«الدوران»لغه يطلق على الحركه المغزليه،فى حال أنّ«الجريان»يطلق على الحركه الطوليه،و الملفت للنظر أنّ الآيات أعلاه،نسبت الحركتين إلى الشمس، فقالت: وَ الشَّمْسُ تَجْرِى ...و كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ .

كانت المحافل العلميه أيّام نزول الآيه متمسّكه بنظريه«بطليموس»التى كانت تقول بأنّ الأجرام السماويه ليس فيها حركه دورانيه،بل إنّ باطن الأفلاك التى تتكوّن من أجسام بلّوريه متراكمه على بعضها البعض كتراكم طبقات البصله و ثابته،و حركتها تتبع حركه أفلاكها،و عليه فلم يكن فى تلك الأيّام معنى لا لجريان الشمس و لا غيره.

أمّا بعد أن تداعت الاسس التی تقوم علیها فرضیه بطلیموس فی ضوء الاکتشافات الجدیده فی القرون الأخیره،و تحرّرت الأجرام السماویه من قید الأفلاک البلوریه،فقد قویت نظریه کون الشمس هی مرکز المنظومه الشمسیه، و هی ثابته و جمیع المنظومه الشمسیه تدور حولها.

هنا أیضا لم تکن تعبیرات الآیات أعلاه مفهومه فیما یتعلّق بحرکه الشمس الطولیه و الدورانیه حتّی أثبت العلم بتطوّره عدّه حرکات للشمس فی العقود الأخیره.و هی:

حرکه الشمس الموضعیه حول نفسها.

حرکه الشمس الطولیه مع المنظومه الشمسیه باتّجاه نقطه محدّده فی السماء.

و حرکتها الدورانیه مع المجرّه التی تتبعها و بذا ثبتت معجزه علمیه اخری للقرآن.

و لتوضیح هذه المسأله نورد ما ورد فی إحدی دوائر المعارف حول حرکه الشمس:

للشمس حرکه ظاهریه و اخری واقعیه،و تشترک الشمس فی الحرکه الظاهریه -الیومیه-فهی تشرق من مشرق نصف الکره الأرضی الذی نعیش فیه،و تمرّ فی طرف الجنوب من نصف النهار ثمّ تغرب من المغرب،و عبورها من نصف النهار یشخّص الظهر الحقیقی-الزوال-.

و للشمس أیضا حرکه ظاهریه اخری-سنویه-حول الأرض بحیث أنّها تقترب من المشرق درجه واحده کلّ یوم،و فی هذه الحرکه تمرّ الشمس مقابل الأبراج مرّه واحده کلّ عام،و مدار هذه الحرکه یقع علی صفحه«دائره البروج» و لهذه الحرکه أهمیّه عظمی فی علم الفلک،فظاهره«الاعتدالین»و«الانقلاب» و«المیل الکلّی»کلّها مرتبطه بهذا العلم،و علی أساس ذلک یحسب العام الشمسی.

علاوه علی هذه الحرکات الظاهریه فإنّ للشمس حرکه دورانیه فی المجرّه،

فالشمس تنطلق بسرعه دورانيه فى الفضاء تعادل مليون و مائه و ثلاثين ألف كيلومتر فى الساعه!!و فى داخل المجرّه فهى ليست ثابته أيضا،بل إنّها أيضا تدور بسرعه تقارب إثنين و سبعين الف كيلومتر فى الساعه ضمن المجموعه النجميه المسمّاه«الجاثى على ركبتيه» (۱) .

و عدم علمنا بتلك الحركه السريعه للشمس هو بعد الأجرام السماويه،و الذى هو المانع من تشخيص تلك الحركه الموضعيه أيضا.

دوره الحركه الوضعيه للشمس على محورها تستغرق حدود الخمسه و عشرين يوما بلياليها (۲) .

۲-تعبير«تدرک»و«سابق»

إنّ التعبيرات القرآنيه استعملت بدقّه متناهيه لا يمكن الإحاطه بجميع أبعادها.

ففى الآيات أعلاه حينما تتحدّث عن الحركه الظاهريه للقمر و الشمس خلال المسيره الشهريه و السنويه تقول: لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهٰا أَنْ تُدْرِکَ الْقَمَرَ .إذ أنّ القمر ينهى مسيرته فى شهر واحد بينما الشمس فى عام كامل.

أمّا حينما تحدّثت عن الليل و النهار قالت: وَ لاَ اللَّيْلُ سٰابِقُ النَّهٰارِ لعدم وجود فاصله بينهما و لتعاقبهما.فالتعابير غايه فى الدقّه.

۳-نظام النور و الظلام فى حياه البشر:

تعرّضت الآيات أعلاه إلى موضوعين من أهمّ المواضيع المتعلّقه بحياه البشر.

---

۱ - ۱) -«الجاثى على ركبتيه»:مجموعه من النجوم التى تتشاكل فيما بينها لترسم صوره شخص جاث على ركبتيه،و منه أخذت التسميه.

۲ - ۲) -أى أنّ الشمس فى كلّ خمس و عشرين يوما من أيّامنا تدور دوره واحده حول نفسها،و قد شخصت هذه المسأله من مراقبه العلماء للبقع الموجوده على سطح الشمس،فقد لوحظ أنّها تتبادل مواقعها ثمّ تعود كما كانت خلال هذه المدّه.

على أنّهما آيتان من آيات اللّه و هما مسأله ظلمه الليل و مسأله الشمس و نورها.

قلنا سابقا أنّ النور من ألطف و أكثر موجودات العالم المادّى بركه.و ليس لإضاءتنا و معيشتنا فقط فكلّ حركه و نشاط مرتبط بنور الشمس،نزول قطرات المطر،نمو النباتات،تفتّح البراعم،نضوج الثمار و الفواكه،خرير الجداول،تلوين مائده الطعام بأنواع المواد الغذائيه،و حتّى حركه عجله المصانع العظيمه،و توليد الطاقه الكهربائيه،و أنواع المنتجات الصناعيه،كلّها تعود فى أصلها إلى هذا المنبع العظيم للطاقه،أى نور الشمس.

و خلاصه القول فإنّ جميع الطاقات على سطح الكره الأرضيه-عدا الطاقه الناجمه عن تفجير الذرّه-جميعها تستمدّ وجودها من نور الشمس،و لو لا الأخير لخيّم الصمت و الموت على كلّ مكان.

ظلمه الليل مع أنّها تذكر بالموت و الفناء،فإنّها تعدّ من الأمور الحياتيه الهامّه فى حياه البشر،لأنّها تعدل نور الشمس و تؤثّر عميقا فى راحه جسم و روح الإنسان،و المنع من المخاطر الناجمه عن تسلّط أشعّه الشمس بشكل متواصل و مستمر،بحيث لو لم يكن الليل عقيب النهار لارتفعت درجه الحراره على سطح الأرض إلى درجه أنّ الأشياء جميعا تأخذ بالاشتعال و الاحتراق،كذلك فى القمر حيث الليالى و الأيّام طويله(كلّ ليله هناك تعادل حوالى خمسه عشر يوما بلياليها على الأرض،كذلك الحال بالنسبه للنهار)فحراره النهار قاتله،و بروده مجمّده.

و عليه فإنّ كلا من«النور و الظلام»آيه إلهيه عظيمه.

ناهيك عن أنّ النظام المتناهى الدقّه الذى يحكمهما،أدّى إلى تنظيم تأريخ حياه البشر،ذلك التأريخ الذى لو لا وجوده لتفتتت الروابط الاجتماعيه، و أصبحت الحياه بالنسبه إلى البشر أشبه بالمستحيل،و بذا فإنّ كلا من«النور و الظلام»آيتان إلهيتان من هذه الناحيه أيضا.

و الملفت للنظر هنا هو قول القرآن الكريم: وَ لاَ اللَّيْلُ سٰابِقُ النَّهٰارِ .و هذا

التعبير يدلّل على أنّ النهار خلق قبل الليل،و الليل بعده تماما، فلو أنّ أحدا نظر من خارج الكره الأرضيه فسيرى موجودين أسود و أبيض يدوران بشكل مرتّب حول الأرض،و فى مثل هذه الحركه الدائريه لا يمكن تصوّر القبل و البعد فيها.

و لكن إذا أخذنا بنظر الإعتبار أنّ الأرض التى نعيش عليها كانت يوما ما جزءا من الشمس،و فى ذلك الوقت لم يكن سوى النهار،و لا وجود لليل،ثمّ بعد أن انفصلت الكره الأرضيه عن الشمس و ابتعدت تكون لها ظلّ مخروطى الشكل من الجهه المخالفه للشمس فكأنّ الليل،الليل الذى أصبحت حركته بعد النهار،نعم،لو توجّهنا لكلّ ذلك لاتّضحت دقّه و لطافه هذا التعبير.

و كما قلنا سابقا فليس الشمس و القمر وحدهما يسبحان فى هذا الفضاء المترامى،بل إنّ الليل و النهار أيضا يسبحان حول الكره الأرضيه،و كلّ منهما له مدار و مسير دائرى.

و قد ورد فى روايات متعدّده عن أهل البيت عليهم السّلام التصريح بأنّ اللّه سبحانه و تعالى خلق النهار قبل الليل.

فعن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال جوابا على سؤال فى حديث طويل: «نعم خلق النهار قبل الليل،و الشمس و القمر و الأرض قبل السماء» (۱) .

و

عن الإمام الرضا عليه السّلام أنّه قال: «فالنهار خلق قبل الليل و فى قوله تعالى: لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهٰا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لاَ اللَّيْلُ سٰابِقُ النَّهٰارِ أى قد سبقه النهار» (۲) .

و ورد نفس المعنى

عن الإمام الباقر عليه السّلام حين قال: «إنّ اللّه عزّ و جلّ خلق الشمس قبل القمر،و خلق النور قبل الظلمه» (۳) .

***

۱- ۱) -نور الثقلين،ج ۴،ص ۳۸۷،ح ۵۵.
۲- ۲) -نور الثقلين،ج ۴،ص ۳۸۷،ح ۵۳.
۳- ۳) -نور الثقلين،ج ۴،ص ۳۸۷،ح ۵۴.

الآيات [سوره يس (٣۶): الآيات ۴١ الى ۴۴]

اشاره

وَ آيَهٌ لَهُمْ أَنّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي اَلْفُلْكِ اَلْمَشْحُونِ (۴١) وَ خَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ (۴٢) وَ إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَ لا هُمْ يُنْقَذُونَ (۴٣) إِلاّ رَحْمَهً مِنّا وَ مَتاعاً إِلى حِينٍ (۴۴)

التّفسير

اشاره

حركه السفن فى البحار آيه إلهيّه:

رغم أنّ بعض المفسّرين أمثال القرطبى اعتبر الآيه الاولى من هذه الآيات من أعقد و أصعب آيات هذه السوره،إلاّ أنّه و بتدقيق النظر فى هذه الآيات و ربطها بالآيات السابقه،يتّضح أن ليس هناك تعقيد فى هذه الآيات،لأنّ الآيات السابقه تحدّثت عن دلاله قدره البارى عزّ و جلّ فى خلق الشمس و القمر و الليل و النهار و كذلك الأرض و بركاتها،و فى هذه الآيات التى أمامنا يتحدّث البارى عزّ و جلّ عن البحار و قسم من بركات و نعم و مواهب البحار،يعنى حركه السفن التجاريه و السياحيه على سطحها.

علاوه على أنّ حركه السفن فى خضمّ المحيطات ليست بعيده فى الشبه عن حركه الكواكب السماويه فى خضمّ المحيط الفضائى.

ص:١٩۴

لذا فإنّ الآيات الكريمه تقول أوّلا: وَ آيَهٌ لَهُمْ أَنّٰا حَمَلْنٰا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ .

الضمير«لهم»لا يعود فقط على مشركى مكّه،بل على جميع العباد الذين أشارت لهم الآيات السابقه.

«ذرّيه»:كما يقول الراغب فى مفرداته،أصلها الصغار من الأولاد،و إن كان يقع على الصغار و الكبار معا عرفا،و يستعمل للواحد و الجمع.

و ما تذكره الآيه من حمل ذريّاتهم و ليس هم ربّما لأنّ الأولاد هم أكثر حاجه لركوب مثل ذلك المركب السريع،بلحاظ أنّ الكبار أكثر استعدادا للسير على سواحل البحار و طى الطريق من هناك!! فضلا عن أنّ هذا التعبير أنسب لتحريك عواطفهم.

«مشحون»أى مملوء،إشاره إلى أنّ السفن لا تحملهم هم فقط،بل أموالهم و تجارتهم و أمتعتهم و ما أهمّهم أيضا.

و ما قاله البعض من أن«الفلك»إشاره إلى سفينه نوح،و«ذريّه»بمعنى الآباء من مادّه«ذرأ»بمعنى خلق،فيبدو بعيدا،إلاّ إذا كان من قبيل ذكر المصداق البارز.

على كلّ حال فإنّ حركه السفن و البواخر التى هى من أهمّ و أضخم وسائل الحمل و النقل البشرى،و ما يمكنها إنجازه يعادل آلاف الأضعاف لما تستطيعه المركّبات الاخرى، كلّ ذلك ناجم عن خصائص الماء و وزن الأجسام التى تصنع منها السفن،و الطاقه التى تحرّكها،سواء كانت الريح أو البخار أو الطاقه النوويه.

و كلّ هذه القوى و الطاقات التى سخّرها اللّه للإنسان،كلّ واحده منها و كلّها معا آيه من آيات اللّه سبحانه و تعالى.

و لكى لا يتوهّم أنّ المركّب الذى أعطاه اللّه للإنسان هو السفينه فقط،تضيف الآيه التاليه قائله: وَ خَلَقْنٰا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مٰا يَرْكَبُونَ .

المراكب التى تسير على الأرض،أو فى الهواء و تحمّل البشر و أثقالهم.

و مع أنّ البعض فسّر هذه الآيه بخصوص«الجمل»الذى لقّب ب«سفينه الصحراء»،و البعض الآخر ذهب إلى شموليه الآيه لجميع الحيوانات،و البعض فسّرها بالطائرات و السفن الفضائيه التى اخترعت فى عصرنا الحالى تعبير«خلقنا» يشملها بلحاظ أنّ موادّها و وسائل صنعها خلقت مسبقا)و لكن إطلاق تعبير الآيه يعطى مفهوما واسعا يشمل جميع ما ذكر و كثيرا غيره.

فى بعض آيات القرآن الكريم ورد مرارا الاقتران بين«الأنعام»و«الفلک» مثل قوله تعالى: وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعٰامِ مٰا تَرْكَبُونَ زخرف-١٢،و كذلك قوله تعالى: وَ عَلَيْهٰا وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ المؤمن-٨٠.

و لكن هذه الآيات أيضا لا تنافى عموميه مفهوم الآيه مورد البحث.

الآيه التاليه-لأجل توضيح هذه النعمه العظيمه-تتعرّض لذكر الحاله الناشئه من تغيير هذه النعمه فتقول: وَ إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاٰ صَرِيخَ لَهُمْ وَ لاٰ هُمْ يُنْقَذُونَ .

فنصدّر أمرنا لموجه عظيمه فتقلب سفنهم،أو نأمر دوّامه بحريه واحده ببلعهم، أو يتقاذفهم الطوفان بموجه فى كلّ اتّجاه بأمرنا،و إذا أردنا فنستطيع بسلبنا خاصّيه الماء و نظام هبوب الريح و هدوء البحر و غير ذلک أن نجعل الاضطراب صفه عامّه تؤدّى إلى تدمير كلّ شىء،و لكنّنا نحفظ هذا النظام الموجود ليستفيدوا منه.و إذا وقعت بين الحين و الحين حوادث من هذا القبيل فإنّ ذلک لينتبهوا إلى أهميّه هذه النعمه الغامره.

«صريخ»من مادّه«صرخ»بمعنى الصياح.و«ينقذون»من مادّه«نقذ»بمعنى التخليص من ورطه.

و أخيرا تضيف الآيه لتكمل الحديث فتقول: إِلاّٰ رَحْمَةً مِنّٰا وَ مَتٰاعاً إِلىٰ حِينٍ .

نعم فهم لا يستطيعون النجاه بأيّه وسيله إلاّ برحمتنا و لطفنا بهم.

«حين»بمعنى«وقت»و هى فى الآيه أعلاه إشاره إلى نهايه حياه الإنسان و حلول أجله،و ذهب البعض إلى أنّها تعنى نهايه العالم بأسره.

نعم،فالأشخاص الذين ركبوا السفن أيّا كان نوعها و حجمها يدركون عمق معنى هذه الآيه،فإنّ أعظم السفن فی العالم تكون كالقشّه حيال الأمواج البحريه الهائله أو الطوفانات المفجعه للمحيطات،و لو لا شمول الرحمه الإلهيه فلا سبيل إلی نجاه أحد منهم إطلاقا.

يريد اللّه سبحانه و تعالی بذلک الخيط الرفيع بين الموت و الحياه أن يظهر قدرته العظيمه للإنسان،فلعلّ الضالّين عن سبيل الحقّ يعودون إلی الحقّ و يتوجّهون إلی اللّه و يسلكون هذا الطريق.

***

ص:١٩٧

الآيات [سوره يس (۳۶): الآيات ۴۵ الى ۴۷]

اشاره

وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اِتَّقُوا مٰا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ مٰا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۴۵) وَ مٰا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَهٍ مِنْ آيٰاتِ رَبِّهِمْ إِلاّٰ كٰانُوا عَنْهٰا مُعْرِضِينَ (۴۶) وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمّٰا رَزَقَكُمُ اَللّٰهُ قٰالَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشٰاءُ اَللّٰهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ (۴۷)

التّفسير

اشاره

الإعراض عن جميع آيات اللّه:

بعد أن كان الحديث فى الآيات السابقه عن الآيات الإلهيّه فى عالم الوجود، تنتقل هذه الآيات لتتحدّث عن ردّ فعل الكفّار المعاندين فى مواجهه هذه الآيات الإلهيّه،و كذلك توضّح دعوه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لهم و إنذارهم بالعذاب الإلهى الأليم.

يفتتح هذا المقطع بالقول: وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مٰا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ مٰا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۱) .

---

۱ – ۱) -«و إذا قيل لهم...»جمله شرطيه،و جزاؤها محذوف يستفاد من الآيه اللاحقه،و التقدير:«و إذا قيل لهم اتّقوا ...أعرضوا عنه».

للمفسّرين أقوال عديده حول ما هو معنى قوله: مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ و مَا خَلْفَكُمْ منها:أنّ المقصود ب«ما بين أيديكم»العقوبات الدنيويه التى أوردت الآيات السابقه نماذج منها،و المقصود ب«ما خلفكم»عقوبات الآخره،و كأنّه يراد القول بأنّها خلفهم و لم تأت إليهم و سوف تصل إليهم فى يوم ما و تحيط بهم، و المقصود ب«التقوى»من هذه العقوبات،هو عدم إيجاد العوامل التى تؤدّى إلى وقوع هذه العقوبات،و الدليل على ذلك أنّ التعبير ب«اتّقوا»يرد فى القرآن إمّا عند ذكر اللّه سبحانه و تعالى أو عند ذكر يوم القيامه و العقوبات الإلهيّه،و هذان الذكران وجهان لحقيقه واحده،إذن أنّ الاتّقاء من اللّه هو اتّقاء من عقوباته.

و ذلك دليل على أنّ الآيه تشير إلى الاتقاء من عذاب اللّه و مجازاته فى الدنيا و فى الآخره.

و من هذه التّفسيرات أيضا عكس ما ورد فى التّفسير الأوّل،و هو أنّ«ما بين أيديكم»تعنى عقوبات الآخره و«ما خلفكم»تعنى عذاب الدنيا،لأنّ الآخره أمامنا(و هذا التّفسير لا يختلف كثيرا عن الأوّل من حيث النتائج).

و ذهب آخرون إلى أنّ المقصود من«بين أيديكم»الذنوب التى ارتكبت سابقا، فتكون التقوى منها بالتوبه و جبران ما تلف بواسطتها،و«ما خلفكم»الذنوب التى سترتكب لا حقا.

و البعض يرى بأنّ«بين أيديهم»الذنوب الظاهره،و«ما خلفكم»الذنوب الباطنه و الخفيّه.

و قال البعض الآخر:«ما بين أيديكم»إشاره إلى أنواع العذاب فى الدنيا،و«ما خلفكم»إشاره إلى الموت(و الحال أنّ الموت ليس ممّا يتّقى منه!!).

و البعض-كصاحب تفسير«فى ظلال القرآن»-اعتبر هذين التعبيرين كنايه عن إحاطه موجبات الغضب و العذاب الإلهى التى تحيط بالكافر من كلّ جانب.

و«الآلوسى»فى«روح المعانى»و«الفخر الرازى»فى«التّفسير الكبير»كلّ

منهما ذكر احتمالات متعدّده،ذكرنا قسما منها.

و«العلاّمه الطباطبائى»فى«الميزان»يرى أنّ«ما بين أيديكم»الشرك و المعاصى فى الحياه الدنيا،و«ما خلفكم»العذاب فى الآخره (۱) .فى حين أنّ ظاهر الآيه هو أنّ كلا الإثنين من جنس واحد،و ليس بينهما سوى التفاوت الزمنى،لا أنّ إحداهما إشاره إلى الشرك و الذنوب،و الاخرى إشاره إلى العقوبات الواقعه نتيجه ذلك.

على كلّ حال فأحسن تفسير لهذه الجمله هو ما ذكرناه أوّلا،و آيات القرآن المختلفه شاهد على ذلك أيضا،و هو أنّ المقصود من«ما بين أيديكم»هو عقوبات الدنيا و«ما خلفكم»عقوبا الآخره.

الآيه التاليه تؤكّد نفس المعنى و تشير إلى لجاجه هؤلاء الكفّار و إعراضهم عن آيات اللّه و تعاليم الأنبياء،تقول الآيه الكريمه: وَ مٰا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَهٍ مِنْ آيٰاتِ رَبِّهِمْ إِلاّٰ كٰانُوا عَنْهٰا مُعْرِضِينَ .

فلا الآيات الأنفسيه تؤثّر فيهم،و لا الآفاقيه،و لا التهديد و الإنذار،و لا البشاره و التطمين بالرحمه الإلهيّه،لا يتقبّلون منطق العقل و لا-أمر العواطف و الفطره،فهم مبتلون بالعمى الكلّى بحيث لا يتمكّنون حتّى من رؤيه أقرب الأشياء إليهم،و حتّى أنّهم لا يفرّقون بين ظلمه الليل و شمس الظهيره.

ثمّ يشخّص القرآن الكريم أحد الموارد المهمّه لعنادهم و إعراضهم فيقول:

وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمّٰا رَزَقَكُمُ اللّٰهُ قٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشٰاءُ اللّٰهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ فِى ضَلاٰلٍ مُبِينٍ

.

ذلك المنطق الضعيف الذى يتمسّك به الأنانيون و البخلاء فى كلّ عصر و زمان و يقولون:إنّ فلانا أصبح فقيرا بسبب عمل ارتكبه و أدّى به إلى الفقر،مثلما أنّنا أغنياء بسبب عمل عملنا فشملنا لطف اللّه و رحمته،و عليه فليس فقره و لا غنانا

۱- ۱) -الميزان،المجلّد ۱۷،الصفحه ۹۶،(ذيل الآيات مورد البحث).

كانـا بلاـ حكمه.غـافلين عن أنّ الـدنيا إنّمـا هى دار إمتحان و ابتلاء،و اللّه سـبحانه و تعالى إنّما يمتحن البعض بالفقر كما يمتحن البعض الآـخر بـالغنى و الثروه،و ربّمـا يضع اللّه الإنسـان و فى وقتين مختلفين فى بوتقه الامتحـان الغنى و الفقر،و ينظر هـل يؤدّى الأمـانه حال فقره و يتمتّع بمناعه الطبع و يلـج مراتب الشـكر اللائقه،أم أنّه يطأ كلّ ذلك بقـدمه و يمرّ؟و فى حال الغنى هل ينفق ممّـا تفضّل اللّه به عليه،أم لا؟ و رغم أنّ البعض قـد حصـر الآيه من حيث التطبيق فى مجموعه خاصّه كاليهود، أو المشـركين فى مكّه،أو جميع الملاحده الذين أنكروا الأديان الإلهيّه،و لكن يبدو أنّ للآيه مفهوما عامّا يمكن أن تكون له مصاديق فى كلّ عصر و زمان،و إن كان مصداقها حين نزولها هم اليهود أو المشـركون فتلك ذريعه عامّه يتشـبّثون بها على مرّ العصور،و هى قولهم:إذا كان اللّه هو الرازق إذا لماذا تريـدون منّا أن نعطى الفقراء من أموالنا؟و إذا كان اللّه يريد أن يرى هؤلاء محرومين فلما ذا تريدون منّا إغناء من أراد اللّه حرمانه؟غافلين عن أنّ نظام التكوين قد يوجب شيئا،و يوجب نظام التشريع شيئا غيره.

فنظـام التكوين-بـإراده اللّه-أوجب أن تكون الأـرض بجميع مواهبهـا و عطاياهـا مسـخّره للبشـر،و أن يعطى البشـر حريّه انتخـاب الأعمال لطى طريق تكاملهم،و فى نفس الوقت خلق الغرائز التى تتنازع الإنسان من كلّ جانب.

و نظـام التشـريع أوجب قـوانين خـاصّه للسـيطره على الغرائز و تهـذيب النفـوس، و تربيه الإنسـان عن طريـق الإيثـار و التضـحيه و التسامـح و الإنفاق،و ذلك الإنسان الـذى لـديه الأهليه و الاسـتعداد لأن يكون خليفه اللّه فى الأرض،إنّما يبلغ ذلك المقام الرفيع من هـذا الطريق،فبالزكـاه تطهر النفوس،و بالإنفـاق ينتزع البخـل من القلوب،و يتحقّق التكـافؤ،و تقـلّ الفواصـل الطبقيه التى تفرز آلاف العلل و المفاسد فى المجتمعات.

و ذلك تماما كما يقول شخص:لماذا ندرس؟أو لماذا نعلّم غيرنا؟فلو شاء اللّه

سبحانه و تعالی لأعطی العلم للجمیع،فلا تکون هنالک حاجه إلی التعلّم!فهل یقبل ذلک عاقل (۱) ؟ جمله قٰالَ الَّذِینَ کَفَرُوا و التی ورد التأکید فیها علی صفه الکفر،فی حین یمکن أن یکتفی بالضمیر،إشاره إلی أنّ هذا المنطق الخرافی و التعلّل إنّما ینبع من الکفر! و لسان حال المؤمنین بقولهم: أَنْفِقُوا مِمّٰا رَزَقَکُمُ اللّٰهُ إشاره إلی أنّ المالک الأصلی فی الحقیقه هو اللّه سبحانه و تعالی،و إن کانت تلک الأموال أمانه فی أیدینا أو أیدیکم لأیّام،و یا لهم من بخلاء أولئک الذین لم یکونوا حاضرین لأن یحولوا المال إلی آخرین بأمر صاحب المال؟! أمّا جمله: إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ فِی ضَلاٰلٍ مُبِینٍ فلتفسیرها توجد احتمالات ثلاثه:

الأوّل:أنّها تتمّه ما قاله الکفّار للمؤمنین.

الثانی:أنّه کلام اللّه سبحانه و تعالی یخاطب به الکفّار.

الثالث:أنّه تتمّه ما قاله المؤمنون للکفّار.

و لکن التّفسیر الأوّل هو الأنسب،لأنّه یتّصل مباشره بحدیث الکفّار السابق، و فی الحقیقه إنّهم یریدون معامله المؤمنین بالمثل و نسبتهم إلی الضلال المبین.

***

۱- ۱) -بعض المفسّرین احتمل التّفسیر التالی و هو:أنّ العرب کانوا مشهورین بالضیافه فی ذلک الزمان،و ما کانوا یمتنعون عن الإنفاق،و کان هدف الکفّار هو الاستهزاء بالمؤمنین الذین کانوا ینسبون الأشیاء و الأمور جمیعها إلی المشیئه الإلهیه،فکانوا یقولون لهم:إذا أراد اللّه سبحانه و تعالی أن یغنی الفقراء فما الحاجه إلی إنفاقنا،و لکن یبدو أنّ التّفسیر الذی أوردناه هو الأنسب(راجع التبیان،و تفسیر القرطبی،و روح المعانی).

الآيات [سوره يس (۳۶): الآيات ۴۸ الى ۵۳]

اشاره

وَ يَقُولُونَ مَتىٰ هٰذَا اَلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (۴۸) مٰا يَنْظُرُونَ إِلاّٰ صَيْحَةً وٰاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ (۴۹) فَلاٰ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَ لاٰ إِلىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (۵۰) وَ نُفِخَ فِي اَلصُّورِ فَإِذٰا هُمْ مِنَ اَلْأَجْدٰاثِ إِلىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (۵۱) قٰالُوا يٰا وَيْلَنٰا مَنْ بَعَثَنٰا مِنْ مَرْقَدِنٰا هٰذٰا مٰا وَعَدَ اَلرَّحْمٰنُ وَ صَدَقَ اَلْمُرْسَلُونَ (۵۲) إِنْ كٰانَتْ إِلاّٰ صَيْحَةً وٰاحِدَةً فَإِذٰا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنٰا مُحْضَرُونَ (۵۳)

التّفسير

اشاره

صيحه النشور!

بعد ذكر المنطق الأجوف و الذرائع التى تشبّث بها الكفّار فى مسأله الإنفاق فى الآيات السابقه،تتعرّض هذه الآيات إلى الحديث عن استهزائهم بالقيامه،لتنسف بجواب قاطع منطقهم الفارغ حول إنكار المعاد.

مضافا إلى أنّها تكمل بحوث التوحيد التى مرّت فى الآيات السابقه بالبحث حول المعاد.

ص :۲۰۳

تقول الآيه الكريمه الاولى: وَ يَقُولُونَ مَتىٰ هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ .فإذا لم تستطيعوا تشخيص زمان دقيق لقيام الساعه،فمعنى هذا أنّكم لستم صادقين فى حديثكم.

الآيه التاليه ترد على هذا التساؤل المقرون بالسخريه بجواب قاطع حازم، و تخبرهم بأنّ قيام الساعه ليس بالأمر المعقّد أو المشكل بالنسبه إلى اللّه سبحانه و تعالى: مٰا يَنْظُرُونَ إِلاّٰ صَيْحَةً وٰاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ .

فكلّ ما يقع هو صيحه سماويه كافيه لأن تقبض فيها أرواح جميع المتبقّين من الناس على سطح الأرض بلحظه واحده و هم على حالهم،و تنتهى هذه الحياه المليئه بالصخب و الدعاوى و المعارك و الحروب،ليتخلّف وراءها صمت مطبق، و تخلو الأرض من أى صوت أو إزعاج.

و

فى حديث عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «تقوم الساعه و الرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعانه فما يطويانه حتّى تقوم،و الرجل يرفع أكلته إلى فيه فما تصل إلى فيه حتّى تقوم،و الرجل يليط حوضه ليسقى ماشيته فما يسقيها حتّى تقوم» .(۱)

جمله«ما ينظرون»هنا بمعنى«ما ينتظرون»،فكما يقول(الراغب)فى مفرداته«النظر تقليب البصر و البصيره لإدراك الشىء و رؤيته،و قد يراد به التأمّل و الفحص،و قد يراد به المعرفه الحاصله بعد الفحص،و هو الرويّه،و النظر الانتظار».

«صيحه»صاح:رفع الصوت،و أصله تشقيق الصوت من قولهم انصاح الخشب أو الثوب إذا انشقّ فسمع منه صوت،و صيح الثوب كذلك،و يقال:بأرض فلان شجر قد صاح،إذا طال فتبيّن للناظر لطوله،و دلّ على نفسه بصوته.

«يخصّمون»من مادّه«خصم»بمعنى النزاع.

۱- ۱) -مجمع البيان،ج ۴،ص ۴۲۷.و ذكرت هذه الروايه بتفاوت قليل فى تفسير«القرطبى»و«روح المعانى» و غيرهما.

أمّا فيم كانوا يختصمون؟لم تذكر الآيه ذلك،و لكن من الواضح أنّ المقصود هو التخاصم على أمر الدنيا و الأمور المعيشيه الاخرى،و لكن البعض يرى:إنّه تخاصم فى أمر«المعاد»،و المعنى الأوّل أنسب على ما يبدو،و إن كان اعتبار شمول الآيه لكلا المعنيين،و أى نوع من النزاع و الخصومه ليس ببعيد.

و من الجدير بالملاحظه أنّ الضمائر المتعدّده فى الآيه جميعها تعود على مشركى مكّه الذين كانوا يشكّكون فى أمر المعاد،و يستهزئون بذلك بقولهم:متى تقوم الساعه؟ و لكن المسلّم به أنّ الآيه لا تقصد أشخاص هؤلاء،بل نوعهم«نوع البشر الغافلين عن أمر المعاد»لأنّهم ماتوا و لم يسمعوا تلك الصيحه السماويه أبدا «تأمّل بدقّه»!! على كلّ حال،فإنّ القرآن بهذا التعبير القصير و الحازم إنّما أراد تنبيههم إلى أنّ القيامه ستأتى و بشكل غير متوقّع،و هذا أوّلا.و أمّا ثانيا فإنّ قيام الساعه ليس بالموضوع المعقّد بحيث يختصمون و يتنازعون فيه،فبمجرّد صيحه واحده ينتهى كلّ شىء و تنتهى الدنيا بأسرها.

لذا فهو تعالى يضيف فى الآيه التاليه قائلا: فَلاٰ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَ لاٰ إِلىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ .

فى العاده فإنّ الإنسان حينما تلم به حادثه و يحسّ بعدها بقرب أجله،يحاول جاهدا أن يوصل نفسه إلى أهله و منزله و يستقرّ بين عياله،ثمّ يقوم بإنجاز بعض الأمور المعلّقه،و يعهد بأبنائه أو متعلّقيه إلى من يثق به عن طريق الوصيّه أو غير ذلك.و يوصى بإنجاز بعض الأمور الاخرى.

و لكن هل تترك الصيحه السماويه فرصه لأحد؟و لو سنحت الفرصه فرضا فهل بقى أحد حيّا ليستمع الوصيّه؟أو يجتمع الأولاد مع امّهم على سرير الأب-مثلا- و يحتضنونه و يحتضنهم لكى يسلم الروح بطمأنينه؟لا أبدا،فلا إمكان لأى من هذه

الأمور.

و ما نلاحظه من تنكير التوصيه فى التعبير القرآنى هنا إنّما هو إشاره إلى أنّ الفرصه لا تسنح حتّى لوصيه صغيره أيضا.

ثمّ تشير الآيات إلى مرحله اخرى،مرحله الحياه بعد الموت.فتقول: وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذٰا هُمْ مِنَ الْأَجْدٰاثِ إِلىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ .

التراب و العظام الرميم تلبس الحياه من جديد،و تنتفض من القبر بشرا سويّا، ليحضر المحاكمه و الحساب فى تلك المحكمه العظيمه المهوله،و كما أنّهم ماتوا جميعا بصيحه واحده،فبنفخه واحده يبعثون أحياء من جديد،فلا هلاكهم يشكّل عقبه أمام قدره اللّه سبحانه و تعالى،و لا حياتهم كذلك،تماما كما هو الحال فى جمع الجنود فى الجيوش،بنفخه بوق واحده ينهضون جميعا من فرشهم و يخرجون من خيمهم،و يقفون فى صفّ واحد،و إحياء الموتى و بعثهم بالنسبه إلى اللّه سبحانه بهذه البساطه و السرعه.

«أجداث»جمع«جدث»و هو القبر،و التعبير يشير بوضوح إلى أنّ للمعاد جنبه جسمانيه بالإضافه إلى الجنبه الروحيه،و أنّ الجسد يعاد بناؤه جديدا من نفس المواد السابقه.

و استخدام صيغه الماضى فى الفعل«نفخ»إشاره إلى عدم وجود أدنى شكّ فى وقوع مثل هذا الأمر،و كأنّه لثباته و حتميته قد وقع فعلا.

«ينسلون»من مادّه«نسل»و النسل الانفصال عن الشىء-كما يقول الراغب فى المفردات و يضيف-يقال:نسل الوبر عن البعير و القميص عن الإنسان،و..

و منه نسل إذا عدا،و النسل الولد لكونه ناسلا عن أبيه.

و قوله تعالى: رَبِّهِمْ كأنّها تلميح إلى أنّ ربوبيه و مالكيه و تربيه اللّه كلّها توجب أن يكون هناك حساب و كتاب و معاد.

و على كلّ حال،فإنّه يستفاد من الآيات القرآنيه أنّ نهايه هذا العالم و بدايه

العالم الآخر يكون كلاهما على شكل حركه عنيفه و غير متوقّعه،و سوف نتعرّض إلى تفصيل هذا الموضوع فى تفسير الآيه(۶۸)من سوره الزمر إن شاء اللّه.

تضيف الآيه التاليه: قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا،هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ .

نعم فإنّ المشهد مهول و مذهل إلى درجه أنّ الإنسان ينسى جميع الخرافات و الأباطيل و لا يتمكّن إلاّ من الاعتراف الواضح الصريح بالحقائق،الآيه تصوّر القبور«بالمراقد»و النهوض من القبور(بالبعث)كما

ورد فى الحديث المعروف «كما تنامون تموتون و كما تستيقظون تبعثون».

ففى البدء يستغربون انبعاثهم و يتساءلون عمّن بعثهم من مرقدهم؟و لكنّهم يلتفتون بسرعه و يتذكّرون بأنّ أنبياء اللّه الصادقين،و عدوهم بمثل هذا اليوم، فيجيبون أنفسهم قائلين: هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ و لكن وا أسفاه إنّنا كنّا نستهزئ بكلّ ذلك!! و عليه فإنّ هذه الجمله هى بقيّه حديث هؤلاء المتكبّرين الكفره بالمعاد و البعث،و لكن البعض ذهب إلى أنّ حديث الملائكه أو المؤمنين،و ذلك على ما يبدو خلاف ظاهر الآيه،و لا داعى و لا ضروره له،لأنّ اعتراف الكفّار و المنكرين للمعاد فى ذلك اليوم لا ينحصر بهذه الآيه،ففى الآيه(۹۷)من سوره الأنبياء وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَهٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا وَيْلَنا قَدْ كُنّا فِي غَفْلَهٍ مِنْ هذا بَلْ كُنّا ظالِمِينَ .

و على كلّ حال،فإنّ التعبير ب«مرقد» (۱) يوضّح أنّهم فى عالم البرزخ كانوا بحاله شبيهه بالنوم العميق،و كما ذكرنا فى تفسير الآيه(۱۰۰)من سوره «المؤمنون»،فإنّ البرزخ بالنسبه إلى أكثر الناس الذين هم على الوسط من الإيمان أو الكفر هو حاله شبيهه بالنوم،و فى حال المؤمنين أصحاب المقامات

۱- ۱) -يأتى تاره بمعنى اسم مكان،و اخرى اسم للنوم،أى مصدر ميمى.

الرفیعه،أو الکفّار الموغلین فی الکفر و الجحود فإنّ البرزخ بالنسبه إلیهم عالم واضح المعالم،و هم فیه أیقاظ یهنأون فی النعیم أو یصطرخون فی العذاب.

احتمل بعضهم أیضا أنّ هول و دهشه القیامه شدیدان إلی درجه أنّ العذاب فی البرزخ یکون شبه النوم بالنسبه إلی ما یرونه فی القیامه.

ثمّ تقول الآیه لبیان سرعه النفخه: إِنْ کٰانَتْ إِلاّٰ صَیْحَهً وٰاحِدَهً فَإِذٰا هُمْ جَمِیعٌ لَدَیْنٰا مُحْضَرُونَ .

و علیه فإحیاء الموتی و بعثهم من القبور و إحضارهم فی محکمه العدل الإلهی لا یحتاج إلی مزید وقت،کما کان الأمر عند هلاکهم،فالصیحه الاولی للموت، و الصیحه الثانیه للحیاه و الحضور فی محکمه العدل الإلهی.

و استخدام تعبیر«الصیحه»و التأکید علیها ب«واحده»و کذلک التعبیر ب«إذا» فی مثل هذه الموارد،إنّما هو للإشاره إلی وقوع غیر المتوقّع،و التعبیر ب هُمْ جَمِیعٌ لَدَیْنٰا مُحْضَرُونَ بصیغه الجمله الاسمیه دلیل علی الوقوع السریع لهذا المقطع من القیامه.

و اللهجه الحازمه لهذه الآیات تترک أعمق الأثر فی القلوب،و کأن هذه الصیحه تقول:یا أیّها الناس النائمون،أیّتها الأتربه المتناثره،أیّتها العظام المهترئه!انهضوا ..انهضوا و استعدّوا للحساب و الجزاء...فما أجمل الآیات القرآنیه،و ما أروع إنذاراتها المعبّره!!

الآيات [سوره يس (٣۶): الآيات ۵۴ الى ۵۸]

اشاره

فَالْيَوْمَ لاٰ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ لاٰ تُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۵۴) إِنَّ أَصْحٰابَ اَلْجَنَّهِ اَلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فٰاكِهُونَ (۵۵) هُمْ وَ أَزْوٰاجُهُمْ فِي ظِلاٰلٍ عَلَى اَلْأَرٰائِكِ مُتَّكِؤُنَ (۵۶) لَهُمْ فِيهٰا فٰاكِهَهٌ وَ لَهُمْ مٰا يَدَّعُونَ (۵۷) سَلاٰمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (۵۸)

التّفسير

اشاره

أصحاب الجنّه فاكهون!

هنا يبدأ البحث حول كيفيه الحساب فى المحشر،ثمّ ينتقل فى الختام إلى تفصيل وضع المؤمنين الصلحاء و الكفّار الطالحين،فتقول الآيه الكريمه الاولى:

فَالْيَوْمَ لاٰ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً

.

فلا ينقص من أجر و ثواب أحد شيئا،و لا يزاد على عقوبه أحد شيئا،و لن يكون هنالك أدنى ظلم أو اضطهاد لأحد حتّى بمقدار رأس الإبره.

ثمّ تنتقل الآيه لتوضّح تلك الحقيقه و تعطى دليلا حيّا عليها فتقول: وَ لاٰ تُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

إنّ ظاهر الآيه-و من دون تقدير مضمر-يهدف إلى القول بأنّ جزاءكم جميعا

هو نفس أعمالكم،فأی عداله أفضل و أعلی من هذه العداله؟! و بعباره اخری:فإنّ الأعمال الحسنه و السّیئه التی قمتم بها فی هذه الدنیا سترافقکم فی ذلک العالم أیضا،و نفس تلک الأعمال ستتجسّد هناك و ترافقکم فی جمیع مراحل الآخره،فی المحشر و بعد نهایه الحساب.

فهل أنّ تسلیم حاصل عمل إنسان إلیه أمر مخالف للعداله؟ و هل أنّ تجسید الأعمال و قرنها بعاملها ظلم؟ و من هنا یتّضح أن لا معنی للظلم أساسا فی مشهد یوم القیامه،و إذا کان یحدث فی الدنیا بین البشر أن تتحقّق العداله حینا و یقع الظلم أحیانا کثیره،فذلک لعدم إمکان ربط الأعمال بفاعلیها.

جمع من المفسّرین تصوروا أنّ الجمله الأخیره أعلاه تتحدّث عن الکفّار و المسیئین الذین سیرون عقابا علی قدر أعمالهم،دون أن تشمل المؤمنین، بلحاظ أنّ اللّه سبحانه و تعالی قد جزاهم و أثابهم بأضعاف ما یعادل أعمالهم.

و لکن بملاحظه ما یلی ینحلّ هذا الاشتباه،و هو أنّ الحدیث هنا هو حدیث عن العداله فی الثواب و العقاب و أخذ الجزاء حسب الاستحقاق،و هذا لا ینافی أنّ اللّه سبحانه و تعالی یرید أن یزید المؤمنین من فضله،فهذه مسأله«تفضل»و تلک مسأله«استحقاق».

ثمّ تنتقل الآیات لتتعرّض إلی جانب من مثوبه المؤمنین العظیمه،و قبل کلّ شیء تشیر إلی مسأله الطمأنینه و راحه البال فتقول: إِنَّ أَصْحٰابَ الْجَنَّهِ الْیَوْمَ فِی شُغُلٍ فٰاکِهُونَ .

«شغل»:-علی وزن سرر-و«شغل»-علی وزن لطف-:کلیهما بمعنی العارض الذی یذهل الإنسان و یصرفه عن سواه،سواء کان ممّا یبعث علی المسرّه أو الحزن،و لکن لإلحاقه کلمه«فاکهون»التی هی جمع«فاکه»و هو المسرور الفرح الضاحک،یمکن استنتاج أنّ المعنی إشاره إلی الإنسان المشغول بنفسه

و المنصرف تماما عن التفكير فى أى قلق أو ترقّب،و الغارق فى السرور و السعاده و النشاط بشكل لا يترك أى مجال للغمّ و الحسره أن تعكّر عليه صفوه،و حتّى أنّه ينسى تماما هول قيام القيامه و الحضور فى محكمه العدل الإلهيه،تلك المواقف التى لو لا نسيانها فإنّها حتما ستلقى بظلالها الثقيله من الغمّ و القلق على القلب، و بناء على ذلك فإنّ أحد الآثار المترتبه على انشغال الذهن بالنعمه هو نسيان أهوال المحشر (۱) .

و بعد التعرّض إلى نعمه الطمأنينه و راحه البال التى هى أساس جميع النعم الاخرى و شرط الاستفاده من جميع المواهب و النعم الإلهيه الاخرى،ينتقل إلى ذكر بقيّه النعم فيقول تعالى: هُمْ وَ أَزْوٰاجُهُمْ فِي ظِلاٰلٍ عَلَى الْأَرٰائِكِ مُتَّكِؤُنَ (۲) .

«أزواج»تشير إلى الزوجه التى يعطيها اللّه فى الجنّه،أو الزوجه المؤمنه التى كانت معه فى الدنيا.

و أمّا ما احتمله البعض من أنّها بمعنى«النظائر»كما فى الآيه-۲۲ سوره الصافات اُحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْوٰاجَهُمْ الآيه فيبدو بعيدا.خصوصا أنّ (أرائك)جمع«أريكه»و هى الحجله على السرير.كما يقول أرباب اللغه (۳) .

التعبير ب«ظلال»إشاره إلى أنّ أشجار الجنّه تظلّل الأسره و التخوت التى يجلس عليها المؤمنون فى الجنّه،أو إشاره إلى ظلال قصورهم،و كلّ ذلك يدلّل على وجود الشمس هناك،و لكنّها ليست شمسا مؤذيه،نعم فإنّ لهم فى ذلك الظلّ الملائم لأشجار الجنّه سرورا و نشاطا عظيمين.

---

۱ - ۱) -يرى«الراغب»فى مفرداته بأنّ«فاكهه»تطلق على كلّ أنواع الثمار و الفواكه،و«فاكه»الحديث الذى يأنس به الإنسان و ينشغل به عن غيره.و يرى«ابن منظور»فى لسان العرب أنّ«فكاه»بمعنى المزاح،و«فاكه» يطلق على الإنسان المرح.

۲ - ۲) -هناك احتمالات عديده فى إعراب الجمله،و أفضلها أنّ«هم»مبتدأ،و«متكئون»خبر،و«على الأرائك» متعلّق به،و«فى ظلال»متعلّق به أيضا أو متعلّق بمحذوف.

۳- ۳) -لسان العرب-مفردات الراغب-مجمع البيان-القرطبى-روح المعانى-و تفاسير اخرى.

إضافه إلى ذلک فإنّ لَهُمْ فِيهٰا فٰاكِهَةٌ وَ لَهُمْ مٰا يَدَّعُونَ .

يستفاد من آيات القرآن الاخرى أنّ غذاء أهل الجنّه ليس الفاكهه فقط،و لكن تعبير الآيه يدلّل على أنّ الفاكهه-و هى فاكهه مخصوصه تختلف كثيرا عن فاكهه الدنيا-هى أعلى غذاء لهم،كما أنّ الفاكهه فى الدنيا-كما يقول المتخصّصون- أفضل و أعلى غذاء للإنسان.

«يدعون»أى يطلبون،و المعنى أنّ كلّ ما يطلبونه و يتمّنونه يحصلون عليه،فما يتمنّوه من شىء يحصل و يتحقّق على الفور.

يقول العلاّمه«الطبرسى»فى مجمع البيان:العرب يستخدمون هذا التعبير فى حاله التمنّى،فيقول:«ادع علىّ ما شئت»أى تمنّ علىّ ما شئت...

و عليه فإنّ كلّ ما يخطر على بال الإنسان و ما لا يخطر من المواهب و النعم الإلهيه موجود هناك معدّ و مهيّأ،و اللّه عنده حسن الثواب.

و أهمّ من كلّ ذلک،المواهب المعنويه التى أشارت إليها آخر آيه بقولها: سَلاٰمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (1) .

هذا النداء الذى تخفّ له الروح،فيملؤها بالنشاط،هذا النداء المملوء بمحبّه اللّه،يجعل الروح الإنسانيه تتسلّق الأفراح نشوى بالمعنويات التى لا يرقى إليها وصف و لا تعادلها أيّه نعمه اخرى.نعم فسماع نداء المحبوب،النداء الندى بالمحبّه،المعطّر باللطف،يغمر سكّان الجنّه بالحبور...الحبور الذى تعادل اللحظه منه جميع ما فى الدنيا،بل و يفيض عليه.

ففى روايه عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «بينا أهل الجنّه فى نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الربّ قد أشرف من فوقهم فقال:السلام عليكم يا أهل الجنّه، و ذلک قول اللّه تعالى: سَلاٰمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ قال فينظر إليهم و ينظرون إليه

ص:212

1- 1) -اختلف حول إعراب«قولا»و أنسب ما ذكر هو اعتبارها(مفعول مطلق)لفعل محذوف تقديره«يقول قولا».

فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتّى يحتجب عنهم و يبقى نوره و بركته عليهم فى ديارهم» (۱) .

نعم فإنّ جذبه مشاهده المحبوب،و رؤيه لطفه،تبعث اللذّه و الشوق فى النفس بحيث أنّ لحظه واحده من تلك المشاهده العظيمه لا ـ يمكن مقارنتها بأيّه نعمه،بل بالعالم أجمع،و عشّاق رؤيته و النظر إليه هائمون فى ذلك إلى درجه أنّه لو قطعت عنهم تلك الإفاضه المعنويه فإنّهم يحسّون بالحسره و الألم،و كما

ورد فى حديث لأمير المؤمنين عليه أفضل الصلاه و السلام «لو حجبت عنه ساعه لمتّ» (۲) .

الملفت للنظر أنّ ظاهر الآيه يشير إلى أنّ سلام اللّه الذى ينثره على المؤمنين فى الجنّه،هو سلام مستقيم بلا واسطه،سلام منه تعالى،و أى سلام ذلك الذى يمثّل رحمته الخاصّه!أى أنّه ينبعث من مقام رحيميته و جميع ألطافه و كراماته مجموعه فيه،و يا لها من نعمه عظيمه!! ***

ملاحظه

اشاره

أنواع«السلام»المنثور على أهل الجنّه

الجنّه هى«دار السلام»كما ورد فى الآيه(۲۵)من سوره يونس حيث نقرأ:

وَ اللّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ .

و أهل الجنّه الذين يسكنون هناك،يقابلون بسلام الملائكه حينما يدخلون عليهم الجنّه وَ الْمَلائِكَهُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ، سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدّارِ (۳) .

۱- ۱) -تفسير روح المعانى،مجلّد ۲۳،صفحه ۳۵.

۲- ۲) -روح البيان،مجلّد ۷،صفحه ۴۱۶.

۳- ۳) -الرعد،۲۴.

و يناديهم ساكنو الأعراف و يسلّمون عليهم وَ نٰادَوْا أَصْحٰابَ الْجَنَّهِ أَنْ سَلاٰمٌ عَلَيْكَمْ . (۱)

و عند ما يدخلون الجنّه يقابلون بسلام و تحيّه الملائكه.

و حينما تقبض الأرواح يتلقّى المؤمن هذا السـلام من ملائكه الموت: اَلَّذِينَ تَتَوَفّٰاهُمُ الْمَلاٰئِكَهُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَـلاٰمٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّهَ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . (۲)

و يسلّم بعضهم على بعض تَحِيَّتُهُمْ فِيهٰا سَلاٰمٌ . (۳)

و أخيرا،أسمى و أعظم سلام هو سلام اللّه عزّ و جلّ سَلاٰمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ .

الخلاصه: لاٰ يَسْمَعُونَ فِيهٰا لَغْواً وَ لاٰ تَأْثِيماً إِلاّٰ قِيلًا سَلاٰماً سَلاٰماً . (۴)

و السـلام ليس لفظـا فحسب،بل سـلام يؤدّى إلى خلق الهـدوء و السـلامه،و ينفـذ فى أعماق الروح الإنسانيه و يغمرها بالهـدوء و السلام.

***

۱- ۱) -الأعراف،۴۶.

۲- ۲) -النحل،۳۲.

۳- ۳) -إبراهيم،۲۳.

۴- ۴) -الواقعه،۲۶.

الآيات [سوره يس (۳۶): الآيات ۵۹ الی ۶۲]

اشاره

وَ اِمْتٰازُوا اَلْيَوْمَ أَيُّهَا اَلْمُجْرِمُونَ (۵۹) أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يٰا بَنِي آدَمَ أَنْ لاٰ تَعْبُدُوا اَلشَّيْطٰانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۶۰) وَ أَنِ اُعْبُدُونِي هٰذٰا صِرٰاطٌ مُسْتَقِيمٌ (۶۱) وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَ فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (۶۲)

التّفسير

اشاره

لماذا عبدتم الشيطان؟!

مرّ فی الآیـات السابقه جانب من المصـیر المشوّق لأهل الجنّه،و فی هـذه الآیات مورد البحث جانب بئیس من مصیر أهل النار و عبده الشیطان.

أوّلا:یخاطبون فی ذلک الیوم خطابا تحقیریا وَ اِمْتٰازُوا الْیَوْمَ أَیُّهَا الْمُجْرِمُونَ .

فـأنتم ربّمـا دخلتم فی صـفوف المؤمنین فی الـدنیا و تلونتم بلونهم تـاره، و اسـتفدتم من حیـثیتهم و اعتبـارهم،أمّـا الیوم«فامتـازوا عنهم»و أظهروا بشکلکم الأصلی الحقیقی.

هـذا فی الحقیقه هو تحقّق للوعد الإلهی الوارد فی الآیه(۲۸)من سوره ص حیث یقول البـاری عزّ و جـلّ: أَمْ نَجْعَلُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ کَالْمُفْسِدِینَ

ص: ۲۱۵

فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجّٰارِ .

و علی کلّ حال،فظاهر الآیه هو التمییز فی العرض بین المجرمین و المؤمنین، و إن کان بعض المفسّرین قد احتمل احتمالات اخری من جملتها:تفریق صفوف المجرمین أنفسهم إلی مجموعات فیما بینهم،أو انفصال المجرمین عن شفعائهم و معبوداتهم،أو انفصال المجرمین کلّ واحد عن الآخر،بحیث یکون ذلک العذاب الناتج عن الفراق مضافا علی عذاب الحریق فی جهنّم.

و لکن شمولیه الخطاب لجمیع المجرمین،و محتوی جمله«و امتازوا»تقوّی المعنی الأوّل الذی أشرنا إلیه.

الآیه التالیه تشیر إلی لوم اللّه تعالی و توبیخه المجرمین فی یوم القیامه قائلا:

أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَیْکُمْ یٰا بَنِی آدَمَ أَنْ لاٰ تَعْبُدُوا الشَّیْطٰانَ إِنَّهُ لَکُمْ عَدُوٌّ مُبِینٌ

.

إنّ هذا العهد الإلهی أخذ علی الإنسان من طرق مختلفه،و کرّر علی مسمعه مرّات و مرّات: یٰا بَنِی آدَمَ لاٰ یَفْتِنَنَّکُمُ الشَّیْطٰانُ کَمٰا أَخْرَجَ أَبَوَیْکُمْ مِنَ الْجَنَّهِ یَنْزِعُ عَنْهُمٰا لِبٰاسَهُمٰا لِیُرِیَهُمٰا سَوْآتِهِمٰا إِنَّهُ یَرٰاکُمْ هُوَ وَ قَبِیلُهُ مِنْ حَیْثُ لاٰ تَرَوْنَهُمْ إِنّٰا جَعَلْنَا الشَّیٰاطِینَ أَوْلِیٰاءَ لِلَّذِینَ لاٰ یُؤْمِنُونَ (۱) جری هذا التحذیر و بشکل متکرّر علی لسان الأنبیاء و الرسل: وَ لاٰ یَصُدَّنَّکُمُ الشَّیْطٰانُ إِنَّهُ لَکُمْ عَدُوٌّ مُبِینٌ (۲).

و کذلک فی الآیه(۱۶۸)من سوره البقره نقرأ: وَ لاٰ تَتَّبِعُوا خُطُوٰاتِ الشَّیْطٰانِ إِنَّهُ لَکُمْ عَدُوٌّ مُبِینٌ .

و من جانب آخر فإنّ هذا العهد أخذ علی الإنسان فی عالم التکوین،و بلسان إعطاء العقل له،إذ أنّ الدلائل العقلیه تشیر بشکل واضح إلی أنّ علی الإنسان أن لا یطیع من تصدّی لعداوته منذ الیوم الأوّل و أخرجه من الجنّه،و أقسم علی إغواء

۱- ۱) -الأعراف،۲۷.

۲- ۲) -الزخرف،۶۲.

أبنائه من بعده.

و من جانب ثالث فقد أخذ هذا العهد على الإنسان بالفطره الإلهيّه للناس على التوحيد،و انحصار الطاعه فى اللّه سبحانه،و بهذا لم تتحقّق التوصيه الإلهيه هذه بلسان واحد،بل بعدّه ألسنه و أساليب،و امضى هذا العهد و الميثاق.

و الجدير بالملاحظه أيضا أنّ«العباده»الوارده الإشاره إليها فى جمله لاٰ تَعْبُدُوا الشَّيْطٰانَ بمعنى«الطاعه»،لأنّ العباده لا تنحصر بمعنى الركوع و السجود فقط،بل إنّ من مصاديقها الطاعه.كما ورد فى الآيه(۴٧)من سوره«المؤمنون» أَ نُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنٰا وَ قَوْمُهُمٰا لَنٰا عٰابِدُونَ و فى الآيه(٣١)من التوبه نقرأ:

اِتَّخَذُوا أَحْبٰارَهُمْ وَ رُهْبٰانَهُمْ أَرْبٰاباً مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ مٰا أُمِرُوا إِلاّٰ لِيَعْبُدُوا إِلٰهاً وٰاحِداً .

و الجميل أنّه

ورد فى روايه عن الصادق عليه السّلام تعليقا على الآيه بقوله:«أما و اللّه ما دعوهم إلى عباده أنفسهم و لو دعوهم ما أجابوهم،و لكن أحلّوا لهم حراما و حرّموا عليهم حلالا فعبدوهم من حيث لا يشعرون» (١) .

و

عن الصادق عليه السّلام أيضا أنّه قال: «من أطاع رجلا فى معصيه فقد عبده» (٢) .

و

عن الباقر عليه السّلام أنّه قال: «من أصغى إلى ناطق فقد عبده،فإن كان الناطق يؤدّى عن اللّه فقد عبد اللّه،و إن كان الناطق يؤدّى عن الشيطان فقد عبد الشيطان» (٣) .

الآيه التاليه تأكيد أشدّ و بيان لوظيفه بنى آدم،تقول الآيه الكريمه: وَ أَنِ اعْبُدُونِي هٰذٰا صِرٰاطٌ مُسْتَقِيمٌ .

أخذ على الإنسان العهد بأن لا يطيع الشيطان،إذ أنّه أعلن له عن عداوته بشكل واضح منذ اليوم الأوّل،فهل يطيع عاقل أوامر عدوّه!؟..هذا من جانب.

١- ١) -وسائل الشيعه،ج ١٨،ص ٨٩،حديث ١.

٢- ٢) -وسائل الشيعه،ج ١٨،ص ٩١،حديث ٨ و ٩.

٣- ٣) -المصدر السابق.

و من جانب آخر،أخذ عليه العهد بطاعه اللّه سبحانه و تعالى،لأنّ سبيله هو الصراط المستقيم،و هذا فى الحقيقه أعظم محرّك للبشر،لأنّ الإنسان-مثلا-لو كان فى وسط صحراء قاحله محرقه،و كانت حياته و حياه عياله فى معرض خطر قطّاع الطرق و الضوارى،فأهمّ ما يفكّر به هو العثور على الطريق المستقيم الآمن الذى يؤدّى إلى المقصد،الطريق السريع و الأسهل للوصول إلى منزل النجاه.

و يستفاد كذلك من هذا التعبير ضمنا بأنّ الدنيا ليست بدار القرار،إذ أنّ الطريق لا يرسم لأحد إلاّ لمن يريد الذهاب إلى مقصد آخر.

و للتعريف بهذا العدو القديم أكثر فأكثر يضيف تعالى: وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَ فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ .

ألا ترون ماذا أحلّ بأتباعه من المصائب.

ألم تطالعوا تأريخ من سبقكم لتروا بأعينكم أى مصير مشؤوم وصل إليه من عبد الشيطان؟آثار مدنهم المدمّره أمام أعينكم،و العاقبه المؤلمه التى وصلوا إليها واضحه لكلّ من يمتلك القليل من التعقّل و التفكّر.

إذن لماذا أنتم غير جادّين فى معاداه من أثبت أنّه عدو لكم مرّات و مرّات؟ و لا زلتم تتّخذونه صديقا بل قائدا و وليّا و إماما!! «الجبلّ»الجماعه تشبيها بالجبل فى العظم(كما يقول الراغب فى مفرداته).

و«كثيرا»للتأكيد على كثره من اتّبع الشيطان من كافّه المستويات الاجتماعيه فى كلّ مجتمع.

ذكر بعضهم أنّ«الجبلّ»بحدود عشره آلاف نفر،أو أكثر،و ما دون ذلك لا يكون جبلاّ (۱) ،و لكن البعض الآخر لم يلتزم بتلك الأرقام (۲) .

و على كلّ حال،فإنّ العقل السليم يوجب على الإنسان أن يحذر بشدّه من عدوّ

۱- ۱) -انظر روح المعانى و الفخر الرازى.

۲- ۲) -المصدر السابق.

خطر کهذا،لا یتورّع عن أی شیء،و لا یرحم أی إنسان أبدا،و قرابینه فی کلّ زاویه و مکان هلکی صرعی،فلا ینبغی له أن یغفل عنه طرفه عین أبدا،و لنقرأ ما

یقول أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه أفضل الصلاه و السلام:

«فاحذروا-عباد اللّه-عدوّ اللّه،أن یعدیکم بدائه،و أن یستفزّکم بندائه،و أن یجلب علیکم بخیله و رجله،فلعمری لقد فوق لکم سهم الوعید،و أغرق إلیکم بالنزع الشدید،و رماکم من مکان قریب،فقال:ربّ بما أغویتنی لازیّنن لهم فی الأرض و لأغوینّهم أجمعین» (1) .

***

1- 1) -نهج البلاغه،خطبه 192(القاصعه).

الآیات [سوره یس (۳۶): الآیات ۶۳ الی ۶۸]

اشاره

هٰذِهِ جَهَنَّمُ اَلَّتِی کُنْتُمْ تُوعَدُونَ (۶۳) اِصْلَوْهَا اَلْیَوْمَ بِمٰا کُنْتُمْ تَکْفُرُونَ (۶۴) اَلْیَوْمَ نَخْتِمُ عَلیٰ أَفْوٰاهِهِمْ وَ تُکَلِّمُنٰا أَیْدِیهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمٰا کٰانُوا یَکْسِبُونَ (۶۵) وَ لَوْ نَشٰاءُ لَطَمَسْنٰا عَلیٰ أَعْیُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا اَلصِّرٰاطَ فَأَنّٰی یُبْصِرُونَ (۶۶) وَ لَوْ نَشٰاءُ لَمَسَخْنٰاهُمْ عَلیٰ مَکٰانَتِهِمْ فَمَا اِسْتَطٰاعُوا مُضِیًّا وَ لاٰ یَرْجِعُونَ (۶۷) وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَکِّسْهُ فِی اَلْخَلْقِ أَ فَلاٰ یَعْقِلُونَ (۶۸)

التّفسیر

اشاره

یوم تسکت الألسن و تشهد الأعضاء!!

تعرّضت الآیات السابقه،إلی قسم من التوبیخات و التقریعات الإلهیّه و إلی مخاطبته سبحانه المجرمین فی یوم القیامه.

هذه الآیات تواصل البحث حول الموضوع نفسه أیضا.

نعم،ففی ذلک الیوم و حینما تظهر جهنّم للمجرمین الکافرین یذکّرهم اللّه بوعده،و الآیه تشیر إلی ذلک فتقول: هٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِی کُنْتُمْ تُوعَدُونَ .

فقـد بعث إليكم الأنبياء واحدا بعد واحد،و حذّروكم من مثل هذا اليوم و من مثل هذه النار،و لكنّكم لم تأخذوا أقوالهم إلاّ على محمل السخريه و الاستهزاء اِصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمٰا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۱) .

ثمّ يشير تعالى إلى شهود يوم القيامه...الشهود الـذين هم جزء من جسـد الإنسان،حيث لا مجال لإنكار شـهادتهم،فيقول تعالى: اَلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلىٰ أَفْوٰاهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنٰا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ .

نعم ففى ذلـك اليـوم لاـ تكـون أعضـاء الإنسـان طوع إرادته و ميـوله،فهى بأجمعهـا تتخلّى عن امتثال أمره و تستسلم لأـمر اللّه سبحـانه،و يـا لهـا مـن محكمه عجيبه تلـك المحكمه الـتى شـهودها نفس أعضـاء الإنسان.تلـك الأعضـاء الـتى كـانت الوسـائل لارتكاب المعاصى و الذنوب.

و يحتمـل أن تكون شـهاده الأعضـاء،بسبب أنّ المجرمين حينمـا يرون بأنّهم سيصـلون جهنّم جزاء أعمالهم،يميلون إلى إنكار ما ارتكبوا ظنّا منهم أنّه يمكن الإفلاـت بإخفاء الحقائق و الإنكار،إلاّ أنّ الأعضاء تبـدأ هنا بالشـهاده،الأمر الـذى يثير عجب أولئك المجرمين و وحشتهم و يغلق عليهم جميع طرق الفرار و الخلاص.

أمّا عن كيفيه نطق تلك الأعضاء،فثمّه تفسيرات و احتمالات عديده:

۱-إنّ اللّه سبحانه و تعالى يجعل فى كلّ واحد من تلك الأعضاء القدره على التكلّم و الشعور،و هى تقوم بنقل الحقيقه بصدق،و ما هو العجب فى ذلك؟فمن جعل فى قطعه من اللحم المسـمّاه«لسان»أو«مـخ الإنسان»القـدره على النطق، يسـتطيع أن يجعل هذه القدره فى سائر أعضاء البدن أيضا.

۲-أنّ تلـك الأعضـاء لاـ تعطى الإدراك و الشـعور،و لكن اللّه سـبحانه و تعالى ينطقها،و فى الحقيقه فإنّ تلك الأعضاء سـتكون محلا لظهور الكلام،و انكشاف

۱- ۱) -«اصلوها»من(صلا)أصل الصّلى إيقاد النار،و يقال صلى بالنار و بكذا،أى بلى بها و اصطلى بها.

الحقائق بإذن اللّه.

٣-أنّ أعضاء البـدن الإنسانى تحتفظ بآثار الأعمال التى قامت بها فى الـدنيا، إذ أنّ أى عمل فى هـذه الدنيا لا يفنى، بل إنّ آثاره ستبقى على كـلّ عضو من البـدن، و فى الفضـاء المحيط بها،و فى ذلك اليوم الـذى هو يوم الظهور و التجلّى،سـتظهر هـذه الآثار على اليد و القدم و سائر الأعضاء،و ظهور تلك الآثار هو منزله الشهاده.

و هذا تماما كما يرد فى لغتنا المعاصره حينما نقول:«عينك تشهد على سهرك»،أو «الجدران تبكى صاحب الدار».

و على كلّ حال،فإنّ من المسـلّمات شـهاده الأعضاء فى يوم القيامه،و لكن هل أنّ كلّ عضو يكشف عن فعله فحسب،أو يكشف عن كلّ الأعمال؟فلا شكّ أنّ الاحتمال الأوّل هو الأنسب،لـذا فإنّ الآيات القرآنيه الكريمه الاخرى تذكر شـهاده الاذن و العين و الجلد،كما فى الآيه(٢٠)من سوره فصـلت حين يقول تعـالى: حَتّٰى إِذٰا مٰا جٰاؤُهٰا شَـهِدَ عَلَيْهِمْ سَـمْعُهُمْ وَ أَبْصٰارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ أو مـا ورد فى الآيه(٢۴)من سوره النور من قوله تعـالى: يَوْمَ تَشْـهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِـنَتُهُمْ وَ أَيْـدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ .

و الجدير بالملاحظه أنّه تعالى فى سوره النور يقول: تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ و فى الآيه مورد البحث يقول: اَلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلىٰ أَفْوٰاهِهِمْ ،و من الممكن أن يكون ما يحصل هناك هو أن يختم على فم المجرم أوّلا لتشـهد أعضاؤه،و بعد أن يرى بنفسه شهاده أعضائه، يفتح لسانه،و لأنّه لا مجال للإنكار فإنّ لسانه أيضا يقرّ بالحقيقه.

و كـذلك يحتمـل أن يكون المقصود من كلاـم اللسان هو الكلام الـداخلى الـذى ينبعث منه كما فى سائر الأعضاء،و ليس نطقه العادى.

آخر ما نريد قوله بخصوص موضوع تكلّم الأعضاء هو أنّ ذلك خاص بالمجرمين،و إلاّ فالمؤمنون حسابهم واضح،لذا

ورد فى الحديث عن الباقر عليه السّلام

«ليست تشهد الجوارح على مؤمن،إنّما تشهد على من حقّت عليه كلمه العذاب، فأمّا المؤمن فيعطى كتابه بيمينه،قال اللّه عزّ و جلّ: فَمَنْ أُوتِيَ كِتٰابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولٰئِكَ يَقْرَؤُنَ كِتٰابَهُمْ وَ لاٰ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (۱) .

الآيه التاليه تشير إلى أحد ألوان العذاب التى يمكن أن يبتلى اللّه تعالى بها المجرمين فى هذه الدنيا،تقول الآيه الكريمه: وَ لَوْ نَشٰاءُ لَطَمَسْنٰا عَلىٰ أَعْيُنِهِمْ (۲) .

و فى تلك الحاله التى يبلغ فيها الرعب الذروه عندهم: فَاسْتَبَقُوا الصِّرٰاطَ فَأَنّٰى يُبْصِرُونَ .فهم عاجزون حتّى عن العثور على الطريق إلى بيوتهم،ناهيك عن العثور على طريق الحقّ و سلوك الصراط المستقيم! و عقوبه مؤلمه اخرى لهم:انّنا لو أردنا لمسخناهم فى مكانهم على شكل تماثيل حجريه فاقده للروح و الحركه،أو على أشكال الحيوانات بحيث لا يستطيعون التقدّم إلى الأمام،و لا الرجوع إلى الخلف: لَوْ نَشٰاءُ لَمَسَخْنٰاهُمْ عَلىٰ مَكٰانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطٰاعُوا مُضِيًّا وَ لاٰ يَرْجِعُونَ (۳) .

«فاستبقوا الصراط»يمكن أن تكون بمعنى التسابق فيما بينهم للعثور على الطريق الذى يذهبون منه عاده،أو بمعنى الانحراف عن الطريق و عدم العثور عليه،على ضوء ما قاله بعض أرباب اللغه من أن«فاستبقوا الصراط»بمعنى «جاوزوه و تركوه حتّى ضلّوا» (۴) .

و على كلّ حال،فطبقا للتفسير الذى قبل به أغلب المفسّرين الإسلاميين،فإنّ الآيتين أعلاه،تتحدّثان عن عذاب الدنيا،و عن تهديد الكفّار و المجرمين بأنّ اللّه

۱- ۱) -تفسير الصافى،مجلّد ۴،صفحه ۲۵۸

۲- ۲) -«طمسنا»من طمس-على وزن شمس-بمعنى إزاله الأثر بالمحو،هذه الإشاره إلى إزاله ضوء العين أو صورتها بشكل كلّى بحيث لا يبقى منها أثر.

۳- ۳) -«مكانتهم»بمعنى محل التوقّف،و هى إشاره إلى أنّ اللّه سبحانه و تعالى قادر على أن يخرجهم عن إنسانيتهم فى محل توقّفهم،يغيّر أشكالهم،و يفقدهم القدره على الحركه،تماما كالتمثال الخالى من الروح.

۴- ۴) -لسان العرب-قطر المحيط-المنجد«مادّه سبق».

سبحانه و تعالی قادر علی تعریضهم لمثل هذا العذاب فی الدنیا،و لکن للطفه و رحمته فإنّه یمتنع عن ذلک،فقد ینتبه هؤلاء المعاندین و یرجعوا عن غیّهم إلی طریق الحقّ.

و لکن یوجد احتمال آخر أیضا،و هو أنّ الآیات تشیر إلی العقوبات الإلهیّه فی یوم القیامه لا فی الدنیا،و فی الحقیقه فهو تعالی بعد أن أشار إلی«الختم علی أفواههم»فی الآیه السابقه،یشیر هنا إلی نوعین آخرین من العقوبات التی لو شاء لأجراها علیهم:

الأوّل:الطمس علی عیونهم بحیث لا یمکنهم رؤیه«الصراط»أی طریق الجنّه.

الثانی:أنّ هؤلاء الأفراد بعد أن کانوا فاقدین للحرکه فی طریق السعاده فإنّهم یتحوّلون إلی تماثیل میته فی ذلک الیوم و یظلّون حیاری فی مشهد المحشر،و لیس لهم طریق للتقدّم أو للتراجع،إنّ تناسب الآیات-طبعا-یؤیّد هذا التّفسیر الأخیر، و إن کان أکثر المفسّرین قد اتّفقوا علی قبول التّفسیر السابق (۱) .

الآیه الأخیره من هذه المجموعه تشیر إلی وضع الإنسان فی آخر عمره من حیث الضعف و العجز العقلی و الجسمی،لتکون إنذارا لهم و لیختاروا طریق الهدایه عاجلا،و لتکون جوابا علی الذین یلقون بمسؤولیه تقصیرهم علی قصر أعمارهم، و کذلک لتکون دلیلا علی قدره اللّه سبحانه و تعالی،فالقادر علی أن یعید ذلک الإنسان القوی إلی ضعف و عجز الولید الصغیر..قادر علی مسأله المعاد بالضروره،و علی الطمس علی عیون المجرمین و منعهم عن الحرکه،کذلک تقول الآیه الکریمه: وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَکِّسْهُ فِی الْخَلْقِ أَ فَلاٰ یَعْقِلُونَ .

«ننکّسه»من مادّه«تنکیس»و هو قلب الشیء علی رأسه.و هی هنا کنایه عن

ص:۲۲۴

۱- ۱) -ذکر صاحب تفسیر«فی ظلال القرآن»هذا التّفسیر علی انّه الوحید،فی حین انّ التّفسیر السابق اختاره کلّ من تفسیر:مجمع البیان-التبیان-المیزان-الصافی-روح المعانی-روح البیان-القرطبی-التّفسیر الکبیر.

الرجوع الکامل للإنسان إلی حالات الطفوله.فالإنسان منـذ بـدء خلقته ضـعیف، و یتکامل تـدریجیّا و یرشـد،و فی أطواره الجنینیه یشـهد فی کلّ یوم طورا جدیدا و رشدا جدیدا،و بعد الولاده-أیضا-یسـتمرّ فی مسـیره التکاملی جسـمیا و روحیا و بسرعه،و تبدأ القـوی و الاسـتعدادات الـتی أخفاهـا اللّه فی أعمـاق وجـوده بـالظهور تـدریجیّا الواحـده تلـو الاـخری،فی طـور الشـباب،ثمّ طور النضج،لیبلغ الإنسان أوج تکامله الجسمی و الروحی.

و هنـا تنفصـل الروح عن الجسـد فی تکاملها و نموّها،فتسـتمر فی تکاملها فی حال أنّ الجسـد یشـرع بالنکوص،و لکن العقل فی النهـایه یبـدأ هو الآـخر بـالتراجع أیضا،فیعود تـدریجیّا-و أحیانا بسـرعه-إلی مراحل الطفوله،و یتساوق ذلک مع الضـعف البـدنی أیضـا،مع الفـارق طبعـا،فالآثـار التی تترکهـا حرکـات و روحیـات الأطفـال علی النفس هی الراحه و الجمال و الأمل و لهـذا فهی مقبوله منهم،و لکنّهـا من أهـل الشـیخوخه،قبیحه و منفّره،و فی بعض الأحیان قـد تثیر الشـفقه و الترحّم، فالشـیخوخه أیّام عصـیبه حقّا،یصعب تصوّر عمق آلامها.

فی الآیه(۵)سوره الحـجّ أشار القرآن المجید إلی هذا المعنی،قائلا: وَ مِنْکُمْ مَنْ یُرَدُّ إِلیٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِکَیْلاٰ یَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَـیْئاً .لذا فقد ورد فی بعض الروایات أنّ من جاوز السبعین حیّا فهو «أسیر اللّه فی الأرض» (۱) .

و علی کلّ حال فإنّ جمله أَ فَلاٰ یَعْقِلُونَ تشعّ تنبیها عجیبا بهذا الخصوص، و تقول للبشر:إنّ هذه القدره و القوّه التی عندکم لو لم تکن علی سبیل«العاریه»لما أخذت منکم بهذه البساطه.اعلموا أنّ فوقکم ید قدره اخری قادره علی کلّ شیء، فقبل أن تصلوا إلی تلک المرحله خلّصوا أنفسکم،و قبل أن یتبدّل هذا النشاط

۱- ۱) -ورد هذا الحدیث فی سفینه البحار مادّه(عمر).

و الجمـال إلى موت و ذبول.اجمعوا الورد من هـذا الروض،و تزوّدوا بالزاد من هـذه الـدنيا لطريق الآخره البعيـد،لأنّه لم يمكنكم أداء أی عمل ذی قيمه فی وقت الشيب و الضعف و المرض.و لذا فإنّ من ضمن ما

أوصـی بـه النّبی صـلّی اللّه عليه و آله و سـلّم أبـا ذرّ أنّه قـال: «اغتنم خمسـا:قبـل خمس:شـبابک قبـل هرمـک،و صـحّتک قبل سقمک،و غناک قبل فقرک،و فراغک قبل شغلک،و حياتک قبل موتک» (۱) .

***

۱- ۱) -بحار الأنوار،مجلّد ۷۷،صفحه ۷۵،حديث-۳.

الآيتان [سوره يس (۳۶): الآيات ۶۹ الى ۷۰]

اشاره

وَ مٰا عَلَّمْنٰاهُ اَلشِّعْرَ وَ مٰا يَنْبَغِى لَهُ إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ (۶۹) لِيُنْذِرَ مَنْ كٰانَ حَيًّا وَ يَحِقَّ اَلْقَوْلُ عَلَى اَلْكٰافِرِينَ (۷۰)

التّفسير

اشاره

انّه ليس بشاعر..بل نذير!!

قلنا أنّ فى هـذه السوره بحوثا حيّه و جامعه حول اصول الإعتقادات:التوحيـد، و المعاد،و النبوّه،و تنتقل الآيات من بحث إلى آخر ضمن مقاطع مختلفه من الآيات.

طرحت فى الآيـات السـابقه بحوث مختلفه حول التوحيـد و المعـاد،و تعود هاتان الآيتان إلى البحث فى مسأله النبوّه،و قـد أشارتا إلى أكـثر الاتّهامـات رواجـا و التى أثيرت بوجه الرّسول الأـكرم صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم،وردّت عليهم ردّا قويّـا،منهـا اتّهـام الرّسول بكونه شاعرا،فقالت: وَ مٰا عَلَّمْنٰاهُ الشِّعْرَ وَ مٰا يَنْبَغِى لَهُ .

لماذا اتّهم الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم بهذا الاتّهام مع أنّه لم يقل الشعر أبدا؟ كان ذلك بسبب الجاذبيه الخاصّه للقرآن الكريم و نفوذه فى القلوب،الأمر الذى كان محسوسا للجميع،بالإضافه إلى عدم إمكانيه إنكار جمال ألفاظه

و معانيه و فصاحته و بلاغته،و قد كانت جاذبيه القرآن الكريم الخاصّه قد أثّرت حتّى فى نفوس الكفّار الذين كانوا أحيانا يأتون إلى جوار منزل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بشكل خفى ليلا لكى يستمعوا إلى تلاوته للقرآن فى عمق الليل.

و كم من الأشخاص الذين تولّعوا و عشقوا الإسلام لمجرّد سماعهم القرآن الكريم و أعلنوا إسلامهم فى نفس المجلس الذى استمعوا فيه إلى بعض آياته.

و هنا حاول الكفّار من أجل تفسير هذه الظاهره العظيمه،و لغرض استغفال الناس و صرف أنظارهم من كون ذلك الكلام و حيا إلهيّا،فأشاعوا تهمه الشعر فى كلّ مكان،و التى كانت بحدّ ذاتها تمثّل اعترافا ضمنيا بتميّز كلام القرآن الكريم.

و أمّا لماذا لا يليق بالرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يكون شاعرا،فلأنّ طبيعه الشعر تختلف تماما عن الوحى الإلهى،للأسباب التاليه:

۱-إنّ أساس الشعر-عاده-هو الخيال و الوهم،فالشاعر غالبا ما يحلّق بأجنحه الخيال،و الحال أنّ الوحى يستمدّ وجوده من مبدأ الوجود و يدور حول محور الحقيقه.

۲-الشعر يفيض من العواطف الإنسانيه المتغيّره،و هى فى حال تغيّر و تبدّل مستمرين،أمّا الوحى الإلهى فمرآه الحقائق الكونيه الثابته.

۳-لطافه الشعر تنبع فى الغالب من الإغراق فى التمثيل و التشبيه و المبالغه،إلى درجه أن قيل«أحسن الشعر أكذبه»،أمّا الوحى فليس إلاّ الصدق.

۴-الشاعر فى أغلب الموارد و جريا وراء التزويق اللفظى يكون مجبرا على السعى وراء الألفاظ،ممّا يضيع الكثير من الحقائق فى الأثناء.

۵-و أخيرا يقول أحد المفسّرين:إنّ الشعر مجموعه من الأشواق التى تحلّق منطلقه من الأرض باتّجاه السماء،بينما الوحى حقائق نازله من السماء إلى الأرض،و هذان الاتّجاهان واضح تفاوتهما.

و هنا يجب أن لا ننسى تقدير مقام أولئك الشعراء الذين يسلكون هذا الطريق

باتّجاه أهداف مقدّسه،و يصونون أشعارهم من كلّ ما لا يرضى اللّه،و على كلّ حال فإنّ طبيعه أغلب الشعراء كما أوردناه أعلاه.

لذا فإنّ القرآن الكريم يقول فی آخر سوره الشعراء: وَ الشُّعَرٰاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغٰاوُونَ أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِی كُلِّ وٰادٍ يَهِيمُونَ وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مٰا لاٰ يَفْعَلُونَ . (۱)

طبعا فإنّ نفس هذه الآيات تشير فی آخرها إلی الشعراء المؤمنين الذين يسخّرون فنّهم فی سبيل أهدافهم الساميه،و هم مستثنون من ذلک التعميم و لهم حساب آخر.

و لكن علی أيّه حال فإنّ الرّسول صلّی اللّه عليه و آله و سلّم لا يمكن أن يكون شاعرا،و عند ما يقول تعالی: وَ مٰا عَلَّمْنٰاهُ الشِّعْرَ فمفهومه أنّه مجانب للشعر لأنّ جميع التعاليم النازله إليه هی من اللّه تعالی.

و الملفت للنظر أنّ التأريخ و الروايات تنقل كثيرا من الأخبار التی تشير إلی أنّ الرّسول الأكرم صلّی اللّه عليه و آله و سلّم حينما يريد الاستشهاد ببيت من الشعر،فإنّه غالبا ما يقوله بطريقه منثوره.

فعن عائشه أنّها قالت: كان رسول اللّه يتمثّل ببيت أخی بنی قيس فيقول:

ستبدی لک الأيّام ما كنت جاهلا*و يأتيک من لم تزوّد بالأخبار فيقول أبو بكر:ليس هكذا يا رسول اللّه فيقول:إنّی لست بشاعر و ما ينبغی لی (۲) .

ثمّ يضيف تعالی فی آخر الآيه لنفی الشعر عن الرّسول صلّی اللّه عليه و آله و سلّم: إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ .

و الهدف هو الإنذار و إتمام الحجّه: لِيُنْذِرَ مَنْ كٰانَ حَيًّا وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَی الْكٰافِرِينَ

ص: ۲۲۹

۱- ۱) -الشعراء،۲۲۴-۲۲۶.

۲- ۲) -مجمع البيان،ج ۴،ص ۴۳۳.

(۱)

.

نعم،هذه الآيات«ذكر»و وسيله تنبيه،هذه الآيات«قرآن مبين»يوضّح الحقّ بلا أدنى تغطيه أو غمط،بل بقاطعيه و صراحه،و لذا فهو عامل انتباه و حياه و بقاء.

مرّه اخرى نرى القرآن الكريم يجعل(الإيمان)هو(الحياه)و(المؤمنين)هم (الأحياء)و(الكفّار)هم«الموتى»،ففى جانب يذكر عنوان«حيّا»و فى الطرف المقابل عنوان«الكافرون»،فهذه هى الحياه و الموت المعنوى اللذان هما أعلى بمراتب من الموت و الحياه الظاهريين.و آثارهما أوسع و أشمل،فإذا كانت الحياه و المعيشه بمعنى«التنفّس»و«أكل الطعام»و«الحركه»،فإنّ هذه الأعمال كلّها تقوم بها الحيوانات،فهذه ليست حياه إنسانيه،الحياه الإنسانيه هى تفتّح أزهار العقل و الفهم و الملكات الرقيقه فى روح الإنسان،و كذلك التقوى و الإيثار و التضحيه و التحكّم بالنفس،و التحلّى بالفضيله و الأخلاق،و القرآن ينمى هذه الحياه فى وجود الإنسان.

و الخلاصه:أنّ الناس ينقسمون حيال دعوه القرآن الكريم إلى مجموعتين:

مجموعه حيّه يقظه تلبّى تلك الدعوه،و تلتفت إلى إنذاراتها،و مجموعه من الكفّار ذوى القلوب الميته،الذين لا تؤمل منهم أيّه استجابه أبدا،و لكن هذه الإنذارات سبب فى إتمام الحجّه عليهم،و تحقّق أمر العذاب بحقّهم.

***

۱- ۱) -جمله«لينذر...»متعلّقه ب«ذكر»الوارده فى الآيه السابقه،و البعض اعتبرها متعلّقه ب«علمنا»أو«نزّلنا» تقديرا،و لكن الاحتمال الأوّل هو الأنسب على ما يبدو.

بحث

اشاره

حیاه و موت القلوب:

فی الإنسان أنواع من الحیاه و الموت:

الأوّل:الحیاه و الموت النباتی الذی مظهره النمو و الرشد و التغذیه و التوالد،و هو فی هذا الشأن یشابه جمیع النباتات.

الثانی:الحیاه و الموت الحیوانی.و أبرز مظاهرها«الإحساس»و«الحرکه»، و هو مشترک فی هاتین الصفتین مع جمیع الحیوانات.

أمّا النوع الثالث من الحیاه الخاصّ بالإنسان فقط،فهو(الحیاه الإنسانیه و الروحیه).و هو ما قصدته الروایات بقولها«حیاه القلوب».حیث أنّ المقصود بالقلب هنا«الروح و العقل و العواطف»الإنسانیه.

ففی حدیث أمیر المؤمنین علیه أفضل الصلاه و السلام حول القرآن یقول:

«و تعلّموا القرآن فإنّه أحسن الحدیث،و تفقّهوا فیه فإنّه ربیع القلوب» (1) .

و

فی حدیث آخر له علیه أفضل الصلاه و السلام یقول عن الحکمه و التعلّم:

«و اعلموا أنّه لیس من شیء إلاّ و یکاد صاحبه یشبع منه و یملّه إلاّ الحیاه،فإنّه لا یجد فی الموت راحه،و إنّما ذلک بمنزله الحکمه التی هی حیاه للقلب المیّت و بصر للعین العمیاء» (2) .

و

قال علیه الصلاه و السلام: «ألا و إنّ من البلاء الفاقه،و أشدّ من الفاقه مرض البدن،و أشدّ من مرض البدن مرض القلب،ألا و إنّ من صحّه البدن تقوی القلوب» (3) .

و

یقول علیه الصلاه و السلام: «و من کثر کلامه کثر خطؤه،و من کثر خطؤه قلّ

1- 1) -نهج البلاغه،خطبه 110،133 و کلمات قصار 388.

٢- ٢) -المصدر السابق.

٣- ٣) -المصدر السابق.

حیاؤه،و من قلّ حیاؤه قلّ ورعه،و من قلّ ورعه مات قلبه» (۱) .

و من جهه اخری فإنّ القرآن الکریم یشخّص للإنسان نوعا خاصّا من الإبصار و السماع و الإدراک و الشعور،غیر النظر و السماع و الشعور الظاهری،ففی الآیه (۱۷۱)من سوره البقره نقرأ: صُمٌّ بُکْمٌ عُمْیٌ فَهُمْ لاٰ یَعْقِلُونَ .

و فی موضع آخر یقول تعالی: فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزٰادَهُمُ اللّٰهُ مَرَضاً . (۲)

کذلک یقول سبحانه: ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُکُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِکَ فَهِیَ کَالْحِجٰارَهِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَهً . (۳)

و حول مجموعه من الکافرین یعبّر تعبیرا خاصا فیقول تعالی: أُولٰئِکَ الَّذِینَ لَمْ یُرِدِ اللّٰهُ أَنْ یُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ . (۴)

و فی موضع أخر یقول تعالی: إِنَّمٰا یَسْتَجِیبُ الَّذِینَ یَسْمَعُونَ وَ الْمَوْتیٰ یَبْعَثُهُمُ اللّٰهُ ثُمَّ إِلَیْهِ یُرْجَعُونَ . (۵)

من مجموع هذه التعبیرات و تعبیرات کثیره اخری شبیهه لها یظهر بوضوح أنّ القرآن یعدّ محور الحیاه و الموت،هو ذلک المحور الإنسانی و العقلانی،إذ أنّ قیمه الإنسان تکمن فی هذا المحور.

و فی الحقیقه فإنّ الحیاه و الإدراک و الإبصار و السماع و أمثالها،تتلخّص فی هذا القسم من وجود الإنسان،و إن اعتبر بعض المفسّرین هذه التعبیرات مجازیه، إذ أنّ ذلک لا ینسجم مع روح القرآن هنا،لأنّ الحقیقه فی نظر القرآن هی هذه التی یذکرها،و الحیاه و الموت الحیوانیان هما المجازیان لا غیر.

إنّ أسباب الموت و الحیاه الروحیه کثیره جدّا،و لکن القدر المسلّم به هو أنّ النفاق و الکبر و الغرور و العصبیه و الجهل و الکبائر،کلّها تمیت القلب،ففی مناجاه

۱- ۱) -نهج البلاغه،الکلمات القصار کلمه ۳۴۵.

۲- ۲) -البقره-۱۰.

۳- ۳) -البقره،۷۴.

۴- ۴) -المائده،۴۱.

۵- ۵) -الأنعام،۳۶.

التائبين التی تروی

عن الإمام السجّاد علیه السّلام فی الصحیفه السجادیه ورد «و أمات قلبی عظیم جنایتی».

و الآیات مورد البحث تأکید علی هذه الحقیقه.

فهـل أنّ من یرضـی من حیاته فقط بأن یعیش غیر عالم بشـیء فی هـذه الـدنیا، و یجری دائما مـدار العیش الرغیـد الرتیب،لا یعبأ بظلامه المظلوم،و لا یلبّی نـداء الحقّ، یفکّر فی نفسه فقـط،و یعتبر نفسه غریبـا حتّی عن أقرب الأقرباء،هل یعتبر مثل هـذا إنسانا حیّا؟ و هل هی حیاه تلک التی تکون حصـیلتها کمیّه من الغذاء المصروف،و إبلاء بعض الألبسه،و النوم و الاستیقاظ المکرور؟و إذا کانت تلک هی الحیاه فما هو فرقها عن حیاه الحیوان؟ إذا یجب أن نقرّ و نعترف بأنّ وراء هـذه الحیاه الظاهریه یکمن عقل و حقیقه أکّد علیها القرآن و تحدّث عنها.

الجمیل أنّ القرآن یعتبر الموتی الذین کان لموتهم آثار الحیاه الإنسانیه أحیاء،و لکن الأحیاء الذین لیس فیهم أی من آثار الحیاه الإنسانیه فانّهم فی منطق القرآن الکریم أموات أذلّاء.

***

الآیات [سوره یس (۳۶): الآیات ۷۱ الی ۷۶]

اشاره

أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنّٰا خَلَقْنٰا لَهُمْ مِمّٰا عَمِلَتْ أَیْدِینٰا أَنْعٰاماً فَهُمْ لَهٰا مٰالِکُونَ (۷۱) وَ ذَلَّلْنٰاهٰا لَهُمْ فَمِنْهٰا رَکُوبُهُمْ وَ مِنْهٰا یَأْکُلُونَ (۷۲) وَ لَهُمْ فِیهٰا مَنٰافِعُ وَ مَشٰارِبُ أَ فَلاٰ یَشْکُرُونَ (۷۳) وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ آلِهَهً لَعَلَّهُمْ یُنْصَرُونَ (۷۴) لاٰ یَسْتَطِیعُونَ نَصْرَهُمْ وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (۷۵) فَلاٰ یَحْزُنْکَ قَوْلُهُمْ إِنّٰا نَعْلَمُ مٰا یُسِرُّونَ وَ مٰا یُعْلِنُونَ (۷۶)

التّفسیر

اشاره

فوائد الأنعام للإنسان!!

یعود القرآن الکریم مرّه اخری فی هـذه الآیات إلی مسأله التوحیـد و الشـرک، و یشـیر-ضـمن تعداد قسم من آثار عظمه اللّه فی حیاه البشر،و حلّ مشکلاتهم و رفع حاجاتهم-إلی ضعف و عجز الأصنام،و بمقارنه واضحه یشطب علی الشرک و یثبت بطلانه،و فی نفس الوقت یثبت حقّانیه خطّ التوحید.

تقول الآیه الکریمه الاولی: أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنّٰا خَلَقْنٰا لَهُمْ مِمّٰا عَمِلَتْ أَیْدِینٰا أَنْعٰاماً فَهُمْ

لَهٰا مٰالِكُونَ

(۱)

.

و لكى يستفيدوا بشكل جيّد من هذه الحيوانات: وَ ذَلَّلْنٰاهٰا لَهُمْ فَمِنْهٰا رَكُوبُهُمْ وَ مِنْهٰا يَأْكُلُونَ .

و لا تنتهى منافعها إلى هذا الحدّ،بل وَ لَهُمْ فِيهٰا مَنٰافِعُ وَ مَشٰارِبُ و عليه أَ فَلاٰ يَشْكُرُونَ الشكر الذى هو وسيله معرفه اللّه و تشخيص ولىّ النعمه.

هنا يجب الالتفات إلى بعض الأمور:

۱-من بين النعم المختلفه التى تغمر الإنسان،أشارت الآيه إلى نعمه وجود الأنعام،لأنّها تشكّل حضورا دائما فى حياه الإنسان اليوميه،إلى حدّ أنّ حياه الإنسان اقترنت بها،بحيث لو أنّها حذفت من صفحه حياه الإنسان فإنّ ذلك سيشكّل عقده و مشكله بالنسبه إلى معيشته و أعماله،غير أنّ الإنسان لا يلتفت إلى أهمّيتها لأنّه تعوّد رؤيتها يوميا.

۲-جمله عَمِلَتْ أَيْدِينٰا كنايه عن إعمال القدره الإلهيّه بشكل مباشر،إذ أنّ أهمّ الأعضاء التى يمارس بها الإنسان قدرته و يعبّر عنها هى يداه،لهذا السبب كانت«اليد»كنايه عن القدره،كأن يقول أحدهم:«إنّ المنطقه الفلانيه فى يدى» كنايه عن أنّها تحت سيطرته و نفوذه،و يقول القرآن فى هذا الصدد يَدُ اللّٰهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ . (۲)

و ذكر«الأيدى»هنا بصيغه الجمع إشاره إلى مظاهر متنوّعه لقدره البارى عزّ و جلّ.

۳-جمله فَهُمْ لَهٰا مٰالِكُونَ المبتدأ بفاء التفريع،إشاره إلى أنّ الخلق مرتبط بقدرتنا،و أمّا المالكيه فقد فوّضناها إلى الإنسان،و ذلك منتهى اللطف الإلهى،

---

۱ - ۱) -جمله«أو لم يروا...»جمله معطوفه على سابقتها بواو العطف،و لكن حين دخول الهمزه الاستفهاميه على الجمله فإنّها تتصدّرها،(و الرؤيه)هنا بمعنى المعرفه،أو الإبصار.

۲- ۲) -الفتح،۱۰.

و علیه فلا محلّ للإشکال الذی ظهر لبعض المفسّرین نتیجه وجود«فاء التفریع»، فالمعنی تماما کما نقول لشخص:هذا البستان زرعناه و أعمرناه،استفد منه أنت، و هذا منتهی إظهار المحبّه و الإیثار.

۴-جمله وَ ذَلَّلْنٰاهٰا لَهُمْ إشاره إلی مسأله فی غایه الأهمیه،و هی تذلیل هذه الحیوانات للإنسان.فتلک الحیوانات القویه و التی تنسی فی بعض الأحیان ذلک التذلیل الإلهی،و تثور و تغضب و تعاند فتصبح خطره إلی درجه أنّ عشرات الأشخاص لا یمکنهم الوقوف أمامها.و فی حالاتها الاعتیادیه فإنّ قافله کامله من الجمال یقودها تاره صبی لم یبلغ الحلم،و یدفعها فی الطریق الذی یرتئیه! إنّه لأمر عجیب حقّا،فإنّ الإنسان غیر قادر علی خلق ذبابه،و لا حتّی ترویضها و تذلیلها لخدمته،أمّا اللّه القادر المنّان فإنّه خلق ملایین الملایین من الحیوانات المختلفه،و ذلّلها للإنسان لتکون فی خدمته دوما.

۵-جمله فَمِنْهٰا رَکُوبُهُمْ وَ مِنْهٰا یَأْکُلُونَ -مع الالتفات إلی أنّ(رکوبهم)صفه مشبّهه بمعنی(مرکوبهم)-إشاره إلی أنّ الإنسان ینتخب قسما منها للرکوب و قسما آخر للتغذّی.و إن کان لحم أغلب الحیوانات المشهوره حلال بنظر الإسلام،إلاّ أنّ الإنسان استفاد عملیّا من بعضها فقط للتغذیه،فمثلا لحم الحمیر لا یستفاد منه إلاّ فی الضروره القصوی.

و من الواضح انّ ذلک إذا اعتبرنا«منها»فی کلا الجملتین«للتبعیض الإفرادی»،أمّا لو اعتبرنا الاولی«للتبعیض الافرادی»و الثانیه«للتبعیض الأجزائی»یکون معنی الآیه(بعض الحیوانات تنتخب للرکوب و ینتخب جزء من أجسامها للتغذیه(إذ أنّ العظام و أمثالها غیر قابله للأکل).

۶- لَهُمْ فِیهٰا مَنٰافِعُ إشاره إلی فوائد الحیوانات الکثیره الاخری التی تتحقّق للإنسان،و من جملتها الأصواف و الأوبار التی تصنع منها مختلف الملابس و الخیم و الفرش، و الجلود التی تصنع منها الحقائب و الملابس و الأحذیه و وسائل اخری

مختلفه،و حتّی فی عصرنا الحاضر الذی تمیّزت فیه الصناعات التقلیدیه من منتجات الطبیعه لا زال الإنسان فی مسیس الحاجه إلی الحیوانات من حیث التغذیه و من حیث الفوائد الاخری کالألبسه و وسائل الحیاه الاخری.و حتّی بعض أنواع الأمصال و اللقاحات ضدّ الأمراض التی یستفاد فیها من دماء بعض الحیوانات،بل حتّی أنّ أتفه الأشیاء الحیوانیه و هی روثها أصبح و منذ وقت طویل مورد استفاده الإنسان لتسمید المزارع و تغذیه النباتات المثمره.

۷- مَشٰارِبُ إشاره إلی الحلیب الذی یؤخذ من تلک الدواب و یؤمّن مع منتجاته قسما مهمّا من المواد الغذائیه للإنسان،بشکل أضحّت فیه صناعه الحلیب و منتجاته تشکّل الیوم رقما مهمّا فی صادرات و واردات الکثیر من الدول،ذلک الحلیب الذی یشکّل غذاء للإنسان،و یخرج من بین دم و فرث لبنا سائغا یلتذّ به الشاربون،و یکون عاملا لتقویه الضعفاء.

۸-جمله أَ فَلاٰ یَشْکُرُونَ جاءت بصیغه الاستفهام الاستنکاری،و تهدف إلی تحریک الفطره و العواطف الإنسانیه لشکر هذه النعم التی لا تحصی،و التی ورد جانب منها فی الآیات أعلاه،و کما نعلم فإنّ«لزوم شکر المنعم»أساس لمعرفه اللّه،إذ أنّ الشکر لا یمکن أن یکون إلاّ بمعرفه المنعم،إضافه إلی أنّ التأمّل فی هذه النعم و إدراک أنّ الأصنام لیس لها أدنی تأثیر أو دخل فیها،سیؤدّی إلی إبطال الشرک.

لذا فإنّ الآیه التالیه،تنتقل إلی الحدیث عن المشرکین و وصف حالهم فتقول:

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ آلِهَهً لَعَلَّهُمْ یُنْصَرُونَ

.

فیا له من خیال باطل و فکر ضعیف؟ذلک الذی یعتقد بهذه الموجودات الضعیفه التافهه التی لا تملک لنفسها-ناهیک عن الآخرین-ضرّا و لا نفعا،و یجعلونها إلی جانب اللّه سبحانه و تعالی و یقرنونها به تعالی،و یلجأون إلیها لحلّ مشاکل حیاتهم؟ نعم،فهم یلجأون إلیها لتکون عزّا لهم: وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ آلِهَهً لِیَکُونُوا لَهُمْ

عِزًّا . (۱)

و يتوهّمون أنّها تشفع لهم عند اللّه وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مٰا لاٰ يَضُرُّهُمْ وَ لاٰ يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هٰؤُلاٰءِ شُفَعٰاؤُنٰا عِنْدَ اللّٰهِ .

على كلّ حال،فإنّ جميع هذه الأوهام نقش على الماء،و كما يقول القرآن الكريم فى الآيه(۱۹۲)من سوره الأعراف: وَ لاٰ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَ لاٰ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ .

و عليه تضيف الآيه التاليه:إنّ المعبودات لا تستطيع نصره المشركين،و سيكون هؤلاء المشركون جنودا مجنّده يتقدّمونها إلى جهنّم: لاٰ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ .

و يا له من أمر أليم أن يصطف هؤلاء المشركون بصفوف تتقدّمها تلك الأصنام ليدخلوا جهنّم زمرا فى ذلك اليوم العظيم،دون أن يستطيعوا حلّ عقده مشكله واحده من مشكلات هؤلاء المشركين فى ذلك الموقف الرهيب.

التعبير ب مُحْضَرُونَ يكون عاده للتحقير،لأنّ إحضار الأفراد دون أن يكون لموافقتهم أو عدمها أثر إنّما يدلّل على حقارتهم،و بناء على هذا التّفسير فإنّ الضمير الأوّل«هم»فى جمله وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ يعود على«المشركين»، و الضمير الثانى يعود على«الأصنام»،فى حال أنّ بعض المفسّرين احتملوا العكس بحيث تكون الأصنام و الأوثان هى التابعه للمشركين فى يوم القيامه.و فى نفس الوقت فإنّهم-المشركين-ليس لهم فى الأوثان أدنى أمل،و الظاهر أنّ التّفسير الأوّل أنسب.

و على كلّ حال،فإنّ هذه التعابير تصدق-فقط-على المعبودات الحيّه ذات الشعور كالشياطين و العصاه من الجنّ و الإنس،و لكن يحتمل أيضا أنّ اللّه سبحانه و تعالى يبعث الروح فى تلك الأصنام و الأوثان و يعطيها العقل و الشعور لكى توبّخ

۱- ۱) -مريم،۸۱.

هی أولئک الـذین عبـدوها فی الـدنیا،و ضـمنا نقول إنّ هـذه الأوثان الحجریه و الخشبیه سـتکون هی الحطب الـذی یؤجّج علی أولئک المشرکین نار جهنّم إِنَّکُمْ وَ مٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهٰا وٰارِدُونَ . (۱)

أخیرا-و فی آخر آیه من هذه الآیات،و لمواساه الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و تثبیت فؤاده إزاء مکر المشرکین،و الفتن و الأعمال الخرافیه-تقول الآیه الکریمه:

فَلاٰ یَحْزُنْکَ قَوْلُهُمْ

تاره یقولون شاعر،و اخری ساحر و أمثال ذلک من التهم إِنّٰا نَعْلَمُ مٰا یُسِرُّونَ وَ مٰا یُعْلِنُونَ .

فلا تخفی علینا نوایاهم،و لا مؤامراتهم فی الخفاء،و لا جحودهم و تکذیبهم لآیاتنا فی العلن،نعلم بکلّ ذلک،و نحفظ لهم جزاءهم إلی یوم الحساب،و ستکون أنت أیضا فی أمان من شرّهم فی هذه الدنیا.

و بهذا الحدیث الإلهی المواسی یمکن لکلّ مؤمن أیضا-مضافا إلی الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم-أن یکون مطمئن القلب بأنّ کلّ شیء فی هذا العالم هو بعین اللّه، و سوف لن یصیبه شیء من مکائد الأعداء،فهو تعالی لا یترک عباده المخلصین فی اللحظات و المواقف العصیبه،و هو دوما حام لهم و حافظ.

***

بحث

الثقافه التوحیدیه تمنح عباد اللّه المؤمنین طریقه خاصّه فی الحیاه،تبعدهم عن السبل الملوثه بالشرک القائمه علی أساس عباده الأوثان،أو اللجوء إلی بعض البشر الضعاف.

و بصراحه و وضوح أکثر نقول:فی عالمنا الیوم و حیث تتحکّم فی البشریه قدرتان من الشرق و الغرب،فإنّ الدول الصغیره-عاده-و کلّ ما عدا تلکم

۱- ۱) -الأنبیاء،۹۸.

القـدرتين سـتفكّر لأجـل حفـظ نفسـها و البقـاء بالاتّكـاء على إحـدى تلـك القـدرتين الصـنمين،و تطلب حمايتهـا و الإفـاده من قدرتها،فى حال أنّ التجارب أثبتت أنّ هاتين القدرتين عند بروز المشاكل و الحوادث المستعصـيه و الاضـطرابات لا تستطيع حلّ مشكلاتها و لا مشكلات من يدور فى فلكها.

و ما أجمل ما يقوله القرآن واصـفا هذه الحاله: وَ لاٰ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَ لاٰ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ، و هذا تحذير لجميع المسلمين و سالكى طريق التوحيد الخالص،بأن يبتعدوا عن تلك الأصـنام،و يلجأوا إلى ظلّ اللطف الإلهى،و أن يعتمدوا على أنفسـهم،و على طـاقه الإيمـان،و أن لاـ يـدعوا طريقـا لهـذه الأفكـار الإشـراكيه الملـوّثه تصـل إلى فكرهم بحيث يلجـأون إلى تلـك القـدرات و يستنجدونها فى الملمّـات،و أن يطهّروا الثقـافه الإسـلاميه و المجتمعـات الإسـلاميه من هـذه الأفكـار،و أن يعلموا بـأنّهم قـد نالوا ضربات عديـده حتّى الآن نتيجه هـذا المنطق-سواء أمام إسـرائيل الغاصـبه أو الأعـداء الآخرين-فى حال أنّه لو كان هـذا الأصـل القرآنى الأصـيل يحكم فيهم فإنّ حالهم لم تكن لتبلغ هذا المسـتوى من الهزيمه و الانكسار،آملين أن نصل إلى اليوم الذى نعيد فيه بنـاء أفكارنا حسب المفاهيم و المبادئ القرآنيه،و أن نعتمـد على أنفسـنا،و نلجأ إلى ظلّ اللطف الإلهى فنعيش أعزّاء مرفوعى الرؤوس أحرارا إن شاء اللّه.

***

الآيات [سوره یس (۳۶): الآیات ۷۷ الی ۷۹]

اشاره

أَ وَ لَمْ یَرَ اَلْإِنْسٰانُ أَنّٰا خَلَقْنٰاهُ مِنْ نُطْفَهٍ فَإِذٰا هُوَ خَصِیمٌ مُبِینٌ (۷۷) وَ ضَرَبَ لَنٰا مَثَلاً وَ نَسِیَ خَلْقَهُ قٰالَ مَنْ یُحْیِ اَلْعِظٰامَ وَ هِیَ رَمِیمٌ (۷۸) قُلْ یُحْیِیهَا اَلَّذِی أَنْشَأَهٰا أَوَّلَ مَرَّهٍ وَ هُوَ بِکُلِّ خَلْقٍ عَلِیمٌ (۷۹)

سبب النّزول

نقلت أغلب التفاسیر

عن أبی عبد اللّه الصادق علیه السّلام أنّه قال: «جاء أبیّ بن خلف (أو العاص بن وائل)فأخذ عظما بالیا من حائط ففته ثمّ قال:إذا کنّا عظاما و رفاتا إنّا لمبعوثون خلقا؟»فأنزل اللّه: قٰالَ مَنْ یُحْیِ الْعِظٰامَ وَ هِیَ رَمِیمٌ قُلْ یُحْیِیهَا الَّذِی أَنْشَأَهٰا أَوَّلَ مَرَّهٍ وَ هُوَ بِکُلِّ خَلْقٍ عَلِیمٌ .

التّفسیر

قلنا أنّ البحوث المختلفه حول المبدأ و المعاد و النبوّه فی سوره(یس)التی هی قلب القرآن وردت بشکل مقاطع مختلفه،فهذه السوره ابتدأت بمسأله النبوّه، و اختتمت بسبعه آیات تمثّل أقوی البیانات حول المعاد.

ص :۲۴۱

فی البـدء تأخـذ بیـد الإنسـان و تشـیر لـه إلی بـدء حیـاته فی ذلـک الیـوم حیـث کـان نطفه مهینه لا غیر و تـدعوه إلی التأمّـل و التفکّر،فتقول: أَ وَ لَمْ یَرَ الْإِنْسانُ أَنّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَهٍ فَإِذا هُوَ خَصِیمٌ مُبِینٌ (۱) .یا له من تعبیر حیوی؟فالآیه تؤکّد أوّلا علی مخاطبه الإنسان،أیّا کان و أیّ إعتقاد کان یعتقد،و علی أیّ مستوی کان من العلم، فهو یستطیع إدراک هذه الحقیقه.

ثمّ تتحـدّث عن«النطفه»و التی هی لغویـا بمعنی«الماء المهین»لکی یعلم هـذا الإنسان المغرور المتکبر-بقلیل من التأمّل- ماذا کان فی البـدء؟کمـا أنّ هـذا المـاء المهین لم یکن هـو السـبب فی نشـوئه و ظهـوره،بـل خلیّه حیّه متنـاهیه فی الصـغر، لا تری بـالعین المجرّده،من ضـمن آلاف بل ملایین الخلایا الاخری التی کانت تسـبح فی ذلک الماء المهین،و باتّحادها مع خلیه صـغیره اخری مسـتقرّه فی رحم المرأه تکوّنت الخلیّه البشـریه الاولی،و دخـل الإنسـان إلی عـالم الوجود! و تتواصـل مراحـل التکامـل الجنینی الواحـده بعـد الأخری و الـتی هی ستّه مراحـل کمـا نقلهـا القرآن الکریـم فی بـدایه سـوره«المؤمنـون»(النطفـه،العلقـه،المضـغه، العظام،اکتساء العظام باللحم،و تمثّل الخلق السوی).ثمّ إنّ الإنسان بعد الولاده کائن ضـعیف جدّا،لا یملک القدره علی شـیء،ثمّ یقطع مراحل نموّه بسرعه حتّی بلوغ الرشد الجسمانی و العقلی.

نعم،فهـذا الموجود الضـعیف العـاجز،یصـبح قویّا إلی درجه أن یجیز لنفسه النهوض لمحاربه الـدعوات الإلهیّه،و ینسـی ماضـیه و مسـتقبله،لیکون مصـداقا حیّا لقوله تعالی: فَإِذا هُوَ خَصِیمٌ مُبِینٌ .و اللطیف أنّ هـذا التعبیر یتضـمّن جنبتین، إحـداهما تمثّل جانب القوّه،و الاخری جانب الضعف،و یظهر أنّ القرآن الکریم أشار إلیهما جمیعا.

إنّ هذا العمل لا یکون إلّا من إنسان یملک عقلا و فکرا و شعورا و استقلالا

۱- ۱) -«خصیم»بمعنی المصرّ علی الخصومه و الجدال،و(الرؤیه)بمعنی(العلم).

و إراده،و نعلم بأنّ أهمّ مسأله فی حیاه الإنسان هی التکلّم و الحدیث الذی یهیّأ محتواه مسبقا فی الذهن،ثمّ یصبّ فی قالب من العبارات و یطلق باتّجاه الهدف کالرصاص المنطلق من فوهه البندقیه،و هذا العمل لا یمکن حدوثه فی أی کائن حی عدا الإنسان.

و بذلک فإنّ اللّه سبحانه و تعالی یجسّد قدرته فی إعطاء هذا الماء المهین هذه القوّه العظیمه..هذا من جانب.

و من جانب آخر فإنّ الإنسان مخلوق مغرور و کثیر النسیان،فهو یستغلّ کلّ هذه النعم التی أولاها إیّاه ولی نعمته ضدّه فی المجادله و المخاصمه،فیا له من مغفّل أحمق!! و یکفی لمعرفه مدی غفلته و حمقه أنّه جاء: وَ ضَرَبَ لَنٰا مَثَلاً وَ نَسِیَ خَلْقَهُ قٰالَ مَنْ یُحْیِ الْعِظٰامَ وَ هِیَ رَمِیمٌ (1) .

المقصود من ضرب المثل هنا،نفس المعنی بدون التشبیه و الکنایه.فالمقصود هو الاستدلال و ذکر مصداق لإثبات مطلب معیّن.نعم فإنّ(أبیّ بن خلف أو امیّه بن خلف.أو العاص بن وائل)کان قد وجد قطعه متفسّخه من عظم لم یکن معلوما لمن؟و هل مات موتا طبیعیا؟أو فی واحده من حروب العصر الجاهلی المهوله؟ أو مات جوعا؟و ظنّ أنّه وجد فیه دلیلا قویّا لنفی المعاد!فحمل تلک القطعه من العظم و ذهب حانقا و فرحا فی نفس الوقت و هو یقول:لأخصمن محمّدا.

فذهب إلی الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هو فی عجله من أمره لیقول له:قل لی من ذا الذی یستطیع أن یلبس هذا العظم البالی لباس الحیاه من جدید؟و فتّ بیده قسما من العظم و ذرّه علی الأرض،و اعتقد بأنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم سیتحیّر فی الجواب و لا یملک ردّا!!

---

۱ - ۱) -«رمیم»من مادّه(رم)و هو إصلاح الشیء البالی،و«الرّمّه»تختص بالعظم البالی،و«الرّمّه»تختص بالحبل البالی،(مفردات الراغب مادّه(رم)صفحه ۲۰۳).

و الجميل أنّ القرآن الكريم أجابه بجمله وجيزه مقتضبه و هی قوله تعالی:

وَ نَسِيَ خَلْقَهُ

.و إن كان قد أردف مضيفا توضيحا أكثر.

فكأنّه يقول:لو لم تنس بدء خلقك لما استدللت بهذا الاستدلال الواهی الفارغ أبدا.

أيّها الإنسان الكثير النسيان،عد قليلا-إلی الوراء و انظر فی خلقك،كيف كنت نطفه تافهه و كلّ يوم أنت فی لبس جديد من مراحل الحياه،فأنت فی حال موت و بعث مستمرين،فمن جماد أصبحت رجلا بالغا،و بكميّه من عالم النبات الجامد، و من عالم الحيوان الميّت أيضا أصبحت إنسانا،و لكنّك نسيت كلّ ذلك و صرت تسأل:من يحيی العظام و هی رميم؟ألم تكن أنت فی البدء ترابا كما هو حال هذه العظام بعد تفسّخها؟! لذا فإنّ اللّه سبحانه و تعالی يأمر الرّسول صلّی اللّه عليه و آله و سلّم بأن يقول لهذا المغرور الأحمق الناسی قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ .

فإذا كان بين يديك اليوم بقيّه من العظام المتفسّخه تذكّرك به،فقد مرّ يوم لم تكن فيه شيئا و لا حتّی ترابا،نعم،أ فليس سهلا علی من خلقك من العدم أن يعيد الحياه إلی العظام المهترئه؟! و إذا كنت تعتقد بأنّ هذه العظام بعد تفسّخها تصبح ترابا و تنتشر فی الأصقاع، فمن يستطيع عند ذلك أن يجمع تلك الأجزاء المبعثره من نقاط انتشارها؟ فإنّ الجواب علی ذلك أيضا واضح: وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ .

فمن كان له مثل هذا(العلم)و هذه(القدره)فإنّ مسأله المعاد و إحياء الموتی لا تشكّل بالنسبه إليه أيّه مشكله.فنحن نستطيع بقطعه من«المغناطيس»جمع براده الحديد المبثوثه فی كميّه من التراب و فی لحظات،و اللّه العالم القادر يستطيع كذلك بأمر واحد أن يجمع ذرّات بدن الإنسان من كلّ موضع كانت فيه من الكره الأرضيه.فهو العالم ليس بخلق الإنسان فقط،بل هو العالم بنواياه و أعماله أيضا،

المحيط بكلّ شیء علما و هو علی کلّ شیء قدیر و علیه فإنّ الحساب علی الأعمال و النوایا و الإعتقادات المضمره لا یشکلّ له.

و علیه فإنّ الحساب علی الأعمال و النوایا و الإعتقادات المضمره لا یشکّل له تعالی أدنی مشکله أیضا،فکما ورد فی الآیه(۲۸۴)من سوره البقره: وَ إِنْ تُبْدُوا مٰا فِی أَنْفُسِکُمْ أَوْ تُخْفُوهُ یُحٰاسِبْکُمْ بِهِ اللّٰهُ .

و کذلک حینما أظهر فرعون شکّا فی قدره اللّه علی المعاد و إحیاء القرون السابقه،أجابه موسی علیه السّلام: قٰالَ عِلْمُهٰا عِنْدَ رَبِّی فِی کِتٰابٍ لاٰ یَضِلُّ رَبِّی وَ لاٰ یَنْسیٰ . (۱) ***

۱- ۱) -طه،۵۵.

الآیه [سوره یس (۳۶): آیه ۸۰]

اشاره

اَلَّذِی جَعَلَ لَکُمْ مِنَ اَلشَّجَرِ اَلْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (۸۰)

التّفسیر

تتابع هذه الآیه البحوث المختلفه حول المعاد و الإشارات العمیقه المعنی حول مسأله إمکان المعاد و رفع أی استبعاد لذلک،و الآیه أعلاه شرح أوسع و أوضح حول هذه المسأله،تقول: اَلَّذِی جَعَلَ لَکُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ و یا له من تعبیر رائع ذلک الذی کلّما دقّقنا فیه أفاض علینا معانی أعمق و أدقّ؟! و کما نعلم فإنّ الآیات القرآنیه لها معان متعدّده من أبعاد مختلفه-فبعض معانیها واضح للغالبیه من الناس فی کلّ زمان و مکان،و بعضها عمیق یختصّ بفهمه البعض،و أخیرا فإنّ بعضها الآخر یتمثّل فیه العمق الذی لا یستطیع سبر غوره إلاّ الخواص من العبّاد،و فی نفس الوقت فإنّ تلک المعانی لا تنافی بعضها البعض،بل إنّها تجمع کلّها فی قالب واحد و فی آن واحد. و الآیه مورد البحث هکذا تماما.

التّفسیر الأوّل الذی قال به الکثیر من المفسّرین القدماء.و هو بسیط و واضح

ص :۲۴۶

يمكن فهمه و استيعابه من قبل الغالبيه و هو:أنّ المراد هو شجر«المرخ و العفار» الذى كان العرب قديما يأخذون منهما على خضرتهما،فيجعل العفار زندا أسفل و يجعل المرخ زندا أعلى،فيسحق الأعلى على الأسفل فتنقدح النار بإذن اللّه.

و فى الواقع فهو يمثّل الكبريت فى عصرنا الحالى.و اللّه سبحانه و تعالى يريد القول بأنّ الذى يستطيع إشعال النار من هذا الشجر الأخضر له القدره على إلباس الموتى لباس الحياه.

فالماء و النار شيئان متضادّان،فمن يستطيع جعلهما معا فى مكان واحد،قادر على جعل الحياه و الموت معا فى مكان واحد.فالذى يخلق(النار)فى قلب (الماء)و(الماء)فى قلب(النار)فمن المسلّم أنّ إحياء بدن الإنسان الميّت لا يشكّل بالنسبه له أدنى صعوبه.

و إذا خطونا خطوه أبعد من هذا التّفسير فسوف نصل إلى تفسير أدقّ و هو:أنّ خاصيّه توليد النار بواسطه خشب الأشجار،لا تنحصر بخشب شجرتى«المرخ و العفار»بل إنّ هذه الخاصيه موجوده فى جميع الأشجار و جميع الأجسام الموجوده فى هذا العالم و إن كان لشجرتى المرخ و العفار-لتوفّر خصائص فيها- استعداد أكثر من غيرهما على هذا الأمر.

خلاصه القول،إنّ جميع خشب الأشجار إذا حكّ ببعضه بشكل متواصل فإنّه سيطلق شرر النار و حتّى(خشب الشجر الأخضر).

لهذا السبب تقع فى بعض الأحيان حرائق هائله فى بعض الغابات المليئه بالأشجار،لا يعرف لها سبب من قبل الإنسان،إلاّ أنّ هبوب الريح الشديده التى تضرب أغصان الأشجار ببعضها بشدّه ممّا يؤدّى إلى انقداح شرر منها يؤدّى إلى اشتعال النار فيها،و تساعد الريح الشديده على سرعه انتشارها،فالعامل الأصلى كان تلك الشراره الناتجه عن الاحتكاك.

هذا التّفسير الأوسع،هو الذى يوضّح عمليه جمع الأضداد فى الخلق.و يبسط

مفهوم وجود(البقاء)فی(الفناء)و بالعکس.

لکن ثمّه تفسیر ثالث یعتبر أعمق بکثیر من التّفسیرین السابقین.و الذی ظهر إلی الواقع نتیجه جهود العلماء فی عصرنا الحاضر و قد اخترنا أن نطلق علیه تسمیه «انبعاث الطاقه».

و توضیح ذلک کما یلی:إنّ من أهمّ الوظائف التی تقوم بها النباتات هی عملیه «الترکیب الضوئی»و التی تعتمد أساسا علی أخذ غاز«ثانی اوکسید الکربون»من الهواء،و الإفاده منه بواسطه«المادّه الخضراء»أو ما یسمّی«بالکلورفیل»لصنع الغذاء بمساعده الماء و ضوء الشمس.ذلک الغذاء الذی یؤدّی إلی تکوّن حلقات السلیلوز فی النباتات من ذوات الفلقتین،و یکون ناتج عملیه الترکیب الضوئی الأوکسجین الذی یطلق فی الهواء مرّه اخری.

و لو نظرنا إلی العملیه بطریقه اخری فإنّ النباتات تأخذ الغاز(ثانی أوکسید الکاربون)و تجزّئه أثناء عملها لتحتفظ بالکاربون مرکّبا مع غیره من الماء لتکوّن الخشب و تطلق الأوکسجین.

و المهمّ هنا أنّ العلماء یقولون:بأن أیّه عملیه ترکیب کیمیاوی تحتاج إلی طاقه ما لکی یتمّ ذلک التفاعل الکیمیاوی،أو أنّ ذلک التفاعل یؤدّی إلی إطلاق طاقه کناتج عنه.و بناء علیه فإنّ التفاعل الذی یتمّ نتیجه الترکیب الضوئی إنّما یستفید من الشمس کمصدر للطاقه لإتمام التفاعل.

و علیه فالشجره إنّما تقوم بادّخار هذه الطاقه فی الخشب الذی یتکوّن نتیجه لهذه العملیه.و عند ما نقوم نحن بحرق هذا الخشب فإنّنا إنّما نقوم بإطلاق عقال هذه الطاقه المدّخره.و بذا فإنّنا نقوم بإعاده ترکیب(الکاربون)مع(الأوکسجین) لینتج(ثانی أوکسید الکاربون)الذی ینطلق فی الهواء مرّه اخری،بالإضافه إلی بخار الماء.

و لو تحدّثنا بلغه اخری لقلنا:إنّ تلک الحراره الناجمه عن اشتعال الحطب فی

المواقد البیتیه القرویه أو مواقد الفحم التی نستعملها فی بیوتنا أحیانا للتدفئه فی فصل الشتاء،هی فی الحقیقه حراره و نور الشمس التی ادّخرت فی خشب هذه الأشجار لسنوات،و ما جمعته الشجره علی مدی عمرها من الشمس تعیده دفعه واحده بدون نقص.

و یقال إنّ کلّ الطاقات فی الکره الأرضیه تعود إلی الشمس أساسا،و واحد من مظاهره ما ذکرنا.

و هنا و حیث بلغنا«انبعاث الطاقات»نلاحظ أنّ النور و الحراره المبعثره فی الجو و التی تقوم الأشجار بجمعها فی أخشابها لتنمو فإنّها لا تفنی أبدا.بل إنّها تتبدّل شکلا.و تختفی بعیدا عن أعیننا فی کلّ ذرّه من ذرّات الخشب،و عند ما نقوم بإیقاد النار بقطعه من الحطب،فإنّ انبعاثها یبدأ،و جمیع ما کان فی ذرّات الخشب من النور و الحراره و طاقه الشمس،فی تلک اللحظه-لحظه الحشر و النشر-تظهر من جدید.بدون أن ینقص منه حتّی بمقدار إضاءه شمعه واحده (تأمّل بدقّه).

لا شکّ أنّ هذا المعنی کان خافیا علی عوام الناس حین نزول الآیه،و لکن- کما قلنا-فإنّ هذا الموضوع لا یشکّل أدنی مشکله،لأنّ آیات القرآن لها معان متعدّده و علی مستویات مختلفه،لاستعدادات متفاوته،ففی یوم یفهم من الآیه معنی،و الیوم یفهم منها معنی أوسع،و یمکن أنّ الأجیال القادمه تفهم منها معنی أوسع و أعمق،و فی نفس الوقت فکلّ هذه المعانی صحیحه و مقبوله بشکل کامل و مجموعه کلّها فی معنی الآیه.

***

مسألتان

اشاره

۱-شجر أخضر..لماذا؟

یرد علی الذهن أنّه لماذا عبّر القرآن هنا بالشجر الأخضر؟فی حین أنّ تولید

النـار من الخشب الطرى و الرطب يتمّ بصـعوبه بـالغه،فكم كـان جميلا لو عبّر عوضا عن ذلك«بالشـجر اليابس»،لكى ينسـجم مع المعنى تمامـا!!؟ النكته هنـا هـو أنّ الشـجر الأخضـر الحى فقـط يسـتطيع القيـام بعمليه الـتركيب الضوئى،و ادّخـار نور الشـمس و حرارتها،و أمّا الجذوع اليابسه للشجر لو بقيت مئات السنين متعرّضه للشمس فإنّها لن تستطيع زياده الذخيره الموجوده فيها.

و بنـاء عليه فـإنّ(الشـجر الأخضـر)فقـط يسـتطيع أن يصـنع وقودا لنـا،و يمكنه الاحتفاظ و ادّخار الحراره و النور و زيادتها بصوره محوّره،و لكنّها بمحض جفافها،فإنّ عمليه التركيب الضوئى تتوقّف،و تتعطّل معها عمليه ادّخار الطاقه الشمسيه.

و بناء على هذا فإنّ التعبير أعلاه،يعتبر تجسيدا جميلا لعمليه«انبعاث الطاقات» و معجزه علميه خالده للقرآن الكريم!..

فضـلا عن أنّنا إذا رجعنا إلى التّفسيرات الاخرى التى أشرنا إليها سابقا،يبقى أيضا التعبير ب«الشجر الأخضر»جميلا و مناسبا،إذ أنّ الأشـجار الخضـراء عند احتكاكها ببعضـها البعض تولّد شـراره تستطيع أن تكون مبعث نار كبيره،و هنا نقف إزاء عظمه قدره اللّه فى حفظه النار فى قلب الماء،و الماء فى قلب النار (۱) .

۲-الفرق بين الوقود و الوقود:

«توقـدون»من«وقود»-على زنه قبور-بمعنى اشـتعال النـار-و«الإيقـاد» بمعنى إشـعال النار،و«الوقود»-على زنه ثمود-بمعنى الحطب المعدّ للإحراق.

و عليه فـإنّ جمله فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ إشـاره إلى الحطب الـذى تشـتعل فيه النـار،لاـ ما تبـدأ به النار بالاشـتعال كالزناد أو عود الكبريت.

و بناء عليه فإنّ القرآن الكريم يقول:«إنّ اللّه سبحانه و تعالى جعل لكم من

۱- ۱) -إذا اعتبرنا«من»فى جمله«منه توقدون»بمعنى«به»فإنّ ذلك يتساوق مع التّفسيرات الاخرى.

الشـجر الأخضـر حطبا توقدونه،و هو القادر على إعاده الموتى إلى الحياه»و هذا التعبير ينسجم تماما مع ما قلناه من«بعث الطاقات» «تأمّل بـدقّه»!! و على كلّ حال،فإنّ مسأله إشـعال النار فى خشب الأشـجار مع أنّها مسأله بسـيطه فى نظرنا،و لكن بقليل من الـدقّه نعلم أنّها من أعجب المسائل،لأنّ المواد التى يتشكّل منها خشب الأشجار فى أغلبها ماء و تراب،و كلاهما غير قابل للاشتعال،فما هى تلـك القـدره التى خلقت من الماء و التراب و الهواء-و هى مواد- طاقه لا زالت حياه البشـر و منـذ آلاف السـنين مرتبطه بها بقوّه؟! ***

ص: ٢٥١

الآیات [سوره یس (۳۶): الآیات ۸۱ الی ۸۳]

اشاره

أَ وَ لَیْسَ اَلَّذِی خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ بِقٰادِرٍ عَلیٰ أَنْ یَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلیٰ وَ هُوَ اَلْخَلاّٰقُ اَلْعَلِیمُ (۸۱) إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (۸۲) فَسُبْحٰانَ اَلَّذِی بِیَدِهِ مَلَکُوتُ کُلِّ شَیْءٍ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (۸۳)

التّفسیر

اشاره

هو المالک و الحاکم علی کلّ شیء!!

بعـد ذکر دلائل المعاد و الفات الأنظار إلی الخلق الأوّل،و نشوء النار من الشـجر الأخضـر فی الآیات السابقه،تتابع الآیه الاولی هنا بحث ذلـک الموضوع من طریق ثـالث و هو قـدره اللّه اللامتنـاهیه،فتقول الآـیه الاـولی: أَ وَ لَیْسَ الَّذِی خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بِقٰادِرٍ عَلیٰ أَنْ یَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلیٰ وَ هُوَ الْخَلاّٰقُ الْعَلِیمُ .

الجمله الاـولی بشـروعها(بالاسـتفهام الإنکـاری)تطرح سؤالاـ علی الوجـدان الیقـظ و العقل السـلیم کالآتی:ألم تتطلّعوا إلی تلک السـماء المترامیه العظیمه بکـلّ ثوابتهـا و سیّاراتها العجیبه،و بکـلّ تلـک المنظومـات و المجرّات التی تشـکّل کلّ زاویه منها دنیا واسعه هائله؟فالذی هو قادر علی خلق کلّ هذه العوالم الخارقه

ص: ۲۵۲

فی العظمه و المتناهیه التنظیم و الدقّه فی قوانینها،کیف لا یکون قادرا علی إحیاء الموتی؟ و لکون الجواب علی هذا السؤال واضحا،و کامنا فی کلّ قلب و روح،فإنّ الآیه لا تنتظر الجواب،إنّما تردف مضیّفه«بلی»و تتابع مؤکّده علی صفتین للّه سبحانه و تعالی-الخالقیه و العلم المطلق-و ذلک فی حقیقته دلیل علی الکلام المتقدّم،فإذا کنتم تشکّون فی قدرته علی الخلق فهو«الخلاّق»(و هی صیغه مبالغه).

و إذا کان جمع هذه الذرّات یحتاج إلی علم أو معرفه فهو«العلیم»المطلق.

أمّا علی ماذا یعود الضمیر فی«مثلهم»فقد احتمل المفسّرون احتمالات عدیده،و لکن أشهرها هو القول بعوده الضمیر علی«البشر»و المعنی:إنّ خالق السماء و الأرض قادر علی خلق مثل البشر.

و هنا یأتی السؤال التالی و هو لماذا لم یقل:قادر علی أن یخلقهم من جدید،بل قال: بِقٰادِرٍ عَلیٰ أَنْ یَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ و للإجابه علی هذا السؤال ذکرت أجوبه کثیره،یبدو أقربها:أنّ بدن الإنسان عند ما یتحوّل-أو بالأحری یتحلّل-إلی تراب،فإنّه یفقد الصوره النهائیه التی کان علیها،و فی یوم القیامه عند ما یعاد خلق هذا الإنسان من جدید،فإنّه سیخلق من نفس المواد و لکن بصوره جدیده تشبه الصوره القدیمه،بلحاظ أنّ عوده نفس الصوره القدیمه-بالأخصّ إذا أخذنا فی الإعتبار قید الزمن-غیر ممکن، و خصوصا إذا علمنا-مثلا-أنّ الإنسان لا یحشر بجمیع المواصفات و الکیفیه التی کان علیها سابقا،فإنّ الشیبه و الشیوخ-مثلا-یحشرون شبّانا،و المعلولین یحشرون سالمین،و هکذا.

و بتعبیر آخر،فإنّ بدن الإنسان کالطابوق الطینی غیر المفخور-اللبن-الذی یمرّ علیه الزمان فیتهدّم و یصبح ترابا،ثمّ یجمع من جدید و تصنع منه خمیره الطین و یوضع فی قالب مرّه اخری و یصنع لبنا جدیدا مرّه اخری.فهذا«اللبن»هو من

جانب نفس«اللبن»القديم و من جانب آخر«مثله»«مادّته هى نفس المادّه و الصوره مثل الصوره السابقه»«دقّق النظر» (۱) .

الآيه اللاحقه تأكيد على ما ورد فى الآيات السابقه،و تأكيد على حقيقه أنّ أى خلق و إيجاد بالنسبه للّه سبحانه و تعالى و قدرته سهل و بسيط،و خلق السموات العظيمه و الكره الأرضيه يعادل فى سهولته إيجاد حشره صغيره،فكلاهما بالنسبه له تعالى أمر هيّن بسيط،يقول تعالى: إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ،فكلّ شىء مرتبط بأمره و إشارته فقط،و ذات بهذه القدره كيف يشكّ فى تمكّنها فى إحياء الموتى؟! و بديهى أنّ الأمر الإلهى هنا ليس أمرا لفظيا،كما أنّ جمله«كن»ليست جمله يبيّنها اللّه سبحانه و تعالى بصوره لفظ،لأنّه تعالى لا يحتاج إلى تلك الألفاظ،بل المقصود هو مجرّد إرادته لإيجاد و إبداع شىء،و إنّما استخدم التعبير ب«كن»لأنّه ليس هناك تعبير أقصر و أصغر و أسرع يمكن تصوّره فى التعبير عن تلك الحقيقه.

نعم فإرادته لإيجاد شىء و وجود هذا الشىء هى عمليه واحده.

و بتعبير آخر:فإنّ اللّه سبحانه و تعالى ما إن يرد شيئا إلاّ تحقّق فورا،و ليس بين إرادته و وجود ذلك الشىء أيّه فاصله،و عليه فإنّ«أمره»و«قوله»و جمله«كن» كلّها توضيح لمسأله الخلق و الإيجاد.و كما ذكرنا فإنّ الأمر ليس لفظيّا أو قوليا،بل كلّها توضيح للتحقّق السريع بوجود كلّ ما أراده سبحانه و تعالى.

و ببيان أوضح،انّ أفعال اللّه سبحانه و تعالى تمرّ بمرحلتين لا ثالث لهما،مرحله

---

۱ – ۱) -بعض المفسّرين أعادوا الضمير فى«مثلهم»على السموات و الأرض،و قالوا بأنّ استعمال ضمير الجمع العاقل لوجود الموجودات العاقله فى الأرض و السماء كثير. البعض الآخر استنتج من استخدام كلمه«مثلهم»عدم ضروره عوده عين الجسم بمواده التى كان يتشكّل منها فى الدنيا،لأنّ شخصيه الإنسان تتعلّق بروحه،و هذه الروح بأى مادّه تعلّقت تكون مثل الإنسان. و لكن يجب الالتفات إلى أنّ الكلام لا ينسجم مع ظاهر آيات القرآن الكريم-حتّى أنّه لا ينسجم مع ظاهر الآيات مورد البحث-لأنّ القرآن الكريم يقول بصراحه فى هذه الآيات:إنّه يخلق نفس تلك العظام المتفسّخه من جديد و يلبسها ثوب الحياه.«تأمّل!!».

الإراده و مرحله الإيجاد،و هى التى عبّرت عنه الآيه بشكل أمر فى جمله«كن».

بعض المفسّرين القدماء توهّموا أنّ المعنى يشير إلى وجود قول و لفظ فى عمليه الإيجاد و الخلق،و اعتبروا ذلك من أسرار الخلق غير المعروفه،و الظاهر أنّهم وقعوا فى عقده اللفظ،و بقوا بعيدين عن المعنى،و قاسوا أعمال اللّه على مقاييسهم البشريه.

و ما أجمل ما

قاله أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاه و السلام فى واحده من خطبه التى أوردت فى نهج البلاغه: «يقول لما أراد لما كونه كن فيكون (١) لا بصوت يقرع،و لا بنداء يسمع،و إنّما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه،و مثله لم يكن من قبل ذلك كائنا،و لو كان قديما لكان ثانيا» (٢) .

ناهيك عن أنّنا لو افترضنا وجود لفظ أو قول فى عمليه الخلق فسنواجه إشكالين أساسيين:

الأوّل:أنّ(اللفظ)بحدّ ذاته مخلوق من مخلوقات اللّه و لأجل إيجاده يحتاج سبحانه إلى«كن»اخرى،و نفس الكلام ينطبق على«كن»الثانيه بحيث نصبح فى عمليه تسلسل غير منتهيه.

الثانى:أنّ كلّ خطاب يحتاج إلى مخاطب،و فى الوقت الذى لم يوجد فيه شىء حينذاك فكيف يخاطبه اللّه سبحانه و تعالى بالقول«كن»،فهل أنّ المعدوم يمكن مخاطبته؟! و قد ورد فى آيات اخرى من القرآن الكريم نفس هذا المعنى بتعبيرات اخرى، كما فى الآيه(١١٧)من سوره البقره: وَ إِذٰا قَضىٰ أَمْراً فَإِنَّمٰا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، و كذا فى الآيه(۴٠)من سوره النحل: إِنَّمٰا قَوْلُنٰا لِشَيْءٍ إِذٰا أَرَدْنٰاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

١- ١) -ورد فى بعض النسخ«لمن أراد»و يبدو أن الأنسب هو النص الذى أوردناه«لما أراد».

٢- ٢) -نهج البلاغه،خطبه ١٨۶.

(۱)

.

الآیه الأخیره من هذه الآیات و هی فی ذات الوقت آخر آیه من سوره«یس» تنهی البحث فی مسأله المبدأ و المعاد بشکل جمیل و بطریقه الاستنتاج الکلّی فتقول: فَسُبْحٰانَ الَّذِی بِیَدِهِ مَلَکُوتُ کُلِّ شَیْءٍ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ .

و مع الأخذ بنظر الإعتبار أنّ«ملکوت»من أصل«ملک»-علی وزن حکم- بمعنی الحکومه و المالکیه،و إضافه(الواو)و(التاء)إلیها للتأکید و المبالغه،یتّضح أنّ معنی الآیه کما یلی:إنّ الحاکمیه و المالکیه المطلقه بدون أدنی قید أو شرط بید قدرته المطلقه،و کذلک فإنّ اللّه سبحانه منزّه و مبرّأ عن أی عجز أو نقص فی القدره،و بهذا الشکل فإنّ إحیاء الموتی و إلباس العظام المتفسّخه لباس الحیاه من جدید،کلّ ذلک لن یشکّل لدیه أیّه مشکله،و لذلک فاعلموا یقینا أنّکم إلیه ترجعون و أنّ المعاد حقّ.

***

بحوث

اشاره

لقد تقدّمت منّا الوعود بأن نتعرّض لبحث مرکز فی مسأله المعاد فی ختام سوره(یس)و ها نحن نفی بهذه الوعود و نشبع هذه المسأله بحثا من خلال ستّه مباحث لنعرضها للقرّاء الأعزّاء کما یلی:

۱-الإعتقاد بالمعاد أمر فطری:

إذا کان الإنسان قد خلق للفناء فیجب أن یکون عاشقا للفناء،و أن یلتذّ بنهایه عمره و بموته فی حین أنّنا نری أنّ الموت بمعنی الفناء لم یکن سارا للإنسان فی أی وقت،و هو یفرّ منه بکلّ وجوده.

۱- ۱) -هناک بحث آخر فی تفسیر جمله«کن فیکون»فی تفسیر الآیه(۱۱۷)من سوره البقره.

إنّ السعی لإبقاء أجسام الموتی عن طریق التحنیط،و بناء المقابر الخالده کأهرام مصر،و الجری وراء ما یسمّی بماء الحیاه و دواء الشباب و ما یطیل العمر، کلّ ذلک دلیل علی عشق الإنسان لمفهوم البقاء.

فإذا کنّا قد خلقنا للفناء فما معنی حبّ البقاء سوی أنّها علاقه شاغله بلا جدوی و لا فائده.

لا- تنسوا أنّنا نتابع البحث فی مسأله المعاد بعد الاتّفاق علی الإعتقاد بوجود اللّه الحکیم العالم،و نحن نعتقد بأنّ کلّ ما خلقه اللّه سبحانه و تعالی فی وجودنا إنّما هو وفقا لحساب و غرض،و بناء علیه فإنّ عشق البقاء لا بدّ أن یکون له حساب خاصّ،منسجم مع الخلق و العالم بعد الدنیا.

و بتعبیر آخر:فلو أنّ نظام الخلق أوجد فینا عطشا.فإنّ ذلک دلیل علی أنّ للماء وجودا فی العالم الخارجی،کذلک فإنّ وجود الغریزه الجنسیه و المیل إلی الجنس الآخر یدلّل علی وجود الجنس الآخر فی العالم الخارجی،و إلاّ فإنّ الانجذاب بدون أن یکون له مدلول و موضوع خارجی لا یتّفق مع حکمه الخلق.

و من جهه اخری فعند ما نبحث فی التأریخ البشری منذ أیّام نشأه ذلک التأریخ فإنّنا نجد دلائل کثیره علی الإعتقاد الراسخ لدی الإنسان بالحیاه بعد الموت.

فالآثار التی وصلت إلینا من البشر الغابرین-و حتّی إنسان ما قبل التأریخ- و بالأخصّ طریقه دفن الموتی،و کیفیه بناء القبور،و حتّی دفن الأشیاء المختلفه مع الموتی،کلّها دلیل علی ما ترسّخ فی وجدانهم من الإعتقاد بالحیاه بعد الموت.

«صاموئیل کنیک»أحد علماء النفس المعروفین یقول:«إنّ التحقیقات الدقیقه تشیر إلی أنّ المجموعات البشریه الاولی علی سطح الأرض،کانت لهم اعتقادات معیّنه،لأنّهم کانوا یلحدون موتاهم بطریقه معیّنه فی الأرض،و یضعون معهم وسائل و آلات أعمالهم التی کانوا یمارسونها قبل الموت إلی جانبهم،و بهذه

الطريقه فإنّهم يثبتون اعتقادهم بوجود عالم ما بعد الموت» (۱) .

فهؤلاء اعتقدوا بالحياه بعد الموت،و إن كانوا قد سلكوا طريقا خاطئا فی اعتقادهم کتوهّمهم أنّ تلک الحياه شبيهه بهذه الحياه تماما.

على کلّ حال،فلا يمكن قبول أنّ ذلک الإعتقاد القديم مجرّد و هم أو نتيجه للتلقين و العاده.

و من جهه ثالثه،فإنّ وجود محکمه«الوجدان»،دليل آخر على فطريه الإعتقاد بالمعاد.فکلّ إنسان عند ما ينجز عملا حسنا فإنّه يستشعر فی أعماقه و فی وجدانه الطمأنينه التی لا يمكن أحيانا وصفها بأی بيان أو کلام.

و على العکس عند ما يرتکب الذنوب و خصوصا الجنايات الکبرى،فإنّه يستشعر عدم الراحه،إلى حد تصل الحاله فی البعض إلى الانتحار،أو يسلّموا أنفسهم إلى المحاکم لنيل العقاب و التعلّق على أعواد المشانق.

کلّ ذلک دليل على عذاب الضمير و الوجدان.

و للإنسان أن يسأل نفسه:کيف يمكن أن يكون عالم صغير کعالم النفس له تلک المحکمه،و لا يکون لهذا العالم العظيم مثل هذا الوجدان و هذه المحکمه؟! و بهذا الشکل يتّضح أنّ الإعتقاد بمسأله المعاد و الحياه بعد الموت أمر فطری، و من عدّه طرق:

من طريق العشق البشری العام للبقاء.

و من طريق وجود ذلک الإعتقاد بالحياه بعد الموت على طول التأريخ البشری.

و من طريق وجود النموذج المصغّر لها فی داخل الإنسان.

۲-أثر الإعتقاد بالمعاد على حياه البشر:

إنّ الإعتقاد بعالم ما بعد الموت و بقاء آثار الأعمال البشريه،و خلود الأعمال-

---

۱- ۱) -علم الاجتماع(ساموئيل کنيک)صفحه ۱۹۲(مع قليل من التلخيص).

سواء كانت خيرا أو شرّا-يترك أثره العميق على فكر و أعصاب و جسد الإنسان، و يمكنه أن يكون عاملا مؤثّرا فی التشجيع على الأعمال الحسنه.

إنّ تأثير الإيمان بالحياه بعد الموت فی إصلاح الأفراد الفاسدين و المنحرفين و تشجيع الأفراد المضحّين و المجاهدين،أكثر بكثير من تأثير المحاكم و العقوبات المعمول بها عاده فی الدنيا،للمزايا التی يتمتّع بها ذلك الإيمان عن المحاكم العاديه،ففی محكمه المعاد لا وجود لإعاده النظر،و لا أثر للاضطهاد الفكری على صاحبها،و لا فائده من إعطاء وثائق كاذبه و مزوّره، و لا تستغرق-عبر روتينها- مدّه من الزمن.

القرآن الكريم يقول: وَ اتَّقُوا يَوْماً لاٰ تَجْزِی نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَ لاٰ يُقْبَلُ مِنْهٰا شَفٰاعَهٌ وَ لاٰ يُؤْخَذُ مِنْهٰا عَدْلٌ وَ لاٰ هُمْ يُنْصَرُونَ (۱) .

كذلك يقول تعالى: وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مٰا فِی الْأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَ أَسَرُّوا النَّدٰامَهَ لَمّٰا رَأَوُا الْعَذٰابَ وَ قُضِیَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ (۲) .

كذلك قوله تعالى: لِيَجْزِیَ اللّٰهُ كُلَّ نَفْسٍ مٰا كَسَبَتْ إِنَّ اللّٰهَ سَرِيعُ الْحِسٰابِ (۳) .

و إنّ حسابه تعالى سريع و حاسم كما نقلت بعض الروايات:«إنّ اللّه تعالى يحاسب الخلائق كلّها فی مقدار لمح البصر» (۴) .

و لهذا السبب فقد اعتبر القرآن الكريم أنّ سبب الكثير من الذنوب هو نسيان يوم الجزاء،فقال تعالى: فَذُوقُوا بِمٰا نَسِيتُمْ لِقٰاءَ يَوْمِكُمْ هٰذٰا (۵) .

حتّى أنّه يستفاد من بعض الآيات أنّ الإنسان إذا كان معتقدا بالقيامه فإنّه يمتنع عن القيام بالكثير من الأعمال المخالفه،فقد ورد فی وصفه تعالى لمن يخسرون

ص: ۲۵۹

۱- ۱) -البقره،۴۸.

۲- ۲) -يونس،۵۴.

۳- ۳) -إبراهيم،۵۱.

۴- ۴) -مجمع البيان،المجلّد ۱،صفحه ۲۹۸،تفسير سوره البقره الآيه ۲۰۲.

۵- ۵) -السجده،۱۴.

المیزان فی البیع قوله تعالی: أَ لاٰ یَظُنُّ أُولٰئِکَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِیَوْمٍ عَظِیمٍ (۱) .

و الحماسه الخالده لمجاهدی الإسلام سابقا و حاضرا فی میادین الجهاد، و التضحیه و الفداء و الإیثار الذی یظهره الکثیر من المسلمین فی الدفاع عن بلدان الإسلام و عن المحرومین و المستضعفین،یدلّل علی أنه بجمیعه انعکاس لحاله الإعتقاد بالحیاه الخالده فی الدار الآخره،و قد دلّت الدراسات من قبل المفکّرین، و التجارب المختلفه علی أنّ تلک المظاهر لا یمکن أن تکون-فی المقیاس الواسع الشامل-إلاّ عن طریق العقیده بالحیاه بعد الموت.

فإنّ المجاهد الذی منطقه قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنٰا إِلاّٰ إِحْدَی الْحُسْنَیَیْنِ (۲) .أی الوصول إلی إحدی السعادتین إمّا النصر أو الشهاده،و هو قطعا مجاهد لا یقبل الهزیمه.

إنّ الموت الذی یبعث علی الوحشه لدی کثیر من الناس،و حتّی أنّهم یحاذرون من ذکر اسمه أو کلّ ما یذکّر به،لیس موحشا و لا قبیحا قطّ بالنسبه إلی المعتقدین بالحیاه بعد الموت،بل إنّه بالنسبه إلیهم نافذه علی عالم رحیب،و تحطّم القفص الدنیوی و کسر القیود المادّیه التی تأسر الروح،و بلوغ الحرّیه المطلقه.

إنّ مسأله المعاد تعتبر الخطّ الفاصل بین الإلهیین و المادّیین،لوجود نظرتین مختلفتین هنا:

فالمادّی یری الموت فناء مطلقا،و یفرّ منه بکلّ وجوده،لأنّ کلّ شیء سینتهی به.

و الإلهی یری الموت ولاده جدیده،و ولوجا فی عالم واسع کبیر مشرق، و الانطلاق فی السماء اللامحدوده.و من الطبیعی فإنّ المعتقدین بهذا المذهب لا یفسحون المجال للخوف و الوحشه للدخول إلی أنفسهم عند سلوکهم طریق

۱- ۱) -المطفّفین،۴.

۲- ۲) -التوبه،۵۲.

الموت و الشهاده.بل إنّهم يستلهمون من

قول أمير المؤمنين على بن أبى طالب (عليه أفضل الصلاه و السلام) «و اللّه لابن أبى طالب آنس بالموت من الطفل بثدى أمّه» (۱) و يستقبلون الموت فى سبيل الهدف برحابه صدر.و لهذا فإنّ أمير المؤمنين حينما تلقّى الضربه السامّه من اللعين الخاسر«عبد الرحمن بن ملجم»لم يقل سوى

«فزت و ربّ الكعبه».

خلاصه القول:فإنّ الإيمان بالمعاد يجعل من الإنسان الخائف الضائع،إنسانا شجاعا شهما هادفا،تمتلئ حياته بالحماسه و التضحيه و الصدق و التقوى.

۳-الدلائل العقليّه على المعاد:

اشاره

فضلا عن الدلائل النقليه الكثيره على المعاد سواء الوارده فى القرآن المجيد، و التى تشمل مئات الآيات بهذا الخصوص،فإنّ هناك أدلّه عقليّه واضحه أيضا على هذه المسأله،و التى نحاول ذكرها هنا بشكل مختصر:

أ-برهان الحكمه:

إذا نظرنا إلى هذا العالم بدون العالم الآخر،فسيكون فارغا و بلا معنى تماما، كما لو افترضنا بوجود الحياه فى الأطوار الجنينيه بدون الحياه فى هذه الدنيا.

فلو كان قانون الخلق يقضى بأنّ جميع المواليد الجدد يختنقون بمجرّد نزولهم من بطون امّهاتهم و يموتون،فإنّ الدور الجنينى سيكون بلا معنى؟كذلك لو كانت الحياه فى هذا العالم مبتوره عن الحياه فى العالم الآخر،فسنواجه نفس الاضطراب و الحيره،فما ضروره أن نعيش سبعين عاما أو أكثر أو أقل فى هذه الدنيا وسط كلّ هذه المشكلات؟فنبدأ الحياه و نحن لا نملك تجربه معيّنه،و حين بلوغ تلك المرتبه يهجم الموت و ينتهى العمر..نسعى مدّه لتحصيل العلم و المعرفه،

۱- ۱) -نهج البلاغه،الخطبه ۵ صفحه ۵۲.

و حينما نبلغ درجه منه بعد اشتعال الرأس شيبا يستقبلنا الموت.

ثمّ لأجل ماذا نعيش؟الأكل و اللبس و النوم و الاستيقاظ المتكرّر يوميا، و استمرار هذا البرنامج المتعب لعشرات السنين،لماذا؟ فهل حقّا إنّ هذه السماء المتراميه الأطراف و هذه الأرض الواسعه،و كلّ هذه المقدّمات و المؤخّرات و كلّ هؤلاء الأساتذه و المعلّمين و المربّين و كلّ هذه المكتبات الضخمه و كلّ هذه الأمور الدقيقه و الأعمال التى تداخلت فى خلقنا و خلق باقى الموجودات،كلّ ذلك لمجرّد الأكل و الشرب و اللبس و الحياه الماديه هذه؟ هنا يعترف الذين لا يعتقدون بالمعاد بتفاهه هذه الحياه،و يقدم بعضهم على الانتحار للتخلّص من هذه الحياه الخاويه،بل قد يفتخر به.

و كيف يمكن لمن يؤمن باللّه و بحكمته المتعاليه أن يعتبر هذه الحياه الدنيا وحدها بدون ارتباطها بحياه اخرى ذات قيمه و ذات شأن؟ يقول تعالى: أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّمٰا خَلَقْنٰاكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنٰا لاٰ تُرْجَعُونَ (1) . أىّ أنّه لو لم يكن رجوع بعد هذه الدنيا إلى اللّه،فإنّ الحياه فى هذه الدنيا ليست سوى عبث فى عبث.

نعم فإنّ الحياه فى هذه الدنيا تجد معناها و يكون لها مفهوما ينسجم مع حكمه اللّه سبحانه و تعالى عند ما تعتبر هذه:

«الدنيا مزرعه للآخره» و

«الدنيا قنطره» و مكان تعلّم،و جامعه للاستعداد للعالم الآخر و متجر لذلك العالم،تماما كما

يقول أمير المؤمنين على(عليه الصلاه و السلام)فى كلماته العميقه المعنى «إنّ الدنيا دار صدق لمن صدقها،و دار عاقبه لمن فهم عنها،و دار غنى لمن تزوّد منها،و دار موعظه لمن اتّعظ بها،مسجد أحبّاء اللّه،و مصلّى ملائكه اللّه،و مهبط وحى اللّه،

۱- ۱) -المؤمنون،۱۱۵.

و متجر أولياء اللّه» (۱) .

خلاصه القول،إنّ الفحص و المطالعه فی وضع هذا العالم يؤدّی إلی الاعتقاد بعالم آخر وراء هذا العالم وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولیٰ فَلَوْ لاٰ تَذَكَّرُونَ (۲) .

ب-برهان العداله:

التدقيق فی نظام الوجود و قوانين الخلق،يستنتج منه أنّ كلّ شیء منها محسوب بدقّه متناهيه.ففی مؤسسه البدن البشری،يحكم نظام عادل دقيق،بحيث أنّه لو تعرّض لأدنی تغيير أو عارض ما لأدّی إلی إصابته بالمرض أو حتّی الموت، حركات القلب،دوران الدم،أجفان العين،و كلّ جزء من خلايا الجسم البشری مشمول بهذا النظام الدقيق،الذی يحكم العالم بأسره«و بالعدل قامت السموات و الأرض» (۳) فهل يستطيع الإنسان أن يكون وحده النغمه النشاز فی هذا العالم الواسع؟! صحيح أنّ اللّه سبحانه و تعالی أعطی للإنسان بعض الحريه فی الإراده و الإختيار لكی يمتحنه و لكی يتكامل فی ظلّ تلك الحريه و يطوی مسير تكامله بنفسه،و لكن إذا أساء الإنسان الاستفاده من تلك الحريه فما ذا سيكون؟!و لو أنّ الظالمين الضالّين المضلّين بسوء استفادتهم من هذه الموهبه الإلهيه استمرّوا علی مسيرهم الخاطئ فما ذا يقتضی العدل الإلهی؟! و صحيح أنّ بعضا من المسيئين يعاقبون فی هذه الدنيا و يلقون مصير أعمالهم- علی الأقل قسم منهم-و لكن المسلّم أنّ جميعهم لا ينال جميع ما يستحقّ.كما أنّ جميع المحسنين الأطياب لا يتلقّون جزاء أعمالهم الطيّبه فی الدنيا،فهل من

۱- ۱) -نهج البلاغه،الكلمات القصار كلمه ۱۳۱.

۲- ۲) -الواقعه،۶۲.

۳- ۳) -تفسير الصافی،المجلّد الخامس،صفحه ۱۰۷.

الممکن أن تکون کلا المجموعتين فی کفّه عداله اللّه سواء؟! و یقول القرآن الکریم: أَ فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِینَ کَالْمُجْرِمِینَ ما لَکُمْ کَیْفَ تَحْکُمُونَ . (۱)

و فی موضع آخر یقول تعالی: أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِینَ کَالْفُجّارِ . (۲)

علی کلّ حال،فلا شکّ فی تفاوت الناس و إطاعه أوامر اللّه سبحانه و تعالی،کما أنّ محاکم«القصاص و الثواب الدنیویه»و«محکمه الوجدان»و«الآثار الوضعیه للذنوب»کلّ ذلک لا یکفی لإقرار العداله علی ما یبدو،و علیه یجب القبول بأنّه لأجل إجراء العداله الإلهیه یلزم وجود محکمه عدل عامّه تراعی بدقّه الخیر أو الشرّ فی حساباتها،و إلاّ فإنّ أصل العداله لا یمکن تأمینه أبدا.

و بناء علی ما تقدّم یجب الإقرار بأنّ قبول العدل الإلهی مساو بالضروره لوجود المعاد و القیامه،القرآن الکریم یقول: وَ نَضَعُ الْمَوازِینَ الْقِسْطَ لِیَوْمِ الْقِیامَهِ . (۳)

و یقول: وَ قُضِیَ بَیْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا یُظْلَمُونَ . (۴)

ج-برهان الهدف:

علی خلاف ما یتوهّمه المادّیون،فإنّ الإلهیین یرون أنّ هناک هدفا من خلق الإنسان،و الذی یعبّر عنه الفلاسفه ب«التکامل»و فی لسان القرآن و الحدیث فهو «القرب إلی اللّه»أو«العباده» وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّ لِیَعْبُدُونِ . (۵)

فهل یمکن تحقیق هذا الهدف إذا کان الموت نهایه لکلّ شیء؟!

۱- ۱) -القلم،۳۵ و ۳۶.

۲- ۲) -ص،۲۸.

۳- ۳) -الأنبیاء،۴۷.

۴- ۴) -یونس،۵۴.

۵- ۵) -الذاریات،۵۶.

يجب أن يكون عالم بعد هذا العالم و يستمرّ فيه سير الإنسان التكاملى،و هناك يحصد ما زرع فى هذا العالم،و كما قلنا فى موضع آخر فإنّه فى ذلك العالم الآخر يستمرّ سير الإنسان التكاملى ليبلغ هدفه النهائى.

الخلاصه:أنّ تحقيق الهدف من الخلق لا يمكن بدون الإعتقاد بالمعاد،و إذا قطعنا الارتباط بين هذا العالم و عالم ما بعد الموت،فكلّ شىء سيتحوّل إلى ألغاز، و سوف نفقد الجواب على الكثير من التساؤلات.

د-برهان نفى الاختلاف:

لا شكّ أنّنا جميعا نتعذّب كثيرا من الاختلافات بين المذاهب و العقائد فى هذا العالم،و كلّنا نتمنّى أن تحلّ هذه الاختلافات،فى حين أنّ جميع القرائن تدلّل على أنّ هذه الاختلافات هى من طبيعه الحياه.و يستفاد من عدّه دلائل بأنّه حتّى بعد قيام المهدى عليه السّلام-و هو المقيم لحكومه العدل العالميه و المزيل لكثير من الاختلافات-ستبقى بعض الاختلافات العقائديه بلا حلّ تامّ،و كما يقول القرآن الكريم فإنّ اليهود و النصارى سيبقون على اختلافاتهم إلى قيام القيامه: فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَهِ . (۱)

و لكن اللّه سبحانه و تعالى الذى يقود كلّ شىء باتّجاه الوحده سينهى تلك الاختلافات حتما،و لوجود الحجب الكثيفه لعالم المادّه فى الدنيا فإنّه لا يمكن حلّ هذا الأمر بشكل كامل فيها،و نعلم أنّ العالم الآخر هو عالم الظهور و الانكشاف،إذن فنهايه هذه المسأله ستكون نهايه عمليه،و ستكون الحقائق جليه واضحه إلى درجه أنّ الاختلافات العقائديه ستحلّ بشكل نهائى تامّ.

الجميل أنّه تمّ التأكيد فى آيات متعدّده من القرآن الكريم على هذه المسأله، يقول تعالى فى الآيه(۱۱۳)من سوره البقره: فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَهِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

۱- ۱) -المائده،۱۴.

و فی الآیات(۳۸)و(۳۹)من سوره النحل یقول تعالی:

وَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَیْمٰانِهِمْ لاٰ یَبْعَثُ اللّٰهُ مَنْ یَمُوتُ بَلیٰ وَعْداً عَلَیْهِ حَقًّا وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ النّٰاسِ لاٰ یَعْلَمُونَ لِیُبَیِّنَ لَهُمُ الَّذِی یَخْتَلِفُونَ فِیهِ وَ لِیَعْلَمَ الَّذِینَ کَفَرُوا أَنَّهُمْ کٰانُوا کٰاذِبِینَ .

۴-القرآن و مسأله المعاد:

تعتبر مسأله المعاد المسأله الثانیه بعد مسأله التوحید و التی تعتبر المسأله الأساس فی تعلیمات الأنبیاء بخصائصها و آثارها التربویه،لذا ففی بحوث القرآن الکریم نجد أنّ أکثر الآیات اختصّت ببحث مسأله المعاد،بعد الکثره الکاثره التی اختصّت ببحث مسأله التوحید.

و المباحث القرآنیه حول المعاد تاره تکون بشکل استدلالات منطقیه،و اخری بشکل بحوث خطابیه و تلقینیه شدیده الوقع بحیث أنّ سماعها فی بعض الأحیان یؤدّی إلی قشعریره شدیده فی البدن بأسره.و الکلام الصادق-کالاستدلالات المنطقیه-ینفذ إلی أعماق الروح الإنسانیه.

فی القسم الأوّل،أی الاستدلالات المنطقیه،فإنّ القرآن الکریم یؤکّد کثیرا علی موضوع إمکانیه المعاد،إذ أنّ منکری المعاد غالبا ما یتوهّمون استحالته، و یعتقدون بعدم إمکانیه المعاد بصوره معاد جسمانی یستلزم عوده الأجسام المهترئه و التراب إلی الحیاه مرّه اخری.

ففی هذا القسم،یلج القرآن الکریم طرقا متنوعه و متفاوته تلتقی کلّها فی نقطه واحده،و هی مسأله«الإمکان العقلی للمعاد».

فتاره یجسّد للإنسان النشأه الاولی،و بعباره وجیزه و معبّره واضحه تقول الآیه: کَمٰا بَدَأَکُمْ تَعُودُونَ . (۱)

ص :۲۶۶

۱- ۱) -الأعراف،۲۹.

و تاره یجسّد حیاه و موت النبات،و بعثه الذی نراه بامّ أعیننا کلّ عام،و فی الختام یقول إنّ بعثکم تماما کالنبات: وَ نَزَّلْنٰا مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً مُبٰارَکاً فَأَنْبَتْنٰا بِهِ جَنّٰاتٍ وَ حَبَّ الْحَصِیدِ ... وَ أَحْیَیْنٰا بِهِ بَلْدَهً مَیْتاً کَذٰلِکَ الْخُرُوجُ . (۱)

و فی موضع آخر یقول تعالی: وَ اللّٰهُ الَّذِی أَرْسَلَ الرِّیٰاحَ فَتُثِیرُ سَحٰاباً فَسُقْنٰاهُ إِلیٰ بَلَدٍ مَیِّتٍ فَأَحْیَیْنٰا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا کَذٰلِکَ النُّشُورُ . (۲)

و حینا یطرح مسأله قدره اللّه سبحانه و تعالی علی خلق السموات و الأرض فیقول: أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنَّ اللّٰهَ الَّذِی خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَمْ یَعْیَ بِخَلْقِهِنَّ بِقٰادِرٍ عَلیٰ أَنْ یُحْیِیَ الْمَوْتیٰ بَلیٰ إِنَّهُ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ . (۳)

و حینا آخر یعرض عملیه انبعاث الطاقه و اشتعال الشجر الأخضر کنموذج علی قدرته،و جعل النار فی قلب الماء فیقول: اَلَّذِی جَعَلَ لَکُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نٰاراً . (۴)

و تاره یجسّد أمام ناظری الإنسان الحیاه الجنینیه فیقول: یٰا أَیُّهَا النّٰاسُ إِنْ کُنْتُمْ فِی رَیْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنّٰا خَلَقْنٰاکُمْ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَهٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَهٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَهٍ مُخَلَّقَهٍ وَ غَیْرِ مُخَلَّقَهٍ لِنُبَیِّنَ لَکُمْ وَ نُقِرُّ فِی الْأَرْحٰامِ مٰا نَشٰاءُ إِلیٰ أَجَلٍ مُسَمًّی ثُمَّ نُخْرِجُکُمْ طِفْلاً . (۵)

و أخیرا فإنّ القرآن تاره یدلّل علی البعث بالنوم الطویل-النوم الذی هو قرین الموت و أخوه،بل إنّه الموت بعینه من بعض الجوانب-کنوم أصحاب الکهف الذی استمر ثلاثمائه و تسع سنین،و بعد تفصیل جمیل حول النوم و الیقظه یقول:

۱- ۱) -سوره ق،۹-۱۱.

۲- ۲) -فاطر،۹.

۳- ۳) -الأحقاف،۳۳.

۴- ۴) -سوره یس،۸۰.

۵- ۵) -الحجّ،۵.

وَ کَذٰلِکَ أَعْثَرْنٰا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ وَ أَنَّ السّٰاعَةَ لاٰ رَيْبَ فِيهٰا . (۱)

تلک هی الأساليب الستّه المختلفه التی طرحتها آيات القرآن الکريم لبيان إمکانيه المعاد.علاوه علی قصّه إبراهيم عليه السّلام و الطيور الأربعه(البقره-۲۶۰)و قصّه عزير(البقره-۲۵۹)و قصّه الشهاده من بنی إسرائيل(البقره-۷۳)،و التی تشکّل کلّ واحده منها نموذجا تأريخيا علی هذه المسأله و هی من الشواهد و الدلائل الاخری التی ذکرها القرآن بهذا الخصوص.

خلاصه القول،إنّ ما يعرضه القرآن الکريم عن المعاد و مظاهره المختلفه و معلوماته و نتائجه،و الدلائل الرفيعه التی يطرحها بهذا الخصوص،حيّه و مقنعه بحيث أنّ أیّ إنسان إذا کان لديه ذرّه من الوجدان فإنّه يتأثّر بعمق ما يطرحه القرآن الکريم.

و علی قول البعض:فإنّ ألفا و مائتی آيه من القرآن الکريم تبحث فی مسأله المعاد،لو جمعت و فسّرت لأصبحت وحدها کتابا ضخما.

۵-المعاد الجسمانی:

المقصود من المعاد الجسمانی ليس إعاده الجسم وحده فی العالم الآخر، بل إنّ الهدف هو بعث الروح و الجسم معا،و بتعبير آخر فإنّ عوده الروح أمر مسلّم به، و الحديث حول عوده الجسم.

جمع من الفلاسفه القدماء کانوا يعتقدون بالمعاد الروحی فقط،و ينظرون إلی الجسد علی أنّه مرکّب،يکون مع الإنسان فی هذه الدنيا فقط،و بعد الموت يصبح الإنسان غير محتاج إليه فينزل الجسد و يندفع نحو عالم الأرواح.

و لکن العلماء المسلمين الکبار يعتقدون بأنّ المعاد يشمل الروح و الجسم،و هنا لا يقيّد البعض بعوده الجسم السابق،و يقولون بأنّ اللّه قيّض للروح جسدا،و لکن

۱- ۱) -الکهف،۲۱.

شخصيّه الإنسان بروحه فإنّ هذا الجسد يعدّ جسده.

فى حال أنّ المحقّقين يعتقدون بأنّ هذا الجسد الذى يصبح ترابا و يتلاشى، يتلبّس بالحياه مرّه اخرى بأمر اللّه الذى يجمعه و يكسوه بالحياه،هذه العقيده نابعه من متون الآيات القرآنيه الكريمه.

إنّ الشواهد على المعاد الجسمانى فى الآيات القرآنيه الكريمه كثيره جدّا، بحيث يمكن القول قطعا بأنّ الذين يعتقدون باقتصار المعاد على المعاد الروحى فقط لا يملكون أدنى اطّلاع على الآيات العديده التى تبحث فى موضوع المعاد، و إلّا فإنّ جسمانيه المعاد واضحه فى الآيات القرآنيه إلى درجه تنفى أدنى شكّ فى هذه المسأله.

فهذه الآيات التى قرأناها فى آخر سوره يس،توضّح هذه الحقيقه حيث حينما تساءل الإنسان: قٰالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظٰامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ أجابه القرآن بصراحه و وضوح: قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهٰا أَوَّلَ مَرَّهٍ .

إنّ كلّ تعجّب المشركين و المخالفين لمسأله المعاد هو هذه القضيّه،و هى كيف يمكن إحياؤنا بعد الموت و بعد أن نصبح ترابا متناثرا و ضائعا فى هذه الأرض؟ وَ قٰالُوا أَ إِذٰا ضَلَلْنٰا فِي الْأَرْضِ أَ إِنّٰا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . (۱)

إنّهم يقولون: أَ يَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذٰا مِتُّمْ وَ كُنْتُمْ تُرٰاباً وَ عِظٰاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (۲) .

و تعجّبوا من هذه المسأله إلى درجه أنّهم اعتبروا إظهارها دليلا على الجنون أو الكذب على اللّه قٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذٰا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . (۳)

لهذا السبب فإنّ استدلالات القرآن الكريم حول إمكانيه المعاد عموما تدور

۱- ۱) -السجده،۱۰.

۲- ۲) -المؤمنون،۳۵.

۳- ۳) -سوره سبأ،۷.

حول هذا المحور و هو«المعاد الجسمانی»و ما عرضناه فی الفصل السابق فی ستّه طرق کانت دلیلا و شاهدا علی هذا الادّعاء.

علاوه علی أنّ القرآن الکریم یذکر مرارا و تکرارا بأنّکم ستخرجون یوم القیامه من قبورکم و القبور مرتبطه بالمعاد الجسمانی.

و الأوصاف التی یذکرها القرآن الکریم عن المواهب المادیه و المعنویه للجنّه، کلّها تدلّل علی أنّ المعاد معاد جسمی و معاد روحی أیضا،و إلاّ فلا معنی للحور و القصور و أنواع الأغذیه و النعیم فی الجنّه إلی جنب المواهب المعنویه.

علی کلّ حال،فلا- یمکن أن یکون الإنسان علی جانب یسیر من المنطق و الثقافه القرآنیه و ینکر المعاد الجسمانی.و بتعبیر آخر:فإنّ إنکار المعاد الجسمانی بنظر القرآن الکریم مساو لإنکار أصل المعاد.

علاوه علی هذه الأدلّه النقلیه،فإنّ هناک أدلّه عقلیه بهذا الخصوص لو أردنا إیرادها لاتّسع البحث کثیرا،لا شکّ أنّ الإعتقاد بالمعاد الجسمانی سیثیر أسئله و إشکالات کثیره،منها شبهه الآکل و المأکول و التی ردّ علیها العلماء الإسلامیون و التی أوردنا تفصیلا عنها بشکل مختصر فی المجلّد الثانی عند تفسیر الآیه(۲۶۰) من سوره البقره.

۶-الجنّه و النار

الکثیرون یتوهّمون بأنّ عالم ما بعد الموت یشبه هذا العالم تماما و لکنّه بشکل أکمل و أجمل،غیر أنّ لدینا قرائن عدیده تدلّل علی الفروق الکبیره بین العالمین من حیث الکیفیه و الکمّیه،لو أردنا تشبیهها بالفروق بین العالم الجنینی و هذه الدنیا لظلّت المقایسه أیضا غیر کامله.

فوفقا لصریح الروایات الوارده فی هذا الشأن فإنّ فی عالم ما بعد الموت ما لا عین رأت و لا اذن سمعت و لا خطر علی فکر بشر،القرآن الکریم یقول: فَلاٰ تَعْلَمُ

نَفْسٌ مٰا أُخْفِیَ لَهُمْ مِنْ قُرَّهِ أَعْیُنٍ . (۱)

الأنظمه الحاکمه فی ذلک العالم أیضا تتفاوت تماما مع الأنظمه فی هذا العالم، ففی حین یستفاد فی هذا العالم من أفراد یسمّون«الشهود»فی المحاکمات،نری أنّ هناک تشهد الأیدی و الأرجل و حتّی الجلد اَلْیَوْمَ نَخْتِمُ عَلیٰ أَفْوٰاهِهِمْ وَ تُکَلِّمُنٰا أَیْدِیهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمٰا کٰانُوا یَکْسِبُونَ . (۲) وَ قٰالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَیْنٰا قٰالُوا أَنْطَقَنَا اللّٰهُ الَّذِی أَنْطَقَ کُلَّ شَیْءٍ (۳) .

علی کلّ حال،فما قیل عن العالم الآخر لا یرسم أمامنا سوی صوره باهته، و عاده فإنّ اللغه التی نتحدّث بها و الثقافه التی لدینا غیر قادره جمیعها علی الوصف الحقیقی لما هو موجود هناک،و لکن لا یترک المیسور بالمعسور.فالمقدار المتیقّن هو أنّ الجنّه هی مرکز کلّ النعم و المواهب الإلهیه سواء المادیه أو المعنویه، و جهنّم هی مرکز لکلّ أنواع العذاب الألیم المادّی و المعنوی أیضا.

أمّا بخصوص تفصیل ذلک فإنّ القرآن الکریم أورد جزئیات نحن نؤمن بها، و لکن تفصیلها بدقّه غیر ممکن بدون الرؤیه و المعاینه.و لنا بحث حول هذا الخصوص فی تفسیر الآیه(۳۳)من سوره آل عمران.

إلهی:آمنّا فی الفزع الأکبر.

إلهی:لا تحاسبنا بعدلک و لکن حاسبنا بلطفک و عدلک،فلیس لدینا من الأعمال ما یوجب رضاک.

اللهم افعل بنا ما یرضیک عنّا و یجعلنا من الناجین آمین ربّ العالمین.

نهایه سوره یس

ص:۲۷۱

۱- ۱) -السجده،۱۷.

۲- ۲) -سوره یس-۶۵.

۳- ۳) -سوره فصلت،۲۱.

سوره الصّافات

اشاره

مكيّه و عدد آياتها مائه و اثنان و ثمانون آيه

ص :۲۷۳

محتوى سوره الصّافات:

هذه السوره بحكم كونها من السور المكيّه،فإنّها تمتلك كافّه خصائص السور المكيّه،فهى تسلّط الأضواء على اصول المعارف و العقائد الإسلاميه الخاصّه بالمبدأ و المعاد.و تتوعّد المشركين بأشدّ العقاب و ذلك من خلال العبارات الحازمه و الآيات القصيره العنيفه الوقع،و توضّح-بالأدلّه القاطعه-بطلان عقائدهم.

بصوره عامّه يمكن تلخيص محتوى سوره الصافات فى خمسه أقسام:

القسم الأوّل:يبحث حول مجاميع من ملائكه الرحمن،و مجموعه من الشياطين المتمردين و مصيرهم.

القسم الثّانى:يتحدّث عن الكافرين،و إنكارهم للنبوّه و المعاد،و العقاب الذى ينتظرهم يوم القيامه،كما يستعرض الحوار الذى يدور بينهم فى ذلك اليوم، و يحملهم جميعا الذنب،و العذاب الإلهى الذى سيشملهم،كما يشرح هذا القسم جوانب من النعم الموجوده فى الجنّه إضافه إلى ملذّاتها و جمالها و سرور أهلها.

القسم الثّالث:يشرح بصوره مختصره تأريخ الأنبياء أمثال(نوح)و(إبراهيم)و(إسحاق)و(موسى)و(هارون)و(إلياس)و(لوط)و(يونس)و بصوره ذات تأثير قوى،كما يتحدّث هذا القسم بشكل مفصّل عن إبراهيم محطّم الأصنام و عن جوانب مختلفه من حياته،و الهدف الرئيسى من وراء سرد قصص الأنبياء-مع ذكر بعض الشواهد العينيه من تأريخهم-هو تجسيد حوادث تلك القصص

و تصويرها بشكل محسوس و ملموس.

القسم الرّابع:يعالج صوره معيّنه من صور الشرك و الذى يمكن اعتباره من أسوأ صور الشرك،و هو الإعتقاد بوجود رابطه القرابه بين اللّه سبحانه و تعالى و الجنّ و الملائكه،و يبيّن بطلان مثل هذه العقائد التافهه بعبارات قصيره.

أمّا القسم الخامس و الأخير:فيتناول فى عدّه آيات قصار انتصار جيوش الحقّ على جيوش الكفر و الشرك و النفاق،و ابتلاءهم-أى الكافرين و المشركين و المنافقين-بالعذاب الإلهى،و تنزّه آيات هذا القسم اللّه سبحانه و تعالى و تقدّسه عن الأشياء التى نسبها المشركون إليه،ثمّ تنتهى السوره بالحمد و الثناء على البارى عزّ و جلّ.

فضيله تلاوه سوره الصافات:

فى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،جاء فيه: «من قرأ سوره الصافات اعطى من الأجر عشر حسنات،بعدد كلّ جنّ و شيطان،و تباعدت عنه مرده الشياطين،و برىء من الشرك،و شهد له حافظاه يوم القيامه أنّه كان مؤمنا بالمرسلين» (1) .

و

فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام جاء فيه: «من قرأ سوره الصافات فى كلّ جمعه لم يزل محفوظا من كلّ آفه،مدفوعا عنه كلّ بليّه فى حياته الدنيا، مرزوقا فى الدنيا بأوسع ما يكون من الرزق،و لم يصبه اللّه فى ماله و لا ولده و لا بدنه بسوء من شيطان رجيم،و لا جبّار عنيد،و إن مات فى يومه أو ليلته بعثه اللّه شهيدا،و أماته شهيدا،و أدخله الجنّه مع الشهداء فى درجه من الجنّه» (2) .

الثواب العظيم الذى يناله من يتلو سوره الصافات،جاء نتيجه لما تحويه هذه

1- 1) -مجمع البيان،أوّل تفسير سوره الصافات.

2- 2) -تفسير مجمع البيان أوّل تفسير سوره الصافات-لقد ورد هذا الحديث فى تفسير البرهان نقلا عن الشيخ الصدوق،رحمه اللّه مع اختلاف بسيط.

السوره المبـاركه،فنحن نـدرك أنّ الهـدف من التلاوه هو التفكّر،و من ثمّ الإعتقاد، و من بعـد العمل.و من دون شكّ فإنّ الـذى يتلو هذه السوره بتلك الصوره،سيحفظ من شرّ الشياطين،و يتطهّر من الشرك،و يمتلك الإعتقاد الصحيح القوى،و يمارس أعمالا صالحه،و يتّعظ من القصص الواقعيه للأنبياء و الأقوام الماضيه،و إنّه سيحشر مع الشهداء.

و ممّا يذكر فإنّ تسميه هذه السوره بالصافات جاءت نسبه إلى الآيه الاولى فيها.

***

ص :٢٧٧

الآیات [سوره الصافات (۳۷): الآیات ۱ الی ۵]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ وَ اَلصَّافّٰاتِ صَفًّا (۱) فَالزّٰاجِرٰاتِ زَجْراً (۲) فَالتّٰالِيٰاتِ ذِكْراً (۳) إِنَّ إِلٰهَكُمْ لَوٰاحِدٌ (۴) رَبُّ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا وَ رَبُّ اَلْمَشٰارِقِ (۵)

التّفسیر

اشاره

الملائکه المستعدّه لتنفیذ المهام:

هـذه السـوره هی أوّل سـوره فی القرآن الکریم تبـدأ بـالقسم،القسم الملیء بالمعـانی و المـثیر للتفکّر،القسم الـذی یجـوب بفکر الإنسان فی جوانب مختلفه من هذا العالم،و یجعله متهیّئا لتقبّل الحقائق.

من المسلّم به أنّ اللّه تبارک و تعالی هو أصدق الصادقین،و لیس بحاجه إلی القسم،إضافه إلی أنّ قسمه إن کان للمؤمنین،فإنّهم مؤمنون به من دون قسم،و إن کان للناکرین،فإنّ أولئک لا یعتقدون بالقسم الإلهی.

و نلفت الانتباه إلی نقطتین لحلّ مشکله القسم فی کلّ آیات القرآن التی سنتناولها من الآن فما بعد.

الاولی:أنّ القسم یأتی دائما بالنسبه إلی امور مهمّه و ذات قیمه،و لذلک فإنّ

أقسام القرآن تشير إلى عظمه و أهميّه الأشياء المقسم بها.و هذا الأمر يدعو إلى التفكّر أكثر بالشيء المقسم به،التفكّر الذى يكشف للإنسان عن حقائق جديده.

الثانيه:أنّ القسم يأتى للتأكيد،و للدلاله على أنّ الأمور التى يقسم من أجلها هى امور جديّه و مؤكّده.

و علاوه على ذلك أنّ المتحدّث لو تحدّث بصوره حازمه و مؤكّده،فإنّ تأثير كلامه من الناحيه النفسيه سيكون أوقع على قلب المستمع،كما أنّه يقوّى المؤمنين و يضعّف الكافرين.

على كلّ حال،فإنّ بدايه هذه السوره تذكر أسماء ثلاثه طوائف أقسم بها اللّه تعالى (1) .

الأولى: وَ الصَّافّٰاتِ صَفًّا .

الثانيه: فَالزّٰاجِرٰاتِ زَجْراً .

الثالثه: فَالتّٰالِيٰاتِ ذِكْراً .

فمن هى تلك الطوائف الثلاث؟و على من أطلقت تلك الصفات؟و ما الهدف النهائى منها؟ المفسّرون قالوا الكثير بهذا الشأن،إلّا أنّ المعروف و المشهور هو أنّ هذه الصفات تخصّ طوائف من الملائكه...

طوائف اصطفّت فى عالم الوجود بصفوف منظمه،و هى مستعدّه لتنفيذ الأمر الإلهى.

و طوائف من الملائكه تزجر بنى آدم عن ارتكاب المعاصى و الذنوب،و تحبط وساوس الشياطين فى قلوبهم.أو الملائكه الموكّله بتسيير السحاب فى السماء و سوقها نحو الأرض اليابسه لإحيائها.

و أخيرا طوائف من الملائكه تتلو آيات الكتب السماويه حين نزول الوحى

۱- ۱) -هذه العبارات الثلاث من جهه هى ثلاثه أقسام،و من جهه اخرى هى قسم واحد له ثلاث صفات.

علی الرسل (۱) .

و ممّا یلفت النظر أنّ«الصافات»هی جمع کلمه«صافّه»و هی بـدورها تحمل صـفه الجمع أیضا،و تشـیر إلی مجموعه مصـطفّه،إذن ف«الصافات»تعنی الصفوف المتعدّده (۲) .

و أمّا کلمه«الزاجرات»فإنّها مأخوذه من(الزجر)و یعنی الصـرف عن الشـیء بالتخویف و الصـراخ،و بمعنی أوسع فإنّها تشـمل کلّ منع و طرد و زجر للآخرین.

إذن فالزاجرات تعنی مجامیع مهمّتها نهی و صرف و زجر الآخرین.

و«التالیات»من(التلاوه)و هی جمع کلمه(تال)و تعنی طوائف مهمّتها تلاوه شیء ما (۳) .

و نظرا لکـثره و اتّسـاع مفـاهیم هـذه الألفـاظ،فلیس من العجب أن یطرح المفسّـرون تفاسـیر مختلفه لهـا دون أن ینـاقض بعضـها الآـخر،بـل من الممکن أیضـا أن تجتمع لتوضـیح مفهوم هـذه الآیـات،فمثلاـ المقصود من کلمه«الصافـات»هو صـفوف الملائکه المستعدّه لتنفیـذ الأـوامر الإلـهیّه،فی عـالم الخلق،أو الملاـئکه النازلون بالوحی إلی الأنبیاء فی عالم التشـریع،و کـذلک صـفوف المقاتلین

۱- ۱) -بالطبع وردت احتمالات اخری فی تفسـیر الآیات المـذکوره أعلاه،«منها»ما یشـیر إلی صـفوف جند الإسـلام فی ساحات الجهاد،الـذین یصـرخون بالأعـداء و یزجرونهم عن الاعتـداء علی حرمه الإسـلام و القرآن، و الـذین یتلون کتاب اللّه دائما و من دون أی انقطـاع،و ینوّرون قلوبهم و أرواحهم بنور تلاوته،و منها:أنّ بعض هـذه الأوصاف الثلاثه هو إشاره إلی ملائکه اصـطفّت بصـفوف منظمه،و القسم الآخر یشـیر إلی آیات القرآن التی تنهی الناس عن ارتکاب القبائـح،و القسم الثالث یشـیر إلی المؤمنین الـذین یتلون القرآن فی أوقـات الصـلاه و فی غیرها من الأوقات.و یسـتبعد الفصل بین هـذه الأوصاف،لأنّها معطوفه علی بعضـها البعض بحرف(الفاء)،و هذا یوضّح أنّها أوصاف لطائفه واحده. و قد ذکر العلاّمه«الطباطبائی»فی تفسیره المیزان هذا الاحتمال،فی أنّ الأوصـاف الثلاـثه هی تطلق علی ملائکه مکلّفه بتبلیغ الوحی الإلهی،و الاصـطفاف فی طریق الوحی لتودیعه،و زجر الشـیاطین التی تقف فی طریقه،و فی النهایه تلاوه آیات اللّه علی الأنبیاء.

۲- ۲) -و لاـ ضـیر فی التعبیر عن الملاـئکه بلفـظ الإنـاث«الصافـات و الزاجرات و التالیـات»لأـنّ موصوفها الجماعه، و هی مؤنّث لفظی.

۳- ۳) -ممّا یذکر أنّ بعض اللغویین قالوا بأنّ جمع کلمه(تال)هو(تالیات)و جمع(تالیه)(توال).

و المجاهدين فى سبيل اللّه،أو صفوف المصلّين و العباد.

رغم أنّ القرائن تشير إلى أنّ المراد من كلمه«الصافات»هو الملائكه،إضافه إلى أنّ بعض الروايات قد أشارت إلى ذلك المعنى (۱) .

و ليس هناك أى مانع من أن تشمل كلمه«الزاجرات»الملائكه الذين يطردون وساوس الشياطين من قلوب بنى آدم،و الإنسان الذى يؤدّى واجب النهى عن المنكر.

و«التاليات»إشاره إلى كلّ الملائكه و الجماعات المؤمنه التى تتلو آيات اللّه، و تلهج بذكره تبارك و تعالى على الدوام.

هنا يطرح هذا السؤال:ظاهر هذه الآيات-و بمقتضى وجود العطف بحرف (الفاء)بين الجمل الثلاث-يبيّن أنّ الطوائف الثلاث جاءت الواحده بعد الاخرى، فهل أنّ هذا الترتيب جاء بحكم الواجب المترتّب على كلّ طائفه؟أم كلّ حسب مقامه؟أم لكلا الأمرين؟ من الواضح أنّ الاصطفاف و الاستعداد قد جاءا كمرحله اولى،ثمّ جاءت- كمرحله ثانيه-عمليه إزاله العراقيل من الطريق.أمّا إعلان الأوامر و تنفيذها فقد كانت بمثابه المرحله الثالثه.

و من جهه اخرى فإنّ المستعدّين لتنفيذ الأوامر الإلهيّه لهم مرتبه،و الذين يزيلون العراقيل لهم مرتبه أعلى،أمّا الذين يتلون الأوامر و ينفّذونها فلهم مرتبه أسمى من الجميع.

على أيّه حال فإنّ قسم اللّه سبحانه و تعالى بتلك الطوائف يوضّح عظم منزلتهم عند البارى عزّ و جلّ،و يشير إلى حقيقه مفادها أنّ سالكى طريق الحقّ عليهم للوصول إلى غايتهم أن يجتازوا تلك المراحل الثلاث و التى تبدأ بتنظيم الصفوف و وقوف كلّ مجموعه فى الصفّ المخصّص لها،و من ثمّ العمل على إزاله العراقيل

۱- ۱) -تفسير البرهان،المجلّد ۴،الصفحه ۱۵،الدرّ المنثور،المجلّد ۵،الصفحه ۲۷۱.

من الطريق،و رفع الموانع بالصوت العالي،الصوت الـذي يتناسب مع مفهوم الزجر، و من بعد تلاوه الآيات الإلهيّه و الأوامر الربّانيه على القلوب المتهيّئه لتنفيذ مضامين تلك الأوامر.

فالمجاهـدون السـالكون لطريق الحقّ ليس أمـامهم من سبيـل سوى اجتيـاز تلـك المراحـل الثلاـث،و بنفس الصوره على العلماء العاملين أن يستوحوا في جهودهم الجماعيه ذلك البرنامج.

و ممّا يـذكر أنّ بعض المفسّـِرين فسّـِروا الآيات على أنّها تعود على المجاهدين، و البعض الآخر أكّد عودتها على العلماء،و لكن حصـر مفهوم الآيات بالمجاهدين و العلماء فقط مستبعد بعض الشيء،و إن أعطيت الآيات طابعا عامّا فإنّها ستكون أقرب للواقع،و إذا اعتبرناها تخصّ الملائكه فإنّ الآخرين يمكنهم تنظيم حياتهم وفق مناهج الملائكه.

أمير المؤمنين علي عليه السّلام عند ما يصف بخطبته في نهج البلاغه الملائكه،فإنّه يقسّمهم إلى مجموعات مختلفه،و

يقول: «و صافون لا يتزايلون،و مسبّحون لا يسأمون،لا يغشاهم نوم العيون،و لا سـهو العقول،و لا فتره الأبدان،و لا غفله النسـيان،و منهم أمناء على وحيه،و ألسنه إلى رسله» (1) .

أمّا آخر حـديثنا عن الآيات الثلاث هـذه،فهو أنّ البعض يعتقـد بأنّ القسم في هذه الآيات يعود إلى ذات اللّه،و كلمه(ربّ)مقدّره في جميع تلك الآيات،حيث يكون المعنى كالتالي:و ربّ الصافات صفّا، و ربّ الزاجرات زجرا،و ربّ التاليات ذكرا.

و الـذين فسّـِروا الآيـات على هـذا النحو،فالظـاهر أنّهم يعتقـدون بـأنّ العبـاد لاـ يحقّ لهم القسم بغير اللّه،لـذا فإنّ اللّه لا يقسم إلّا بذاته،إضافه إلى أنّ القسم يجب أن يكون بشيء مهمّ،ألا و هو ذات اللّه المقدّسه.

١- ١) -الخطبه الاولى في نهج البلاغه.

إلاّ أنّ هؤلاء غفلوا عن هذه الحقيقه،و هی أنّ حساب اللّه لا علاقه له بالعباد، فاللّه تعالی-من أجل توجیه الإنسان-یقسم بآیات«الآفاق»و«الأنفس» و دلائل قدرته فی الأرض و السماء،و ذلک لکی یتفکّر الإنسان بتلک الآیات،و عن طریقها یعرف ربّه.

و جدیر بالذکر أنّ بعض آیات القرآن المجید،و منها آیات سوره الشمس تقسم بموجودات الکون إلی جانب القسم بذات اللّه المقدّسه،إذن فالتقدیر هنا غیر سدید،إذ یقول القرآن الکریم: وَ السَّمٰاءِ وَ مٰا بَنٰاهٰا وَ الْأَرْضِ وَ مٰا طَحٰاهٰا وَ نَفْسٍ وَ مٰا سَوّٰاهٰا (۱) .

علی أیّه حال،فإنّ ظاهر الآیات-محلّ البحث-یدلّ علی أنّ المجموعات الثلاث هی المقسم بها،و تقدیر الشیء هنا خلاف للظاهر،و لا یمکن قبوله بغیر دلیل.

الآن نری ما هو المراد من هذه الأقسام المفعمه بالمعانی،أی القسم بالملائکه و الإنس؟ الآیه التالیه توضّح ذلک و تقول: إِنَّ إِلٰهَکُمْ لَوٰاحِدٌ .

قسم بتلک المقدّسات التی ذکرناها فإنّ الأصنام ستزول و تدمّر،و إنّه لیس هناک من شریک و لا شبیه و لا نظیر للّه سبحانه و تعالی.

ثمّ یضیف رَبُّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا وَ رَبُّ الْمَشٰارِقِ .

و هنا نطرح سؤالین:

۱-ما هی الضروره لذکر«المشارق»بعد ذکر السماوات و الأرض و ما بینهما، رغم أنّ المشارق هی جزء منهما.

و یتّضح الجواب من خلال الالتفات إلی هذه النقطه و هی:إنّ المراد من «المشارق»هو الإشاره إلی مواقع شروق الشمس فی أیّام السنه،أو إلی مشارق

۱- ۱) -سوره الشمس،الآیات ۵-۷.

النجوم المختلفه فی السماء،حیث أنّها جمیعا لها نظام و برنامج خاصّ بها،إضافه إلی النظام السماوی و الأرضی الذی یوضّح العلم و القدره و التدبیر المطلق للخالق.

فالشمس فی کلّ یوم تشرق من مکان غیر المکان الذی أشرقت منه قبل یوم أو بعد یوم،و الفواصل الموجوده بین هذه النقاط منظمه و دقیقه للغایه،حیث أنّها لا تزید و لا تقلّ بمقدار ۱/۱۰۰۰ من الثانیه،و هذا التنظیم الدقیق موجود منذ ملایین السنین.

کما أنّ هذا النظام ینطبق علی ظهور و غروب النجوم.

إضافه إلی ذلک فإنّ الشمس لو لم تکن تتحرّک ضمن مسیر تدریجی طوال العام،لم یعد هناک وجود للفصول الأربعه و للنعم المختلفه التی تظهر خلال تلک الفصول،و هذا دلیل آخر علی عظمه و تدبیر الخالق عزّ و جلّ.

و من المعانی الاخری لکلمه«المشارق»،هو أنّ الأرض لکونها کرویه الشکل،فإنّ کلّ نقطه علیها تعتبر بالنسبه إلی النقطه الاخری إمّا مشرقا أو مغربا،و بهذا فإنّ الآیه تؤکّد کرویه الأرض و وجود المشارق و المغارب(و لا مانع من تحقّق المعنیین فی الآیه المذکوره).

أمّا السؤال الثانی الذی یطرح نفسه فهو:لماذا لم تأت کلمه«مغارب»فی الآیه فی مقابل«المشارق»کما جاء فی الآیه(۴۰)من سوره المعارج فَلاٰ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشٰارِقِ وَ الْمَغٰارِبِ .

و الجواب علی هذا السؤال،هو أنّ قسما من الکلام ینسخ قسما آخر لوجود القرینه،و فی بعض الأحیان یأتیان معا،و هنا ذکر کلمه«المشارق»قرینه علی «المغارب»و هذا التنوّع یوضّح فصاحه القرآن و بلاغته.

فیما قال بعض المفسّرین:إنّ ذکر کلمه(المشارق)یتناسب مع شروق الوحی بواسطه الملائکه فَالتّٰالِیٰاتِ ذِکْراً علی قلب النّبی الطاهر صلّی اللّه علیه و آله و سلّم (۱) .

***

ص :۲۸۴

۱- ۱) -تفسیر المیزان،المجلّد ۱۷.

الآيات [سوره الصافات (٣٧): الآيات ۶ الی ١٠]

اشاره

إِنّٰا زَيَّنَّا اَلسَّمٰاءَ اَلدُّنْيٰا بِزِينَةٍ اَلْكَوٰاكِبِ (۶) وَ حِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطٰانٍ مٰارِدٍ (٧) لاٰ يَسَّمَّعُونَ إِلَى اَلْمَلَإِ اَلْأَعْلىٰ وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جٰانِبٍ (٨) دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذٰابٌ وٰاصِبٌ (٩) إِلاّٰ مَنْ خَطِفَ اَلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهٰابٌ ثٰاقِبٌ (١٠)

التّفسير

اشاره

حفظ السماء من تسلّل الشياطين!

الآيـات السـابقه تحـدّثت عن طوائف الملائكه المكلّفه بتنفيـذ المهـام الجسـام، و الآيـات التاليه-موضوع البحث-سـتتحدّث عن الطائفه المقابله لها،أی الشـياطين و عن مصـيرهم.و يمكن أن تكون هذه الآيات مقدّمه لدحض معتقدات مجموعه من المشركين الذين يعبدون الشياطين و الجنّ،و تتضمّن كذلك درسا فی التوحيد بين طيّاتها.

تبدأ الآيه بالقول: إِنّٰا زَيَّنَّا السَّمٰاءَ الدُّنْيٰا بِزِينَةٍ الْكَوٰاكِبِ (١) فلو رفع أحدنا

١- ١) -«الكواكب»هنا بدل من الزينه،و يحتمل كونها عطف بيان،و الزينه هنا اسم مصدر و ليست مصدرا،حيث

ببصره نحو السماء فى إحدى الليالى المظلمه،لتجسّم فى بصره منظر جميل يسحر الإنسان.

و كأنّ الكواكب تتحدّث معنا بلسانها الصامت،لتكشف لنا أعن أسرار الخلق، و أحيانا تكون شاعره تنشد لنا أجمل القصائد الغزليه و العرفانيه،و إغماضها و تواريها،و من ثمّ إبراقها و لمعانها،يوضّح أسرار العلاقه الموجوده بين العاشق و المعشوق.

حقّا إنّ منظر النجوم فى السماء رائع الجمال،و لا تملّ أىّ عين من طول النظر إليه،بل إنّ النظر إليه يزيل التعب و الهمّ من داخل الإنسان.(ممّا يذكر أنّ أبناء المدن فى العصر الحاضر التى يغطّيها دخّان المصانع،لا يستمتعون بمشاهده السماء و هى مرصّعه بالكواكب كما يشاهدها الإنسان القروى حيث يدركون هذه المقوله القرآنيه-أى تزيين السماء بالكواكب-بصوره أفضل).

و من الجدير بالاهتمام قول الآيه: إِنّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَهٍ الْكَواكِبِ فى حين كانت الفرضيات الشائعه فى ذلك الوقت فى أذهان العلماء و المفكّرين هى أنّ السماء العليا هى التى تضمّ الكواكب(السماء الثامنه طبقا لفرضيات بطليموس).

و كما هو معروف فإنّ العلم الحديث دحض تلك الفرضيات.و عدم اتّباع القرآن لما جاء فى تلك الفرضيات النادره و المشهوره فى ذلك الزمان معجزه حيّه لهذا الكتاب السماوى.

و النقطه الاخرى التى تلفت النظر هى أنّ ارتعاش نور الكواكب الجميل و غمزها للناظر يعود-من وجهه نظر العلم الحديث-إلى وجود القشره الهوائيه حول الأرض،و هذا المعنى يتلاءم مع ما نصّت عليه الآيه الكريمه اَلسَّماءَ الدُّنْيا .

1)

غ جاء فى الكتب الأدبيه أينما وجدت نكره بدل عن المعرفه فيجب مرافقتها بوصف،و فى حاله العكس فإنّ الأمر غير واجب.

أمّا فی خارج جو الأرض فإنّ النجوم تبدو نقاط منیره علی وتیره واحده و لیس لها ذلک التلألؤ،علی عکس ما یشاهد داخل جوّ الأرض.

أمّا الآیه وَ حِفْظاً مِنْ کُلِّ شَیْطانٍ مارِدٍ (۱) فإنّها تشیر إلی حفظ السماء من تسلّل الشیاطین إلیها.

کلمه(مارد)مشتقّه من(مرد)التی تعنی الأرض المرتفعه الخالیه من الزرع،کما یقال للشجره التی تساقطت أوراقها کلمه(أمرد)و تطلق علی الفتی الذی لا شعر فی وجهه.و هنا المقصود من کلمه(مارد)هو الشخص الخبیث العاری من الخیر.

حفظ السماء من تسلّل الشیاطین یتمّ بواسطه نوع من أنواع النجوم یطلق علیها اسم(الشهب)،و سیشار إلیها فی الآیات القادمه.

ثمّ یضیف القرآن الکریم:إنّ الشیاطین لا تتمکّن من سماع حدیث ملائکه الملأ الأعلی و معرفه أسرار الغیب التی عندهم،فکلّما حاولوا عمل شیء ما لسماع الحدیث،رشقوا بالشهب من کلّ جانب لا یَسَّمَّعُونَ إِلَی الْمَلَإِ الْأَعْلیٰ وَ یُقْذَفُونَ مِنْ کُلِّ جانِبٍ .

نعم إنّهم یطردون من السماء بشدّه،و قد أعدّ لهم عذاب دائم،کما جاء فی قوله تعالی: دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ .

لا یَسَّمَّعُونَ

بمعنی(لا یستمعون)و یفهم منها أنّ الشیاطین یحاولون معرفه أخبار«الملأ الأعلی»إلاّ أنّه لا یسمح لهم بذلک.

اَلْمَلَإِ الْأَعْلیٰ

،تعنی ملائکه السماوات العلی،لأنّ کلمه(ملأ)تطلق فی الأصل علی الجماعه التی لها وجهه نظر واحده،و تعدّ فی نظر الآخرین مجموعه متّحده و منسجمه،کما تطلق هذه الکلمه علی الأشراف و الأعیان و الدائرین فی فلک

۱- ۱) -(حفظا)علی حدّ قول الکثیر من المفسّرین مفعول مطلق لفعل محذوف و التقدیر هو:و حفظناها حفظا. و البعض احتمل أنّها معطوفه علی(بزینه)التی هی(مفعول له)،و تقدیرها إنا خلقنا الکواکب زینه للسماء و حفظا.

مراكز القوى،لأنّهم يعدّون فى نظر الآخرين متّحدين أيضا،و لكن عند ما يوصف الملأ ب(الأعلى)فذلك إشاره إلى الملائكه الكرام ذوى المقام الأرفع و الأسمى.

«يقذفون»مشتقّه من(قذف)و تعنى رمى الشيء إلى مكان بعيد،و المقصود هنا طرد الشياطين بواسطه الشهب،التى سنتطرّق لها فيما بعد،و هذا يوضّح أنّ البارى عزّ و جلّ لا يسمح للشياطين بالاقتراب من الملأ الأعلى.

«دحورا»مشتقه من(دحر)-على وزن(دهر)-و تعنى طرد الشيء و دفعه،أمّا كلمه(واصب)فإنّها تعنى المرض المزمن،و بصوره عامّه تعنى الدائم و المستمر، و فى بعض الأحيان تعنى(الخالص) (١) .

و هنا إشاره إلى أنّ الشياطين لا يطردون و لا يمنعون من الاقتراب من السماء فحسب،بل سيصيبهم فى النهايه-مع ذلك-عذاب دائم.

و أشارت الآيه أيضا إلى طائفه من الشياطين الشريره التى تحاول الصعود إلى السماء العليا لاستراق السمع،و إلى المصير الذى ينتظرها هناك،كما جاء فى الآيه الشريفه إِلاّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَهَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ .

«الخطفه»أى اختلاس الشيء بسرعه.

و«الشهاب»شيء مضيء متولّد من النار،و يرى نوره فى السماء على شكل خطّ ممتدّ.

و كما هو معروف فإنّ الشهب ليست نجوما،و إنّما تشبه النجوم،و هى عباره عن قطع صغيره من الحجر متناثره فى الفضاء،عند ما تدخل فى مجال جاذبيه الأرض،تنجذب نحوها،و نتيجه دخولها بسرعه إلى جوّ الأرض و احتكاكها الشديد مع الهواء المحيط بالكره الأرضيه فإنّها تشتعل و تحترق.

و كلمه«ثاقب»تعنى النافذ و الخارق،و كأنّه يخترق العين بنوره الشديد و يثقبها، و هذه إشاره إلى أنّ الشهاب يثقب كلّ شيء يصيبه و يحرقه.

١- ١) -لقد تمّ بحث كلمه«واصب»أيضا فى نهايه الآيه(٥٢)من سوره النحل.

و بهذا يكون هناك مانعان يحوّلان دون نفوذ الشياطين إلى السماء العليا:

الأوّل،هو رشق الشياطين من كلّ جانب و طردهم،و الذى يتمّ على الظاهر بواسطه الشهب.

و الثانى،هو رشقهم بواسطه أنواع خاصّه من الشهب يطلق عليها اسم الشهاب الثاقب،الذى يكون بانتظار كلّ شيطان يحاول التسلّل إلى الملإ الأعلى لاستراق السمع، و هذا المعنى نجده أيضا فى الآيتين(١٧)و(١٨)من سوره الحجر وَ حَفِظْنٰاهٰا مِنْ كُلِّ شَيْطٰانٍ رَجِيمٍ إِلاّٰ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهٰابٌ مُبِينٌ .

و فى الآيه الخامسه من سوره الملك وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّمٰاءَ الدُّنْيٰا بِمَصٰابِيحَ وَ جَعَلْنٰاهٰا رُجُوماً لِلشَّيٰاطِينِ .

و لكن هل يجب الالتزام بظواهر هذه الآيات؟أم أنّ هناك قرائن تجبرنا على تفسيرها بخلاف الظاهر،كاستخدام الأمثال و التشبيه و الكنايه؟ هناك وجهات نظر مختلفه بين المفسّرين،فالبعض منهم التزم بظاهر الآيات و بنفس المعانى التى استعرضت فى بدايه الأمر،و قالوا:هناك طوائف من الملائكه تسكن السماء القريبه و البعيده تعرف أخبار الحوادث التى ستقع فى العالم الأرضى قبل وقوعها،لذا تحاول مجموعه من الشياطين الصعود إلى السماء لاستراق السمع و معرفه بعض الأخبار،لكى تنقلها إلى عملائها فى الأرض أى الذين يرتبطون بها و يعيشون بين الناس،و لكن ما أن يحاولون الصعود يرشقون بالشهب التى تتّصف بأنّها كالنجوم المتحرّكه،فتجبرهم على التراجع،أو تصيبهم فتهلكهم.

و يقولون:من الممكن أن لا نفهم بصوره دقيقه ما تعنيه هذه الآيات فى الوقت الحاضر،إلاّ أنّنا مكلّفون بحفظ ظواهرها،و ترك تفاصيلها للمستقبل.

و قد اختار هذا التّفسير العلاّمه«الطبرسى»فى(مجمع البيان)و«الآلوسى»فى (روح المعانى)و«سيّد قطب»فى(الظلال)،إضافه إلى عدد آخر من المفسّرين.

فى حين يرى البعض الآخر أنّ الآيات المذكوره إنّما هى من قبيل الأمثال

المضروبه تصوّر بها الحقائق الخارجه عن الحسّ فی صوره المحسوس لتقریبها من الحسّ،و هو القائل عزّ و جلّ: وَ تِلْکَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنّاسِ وَ ما یَعْقِلُها إِلاَّ الْعالِمُونَ . (۱)

و أضافوا:إنّ المراد من السماء التی تسکنها الملائکه،عالم ملکوتی ذو أفق أعلی من عالمنا المحسوس،و المراد باقتراب الشیاطین من السماء و استراقهم السمع و قذفهم بالشهب،هو أنّ هذه الشیاطین کلّما حاولت الاقتراب من عالم الملائکه للاطلاع علی أسرار الخلیفه و الحوادث المستقبلیه،طردت من هناک بواسطه نور الملکوت الذی لا یطیقونه،و رمتهم الملائکه بالحقّ الذی یبطل أباطیلهم.

و إیراده تعالی قصّه استراق الشیاطین للسمع و رمیهم بالشهب،عقیب الإقسام بملائکه الوحی و حفظهم إیّاه عن مداخله الشیاطین لا یخلو من تأیید لما ذکرناه (۲) .

و یحتمل أیضا أنّ السماء هنا هی کنایه عن سماء الإیمان و المعنویات التی یحاول الشیاطین النفوذ إلیها،إضافه إلی الانسلال إلی قلوب المؤمنین عن طریق الوساوس التی یبثّونها فی قلوبهم،إلاّ أنّ الأنبیاء و الصالحین و الأئمّه المعصومین من أهل البیت و السائرین علی خطّهم الفکری و العملی یهاجمون الشیاطین بالشهاب الثاقب الذی یمتلکونه،ألا و هو العلم و التقوی،و یمنعون الشیاطین من الاقتراب من هذه السماء.

التّفسیر المذکور أوردناه هناک کاحتمال،و ذکرنا بعض الدلائل و الشواهد علیه فی نهایه الآیه(۱۸)من سوره الحجرات.

هذه ثلاثه تفسیرات مختلفه للآیات مورد البحث و الآیات المشابهه لها.

۱- ۱) -العنکبوت،۴۳.

۲- ۲) -تلخیص من تفسیر المیزان،المجلّد السابع عشر،الصفحه(۱۲۵).

الآیات [سوره الصافات (۳۷): الآیات ۱۱ الی ۱۵]

اشاره

فَاسْتَفْتِهِمْ أَ هُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا إِنّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لاٰزِبٍ (۱۱) بَلْ عَجِبْتَ وَ يَسْخَرُونَ (۱۲) وَ إِذا ذُكِّرُوا لاٰ يَذْكُرُونَ (۱۳) وَ إِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (۱۴) وَ قالُوا إِنْ هٰذا إِلاّٰ سِحْرٌ مُبِينٌ (۱۵)

التّفسیر

اشاره

الذین لا یقبلون الحقّ أبدا:

هـذه الآیـات تعالـج قضیّه منکری البعث،و تتـابع البحث السـابق بشـأن قـدره البـاری عزّ و جلّ خالق السـموات و الأرض،و تبـدأ بالاستفسار منهم و تقول:اسألهم هل أنّ معادهم و خلقهم مرّه ثانیه أصعب أو خلق الملائکه و السماوات و الأرض:

فَاسْتَفْتِهِمْ أَ هُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا

.

نعم،فنحن خلقناهم من مادّه تافهه،من طین لزج: إِنّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لاٰزِبٍ .

فالمشـرکون الـذین ینکرون المعاد،قالوا بعـد سـماعهم الآیات السابقه بشأن خلق السـموات و الأرض و الملائکه.إنّ خلق الإنسان أصعب من خلق السموات

و الأرض و الملائكه.إلاّ أنّ القرآن الكريم أجابهم بالقول:إنّ خلق الإنسان مقابل خلق الأرض و السماء و الملائكه الموجوده فى هذه العوالم،يعدّ لا شىء،لأنّ أصل الإنسان يعود إلى حفنه من التراب اللزج.

«استفتهم»من مادّه«استفتاء»و تعنى الحصول على معلومات جديده.

و هذا التعبير إشاره إلى أنّ المشركين لو كانوا صادقين فى أنّ خلقهم أهمّ و أصعب من خلق السماوات و الملائكه،فإنّهم قد جاؤوا بموضوع جديد لم يطرح مثله من قبل.

«لازب»يقول البعض:إنّ أصلها كان(لازم)،حيث استبدلت(الميم)(باء) و حاليا تستعمل بهذه الصوره،على أيّه حال فهى تعنى الطين المتلازم بعضه ببعض،يعنى الملتصق لأنّ أصل الإنسان كان من التراب الذى خلط بالماء،و بعد فتره أضحى طينا متجمعا ذا رائحه نتنه،ثمّ تحول إلى طين متماسك(و هذه الصوره هى جمع لحالات متعدّده مذكوره فى عدّه آيات فى القرآن المجيد).

ثمّ يضيف القرآن الكريم: بَلْ عَجِبْتَ وَ يَسْخَرُونَ .

نعم أنت تتعجّب لإنكارهم بالمعاد،لأنّك بقلبك الطاهر ترى المسأله واضحه جدّا،و أمّا أصحاب القلوب السوداء فيعبدونها مستحيله إلى حدّ أنّهم يستهزئون بها و ينكرونها.

و ما يمكن وراء تلك التصرفات القبيحه ليس هو الجهل-فقط-و عدم المعرفه، بل إنّها اللجاجه و العناد،إذ أنّهم كلّما ذكروا بدلائل المعاد و العقوبات الإلهيّه لا يتذكّرون وَ إِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ .

و الأنكى من ذلك،أنّهم كلّما شاهدوا معجزه من معجزاتك،لا يكتفون بالاستهزاء،و إنّما يدعون الآخرين للاستهزاء أيضا وَ إِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ .

وَ قالُوا إِنْ هٰذا إِلاّٰ سِحْرٌ مُبِينٌ

.

قولهم«هذا»المقصود منه تحقير المعجزات و الآيات الإلهيه و الانتقاص منها،

و إطلاقهم کلمه«سحر»علی تلک المعجزات لکونها من جهه أعمالا خارقه للعاده، و لا یمکن نکرانها.و من جهه اخری فإنّهم لم یکونوا راغبین للاستسلام لتلک المعاجز،و کلمه السحر کانت الکلمه الوحیده التی تعکس خبثهم و ترضی أهواءهم النفسیه،و توضّح فی نفس الوقت اعترافهم بالتأثیر الکبیر للقرآن و لمعجزات النّبی الأکرم محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

***

ملاحظتان

۱-یعتقد بعض المفسّرین أنّ عباره«یستسخرون»تعنی«یسخرون»، و لا یوجد أی فرق بین العبارتین.فی حین یؤکّد البعض الآخر علی وجود اختلاف بین المعنیین،بقولهم:إنّ«یستسخرون»جاءت من باب استفعال،و تعنی دعوه الآخرین إلی المشارکه فی الاستهزاء،و تشیر إلی أنّهم لم یکتفوا لوحدهم بالاستهزاء بآیات القرآن المجید،و إنّما سعوا لإشراک الآخرین فی ذلک،کی تصیر المسأله عامّه فی المجتمع.

و البعض یعتبر هذا الاختلاف توکید أکثر یستفاد من عباره(یستسخرون).

فیما فسّر البعض الآخر هذه العباره بأنّها«الإعتقاد بکون الشیء مثیرا للسخریه»،و یعنی أنّهم نتیجه انحرافهم الشدید کانوا فی قراره أنفسهم یعتقدون- تماما-أنّ هذه المعجزات لیست أکثر من سخریه،و لکن المعنی الثانی یعدّ أکثر مناسبا من غیره.

۲-عزا بعض المفسّرین سبب نزول هذه الآیه إلی قضیّه مفادها أنّ«رکانه» رجل من المشرکین من أهل مکّه، لقیه الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی جبل خال یرعی غنما له،و کان من أقوی الناس،فقال له:یا رکانه أ رأیت إنّ صرعتک أ تؤمن بی؟

قال:نعم.فصـرعه ثلاثا،ثمّ عرض عليه بعض الآيات و دعا عليه الصـلاه و السـلام شـجره فأقبلت،فلم يؤمن و جاء إلى مكّه فقال:«يا بنى هاشم ساحروا بصاحبكم أهل الأرض».فنزلت فيه و فى أضرابه هذه الآيه.

***

الآیات [سوره الصافات (۳۷): الآیات ۱۶ الی ۲۳]

اشاره

أَ إِذٰا مِتْنٰا وَ کُنّٰا تُرٰاباً وَ عِظٰاماً أَ إِنّٰا لَمَبْعُوثُونَ (۱۶) أَ وَ آبٰاؤُنَا اَلْأَوَّلُونَ (۱۷) قُلْ نَعَمْ وَ أَنْتُمْ دٰاخِرُونَ (۱۸) فَإِنَّمٰا هِیَ زَجْرَهٌ وٰاحِدَهٌ فَإِذٰا هُمْ یَنْظُرُونَ (۱۹) وَ قٰالُوا یٰا وَیْلَنٰا هٰذٰا یَوْمُ اَلدِّینِ (۲۰) هٰذٰا یَوْمُ اَلْفَصْلِ اَلَّذِی کُنْتُمْ بِهِ تُکَذِّبُونَ (۲۱) اُحْشُرُوا اَلَّذِینَ ظَلَمُوا وَ أَزْوٰاجَهُمْ وَ مٰا کٰانُوا یَعْبُدُونَ (۲۲) مِنْ دُونِ اَللّٰهِ فَاهْدُوهُمْ إِلیٰ صِرٰاطِ اَلْجَحِیمِ (۲۳)

التّفسیر

اشاره

هل نبعث من جدید؟

الآیات هذه تتابع سرد أقوال منکری المعاد،و تواصل الرّد علیها،فالآیه الاولی تعکس استبعاد البعث من قبل منکریه،بهذا النصّ أَ إِذٰا مِتْنٰا وَ کُنّٰا تُرٰاباً وَ عِظٰاماً أَ إِنّٰا لَمَبْعُوثُونَ (۱) (۲) .

ص:۲۹۵

۱- ۱) -تفسیر روح المعانی،المجلّد ۲۳،الصفحه ۷۷.

۲- ۲) -هذه الآیه هی بحاله جمله شرطیه و شرطها(أ إذا متنا)بینما جزاءها محذوف و جمله(أ إنّا لمبعوثون)قرینه علیها،لأنّ نفس هذه الجمله-طبقا للقواعد الأدبیه-لا یمکن أن تکون جزاء.

و هل سيبعث آباؤنا الأوّلون أيضا؟ أَ وَ آبٰاؤُنَا الْأَوَّلُونَ .فمن يستطيع جمع تلك العظام النخره و أكوام التراب المتفرّقه المتبقّيه من الإنسان؟و من يتمكّن من إعاده الحياه إليها؟ فهؤلاء ذوى القلوب العمياء نسوا أنّهم كانوا ترابا فى اليوم الأوّل،و من التراب خلقوا،و إذ كانوا يشكّكون فى قدره اللّه،فعليهم أن يعرفوا أنّ اللّه كان قد أراهم قدرته،و إن كانوا يشكّكون باستحاله التراب، فقد أثبت ذلك من قبل،و علاوه على هذا فإنّ خلق السماوات و الأرض بكلّ هذه العظمه لا تترك أى مجال للشكّ عند أحد فى قدره البارى عزّ و جلّ المطلقه.

ممّا يذكر أنّ منكرى البعث صاغوا أقوالهم بشكل عبارات مؤكّده(إذ أنّ جمله أَ إِنّٰا لَمَبْعُوثُونَ هى جمله اسميه استخدمت فيها(إن)و(لام)و التى تأتى كلّ منهما للتأكيد)و ذلك لجهلهم و لجاجتهم.

و ممّا يلفت النظر أنّ كلمه(التراب)قدّمت على(العظام)و هذا الأمر يحتمل أنّه يشير إلى إحدى النقاط الثلاث الآتيه:

أوّلا:إنّ الإنسان بعد وفاته يصير عظاما فى بدايه الأمر،ثمّ يتحوّل إلى تراب، و بما أنّ إعاده التراب إلى الحياه يعدّ شيئا عجيبا،لهذا قدّمت كلمه التراب.

ثانيا:عند اندثار أبدان الأموات،فى البدايه تتحوّل اللحوم إلى تراب و تبقى إلى جانب العظام،و لهذا فهناك تراب و عظام فى آن واحد.

ثالثا:التراب يشير إلى أجساد الأجداد الأوّلين،و العظام تشير إلى أبدان الآباء و التى لم تتحوّل بعد إلى تراب.

ثمّ يردّ القرآن على تساؤلاتهم بلهجه شديده و عنيفه،عند ما يقول للرسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:قل لهم:نعم أنتم و أجدادكم ستبعثون صاغرين مهانين أذلاّء، قُلْ نَعَمْ وَ أَنْتُمْ دٰاخِرُونَ (۱) .

ص:۲۹۶

۱- ۱) -(داخر)من مادّه(دخر)على وزن فخر(دخور)،و كلتاهما تعطى معنى الذلّه و الحقاره.الآيه أعلاه فيها جمله

فهل تتصوّرون أنّ عمليّه إحيائكم و الأوّلين تعدّ مستحيله،أو هی عمل عسير علی اللّه القادر و القوی؟كلاّ،فإنّ صرخه عظيمه واحده ممّن كلّفهم اللّه سبحانه و تعالی بذلك كافيه لبعث الحياه بمن فی القبور،و نهوض الجميع فجأه من دون أیّ تمهيد أو تحضير من قبورهم ليشاهدوا بأعينهم ساحه المحشر التی كانوا بها يكذّبون فَإِنَّمٰا هِیَ زَجْرَةٌ وٰاحِدَةٌ فَإِذٰا هُمْ يَنْظُرُونَ .

(زجره)مشتقّه من(زجر)و كما أشرنا إليها سابقا،فإنّها تعنی الطرد،و أحيانا تأتی بمعنی الصرخه،و هنا تفيد المعنی الثانی،و هی إشاره إلی النفخه و الصيحه الثانيه لإسرافيل،و التی سنتحدّث بشأنها فی الآيات الأخيره لسوره الزمر.

عباره(ينظرون)تشير إلی نظر منكری البعث لساحه المحشر و هم مدهوشون، أو النظر بعنوان انتظار العذاب،و فی كلا الحالتين فإنّ المقصود ليس-فقط-عودتهم إلی الحياه،و إنّما عودتهم إلی الشعور و النظر فور سماعهم الصيحه.

و تعبير زَجْرَةٌ وٰاحِدَةٌ مع الالتفات إلی معنی الكلمتين،يشير إلی أنّ البعث يتمّ بسرعه و علی حين غرّه،و إلی سهولته فی مقابل قدره الباری عزّ و جلّ،إذ بصرخه واحده(لملك البعث)المأمور بها تعود الحياه إلی حالتها الاولی.

و هنا تتعالی صرخات المشركين المغرورين و تبيّن ضعفهم و عجزهم و عوزهم، و يقولون:الويل لنا فهذا يوم الدين وَ قٰالُوا يٰا وَيْلَنٰا هٰذٰا يَوْمُ الدِّينِ .

نعم،فعند ما تقع أعينهم علی محكمه العدل الإلهی و شهودها و قضاتها،و علی علامات العقاب فإنّهم-من دون أن يشعروا- يصرخون و يبكون، و يعترفون بحقيقه البعث،الاعتراف الذی يعجز عن إنقاذهم من العذاب،أو تخفيف العقاب الذی ينتظرهم.

و هنا يوجّه إليهم الخطاب من الباری عزّ و جلّ أو من ملائكته:نعم،اليوم هو

١)

تقديريه هی جوابها،و البقيّه شیء إضافی عليها كی يكتسب القول قاطعيه أكثر،فالتقدير سيكون هكذا(نعم إنّكم مبعوثون حال كونكم داخرين).

يوم الفصل الـذى كنتم به تكذّبون،يوم فصل الحقّ عن الباطل،و فصل المجرمين عن المتّقين،و يوم المحكمه الإلهيّه الكبرى هٰذٰا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ .

و مثـل هـذه العبـارات وردت فى آيـات اخرى من آيـات القرآن الكريم،و الـتى تتنـاول يوم القيـامه،و تعتـبره يوم الفصـل،و هى عبارات عجيبه و رهيبه؟! (۱) .

الملاحظ،هو أنّ الكافرين يوم القيامه يطلقون على هذا اليوم اسم يوم الجزاء يٰا وَيْلَنٰا هٰذٰا يَوْمُ الدِّينِ .

فيما يطلق عليه البارى عزّ و جلّ فى كتابه الحكيم اسم يوم الفصل هٰذٰا يَوْمُ الْفَصْلِ .

إنّ الاختلاف بين التعبيرين يمكن أن يكون لهـذا السبب،و هو أنّ المجرمين لا يفكّرون إلاّ بالجزاء و العقاب الـذى سينالهم،و لكن اللّه سبحانه و تعالى يشير إلى معنى أوسع من الجزاء الـذى يعـدّ أحـد أبعـاد ذلـك اليـوم،إذ يعتـبر ذلـك اليـوم هـو يـوم الفصـل،نعم يوم فصل صـفوف المجرمين عن المتّقين،كما جاء فى الآيه(۵۹)من سوره يس وَ امْتٰازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ فالأمر فى ذلك اليوم موجّه إلى المجرمين أن انفصلوا عن المؤمنين،فهنا ليست دار الدنيا التى تجمع بين المجرمين و المتّقين.

و كم يكون هذا المشهد رهيبا عند ما يشاهدون أقاربهم و أبناءهم ينفصلون عنهم لإيمانهم باللّه،و يتّجهون نحو جنان الخلد.

و علاوه على أنّ ذلك اليوم هو يوم فصل الحقّ عن الباطل،فيجب أن تتبيّن كلّ الخطوط المتضادّه و البرامج الحقيقيّه و الكاذبه التى كانت مختلطه فى عالم الدنيا فى مكانها الخاصّ بها.

على أيّه حال،إنّ ذلك اليوم-أى يوم الفصل-يعنى أيضا يوم المحاكمه،ففى

۱- ۱) -الدخان،الآيه ۴۰،المرسلات،الآيات ۱۳،۱۴،۳۸،النبأ الآيه،۱۷.

ذلک الیوم یقضی اللّه العالم العادل بین عباده و یصدر أحکاما دقیقه بحقّهم،و هنا یخزی المشرکون.

إذن،فطبیعه الدنیا هی اختلاط الحقّ بالباطل،فی حین أنّ طبیعه البعث هو فصل الحقّ عن الباطل،و لهذا السبب فإنّ أحد أسماء یوم القیامه فی القرآن المجید (یوم الفصل)و الذی کرّر عدّه مرّات،الیوم الذی تظهر فیه کافّه الخفایا و الأسرار، و لا یمکن تجنب عملیه فصل الصفوف.

ثمّ یصدر الباری عزّ و جلّ أوامره إلی ملائکته المکلّفین بإرسال المجرمین إلی جهنّم أن اُحْشُرُوا اَلَّذِینَ ظَلَمُوا وَ أَزْوٰاجَهُمْ وَ مٰا کٰانُوا یَعْبُدُونَ .

نعم احشروهم و ما کانوا یعبدون مِنْ دُونِ اَللّٰهِ فَاهْدُوهُمْ إِلیٰ صِرٰاطِ اَلْجَحِیمِ .

(احشروا)مشتقّه من(حشر)و یقول الراغب فی مفرداته:إنّها تعنی إخراج الجماعه عن مقرّهم و إزعاجهم عنه إلی الحرب و نحوها.

و هذه الکلمه تأتی بمعنی«تجمیع»فی الکثیر من الحالات.

علی کلّ حال،فالخطاب هنا إمّا أن یکون من جانب اللّه عزّ و جلّ،أو من طائفه من الملائکه إلی طائفه اخری مکلّفه بسوق المجرمین إلی الجحیم و النتیجه واحده.

(أزواج)هنا إمّا أن تشیر إلی زوجات المجرمین و المشرکین، أو إلی من یعتقد اعتقادهم و یعمل عملهم و من هو علی شاکلتهم،لأنّ هذه الکلمه تشمل المعنیین، حیث نقرأ فی سوره الواقعه الآیه(٧) وَ کُنْتُمْ أَزْوٰاجاً ثَلاٰثَهً .

و بهذا یحشر المشرکون مع المشرکین و الأشرار،و ذوو القلوب العمیاء مع نظائرهم،ثمّ یساقون إلی جهنّم.

أو أنّ المقصود من الأزواج هم الشیاطین الذین کانوا یشابهونهم فی الشکل و العمل.

المهمّ،هو عدم وجود أی اختلاف بین هذه المعانی الثلاثه،و من الممکن أن

تجتمع فی مفهوم الآیه.

جمله مٰا کٰانُوا یَعْبُدُونَ تشیر إلی آلهه المشرکین،کالأصنام و الشیاطین و الطغاه المتجبّرین و الفراعنه و النمارده،و عبّرت عنها ب مٰا کٰانُوا یَعْبُدُونَ لکون أغلب تلک الآلهه موجودات عدیمه الحیاه و غیر عاقله،و قد اصطلح علیها بهذا التعبیر لأنّه یعطی طابع التغلیب.

(الجحیم)تعنی جهنّم،و هی من مادّه(جحمه)علی وزن(ضربه)و تعنی شدّه تأجیج النار.

و الملاحظ فی الآیه استخدامها عباره فَاهْدُوهُمْ إِلیٰ صِرٰاطِ الْجَحِیمِ حقّا کم هذه العباره عجیبه؟ففی أحد الأیّام ارشدوا إلی الصراط المستقیم و لکنّهم لم یقبلوه،و الیوم یجب أن یهدوا إلی صراط الجحیم،و هم مجبرون علی القبول به، و هذا توبیخ عنیف لهم یجعلهم یتحرّقون ألما فی أعماقهم.

***

ص:۳۰۰

الآیات [سوره الصافات (٣٧): الآیات ٢۴ الی ٣٢]

اشاره

وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ (٢۴) مٰا لَكُمْ لاٰ تَنٰاصَرُونَ (٢۵) بَلْ هُمُ اَلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢۶) وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ يَتَسٰاءَلُونَ (٢٧) قٰالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنٰا عَنِ اَلْيَمِينِ (٢٨) قٰالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَ مٰا كٰانَ لَنٰا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطٰانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طٰاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنٰا قَوْلُ رَبِّنٰا إِنّٰا لَذٰائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنٰاكُمْ إِنّٰا كُنّٰا غٰاوِينَ (٣٢)

التّفسیر

اشاره

الحوار بین القاده و الأتباع الضالّین:

الآیات السابقه استعرضت کیفیه سوق ملائکه العذاب للظالمین و من یعتقد اعتقادهم برفقه الأصنام و الآلهه الکاذبه التی کانوا یعبدونها من دون اللّه،إلی مکان معیّن،و من ثمّ هدایتهم إلی صراط الجحیم.

و استمرارا لهذا الاستعراض یقول القرآن: وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ (١) .

ص:٣٠١

١- ١) -(قفوهم)من مادّه(وقف)و أحیانا تأتی بصوره فعل متعد و تعنی(التوقیف و الحبس)،و أحیانا اخری تأتی

نعم عليهم أن يتوقّفوا و يجيبوا على مختلف الأسئله التی تطرح عليهم،و لكن عمّا ذا يسألون؟ قال البعض:يسألون عن البدع التی اختلقوها.

و قال البعض الآخر:يسألون عن أعمالهم القبيحه و أخطائهم.

و البعض أضاف:إنّهم يسألون عن التوحيد و قول لا إله إلاّ اللّه.

و ذهب آخرون:إنّهم يسألون عن النعم التی أنعمت عليهم،و عن شبابهم و صحّتهم و أعمارهم و أموالهم و نحوها،و هناک روايه يذكرها الشيعه و السنّه فی أنّهم يسألون عن ولايه أمير المؤمنين علی بن أبی طالب عليه السّلام (۱) .

و بالطبع فإنّ هذه التفاسير لا يوجد أی تناقض بينها،لأنّ فی ذلک اليوم يتمّ السؤال عن كلّ شیء،عن العقائد و عن التوحيد و الولايه،و عن الحديث و العمل، و عن النعم و المواهب التی وضعها اللّه سبحانه و تعالی فی إختيار الإنسان.

و هنا يطرح هذا السؤال نفسه،و هو:كيف يساق أولئک أوّلا إلی صراط الجحيم، ثمّ يؤمرون بالتوقّف لاستجوابهم؟ ألا ينبغی تقديم عمليه إيقافهم و مساءلتهم علی سوقهم إلی صراط الجحيم؟ هناک جوابان لهذا السؤال و هما:

أوّلا:كون أولئک من أهل جهنّم أمر واضح للجميع،و حتّی لأنفسهم، و استجوابهم إنّما يتمّ لإعلامهم بمقدار و حجم الذنوب و الجرائم التی اقترفوها..

ثانيا:طرح هذه الأسئله عليهم لا لمحاكمتهم،و إنّما ذلک لتوبيخهم و معاقبتهم نفسيا.

و بالطبع فإنّ كلّ ذلک فی حاله كون الأسئله متعلّقه بما أوردنا آنفا،أمّا إذا ارتبط

(۱)

بصوره فعل لازم،و تعنی(التوقّف و الوقوف)و مصدر الاولی هو وقفه،و مصدر الثانيه وقوف.

۱- ۱) -الروايه هذه وردت فی(الصواعق)عن أبی سعيد الخدری نقلا عن رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم كما وردت عن الحاكم بن أبو القاسم الحسكانی فی(شواهد التنزيل)نقلا عن رسول اللّه،كذلک وردت فی عيون أخبار الرضا نقلا عن الإمام الرضا عليه السّلام.

الحدیث بالآیه التالیه و التی تسألهم عن عدم نصرتهم بعضهم البعض،فهنا لا تبقی أیّه مشکله فی تفسیر الآیه،و لکن هذا التّفسیر لا یتطابق مع جاء فی عدّه روایات بهذا الشأن،إلّا إذا کان هذا السؤال جزء من أسئله مختلفه.

علی أیّه حال،فعند ما یساق المجرمون إلی صراط الجحیم،تکون أیدیهم مقطوعه عن کلّ شیء و قاصره عن تحصیل العون،و یقال لهم:أنتم الذین کان أحدکم یلجأ إلی الآخر فی المشکلات و یطلب العون منه،لم لا ینصر بعضکم بعضا الآن مٰا لَکُمْ لاٰ تَنٰاصَرُونَ .

نعم،فکلّ الدعائم التی تصوّرتم انّها دعامات مطمئنه فی الدنیا أزیلت عنکم، و لا یمکن أن یساعد بعضکم البعض،کما أنّ آلهتکم لیسوا بقادرین علی تقدیم العون لکم،لأنّهم عاجزون و منشغلون بأنفسهم.

یقال أنّ(أبا جهل)نادی یوم معرکه بدر«نحن جمیع منتصر»،و القرآن المجید أعاد تکرار قوله فی الآیه(۴۴)من سوره القمر أَمْ یَقُولُونَ نَحْنُ جَمِیعٌ مُنْتَصِرٌ فیوم القیامه یسأل أبو جهل و أمثاله:لماذا لا یسعی بعضکم لمساعده البعض الآخر؟و لکن لا یمتلکون أی جواب لهذا السؤال،سوی سکوتهم الدالّ علی ذلّتهم.

الآیه التی تلیها تضیف:إنّهم فی ذلک الیوم مستسلمون لأوامر اللّه و خاضعون له،و لا یمکنهم إظهار المخالفه أو الاعتراض بَلْ هُمُ الْیَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (۱) .

و هنا یبدأ کلّ واحد منهم بلوم الآخر،و یسعی إلی إلقاء أوزاره علی عاتق الآخر،و التابعون یعتبرون رؤساءهم و أئمّتهم هم المقصّرون،فیقابلونهم وجها لوجه،و یبدأ کلّ منهم بسؤال الآخر،کما تقول الآیه: وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلیٰ بَعْضٍ یَتَسٰاءَلُونَ .

---

۱ – ۱) -(استسلام)من مادّه(السلامه)و لکونها من باب(استفعال)فهی بمعنی طلب السلامه و التی عاده تکون ملازمه للانقیاد و الخضوع فی مقابل قوّه أعظم.

و هنا يقول التابعون لمتبوعيهم:إنّكم شياطين،إذ كنتم تأتوننا بعنوان النصيحه و الهدايه و التوجيه و إراده الخير و السعاده لنا،و لكن لم يكن من وراء مجيئكم سوى المكر و الضياع قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنٰا عَنِ الْيَمِينِ .

إذ أنّنا-بحكم فطرتنا-كنّا نسعى وراء الخير و الطهاره و السعاده،و لذا لبّينا دعوتكم،لكنّنا لم نكن نعلم أنّكم تخفون وراء وجوهكم الخيّره ظاهرا وجها آخر شيطانيا و قبيحا أوقعنا فى الخطيئه،نعم فكلّ الذنوب التى ارتكبناها أنتم مسئولون عنها،لأنّنا لم نكن نملك شيئا سوى حسن النيّه و طهاره القلب،و أنتم الشياطين الكذّابون لم يكن لديكم سوى الخداع و المكر.

كلمه(يمين)تعنى(اليد اليمنى)أو(الجهه اليمنى)و العرب تعتبرها فى بعض الأحيان كنايه عن الخير و البركه و النصيحه،و كلّ ما يرد إليهم من جهه اليمين يتفاءلون به،و لذا فإنّ الكثير من المفسّرين يفسّرون كُنْتُمْ تَأْتُونَنٰا عَنِ الْيَمِينِ على أنّها تظهر الخير و النصيحه كما ذكرنا ذلك أعلاه.

على أيّه حال،الثقافه العامّه تعتبر العضو الأيمن أو الطرف الأيمن شريفا، و الأيسر غير شريف،و لهذا السبب تستعمل اليمين للإحسان و عمل الخيرات.

و قد ذكرت مجموعه من المفسّرين تفسيرا آخر و هو:إنّ المقصود هو أنّكم أتيتمونا باعتمادكم على القدره،لأنّ الجهه اليمنى تكون عاده هى الأقوى،و بهذا الدليل فإنّ أغلب الناس ينجزون أعمالهم المهمّه و الصعبه باليد اليمنى،لذا فقد أصبح هذا التعبير كنايه عن«القدره».

و هناك تفسيرات اخرى تعود إلى هذين التّفسيرات أعلاه،و لكن لا شكّ أنّ التّفسير الأوّل أنسب.

و فى المقابل فإنّ المتبوعين و القاده لا يسكتون،بل يجيبون تابعيهم بالقول:

قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ

.

فلو لم تكن أهواؤكم منحرفه،و لو لم تكونوا من طلّاب الشرّ و الشيطنه،لما

اتّبعتمونا بإشاره واحده،و لماذا لم تستجيبوا لدعوه الأنبياء و الصالحين؟إذا فالخلل فيكم أنتم،اذهبوا و لوموا أنفسكم و العنوها.و دليلنا واضح،إذ لم تكن لنا أى سلطه عليكم،و لم نضغط عليكم و نجبركم لعمل أى شىء وَ مٰا كٰانَ لَنٰا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطٰانٍ .

إنّما أنتم قوم طغاه و معتدون،و أخلاقكم و طبيعتكم الظالمه صارت سبب تعاستكم بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طٰاغِينَ .

و كم هو مؤلم أن يرى الإنسان قائده و إمامه الذى كان قد ارتبط به قلبيّا طوال عمره،قد تسبّب فى تعاسته و شقائه ثمّ يتبرّأ منه،و يلقى كلّ الذنوب على عاتقه؟ فى الحقيقه،إنّ كلا المجموعتين صادقه فى قولها،فلا هؤلاء،أبرياء و لا أولئك، فالغوايه و الشيطنه كانت من أولئك،و تقبل الغوايه و الاستسلام كان من هؤلاء.

فجدا لكم لا يؤدّى إلى نتيجه،و هنا يعترف أئمّه الضلال بهذه الحقيقه،و يقولون:

بهذا الدليل ثبت أمر اللّه علينا،و صدر حكم العذاب بحقّ الجميع،و سينالنا جميعا عذاب اللّه فَحَقَّ عَلَيْنٰا قَوْلُ رَبِّنٰا إِنّٰا لَذٰائِقُونَ .

إنّكم كنتم طاغين،و هذا هو مصير الطغاه،أمّا نحن فقد كنّا ضالّين و مضلّين.

فنحن أضللناكم كما كنّا نحن أنفسنا ضالّين فَأَغْوَيْنٰاكُمْ إِنّٰا كُنّٰا غٰاوِينَ .

بناء على ذلك ما الذى يثير العجب فى أن نكون جميعا شركاء فى هذه المصائب و هذا العذاب؟ ***

ملاحظتان

اشاره

۱-السؤال أيضا عن ولايه أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام:

بالشكل الذى أشرنا إليه سابقا،فإنّ روايات عديده وردت فى مصادر الشيعه و أهل السنّه بشأن تفسير هذه الآيه وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ تبيّن أنّ من جمله

ص :۳۰۵

القضايا التى يسأل عنها المجرمون يوم القيامه هو ما يتعلّق بولايه أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام.

فالشيخ«الطوسى»نقل فى كتابه(الأمالى)عن أنس بن مالك عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إذا كان يوم القيامه و نصب الصراط على جهنّم لم يجز عليه إلّا من معه جواز فيه ولايه على بن أبى طالب،و ذلك قوله تعالى: وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ يعنى عن ولايه على بن أبى طالب عليه السّلام» (۱) .

كما أكّد الكثير من كتب أهل السنّه على أنّ تفسير هذه الآيه يخصّ السؤال بشأن ولايه على بن أبى طالب عليه السّلام،و قد نقل هذه الروايه ابن عبّاس و أبى سعيد الخدرى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،كما نقلها رواه آخرون منهم:

ابن حجر الهيثمى فى الصواعق المحرقه-الصفحه ۱۴۷.

عبد الرزاق الحنبلى فى كشف الغمّه-الصفحه ۹۲.

العلّامه سبط ابن الجوزى فى التذكره-الصفحه ۲۱.

الآلوسى فى روح المعانى فى نهايه هذه الآيه.

أبو نعيم الأصفهانى فى كفايه الخصال-الصفحه ۳۶۰،و غيرهم من الرواه (۲) .

و بالطبع،و كما قلنا مرارا،فإنّ مثل هذه الروايات لا تحدّ من المفهوم الواسع للآيات،بل تعكس-فى الحقيقه-مصاديقها الواضحه،بناء على ذلك فإنّه ليس هناك أى مانع من أن يسأل عن جميع العقائد،لكن بما أنّ للولايه موقعا خاصّا فى بحث العقائد فقد استند عليها.

و هناك نقطه جديره بالاهتمام،و هى أنّ الولايه لا تعنى علاقه عاديه أو اعتقادا جافّا،و إنّما الهدف هو قبول قياده الإمام على عليه السّلام فى المسائل العقائديه و العلميه

ص: ۳۰۶

۱- ۱) -تفسير نور الثقلين،المجلّد الرابع،الصفحه ۴۰۱.

۲ - ۲) -لكسب المزيد من الاطلاع فى هذا المجال يراجع إحقاق الحقّ،المجلّد الثالث(الطبعه الجديده)صفحه (۱۰۴)،و المراجعات،الصفحه ۵۸(المراجعه ۱۲).

و الأخلاقيه و الاجتماعيه بعد النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و قد عكست خطب أمير المؤمنين عليه السّلام و كلماته فى نهج البلاغه نماذج من تلك المسائل.. المسائل التى يعدّ الإيمان بها و العمل على أساسها وسيله مؤثّره للخروج من صفّ أهل جهنّم و الاستقرار على صراط اللّه المستقيم.

٢-المتبوعون و التابعون الضالّون:

الآيات المذكوره أعلاه و آيات اخرى فى القرآن الكريم،تضمّنت إشارات ذات مغزى عن التخاصم الذى يقع بين الأتباع و المتبوعين يوم القيامه أو فى جهنّم و هذا تحذير مفيد لكلّ من يضع عقله و دينه تحت تصرّف أئمّه الضلال.

و مع أنّ كلّ واحد يسعى فى ذلك اليوم للتبرؤ من الآخر،و حتّى أنّه يحاول إلقاء تبعات ارتكاب الذنب عليه،و لكن بتلك الحال لا يستطيع أى واحد منهم إثبات براءته.

و شاهدنا فى الآيات المذكوره أعلاه أنّ أئمّه الغوايه و الضلال يقولون بصراحه لتابعيهم:إنّ سبب تأثيرنا عليكم هو وجود روح الطغيان فى داخلكم بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ .

هذا الطغيان هيّأ لديكم أرضيه التأثّر بإغوائنا،و عبّر هذا الطريق تمكّنا من نقل الخرافات إليكم فَأَغْوَيْناكُمْ إِنّا كُنّا غاوِينَ .

التوجّه الدقيق لمعنى(أغوى)و المشتقّه من(غى)يوضّح الموضوع،لأنّ كلمه (غىّ)كما يقول الراغب فى(مفرداته)تعنى الجهل الناشئ من المعتقدات الفاسده،إذ أنّ أئمّه الضلال بقوا بعيدين عن معرفه حقائق الوجود و الحياه،و نقلوا جهلهم و معتقداتهم الفاسده إلى تابعيهم الذين كانوا يحملون روح الطغيان فى مقابل أمر البارى عزّ و جلّ.

و بهذا الدليل يعترفون هناك بأنّهم هم و تابعوهم يستحقّون العذاب، فَحَقَّ عَلَيْنا

ص:٣٠٧

قَوْلُ رَبِّنٰا إِنّٰا لَذٰائِقُونَ

.

و كلمه (ربّ)هنا لها مغزى كبير،إذ أنّ الإنسان يصل إلى درجه بحيث أنّ اللّه الـذى هو مالك ذلك الإنسان و مربّيه و لا يريد له سوى الخير و السعاده يأمر بالقائه فى أشدّ العذاب!!و هذا أيضا من شؤون ربوبيته.

على أيّه حال فإنّ ذلك اليوم هو حقّا(يوم الحسـره)حيث ينـدم فيه أئمّه الضـلال و تابعوهم على أفعالهم،و لكن ما الفائـده؟فليس هناك أى طريق للرجعه.***

الآيات [سوره الصافات (۳۷): الآيات ۳۳ الی ۴۰]

اشاره

فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِی اَلْعَذٰابِ مُشْتَرِكُونَ (۳۳) إِنّٰا كَذٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (۳۴) إِنَّهُمْ كٰانُوا إِذٰا قِيلَ لَهُمْ لاٰ إِلٰهَ إِلاَّ اَللّٰهُ يَسْتَكْبِرُونَ (۳۵) وَ يَقُولُونَ أَ إِنّٰا لَتٰارِكُوا آلِهَتِنٰا لِشٰاعِرٍ مَجْنُونٍ (۳۶) بَلْ جٰاءَ بِالْحَقِّ وَ صَدَّقَ اَلْمُرْسَلِينَ (۳۷) إِنَّكُمْ لَذٰائِقُوا اَلْعَذٰابِ اَلْأَلِيمِ (۳۸) وَ مٰا تُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۳۹) إِلاّٰ عِبٰادَ اَللّٰهِ اَلْمُخْلَصِينَ (۴۰)

التّفسير

اشاره

مصير أئمّه الضلال و أتباعهم:

الآيات السابقه بحثت موضوع التخاصم الذی يدور بين أئمّه الضلال و تابعيهم يوم القيامه قرب جهنّم،أمّا الآيات أعلاه فقد وضّحت-فی موضع واحد-مصير المجموعتين،و شرحت أسباب تعاستهم بشكل يشخّص المرض و يصف الدواء الخاص لمعالجته.

ففی البدايه تقول:إنّ التابع و المتبوع و الإمام و المأموم مشتركون فی ذلك اليوم

ص:۳۰۹

بالعذاب الإلهی فَإِنَّهُمْ یَوْمَئِذٍ فِی الْعَذٰابِ مُشْتَرِکُونَ .

و بالطبع فإنّ اشتراکهم فی العذاب لا یمنع من وجود اختلاف فی المکان الذی سیلقون به جهنّم،إضافه إلی اختلاف نوع العذاب الإلهی.إذ من الطبیعی أنّ الذی یتسبّب فی انحراف الآلاف من البشر لا یتساوی عذابه مع فرد ضالّ عادی،و هذه الآیه تشبه الآیه(۴۸)فی سوره غافر و التی یقول فیها المستکبرون لضعفاء الإیمان بعد محاجه و مخاصمه تجری فیما بینهم:إنّنا جمیعا فی جهنّم،لأنّ اللّه قد حکم بالعدل بین العباد قٰالَ الَّذِینَ اسْتَکْبَرُوا إِنّٰا کُلٌّ فِیهٰا إِنَّ اللّٰهَ قَدْ حَکَمَ بَیْنَ الْعِبٰادِ .

و هذه الآیه لا تنافی الآیه(۱۳)من سوره العنکبوت،و التی یقول فیها الباری عزّ و جلّ وَ لَیَحْمِلُنَّ أَثْقٰالَهُمْ وَ أَثْقٰالاً مَعَ أَثْقٰالِهِمْ أی إنّهم یحملون یوم القیامه أحمالهم الثقیله،و أحمالا اخری أضیفت إلی أحمالهم الثقیله،و ذلک أثر إغوائهم و إضلالهم للآخرین و تشجیعهم علی ارتکاب الذنب.

و للتأکید علی تحقّق العذاب تقول الآیه التی تلتها إِنّٰا کَذٰلِکَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِینَ إنّ هذه هی سنّتنا،السنّه المستمدّه من قانون العداله.

ثمّ توضّح السبب الرئیسی الکامن وراء تعاسه أولئک،و تقول: إِنَّهُمْ کٰانُوا إِذٰا قِیلَ لَهُمْ لاٰ إِلٰهَ إِلاَّ اللّٰهُ یَسْتَکْبِرُونَ .

نعم،إنّ التکبر و الغرور،و عدم الانصیاع للحقّ،و العمل بالعادات الخاطئه و التقالید الباطله بإصرار و لجاجه،و النظر إلی کلّ شیء باستخفاف و استحقار، تؤدّی جمیعا إلی انحراف الإنسان.

فروح الاستکبار یقابلها الخضوع و الاستسلام للحقّ و الذی هو الإسلام الحقیقی،الاستکبار الذی هو أساس الظلام،فیما أنّ الخضوع و الاستسلام هو أساس السعاده.

و الذی یثیر الاهتمام أنّ بعض آیات القرآن الکریم توضّح بصوره مباشره

العذاب الإلهی الذی سیعذّب به المستکبرون فَالْیَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذٰابَ الْهُونِ بِمٰا کُنْتُمْ تَسْتَکْبِرُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَیْرِ الْحَقِّ . (۱)

لکن هؤلاء برّروا ارتکابهم للذنوب الکبیره بتبریرات أسوأ من ذنوبهم،کقولهم:

هل نترک آلهتنا و أصنامنا من أجل شاعر مجنون وَ یَقُولُونَ أَ إِنّٰا لَتٰارِکُوا آلِهَتِنٰا لِشٰاعِرٍ مَجْنُونٍ .

لقد أطلقوا علی النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کلمه(شاعر)لأنّ کلامه کان ینفذ إلی قلوبهم و یحرّک عواطفهم،فأحیانا کان یتکلّم إلیهم بکلام یفوق أفضل الأشعار وزنا،فی الوقت الذی لم یکن حدیثه شعرا،و کانوا یعتبرونه(مجنونا)لکونه لم یتلوّن بلون المحیط الذی یعیش فیه، و وقف موقفا صلبا أمام العقائد الخرافیه التی یعتقد بها المجتمع المتعصّب حینذاک،الموقف الذی اعتبره المجتمع الضالّ فی ذاک الوقت نوع من الانتحار الجنونی،فی الوقت الذی کان أکبر فخر لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،هو عدم استسلامه للوضع السائد حینذاک.

و هنا تدخل القرآن لردّ ادّعاءاتهم التافهه و الدفاع عن مقام الوحی و رساله النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،عند ما قال: بَلْ جٰاءَ بِالْحَقِّ وَ صَدَّقَ الْمُرْسَلِینَ .

فمحتوی کتابه من جهه،و توافق دعوته مع دعوات الأنبیاء السابقین من جهه اخری،هی خیر دلیل علی صدق حدیثه.

و أمّا أنتم أیّها المستکبرون الضالّون،فإنّکم ستذوقون العذاب الإلهی الألیم إِنَّکُمْ لَذٰائِقُوا الْعَذٰابِ الْأَلِیمِ .

و لا تتصوّروا أنّ اللّه منتقم،و أنّه یرید الانتقام لنبیّه منکم،کلاّ لیس کذلک وَ مٰا تُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

و حقیقه الأمر أنّ أعمالکم سوف تتجسّد أمامکم،لتبقی معکم لتؤذیکم و تعذّبکم،و جزاؤکم إنّما هو نتیجه أعمالکم و تکبّرکم و کفرکم و عدم إیمانکم باللّه

۱- ۱) -الأحقاف،۲۰.

و زعمکم بأنّ آیات اللّه هی(شعر)و رسوله(مجنون)إضافه إلی ظلمکم و ارتکابکم القبائح.

آخر آیه فی هذا البحث،و التی هی-فی الحقیقه-مقدّمه للبحث المقبل، تستثنی مجموعه من العذاب،و هی-مجموعه عباد اللّه المخلصین إِلاّ عِبٰادَ اللّٰهِ الْمُخْلَصِینَ (۱) .

و کلمه عِبٰادَ اللّٰهِ یمکنها لوحدها أن تبیّن ارتباط هذه المجموعه باللّه سبحانه و تعالی،و عند ما تضاف إلیها کلمه مخلصین فإنّها تعطی لتلک الکلمه عمقا و حیاه، و«مخلص»(بفتح اللام)جاءت بصیغه اسم مفعول،و تعنی الشخص الذی أخلصه اللّه سبحانه و تعالی لنفسه،أخلصه من کلّ أشکال الشرک و الریاء و من وساوس الشیاطین و هوی النفس.

نعم فهذه المجموعه لا تحاسب علی أعمالها،و إنّما یعاملها اللّه سبحانه و تعالی بفضله و کرمه،و یمنحها من الثواب بغیر حساب.

***

ملاحظه

الإمعان فی آیات القرآن الکریم یبیّن أنّ کلمه(مخلص)بکسر اللام،قد استخدمت بکثره فی المواقع التی تتحدّث عن حاله الإنسان الذی یعیش مراحل بناء نفسه،و لم یصل إلی التکامل،أمّا کلمه(مخلص)بفتح اللام،فتطلق علی مرحله وصل فیها الإنسان إلی مرتبه یصان فیها من نفوذ وساوس الشیطان إلی قلبه،بعد أنّ اجتاز مرحله جهاد النفس و مراحل المعرفه و الإیمان،کما أنّ القرآن ینقل عن إبلیس الخطاب التالی للّه سبحانه و تعالی فَبِعِزَّتِکَ لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ إِلاّ عِبٰادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِینَ .

هذه الآیه تکرّرت عدّه مرّات فی القرآن،و هی توضّح عظمه مقام المخلصین،

۱- ۱) -العباره هذه(استثناء منقطع)من ضمیر(تجزون)أو(لذائقو).

مقام یوسف الصدّیق بعد أن عبر ساحه الاختبار الکبیره بنجاح،و أمثاله من المخلصین کَذٰلِکَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشٰاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبٰادِنَا الْمُخْلَصِینَ أی نحن أظهرنا البراهین لیوسف لنبعد عنه الفحشاء و السوء،لأنّه من عبادنا المخلصین(سوره یوسف-۲۴).

فمقام المخلصین لا یناله إلاّ من انتصر فی الجهاد الأکبر،و شمله اللطف الإلهی بإزاله کلّ شیء غیر خالص من وجوده،و لا تبقی فیه سوی النفس الطاهره الخالصه-کالذهب الخالص-عند إذابتها فی أفران الحوادث و الاختبار.و هنا فإنّ مکافأتهم لا تتمّ وفق معیار أعمالهم،و إنّما معیار مکافأتهم هو الفضل و الرحمه الإلهیّه.

و العلاّمه الطباطبائی رحمه اللّه علیه یقول بهذا الشأن:

«یقول اللّه سبحانه و تعالی فی هذه الآیه،إنّ کافّه الناس یأخذون مکافأه أعمالهم إلاّ العباد المخلصین له،لأنّهم یدرکون بأنّهم عبید اللّه،و العبد هو الذی لا یملک لنفسه شیئا من إراده و لا عمل،فهؤلاء لا یریدون إلاّ ما أراده اللّه و لا یعملون إلاّ له.و لکونهم من المخلصین،فقد أخلصهم لنفسه،و لا تعلّق لهم بشیء غیر ذات اللّه تعالی.فقلوبهم خالیه من حبّ الدنیا و زخارفها،و لیس فیها إلاّ اللّه سبحانه.

و من المعلوم أنّ من کانت هذه صفته کان التذاذه و تنعّمه بغیر ما یلتذّ و یتنعّم به غیره،و ارتزاقه بغیر ما یرتزق به سواه،و إن شارکهم فی ضروریات المأکل و المشرب،و من هنا یتأیّد أنّ المراد بقوله: أُولٰئِکَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ الإشاره إلی أنّ رزقهم فی الجنّه رزق خاص لا یشبه غیره،(و أنّهم یرزقون من مظاهر ذات اللّه الطاهره،و قلوبهم متعطّشه اشتیاقا للّه،و غارقه فی العشق و الوصول إلی اللّه) (۱) .

***

۱- ۱) -المیزان،المجلّد ۱۷،الصفحه ۱۴۱.

الآیات [سوره الصافات (۳۷): الآیات ۴۱ الی ۴۹]

اشاره

أُولٰئِکَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (۴۱) فَوٰاکِهُ وَ هُمْ مُکْرَمُونَ (۴۲) فِی جَنّٰاتِ اَلنَّعِیمِ (۴۳) عَلیٰ سُرُرٍ مُتَقٰابِلِینَ (۴۴) یُطٰافُ عَلَیْهِمْ بِکَأْسٍ مِنْ مَعِینٍ (۴۵) بَیْضٰاءَ لَذَّهٍ لِلشّٰارِبِینَ (۴۶) لاٰ فِیهٰا غَوْلٌ وَ لاٰ هُمْ عَنْهٰا یُنْزَفُونَ (۴۷) وَ عِنْدَهُمْ قٰاصِرٰاتُ اَلطَّرْفِ عِینٌ (۴۸) کَأَنَّهُنَّ بَیْضٌ مَکْنُونٌ (۴۹)

التّفسیر

اشاره

جوانب من النعم لأهل الجنّه:

الآیات الأخیره فی البحث السابق تحدّثت عن عباد اللّه المخلصین،أمّا آیات بحثنا هذا فإنّها تستعرض العطایا و النعم غیر المحدوده التی یهبها اللّه سبحانه و تعالی لأهل الجنّه،و یمکن توضیحها فی سبعه أقسام:

تقول الآیه أوّلا:إنّ لهم رزقا معلوما و معیّنا أُولٰئِکَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ .

فهل هذه هی خلاصه لتلک النعم التی ستبیّنها الآیات فیما بعد،و توضیح للنعم التی ستغدق علیهم بصوره خفیّه.

أو إشاره إلی نعم معنویه غیر معروفه و غیر قابله للوصف،تتصدّر نعم أهل

الجنّه.

بعض المفسّرين فسّرها بالشكل الأوّل،فيما فسّرها آخرون بالشكل الثانى، و تناسب البحث يتواءم مع المعنى الثانى،و بهذا فإنّ النعمه الاولى من النعم السبع- التى وردت فى آيات بحثنا-هى الهبات المعنويه و المتع الروحيه و درک مظاهر ذات اللّه،و تناول الشراب الطاهر و الغمره فى عشق اللّه.اللذّه التى لا يمكن أن يدركها العبد ما لم يتذوّقها و يعيش رحابها.

و السبب فى أنّ العطايا المادّيه فى الجنّه قد ذكرت فى آيات القرآن الكريم بالتفصيل و الهبات المعنويه و الملذّات الروحيه استعرضت بصوره خفيّه،فهو أنّ الأولى قابله للوصف دون الثانيه.

و أمّا بشأن معنى رِزْقٌ مَعْلُومٌ فلقد قيل عنها الكثير،هل هى بمعنى معلوم الوقت،أم بقاءه و دوامه،أم سائر خصائصه؟و لكن كما قلنا قبل قليل فانّ«معلوم» تعبير خفى و مجمل عن المواهب التى لا تقبل الوصف.

ثمّ ينتقل إلى بيان نعم اخرى،و يعدّد قبل كلّ شىء بعض نعم الجنّه التى تقدّم لأهل الجنّه بكل احترام و تكريم فَوٰاكِهُ وَ هُمْ مُكْرَمُونَ .

و ليس بتلك الصوره التى يرمى فيها الطعام أمام الحيوان لتناوله،و إنّما يقدّم لهم الطعام بكلّ احترام و كأنّهم ضيوف أعزّاء.

هنا نترک الحديث عن أنواع الفواكه التى تقدّم لأهل الجنّه باحترام و تجليل، لنتطرّق إلى أماكنهم فى الجنّه،حيث أنّ القرآن الكريم يقول:إنّ أماكنهم فى حدائق خضراء مملوءه بنعم الجنّه فِى جَنّٰاتِ النَّعِيمِ .

فأى نعمه يتمنّونها موجوده هناک،و كلّ ما يطلبون يجدونه أمامهم.

و أشارت الآيات إلى النعمه الرابعه،و هى استئناس أهل الجنّه بمجالس السمر التى يعقدونها مع أصدقائهم فى جوّ ملؤه الصفاء،إذ يجلسون على سرر متقابله و ينظر كلّ منهم إلى الآخر عَلىٰ سُرُرٍ مُتَقٰابِلِينَ .

ص :٣١۵

يتـذاكرون فى كلّ شـىء،فمرّه تراهم يتحـدّثون عن ماضـيهم فى الدنيا،و اخرى عن النعم العظيمه التى أغدقها عليهم البارى عزّ و جـلّ فى الآـخره،و أحيانـا يسـتعرضون صـفات الجمـال و الجلال عنـد اللّه،و فى أوقات يتحـدّثون عن مقام الأولياء و كراماتهم،و يتذاكرون قضايا اخرى قد لا ندركها نحن المسجونون فى هذه الدنيا.

«سـرر»هى جمع(سرير)و هى الأسره التى يجلس عليها الناس فى مجالس سمرهم،كما أنّ لهذه الكلمه معان أوسع،حتّى أنّها تطلق أحيانا على تابوت الميّت،و يحتمل أن يكون إطلاق هـذه التسـميه على تابوت الميّت برجاء أن يكون التابوت مركب بهجه يسـير به إلى الرحمه الإلهيه و جنّه الخلد.

أمّـا القسم الخامس فيتحـدّث عن نعمه اخرى من النعم التى تغـدق على أهل الجنّه،إذ تطرّق إلى الشـراب الطهور الـذى يطاف به عليهم بكـؤوس مملوءه بـأنواع الخمور الطـاهره،و مـتى مـا أرادوا فـإنّهم يسـقون من ذلـك الخمر ليغرقوا فى عـالم من النشـاط و الروحيه يُطٰافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ .

و هذه الكؤوس ليست فى مكان معيّن يذهبون إليها لأخذها،و إنّما يطاف بها عليهم يُطٰافُ عَلَيْهِمْ .

كلمـه(كـأس)يطلقهـا أهـل اللغـه على إنـاء الشـراب المملـوء،فيمـا يطلقـون كلمـه (قـدح)عليـه إن كـان خاليـا،و قـال الراغب فى مفرداته:الكأس الإناء بما فيه من الشراب.

أمّا كلمه(معين)مشـتقّه من(معن)على وزن(صـحن)و تعنى الجارى،إشاره إلى أنّ هناك عيونا جاريه من الخمر الطاهر،تملأ منها-فى كـلّ لحظه-الكؤوس،و من ثمّ يطاف بها على أهل الجنّه،و هـذه العيون الجاريه من الخمر الطاهر لا تنضب و لا تفسـد،إضافه إلى أنّ الحصول عليها لا يحتاج إلى أى مشقّه أو تعب.

ثمّ ينتقل الحديث إلى وصف كؤوس الشراب،إذ يقول:إنّها بيضاء اللون

و متلألئه و تعطى لذّه للشاربين بها بَيْضٰاءَ لَذَّهٍ لِلشّٰارِبِينَ .

و كلمه(بيضاء)اعتبرها بعض المفسّرين صفه لكؤوس الشراب،فيما اعتبرها البعض الآخر صفه للشراب الطهور،و يعنى أنّ ذلك الشراب ليس كالأشربه الملوّنه فى الدنيا،بل إنّها أشربه طاهره،خاليه من الألوان الشيطانيه،و بيضاء اللون شفّافه.

و بالطبع فإنّ المعنى الثانى أنسب لجمله لَذَّهٍ لِلشّٰارِبِينَ .

الآيه السابقه التى تطرّقت إلى الشراب و الكؤوس ربّما تجلب إلى الأذهان مفاهيم اخرى،أمّا الآيه التى تليها فتطرد فى جمله قصيره كافّه تلك المفاهيم عن الأذهان لاٰ فِيهٰا غَوْلٌ وَ لاٰ هُمْ عَنْهٰا يُنْزَفُونَ .

أى أنّ ذلك الخمر هو شراب طاهر لا يفسد العقل،و لا يؤدّى إلى السكر و الغفله،و إنّما يؤدّى إلى اليقظه و النشاط و فيه متعه للروح.

و كلمه(غول)على وزن(قول)تعنى الفساد الذى ينفذ إلى الشىء بصوره غير محسوسه،و لهذا يقال فى الأدب العربى لعمليات القتل التى تتمّ بصوره سريّه أو خفيه بأنّه(قتل غيله).

و كلمه(ينزفون)من مادّه(نزف)على وزن(حذف)و تعنى فقدان الشىء تدريجيّا،و عند ما تستخدم هذه الكلمه بشأن آبار المياه،فإنّها تعطى معنى استخراج الماء من البئر تدريجيّا حتّى ينضب،و يقال«نزيف الدم»و هو خروج الدم من الجسد تدريجيّا حتّى ينتهى تماما.

على أيّه حال،فإنّ المقصود فى هذه الآيه ذهاب العقل تدريجيّا و الوصول إلى حاله السكره،أمّا خمر الجنّه الطاهر فإنّه لا يسكر على الإطلاق،إذ لا يذهب بالعقل و لا يسبّب أى مضارّ.

هاتان العبارتان تتطرّقان فى آن واحد-بصوره ضمنيه و دقيقه-إلى الشراب فى عالم الدنيا و الذى ينفذ إلى حياه الإنسان بصوره تدريجيه و سريه،و يوجد عنده حالات الفساد و الضياع،حيث أنّها لا تؤدّى بعقل الإنسان و أعصابه إلى

الدمار فحسب،بل إنّ تأثيرها السلبی و الذی لا یمکن إنکاره یمتدّ إلی جمیع أعضاء جسم الإنسان،إلی القلب و حتّی الشرایین،و إلی المعده و الکلیه و الکبد، و أحیانا تودی بحیاه الإنسان و کأنّها تقتله غیله،و کذلک تأثیرها علی عقل و ذکاء الإنسان یشبه عملیه سحب ماء البئر تدریجیّا حتّی یجفّ.

و لکن الشراب الطهور الإلهی فی یوم القیامه لا یحمل هذه الصفات (۱) .

أمّا القسم السادس،فإنّه یشیر إلی الحور العین فی جنّات النعیم وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِینٌ ،أی نرزقهم زوجات لا یعشقن سوی أزواجهن و یقصرن طرفهن علیهم فقط،و لهذه الزوجات أعینا واسعه و جمیله.

(طرف)فی الأصل تعنی جفن العین،و هذه الکلمه کنایه عن النظر، إذ أنّ أجفان العین تتحرّک عند ما ینظر الإنسان إلی شیء ما،إذن فإنّ عباره قاصِراتُ الطَّرْفِ تعنی النساء اللواتی ینظرن نظره قصیره،کما أنّ هناک تفسیرات متعدّده وردت بهذا الشأن یمکن درجها کالتالی:

الأوّل:هو أنّهن ینظرن إلی أزواجهنّ فقط،و لا تمتد أبصارهنّ إلی سواهم.

و الثانی:هذا التعبیر کنایه عن کونهنّ لا یعشقنّ إلاّ أزواجهنّ،و قلوبهم متیّمه بمحبّتهم،و لا توجد محبّه اخری فی قلوبهنّ،و هذا هو أکبر امتیاز للمرأه التی تحبّ زوجها و تتأمّل به.

و التّفسیر الثالث:هو أنّ لهنّ أعین سکری،هذه الحاله الخاصّه التی طالما وصف فیها الشعراء جمال العین فی قصائدهم (۲) .

ص:۳۱۸

۱- ۱) -الضمیران(فیها)و(عنها)یعودان علی«الخمر»التی لم ترد بصوره مباشره فی الجمله،لکن ذلک یتّضح من سیاق الکلام،و کما هو معروف فإنّ الخمره هی مؤنث مجازی و(عن)فی(عنها)إنّما هی لبیان العلّه،و تعنی أنّ هذه الخمره لا تسکر هؤلاء و لا تفقد عقلهم و شعورهم،و یجب الالتفات إلی أنّ للخمر معنیان مشترکان،إذ هی أحیانا تطلق علی شراب یثیر الفساد و یذهب بالعقل إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَیْسِرُ... (المائده-۹۰)،و أحیانا تطلق علی الشراب الطاهر الذی یعطی لعباد اللّه المخلصین فی جنان الخلد وَ أَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّهٍ لِلشّارِبِینَ (محمّد- ۱۵).

۲- ۲) -روح المعانی،المجلّد ۳۳،صفحه ۸۱.

و بالطبع فإنّ المعنى الأوّل و الثانى يبدوان أنسب،مع أنّه لا مانع من الجمع بين المعانى.

كلمه(عين)على وزن(سين)و جمعها(عيناء)و تعنى المرأه ذات العين الواسعه.

و أخيرا،فإنّ آخر آيه فى بحثنا هذا تعطينا وصفا آخر لزوجات الجنّه،إذ توضّح طهارتهنّ و قد استهن من خلال هذه العباره كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ أى إنّهن نظيفات و ظريفات،و ذوات أجسام بيضاء صافيه كالبيض الذى كنه الريش فى العشّ فلم تمسّه الأيدى و لم يصبه الغبار.

(بيض)جمع بيضه.

(مكنون) مشتقّه من(كن)على وزن(جنّ)و تعنى المستور بالادّخار.

هذا التشبيه القرآنى يتّضح بصوره جيّده إذا نظر الإنسان إلى البيضه فى اللحظه التى تنفصل فيها عن الدجاجه،و لم تمسّها بعديد الإنسان لتستقرّ تحت جناح الدجاجه و ريشها،إذ تبدو عليها شفافيه و صفاء عجيبان.

و بعض المفسّرين يرى بأنّ كلمه(مكنون)تعنى المحتويات الداخليه للبيضه المختفيه تحت القشره،و فى الواقع فإنّ التشبيه المذكور يشير إلى بيضه مطبوخه قد أزيلت قشرتها الخارجيه لتوّها،و قد بدا عليها البياض اللامع و النعومه و اللطافه.

الملاحظ أنّ عبارات القرآن المجيد الخاصّه بتوضيح الحقائق،عميقه و مفعمه بالمعانى،فعباره قصيره و لطيفه واحده توضّح حقائق كثيره و بأسلوب لطيف.

***

ملاحظه

اشاره

إلقاء نظره عامّه على ما جاء فى الآيات السابقه:

الهبات التى من اللّه تعالى بها على أهل الجنّه-المذكوره فى الآيات السابقه- هى مجموعه من الهبات المادّيه و المعنويه،و نستشف من عباره أُولٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ

مَعْلُومٌ

أنّ أوّل هبه هى تلك المتعلّقه بالهبات المعنويه و الروحيه التى يعجز اللسان عن وصفها.

أمّا الأقسام الستّه الاخرى و هى الفواكه،و الشراب الطاهر،و الزوجات الصالحات،و الاحترام الكامل،و المسكن الحسن،و الأصدقاء الجيدون فى الجنّه، فقد أعطت أبعادا مختلفه لنعم الجنّه،و التى غالبا ما تمزج بالعطايا و المنح الماديه و المعنويه.

لكن كلّ ما طرحناه كان بلغتنا التى لا تستطيع أبدا أن تعكس كلّ جوانب النعم فى الجنّه،و من الطبيعى فإنّنا نحتاج إلى حواس سمع و نظر و إدراك اخرى، إضافه إلى ألفاظ و جمل و كلام آخر،كى نتمكّن من شرح هذه الأمور.

و بعباره اخرى،فإنّ حقيقه النعم التى تغدق على أهل الجنّه خفيّه عن أهل الدنيا،إلاّ إذا ذهبوا إلى هناك و شاهدوها عن قرب ليدركوها.

على أيّه حال،فإنّ عِبَادَ اللّهِ الْمُخْلَصِينَ و الذين وصلوا فى علومهم و إيمانهم إلى مرحله الكمال،أعزّاء عند اللّه،و يشملهم اللطف الإلهى بصوره غير محدوده، و مهما تصوّرنا علو مقامهم،فإنّهم أفضل و أعلى من ذلك.

***

ص: ۳۲۰

الآيات [سوره الصافات (٣٧): الآيات ۵٠ الى ۶١]

اشاره

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (۵٠) قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّی کانَ لِی قَرِینٌ (۵١) یَقُولُ أَ إِنَّکَ لَمِنَ اَلْمُصَدِّقِینَ (۵٢) أَ إِذا مِتْنا وَ کُنّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنّا لَمَدِینُونَ (۵٣) قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (۵۴) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِی سَواءِ اَلْجَحِیمِ (۵۵) قالَ تَاللّٰهِ إِنْ کِدْتَ لَتُرْدِینِ (۵۶) وَ لَوْ لا نِعْمَهُ رَبِّی لَکُنْتُ مِنَ اَلْمُحْضَرِینَ (۵٧) أَ فَما نَحْنُ بِمَیِّتِینَ (۵٨) إِلاّ مَوْتَتَنَا اَلْأُولیٰ وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِینَ (۵٩) إِنَّ هٰذا لَهُوَ اَلْفَوْزُ اَلْعَظِیمُ (۶٠) لِمِثْلِ هٰذا فَلْیَعْمَلِ اَلْعامِلُونَ (۶١)

التّفسير

اشاره

البحث عن رفيق السوء:

عباد اللّه المخلصون الذين استعرضت الآيات السابقه النعم الماديه و المعنويه التى أغدقت عليهم،كالفاكهه،و الحور،و كأس المعين الذى يطاف به عليهم، و السرر المتقابله التى يجلسون عليها،و الأصدقاء الطيبين الذين يجالسونهم و يتحدّثون معهم،و فجأه-خلال جلسات سمرهم فى الجنّه- يتذكّرون أصدقائهم

ص :٣٢١

فی الدنیا،أصدقائهم الذین انفصلوا عنهم فی الطریق،و لم یجدوا لهم أی أثر فی الجنّه،فیسعون إلی معرفه مصیرهم.

نعم،ففی الوقت الذی کانوا فیه منشغلین بالحدیث و السؤال عن أحوال بعضهم البعض، فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلیٰ بَعْضٍ یَتَسٰاءَلُونَ .

فجأه خطر فی ذهن أحدهم أمر،فالتفت إلی أصحابه قائلا:لقد کان لی صدیق فی الدنیا قٰالَ قٰائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّی کٰانَ لِی قَرِینٌ .

و مع الأسف،فإنّه انحرف عن الطریق الصحیح،و صار منکرا لیوم البعث،و کان دائما یقول لی:هل تصدّق هذا الکلام و تعتقد به؟ یَقُولُ أَ إِنَّکَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِینَ .

هل أنّنا إذا متنا و کنا ترابا و عظاما نحیا مرّه اخری،لنساق إلی الحساب، و الجزاء علی ما اقترفناه من أعمال؟إنّ هذا ممّا لا ینبغی أن یصدق: أَ إِذٰا مِتْنٰا وَ کُنّٰا تُرٰاباً وَ عِظٰاماً أَ إِنّٰا لَمَدِینُونَ (۱) .

و هنا یخاطب من کان یتحدّث معهم من أهل الجنّه،بالقول:لیتنی أعرف أین هو الآن؟و فی أیّه ظروف یعیش؟فمکانه خال بیننا..

و یضیف:أیّها الأصدقاء،هل تستطیعون البحث عنه،و معرفه حاله، قٰالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (۲) .

و أثناء بحثه عن قرینه و صدیقه ینظر إلی جهنّم،و یری فجأه صدیقه وسط جهنّم فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِی سَوٰاءِ الْجَحِیمِ (۳) .

فیخاطبه قائلا:أقسم باللّه لقد کدت أن تهلکنی و تسقطنی فیما سقطت فیه قٰالَ تَاللّٰهِ إِنْ کِدْتَ لَتُرْدِینِ (۴) .

۱- ۱) -(مدینون)من مادّه(دین)و تعنی الجزاء،و هنا تعنی:هل أنّنا سنجزی.

۲- ۲) -(مطّلعون)من مادّه(اطّلاع)و تعنی التفتیش و البحث،و الإشراف علی شیء من مکان عال،و أخذ المعلومات.

۳- ۳) -(سواء)تعنی الوسط.

۴- ۴) -(تردین)من مادّه(إرداء)و تعنی السقوط من مکان عال،و هلاک الساقط.

لقد أو شكت أن تؤثّر على صفاء قلبى بوساوسك،و أن تزجّ بى فى الخطّ المنحرف الذى كنت فيه،فلو لا لطف اللّه الذى منعنى من ذلك و نعمته التى سارعت لمساعدتى،لكنت اليوم من المحضرين للعذاب مثلك فى نار جهنّم وَ لَوْ لاٰ نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ .

فالتوفيق الإلهى كان رفيق دربى،و لطف هدايته كان الموجّه لى.

و هنا يلقى نظره اخرى إلى صديقه فى جهنّم،و يقول له موبّخا إيّاه:أ لم تكن أنت القائل لى فى الدنيا بأنّنا لا نموت أَ فَمٰا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ سوى مرّه واحده فى الدنيا،و بعدها لا حياه اخرى و لا عذاب إِلاّٰ مَوْتَتَنَا الْأُولىٰ وَ مٰا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ .

الآن انظر و لاحظ الخطأ الكبير الذى وقعت فيه!فبعد الموت كانت هذه الحياه و هكذا ثواب و عقاب،و الآن توضّحت لك كافه الحقائق،و لكن ما الفائده فليس هناك طريق للعوده.

طبقا لتفسير الآيتين الأخيرتين،فإنّ حديث الذى هو فى الجنّه مع صديقه الذى فى جهنّم،كان مركزا على تذكيره بإنكاره للمعاد فى الحياه الدنيا.

لكن بعض المفسّرين يحتملون وجود تفسير آخر للآيتين المذكورتين،و هو أنّه بعد انتهاء حديث الذى هو فى الجنّه مع صديقه الذى فى جهنّم،يعود إلى أصحابه فى الجنّه للتسامر فيما بينهم،فيقول أحدهم من شدّه الفرح:أ حقّا أنّنا لن نموت مرّه اخرى؟و أنّنا سنعيش هنا خالدين؟و هل أنّه بعد الموت الأوّل لا يوجد موت آخر،و تبقى هذه النعم الإلهيّه معنا،و ما نحن بمعذّبين؟ بالطبع هذا الكلام ليس مصدره الشكّ و التردّد،إنّما هو نتيجه شدّه الفرح و السرور،فمثلهم كمثل الإنسان الذى يحصل بعد مدّه من الأمل و الانتظار على بيت واسع و فخم،فيقول و هو متعجّب:كلّ هذا لى؟يا ربّى!ما هذه النعمه!و هل ستبقى عندى؟ على كلّ حال،هنا اختتم الحديث بجمله عميقه المعانى و حسّاسه و مؤثّره جدّا،

ص: ٣٢٣

و مؤكّده بأنواع التأكيدات إِنَّ هٰذٰا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

ما أعظم هـذا الفوز الـذى يغرق فيه الإنسان بنعمه الخلود و الحياه الأبديه، و تشـمله الألطاف الإلهيه؟و ماذا يتصوّر أفضل و أعظم من ذلك؟ ثمّ يقول تبارك و تعالى فى ختام البحث جمله واحده قصيره توقظ القلوب و تهزّ الأعماق، لِمِثْلِ هٰذٰا فَلْيَعْمَلِ الْعٰامِلُونَ أى لمثل هذا فليعمل الناس،و من أجل نيل هذه النعم فليسع الساعون.

بعض المفسّرون يحتملون فى كون الآيه الأخيره أنّها من كلام أصحاب الجنّه، و هـذا الاحتمال مستبعد جـدّا،لأنّ الإنسان فى ذلك اليوم غير مكلّف،و بعباره اخرى لا يوجد أى تكليف فى ذلك اليوم حتّى يستنتج من الكلام أنّه تشجيع للآخرين،فى الوقت الـذى يوضّح فيه ظاهر الآيه إنّها استنتاج للآيات السابقه، و أنّها تـدفع الناس إلى الإيمان و التوجّه إلى العمل،لذا كان من المناسب أن يورد البارى عزّ و جلّ هذا الحديث فى نهايه هذا البحث.

***

بحوث

اشاره

١-الرابطه بين أهل الجنّه و أهل النار

يستشف من الآيات المذكوره أعلاه،وجود نوع من الرابطه بين أهل الجنّه و أهل النار،فكأنّ أهل الجنّه-الذين هم فى مرتبه عليا- يرون أهل النار-الذين هم فى الأسفل-[و قد استفيد هنا من عباره(فاطّلع)و التى تعنى الإشراف من الأعلى على الأسفل]

.

و بالطبع فإنّ هذا ليس بدليل على كون الفاصل الموجود بين الجنّه و النار قليلا، فلربّما يمنحون قوّه نظر خارقه تغدو أمامها قضيّه المكان و الفاصل معدومه.

و قد جاء فی کلمات بعض المفسّرین أنّ للجنّه کوه ینظر منها أهل الجنّه إلی أهل النار.

و آیات سوره الأعراف توضّح بصوره جیّده الرابطه الموجوده بین الفریقین وَ نادی أَصْحابُ الْجَنَّهِ أَصْحابَ النّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّکُمْ حَقًّا قالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَیْنَهُمْ أَنْ لَعْنَهُ اللّهِ عَلَی الظّالِمِینَ ، (۱) کما یمکن الاستفاده من الآیه(۴۶)فی سوره الأعراف بهذا الشأن وَ بَیْنَهُما حِجابٌ أی أنّ هناک حجاب بین أهل الجنّه و أهل النار.

و کلمه(نادی)یستخدمها-بصوره طبیعیه-المتکلّم عند بعد،و توضّح فی الآیه مکان و مرتبه الفریقین.

علی أیّه حال،و کما ذکرنا عدّه مرّات،فإنّ أوضاع و أحوال یوم القیامه تختلف کثیرا عن أوضاع عالمنا الحالی،و نحن لا نستطیع تقییم الأوضاع هناک وفق معاییر عالمنا.

۲-بحق من نزلت هذه الآیات

بعض المفسّرین ذهب إلی أنّ سبب نزول الآیات المذکوره أعلاه هو ما ورد فی سوره الکهف کمثال، وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَیْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَیْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَ حَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنا بَیْنَهُما زَرْعاً... . (۲)

و قد جاء فی هذه الآیات أنّ أحد الشخصین کان متکبّرا و مغرورا جدّا،إضافه إلی أنّه کان ینکر المعاد،و الآخر کان مؤمن یعتقد بالقیامه،و فیما بعد نزل العذاب الإلهی علی الشخص المغرور الکافر و هو فی هذه الدنیا،إذ فقد ثروته و أحاط به

۱- ۱) -الأعراف،۴۴.

۲- ۲) -سوره الکهف،الآیات ۳۲ إلی ۴۳.

البلاء من كلّ جانب (۱) .

لكن سياق آيات بحثنا هذا يختلف مع ما هى عليه آيات سوره الكهف،و يبيّن وجود فارق بين الحادثتين.

و يرى البعض الآخر:إنّها تخصّ شخصين شريكين أو صديقين كانا يمتلكان ثروه كبيره،أحدهما كان ينفق بسخاء فى سبيل اللّه،أمّا الثانى الذى كان لا يؤمن بشىء-فقد امتنع عن الإنفاق،و بعد مدّه من الزمن أصيب المنفق بفاقه ماليه، و تعرّض لاستهزاء صديقه،و الذى قال له بلغه السخريه، أَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (۲) .

فإن كانت أسباب النّزول تخصّ هذه الحادثه،إذا علينا قراءه كلمه(مصدّقين) بتشديد(الصاد)و التى تعنى هنا دفع الصدقه و الإنفاق.

فى حين أنّ المشهور بين القرّاء قراءه كلمه(مصدّقين)بدون تشديد(الصاد) و على هذا فإنّ سبب النّزول الآنف الذكر لا يتلاءم و القراءه المشهوره.

۳-لنيل مثل هذه النعم علينا المثابره

هل من الصحيح أن يصرف الإنسان رأس مال عمره و القابليات الاخرى و العطايا الإلهيه فى موارد هى كالفقاعات التى لا تدوم سوى لحظات فوق الماء؟ متاع بخس غير دائم،متاع ملىء بالآفات و المشاكل!!.

أو يستثمر هذه القوى العظيمه فى مجال يؤدّى إلى حياه خالده و نعم دائمه، و مرضاه اللّه سبحانه و تعالى؟ فما أجمل التعبير الذى صاغته الآيات القرآنيه المذكوره أعلاه،عند ما دعت المؤمنين إلى هذا الهدف،أى نيل الجنان المملوءه بالملذّات الروحيه و الجسميه-

ص:۳۲۶

۱- ۱) -تفسير فخر الرازى،المجلّد ۲۶،الصفحه ۱۳۹.

۲- ۲) -روح المعانى،المجلّد ۲۳،الصفحه ۸۳.

التی تشمل الشراب الطاهر الذی یغرق الإنسان فی الظلّ الملکوتی،و القرناء و الأصدقاء الطیبین ذوی القلوب الصافیه الذین تزیل مجالستهم کلّ أشکال الغمّ.

و لیس فیها همّ و لا غمّ و لا مشکله.

نعم فمن یرید أن یکسب الجنان فعلیه أن یسعی و یعمل.

***

الآیات [سوره الصافات (۳۷): الآیات ۶۲ الی ۷۰]

اشاره

أَ ذٰلِکَ خَیْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَهُ اَلزَّقُّوم (۶۲) إِنّٰا جَعَلْنٰاهٰا فِتْنَهً لِلظّٰالِمِینَ (۶۳) إِنَّهٰا شَجَرَهٌ تَخْرُجُ فِی أَصْلِ اَلْجَحِیم (۶۴) طَلْعُهٰا کَأَنَّهُ رُؤُسُ اَلشَّیٰاطِینِ (۶۵) فَإِنَّهُمْ لَآکِلُونَ مِنْهٰا فَمٰالِؤُنَ مِنْهَا اَلْبُطُونَ (۶۶) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَیْهٰا لَشَوْباً مِنْ حَمِیمٍ (۶۷) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَی اَلْجَحِیم (۶۸) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبٰاءَهُمْ ضٰالِّینَ (۶۹) فَهُمْ عَلیٰ آثٰارِهِمْ یُهْرَعُونَ (۷۰)

التّفسیر

اشاره

جوانب من العذاب الألیم لأهل النار:

بعد توضیح النعم الکثیره و الخالده التی یغدقها اللّه سبحانه و تعالی علی أهل الجنّه،تستعرض الآیات أعلاه العذاب الألیم و المثیر للأحزان الـذی أعـدّه اللّه لأهل جهنّم،و تقارنه مع النعم المذکوره سابقا،بحیث تترک أثرا عمیقا فی النفوس یردعها عن ارتکاب الأعمال السیّئه و المحرّمه.

ففی البدایه تقول: أَ ذٰلِکَ خَیْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَهُ الزَّقُّومِ .

ص :۳۲۸

كلمه(نزل)تعنى الشىء الذى يهيّأ لورود الضيف فيقدّم إليه إذا ورد،و البعض الآخر قال:إنّها تعنى الشىء الأوّل الذى يقدّم للضيف حين وروده،و هذه إشاره إلى النعم المهيئه لورود الضيوف الأعزّاء و المحترمين إلى الجنّه.

و القرآن الكريم يقول:أذلك خير أم شجره الزقوم؟و لفظه(خير)ليست دليلا على أنّ شجره الزقّوم شيء جيّد،و النعم التى أعدّها اللّه سبحانه و تعالى لأهل الجنّه أجود،إذ أنّ مثل هذه الألفاظ تستخدم أحيانا فى لغه العرب بشأن بعض الأشياء التى لا فائده فيها أبدا،و يحتمل بأنّها نوع من الكنايه،و مثلها كمثل شخص غارق بالذنوب و قد فضح أمام الناس،و هم يقولون له:هل هذه الفضيحه خير،أم الفخر و العزّه و الشرف؟ و أمّا«زقّوم»فقد قال أهل اللغه:إنّه اسم نبات مرّ و ذى طعم و رائحه كريهه (1) .

فيما قال بعض المفسّرين:إنّه اسم نبات يحمل أوراقا صغيره مرّه و كريهه الرائحه و هو موجود فى أرض تهامه،و كان يعرفه المشركون (2) .و أضاف صاحب تفسير(روح المعانى)أنّ لهذا النبات لبن إذا أصاب جسد إنسان تورّم (3) .

و قال الراغب فى(مفرداته):الزقوم هو كلّ غذاء يثير اشمئزاز أهل جهنم.

و قال صاحب كتاب(لسان العرب):هذا اللفظ يأتى أساسا بمعنى بلع الشىء، و يضيف:عند ما نزلت هذه الآيه قال أبو جهل،لا توجد مثل هذه الشجره فى أرضنا،فمن منكم يعرف معنى زقّوم؟ و هنا أجابه شخص من أفريقيا قائلا:الزقّوم بلغه أهل أفريقيا تعنى الزبد و التمر، و فور ما سمع أبو جهل بجواب الأفريقى،نادى جاريته،و قال لها باستهزاء:زقمّينا بمقدار من التمر و الزبد.فكانوا يأكلون و يسخرون و يقولون:إنّ محمّد يخوّفنا من

1- 1) -مجمع البحرين،مادّه(زقم).

2- 2) -تفسير روح المعانى،المجلّد 7،الصفحه 464.

3- 3) -روح المعانى،المجلّد 23،الصفحه 85.

هذا فی الآخره،فنزلت آیات قرآنیه قاطعه و حازمه تردّ علی أبی جهل و بقیّه المشرکین سنتطرّق إلیها فیما بعد.

علی کلّ حال فإنّ کلمه(شجره)لا تأتی دائما بمعناها المعروف،و إنّما تعنی فی بعض الأحیان(النبات)و القرائن هنا تشیر إلی أنّ المراد من الشجره هو المعنی الثانی أی(النبات).

ثمّ یستعرض القرآن الکریم بعض خصائص هذه النبته،و یقول: إِنّا جَعَلْناها فِتْنَهً لِلظّالِمِینَ .

و لفظه(فتنه)تعنی المحنّه و العذاب،کما تعنی الامتحان،و غالبا ما جاء هذا المعنی فی موارد متعدّده من سور القرآن المجید،و هو إشاره إلی أنّ المشرکین عند ما سمعوا کلمه(الزقّوم)عمدوا إلی السخریه و الاستهزاء،فیما کان هذا الأمر امتحانا لأولئک الطغاه.

و یضیف القرآن الحکیم إِنَّها شَجَرَهٌ تَخْرُجُ فِی أَصْلِ الْجَحِیمِ .

و لکن الظالمین المغرورین یواصلون استهزاءهم،و یقولون:کیف یمکن لنبات أو شجره ینبت فی قعر جهنّم؟فأین النار و أین الشجر و النبات؟و تبعا لذلک فإنّ سماع اسم هذا النبات و أوصافه هو اختبار دنیوی لهم،و سیکون سببا لعذابهم و محنتهم فی الآخره.

و کأنّهم کانوا غافلین عن أنّ الأصول التی تحکم فی ذلک العالم-أی الآخره- تختلف کثیرا عن الأصول الحاکمه فی العالم الدنیوی،فالأشجار و النباتات التی تنبت فی قعر جهنّم،و تنمو فی ذلک الظرف و یکون لونها بلون النار،لیست کالأشجار و النباتات النابته فی حدائق و بساتین هذا العالم،و یحتمل عدم جهلهم بهذا الأمر،بل هدفهم الاستهزاء و السخریه فقط.

ثمّ یضیف القرآن الکریم طَلْعُها کَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّیاطِینِ .

(الطلع)یقال لأوّل ما یبدو من حمل النخله،و له قشر أخضر اللون، و فی داخله

فروع بيضاء اللون تتحوّل فيما بعد إلى عنقود يحمل التمر.

و كلمه(طلع)من مادّه(طلوع)و بهذه المناسبه أطلق على الثمر فى أوّل ظهوره.

و هنا يطرح هذا السؤال:هل أنّ الناس شاهدوا رؤوس الشياطين حتّى يشبّه القرآن ثمار الزقّوم بها؟ المفسّرون أعطوا أجوبه متعدّده لهذا السؤال:

فقال البعض:إنّ إحدى معانى كلمه(الشيطان)هى حيّه كريهه المنظر،شبّهت بها ثمار الزقّوم.

و ذهب البعض الآخر إلى أنّه نوع من النبات ذو شكل قبيح،كما جاء فى كتاب (منتهى الارب)أنّ(رأس الشيطان)أو(رؤوس الشياطين)نبات.

إلّا أنّ الرأى الأصحّ،هو أنّ التشبيه هنا استخدم لبيان شدّه قباحه ثمار الزقّوم و شكلها الباعث على النفور و الاشمئزاز،لأنّ الإنسان عند ما يشمئز من شىء ترتسم صوره ذلك الشىء فى مخيلته بشكل قبيح و رهيب،فيما ترتسم صوره الشىء المحبوب بشكل جميل و وديع فى مخيلته.

لهذا فإنّ الناس يرسمون صوره الملائكه بشكل جميل،فيما يرسمون صوره الشياطين و العفاريت بأقبح صوره،فى الوقت الذى لم ير أحد منهم الملائكه و لا الشياطين.كما يشاهد استخدام هذا الأمر كثيرا فى المصطلحات اليوميه،عند ما يقال:الشخص الفلانى كالعفريت،أو انّه يشبه الشيطان.

هذه كلّها تشبيهات مبنيه على أساس الانعكاسات الذهنيه للناس عن مفاهيم مختلفه،و هى تشبيهات لطيفه و حيّه.

و يواصل القرآن الكريم استعراض العذاب الذى سينال المشركين و الكافرين، فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهٰا فَمٰالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (۱) .

۱- ۱) -ضمير(منها)يعود للشجره،و هذا بذاته قرينه على أنّ المقصود من الشجره هنا النبات و ليس الشجره،لأنّ النبات يؤكّل لا الشجره.

هـذا هو العذاب و الفتنه الذى أشـرنا إليه فى الآيات السابقه،حيث إنّ أكل هذا النبات الذى ينبت فى جهنّم ذو الرائحه الكريهه و الطعم المرّ و اللبن الذى يورم و يحرق الأبدان فور ما يصيبها،و تناوله-و بكميّات كبيره-يعدّ عذابا أليما.

و من البـديهى،فإنّ من يتناول هـذا الطعام السـىء الطعم و المرّ،يصـيبه العطش، و لكن حينما يشـعر بالعطش ماذا يشـرب؟القرآن يجيب على هذا السؤال بالقول:

ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهٰا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ

.

«الشوب»هو الشـىء المخلوط أو الممزوج مع شـىء آخر.و(حميم)هو المـاء الحار البالغ فى حرارته،و طبقا لـذلك فإنّ حتّى الماء الحار الذى يشربه أولئك الظالمون غير نقى،بل ملوّث.

و هـذا هو غذاء أهل جهنّم،و هذا هو شـرابهم،و بعد هذه الضـيافه إلى أين يذهبون،فيجيب القرآن على هذا السؤال أيضا بالقول: ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ .

بعض المفسّـرين فسّـروا هـذه العبـاره على أنّ المـاء الحـار الملوّث ينبع من عين خارج جهنّم،و أنّ أهل جهنّم يساقون كما تساق البهائم إلى الأماكن المخصّصه لشرب الماء،و بعد تناولهم الماء يرجعون إلى الجحيم.

فيمـا ذهب البعض الآـخر إلى القول بـأنّه إشـاره إلى وجود أمـاكن و مواقف مختلفه فى جهنّم،ينقـل إليهـا الظالمون و المجرمون ليشربوا منها الماء الحار، و يرجعون بعد ذلك إلى المكان الذى كانوا فيه سابقا.

إلاّ أنّ التّفسير الأوّل يعدّ أنسب.

و كمـا أشـرنا آنفـا،فـإنّه لا يمكن تصوّر النعم التى يغـدقها اللّه سبحانه و تعالى على أهل الجنّه،كما أنّه لا يمكن تصوّر العـذاب الـذى ينـال أهل جهنّم،بل إنّها تخيّلات- و حسب-تتراءى أمام أعيننا من خلال عبارات قصار(اللهمّ أعـذنا بلطفك و احفظنا من العذاب).

الآیه الأخیره فی بحثنا تناولت السبب الرئیسی الذی أدّی إلی دخول أولئک إلی جهنّم و نیلهم العذاب الألیم و الشدید هناک،تناولته فی آیتین قصیرتین ملیئتین بالمعانی و الحقائق إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبٰاءَهُمْ ضٰالِّینَ .

و إنّهم کانوا یسرعون علی آثارهم و من دون أی إراده فَهُمْ عَلیٰ آثٰارِهِمْ یُهْرَعُونَ .

و الملاحظ هنا أنّ لفظه(یهرعون)جاءت بصیغه المبنی للمجهول،و هی من مادّه (هرع)أی أسرع،و هی إشاره إلی أنّهم کانوا یقلّدون آباءهم قلبا و دینا و إنّهم کانوا یحثّون الخطی علی آثارهم إلی درجه کأنّهم یسارعون فی ذلک من دون أی إراده و إختیار،و إشاره اخری إلی تعصّبهم و تمسّکهم بالخرافات التی کان أجدادهم الضالّون یعتقدون بها.

***

ص:۳۳۳

الآيات [سوره الصافات (۳۷): الآيات ۷۱ الی ۷۴]

اشاره

وَ لَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ اَلْأَوَّلِينَ (۷۱) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (۷۲) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ اَلْمُنْذَرِينَ (۷۳) إِلاّ عِبادَ اَللّهِ اَلْمُخْلَصِينَ (۷۴)

التّفسير

اشاره

الأمم الضالّه السابقه:

بما أنّ المسائل السابقه المتعلّقه بالمجرمين و الضالّين لا تختّص بزمان و مكان معينين،فالقرآن يتوسّع فی الآيات التی تبحث بشكل مفصّل عن هذه المسائل، و يهیء الأرضيه فی عدّه آيات قصيره و مختصره لشرح امور كثيره عن الأمم السابقه،و التی بالاطلاع عليها تكون أدلّه ناطقه للبحوث السابقه.و من تلك الأمم أقوام نوح و إبراهيم و موسی و هارون و لوط و يونس و غيرهم،إذ يقول: وَ لَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ .

فمشركو مكّه ليسوا هم الوحيدين الذين ابتلوا بالضلال نتيجه سيرهم علی نهج أجدادهم الأوّلين،و إنّما ابتليت قبلهم الكثير من الأمم السابقه بنفس المصير.

و التذكير بهذا الأمر إنّما جاء لتسليه رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و الثلّه من أصحابه

المؤمنين الذين كانوا فى مكّه-آنذاك-محاصرين من قبل العدو من كلّ الجوانب.

ثمّ يضيف القرآن المجيد أنّ ضلالتهم لم تكن بسبب افتقادهم القائد و عدم موعظتهم وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ .

إذا أنّنا أرسلنا إليهم أنبياء لإنذارهم من خطر الشرك باللّه و الكفر به،و الظلم و الاعتداء،و تقليد الآخرين بصوره عمياء،و لاطلاعهم على مسئولياتهم.

صحيح أنّ الرسل يحملون فى يد رساله الإنذار،و فى الاخرى رساله البشاره، لكن الإنذار يشغل الجزء الأكبر من مواعظهم و نصائحهم،خاصّه بالنسبه لمثل تلك الأمم الضالّه و العاصيه،و لهذا أكّد عليه هنا.

ثمّ يقول فى عباره قصيره ذات معان عميقه فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ .

المخاطب فى لفظه(فانظر)من الممكن أن يكون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو أى شخص عاقل يقظ.و فى الحقيقه إنّ هذه الآيه المباركه تشير إلى نهايه أقوام سنستعرض أحوالها و أوضاعها بصوره مفصّله فى الآيات القادمه.

أمّا آخر آيه فى بحثنا فإنّها تستثنى جماعه من العذاب الإلهى إِلاّٰ عِبٰادَ اللّٰهِ الْمُخْلَصِينَ .

الملاحظ أنّ هذه الآيه تشير إلى عاقبه هذه الأمم،و تدعو إلى التمعن فى العذاب الأليم الذى ابتلوا به،و الذى أهلكهم و أبادهم جميعا ما عدا عباد اللّه المؤمنين و المخلصين الذين نجوا من هذا العذاب (١) .

و جدير بالذكر أنّ كلمه(المخلصين)-بفتح اللام-كرّرت خمس مرّات،و هذا بيان لعلو منزلتهم و مرتبتهم،و كما أشرنا سابقا فإنّ عباد اللّه المخلصين هم الصفوه التى تسلّحت بالعلم و الإيمان،و انتصرت على النفس بعد مجاهدتها،و هم الذين أخلصهم اللّه لنفسه و أزال عنهم الشوائب ليجعلهم خالصين،و لهذا فإنّهم يمتلكون

١- ١) -هذه الجمله استثناء من محذوف يفهم من المذكور،تقديره هكذا:فانظر كيف كان عاقبه المنذرين فإنّا أهلكناهم جميعا إلاّ عباد اللّه المخلصين.

الحصانه الکامله تجاه الانحرافات و الزلل.

و الشیطان عاجز و آیس من النفوذ إلی داخلهم،إذ قطع علیه الطریق المؤدّی إلیهم منذ الیوم الأوّل،و اعترف هو بعجزه هذا.

کذلک فإنّ فتن المجتمع الذی یعیشون فیه و وساوس الغاوین،إضافه إلی وجود المتّبعین لنهج آبائهم و أجدادهم الأوّلین،و الثقافه الخاطئه و الطاغوتیه،لا تؤثّر أبدا علی عباد اللّه المخلصین و لا تحرفهم عن مسیرتهم.

حقیقه الأمر،أنّ هذه الآیه هی خطاب اطمئنان لمؤمنی مکّه المقاومین و الصامدین فی ذلک الوقت،و إنّها دعوه لمسلمی عالم الیوم الملیء بالفتن، تدعوهم إلی الانفصال عن صفوف أعداء اللّه و الانضمام إلی عباد اللّه المخلصین.

***

الآيات [سوره الصافات (٣٧): الآيات ٧٥ الی ٨٢]

اشاره

وَ لَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ اَلْمُجِيبُونَ (٧٥) وَ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ اَلْكَرْبِ اَلْعَظِيمِ (٧۶) وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ اَلْباقِينَ (٧٧) وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي اَلْآخِرِينَ (٧٨) سَلاٰمٌ عَلىٰ نُوحٍ فِي اَلْعٰالَمِينَ (٧٩) إِنّٰا كَذٰلِكَ نَجْزِي اَلْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبٰادِنَا اَلْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا اَلْآخَرِينَ (٨٢)

التّفسير

اشاره

مقتطفات من قصّه نوح:

من هنا يبـدأ سـرد قصـص تسـعه أنبياء من أنبياء اللّه الكبار،و الـذين كانت الآيات السابقه قد تطرّقت إليهم بصوره خفيّه،و تشـرع الآيات بنوح شيخ الأنبياء و أوّل اولى العزم من الرسل.

بدأ البحث بالإشاره إلى دعاء نوح الشديد على قومه بعد أن يئس من هدايتهم وَ لَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (١) .

ص :٣٣٧

١- ١) -(مجيبون)جاءت بصيغه الجمع فى حين أنّ المقصود منها اللّه سبحانه و تعالى و الذى استجاب لدعاء نوح، هذا بسبب أنّ صيغه الجمع تأتى أحيانا للتعظيم،كما أنّ ضمير جمع المتكلّم فى(نادانا)لذلك الغرض أيضا.

هذا الدعاء یمکن أن یکون إشاره إلی الدعاء الذی ورد فی سوره نوح وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَی الْأَرْضِ مِنَ الْکافِرِینَ دَیّاراً إِنَّکَ إِنْ تَذَرْهُمْ یُضِلُّوا عِبادَکَ وَ لا یَلِدُوا إِلاّ فاجِراً کَفّاراً . (۱)

أو إشاره إلی الدعاء الذی دعا به اللّه أثناء صعوده السفینه رَبِّ أَنْزِلْنِی مُنْزَلاً مُبارَکاً وَ أَنْتَ خَیْرُ الْمُنْزِلِینَ . (۲)

أو أنّه إشاره إلی الدعاء الذی جاء فی الآیه ۱۰ من سوره القمر: فَدَعا رَبَّهُ أَنِّی مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ .

و بالطبع فإنّه لیس هناک أی مانع من أن تکون الآیه تشیر إلی کلّ هذه الأدعیه، و إنّ اللّه سبحانه و تعالی استجابها بأحسن وجه.

و لذا فإنّ اللّه سبحانه و تعالی یجیبه فی الآیه التی تلیها بالقول: وَ نَجَّیْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْکَرْبِ الْعَظِیمِ (۳) .

فما هو هذا الغمّ الذی وصفته الآیه المبارکه بأنّه غمّ کبیر آلم نوحا بشدّه؟ یمکن أن یکون ذلک الغمّ نتیجه استهزاء قومه الکافرین المغرورین به، و تجریحهم إیّاه بکلمات نابیه و ساخره تستهدف إهانته و أتباعه المؤمنین،أو نتیجه تکذیب قومه اللجوجین إیّاه،إذ کانوا یقولون له أحیانا: وَ ما نَراکَ اتَّبَعَکَ إِلاَّ الَّذِینَ هُمْ أَراذِلُنا . (۴)

و أحیانا اخری یقولون له: یا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَکْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ کُنْتَ مِنَ الصّادِقِینَ . (۵)

۱- ۱) -سوره نوح،الآیات ۲۶ و ۲۷.

۲- ۲) -سوره المؤمنون،الآیه ۲۹.

۳- ۳) -(کرب)طبق قول الراغب فی مفرداته هی:الغم الشدید،و وصفه هنا بالعظیم للتأکید أکثر علی هذا المعنی.

۴- ۴) -سوره هود،الآیه ۲۷.

۵- ۵) -سوره هود،الآیه ۳۲.

أو يسخرون منه وَ يَصْنَعُ اَلْفُلْكَ وَ كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ . (۱)

و قد وصل إزعاجهم لنبى اللّه نوح-المعروف بصبره الكبير-و إساءتهم الأدب اتّجاهه و اتّهامه بالجنون إلى درجه لا تطاق،بحيث دعا نوح ربّه بالقول: رَبِّ اُنْصُرْنِی بِما کَذَّبُونِ . (۲)

و على أيّه حال،فإنّ مجموع هذه الحوادث السيّئه و أذاهم له كان يحزّ فى قلبه الطاهر بشدّه حتّى لحظه وقوع الطوفان،إذ أنقذه اللّه سبحانه و تعالى من قبضه قومه الطغاه،و أزال عنه الكرب العظيم و الغمّ الشديد.

و احتمل بعض المفسّرين أنّ المراد من اَلْكَرْبِ الْعَظِيمِ هو الطوفان الذى لم ينج منه سوى نوح و أتباعه المؤمنين،و لكن هذا المعنى مستبعد.

و يضيف القرآن الكريم وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ .

أ حقّا أنّ كلّ بنى الإنسان الذين يعيشون اليوم على ظهر الكره الأرضيه هم من ذريّه نوح؟الآيه المذكوره أعلاه تصرّح بذلك..

أم المقصود هو أنّ مجموعه كبيره من الأنبياء و الأولياء و الصالحين هم من ذريته،و ليس كلّ الناس؟بهذا الشأن لدينا بحث،سنتطرّق إليه بعون اللّه.

و إضافه إلى ذلك يقول القرآن:أنّنا جعلنا لنوح ثناء و ذكرا جميلا فى الأجيال و الأمم اللاحقه: وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِی الْآخِرِینَ .

فقد وصفه القرآن المجيد بالنّبى المقاوم و الشجاع و الصبور و الرحيم و العطوف، و أطلق عليه لقب شيخ الأنبياء.و تاريخه اسطوره للمقاومه و الثبات،كما يمكن أن يستلهم سالكو طريق الحقّ من برامجه عبرا و دروسا تمكّنهم من اجتياز العراقيل التى يضعها الأعداء و الجهله أمامهم.

فبعد تحمّله كافّه الصعاب و الآلام،منحه اللّه سبحانه و تعالى و ساما خالدا

۱- ۱) -سوره هود،الآيه ۳۸.

۲- ۲) -سوره مؤمنون،الآيه ۲۶.

يفتخر به فى العالمين سَلاٰمٌ عَلىٰ نُوحٍ فِى الْعٰالَمِينَ .

نعم،فهل هناك فخر أكبر من هذا،و هو أنّ اللّه يبعث بالسلام و التحيّات لنبيّه نوح،السلام الذى سيبقى يهدى إليه من قبل الأمم الإنسانيه لحين قيام الساعه، و الملفت للنظر أنّه من النادر أن يوجد فى القرآن سلام بهذه السعه على أحد، خاصّه و أنّ المراد بالعالمين جميعها لكونه جمعا محلّى بالألف و اللام(مفيدا للعموم)فيتّسع المعنى ليشمل عوالم البشر و أممهم و جماعاتهم إلى يوم القيامه و يتعدّاهم إلى عوالم الملائكه و الملكوتين.

و لكى تكون خصوصيات نوح عليه السّلام مصدر إشعاع للآخرين،أضاف القرآن الكريم إِنّٰا كَذٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ .و إِنَّهُ مِنْ عِبٰادِنَا الْمُؤْمِنِينَ .

فى الحقيقه،إنّ درجه عبوديه نوح للّه و إيمانه به-إضافه إلى إحسانه و عمله الصالح الذى ذكرته الآيتان الأخيرتان-كانت السبب الرئيسى وراء اللطف الإلهى الذى شمل نوحا و أنقذه من الغمّ الكبير،و بعث إليه بالسلام،السلام الذى يمكن أن يشمل كلّ من عمل بما عمل به نوح،لأنّ معايير الألطاف الإلهيّه لا تتخلّف، و لا تختّص بشخص دون آخر.

أمّا الآيه الأخيره فى بحثنا فقد وضّحت بعباره قصيره شديده اللهجه مصير تلك الامّه الظالمه الشريره الحاقده ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ .

إذ انهمر المطر سيلا من السماء،و تفجّرت الأرض عيونا،و غطّت المياه اليابسه كبحر هائج دكّ بأمواجه المتلاطمه الشامخه عروش الطغاه و دمّرها،لافظا إيّاهم بعدئذ أجسادا هامده لا حياه فيها و لا روح.

و الذى يلفت النظر أنّ اللّه سبحانه و تعالى استعرض ألطافه على نوح فى عدّه آيات،فيما بيّن عذابه لقوم نوح العاصين فى عباره واحده قصيره يرافقها التحقير و عدم الاهتمام بهم،لأنّ حاله نصر المؤمنين و عزّتهم و تأييد البارى سبحانه لهم جديره بالتوضيح،و بيان حال المعاندين و العاصين لا يجدر بالاهتمام و الاعتناء.***

ملاحظه

اشاره

هل أنّ البشر الموجودين على الأرض هم من ذريّه نوح؟

فسّرت مجموعه من كبار المفسّرين الآيه وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ بأنّ كلّ أجيال البشر التى أتت بعد نوح هى من ذريته.

و قد نقل الكثير من المؤرّخين بقاء ثلاثه أولاد من ذريّه نوح هم(سام)و (حام)و(يافث)بعد الطوفان،و كلّ القوميات الموجوده اليوم على الكره الأرضيه تنتهى إليهم.

و قد أطلق على العرق العربى و الفارسى و الرومى العرق السامى،فيما عرف العرق التركى و مجموعه اخرى بأنّهم من أولاد«يافث»،أمّا«حام»فإنّ ذريّته تنتشر فى السودان و السند و الهند و النوبه و الحبشه،كما أنّ الأقباط و البربر هم من ذريّته أيضا.

البحث فى هذه المسأله ليس المراد منه معرفه إلى أى من أولاد نوح ينتسب كلّ عرق،لأنّ المسأله بحدّ ذاتها هى مورد اختلاف بين الكثير من المؤرخين و المفسّرين،و لكن المتوخّى من البحث هو:هل أنّ كلّ القوميات البشريه تعود فى أصلها إلى أولاد نوح الثلاثه.

و هنا يطرح هذا السؤال نفسه و هو:ماذا كان مصير المؤمنين الذين ركبوا السفينه مع نوح خلال الطوفان؟و هل أنّهم جميعا ماتوا من دون أن يتركوا أى خلف لهم و إن كان لهم ذريّه،فهل كانوا بنات تزوجنّ من أولاد نوح؟ هذه القضيّه من وجهه نظر التأريخ ما تزال غامضه.

على أيّه حال فإنّ هناك أحاديث و آيات قرآنيه تشير إلى وجود أقوام و امم على الكره الأرضيه لا ينتهى أصلها إلى أولاد نوح.

منها ما

ورد فى تفسير على بن إبراهيم عن الإمام الباقر عليه السّلام فى توضيح الآيه المذكوره أعلاه: «الحقّ و النبوّه و الكتاب و الإيمان فى عقبه،و ليس كلّ من فى

الأرض من بنی آدم من ولد نوح علیه السلام قال اللّه عزّ و جلّ فی کتابه: اِحْمِلْ فِیها مِنْ کُلٍّ زَوْجَیْنِ اثْنَیْنِ وَ أَهْلَکَ إِلاّ مَنْ سَبَقَ عَلَیْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلاّ قَلِیلٌ ،و قال اللّه عزّ و جلّ أیضا: ذُرِّیَّهَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ (۱) .

و علی هذا فإنّ انتهاء کلّ العروق الموجوده علی الأرض إلی أبناء نوح أمر غیر ثابت.

***

---

۱ – ۱) هذا الحدیث ورد المجلّد الرابع من التفسیر نور الثقلین فی الصفحه ۴۰۵،کما ورد فی نهایه آیات البحث فی تفسیر الصافی.

الآيات [سوره الصافات (٣٧): الآيات ٨٣ الى ٩۴]

اشاره

وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ (٨٣) إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨۴) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ (٨۵) أَ إِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللّهِ تُرِيدُونَ (٨۶) فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَ لا تَأْكُلُونَ (٩١) ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ (٩٢) فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩۴)

التّفسير

اشاره

خطّه إبراهيم الذكيّه فى تحطيم الأصنام:

آيات بحثنا هذا تتناول بشىء من التفصيل حياه النّبى الشجاع إبراهيم عليه السّلام محطّم الأصنام بعد آيات استعرضت جوانب من تاريخ نوح عليه السّلام الملىء بالحوادث.

ففى البدايه تحدّثت القصّه عن تحطيم إبراهيم للأصنام،و الموقف الشديد الذى اتّخذه عبده الأصنام تجاه إبراهيم،فيما يتطرّق القسم الآخر من القصّه للمشهد

الکبیر الـذی یتمثّل فی تضـحیات إبراهیم الخلیل و قضـیّه ذبـح ابنه إسـماعیل، و الآیات التی تخصّ هذا القسم ذکرت هنا-فقط- بهذا التفصیل،و لم تذکر فی موضع آخر بهذا الشکل.

الآیه الاولی،ربطت بین قصّه إبراهیم و قصّه نوح بهذه الصوره وَ إِنَّ مِنْ شِیعَتِهِ لَإِبْراهِیمَ .

أی إنّ إبراهیم کـان سائرا علی خطی نوح علیه السّـلام فی التوحیـد و العـدل و التقوی و الإخلاص،حیث إنّ الأنبیاء یبلغون لفکر واحد،و هم أساتذه جامعه واحده، و کلّ واحد منهم یواصل تنفیذ برامج الآخر لإکمالها.

کم هی جمیله هـذه العبـاره؟إبراهیم من شـیعه نوح،رغم أنّ الفاصـل الزمنی بینهمـا کـان کبیرا(قال بعض المفسّـرین:إنّ الفاصـل الزمنی بینهما یقدر ب ۲۶۰۰ سنه)،إذ أنّ العلاقات الإیمانیه-کما هو معروف-لا یؤثّر علیها الفاصل الزمنی أدنی تأثیر (۱) .

بعد هذا العرض المختصر ندخل فی التفاصیل،قال تعالی: إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِیمٍ .

حیث فسّر المفسّرون(قلب سلیم)بعدّه صور،أشارت کلّ واحده منها إلی أحد أبعاد هذه المسأله.

القلب الطاهر من الشرک.

أو القلب الخالص من المعاصی و الظلم و النفاق.

ص :۳۴۴

۱- ۱) -بعض المفسّرین أرجعوا ضمیر(شیعته)إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،فی حین أنّ آیات القرآن الکریم تقول: رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم اتّبع ملّه إبراهیم،علاوه علی ذلـک فإنّ هـذا المرجع لیس له فی الآیات السابقه و اللاحقه ضمیر یـدلّ علیه،و من الممکن أنّهم تصوّروا أنّ تعبیر الشـیعه هو دلیـل علی أفضـلیه نوح من إبراهیم،فی حین أنّ القرآن الکریم تحـدّث عن شخصـیه سامیه لإبراهیم،لکن هـذا التعبیر خال من أیّه دلاله علی هذه المسأله،بل المقصود اسـتمرار الخطّ الفکری و الـدینی،کما أنّ أفضـلیه رسـول الإسـلام صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم بالنسـبه لکـافّه الأنبیـاء لاـ تتنـافی مع أتبـاعه لـدین إبراهیم التوحیدی یقول القرآن،فی الآیه ۹۰ من سوره الأنعام فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ .

أو القلب الخالی من حبّ الدنیا،لأنّ حبّ الدنیا هو مصدر کلّ الخطایا.

و أخیرا هو القلب الذی لا یوجد فیه شیء سوی اللّه.

فی الحقیقه إنّ کلمه(سلیم)مشتقّه من(السلامه)،و عند ما تطرح السلامه.

بصوره مطلقه،فإنّها تشمل أیضا السلامه من کلّ الأمراض الأخلاقیه و العقائدیه.

فالقرآن الکریم یقول بشأن المنافقین فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزٰادَهُمُ اللّٰهُ مَرَضاً ، (1) أی إنّ قلوبهم مصابه بنوع من أنواع المرض،و إنّ اللّه سبحانه و تعالی أضاف أمراضا اخری إلی ذلک المرض علی أثر لجاجتهم و ارتکابهم المزید من الذنوب.

و أجمل من فسّر عباره(القلب السلیم)هو

الإمام الصادق علیه السّلام عند ما قال:

«القلب السلیم الذی یلقی ربّه و لیس فیه أحد سواه!» (2) . حیث جمع بقوله کلّ الأوصاف المذکوره مسبقا.

و

قد جاء فی روایه اخری للإمام الصادق علیه السّلام «صاحب النّیه الصادقه صاحب القلب السلیم،لأنّ سلامه القلب من هواجس المذکورات تخلص النّیه للّه فی الأمور کلّها» (3) .

و اعتبر القرآن الکریم القلب السلیم رأس مال نجاه الإنسان یوم القیامه،حیث نقرأ فی سوره الشعراء،و فی الآیات 88 و 89 علی لسان النّبی الکبیر إبراهیم علیه السّلام قوله تعالی: یَوْمَ لاٰ یَنْفَعُ مٰالٌ وَ لاٰ بَنُونَ إِلاّٰ مَنْ أَتَی اللّٰهَ بِقَلْبٍ سَلِیمٍ (4) .

نعم،من هنا تبدأ قصّه إبراهیم ذی القلب السلیم،و الروح الطاهره،و الإراده الصلبه،و العزم الراسخ،مع قومه،إذ کلّف بالجهاد ضدّ عباد الأصنام،و بدأ بأبیه

1- 1) -سوره البقره،الآیه 10.

2- 2) -ورد فی الکافی و نقله صاحب تفسیر الصافی فی ذیل الآیه(89)من سوره الشعراء.

3- 3) -المصدر السابق.

4- 4) -فی مجال القلب السلیم ورد بحث مشروح فی ذیل الآیات(88)و(89)من سوره الشعراء(تحت عنوان القلب السلیم وحده رأسمال النجاه)ص 273.

و عشيرته إِذْ قٰالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مٰا ذٰا تَعْبُدُونَ ،ما هذه الأشياء التى تعبدونها؟ أليس من المؤسف على الإنسان الذى كرّمه اللّه على سائر المخلوقات،و أعطاه العقل أن يعظّم قطعه من الحجر و الخشب العديم الفائده؟أين عقولكم؟ ثمّ يكمل العباره السابقه التى كان فيها تحقير واضح للأصنام،و يقول: أَ إِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللّٰهِ تُرِيدُونَ (۱) .

استخدام كلمه(إفك)فى هذه الآيه،و التى تعنى الكذب العظيم أو القبيح،توضّح حزم و قاطعيه إبراهيم عليه السّلام بشأن الأصنام.

و اختتم كلامه فى هذا المقطع بعباره عنيفه فَمٰا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعٰالَمِينَ إذ تأكلون ما يرزقكم به يوميّا،و نعمه تحيط بكم من كلّ جانب، و رغم هذا تقصدون موجودات لا قيمه لها من دون اللّه،فهل تتوقّعون أنّه سيرحمكم و سوف لا يعذّبكم بأشدّ العذاب؟كم هو خطأ كبير و ضلال خطير؟! عباره بِرَبِّ الْعٰالَمِينَ تشير إلى أنّ كلّ العالم يدور فى ظلّ ربوبيته تبارك و تعالى،و قد تركتموه و اتّجهتم صوب مجموعه من الظنون و الأوهام الفارغه.

و جاء فى كتب التأريخ و التّفسير،أنّ عبده الأصنام فى مدينه بابل كان لهم عيد يحتفلون به سنويا،يهيّئون فيه الطعام داخل معابدهم،ثمّ يضعونه بين يدى آلهتهم لتباركه،ثمّ يخرجون جميعا إلى خارج المدينه،و فى آخر اليوم يعودون إلى معابدهم لتناول الطعام و الشراب.

و بذلك خلت المدينه من سكّانها،فاستغلّ إبراهيم عليه السّلام هذه الفرصه الجيّده لتحطيم الأصنام،الفرصه التى كان إبراهيم عليه السّلام ينتظرها منذ فتره طويله،و لم يكن راغبا فى إضاعتها.

و حين دعاه قومه ليلا للمشاركه فى مراسمهم نظر إلى النجوم فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ .

---

۱ - ۱) -فى تركيب هذه الجمله ذكر المفسرون احتمالين:الأول:أن(إفكا)مفعول ب ل(تريدون)و(آلهه)بدله، و الآخر:أن(آلهه)مفعول به و(إفكا)مفعول لأجله تقدم للأهميه.

فَقٰالَ إِنِّی سَقِیمٌ

.

و بهذا الشکل اعتذر عن مشارکتهم.

بعد اعتذاره ترکوه و أسرعوا لتأدیه مراسمهم فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِینَ .

و هنا یطرح سؤالان.

الأوّل:لماذا نظر إبراهیم علیه السّلام فی النجوم،و ما هو هدفه من هذه النظره؟ و الثانی:هل أنّه کان مریضا حقّا حینما قال:إنّنی مریض؟و ما هو مرضه؟ جواب السؤال الأوّل،مع أخذ اعتقادات أهل بابل و عاداتهم بنظر الإعتبار، یتّضح أنّهم کانوا یستقرئون النجوم،و حتّی أنّهم کانوا یقولون بأنّ أصنامهم کانت هیاکل النجوم علی الأرض،و لهذا السبب فإنّهم یکنّون لها الاحترام لکونها تمثّل النجوم.

و بالطبع فإلی جانب استقرائهم للنجوم،کانت هناک خرافات کثیره فی هذا المجال شائعه فی أوساطهم،منها أنّهم کانوا یعتبرون النجوم تؤثّر علی حظوظهم، و کانوا یطلبون منها الخیر و البرکه،کما کانوا یستدلّون بها علی الحوادث المستقبلیه.

و لکی یوهمهم إبراهیم علیه السّلام بأنّه یقول بمثل قولهم،نظر إلی السماء و قال حینذاک:إنّی سقیم،فترکوه ظنّا منهم أنّ نجمه یدلّ علی سقمه.

أمّا بعض کبار المفسّرین،فقد احتملوا أنّه کان یرید من حرکه النجوم تعیین الوقت الدقیق لمرضه،لأنّه کان مصابا بحمی تعتریه فی أوقات معیّنه،و لکن الاحتمال الأوّل یعدّ مناسبا أکثر،مع الأخذ بنظر الإعتبار معتقدات أهل بابل السائده آنذاک.

فیما احتمل البعض الآخر أنّ نظره إلی السماء هو التفکّر فی أسرار الخلق،رغم أنّهم کانوا یتصوّرون أنّ نظراته إلی السماء هی نظرات منجم یرید من خلال حرکه

النجوم توقّع الحوادث القادمه.

أمّا بخصوص السؤال الثانى فقد ذكروا أجوبه متعدّده:

منها:أنّه كان مريضا حقّا،و حتّى إن لم يكن مريضا فإنّه لن يشارك فى مراسم عيدهم،فمرضه كان عذرا جيّدا لعدم مشاركته فى تلك المراسم و فى نفس الوقت فرصه ذهبيه لتحطيم الأصنام،و لا نمتلك دليلا يمكننا من القول بأنّه استخدم التوريه،كما أنّ استخدام التوريه من قبل الأنبياء يعدّ عملا غير مناسب.

و قال البعض الآخر:إنّ إبراهيم لم يكن مصابا بمرض جسدى،و إنّما روحه متعبه،من جرّاء الممارسات التافهه لقومه و كفرهم و ظلمهم و فسادهم،فبهذا أوضح لهم الحقيقه،رغم أنّهم تصوّروا شيئا آخر،و اعتقدوا أنّه يعانى من أمراض جسديه.

و احتمل البعض أنّه استخدم التوريه فى كلامه معهم،فمثلا يأتى شخص و يطرق باب البيت،و يستفسر:هل فلان موجود فى البيت،فيأتيه الجواب:إنّه ليس هنا، و المراد من هنا هو خلف باب البيت و ليس البيت كلّه،فى حين أنّ السامع يفهم أنّه ليس موجودا فى البيت،(مثل هذه العبارات التى هى ليست بكذب و ظاهرها يعطى مفهوما آخر يطلق عليها فى الفقيه اسم«التوريه»)و مقصود إبراهيم عليه السّلام انّنى يمكن أنّ أمراض فى المستقبل،قال ذلك ليتخلّص منهم و يتركوه وحيدا.

و لكن التّفسير الأوّل و الثانى أنسب حسب الظاهر.

و بهذه الطريقه بقى إبراهيم عليه السّلام وحده فى المدينه بعد أن تركها عبده الأصنام متوجّهين إلى خارجها،فنظر إبراهيم حوله و نور الاشتياق لتحطيم الأصنام ظاهر فى عينيه،إذ قربت اللحظات التى كان ينتظرها،و عليه أن يتحرّك لمحاربه الأصنام و إلحاق ضربه عنيفه بها،ضربه تهزّ العقول التافهه لعبدتها و توقظهم.

فذهب إلى معبد الأصنام،و نظر إلى صحون و أوانى الطعام المنتشره فى المعبد، ثمّ نظر إلى الأصنام و صاح بها مستهزئا،ألا تأكلون من هذا الطعام الذى جلبه لكم

عبدتكم،إنّه غذاء دسم و لذيذ و متنوّع،ما لكم لا تأكلون؟ فَرٰاغَ إِلىٰ آلِهَتِهِمْ فَقٰالَ أَ لاٰ تَأْكُلُونَ (۱) .

ثمّ أضاف،لم لا تتكلّمون؟لم تعجز ألسنتكم عن النطق؟ مٰا لَكُمْ لاٰ تَنْطِقُونَ .

و بهذا استهزء إبراهيم عليه السّلام بكلّ معتقداتهم الخرافيه،و من دون أى شكّ فإنّه كان يعرف أنّها لا تأكل و لا تتحدّث،و أنّها جماد.و أراد من وراء ذلك عرض حادثه تحطيم الأصنام بصوره جميله و لطيفه.

بعد ذلك شمر عن ساعديه،فأمسك الفأس و انقضّ على تلك الأصنام بالضرب بكلّ ما لديه من قوّه فَرٰاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ .

و المراد من(اليمين)إمّا يد الإنسان اليمنى،و التى ينجز الإنسان بها معظم أعماله،أو أنّها كنايه عن القدره و القوّه،و يمكن أن تجمع بين المعنيين.

على أيّه حال،فإنّ انقضاض إبراهيم عليه السّلام على الأصنام،حوّل معبد الأصنام المنظّم إلى خربه موحشه،حيث لم يبق صنم على حالته الاولى،فالأيدى و الأرجل المحطّمه تفرّقت هنا و هناك داخل المعبد،و كم كان منظر المعبد بالنسبه لعبده الأصنام مؤثّرا و مؤسفا و مؤلما فى نفس الوقت.

و بعد انتهائه من تحطيم الأصنام،غادر إبراهيم-بكلّ هدوء و اطمئنان-معبد الأصنام عائدا إلى بيته ليعدّ نفسه للحوادث المقبله، لأنّه كان يعلم أنّ عمله كان بمثابه انفجار هائل سيهزّ المدينه برمّتها و مملكه بابل بأجمعها،و سيحدث موجه من الغضب العارم،الموجه التى سيكون إبراهيم عليه السّلام وحيدا فى وسطها.إلاّ أنّ له ربّا يحميه،و هذا يكفيه.

و فى آخر اليوم عاد عبده الأصنام إلى مدينتهم،و اتّجهوا فورا إلى معبدهم، فشاهدوا مشهدا رهيبا و غامضا،و من شدّه رهبه المشهد تجمّد البعض فى مكانه، فيما فقد البعض الآخر عقله و هو ينظر بدهشه و تحيّر لجذاذ آلهته المنتشره هنا

۱- ۱) -(راغ)من مادّه(روغ)و تعنى التوجّه و التمايل بشكل سرّى و مخفى أو بشكل مؤامره و تخريب.

و هناک،تلک الأصنام التی خالوها ملجأ و ملاذا لهم یوم لا ملجأ لهم،أصبحت بلا ناصر و لا معین.

ثمّ تحوّل جوّ السکوت الذی خیّم علیهم لحظه مشاهده المشهد،تحوّل إلی صراخ و استفسار عمّن فعل ذلک بآلهتهم؟ و لم یمرّ وقت طویلا،حتّی تذکّروا وجود شاب یعبد اللّه فی مدینتهم اسمه إبراهیم،کان یستهزئ بأصنامهم،و یهدّد بأنّه أعدّ مخطّطا خطیرا لأصنامهم.

من هنا استدلّوا علی أنّ إبراهیم هو الفاعل،فأقبلوا علیه جمیعا غاضبین فَأَقْبَلُوا إِلَیْهِ یَزِفُّونَ .

«یزفّون»مشتقّه من(زفّ)علی وزن(کفّ)و تستعمل بخصوص هبوب الریاح و الحرکه السریعه للنعامه الممتزجه ما بین السیر و الطیران،ثمّ تستخدم للکنایه عن (زفاف العروس)إذ تعنی أخذ العروس إلی بیت زوجها.

علی أیّه حال،المراد هنا هو أنّ عبده الأصنام جاؤوا مسرعین إلی إبراهیم، و سنقرأ تتمّه الأحداث فی الآیات القادمه.

***

ملاحظات

اشاره

۱-هل أنّ الأنبیاء یستخدمون التوریه؟

«التوریه»-و یعبّر عنها أحیانا بلفظه(معاریض)-تعنی أن یقول الرجل شیئا یقصد به غیره و یفهم منه غیر ما یقصده.فمثلا شخص یسأل آخر:متی رجعت من السفر؟فیجیبه:قبل غروب الشمس،فی الوقت الذی کان قد عاد من سفره قبل الظهر،فالسائل یفهم من ظاهر الکلام،أنّه عاد قبل غروب الشمس بقلیل،فی حین أنّه کان یقصد قبل الظهر،لأنّ قبل الظهر یعدّ أیضا قبل غروب الشمس.أو شخص یسأل آخر:هل تناولت الطعام،فیجیبه:نعم.فالسائل یفهم من الکلام أنّه تناول

الطعام اليوم،فى حين أنّ قصد المجيب هو أنّه تناول الطعام يوم أمس.

مسأله هل أنّ التوريه كذب أم لا؟مطروحه فى الكتب الفقهيه،فمجموعه من كبار العلماء و منهم الشيخ الأنصارى رضوان اللّه عليه يعتقدون أنّ التوريه ليست كذبا،فلا العرف و لا الروايات تعدها كذبا،و إنّما وردت بشأنها روايات تنفى عنها صفه الكذب،إذ

قال الإمام الصادق عليه السّلام: «الرجل يستأذن عليه فيقول للجاريه قولى ليس هو هاهنا.فقال عليه السّلام:لا بأس ليس بكذب» .(1)

و الحقّ هو لزوم القول بالتفصيل،و لا بدّ من وضع ضابطه كليّه:فإذا كان للفظ فى اللغه و العرف معنيان،و المخاطب تصوّر معنى خاصّا من تلك الكلمه،فى حين أنّ المتحدّث يقصد معنى آخر،مثل هذا يعدّ توريه و ليس بكذب،حيث يستخدم لفظ مشترك المعانى يفهم منه المخاطب شيئا،فى حين أنّ المتحدّث يقصد منه معنى آخر.

و على سبيل المثال،جاء فى شرح حال«سعيد بن جبير»،أنّ الطاغيه الحجّاج بن يوسف الثقفى سأل سعيد بالقول:ما هو تقييمك لى،فأجابه سعيد:إنّك(عادل)، ففرح جلاوزه الحجّاج،فى حين قال الحجّاج:إنّه بكلامه هذا كفّرنى،لأنّ أحد معانى(العادل)هو العدول من الحقّ إلى الباطل.

أمّا إذا كان للفظ معنى لغوى و عرفى واحد من حيث المفهوم،و المتحدّث يترك المعنى الحقيقى و يستخدمه كمعنى مجازى من دون أن يذكر قرائن المجاز،فمثل هذه التوريه-من دون أىّ شكّ-حرام،و لربّما تمكّنا بهذا التفصيل الجمع بين آراء مختلف الفقهاء.

و لكن،يجب الانتباه إلى أنّه فى بعض الأحيان حتّى فى الموارد التى لا تكون فيها التوريه مصداقا للكذب،تكون للتوريه أحيانا مفاسد و مضارّ و إيقاع الناس فى الخطأ،و من هذا الباب قد تصل فى بعض الأحيان إلى درجه الحرمه،و لكن إن

1- 1) -وسائل الشيعه،المجلّد 8،الصفحه 580،(الباب 141 فى أبواب العشره الحديث 8).

لم تکن قد اشتملت علی مفسده،و لم تکن مصداقا للکذب،فلیس هناک دلیل علی حرمتها.و روایه الإمام الصادق علیه السّلام هی من هذا القبیل.

بناء علی ذلک فإنّ عدم وجود الکذب فی التوریه لیس کافیا،بل یجب أیضا أن لا تشتمل التوریه علی مفاسد و مضارّ اخری.و بالطبع ففی الحالات التی تقتضی الضروره فیها أن یقول الإنسان کذبا،فمن المسلّم به جواز استعمال التوریه ما دام هناک مجال لاستخدامها،لکی لا یکون کلامه مصداقا للکذب.

لکن هل أنّ التوریه جائزه أیضا للأنبیاء،أم لا؟ یجب القول:إنّه طالما کانت سببا فی تزلزل ثقه الناس المطلقه فهی غیر جائزه، لأنّ الثقه المطلقه هذه هی رأسمال الأنبیاء فی طریق التبلیغ،و أمّا فی موارد مثل ما ورد عن تمارض إبراهیم علیه السّلام و نظره فی النجوم،و وجود هدف مهمّ فی ذلک العمل، دون أن تتسبّب فی تزلزل أعمده الثقه لدی مریدی الحقّ،فلا تنطوی علی أی إشکال.

۲-إبراهیم و القلب السلیم:

کما هو معروف فإنّ کلمه(القلب)تعنی فی الاصطلاح القرآنی الروح و العقل، و لهذا فإنّ(القلب السلیم)یعنی الروح الطاهره السالمه الخالیه من کافّه أشکال الشرک و الشکّ و الفساد.

و القرآن الکریم وصف بعض القلوب ب(القاسیه) فَبِمٰا نَقْضِهِمْ مِیثٰاقَهُمْ لَعَنّٰاهُمْ وَ جَعَلْنٰا قُلُوبَهُمْ قٰاسِیَةً یُحَرِّفُونَ الْکَلِمَ عَنْ مَوٰاضِعِهِ وَ نَسُوا حَظًّا مِمّٰا ذُکِّرُوا بِهِ... . (۱)

و أحیانا وصفها بأنّها غیر طاهره،کما ورد فی(سوره المائده-۴۱).

و اخری وصفها بالمریضه(سوره البقره-۶).

و رابعه وصفها بالقلوب المغلقه المختوم علیها(سوره التوبه-۸۷).

۱- ۱) -سوره المائده،الآیه ۱۳.

و فی مقابل هذه القلوب طرح القلب السلیم الخالی من العیوب المذکوره أعلاه، حیث أنّه صاف و رقیق ملیء بالعطف و سالم و لا ینحرف عن الحقّ،القلب الذی وصف فی الروایات ب(حرم اللّه)إذ جاء

فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام: (القلب حرم اللّه فلا تسکن حرم اللّه غیر اللّه) (۱) .

و هو القلب الذی یتمکّن من رؤیه الحقائق الغیبیه و النظر إلی الملکوت الأعلی، إذ

ورد فی حدیث لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «لو لا أنّ الشیاطین یحومون علی قلوب بنی آدم لنظروا إلی الملکوت» (۲) .

الملاحظ أنّ(القلب السلیم)هو خیر رأسمال للنجاه فی یوم القیامه،و به التحق إبراهیم علیه السّلام بملکوت ربّه و تسلّم أمر الرساله.

نختتم هذا البحث بحدیث آخر،إذ ورد فی الروایات

«إنّ للّه فی عباده آنیه و هو القلب فأحبّها إلیه(أصفاها)و(أصلبها)و(أرقّها):أصلبها فی دین اللّه،و أصفاها من الذنوب،و أرقّها علی الاخوان» (۳) .

***

۱- ۱) -بحار الأنوار،المجلّد ۶۷،الصفحه ۲۵،باب حبّ اللّه الحدیث ۲۷.

۲- ۲) -بحار الأنوار،المجلّد ۶۷،الصفحه ۵۹،باب القلب و صلاحه الحدیث ۳۹.

۳- ۳) -بحار الأنوار،المجلّد ۶۷،الصفحه ۵۶،باب القلب و صلاحه الحدیث ۲۶.

الآیات [سوره الصافات (۳۷): الآیات ۹۵ الی ۱۰۰]

اشاره

قٰالَ أَ تَعْبُدُونَ مٰا تَنْحِتُونَ (۹۵) وَ اَللّٰهُ خَلَقَکُمْ وَ مٰا تَعْمَلُونَ (۹۶) قٰالُوا اِبْنُوا لَهُ بُنْیٰاناً فَأَلْقُوهُ فِی اَلْجَحِیمِ (۹۷) فَأَرٰادُوا بِهِ کَیْداً فَجَعَلْنٰاهُمُ اَلْأَسْفَلِینَ (۹۸) وَ قٰالَ إِنِّی ذٰاهِبٌ إِلیٰ رَبِّی سَیَهْدِینِ (۹۹) رَبِّ هَبْ لِی مِنَ اَلصّٰالِحِینَ (۱۰۰)

التّفسیر

اشاره

فشل مخطّطات المشرکین:

بعد أن حطّم إبراهیم الأصنام،استدعی إبراهیم بهذه التهمه إلی المحکمه، و هناک سألوه و طلبوا منه الجواب عن الید التی نفذت هذا الفعل فی معبدهم،و قد شرح القرآن الکریم فی سوره الأنبیاء الحادثه بصوره مفصّله،بینما اکتفی القرآن فی آیات بحثنا بالإشاره لمقطع حسّاس واحد من مواقف إبراهیم علیه السّلام و هو آخر کلامه معهم فی مجال بطلان عقیدتهم فی عباده الأصنام قٰالَ أَ تَعْبُدُونَ مٰا تَنْحِتُونَ .

فهل هناک شخص عاقل یعبد شیئا من صنع یدیه؟و ما هو الدافع لأی ذی شعور للسجود لشیء صنعه هو بنفسه؟فأی عقل و منطق یسمح بفعل هذا؟

فالمعبود يجب أن يكون خالق الإنسان،و ليس صنيعه يده،من الآن فكّروا و اعرفوا معبودكم الحقيقى وَ اللّٰهُ خَلَقَكُمْ وَ مٰا تَعْمَلُونَ .

فهو خالق الأرض و السماء،و مالک الوقت و الزمان،و يجب السجود لهذا الخالق و حمده و عبادته.

إنّ هذه الحجّه كانت من الوضوح و القوّه إلى حدّ جعلتهم يقفون أمامها مبهوتين و غير قادرين على ردّها و دحضها.

و(ما)فى عباره مٰا تَعْمَلُونَ هى(ما)الموصوله و ليست(ما)المصدريه، و منها يراد القول،إنّ اللّه خلقكم و كذلك ما تصنعون، و عند ما يقال:إنّ الأصنام هى من صنع أو أعمل الإنسان،فذلك يعنى أنّ الإنسان أعطاها الشكل فقط،و إلاّ فالمادّه التى تصنع منها الأصنام هى من خلق اللّه أيضا.

صحيح ما يقال من أنّ هذه السجّاده و ذلك البيت و تلك السياره هى من صنع الإنسان،و لكن المراد ليس أنّ الإنسان هو الذى خلق المواد الأوّليه لتلك الأشياء، و إنّما الإنسان صاغ تلك المواد الأوّليه بشكل معيّن.

أمّا إذا اعتبرنا(ما)مصدريه،فالعباره تعنى ما يلى:إنّ اللّه خلقكم و أعمالكم.

و بالطبع فإنّ المعنى هذا ليس خطأ،و على خلاف ما يظنّه البعض ليس فيه ما يدلّ على الجبر،لأنّ الأعمال التى نقوم بها رغم أنّها تتمّ بإرادتنا،إلاّ أنّ إراده و قدره التصميم و غيرها من القوى التى تنفذ من خلالها أفعالنا كلّها من اللّه سبحانه و تعالى،و بهذا الشكل فإنّ الآيه لا تقصد هذا الأمر،و إنّما تقصد الأصنام،و تقول:

إنّ اللّه خلقكم أنتم و الأصنام التى صنعتموها و صقلتموها.و جمال هذا الحديث يتجسّد هنا،لأنّ البحث يخصّ الأصنام و لا يخصّ أعمال البشر.

فى الحقيقه إنّ موضوع هذه الآيه يشبه الموضوع الذى ورد فى قصّه موسى و السحره و التى تقول: فَإِذٰا هِيَ تَلْقَفُ مٰا يَأْفِكُونَ (1) ،فالمقصود هنا الأفعى التى هى

١- ١) -الأعراف،١١٧.

من صنع السحره.

و من المعروف أنّ الطغاه و الجبابره لا يفهمون لغه المنطق و الدليل،و لهذا لم تؤثّر عليهم الأدلّه و البراهين الظاهريه و القويّه التى بيّنها إبراهيم عليه السّلام على قلوب الجبابره الحاكمين فى بابل حينذاک،رغم أنّ مجموعات من أبناء الشعب المستضعف هناک استيقظت من غفلتها و آمنت بدعوه إبراهيم عليه السّلام.

و لإيقاف انتشار منطق التوحيد بين أبناء مدينه بابل،عمد الطغاه الذين أحسّوا بخطر انتشار على مصالحهم الخاصّه إلى استخدام منطق القوّه و النار ضدّ إبراهيم عليه السّلام،المنطق الذى لا يفهمون سواه.حيث هتفوا بالاعتماد على قدراتهم الدنيويه:أن ابنوا له بنيانا عاليا،و اشعلوا فى وسطه النيران ثمّ ارموه فيه قٰالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيٰاناً فَأَلْقُوهُ فِی الْجَحِيمِ .

و من هذه العباره يستفاد أنّ الأوامر كانت قد صدرت ببناء أربعه جدران كبيره، و من ثمّ إشعال النيران فى داخلها،و بناء الجدران الأربعه الكبيره،إنّما تمّ-كما يحتمل-للحئول دون امتداد النيران إلى خارجها،و منع وقوع أخطار محتمله قد تنجم عنها،و لإيجاد جهنّم واقعيه كتلک التى كان إبراهيم يتهدّد و يتوعّد عبده الأوثان بها.

صحيح أنّ كميّه قليله من الحطب كانت تكفى لحرق إنسان كإبراهيم،لكنّهم فعلوا ذلک ليطفؤا غيظ قلوبهم من جرّاء تحطيم أصنامهم،و بمعنى آخر الانتقام من إبراهيم بأشدّ ما يمكن،لعلّهم بذلک يعيدون العظمه و الابّهه لأصنامهم إضافه إلى أنّ عملهم هذا كان تخويفا و تحذيرا لمعارضيهم،كى لا تتكرّر مثل هذه الحادثه مرّه اخرى فى تأريخ بابل،لذلک فقد أوقدوا نارا عظيمه.

«الجحيم»فى اللغه هى النار التى تجتمع بعضها على بعض.

هذا،و قد فسّر البعض«البنيان»بأنّه المنجنيق،و المنجنيق-كما هو معروف- أداه لقذف الأشياء الثقيله إلى مكان بعيد،لكن أكثر المفسّرين انتخبوا التّفسير

ص :۳۵۶

الأوّل،أى أنّ البنيان هو ذلك البناء المكوّن من أربعه جدران كبيره.

و آيات القرآن الكريم هنا لم تشر إلى دقائق و تفاصيل هذا الحادث الذى ورد فى سوره الأنبياء،و إنّما أنهت هذه الحادثه بخلاصه مركّزه و لطيفه فَأَرٰادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنٰاهُمُ الْأَسْفَلِينَ .

(كيد)فى الأصل تعنى الاحتيال،أ كان بطريقه صحيحه أم غلط،مع أنّها غالبا ما تستعمل فى موارد مذمومه،و بما أنّها جاءت بحاله النكره هنا،فإنّها تدلّ على عظمه الشيء و أهميّته،و هى إشاره إلى المخطّط الواسع الذى وضعه طغاه بابل للقضاء على دعوه إبراهيم للناس بقوله و عمله و محو آثارها.

نعم،لقد وضعهم اللّه سبحانه و تعالى فى أسفل السافلين،فيما رفع إبراهيم عليه السّلام إلى أعلى علّيين،كما كان أعلى منطقا،و جعله هو الأعلى فى حادثه إشعال النيران،و أعداءه الأقوياء هم الأخسرين،فكانت النار عليه بردا و سلاما دون أن تحرق حتّى شعره واحده من جسد إبراهيم عليه السّلام و خرج سالما من ذلك البحر الجهنّمى.

فإرادته تقتضى أن ينجى فى يوم من الأيّام نوحا من«الغرق»،و فى يوم آخر ينقذ إبراهيم من«الحرق»،و ذلك لكى يوضّح أنّ الماء و النار عبدان مطيعان له سبحانه و تعالى و مستجيبان لأوامره.

إبراهيم عليه السّلام الذى نجا بإراده اللّه من هذه الحادثه الرهيبه و المؤامره الخطيره التى رسمها أعداؤه له،و خرج مرفوع الرأس منها،صمّم على الهجره إلى أرض بلاد الشام،إذ أنّ رسالته فى بابل قد انتهت،وَ قٰالَ إِنِّي ذٰاهِبٌ إِلىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ .

من البديهيات أنّ اللّه لا يحويه مكان،و الهجره التى تتمّ فى سبيله من المجتمع الملوّث الفاسد إلى المجتمع الطاهر الصافى،فإنّها هجره إلى اللّه.

فالهجره إلى أرض الأنبياء و الأولياء و مهبط الوحى الإلهى،هى هجره إلى اللّه، مثلما يعرف السفر إلى مكّه المكرّمه بأنّه سفر إلى اللّه،خاصّه و أنّ هجره إبراهيم عليه السّلام

کانت من أجل تنفیذ واجب رسالی إلهی،و أنّ اللّه کان هادیه و مرشده خلال السفر.

الآیات-هنا-عکست أوّل طلب لإبراهیم علیه السّلام من الباری عزّ و جلّ،إذ طلب الولد الصالح،الولد الذی یتمکّن من مواصله خطّه الرسالی،و یتمم ما تبقّی من مسیرته،و ذلک حینما قال: رَبِّ هَبْ لِی مِنَ الصّالِحِینَ .

إنّها حقّا لعباره جمیله(الولد الصالح و اللائق)الصالح من حیث الإعتقاد و الإیمان،و الصالح من حیث القول و العمل،و الصالح من جمیع الجهات.

و الذی یلفت النظر أنّ إبراهیم علیه السّلام کان قد طلب من اللّه فی إحدی المرّات أن یجعله من مجموعه الصالحین،کما نقل القرآن ذلک عن إبراهیم، رَبِّ هَبْ لِی حُکْماً وَ أَلْحِقْنِی بِالصّالِحِینَ . (۱)

فیما طلب من اللّه هنا أن یمنحه الولد الصالح،حیث أنّ کلمه صالح تجمع کلّ الأشیاء اللائقه و الجیّده فی الإنسان الکامل.

فاستجاب اللّه لدعاء عبده إبراهیم،و رزقه أولادا صالحین(إسماعیل و إسحاق)و ذلک ما وضحته الآیات التالیه فی هذه السوره وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِیًّا مِنَ الصّالِحِینَ .

و بخصوص إسماعیل یقول القرآن الکریم: وَ إِسْماعِیلَ وَ إِدْرِیسَ وَ ذَا الْکِفْلِ کُلٌّ مِنَ الصّابِرِینَ. وَ أَدْخَلْناهُمْ فِی رَحْمَتِنا إِنَّهُمْ مِنَ الصّالِحِینَ (۲) .

بحثان

اشاره

۱-خالق کلّ شیء:

وردت فی آیات بحثنا أنّ إبراهیم علیه السّلام خاطب عبده الأصنام قائلا: وَ اللّهُ خَلَقَکُمْ وَ ما تَعْمَلُونَ .

۱- ۱) -الشعراء،۸۳.

۲- ۲) -الأنبیاء،۸۵ و ۸۶.

و قد زعم البعض أنّ هذه الآيات تدلّ على ما جاء فى مذهب الجبر الفاسد، و ذلك عند ما اعتبروا(ما)فى عباره مٰا تَعْمَلُونَ (ما)المصدريه،و قالوا:إنّ هذه الآيه تعنى أنّ اللّه خلقكم و أعمالكم،و بما أنّ أعمالنا هى من خلق اللّه،فإنّنا لا نمتلك الإختيار،أى إنّنا مجبرون.

هذا الكلام لا أساس له من الصحّه لعدّه أسباب:

أوّلا:كما قلنا فإنّ المراد من مٰا تَعْمَلُونَ هنا،هى الأصنام التى كانوا يصنعونها بأيديهم،و ليست أعمال الإنسان،و من دون أى شكّ فإنّهم كانوا يأخذون المواد من هذه الأرض التى خلقها اللّه،و ينحتونها بالشكل الذى يروق لهم،و لهذا فإنّ(ما)هنا هى(ما)الموصوله.

ثانيا:إذا كان مفهوم الآيه كما تصوّر أولئك،فإنّها تكون دليلا لصالح عبده الأصنام،و ليس ضدّهم،لأنّهم يستطيعون القول:صناعه الأصنام و عبادتها إنّما هو من خلق اللّه،و نحن فى هذه الحاله لسنا بمذنبين.

و ثالثا:على فرض أنّ معنى الآيه هو هكذا،فليس هناك دليل على الجبر،لأنّه مع الحريه و الإراده و الاختيار فإنّ اللّه هو خالق أعمالنا،لأنّ هذه الحريه و الإراده و القدره على التصميم و كذلك القوى البدنيه و الفكريه الماديّه و المعنويه لم يعطها غير اللّه؟إذا فالخالق هو،مع أنّ الفعل هو باختيارنا نحن.

٢-هجره إبراهيم عليه السّلام:

الكثير من الأنبياء هاجروا خلال فتره حياتهم من أجل أداء رسالتهم،و منهم إبراهيم الذى استعرضت آيات مختلفه فى القرآن المجيد قضيّه هجرته،و منها ما جاء فى سوره العنكبوت الآيه(٢۶) وَ قٰالَ إِنِّى مُهٰاجِرٌ إِلىٰ رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

فى الحقيقه،إنّ أولياء اللّه عند ما كانوا يتّمون مهام رسالتهم فى إحدى المناطق،

أو أنّهم كانوا يحسّون بأنّ المجتمع لا يتقبّل رسالتهم،كانوا يهاجرون كى لا تتوقّف رسالتهم.

و هذه الهجره كانت مصدر بركات كثيره على طول تاريخ الأديان،حتّى أنّ تاريخ الإسلام من الناحيتين الظاهريه و المعنويه يدور حول محور هجره الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و لو لا الهجره لكان الإسلام قد غرق-و إلى الأبد-فى مستنقع عبده الأصنام فى مكّه.فالهجره هى التى أعطت روحا جديده للإسلام و المسلمين،و غيّرت كلّ شىء لصالحهم،و خطت للبشريه طريقا جديدا للسير عليه.

و بعباره واحده:فالهجره برنامج عام لكلّ مؤمن عند ما يشعر فى وقت من الأوقات أنّ الجو الذى يعيش فيه غير متناسب مع أهدافه المقدّسه،و يبدو كأنّه مستنقع عفن يفسد كلّ ما فيه،فتكليفه الهجره،و عليه أن يحزم حقائب السفر، و ينتقل إلى مناطق أفضل،فأرض اللّه واسعه.

و الهجره قبل أن تكون ذات طابع ذاتى خارجى،فهى ذات طابع ذاتى داخلى، ففى بدايه الأمر يجب على القلب و الروح هجر الفساد إلى الطهاره،و هجر الشرك إلى الإيمان،و هجر المعاصى إلى طاعه اللّه العظيم.

فالهجره الداخليه هى بدايه تغيّر الفرد و المجتمع،و مقدّمه للهجره الخارجيه، و قد بحث هذا الموضوع بصوره مفصّله فى هذا التّفسير و فى موضوع يتحدّث عن الإسلام و الهجره،و ذلك بعد الآيه(١٠٠)فى سوره النساء.

***

الآيات [سوره الصافات (٣٧): الآيات ١٠١ الی ١١٠]

اشاره

فَبَشَّرْنٰاهُ بِغُلاٰمٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمّٰا بَلَغَ مَعَهُ اَلسَّعْيَ قٰالَ يٰا بُنَيَّ إِنِّي أَرىٰ فِي اَلْمَنٰامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مٰا ذٰا تَرىٰ قٰالَ يٰا أَبَتِ اِفْعَلْ مٰا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شٰاءَ اَللّٰهُ مِنَ اَلصّٰابِرِينَ (١٠٢) فَلَمّٰا أَسْلَمٰا وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَ نٰادَيْنٰاهُ أَنْ يٰا إِبْرٰاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ اَلرُّؤْيٰا إِنّٰا كَذٰلِكَ نَجْزِي اَلْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هٰذٰا لَهُوَ اَلْبَلاٰءُ اَلْمُبِينُ (١٠٦) وَ فَدَيْنٰاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَ تَرَكْنٰا عَلَيْهِ فِي اَلْآخِرِينَ (١٠٨) سَلاٰمٌ عَلىٰ إِبْرٰاهِيمَ (١٠٩) كَذٰلِكَ نَجْزِي اَلْمُحْسِنِينَ (١١٠)

التّفسير

اشاره

إبراهيم عند المذبح:

بحثنا فی الآيات السابقه انتهی عند هجره إبراهيم عليه السّلام من بابل بعد أن أدّی رسالته هناک،و طلبه من اللّه أن يرزقه ولدا صالحا،إذ لم يكن له ولد.

و أوّل آيه فی هذا البحث تتحدّث عن الاستجابه لدعاء إبراهيم،إذ قالت الآيه:

فَبَشَّرْنٰاهُ بِغُلاٰمٍ حَلِيمٍ

.

فی الواقع إنّ ثلاثه بشائر جمعت فی هذه الآیه،الاولی أنّه سیرزق طفلا ذکرا، و الثانیه أنّ هذا الطفل یبلغ سنّ الفتوّه،أمّا الثالثه فهی أنّ صفته حلیم.

و کلمه(حلیم)تعنی الذی لا یعجّل فی الأمر قبل وقته مع القدره علیه،و قیل:

الذی لا یعجّل بالعقوبه،و الذی له روح کبیره و هو متسلّط علی أحاسیسه.

و یری«الراغب»فی مفرداته أنّ کلمه حلیم تعنی الضابط نفسه فی لحظه الإثاره و الغضب،و بسبب کون هذه الحاله تنشأ من العقل و الإدراک،فإنّ کلمه و عکس تعنی-أحیانا-العقل و الإدراک.

و لکن المعنی الحقیقی لکلمه حلیم هو المعنی الأوّل الذی ذکرناه.

و یمکن الاستفاده من هذا الوصف فی أنّ اللّه بشّر عبده إبراهیم فی أنّه سیعطی ابنه إسماعیل عمرا یمکن وصفه فیه بالحلیم،کما أنّ الآیات التالیه ستوضّح أنّ إسماعیل بیّن مرتبه حلمه أثناء قضیّه الذبح،مثلما وضّح أبوه إبراهیم حلمه فی أثناء قضیّه الذبح،و أثناء إحراقه بالنار.

و کلمه(حلیم)کرّرت(۱۵)مرّه فی القرآن المجید،و أغلبها وردت وصفا للّه، عدا ثلاث موارد جاءت فی وصف إبراهیم و ابنه إسماعیل من قبل القرآن الکریم، و الثالثه جاءت فی وصف شعیب و علی لسان الآخرین.

و کلمه(غلام)حسب إعتقاد البعض تطلق علی کلّ طفل لم یصل بعد مرحله الشباب،و البعض یطلقها علی الطفل الذی اجتاز عمره العشر سنوات و لم یصل بعد إلی سنّ البلوغ.

و یمکن الاستفاده من العبارات المختلفه الوارده بلغه العرب فی أنّ کلمه (غلام)تطلق علی الذکر الذی اجتاز مرحله الطفوله و لم یصل بعد إلی مرحله الشباب.

أخیرا،ولد الطفل الموعود لإبراهیم وفق البشاره الإلهیّه،و أثلج قلب إبراهیم الذی کان ینتظر الولد الصالح لسنوات طوال،اجتاز الطفل مرحله الطفوله و أضحی

غلاما.و هنا يقول القرآن: فَلَمّٰا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ .

يعنى أنّه وصل إلى مرحله من العمر يستطيع فيها السعى و بذل الجهد مع والده فى مختلف امور الحياه و إعانته على أموره.

و قال البعض:بأنّ(السعى)هنا يعنى العمل للّه و العباده،و بالطبع فإنّ كلمه (السعى)لها مفاهيم و معان واسعه تشمل هذا المعنى أيضا،و لكنّها لا يقتصر معناها عليه.و(معه)تدلّ على أنّه كان يساعد والده فى امور الحياه.

على كلّ حال،فقد ذهب جمع من المفسّرين:إنّ عمر إسماعيل كان(١٣)عاما حينما رأى إبراهيم ذلك المنام العجيب المحير،و الذى يدلّ على بدء إمتحان عسير آخر لهذا النّبى ذى الشأن العظيم،إذ رأى فى المنام أنّ اللّه يأمره بذبح ابنه الوحيد و قطع رأسه.فنهض من نومه مرعوبا،لأنّه يعلم أنّ ما يراه الأنبياء فى نومهم هو حقيقه و ليس من وساوس الشياطين،و قد تكرّرت رؤيته هذه ليلتين أخريين، فكان هذا بمثابه تأكيد على ضروره تنفيذ هذا الأمر فورا.

و قيل:إنّ أوّل رؤيا له كانت فى ليله الترويه،أى ليله الثامن من شهر ذى الحجّه، كما شاهد نفس الرؤيا فى ليله عرفه،و ليله عيد الأضحى،و بهذا لم يبق عنده أدنى شكّ فى أنّ هذا الأمر هو من اللّه سبحانه و تعالى.

إمتحان شاقّ آخر يمرّ على إبراهيم الآن،إبراهيم الذى نجح فى كافّه الامتحانات الصعبه السابقه و خرج منها مرفوع الرأس،الامتحان الذى يفرض عليه وضع عواطف الابوّه جانبا و الامتثال لأوامر اللّه بذبح ابنه الذى كان ينتظره لفتره طويله،و هو الآن غلام يافع قوى.

و لكن قبل كلّ شىء،فكّر إبراهيم عليه السّلام فى إعداد ابنه لهذا الأمر،حيث قٰالَ يٰا بُنَيَّ إِنِّي أَرىٰ فِي الْمَنٰامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مٰا ذٰا تَرىٰ .

الولد الذى كان نسخه طبق الأصل من والده،و الذى تعلم خلال فتره عمره القصيره الصبر و الثبات و الإيمان فى مدرسه والده،رحّب بالأمر الإلهى بصدر

واسع و طيبه نفس،و بصراحه واضحه قال لوالده: قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ .

و لا تفكّر فى أمرى،فانّك سَتَجِدُنِی إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ .

فما أعظم كلمات الأب و الابن و كم تخفى فى بواطنها من الأمور الدقيقه و المعانى العميقه؟! فمن جهه،الأب يصارح ولده البالغ من العمر(١٣)عاما بقضيّه الذبح،و يطلب منه إعطاء رأيه فيها،حيث جعله هنا شخصيّه مستقلّه حرّه الإراده.

فإبراهيم لم يقصد أبدا خداع ولده،و دعوته إلى ساحه الامتحان العسير بصوره عمياء،بل رغب بإشراكه فى هذا الجهاد الكبير ضدّ النفس،و جعله يستشعر حلاوه لذّه التسليم لأمر اللّه و الرضى به،كما استشعر حلاوتها هو.

و من جهه اخرى،عمد الابن إلى ترسيخ عزم و تصميم والده فى تنفيذ ما أمر به، إذ لم يقل له:اذبحنى،و إنّما قال له:افعل ما أنت مأمور به،فإنّنى مستسلم لهذا الأمر،و خاصّه أنّه خاطب أباه بكلمه يَا أَبَتِ كى يوضّح أنّ هذه القضيّه لا تقلّل من عاطفه الابن تجاه أبيه و لو بمقدار ذرّه،و أنّ أمر اللّه هو فوق كلّ شىء.

و من جهه ثالثه،أظهر أدبا رفيعا اتّجاه اللّه سبحانه و تعالى،و أن لا يعتمد أحد على إيمانه و إرادته و تصميمه فقط،و إنّما يعتمد على إراده و مشيئه اللّه،و بعباره اخرى:أن يطلب توفيق الاستعانه و الاستقامه من اللّه.

و بهذا الشكل يجتاز الأب و ابنه المرحله الاولى من هذا الامتحان الصعب بانتصار كامل.

ماذا يدور فى هذا الوسط؟القرآن الكريم لم يفصل مجريات الحدث،و ركّز فقط على النقاط الحسّاسه فى هذه القصّه العجيبه.

كتب البعض:إنّ إسماعيل ساعد والده فى تنفيذ هذا الأمر الإلهى،و عمل على تقليل ألم و حزن والدته.

فعند ما أخذه والده للذبح وسط الجبال الجرداء و الحارقه فى أرض(منى)قال

إسماعيل لوالده:

يا أبت،أحكم من شدّ الحبل كى لا تتحرّك يدى و رجلى أثناء تنفيذك الأمر الإلهى،أخاف أن يقلّل ذلك من مقدار الجزاء الذى سأناله.

والدى العزيز اشحذ السكّين جيّدا،و امرره بسرعه على رقبتى كى يكون تحمّل ألم الذبح سهلا بالنسبه لى و لك.

والدى قبل ذبحى اخلع ثوبى من على جسدى كى لا يتلوّث بالدم،لأنّى أخاف أن تراه والدتى و تفقد عنان صبرها.

ثمّ أضاف:أوصل سلامى إلى والدتى،و إن لم يكن هناك مانع أوصل ثوبى إليها كى يسلّى خواطرها و يهدّئ من آلامها،لأنّها ستشمّ رائحه ابنها منه،و كلّما أحسّت بضيق القلب،تضعه على صدرها ليخفّف الحرقه الموجوده فى أعماقها.

قربت اللحظات الحسّاسه،فالأمر الإلهى يجب أن ينفّذ،فعند ما رأى إبراهيم عليه السّلام درجه استسلام ولده للأمر الإلهى احتضنه و قبّل وجهه،و فى هذه اللحظه بكى الاثنان،البكاء الذى يبرز العواطف الإنسانيه و مقدّمه الشوق للقاء اللّه.

القرآن الكريم يوضّح هذا الأمر فى جمله قصيره و لكنّها مليئه بالمعانى،فيقول تعالى: فَلَمّا أَسْلَما وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ (1) .

مرّه اخرى تطرّق القرآن هنا باختصار،كى يسمح للقارئ متابعه هذه القصّه بانشداد كبير.

قال البعض:إنّ المراد من عباره تَلَّهُ لِلْجَبِينِ هو أنّه وضع جبين ولده-طبقا لاقتراحه-على الأرض،حتّى لا تقع عيناه على وجه ابنه فتهيج عنده عاطفه الابوّه و تمنعه من تنفيذ الأمر الإلهى.

۱- ۱) -(تلّه)من مادّه(تلّ)و تعنى فى الأصل المكان المرتفع،و(تلّه للجبين)تعنى أنّه وضع أحد جوانب وجه ابنه على مكان مرتفع من الأرض. (جبين)تعنى أحد جانبى الجبهه أو الوجه،و طرفى الوجه أو الجبهه يقال لهما(جبينان).

على أيّه حال كبّ إبراهيم عليه السّلام ابنه على جبينه،و مرّر السكّين بسرعه و قوّه على رقبه ابنه،و روحه تعيش حاله الهيجان،و حبّ اللّه كان الشيء الوحيد الذى يدفعه إلى تنفيذ الأمر و من دون أى تردّد.

إلاّ أنّ السكّين الحادّه لم تترك أدنى أثر على رقبه إسماعيل اللطيفه.

و هنا غرق إبراهيم فى حيرته،و مرّر السكّين مرّه اخرى على رقبه ولده، و لكنّها لم تؤثّر بشىء كالمرّه السابقه.

نعم،فإبراهيم الخليل يقول للسكّين:اذبحى،لكنّ اللّه الجليل يعطى أوامره للسكّين أن لا تذبحى،و السكّين لا تستجيب سوى لأوامر البارى عزّ و جلّ.

و هنا ينهى القرآن كلّ حالات الانتظار و بعباره قصيره مليئه بالمعانى العميقه وَ نادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنّا كَذٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ .

إذ نمنحهم توفيق النجاح فى الامتحان،و نحفظ لهم ولدهم العزيز،نعم فالذى يستسلم تماما و بكلّ وجوده للأمر الإلهى و يصل إلى أقصى درجات الإحسان،لا يمكن مكافأته بأقلّ من هذا.

ثمّ يضيف القرآن الكريم إِنَّ هٰذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ .

عمليّه ذبح الابن البارّ المطيع على يد أبيه،لا تعدّ عمليّه سهله و بسيطه بالنسبه لأب انتظر فتره طويله كى يرزقه اللّه بهذا الابن،فكيف يمكن إماته قلبه تجاه ولده؟و الأكثر من ذلك استسلامه و رضاه المطلق-من دون أى انزعاج-لتنفيذ هذا الأمر،و تنفيذه كافّه مراحل العمليه من بدايتها إلى نهايتها،بصوره لا يغفل فيها عن أى شىء من الاستعداد لعمليه الذبح نفسيا و عمليّا.

و الذى يثير العجب أكثر هو التسليم المطلق لهذا الغلام أمام أمر اللّه،إذ استقبل أمر الذبح بصدر مفتوح و اطمئنان يحفّه اللطف الإلهى،و استسلام فى مقابل هذا الأمر.

لذا فقد ورد فى بعض الروايات أنّ جبرئيل هتف«اللّه أكبر»«اللّه أكبر»أثناء

عمليّه الذبح لتعجّبه.

فيما هتف إسماعيل«لا إله إلاّ اللّه،و اللّه أكبر».

ثمّ قال إبراهيم«اللّه أكبر و للّه الحمد» (۱) .

و هذه العبارات تشبه التكبيرات التى نردّدها فى يوم عيد الأضحى.

و لكى لا يبقى برنامج إبراهيم ناقصا،و تتحقّق أمنيه إبراهيم فى تقديم القربان للّه،بعث اللّه كبشا كبيرا إلى إبراهيم ليذبحه بدلا عن ابنه إسماعيل،و لتصير سنّه للأجيال القادمه التى تشارك فى مراسم الحجّ و تأتى إلى أرض(منى) وَ فَدَيْنٰاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ .

ما المراد بالذبح العظيم؟ هل أنّه يقصد منه الجانب الجسمى و الظاهرى؟ أو لأنّه كان فداء عن إسماعيل؟ أو لأنّه كان للّه و فى سبيل اللّه؟ أو لأنّ هذه الاضحيه بعثها اللّه تعالى إلى إبراهيم؟ المفسّرون قالوا الكثير بشأنها،و لكن لا يوجد أى مانع يحول دون جمع كلّ ما هو مقصود أعلاه.

و إحدى دلائل عظمه هذا الذبح،هو اتّساع نطاق هذه العمليه سنه بعد سنه بمرور الزمن،و حاليا يذبح فى كلّ عام أكثر من مليون اضحيه تيمّنا بذلك الذبح العظيم و إحياء لذلك العمل العظيم.

«فديناه»مشتقّه من(الفداء)و تعنى جعل الشيء مكان الشيء لدفع الضرر عنه، لذا يطلق على المال الذى يدفع لإطلاق سراح الأسير(الفديه)كما تطلق(الفديه) على الكفّاره التى يخرجها بعض المرضى بدلا عن صيامهم.

و بشأن كيفيه وصول الكبش العظيم إلى إبراهيم عليه السّلام،أعرب الكثير من

۱- ۱) -تفسير القرطبى،و تفسير روح البيان.

المفسّرين عن اعتقادهم فى أنّ جبرئيل أنزله،فيما قال البعض الآخر:إنّه هبط عليه من أطراف جبال(منى)،و مهما كان فإنّ وصوله إلى إبراهيم كان بأمر من اللّه.

النجاح الذى حقّقه إبراهيم عليه السّلام فى الامتحان الصعب،لم يمدحه اللّه فقط ذلك اليوم،و إنّما جعله خالدا على مدى الأجيال وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ .

إذ غدا إبراهيم عليه السّلام«أسوه حسنه»لكلّ الأجيال،و«قدوه»لكلّ الطاهرين، و أضحت أعماله سنّه فى الحجّ،و ستبقى خالده حتّى تقوم القيامه،إنّه أبو الأنبياء الكبار،و إنّه أبو هذه الامّه الإسلاميه و رسولها الأكرم محمّد بن عبد اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و لمّا امتاز به إبراهيم عليه السّلام من صفات حميده،خصّه البارى عزّ و جلّ بالسلام سَلاٰمٌ عَلىٰ إِبْرٰاهِيمَ .

نعم،إنّا كذلك نجزى و نثيب المحسنين كَذٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ جزاء يعادل عظمه الدنيا،جزاء خالد على مدى الزمان،جزاء يجعل من إبراهيم أهلا لسلام اللّه عزّ و جلّ عليه.

و عباره كَذٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ تثير الانتباه،إذ أنّها أتت قبل عدّه آيات، و تكرّرت ثانيه هنا،فهناك حتما علّه لهذا التكرار.

المرحله الاولى ربّما كانت بسبب أنّ اللّه سبحانه و تعالى صادق على نجاح إبراهيم فى الامتحان الصعب،و أمضى نتيجه قبوله، و هذه بحدّ ذاتها أهمّ مكافأه يمنحها اللّه سبحانه و تعالى لإبراهيم،ثمّ تأتى قضيّه(الفديه بذبح عظيم)و(بقاء اسمه و سنّته خالدين على مدى التاريخ)و(إرسال البارى عزّ و جلّ سلامه و تحيّاته إلى إبراهيم)التى اعتبرت ثلاث نعم كبيره منحها اللّه سبحانه و تعالى لعبده إبراهيم بعنوان أنّها مكافأه و جزاء للمحسنين.***

بحوث

اشاره

۱-من هو ذبيح اللّه؟

اختلف المفسّرون بشأن الولد الذى امر إبراهيم بذبحه،هل كان(إسماعيل أم إسحاق)الذى لقّب بذبيح اللّه؟إذ أنّ هناك نقاشا بين المفسّرين،فمجموعه تقول:

إنّ(إسحاق)هو(ذبيح اللّه)فيما تعتبر مجموعه اخرى(إسماعيل)هو الذبيح، التّفسير الأوّل أكّد عليه الكثير من مفسّرى أهل السنّه،فيما أكّد مفسّر و الشيعه على أنّ إسماعيل هو الذبيح.

و ظاهر آيات القرآن الكريم المختلفه تؤكّد على أنّ إسماعيل هو ذبيح اللّه، و ذلك للأسباب التاليه:

أوّلا:فى إحدى آيات القرآن الكريم نقرأ وَ بَشَّرْنٰاهُ بِإِسْحٰاقَ نَبِيًّا مِنَ الصّٰالِحِينَ . (۱)

هذه العباره توضح بصوره جيّده،أنّ اللّه سبحانه و تعالى بشّر إبراهيم بولاده إسحاق بعد قضيّه الذبح،نتيجه تضحياته،و لهذا فإنّ قضيّه الذبح لا تخصّه أبدا، إضافه إلى أنّ البارى عزّ و جلّ عند ما يبشّر أحدا بالنبوّه،فذلك يعنى بقاء ذلك الشخص حيّا،و هذا لا يتناسب مع قضيّه الذبح التى خصّت غلاما.

ثانيا:نقرأ فى الآيه ۷۱ من سوره هود،قوله تعالى: فَبَشَّرْنٰاهٰا بِإِسْحٰاقَ وَ مِنْ وَرٰاءِ إِسْحٰاقَ يَعْقُوبَ هذه الآيه توضّح أنّ إبراهيم كان مطمئنا على بقاء ولده إسحاق، و أنّ اللّه سيرزق إسحاق ولدا اسمه يعقوب،و هذا يعنى أنّ الذبح لا يشمله أبدا.فالذين اعتبروا إسحاق هو الذبيح،يبدو أنّهم لم يأخذوا بنظر الإعتبار حقيقه هذه الآيات.

و

نقل عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حديث موثوق،جاء فيه: «أنا ابن الذبيحين» و المقصود من الذبيحين،الأوّل هو والده(عبد اللّه)الذى كان أبوه عبد المطّلب قد

۱- ۱) -الصافات،۱۱۲.

نذر بذبحه تقرّبا إلى اللّه تعالى و الذی(فداه)بأمر من اللّه ب(١٠٠)بعیر،و قصّته معروفه،و الثانی هو(إسماعیل)لأنّ من الأمور الثابته کون نبیّنا محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هو من أبناء إسماعیل و لیس من أبناء إسحاق (۱) .

و

ورد فی الـدعاء الـذی رواه أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام،عن رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم، (یا من فدا إسماعیل من الذبح) (۲) .

و جاء فی روایات اخری عن الإمامین المعصومین الباقر و الصادق علیهما السّلام،أنّهما أجابا علی أسئله تستفسر عن الذبیح،فأجابا أنّه إسماعیل.

و

جاء فی حدیث نقل عن الإمام الرضا علیه السّلام «لو علم اللّه عزّ و جلّ شیئا أکرم من الضأن لفدی به إسماعیل» (۳) .

خلاصه الأمر،هو أنّ الروایات و الأحادیث التی وردت بهذا الشأن کثیره،و إذا أردنا استعراضها جمیعا، فإنّ البحث یتّسع کثیرا.

و فی مقابـل هـذه الروایـات الکثیره المتناسـبه مع ظـاهر الآیـات القرآنیه،هنـاک روایـات شـاذّه تـدلّ علی أنّ إسـحاق هو المقصود(بذبیح اللّه)و لا تتطابق مع روایات المجموعه الاولی و لا مع ظاهر الآیات القرآنیه.

و بغضّ النظر عمّا قیـل،فهنـاک قضـیّه مسـلّم بهـا،و هی أنّ الطفل الـذی جاء به إبراهیم مع امّه إلی مکّه المکرّمه بأمر من اللّه ثمّ ترکهما هناک،و ساعده من بعد فی بناء الکعبه المشـرفه،و أدّی مراسم الطواف و السـعی هو إسماعیل،و هذا یدلّ علی أنّ الذبیح هو إسماعیل،لأنّ عملیه الذبح تکمل الأعمال المذکوره أعلاه.

ممّا یذکر أنّ کتاب(التوراه)الحالی و المعروف بالعهد القدیم یؤکّد علی أنّ الذبیح کان إسحاق.

۱- ۱) -تفسیر مجمع البیان فی ذیل الآیات المتعلّقه بالبحث.

۲- ۲) -نور الثقلین،المجلّد ۴،الصفحه ۴۲۱.

۳- ۳) -نور الثقلین،المجلّد ۴،الصفحه ۴۲۲.

هنا يستشف أنّ بعض الروايات الإسلاميه غير المعروفه و التى تؤكّد على أنّ إسحاق هو(ذبيح اللّه)متأثّره ببعض الروايات الإسرائيليه،و يحتمل أنّ اليهود و ضعوها،و ذلک لأنّهم من ذريّه(إسحاق)،و قد حاولوا نسب هذا الفخر لهم،حتّى و لو كان عن طريق تزييف الوقائع و الحقائق،و سلبه من المسلمين الذين كان نبيّهم نبى الرحمه أحد أحفاد إسماعيل.

على أيّه حال،فإنّ ظواهر آيات القرآن الكريم هى أقوى دليل لنا،إذ توضّح بصوره كافيه،أنّ الذبيح هو إسماعيل،رغم أنّه لا فرق بالنسبه لنا إن كان الذبيح إسماعيل أو إسحاق،فالإثنان هما أبناء إبراهيم عليه السّلام،و كلاهما من أنبياء اللّه العظام، و لكن الهدف هو توضيح هذه الحادثه التاريخيه.

٢-هل أنّ إبراهيم كان مكلّفا بذبح ابنه؟

من الأسئله المهمّه الاخرى التى تطرح نفسها فى هذا البحث،و التى تثير التساؤل فى أوساط المفسّرين،هى:هل أنّ إبراهيم كان حقّا مكلّفا بذبح ابنه أم أنّه كان مكلّفا بتنفيذ مقدّمات الذبح؟ فإن كان مكلّفا بالذبح،فكيف ينسخ هذا الحكم الإلهى قبل تنفيذ عمليّه الذبح، فى حين أنّ النسخ قبل العمل غير جائز،و هذا المعنى ثابت فى علم(اصول الفقه).

و إن كان مكلّفا بتنفيذ مقدّمات عمليه الذبح،فهذا لا يعتبر فخرا له.و ما قيل من أنّ أهميّه المسأله نشأت من أنّ إبراهيم بعد تنفيذه لهذا الأمر و تهيئه مقدّماته كان ينتظر نزول أمر بشأن الذبح و كان هذا هو الامتحان الكبير له-فهو كلام غير جدير بالردّ.

باعتقادنا،أنّ التقوّلات هذه ناشئه عن عدم التفريق بين الأوامر الامتحانيه و غير الامتحانيه،فالأمر الصادر إلى إبراهيم هو أمر امتحانى،و كما هو معروف فإنّ الأوامر الامتحانيه لا تتعلّق فيها الإراده الحقيقيّه بطبيعه العمل،و إنّما الهدف

منها توضيح مقدار الاستعداد الموجود عند الإنسان الممتحن بالنسبه إلى طاعته للأوامر؟كما أنّ الشخص الممتحن ليس له اطلاع بخفايا الأمور.و بهذا الشكل فإنّ عمليه النسخ لم تحصل هنا حتّى تناقش قضيّه صحّتها و وقوعها قبل العمل.

مخاطبه البارى عزّ و جلّ عبده إبراهيم بعد الحادثه قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيٰا إنّما جاءت بسبب إثبات مقدرته على ذبح ابنه العزيز،و استعداده روحيّا لتنفيذ هذا الأمر،و نجاحه فى هذا الامتحان.

٣-كيف يمكن أن تكون رؤيا إبراهيم حجّه؟

بشأن(الرؤيا)هناك كلام كثير،و رد جزء يسير منه فى تفسير سوره يوسف بعد الآيه الرابعه.

لا بدّ هنا من الالتفات إلى أمر و هو:كيف اعتبر إبراهيم منامه حجّه،و اتّخذه معيارا لعمله؟ فى الجواب على هذا السؤال،يقال:إنّ رؤيا الأنبياء لا يمكن أن تكون رؤيا شيطانيه،و إنّها ليست ناشئه عن فعّاليه قوّه وهميه،و إنّما هى جانب من نظام النبوّه و الوحى.

و بتعبير آخر:إنّ ارتباط الأنبياء مع الوحى يكون أحيانا بشكل إلقاء فى القلب.

و أحيانا عن طريق مشاهده الوحى.

و أحيانا عن طريق سماع أمواج صوتيه،بعثت بأمر من اللّه.

و أحيانا عن طريق المنام.

و بهذا الشكل لا يمكن وقوع أى خطأ أو اشتباه فى رؤيتهم،و الذى يشاهدونه فى منامهم هو كالذى يشاهدونه فى يقظتهم.

و قيل:إنّ إبراهيم أمر عن طريق الوحى أثناء يقظته بأن ينفّذ ما يراه بشأن الذبح فى المنام.

و قيل أيضا:إنّ القرائن المختلفه التى كانت فى هـذا المنام،و منها تكراره ثلاث ليال متتاليه،أوجد عنده علما و يقينا بأنّ ما شاهده فى المنام هو تكليف إلهى و ليس أمرا آخر.

على أيّه حـال،يمكن أن تكون كـلّ هـذه التفاسـير صـحيحه،و لاـ يوجـد تناقض بينها،كما أنّها لا تتعارض و ظواهر آيات القرآن الكريم.

۴-عدم تأثّر روح إبراهيم الكبيره بوساوس الشيطان:

لأـنّ إمتحـان إبراهيم كـان من أكبر الامتحانـات على طول التاريـخ،إذ كـان الهـدف منه إخلاء قلبه فى أىّ حبّ لغير اللّه،و جعله متنوّرا-فقط-بعشق و حبّ اللّه،فقد عمد الشيطان-كما جاء فى بعض الروايات-إلى تكريس كلّ طاقاته لعمل شىء ما يحول دون خروج إبراهيم منتصرا من الامتحان.

فأحيانا كان يذهب إلى زوجته(هاجر)و يقول لها:أ تعلمين بماذا يفكّر إبراهيم؟إنّه يفكّر بذبح ولده إسـماعيل اليوم! فكانت تجيبه هاجر:اذهب و لا تتحـدّث بأمر محال،فإنّه أرحم من أن يقتل ولـده،فهل يمكن العثور فى هذه الدنيا على إنسان يذبح ولده بيده؟ الشيطان هنا يواصل وساوسه،و يقول:إنّه يزعم بأنّ اللّه أمره بذلك.

فتجيبه هاجر:إذا كان اللّه قد أمره بذلك فعليه أن يطيع أوامر اللّه،و ليس هناك طريق آخر سوى الرضى و التسليم لأمر اللّه.

و أحيانا كان يذهب صوب(الولد)ليوسوس فى قلبه،لكنّه فشل أيضا إذ لم يحصل على أيّه نتيجه لأنّ إسـماعيل كان كلّه قطعه من الرضى و التسليم لذلك الأمر.

و أخيرا اتّجه نحو الأب،و قال له:يا إبراهيم إنّ المنام الذى رأيته هو منام شيطانى!لا تطع الشيطان!

فعرفه إبراهيم الذى كان يسطع بنور الإيمان و النبوّه،و صاح به:ابتعد من هنا يا عدوّ اللّه (۱) .

و ورد فی حدیث آخر أنّ إبراهيم جاء فى البدايه إلى(المشعر الحرام)ليذبح ابنه هناك،و لكن الشيطان تبعه،فترك المحلّ و ذهب إلى مكان(الجمره الاولى) فتبعه الشيطان أيضا،فرماه إبراهيم بسبع قطع من الحجاره،و عند وصوله إلى (الجمره الثانيه)شاهد الشيطان أمامه أيضا فرماه بسبع قطع اخرى من الحجاره، و حالما وصل إلى جمره العقبه و شاهد الشيطان ثالثه رماه بسبع اخرى،و بهذا جعل الشيطان ييأس منه إلى الأبد (۲) .

من هنا يتّضح أنّ وساوس الشياطين أثناء أداء الامتحان الكبير يتعدّد أشكالها، إذ أنّها تعترض طريق الإنسان من عدّه جهات و تتلوّن بعدّه ألوان،فلذا يجب على المؤمنين أن يكونوا كإبراهيم قادرين على تشخيص الشيطان و معرفته بسرعه مهما كان متسترا بشكل من الأشكال،و إغلاق كلّ طريق يحتمل أن يرد منه و رميه بالحجاره،فما أعظم هذا الدرس!!

۵-فلسفه التكبيرات فى(منى):

و كما هو معروف فإنّ من الأعمال الوارده فى الروايات الإسلاميه بشأن عيد الأضحى،هى التكبيرات الخاصّه التى يردّدها المسلمون بعد الصلاه،سواء كانوا من المشاركين فى مراسم الحجّ بمنى،أو ممّن لم يشارك فيها من المسلمين فى سائر بقاع الأرض.(غايه الأمر انّ الحجّاج فى منى يكبّرون بعده صلاه أوّلها بعد صلاه الظهر من يوم العيد،و فى المناطق الاخرى يكبّر المسلمون هذه التكبيرات بعد ۱۰ صلوات).

۱- ۱) -تفسير أبو الفتوح الرازى،المجلّد ۹،الصفحه ۳۲۶،فى ذيل الآيات المتعلّقه بالبحث.

۲- ۲) -تفسير(أبو الفتوح الرازى)المجلّد(۹)الصفحه(۳۲۶)فى ذيل الآيات الخاصّه بالبحث.

و کیفیّه هـذه التکبیرات هی:(اللّه أکبر،اللّه أکبر،لا إله إلاّ اللّه،و اللّه أکبر،اللّه أکبر، و للّه الحمـد،اللّه أکبر علی ما هـدانا).فعند ما نقارن بین هـذا الأمر و الحدیث الذی ذکرناه سابقا،تتّضح حقیقه هذه التکبیرات،و هی أنّها مجموع تکبیرات جبرئیل و إسـماعیل و والده إبراهیم،و شیء أضیف إلیه.

و بعباره اخری فإنّ هذه العبارات تحیی فی الأذهان خاطره انتصار إبراهیم و ابنه إسـماعیل فی الامتحان الکبیر،و تعطی العبر لکلّ المسلمین،سواء کانوا فی منی أو فی غیرها.

و قـد اتّضـح من الروایات الإسـلامیه أنّ سـبب تسـمیه أرض(منی)بهـذا الاسم، إنّما یعود إلی أنّ إبراهیم عنـد ما وصل إلی هـذه الأـرض،بعـد مـا اجتـاز-بنجـاح- الامتحان الصـعب،نزل علیه جبرئیل و قال له:اطلب ما شـئت من ربّ العالمین، فتمنّی من اللّه أن یأمره بذبح کبش فدیه عن ابنه إسماعیل،و قد تحقّقت أمنیته هذه (۱) .

۶-الحجّ عباده مهمّه تبنی الإنسان:

السفر للحجّ-فی الحقیقه-هو سفر عظیم،إذ أنّه سفر إلهی،و ساحه واسعه لبناء النفس و الجهاد الأکبر.

مراسم الحـجّ توضّـح-فی الواقع-عباده ممزوجه-بصوره عمیقه-بخاطرات جهاد إبراهیم و ابنه إسـماعیل و زوجته هاجر،فلو أغفلنا عن هذه النقطه أثناء مطالعتنا الأمور الخاصّه بأسـرار الحجّ،فإنّ الکثیر من مراسـمه ستبدو لنا کألغاز،نعم إنّ مفتاح حلّ هذه الألغاز هو الأخذ بنظر الإعتبار ذلک الامتزاج العمیق.

فعنـد ما نأتی إلی مکان ذبـح الأضاحی فی أرضـی(منی)نتعجّب لأیّ شـیء تذبح هذه الأضاحی؟فهل أنّ ذبح الحیوان یمکن أنّ یکون حلقه من مجموعه حلقات

۱- ۱) -تفسیر نور الثقلین،المجلّد ۴،الصفحه ۴۲۰،الحدیث ۶۸.

العباده؟ إلاّ أنّنا عند ما نتذكّر إيثار إبراهيم عليه السّلام الذى أراد ذبح أعزّ أعزّائه و أطيب ثمار عمره(إسماعيل)فى تلك الأرض فى سبيل اللّه،العمليه التى غدت سنّه فيما بعد و بعنوان ذبح الأضاحى فى منى،ندرك فلسفه هذا العمل.

فالذبح إشاره إلى اجتياز كلّ شىء فى سبيل التوجّه إلى اللّه،و هو مظهر لإخلاء القلب من كلّ شىء عدا ذكر اللّه،و يمكن استمداد التربيه الكافيه من هذه المناسك، إذا تجسّد لنا مشهد ذبح إسماعيل،و معنويات الأب و ابنه إسماعيل أثناء عمليه الذبح،و هذا المشهد يجعل معنويات الإنسان تسطع بأنوارها (۱) .

أمّا أثناء توجّهنا إلى رمى الجمرات(و هى ثلاثه أعمده مبنيه من الحجر يرميها الحجّاج أثناء تأديتهم لمراسم الحجّ،و فى كلّ مرّه يرمون سبعه أحجار عليها وفق مراسم خاصّه)فيتبادر إلى أذهاننا السؤال التالى:ماذا يعنى رمى هذا المقدار من قطع الحجاره على عمود من الحجر لا روح فيه؟و أى مشكله سيحلّ هذا العمل؟ إلاّ أنّنا عند ما نتذكّر أنّها تمثّل جهاد الموحّد إبراهيم ضدّ وساوس الشيطان الذى ظهر له ثلاث مرّات فى الطريق،و هو مصمّم على أن يثنى إبراهيم عن عزمه فى ساحه الجهاد الأكبر،و كلّما ظهر له رماه بالحجر،فإنّ محتوى هذه الشعيره يتوضّح أكثر.

فمعنى هذه الشعيره هو أنّكم طوال فتره عمركم تعيشون فى ساحه الجهاد الأكبر ضدّ وساوس الشيطان،و إن لم ترموا هذا الشيطان و تبعدوه عنكم فلن تنتصروا أبدا.

و إن كنتم تنتظرون أن يشملكم اللّه بلطفه و رحمته،كما شمل إبراهيم بذلك

۱- ۱) -ممّا يوسف له أنّ مراسم ذبح الأضاحى فى عصرنا الحالى لا تتمّ بالشكل المطلوب،و لذا على علماء الإسلام أن يبذلوا الجهد لإنقاذ هذه المراسم العظيمه،و بهذا الشأن و بخصوص فلسفه الحجّ أوردنا بحوثا مفصّله فى ذيل الآيه(۳۸)من سوره الحجّ.

و بعث إليه بالسلام و أبقى رسالته و ذكراه خالدتين فى العالمين،عليكم أن تسيروا على خطاه.

وفور ما نصل إلى الصفا و المروه و نشاهد أفواجا أفواجا من الناس تنساب من هذا التل الصغير إلى ذلك التل الأصغر،و تعود مرّه اخرى من هنا إلى هناك،و تكرّر هذا العمل من دون أن تحصل على شىء،و أحيانا تهرول و أحيانا اخرى تمشى، و من الطبيعى أن يثير هذا العمل العجب،فما ذا يفعل هؤلاء هنا،و ما هى المفاهيم التى يحملها هذا العمل؟ إلاّ أنّنا لو رجعنا إلى الوراء،و استذكرنا الجهود التى بذلتها تلك المرأه المؤمنه (هاجر)لإنقاذ حياه ابنها الرضيع(إسماعيل)فى تلك الأرض القاحله و الحارقه، و كيف أنّ اللّه سبحانه و تعالى أعطاها ما تريد بعد جهدها و سعيها،عند ما فجّر عين زمزم من تحت رجلى ولدها الرضيع،فجأه ترجع بنا عجله الزمن إلى الوراء، و يكشف لنا عن الحجب،و نشاهد أنفسنا فى تلك اللحظه واقفين قرب هاجر عليها السّلام، فنشترك معها فى السعى و الجهد،لأنّ الذى لا يسعى و لا يبذل الجهد فى سبيل اللّه، لا يصل إلى نتيجه.

و بسهوله نستطيع تلخيص ما قلناه،و هو أنّ الحجّ يجب أن يقترن بتعلّم هذه الرموز،و تتجسّد ذكريات إبراهيم و ابنه و زوجته خطوه خطوه،كى يدرك الحاجّ فلسفه الحجّ و تشعّ أنوار آثاره الأخلاقيه العميقه فى نفوس الحجيج،فبدون تلك المعانى و الدروس يكون الحجّ مجرّد قشر ليس أكثر.

***

الآیات [سوره الصافات (۳۷): الآیات ۱۱۱ الی ۱۱۳]

اشاره

إِنَّهُ مِنْ عِبٰادِنَا اَلْمُؤْمِنِینَ (۱۱۱) وَ بَشَّرْنٰاهُ بِإِسْحٰاقَ نَبِیًّا مِنَ اَلصّٰالِحِینَ (۱۱۲) وَ بٰارَکْنٰا عَلَیْهِ وَ عَلیٰ إِسْحٰاقَ وَ مِنْ ذُرِّیَّتِهِمٰا مُحْسِنٌ وَ ظٰالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِینٌ (۱۱۳)

التّفسیر

اشاره

إبراهیم ذلک العبد المؤمن:

الآیات الثلاث المذکوره أعلاه هی آخر الآیات التی تواصل الحدیث عن قصّه إبراهیم و ابنه و تکملها،و فی الحقیقه إنّها دلیل یوضّح ما مضی،و فی نفس الوقت هی نتیجه له.

فی البدایه تصف الآیه القرآنیه الکریمه إبراهیم إِنَّهُ مِنْ عِبٰادِنَا الْمُؤْمِنِینَ .

و فی الواقع إنّ هذه الآیه دلیل علی ما ذکر فیما قبل،کما توضّح حقیقه مفادها أنّ إیمان إبراهیم القوی دفعه إلی أن یضع کلّ وجوده و کیانه و حتّی ابنه العزیز البارّ،فی صحن الإخلاص فداء لربّه سبحانه و تعالی.

نعم کلّ هذه هی من ثمار الإیمان،و تجلّیاته،و ما أعجب هذه الثمار

و التجلّيات!! هذا التعبير يعطى أبعادا أوسع و أعمّ لما جرى لإبراهيم و ابنه،و يخرج هذه المجريات من بعدها الشخصى و الخاص،و يوضّح أنّه أينما كان الإيمان كان هناك إيثار و حبّ و فداء و عفو،و أنّ إبراهيم كان يختار كلّ ما يختاره اللّه و يريد كلّ ما أراده اللّه،و كلّ مؤمن يستطيع أن يكون كذلك.

ثمّ تتناول هذه الآيات نعمه اخرى من النعم التى وهبها اللّه تعالى لإبراهيم وَ بَشَّرْنٰاهُ بِإِسْحٰاقَ نَبِيًّا مِنَ الصّٰالِحِينَ .

فبالانتباه إلى الآيه فَبَشَّرْنٰاهُ بِغُلاٰمٍ حَلِيمٍ التى ذكرناها فى مقدّمه هذه الأحداث،يتّضح بصوره جيّده أنّ هاتين البشارتين تتعلّقان بولدين،و بما أنّ البشرى الأخيره وفق ما جاء فى الآيه تخصّ(إسحاق)،فإنّ(الغلام الحليم) بالتأكيد هو(إسماعيل)فالذين يصرّون على أنّ الذبيح هو(إسحاق)عليهم أن يعرفوا أنّهم اعتبروا الآيتين تشيران إلى موضوع واحد مع هذا التفاوت،و هو أنّ الآيه الاولى بشّرت بالولد و الآيه الثانيه بشّرت بالنبوّه،و لكن هذا المعنى مستبعد جدّا،و الآيات المذكوره أعلاه تبيّن بوضوح أنّ البشارتين تتعلّقان بولدين.

على أيّه حال فإنّ بشرى النبوّه تكشف عن أنّ إسحاق يجب أن يبقى حيّا و أن يؤدّى تكاليف و مهمّه النبوّه،و هذا لا يتلاءم مع قضيّه الذبح.

مرّه اخرى سنتطرّق إلى عظمه مرتبه الصالحين،إذ وصفت الآيه الكريمه إسحاق بأنّه(يجب أن يصبح نبيّا و أن يكون من الصالحين) فكم هى رفيعه مرتبه الصالحين عند اللّه سبحانه و تعالى؟ الآيه الأخيره تتحدّث عن البركه التى أنزلها البارى جلّ و علا على إبراهيم و ابنه إسحاق وَ بٰارَكْنٰا عَلَيْهِ وَ عَلىٰ إِسْحٰاقَ .

و لكن البركه فى أى شيء؟لم يرد بهذا الشأن أى توضيح،و كما هو معلوم فإنّ

الفعل عند ما يأتى بصوره مطلقه و من دون أى قيد أو شرط،فإنّه يعطى معنى عاما، فبهذا تكون البركه شامله لكلّ شىء،فى الحياه،فى الأجيال القادمه،فى التأريخ، و الرساله،و فى كلّ شىء.

فكلمه(بركه)مشتقّه من(برك)على وزن(درك)و تعنى صدر البعير،و عند ما يضع صدره على الأرض يقال(برك البعير).

و تدريجيّا أعطت هذه الكلمه معنى الثبات و بقاء شىء ما،و لهذا يطلق على المكان الذى فيه ماء ثابت و مستقر(بركه)فى حين يقال لمّا كان خيره باقيا و ثابتا مبارك.

و من هنا يتّضح أنّ الآيه مورد بحثنا تشير إلى ثبات و دوام النعم الإلهيّه على إبراهيم و إسحاق و على اسرتهم،و إحدى البركات التى أنعم اللّه بها على إبراهيم و إسحاق أن جعل كلّ أنبياء بنى إسرائيل من ذريّه إسحاق،فى حين أنّ نبى الإسلام العظيم هو من ذريّه إسماعيل.

و هذه البركات لا تشمل كلّ أفراد عائله إبراهيم و عشيرته،و إنّما تشمل-فقط-المؤمنين و المحسنين منهم،إذ تقول الآيه فى آخرها وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمٰا مُحْسِنٌ وَ ظٰالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ .

كلمه(محسن)جاءت هنا بمعنى المؤمن و المطيع للّه،و هل يتصوّر أنّ هناك إحسان و عمل حسن أرفع من هذا؟ و(ظالم)جاءت هنا بمعنى الكافر و المذنب.

و عباره(لنفسه)إشاره إلى الكفر و ارتكاب الذنوب يعدّ أوّلا ظلم للنفس،الظلم الواضح و المكشوف.

فالآيه المذكوره أعلاه تجيب اليهود و النصارى الذين افتخروا بكونهم من أبناء الأنبياء،و تقول لهم:إنّ صله القربى لوحدها ليست مدعاه للافتخار،إن لم ترافقها

صله فی الفکر و الالتزام بالرساله.

و کشاهد علی هذا الکلام

فقد ورد حدیث لنبیّنا محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یخاطب فیه بنی هاشم «لا یأتینی الناس بأعمالهم و تأتونی بأنسابکم» أی أنّهم مرتبطون بی رسالیا و أنتم مرتبطون بی جسدیا (1) .

***

1- 1) -روح البیان،المجلّد 7،الصفحه 479.

الآیات [سوره الصافات (۳۷): الآیات ۱۱۴ الی ۱۲۲]

اشاره

وَ لَقَدْ مَنَنّا عَلیٰ مُوسیٰ وَ هارُونَ (۱۱۴) وَ نَجَّیْناهُما وَ قَوْمَهُما مِنَ اَلْکَرْبِ اَلْعَظِیمِ (۱۱۵) وَ نَصَرْناهُمْ فَکانُوا هُمُ اَلْغالِبِینَ (۱۱۶) وَ آتَیْناهُمَا اَلْکِتابَ اَلْمُسْتَبِینَ (۱۱۷) وَ هَدَیْناهُمَا اَلصِّراطَ اَلْمُسْتَقِیمَ (۱۱۸) وَ تَرَکْنا عَلَیْهِما فِی اَلْآخِرِینَ (۱۱۹) سَلامٌ عَلیٰ مُوسیٰ وَ هارُونَ (۱۲۰) إِنّا کَذٰلِکَ نَجْزِی اَلْمُحْسِنِینَ (۱۲۱) إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا اَلْمُؤْمِنِینَ (۱۲۲)

التّفسیر

اشاره

النعم التی منّ بها اللّه علی موسی و هارون:

الآیات المبارکه هذه تشیر إلی جوانب من النعم الإلهیّه التی أغدقها اللّه جلّ شأنه علی موسی و أخیه هارون،و البحث هنا لیتناغم و یتواءم مع البحوث السـابقه بشأن نوح و إبراهیم فی الآیـات السابقه،فمحتوی الآیات یشابه بعضه البعض، و نفس الألفاظ تتکرّر فی بعض الجوانب،و ذلک لتوجد نظاما تربویا منسجما للمؤمنین.

مرّه اخرى استخدم فى هذه الآيات أسلوب(الإجمال و التفصيل)الأسلوب الذى استخدمه القرآن فى نقل العديد من الحوادث.

الآيه الاولى تشير إلى قوله تعالى: وَ لَقَدْ مَنَنّا عَلى مُوسى وَ هارُونَ .

«المنّه»فى الأصل من«المنّ»و يعنى الحجر الذى يستعمل للوزن،ثمّ أطلق على النعم الكبيره و الثقيله،فلو كانت لها جنبه عمليه و موضوعيه فالمنّه جميله و محموده،و لو اقتصرت على اللفظ و الكلام فهى سلبيه و مذمومه،و الغالب إنّها تستعمل فى المحاورات العرفيه بالمعنى الثانى،و هذا هو السبب فى تداعى المفهوم السلبى من هذه الآيات الكريمه،و لكن لا بدّ من القول انّ هذه المفرده وردت فى اللغه و الآيات الكريمه بمعناها الواسع الذى يشمل المفهوم الأوّل منها.

(أى منع النعم و المواهب الكبيره).

و على كلّ حال فانّ اللّه سبحانه و تعالى أنعم على الأخوين موسى و هارون بنعمه عظيمه.

أمّا الآيات التى تلتها فتشرح سبعه من هذه النعم، و كلّ واحده منها أفضل من أختها.

ففى المرحله الاولى،يقول سبحانه و تعالى: وَ نَجَّيْناهُما وَ قَوْمَهُما مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ .

فهل هناك قلق أكثر من هذا،و هو أنّ بنى إسرائيل يعيشون فى قبضه الفراعنه المتجبّرين الطغاه؟يذبحون أولادهم و يسخّرون نساءهم فى خدمتهم، و يستعبدون رجالهم و يستعملونهم فى الأعمال الشاقّه.

أليس فقدان الحريه و الابتلاء بسلطان جائر لا يرحم الكبير و لا الصغير،حتّى يبلغ به طغيانه إلى أن يتلاعب بنواميس الناس و شرفهم،أليس هذا كربا عظيما، و ألما شديدا،إذن فإنقاذهم من قبضه فراعنه مصر المتجبّرين،كانت أوّل نعمه يغدقها البارى عزّ و جلّ على بنى إسرائيل.

و فی المرحله الثانیه،قال الباری عزّ و جلّ: وَ نَصَرْنٰاهُمْ فَكٰانُوا هُمُ الْغٰالِبِينَ .

ففی ذلک الیوم کان جیش الفراعنه ذا قوّه عظیمه و یتقدّمه الطاغیه فرعون،فیما کان بنو إسرائیل قوم ضعفاء و عاجزین یفتقدون لرجال الحرب و للسلاح أیضا،إلاّ أنّ المدد الإلهی وصلهم فی تلک اللحظات،و أغرق فرعون و جیشه وسط أمواج البحر،و أورث بنی إسرائیل قصور و ثروات و حدائق و کنوز الفراعنه.

و فی المرحله الثالثه من مراحل إغداق النعم علی بنی إسرائیل و شمولهم بعنایته،جاء فی محکم کتابه العزیز وَ آتَيْنٰاهُمَا الْكِتٰابَ الْمُسْتَبِينَ .

نعم(التوراه)هو کتاب مستبین،أی یوضّح لهم المجهولات المبهمه،و یجیبهم علی کلّ ما یحتاجونه فی دینهم و دنیاهم،کما أکّدت الآیه(۴۴)فی سوره المائده ذلک إِنّٰا أَنْزَلْنَا التَّوْرٰاةَ فِيهٰا هُدىً وَ نُورٌ .

و فی المرحله الرابعه أشار القرآن الکریم إلی نعمه معنویه اخری منّ بها جلّ شأنه علی موسی و هارون،و هی هدایتهما إلی الصراط المستقیم، وَ هَدَيْنٰاهُمَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِيمَ .

الطریق الصحیح الخالی من کلّ اعوجاج،ألا و هو طریق الأنبیاء و الأولیاء، و الذی لا یوجد فیه أی خطر من قبیل الانحراف و الضلال و السقوط.

و عند ما نقرأ سوره الحمد فی کلّ الصلوات و نطلب من اللّه سبحانه و تعالی أن یهدینا إلی الصراط المستقیم،نقول: اِهْدِنَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرٰاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لاَ الضّٰالِّينَ .أی إنّنا نطلب منه أن یهدینا إلی طریق الأنبیاء و الأولیاء.

أمّا المرحله الخامسه فإنّها أکّدت علی استمرار رسالتهما و الثناء الجمیل علیهما،إذ تقول الآیه: وَ تَرَكْنٰا عَلَيْهِمٰا فِي الْآخِرِينَ .

و هذه العباره نفسها وردت فی الآیات السابقه بشأن إبراهیم و نوح،لأنّ کلّ الدعاه إلی اللّه السالکین لطریق الحقّ،یبقی اسمهم و تاریخهم خالدا علی مرّ

الزمن،و يجب أن يبقى خالدا،لأنّهم لا يخصّون قوما أو شعبا معيّن،و إنّما كلّ الإنسانيه.

و المرحله السادسه تستعرض التحيّه الطيّبه المباركه التى وردت إلى كلّ من موسى و هارون من عند اللّه سَلاٰمٌ عَلىٰ مُوسىٰ وَ هٰارُونَ .

سلام من عند اللّه العظيم و الرحيم،السلام الذى هو رمز لسلامه الدين و الإيمان و الرساله و الإعتقاد و المذهب،السلام الذى يوضّح النجاه و الأمن من العقاب و العذاب فى هذه الدنيا و فى الآخره.

و فى المرحله السابعه-الأخيره-نصل إلى مرحله الثواب و المكافأه الكبرى التى يقدّمها البارى عزّ و جلّ إليهما إِنّٰا كَذٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ .

نعم إنّ حصولهما على كلّ هذه المفاخر لم يكن من دون دليل أو سبب،إذ كانا من المحسنين و المؤمنين و المخلصين و الطيّبين،فمثل هؤلاء جديرون بالثواب و المكافأه.

و الملفت للنظر أنّ هذه الآيه إِنّٰا كَذٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ تكرّرت فى هذه السوره عدّه مرّات،إذ جاءت بحقّ نوح و إبراهيم و موسى و هارون و إلياس، و عباره مشابهه لها بشأن يوسف وردت فى سوره يوسف الآيه(٢٢)كما وردت فى الآيه(٨۴)فى سوره الأنعام عن أنبياء آخرين كان ثوابهم نفس الثواب،و كلّهم يقرّون بأنّ كلّ من يريد أن تشمله العنايه الإلهيّه عليه أوّلا أن ينضمّ إلى زمره المحسنين كى تغدق عليه البركات الإلهيّه.

الآيه الأخيره فى بحثنا تشير إلى نفس الدليل الذى ورد فى قصّه نوح و إبراهيم من قبل إِنَّهُمٰا مِنْ عِبٰادِنَا الْمُؤْمِنِينَ .

فالإيمان هو الذى ينير روح الإنسان و يعطيه القوّه،و يدفعه إلى الطهاره و التقوى و عمل الإحسان و الخير،الإحسان الذى يفتح أبواب الرحمه الإلهيّه على الإنسان،فتنزل عليه مختلف أشكال النعم.

***

الآيات [سوره الصافات (۳۷): الآیات ۱۲۳ الی ۱۳۲]

اشاره

وَ إِنَّ إِلْیاسَ لَمِنَ اَلْمُرْسَلِینَ (۱۲۳) إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ لا تَتَّقُونَ (۱۲۴) أَ تَدْعُونَ بَعْلاً وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ اَلْخالِقِینَ (۱۲۵) اَللّٰهَ رَبَّکُمْ وَ رَبَّ آبائِکُمُ اَلْأَوَّلِینَ (۱۲۶) فَکَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (۱۲۷) إِلاّٰ عِبادَ اَللّٰهِ اَلْمُخْلَصِینَ (۱۲۸) وَ تَرَکْنا عَلَیْهِ فِی اَلْآخِرِینَ (۱۲۹) سَلامٌ عَلیٰ إِلْ یاسِینَ (۱۳۰) إِنّا کَذٰلِکَ نَجْزِی اَلْمُحْسِنِینَ (۱۳۱) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا اَلْمُؤْمِنِینَ (۱۳۲)

التّفسیر

اشاره

النّبی إلیاس و مواجهته للمشرکین:

القصّه الرابعه فی هذه السوره استعرضت بصوره مختصره حیاه نبی اللّه (إلیاس)،یقول تعالی: وَ إِنَّ إِلْیاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِینَ .

الحدیث حول«إلیاس»و خصوصیاته و نسبه و حیاته سیأتی لا حقا فی آخر هذه الآیات-إن شاء اللّه.

ثمّ تبدأ الآیات بالتفصیل بعد الإجمال و تقول:و اذکر عند ما أنذر قومه إِذْ قالَ

لِقَوْمِهِ أَ لاٰ تَتَّقُونَ

.

أی اتّقوا اللّه و اجتنبوا الشرک و عباده الأصنام و ارتکاب الذنوب و المظالم، و کلّ ما یؤدّی بالإنسان إلی الباطل و الفساد.

أمّا الآیه التی تلتها فقد تحدّثت بصراحه أکثر أَ تَدْعُونَ بَعْلاً وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخٰالِقِینَ .

و من هنا یتّضح أنّ قومه کانوا یعبدون صنما اسمه(بعل)و یسجدون له،و أنّ هذا النّبی کان یدعوهم إلی ترک هذا العمل القبیح،و التوجّه إلی اللّه سبحانه و تعالی خالق هذا الکون العظیم و توحیده و عبادته.

جمع من المفسّرین ذهبوا إلی أنّ إلیاس کان مبعوثا إلی مدینه«بعلبک»إحدی مدن بلاد الشام (۱) لأنّ(بعل)هو اسم ذلک الصنم و(بک)تعنی مدینه،و من ترکیب هاتین الکلمتین نحصل علی کلمه(بعلبک)و قیل:إنّ الصنم(بعل)کان مصنوعا من الذهب و طوله حوالی(۲۰)ذراعا و له أربعه أوجه،و خدمته کانوا(۴۰۰) شخصا (۲) .

و لکن البعض ذهبوا إلی أنّ(بعل)لیس اسما لصنم معیّن،بل یطلق بصوره عامّه علی الأصنام،فیما قال البعض الآخر:إنّها تعنی(الربّ و المعبود).و قال(الراغب) فی مفرداته:إنّ کلمه«بعل»تعنی(الزوج)أمّا العرب فتطلقها علی الأصنام التی تعبدها و التی بواسطتها یقربون إلی اللّه سبحانه و تعالی علی حدّ زعمهم.

و عباره أَحْسَنَ الْخٰالِقِینَ رغم أنّها تشیر إلی أنّ اللّه سبحانه و تعالی خالق هذا الکون و لا یوجد خالق سواه،فهی تشیر أیضا حسب الظاهر إلی الأشیاء المصنوعه،أی التی یصنعها الإنسان بعد أن یغیّر شکل المواد الطبیعیه، و من هنا سمّی بالخالق،رغم أنّه تعبیر مجازی.

۱- ۱) -بعلبک الیوم جزء من لبنان و تقع قرب الحدود السوریه.

۲- ۲) -«روح المعانی»ذیل الآیات الخاصّه بالبحث.

على أيّه حال،فقد عمد إلياس إلى توبيخ قومه بشدّه،و قال لهم: اَللّٰهَ رَبَّكُمْ وَ رَبَّ آبٰائِكُمُ الْأَوَّلِينَ .

إذ أنّ اللّه ملككم و مربّيكم،و كلّ نعمه عندكم فهى منه،و أى مشكله عندكم تتيسر بقدرته فغيره،لا يعدّ مصدرا للخير و البركه،و لا يمكنه دفع الشرّ و البلاء عنكم.

الظاهر هنا أنّ المشركين فى زمان إلياس،قالوا-كما قال المشركون فى زمان نبيّنا محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم-إنّنا نتّبع سنن أجدادنا الأوّلين،فأجابهم إلياس عليه السّلام بقوله: اَللّٰهَ رَبَّكُمْ وَ رَبَّ آبٰائِكُمُ الْأَوَّلِينَ .

و استخدام كلمه(ربّ)هنا أفضل متبه للعقل و التفكير،لأنّ أهمّ قضيّه فى حياه الإنسان هى أن يعرف من الذى خلقه؟و من هو مالكه و مربّيه و ولى نعمته اليوم؟ إلاّ أنّ قومه اللجوجين و المتكبرين لم يعطوا اذنا صاغيه لنصائحه و مواعظه، و لم يعبأوا بما يقوله لهدايتهم،و إنّما كذّبوه فَكَذَّبُوهُ .

و مقابل تصرفاتهم هذه توعدهم اللّه سبحانه و تعالى بعذابه بعباره قصيره جاء فيها:إنّنا سنحضرهم إلى محكمه العدل الإلهى و سنعذّبهم فى جهنّم فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ لينالوا جزاء أعمالهم القبيحه و المنكره.

و لكن يبدو أنّ هناك مجموعه من الأطهار المحسنين و المخلصين قد آمنوا بما جاء به إلياس، و لكى لا يضيع حقّ هؤلاء،قال تعالى مباشره بعد تلك الآيه إِلاّٰ عِبٰادَ اللّٰهِ الْمُخْلَصِينَ (1) .

الآيات الأخيره من بحثنا استعرضت نفس القضايا الأربعه التى وردت بحقّ الأنبياء الماضين(نوح،و إبراهيم،و موسى،و هارون)و لأهميّتها نستعرضها مرّه اخرى.

ص:388

1 - 1) -وفقا لما ذكرناه أعلاه فإنّ هذا الاستثناء هو استثناء متّصل من(الواو)فى«كذّبوه»،و تعنى أنّ كلّ قومه كذّبوه و ابتلوا بالعذاب الإلهى،عدا عباد اللّه المخلصين.

قوله تعالی: وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ أی إنّ الأمم القادمه سوف لن تنسی الجهود الکبیره التی بذلها الأنبیاء الکبار من أجل حفظ خطّ التوحید،و سقایه شجره الإیمان،و ما دامت الحیاه موجوده فی هذه الدنیا فإنّ رسالتهم ستبقی حیّه و خالده.

و فی المرحله الثانیه أثنی اللّه سبحانه و تعالی و بعث بتحیّاته إلی آل یاسین،قال تعالی: سَلاَمٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ .

استخدام عباره(الیاسین)بدلا عن(الیاس)إمّا لکونها من الناحیه اللغویه لفظا ل(إلیاس)و اللتین لهما نفس المعنی،أو أنّها إشاره إلی(إلیاس)و أتباعه المؤمنین، فوردت بصوره الجمع (۱) .

و فی المرحله الثالثه،قال تعالی: إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ .

«الإحسان»هنا شمل،معنی واسعا و هو العمل بکلّ السنن و الأوامر،و من ثمّ الجهاد ضدّ کافّه أشکال الشرک و الانحراف و الذنوب و الفساد.

أمّا المرحله الرابعه فتطرح الإیمان کأمر أساسی یجب أن یتوفّر فی الأنبیاء الذین استعرضتهم هذه السوره المبارکه فتقول الآیه هنا: إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ .

«الإیمان»و«العبودیه»للّه هما مصدر الإحسان،و الإحسان یؤدّی إلی انضمام المحسن لصفوف المخلصین الذین یشملهم سلام اللّه.

***

---

۱ - ۱) -فی البدایه کانت(إلیاس)ثمّ نسبت إلیها یاء فأصبحت(الیاسیّ)،ثمّ جمعت فأصبحت،(الیاسیین)و عند تخفیفها أضحت(الیاسین).

بحثان

اشاره

۱-من هو إلياس؟

لا يوجد أيّ شكّ فی أنّ«إلياس»هو أحد أنبياء اللّه الكبار،و آيات بحثنا تصرّح بهذا الأمر،قال تعالی: إِنَّ إِلْيٰاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ .

اسم نبی اللّه(إلياس)جاء فی آيتين من آيات القرآن المجيد،الاولی فی هذه السوره،أی سوره الصافات،و الثانيه فی سوره الأنعام الآيه(۸۵)إذ ذكر اسمه مع مجموعه اخری من الأنبياء وَ زَكَرِيّٰا وَ يَحْيیٰ وَ عِيسیٰ وَ إِلْيٰاسَ كُلٌّ مِنَ الصّٰالِحِينَ .

و أبدی المفسّرون و جهات نظر متعدّده بشأن إلياس،إذ أنّ البعض تساءل هل أنّ اسم«إلياس»هو اسم ثان لنبی واحد،أم أنّه يتعلّق بنبی ليس له اسم ثان،و ما هی صفات و خصائص هذا النبی؟ للإجابه علی هذه التساؤلات نستعرض و جهات النظر المتعدّده تلك:

أ-يعتقد البعض أنّ«إلياس»هو إدريس(لأنّ كلمه إدريس،تلفظ إدراس، و بعد أنّ طرأت عليها تغيّرات بسيطه أضحت إلياس).

ب-«إلياس»هو أحد أنبياء بنی إسرائيل،و هو ابن(ياسين)أحد أحفاد هارون أخی نبی اللّه موسی عليه السّلام.

ج-مجموعه من المفسّرين اعتبرت«إلياس»هو الخضر.

فی حين أعربت مجموعه اخری عن اعتقادها فی أنّ إلياس هو صديق الخضر، و كلاهما ما زال حيّا،و أنّ إلياس موكّل بالفيافی،و الخضر موكّل بالبحار و الجزر.

و مجموعه ثالثه أكّدت علی أنّ إلياس موكّل بالصحاری و الخضر موكّل بالجبال،و يقولون بخلود الإثنين.

و البعض يری أنّ إلياس ابن(اليسع).

د-إلياس هو نفسه(إيليا)نبی بنی إسرائيل الذی عاصر الملك(آجاب)و الذی أرسله الباری عزّ و جلّ لإنذار و هدايه(آجاب)الطاغيه المتجبّر.

ص:۳۹۰

و قال البعض:إنّه يحيى معمدان المسيح.

و لكن الذى يتناسب و ظاهر آيات القرآن الكريم هو أنّ هذا الاسم اسم أحد أنبياء اللّه غير تلك الأسماء التى وردت فى القرآن المجيد،و أنّه بعث لهدايه قوم يعبدون الأصنام،فكذّبه أكثر القوم،عدا مجموعه من المؤمنين المخلصين الذين صدّقوه.

و كما أشرنا سابقا فإنّ البعض يعتقد بأنّه بعث إلى بلاد الشام،استنادا إلى اسم الصنم(بعل)الذى كان يعبده القوم الموجودون فى تلك المنطقه،و هى«بعلبك» التى هى اليوم إحدى مدن لبنان و تقع قرب الحدود السوريه.

على أيّه حال،فقد وردت قصص مختلفه فى الكتب بشأن هذا النبى،و لأنّها غير معتمده و موثوقه فقد صرف النظر عنها (۱) .

۲-من هم إل ياسين؟

المفسّرون و المؤرخون أبدوا وجهات نظر مختلفه بشأن(الياسين)منها:

أ-ذهب البعض إلى أنّ إلياس و الياسين هما لغتان،كما هو شائع بالنسبه ل(ميكال)و(ميكائيل)إذ أنّهما لغتان فى اسم واحد لأحد الملائكه،و ل(سيناء)و (سينين)حيث تطلقان على مساحه من الأرض تقع بين مصر و فلسطين،و (إلياس)و(الياسين)هى أيضا لغتان فى اسم واحد لهذا النّبى الكبير (۲) .

ب-البعض الآخر يعتبرها جمعا،و بهذا الشكل(إلياس)أضيفت إليها(ياء) فأصبحت(الياسى)،و بعد ذلك جمعت بإضافه الياء و النون إليها فأصبحت (الياسين)و بعد تخفيفها غدت(الياسين)،و طبقا لهذا يفهم منها أنّها تخصّ كلّ

۱- ۱) -تفسير(مجمع البيان)و تفسير(الميزان)و(روح البيان)و(فخر الرازى)و(فى ظلال)و(أعلام القرآن).

۲- ۲) -البيان فى غريب إعراب القرآن،المجلّد ۲،صفحه ۳۰۸.

الذین أطاعوا الیاس و التزموا بنهجه (۱) .

ج-(آلیاسین)بالألف الممدوده،مرکّبه من کلمتی(آل)و(یاسین)و قیل أنّ یاسین هو اسم والد(الیاس)،و وفق روایه اخری فإنّه أحد أسماء نبیّنا الأکرم محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و بهذا فإنّ کلمه(آل یاسین)تعنی عائله نبی الإسلام أو عائله یاسین والد الیاس.

الدلائل الواضحه الموجوده فی القرآن تؤیّد المعنی الأوّل،و الذی یقول:إنّ المقصود من(الیاسین)هو(الیاس)لأنّ الآیه التی تلی هذه الآیه المبارکه سَلاٰمٌ عَلیٰ إِلْ یٰاسِینَ بآیه تقول: إِنَّهُ مِنْ عِبٰادِنَا الْمُؤْمِنِینَ و عوده الضمیر المفرد علی (الیاسین)دلیل علی أنّه شخص واحد لا أکثر،و هو إلیاس.

و هناک دلیل آخر،هو أنّ الآیات الأربعه الأخیره التی وردت فی نهایه قصّه إلیاس،هی نفس الآیات التی وردت فی نهایه قصص نوح و إبراهیم و موسی و هارون،و عند ما نضع هذه الآیات الواحده إلی جنب الاخری نری أنّ سلام اللّه فی تلک الآیات مرسل إلی الأنبیاء الذین تتطرّق إلیهم الآیات المبارکه، سَلاٰمٌ عَلیٰ نُوحٍ فِی الْعٰالَمِینَ - سَلاٰمٌ عَلیٰ إِبْرٰاهِیمَ - سَلاٰمٌ عَلیٰ مُوسیٰ وَ هٰارُونَ .

و طبقا لذلک فإنّ سَلاٰمٌ عَلیٰ إِلْ یٰاسِینَ تعنی السلام علی إلیاس.

و النقطه التی ینبغی الالتفات إلیها،أنّ الکثیر من التفاسیر أوردت حدیثا بسند عن ابن عبّاس یصرّح بأنّ المراد من(آل یاسین)هم آل محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،لأنّ أحد أسماء نبیّنا هو یاسین.

روی الشیخ الصدوق فی کتابه(معانی الأخبار)فی باب تفسیر(آل یاسین) خمسه أحادیث بهذا الشأن،کلّها لا تنتهی من حیث السند إلی أهل البیت علیهم السّلام

۱- ۱) -المصدر السابق.

سوی واحد،و الراوی لهذا الحدیث شخص یدعی(کادح)أو(قادح) (۱) و هو مجهول و لا توجد ترجمته فی کتب الرجال.

و علی فرض-وفقا لهـذه الأخبار-أنّ الآیه الآنفه تقرأ بصوره سـلام علی آل یاسـین و بغضّ النظر عن عـدم تناسب الآیات،و رأینا أنّ إسناد هذه الرّوایات أیضا قابله للنقاش،فمن الأفضل أن نتجنّب القضاء بخصوص هذه الرّوایات و نترک الحکم علیها لأهلها.

***

۱- ۱) -معانی الأخبار:ص ۱۲۲.

الآيات [سوره الصافات (۳۷): الآيات ۱۳۳ الى ۱۳۸]

اشاره

وَ إِنَّ لُوطاً لَمِنَ اَلْمُرْسَلِينَ (۱۳۳) إِذْ نَجَّيْنٰاهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (۱۳۴) إِلاّٰ عَجُوزاً فِي اَلْغٰابِرِينَ (۱۳۵) ثُمَّ دَمَّرْنَا اَلْآخَرِينَ (۱۳۶) وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (۱۳۷) وَ بِاللَّيْلِ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ (۱۳۸)

التّفسير

اشاره

تدمير قوم لوط:

«لوط»هو خامس نبى يذكر اسمه فى هذه السوره ضمن تسلسل الآيات التى تحدّثت بصوره مختصره عن تأريخه لاستمداد العبر منه.

و طبقا لما جاء فى آيات القرآن بشأن لوط،يتّضح أنّه كان معاصرا لإبراهيم عليه السّلام،و أنّه من أنبياء الله العظام،و ذلك ما جاء فى الآيه(۲۶)من سوره العنكبوت و الآيه(۷۴)من سوره هود.

و قد ورد اسم«لوط»كثيرا فى آيات القرآن الكريم،و تكرّر البحث فى القرآن بشأنه هو و قومه عدّه مرّات،قومه المنحرفون الذين كشف القرآن الكريم(الآيات ۱۶۷ إلى ۱۷۳ من سوره الشعراء،و فى الآيات ۷۰ إلى ۸۳ من سوره هود،و فى الآيات ۵۴ إلى ۵۸ من سوره النمل و غيرها من السور)عن المصير الأليم الذى

حلّ بهم.

بحثنا يبدأ بقوله تعالى: وَ إِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ .

و بعد هذا البيان الإجمالى يعمد القرآن إلى التفصيل و يبيّن جوانب من قصّه لوط،حيث قال:تذكر تلك الفتره الزمنيه التى أنقذنا فيها لوطا و أهله إِذْ نَجَّيْنٰاهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ .

عدا زوجته العجوز التى جعلناها مع من بقى فى العذاب إِلاّٰ عَجُوزاً فِى الْغٰابِرِينَ (١) .

ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ

.

الجمل القصيره-التى وردت أعلاه-تشير إلى تأريخ قوم لوط المليء بالحوادث،و التى ورد شرحها فى سور(هود)و(الشعراء)و(العنكبوت).

«لوط»كسائر الأنبياء بدأ دعوته بتوحيد اللّه، ثمّ عمد إلى الجهاد ضدّ الفساد الموجود فى المجتمع المحيط به،خاصّه ذلك الانحراف الخلقى المعروف باللواط، و الذى ظلّ كوصمه عار لقوم لوط على طول التاريخ.

فهذا النّبى العظيم عانى المراره مع قومه،و بذل كلّ ما يمتلك من جهد لإصلاح قومه المنحرفين،و منعهم من الاستمرار فى ممارسه عملهم القبيح،و لكن جهوده لم تسفر عن شيء.و عند ما شاهد أنّ أفراد قلائل آمنوا به،قرّر إنقاذ نفسه و إنقاذهم من المحيط الفاسد الذى يعيشون فيه.

و فى نهايه الأمر فقد لوط الأمل فى إصلاح قومه و عمد إلى الدعاء عليهم، حيث طلب من اللّه سبحانه و تعالى إنقاذه و عائلته،فاستجاب البارى عزّ و جلّ لدعائه و أنقذه و عائلته مع تلك الصفوه القليله التى آمنت به،عدا زوجته العجوز

١- ١) -(غابر)من مادّه(غبور)على وزن(عبور)و تعنى بقايا الشيء،فعند ما تتحرّك مجموعه من مكان ما و يبقى أحد أفرادها هناك يقال له(غابر)و لهذا السبب يقال لما يتبقّى من التراب(غبار)،و لما تبقّى من الحليب فى الثدى(غبره)على وزن(لقمه).

التی لم ترفض فقط التمسّک بالتعلیمات التی جاء بها،و إنّما عمدت-أحیانا-إلی تقدیم العون لأعدائه.

و قد عذّب اللّه قوم لوط بأشدّ العذاب،إذ خسف بهم الأرض ثمّ أمطر علیهم حجاره من سجّیل،لیهلکوا عن آخرهم،و تمحی أجسادهم من الوجود أیضا.

و باعتبار أنّ هذه الآیات کانت مقدّمه لإیقاظ الغافلین و المغرورین،فقد أضاف القرآن الکریم وَ إِنَّکُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَیْهِمْ مُصْبِحِینَ .أی إنّکم تمرّون فی کلّ صباح بجانب دیارهم الخربه من جرّاء العذاب.

کما تمرّون من هناک فی اللیل أ فلا تعقلون؟ وَ بِاللَّیْلِ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ .

هذه الآیات تخاطب قوافل أهل الحجاز التی کانت تذهب لیلا و نهارا إلی بلاد الشام عبر مدن قوم لوط،و تقول:لو کان لهم آذان حیّه لسمعوا الصراخ المذهل و العویل المفزع لهؤلاء القوم المعذّبین.

لأنّ آثار دیار قوم لوط الخربه تحکی بصمت دروسا کبیره لکلّ المارّین من هناک،و تحذر من الابتلاء بمثل هذا العذاب.

نعم،إنّه درس ما أکثر العبر فیه،و لکن المعتبرین منه قلیل«ما أکثر العبر و أقلّ الإعتبار» (۱) .

و نظیر هذا المعنی موجود فی الآیه(۷۶)من سوره الحجر،و التی تقول بعد بیان قصّه قوم لوط وَ إِنَّهٰا لَبِسَبِیلٍ مُقِیمٍ أی إنّ آثارهم تقع دائما فی طریق القوافل و المشاه المارّین من هناک.

و فسّرت

روایه عن الإمام الصادق علیه السّلام الآیه بشکل آخر،فعند ما سأله أحد أصحابه عن معنی الآیه وَ إِنَّکُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَیْهِمْ مُصْبِحِینَ وَ بِاللَّیْلِ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ أجاب الإمام الصادق قائلا:«تمرّون علیهم فی القرآن إذا قرأتم فی القرآن

۱- ۱) -نهج البلاغه،الکلمات القصار،الکلمه ۲۹۷.

فاقرؤوا ما قصّ اللّه عليكم من خبرهم» (۱) .

هـذا التّفسـير قد يكون إشاره إلی تفسـير ثان،علی أيّه حال فالجمع بين التّفسـيرين لا ضـرر فيه،لأنّ آثار قوم لوط الباقيه شاخصـه للأبصار،إضافه إلی أنّ آيات القرآن الكريم تتطرّق لأخبار قوم لوط و العذاب الذی نزل عليهم.

***

۱- ۱) -روضه الكافی،نقلا عن نور الثقلين،المجلّد ۴،صفحه ۴۳۲.

الآيات [سوره الصافات (۳۷): الآيات ۱۳۹ الی ۱۴۸]

اشاره

وَ إِنَّ يُونُسَ لَمِنَ اَلْمُرْسَلِينَ (۱۳۹) إِذْ أَبَقَ إِلَى اَلْفُلْكِ اَلْمَشْحُونِ (۱۴۰) فَسٰاهَمَ فَكٰانَ مِنَ اَلْمُدْحَضِينَ (۱۴۱) فَالْتَقَمَهُ اَلْحُوتُ وَ هُوَ مُلِيمٌ (۱۴۲) فَلَوْ لاٰ أَنَّهُ كٰانَ مِنَ اَلْمُسَبِّحِينَ (۱۴۳) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (۱۴۴) فَنَبَذْنٰاهُ بِالْعَرٰاءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ (۱۴۵) وَ أَنْبَتْنٰا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (۱۴۶) وَ أَرْسَلْنٰاهُ إِلىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (۱۴۷) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنٰاهُمْ إِلىٰ حِينٍ (۱۴۸)

التّفسير

اشاره

يونس فی بوتقه الامتحان:

الحديث هنا عن قصّه نبی اللّه«يونس»عليه السّلام و قومه التائبين،و التی هی سادس و آخر قصّه تتناول قصص الأنبياء و الأمم السابقه،و الذی يلفت النظر أنّ القصص الخمس التی تحدّثت عن قوم(نوح)و(إبراهيم)و(موسی و هارون)و(الياس)و(لوط)أشارت إلی أنّ تلك الأقوام لم تصغ لنصائح الأنبياء الذين بعثوا إليها و بقيت غارقه فی نومها،فعمّها العذاب الإلهی،فيما أنقذ اللّه سبحانه و تعالی الأنبياء العظام

ص: ۳۹۸

الذین أرسلهم إلی تلک الأقوام مع القلّه القلیله ممّن اتّبعهم.

إلاّ أنّ قضیّه نبی اللّه یونس تنتهی أحداثها بشکل معاکس لما انتهت إلیه تلک القصص،إذ أنّ قوم یونس صحوا من غفلتهم و تابوا إلی اللّه فور مشاهدتهم دلائل العذاب الإلهی الذی سیحلّ لهم إن لم یؤمنوا،و أنّ اللّه شملهم بلطفه و أنزل علیهم برکاته المادیّه و المعنویه،و فی المقابل فإنّ نبی اللّه یونس ابتلی ببعض الابتلاءات و المشاکل لأنّه تعجّل فی ترک قومه و هجره إیّاهم،حتّی أنّ القرآن المجید أطلق علیه کلمه(أبق)و التی تعنی هرب العبد من مولاه! و هذه القصّه بمثابه خطاب موجّه لمشرکی قریش،و إلی کلّ البشر علی طول التأریخ،جاء فیه:هل تریدون أن تکونوا کالأقوام الخمسه الماضیه،أم کقوم یونس؟و هل ترغبون فی أن تکون عاقبتکم الشؤم و الألم؟أما ترغبون فی أن تنتهی عواقبکم بخیر و سعاده؟اعلموا أنّ ذلک مرتبط بما تعزمون علیه.

علی أیّه حال،فإنّ ذکر هذا النّبی العظیم و قصّته مع قومه،وردت فی سور متعدّده من سور القرآن المجید(منها سوره الأنبیاء،و یونس،و القلم،و فی هذه السوره أی الصافات)و عکست کلّ واحده منها جوانب من أوضاعه و حیاته، و سوره«الصافات»هذه تسلّط الأضواء أکثر علی قضیّه هرب یونس و ابتلاءه، و من ثمّ نجاته من بطن الحوت.

فی البدایه،و کما تعوّدنا فی القصص السابقه،فإنّ الحدیث یکون عن مقام رسالته،إذ تقول الآیه: وَ إِنَّ یُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِینَ .

نبی اللّه«یونس»علیه السّلام کسائر الأنبیاء العظام بدأ بالدعوه إلی توحید اللّه و مجاهده عبده الأصنام،و من ثمّ محاربه الأوضاع الفاسده التی کانت منتشره فی مجتمعه آنذاک،إلاّ أنّ قومه المتعصّبین الذین کانوا یقلّدون أجدادهم الأوائل رفضوا الاستجابه لدعوته.

استمرّ یونس علیه السّلام بوعظ قومه بقلب حزین لأجلهم،مریدا لهم الخیر و کأنّه أب

رحيم لهم،فی حين كانوا يواجهون منطقه الحكيم بالسفسطه و المغالطه،عدا مجموعه قليله منهم،يحتمل أن لا تتعدّى الشخصين(أحدهما يسمّى بالعابد و الثانی بالعالم)آمنت برسالته.

و بعد فتره طويله من دعوته إيّاهم إلی عباده اللّه و ترك عباده الأصنام،يئس يونس من هدايتهم،و كما جاء فی بعض الروايات،فإنّ يونس عليه السّلام قرّر طبقا لاقتراح الرجل العابد،مع ملاحظه أوضاع و أحوال قومه الضالّين، قرّر الدعاء عليهم (1) .

و بالفعل فقد دعا عليهم،فنزل عليه الوحی و حدّد له وقت حلول العذاب الإلهی بهم،و مع حلول موعد نزول العذاب،رحل يونس-بمعيّته الرجل العابد-عن قومه و هو غاضب عليهم،و وصل إلی ساحل البحر،و شاهد سفينه عند الساحل غاصّه بالركاب فطلب منهم السماح له بالصعود إليها.

و هذا ما أشارت إليه الآيه التاليه،حيث قالت: إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ .

كلمه«أبق»مشتقّه من(إباق)و التی تعنی فرار العبد من سيّده،إنّها لعباره عجيبه،إذ تبيّن أن ترك العمل بالأولی من قبل الأنبياء العظام ذوی المقام الرفيع عند اللّه،مهما كان بسيطا فإنّه يؤدّی إلی أن يتّخذ الباری عزّ و جلّ موقفا معاتبا و مؤنّبا للأنبياء،كإطلاق كلمه(الآبق)علی نبيّه.

و من دون أی شكّ فإنّ نبی اللّه يونس عليه السّلام،معصوم عن الخطأ،و لكن كان الأجدر به أن يتحمّل آلاما اخری من قومه،و أن يبقی معه حتّی اللحظات الأخيره قبل نزول العذاب،عسی أن يستيقظوا من غفلتهم و يتوبوا إلی اللّه سبحانه و تعالی.

حقّا إنّه دعا قومه إلی توحيد اللّه أربعين عاما-وفق ما ورد فی بعض الروايات -و لكن كان من الأجدر به أن يضيف عدّه أيام أو عده ساعات إلی ذلك الوقت ببقائه معهم،لذلك فعند ما ترك قومه و هجرهم شبهه القرآن بالعبد الآبق.

۱- ۱) -تفسير البرهان،المجلّد ۴،صفحه ۳۵.

و وفق ما ورد فی الرّوایات،فقد صعد یونس علیه السّلام إلی السفینه،ثمّ إنّ حوتا ضخما وقف أمام السفینه،فاتحا فمه و کأنّه یطلب الطعام،فقال رکاب السفینه أنّ هناک شخصا مذنبا معنا یجب أن یکون طعام هذا الحوت،و لم یجدوا سبیلا سوی الاقتراع لتحدید الشخص الذی یرمی للحوت،و عند ما اقترعوا خرج اسم یونس، و طبقا للروایه فإنّهم اقترعوا ثلاث مرّات و فی کلّ مرّه کان یخرج اسم یونس علیه السّلام، فأمسکوا بیونس و قذفوه فی فم الحوت العظیم،و قد أشار القرآن المجید فی آیه قصیره إلی هذه الحادثه،قال تعالی: فَسٰاهَمَ فَکٰانَ مِنَ الْمُدْحَضِینَ .

«ساهم»فی مادّه(سهم)و تعنی اشتراکه فی الاقتراع،فالاقتراع تمّ علی ظهر السفینه بالشکل التالی،کتبوا اسم کلّ راکب علی(سهم)ثمّ خلطوا الأسهم و سحبوا سهما واحدا،فخرج السهم الذی یحمل اسم یونس علیه السّلام.

(مدحض)مشتقّه من(دحض)و تعنی إبطال مفعول الشیء أو إزالته أو التغلّب علیه،و المراد هنا أنّ اسمه ظهر فی عملیه الاقتراع من بین بقیّه الأسماء.

و ورد بهذا الشأن تفسیر آخر یقول:إنّ إعصارا هبّ فی البحر عرض السفینه و من فیها من الرّکاب للخطر بسبب ثقل حمولتها،و لم یکن لهم سبیل للنجاه سوی تخفیف وزن السفینه من خلال إلقاء بعض رکّابها فی وسط البحر،و عند ما اقترعوا علی من یرمونه فی الماء خرج اسم یونس،و بعد رمیه فی البحر ابتلعه حوت عظیم.

و قال القرآن الکریم: فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَ هُوَ مُلِیمٌ أی إنّ حوتا عظیما التقمه و هو مستحقّ للملامه.

«التقم»مشتقّه من(الالتقام)و تعنی(البلع).

(ملیم)من مادّه(لوم)و تعنی التوبیخ و العتب(و عند ما تأتی بصفه الفعل فإنّها تعطی معنی استحقاق الملامه).

و من المسلّم أنّ هذه الملامه لم تکن بسبب ارتکابه ذنبا کبیرا أو صغیرا و إنّما

بسبب ترکه العمل بالأولی،و استعجاله فی ترک قومه و هجرانهم.

و بعد بلعه من قبل الحوت أعطی اللّه سبحانه و تعالی أمرا تکوینیا إلی الحوت أن لا تلحق الأذی بیونس،إذ أنّ علیه أن یقضی فتره فی السجن الذی لم یسبق له مثیل،کی یدرک ترکه العمل بالأولی،و یسعی لإصلاحه.

و ورد فی إحدی الرّوایات أنّ

«أوحی اللّه إلی الحوت:لا تکسر منه عظما و لا تقطع له وصلا» (۱) .

یونس علیه السّلام انتبه بسرعه للحادث،و توجّه علی الفور إلی اللّه سبحانه و تعالی و تکامل وجوده مستغفرا اللّه علی ترکه العمل بالأولی،و طالبا العفو منه.

و نقلت الآیه(۸۷)فی سوره الأنبیاء صوره توجّه یونس علیه السّلام بالدعاء الذی یسمّیه أهل العرفان بالیونسیه،قال تعالی: فَنٰادیٰ فِی الظُّلُمٰاتِ أَنْ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ أَنْتَ سُبْحٰانَکَ إِنِّی کُنْتُ مِنَ الظّٰالِمِینَ .

أی إنّه نادی من بطن الحوت بأن لا معبود سواک،و أنّنی کنت من الظالمین،إذ ظلمت نفسی و ابتعدت عن باب رحمتک.

اعتراف یونس الخالص بالظلم،و تسبیحه اللّه المرافق للندم أدّی مفعوله،إذ استجاب اللّه له و أنقذه من الغمّ،کما جاء فی الآیه(۸۸)من سوره الأنبیاء، فَاسْتَجَبْنٰا لَهُ وَ نَجَّیْنٰاهُ مِنَ الْغَمِّ وَ کَذٰلِکَ نُنْجِی الْمُؤْمِنِینَ .

و نلاحظ الآن ماذا تقول الآیات بشأن یونس علیه السّلام،قال تعالی: فَلَوْ لاٰ أَنَّهُ کٰانَ مِنَ الْمُسَبِّحِینَ لَلَبِثَ فِی بَطْنِهِ إِلیٰ یَوْمِ یُبْعَثُونَ أی لو لم یکن من المسبّحین لأبقیناه فی بطن الحوت حتّی یوم القیامه،و یعنی تبدیل سجنه المؤقّت إلی سجن دائم، و من ثمّ تبدیل سجنه الدائم إلی مقبره له.

و بخصوص بقاء یونس فی بطن الحوت حتّی یوم القیامه(علی فرض أنّه ترک

۱- ۱) -تفسیر الفخر الرازی،المجلّد ۲۶، الصفحه ۱۶۵،کما ورد نفس المعنی مع اختلاف بسیط فی تفسیر البرهان،المجلّد ۴،الصفحه ۳۷.

تسبیح اللّه و التوبه إلیه)فهل أنّه یعنی بقاءه حیّا أم میّتا،المفسّرون ذکروا بهذا الشأن احتمالات متعدّده منها:

أوّلا:بقاء الإثنین-أی یونس و الحوت-أحیاء،و یونس یبقی إلی یوم القیامه مسجونا فی بطن الحوت.

ثانیا:وفاه یونس،و بقاء الحوت حیّا باعتباره قبرا متحرکا لجثّه یونس.

ثالثا:وفاه الإثنین،و هنا یکون بطن الحوت قبرا لیونس،و الأرض قبرا للحوت،حیث یدفن فی قلب الحوت،و الحوت یدفن فی باطن الأرض إلی یوم القیامه.

الآیه مورد البحث لا تدلّ علی أی من الاحتمالات التی ذکرناها،فهناک آیات عدیده فی القرآن الکریم تؤکّد موت الجمیع فی آخر الزمان،لذا فإنّ بقاء یونس أو الحوت أحیاء حتّی یوم القیامه غیر ممکن،و بهذا یعدّ الاحتمال الثالث أقرب الاحتمالات إلی الواقع (1) .

و هناک احتمال آخر یقول:إنّ هذه العباره هی کنایه عن طول المدّه،و تعنی أنّه سیبقی لمدّه طویله فی هذا السجن.

و لا ننسی أنّ هذه الأمور کان یمکن أن تتحقّق لو أنّه کان قد ترک تسبیح اللّه و التوبه إلیه،و لکن الذی حدث أنّ تسبیحه و توبته جعلاه مشمولا بالعفو الإلهی.

و یضیف القرآن،و قد ألقینا به فی منطقه جرداء خالیه من الأشجار و النباتا، و هو مریض فَنَبَذْنٰاهُ بِالْعَرٰاءِ وَ هُوَ سَقِیمٌ .

فالحوت الضخم لفظ یونس-الذی لم یکن غذاء صالحا لذلک الحوت-علی ساحل خال من الزرع و النبات،و الواضح أنّ ذلک السجن العجیب أثر علی سلامه و صحّه جسم یونس،إذ أنّه تحرّر من هذا السجن و هو منهار و معتل.

۱- ۱) -الملفت للنظر أنّ المفسّر الکبیر العلاّمه(الطبرسی)الذی غالبا ما یجمع الآراء المختلفه فی ذیل الآیات، اقتنع هنا بإیراد احتمال واحد فقط،و الذی یقول(لصار بطن الحوت قبرا له إلی یوم القیامه).

إنّنـا لا نعلم كم أمضـى يونس من الوقت فى بطن الحوت،فمن المسلّم به أنّه لا يمكن تجنّب المؤثّرات هناك مهما كانت الفتره الزمينه التى قضاها فى بطن الحوت،صـحيح أنّ الأمر الإلهى كان قـد صدر فى أن لا يهضم يونس داخل بطن الحوت،و لكن هذا لا يعنى أن لا يتأثّر بعض الشـىء بمؤثّرات ذلك السـجن،لـذا فقد كتب بعض المفسّرون أنّ يونس خرج من بطن الحوت و كأنّه فرخ دجاجه ضعيف و هزيل جدّا لا يمتلك القدره على الحركه.

مرّه اخرى شـمله اللطف الإلهى،لأنّ جسـمه كان مريضا و متعبا،و كلّ عضو من أعضاء جسمه كان مرهقا و عاجزا،و كانت حراره الشـمس تؤذيه،فيحتاج إلى ظلّ لطيف يظلّل جسده.و القرآن هنا يكشف عن هذا اللطف الإلهى بالقول،إنّنا أنبتنا عليه شـجره قرع ليستظلّ بأوراقها العريضه و الرطبه وَ أَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ .

(اليقطين)تعنى-كمـا قال أصـحاب اللغه و التّفسـير-كلّ نبات لا ساق له و له أوراق كبيره،مثل نبات البطّيـخ و القرع و الخيار و ما يشابهها.و لكن الكثير من المفسّرين و رواه الحـديث أعلنوا بأنّ المقصود من(اليقطين)هو(القرع)،و الـذى يجب الالتفات إليه أنّ كلمه«الشـجره»فى اللغه العربيه تطلق على النباتـات التى لهـا سـاق و أغصان و التى ليس لها ساق و أغصان،و بعباره اخرى:تشـمل كلّ الأشـجار و النباتات،و نقلوا حديثا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،قالوا فيه:إنّ شخصا سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:إنّك تحبّ القرع؟فأجاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

«أجل هى شجره أخى يونس» (1) .

و قيل:إنّ أوراق شـجره القرع،إضافه إلى أنّها كانت كبيره و رطبه جـدّا و يمكن الاسـتفاده منها كظلّ جيّد،فإنّ الذباب لا يتجمّع حول هذه الأوراق،و لهذا فإنّ يونس عليه السّلام التصق بتلك الأوراق كى يرتاح من حرقه الشمس و من الحشرات فى

1- 1) -روح المعانى،المجلّد ۷،الصفحه ۴۸۹.

نفس الوقت،إذ أنّ بقاءه فی داخل بطن الحوت أدّی إلی أن یصبح جلده رقیقا جدّا و حسّاسا،بحیث یتألّم إن استقرّت علیه حشره.

و یحتمل أنّ الباری عزّ و جلّ یرید من هذه المرحله إکمال الدرس الذی أعطاه لیونس فی بطن الحوت،إذ کان علیه أن یحسّ بتأثیر حراره الشمس علی جلده الرقیق،کی یبذل جهدا و سعیا أکثر-عند ما یتسلّم القیاده فی المستقبل-لإنقاذ امّته من نار جهنّم،و قد ورد هذا المضمون فی روایات متعدّده (۱) .

نترک الحدیث عن یونس و نعود إلی قومه،فبعد أن ترک یونس قومه و هو غضبان،ظهرت لقومه دلائل تبیّن لهم قرب موعد الغضب الإلهی،هذه الدلائل هزّت عقولهم بقوّه و أعادتهم إلی رشدهم،و دفعتهم إلی اللجوء للشخص(العالم) الذی کان آمن بیونس و ما زال موجودا فی المدینه،و اتّخاذه قائدا لهم لیرشدهم إلی طریق التوبه.

و ورد فی روایات اخری أنّهم خرجوا إلی الصحراء،و فرّقوا بین المرأه و طفلها، و حتّی بین الحیوانات و أطفالها،و جلسوا یبکون و ینتحبون بأعلی أصواتهم، داعین اللّه سبحانه و تعالی بإخلاص أن یتقبّل توبتهم و یغفر ذنوبهم و تقصیرهم بعدم اتّباعهم نبی اللّه یونس.

و هنا أزاح اللّه عنهم سحب العذاب و أنزلها علی الجبال،و هکذا نجا قوم یونس التائبون المؤمنون بلطف اللّه (۲) .

بعد هذا عاد یونس إلی قومه لیری ماذا صنع بهم العذاب الإلهی؟و لکن ما إن عاد إلی قومه حتّی فوجئ بأمر أثار عنده الدهشه و العجب،و هو أنّه ترک قومه فی ذلک الیوم یعبدون الأصنام،و هم الیوم یوحّدون اللّه سبحانه.

القرآن یقول هنا: وَ أَرْسَلْنٰاهُ إِلیٰ مِائَهِ أَلْفٍ أَوْ یَزِیدُونَ کانوا قد آمنوا باللّه،

۱- ۱) -تفسیر نور الثقلین،المجلّد ۴،الصفحه ۴۳۶،الحدیث ۱۱۶.

۲- ۲) -نقل صاحب تفسیر البرهان،و فی المجلّد ۴،الصفحه ۳۵ هذا الحدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام.

و اغدقت علیهم النعم الإلهیه المادیه و المعنویه لمدّه معیّنه، فَآمَنُوا فَمَتَّعْنٰاهُمْ إِلیٰ حِینٍ .

و بـالطبع فـإنّهم بعـد توبتهم كـانوا یتمتّعون بإیمـان بسـیط،و قـد إزداد بعـد عوده یونس إلیهم،أی إزداد إیمـانهم بـاللّه و برسوله یونس،و أخذوا ینفّذون تعلیماته و أوامره.

و یتـبیّن من آیـات القرآن الكریم أنّ یـونس علیه السّـلام بعث من جدیـد إلی قـومه السـابقین،أمّـا الـذین قـالوا:إنّه بعث إلی قوم آخرین،فقولهم لا یتناسب مع ظاهر الآیات.

لأنّنا نقرأ من جهه قوله تعالی: فَآمَنُوا فَمَتَّعْنٰاهُمْ إِلیٰ حِینٍ یعنی أنّ القوم الذین بعثنا إلیهم یونس كانوا قوما مؤمنین،و أنّنا قد أغدقنا علیهم النعم لمدّه محدوده.

و من جهه اخری،فقـد ورد نفس هـذا التعبیر فی سوره یونس بشأن قومه السابقین، و ذلک فی الآیه(٩٨) فَلَوْ لاٰ كٰانَتْ قَرْیَهٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهٰا إِیمٰانُهٰا إِلاّٰ قَوْمَ یُونُسَ لَمّٰا آمَنُوا كَشَفْنٰا عَنْهُمْ عَذٰابَ الْخِزْیِ فِی الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا وَ مَتَّعْنٰاهُمْ إِلیٰ حِینٍ .

و من هنا یتّضح أنّ المراد من إِلیٰ حِینٍ هو لفتره معیّنه،أی إلی نهایه حیاتهم و حلول أجلهم الطبیعی.

سؤال یطرح نفسه:لمـاذا قـالت الآـیه المـذكوره أعلاـه: مِائَهِ أَلْفٍ أَوْ یَزِیـدُونَ ؟ و مـا المقصود من یزیـدون أی عـدد بعـد المائه ألف؟المفسّرون أعطوا تفسیرات مختلفه لها،و لكن الظاهر أنّ مثل هذه العبارات تأتی لتأكید شیء ما،و إعطائه هاله من العظمه،و لیس لخلق حاله من الترديد و الشکّ (١) .

***

ص:۴٠۶

١- ١) -لهذا فإنّ(أو)هنا تأتی بمعنی،(بل).

بحوث

اشاره

۱-عرض موجز لحیاه یونس علیه السّلام

(یونس)بن(متی)و یلقّب ب(ذی النون)أی صاحب الحوت،و قد اعطی هذا اللقب لأنّ قصّته ارتبطت بالحوت،و هو من المعروفین،و علی الظاهر أنّه ولد بعد موسی و هارون.

و قال البعض:إنّه من أولاد(هود)و قد کلّف من قبل الباری عزّ و جلّ بهدایه من تبقّی من قوم ثمود.

و المنطقه التی بعث إلیها کانت إحدی مناطق العراق و تسمّی(نینوی) (۱) .

و قال البعض:إنّ بعثته کانت قبل ولاده المسیح علیه السّلام بحوالی(۸۲۵)عاما، و حالیا هناک قبر قرب مدینه الکوفه علی ضعاف النهر یعرف بقبر(یونس).

و جاء فی بعض الکتب أنّ یونس کان من أبناء بنی إسرائیل و بعث إلی أهل نینوی بعد سلیمان. و قد شرح کتاب(یوناه)أحد کتب التوراه العهد القدیم فی بحوث مفصّله حیاه النّبی یونس و تحت عنوان(یوناه بن متی).و طبقا لما جاء فی هذا الکتاب،فإنّ یونس کان مکلّفا بالذهاب إلی مدینه(نینوی)الکبیره،و مجابهه شرور الطغاه هناک.

ثمّ تذکّر التوراه حوادث اخری،تشبه کثیرا ما جاء فی القرآن،مع وجود اختلاف،و هو أنّ الروایات الإسلامیه تقول:إنّ یونس دعا قومه إلی التوحید و نفّذ ما أوکل إلیه فی هذا المجال،و بعد أن رفض قومه دعوته دعا علیهم و ترکهم و حصل له ما حصل فی حادثه السفینه و الحوت،و لکن التوراه ذکرت عباره غیر مقبوله،إذ قالت:إنّ یونس طلب قبل بعثه إلی قومه أن یعفی من هذه المهمّه،و لهذا

---

۱ - ۱) -نینوی،اسم عدّه مناطق،الاولی:مدینه قرب الموصل،و الاخری فی ضواحی الکوفه فی جهه کربلاء، و مدینه فی آسیا الصغری،عاصمه مملکه آشور و تقع عای ضفاف نهر دجله(دائره المعارف ده خدا)و البعض الآخر قال:إنّ نینوی هی أکبر مدن مملکه آشور الواقعه فی الضفّه الشرقیه لنهر دجله و قد بنیت مقابل الموصل (معجم قصص القرآن).

توقّف عن الدعوه و انهزم و حصلت له حادثه السفينه و الحوت.

و الـذى يثير العجب أكثر أنّ التوراه تقول:إنّ يونس تألّم و غضب كثيرا عند ما أزال اللّه سـبحانه و تعالى العذاب عن قومه بعد ما أعلنوا توبتهم (۱) .

و جاء فى أحـد فصول التوراه-أيضا-أنّ يونس بعث مرّتين،امتنع فى الاولى و ابتلى بذلك المصـير المؤلم،و فى المرّه الثانيه بعث أيضـا إلى المـدينه(نينوى) نفسـها،و كان أهلها قـد تيقّظوا من غفلتهم و آمنوا باللّه،و تابوا إليه و شـملهم العفو الإلهى،ذلك العفو الذى لم يفرح قلب يونس.

و بمقارنه ما جاء فى القرآن المجيـد و الروايات الإسـلاميه مع ما جاء فى كتاب التوراه الحالى يتّضـح إلى أى درجه تحطّ(التوراه المحرّفه)من شأن نبى اللّه يونس،فأحيانا ينسب إليه عدم قبوله حمل الرساله التى كلّف بها،و أحيانا غضـبه و سـخطه على قرار اللّه سبحانه و تعالى بشـمول قومه التائبين بالعفو و الرحمه.و هذا يدلّ على أنّ التوراه الحاليه كتاب لا يمكن الاعتماد عليه بأى شـكل من الأشكال.

على أيّه حال،فإنّ يونس من الأنبياء الكبار الذين ذكرهم القرآن بأحسن و أفضل الذكر.

۲-كيف بقى يونس حيّا فى بطن الحوت؟

قلنا:إنّه ليس هناك دليل واضـح يبيّن كم أمضـى يونس من الوقت فى بطن الحوت؟هل أنّها كانت عـدّه ساعات أم عـدّه أيّام أم عدّه أسابيع؟ فقد ورد فى بعض الروايات أنّه أمضـى(۹)ساعات فى بطن الحوت،فيما قالت روايات اخرى:إنّه أمضـى ثلاثه أيّام،و أكّدت اخرى أنّه أمضى أكثر،حتّى أنّ البعض قال:إنّه أمضى(۴۰)يوما فى بطن الحوت.

۱- ۱) -(التوراه)كتاب(النّبى يوناه)الفصل الأوّل و الثانى و الثالث و الرابع.

و لكن لا يوجد لدينا دليل ثابت على أى من هذه الأقوال.

و قد جاء فى تفسير على بن إبراهيم نقلا عن حديث لأمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام،أنّ يونس أمضى(٩)ساعات فى بطن الحوت (١) .

و قال بعض المفسّرين من أهل السّنّه:إنّ المدّه التى أمضاها يونس فى بطن الحوت كانت ساعه واحده فقط (٢) .

و كم كانت المدّه؟فإنّ مثل هذا الأمر-من دون أى شكّ-يعدّ أمرا غير عادى، حيث إنّ الإنسان لا يستطيع أن يبقى حيّا لعدّه دقائق فى محيط فارغ من الهواء، و إذا رأينا أنّ الجنين يعيش عدّه أشهر فى بطن أمّه حيّا،فإنّما ذلك بسبب عدم عمل أجهزته التنفسيّه و حصوله على الأوكسيجين اللازم عن طريق دم والدته.

و وفقا لهذا فإنّ ما جرى ليونس إنّما هو معجزه من دون أى شكّ،و هذه ليست المعجزه الأولى التى نصادفها فى القرآن المجيد،فالبارى عزّ و جلّ-الذى حفظ إبراهيم عليه السّلام فى وسط النار،و أنقذ موسى و بنى إسرائيل من الغرق بعد أن أوجد لهم طريقا يابسا وسط البحر،و خلّص نوحا من الطوفان العظيم بواسطه سفينه بسيطه ليهبط من بعد على الأرض اليابسه بسلام-قادر على حفظ عبد من عباده المخلصين مدّه من الزمن فى بطن الحوت.

و بالطبع فإنّ وجود مثل تلك الحيتان الكبيره فى الماضى و الحاضر لا يعدّ أمرا عجيبا،إذ يوجد حاليا نوع من أنواع الحيتان يطلق عليه اسم(بالن)طوله أكثر من (٣٠)مترا و يعدّ أكبر حيوان على وجه الأرض،و قلبه يزن طنّا واحدا.

فى هذه السوره طالعنا قصص الأنبياء السابقين الذين نجوا بإعجاز من قبضه البلاء،و يونس كان آخرهم فى هذه السلسله.

ص:٤٠٩

١- ١) -تفسير على بن إبراهيم،وفقا لما ورد فى نور الثقلين،المجلّد ۴،الصفحه ۴٣۶.

٢- ٢) -تفسير القرطبى،المجلّد ٨،الصفحه ۵۶٧.

۳-دروس و عبر كبيره فى قصص صغيره:

و كما نعرف،فإنّ استعراض القرآن لهذه القصص يهدف إلى تربيه الإنسان،لأنّ القرآن ليس كتاب قصص و إنّما هو كتاب هدفه بناء الإنسان و تربيته.

من هذه القصّه العجيبه يمكن استخلاص الكثير من المواعظ و العبر:

أ-ترك النّبى للعمل بالأولى يعدّ أمرا مهمّا عند اللّه،و يؤدّى إلى مجازاه ذلك النبى،لأنّ مرتبه الأنبياء عاليه جدّا،و أبسط غفله منهم تعادل ذنبا كبيرا يرتكبه عوام الناس،و لهذا السبب أطلق اللّه سبحانه و تعالى تسميه(الآبق)على عبده يونس فى هذه الآيه،و التى تعنى العبد الهارب.

و قد ورد فى بعض الروايات أنّ ركّاب السفينه كانوا يقولون:هناك شخص عاص بيننا! و عاقبه الأمر أنّ البارى عزّ و جلّ ابتلاه بسجن رهيب،ثمّ أنقذه منه بعد أن تاب و عاد إلى اللّه،و كان منهار القوى مريضا.

ذلك ليعرف الجميع أنّ التوانى غير مقبول من أى أحد،فعظمه مرتبه أنبياء و أولياء اللّه إنّما يحصلون عليها من طاعتهم الخالصه لأوامر اللّه سبحانه و تعالى، و إلاّ فاللّه لا تربطه صله قربى مع أى أحد،و إنّ الموقف الحازم الذى اتّخذه اللّه تجاه عبده يونس يوضّح عظمه مرتبه هذا النّبى الكبير.

ب-أحداث هذه القصّه(و خاصّه ما ورد فى الآيه(۸۷)من سوره الأنبياء) كشفت عن سبيل نجاه المؤمنين من الغمّ و الحزن و الابتلاءات و المشاكل،و هو نفس السبيل الذى انتهجه يونس،و هو اعترافه بخطئه أمام اللّه و تسبيحه اللّه و تنزيهه و العوده إليه.

ج-هذه القصّه توضّح كيف أنّ قوما مذنبين مستحقّين للعذاب يستطيعون فى آخر اللحظات تغيير مسيرتهم التأريخيه،بعودتهم إلى أحضان الرحمه الإلهيّه، و إنقاذ أنفسهم من العذاب،و هو هذا مشروط بالصحوه من غفلتهم قبل فوات الأوان،

ص:۴۱۰

و انتخاب شخص«عالم»قائدا لهم.

د-هـذه الحادثه تبيّن أنّ الإيمان باللّه و التوبه من الـذنوب علاوه على أنّها تتسـبّب فى نزول الآثار و البركات المعنويه،فهى توجد النعم و الهبـات الـدنيويه و تجعلهـا فى إختيار الإنسان،و توجـد حاله من العمران و البناء،و تطيل الأعمار، و نظير هـذا المعنى ورد أيضا فى قصّه نوح عليه السّلام و الذى سنقرأ شرحه بعون اللّه فى تفسير سوره نوح.

ه-أخيرا فإنّ مجريات هذه القصّه تسـتعرض قدره البارى عزّ و جلّ العظيمه التى لا يقف أمامها شـىء و لا يصعب عليها شيء،إلى درجه تسـتطيع حفـظ حيـاه إنسـان فى فم و جوف حيوان كبير وحشـى،و إخراجه سالمـا من هناك،هـذا الأمر يبيّن أنّ كلّ ما هو موجود فى هذا الكون هو أداه بيده تعالى و مسخّر لأوامره.

۴-الجواب على سؤال:

هنا يطرح هذا السؤال:عند بيان قصـص الأقوام الاخرى فى القرآن المجيد، نلاحظ أنّه عند نزول العذاب عليهم(عذاب الاستئصال الـذى كـان ينـال كـلّ الأـقوام الطاغيه و المتجبّره)لا تكون التوبه مقبوله و الإنابه مؤثّره،فكيف اسـتثنى قوم يونس من هـذا الأمر؟ هناك إجابتان على هذا السؤال:

الأولى:هى أنّ العذاب لم يكن قد نزل بهم،لأنّهم بمجرّد أن شاهدوا دلائل بسيطه تنذر بالعذاب،استغلّوا هذه الفرصه و آمنوا باللّه و تابوا إليه قبل حلول البلاء.

الثانيه:أنّ عـذابهم لم يكن لإهلاكهم،و إنّما كان بمثابه تنبيه و تأديب لهم قبل نزول العـذاب المهلك،و هو الأسـلوب الـذى كان يتّبـع مع الأـقوام السـابقه،أى تظهر لهم بعض دلائـل العـذاب كـآخر فرصه لهم،فـإن آمنوا كفّ اللّه عنهم العـذاب،و إن بقوا على طغيانهم أنزل اللّه العذاب عليهم ليهلكهم عن آخرهم،كما عذّب قوم فرعون بمختلف أنواع العذاب قبل أن يغرقهم اللّه فى البحر.

ص: ۴۱۱

۵-القرعه و مشروعیتها فی الإسلام:

وردت أحادیث متعدّده بشأن القرعه و مشروعیتها فی الإسلام،

فعن الإمام الصادق علیه السّلام «أی قضیّه أعدل من القرعه إذا فوّض الأمر إلی اللّه،ألیس اللّه عزّ و جلّ یقول: فَسٰاهَمَ فَکٰانَ مِنَ الْمُدْحَضِینَ (۱) .

و هذا إشاره إلی أنّ القرعه هی طریق الحلّ الصحیح فی حاله استعصاء أمر ما و عدم وجود طریق آخر لحلّه،و تفویض الأمر للّه کما جاء فی قصّه یونس حیث انطبقت تماما مع الواقع.

و هذا المعنی ورد بصراحه

فی حدیث لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،قال فیه: «لیس من قوم تنازعوا(تقارعوا)ثمّ فوّضوا أمرهم إلی اللّه إلاّ خرج لهم المحقّ» (۲) .

و من یرید الاطلاع أکثر علی هذه المسأله فلیراجع کتاب القواعد الفقهیّه (للمؤلّف).

***

۱- ۱) -تفسیر البرهان،المجلّد ۴،الصفحه ۳۷ الحدیث ۶.

۲- ۲) -(الوسائل)کتاب القضاء،المجلّد ۱۸،باب الحکم بالقرعه فی القضایا المشکله فی أبواب کیفیه الحکم و أحکام الدعوی(الباب ۱۳)الحدیث(۵).

الآیات [سوره الصافات (٣٧): الآیات ١۴٩ الی ١۶٠]

اشاره

فَاسْتَفْتِهِمْ أَ لِرَبِّکَ اَلْبَنٰاتُ وَ لَهُمُ اَلْبَنُونَ (١۴٩) أَمْ خَلَقْنَا اَلْمَلاٰئِکَهَ إِنٰاثاً وَ هُمْ شٰاهِدُونَ (١۵٠) أَلاٰ إِنَّهُمْ مِنْ إِفْکِهِمْ لَیَقُولُونَ (١۵١) وَلَدَ اَللّٰهُ وَ إِنَّهُمْ لَکٰاذِبُونَ (١۵٢) أَصْطَفَی اَلْبَنٰاتِ عَلَی اَلْبَنِینَ (١۵٣) مٰا لَکُمْ کَیْفَ تَحْکُمُونَ (١۵۴) أَ فَلاٰ تَذَکَّرُونَ (١۵۵) أَمْ لَکُمْ سُلْطٰانٌ مُبِینٌ (١۵۶) فَأْتُوا بِکِتٰابِکُمْ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ (١۵٧) وَ جَعَلُوا بَیْنَهُ وَ بَیْنَ اَلْجِنَّهِ نَسَباً وَ لَقَدْ عَلِمَتِ اَلْجِنَّهُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١۵٨) سُبْحٰانَ اَللّٰهِ عَمّٰا یَصِفُونَ (١۵٩) إِلاّٰ عِبٰادَ اَللّٰهِ اَلْمُخْلَصِینَ (١۶٠)

التّفسیر

اشاره

التهم القبیحه:

بعد استعراض ستّ قصص من قصص الأنبیاء السابقین،و استخلاص الدروس التربویه منها،یغیّر القرآن موضوع الحدیث،و یتناول موضوعا آخر یرتبط بمشرکی مکّه آنذاک،و یستعرض لنا أنماطا مختلفه من شرکهم و یحاکمهم بشدّه، ثمّ یدحض بالأدلّه القاطعه أفکارهم الخرافیه.

و القضیّه هی أنّ مجموعه من المشرکین العرب و بسبب جهلهم و سطحیّه تفکیرهم کانوا یقیسون اللّه عزّ و جلّ بأنفسهم،و یقولون:إنّ للّه عزّ و جلّ أولادا، و أحیانا یقولون:إنّ له زوجه.

قبائل(جهینه)و(سلیم)و(خزاعه)و(بنی ملیح)کانوا یعتقدون أنّ الملائکه هی بنات اللّه عزّ و جلّ،و مجموعه اخری من المشرکین کانت تعتقد أنّ(الجنّ)هم أولاد اللّه عزّ و جلّ،فیما قال البعض الآخر:إنّ(الجنّ)هم زوجات اللّه عزّ و جلّ.

الأوهام الخرافیه هذه،کانت السبب الرئیسی لانحرافهم عن طریق الحقّ بصوره زالت معها کلّ آثار التوحید و الإعتقاد بوحدانیه اللّه سبحانه و تعالی من قلوبهم.

و قد ورد فی أحد الأحادیث أنّ النمل یتصوّر أنّ لخالقه قرنین إثنین مثلما هی تمتلک.

نعم،العقل الناقص للإنسان یدفعه إلی المقارنه،المقارنه بین الخالق و المخلوق، و هذه المقارنه من أسوأ الأسباب التی تؤدّی بالإنسان إلی الضلال عن معرفه اللّه.

علی أیّه حال،فالقرآن الکریم یردّ علی الذین یتصوّرون أنّ الملائکه هی بنات اللّه بثلاث طرق،أحدها تجریبی،و الآخر عقلی،و الثالث نقلی،و فی البدایه یقول، اسألهم هل أنّ اللّه تعالی خصّ نفسه بالبنات،و خصّهم بالبنین، فَاسْتَفْتِهِمْ أَ لِرَبِّکَ الْبَناتُ وَ لَهُمُ الْبَنُونَ .

و کیف تنسبون ما لا تقبلون به لأنفسکم إلی اللّه،حیث أنّهم طبق عقائدهم الباطله کانوا یکرهون البنات بشدّه و یحبّون الأولاد کثیرا،فالأولاد کان لهم دورا مؤثّرا خلال الحرب و الإغاره علی بقیّه القبائل،فی حین أنّ البنات عاجزات عن تقدیم مثل هذه المساعده.

و من دون أی شکّ فإنّ الولد و البنت من حیث وجهه النظر الإنسانیه،و من حیث التقییم عند اللّه سبحانه و تعالی متساوون،و میزان شخصیتهم هو التقوی

ص :۴۱۴

و الطهاره،و استدلال القرآن هنا إنّما يأتی من باب(ذكر مسلّمات الخصم)و من ثمّ ردّها عليه.و شبيه هذا المعنى ورد فی سور اخرى من سور القرآن،و منها ما جاء فی الآيه(۲۱ و ۲۲)من سوره النجم أَ لَكُمُ الذَّكَرُ وَ لَهُ الْأُنْثى. تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى !.

ثمّ ينتقل الحديث إلى عرض دليل حسّي على المسأله هذه،و بشكل استفهام استنكاری،قال تعالى: أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَ هُمْ شاهِدُونَ .

و من دون أی شكّ فإنّ جوابهم فی هذا المجال سلبی،إذ لم يستطع أحدا منهم الادّعاء بأنّه كان موجودا أثناء خلق الملائكه.

مرّه اخرى يطرح القرآن الدليل العقلی المقتبس من مسلّماتهم الذهنيه و يقول:

أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ. وَلَدَ اللّهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ. أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ

.

هل تدركون ما تقولون و كيف تحكمون: ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟ ألم يحن الوقت الذی تتركون فيه هذه الخرافات و الأوهام القبيحه و التافهه؟ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ ؟ إذن أنّ هذا الكلام باطل من الأساس بحيث لو أنّ أی إنسان له ذرّه من عقل و درايه،و يتفكّر فی الأمر جيّدا،لأدرک بطلان هذه المزاعم.

بعد إثبات بطلان ادّعاءاتهم الخرافيه بدليل تجريبی و آخر عقلی،ننتقل إلى الدليل الثالث و هو الدليل النقلی،حيث يقول القرآن الكريم مخاطبا إيّاهم:لو كان ما تزعمونه صحيحا لذكرته الكتب السابقه،فهل يوجد لديكم دليل واضح عليه، أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ .

و إذا كنتم صادقين فی قولكم فأتوا بذلك الكتاب فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ .

هذا الادّعاء فی أی كتاب موجود؟و فی أی وحی مذكور؟و على أی رسول نزل؟

هذا القول يشبه بقيّه الأقوال التي يخاطب بها القرآن عبده الأصنام وَ جَعَلُوا الْمَلاٰئِكَهَ الَّذِينَ هُمْ عِبٰادُ الرَّحْمٰنِ إِنٰاثاً أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهٰادَتُهُمْ وَ يُسْئَلُونَ وَ قٰالُوا لَوْ شٰاءَ الرَّحْمٰنُ مٰا عَبَدْنٰاهُمْ مٰا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاّٰ يَخْرُصُونَ. أَمْ آتَيْنٰاهُمْ كِتٰاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ .

كلاّ،إنّها لم ترد في الكتب السماويه،بل انّها خرافات انتقلت من جيل إلى جيل و من جهله إلى آخرين،و إنّها دعاوى مرفوضه و لا أساس لها،كما أشير إليها في نهايه الآيات المذكوره أعلاه أَمْ آتَيْنٰاهُمْ كِتٰاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ .

الآيه اللاحقه تطرّقت إلى خرافه اخرى من خرافات مشركي العرب،و الّتي تزعم بوجود نسبه بين اللّه عزّ و جلّ و الجنّ،فالآيه هنا لا تخاطبهم بصوره مباشره و إنّما تخاطبهم بضمير الغائب،لأنّهم أناس تافهون،و لا تتوفّر فيهم الكفاءه و اللياقه للردّ على زعمهم وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّهِ نَسَباً .

فما هي النسبه الموجوده بين اللّه و الجنّ؟ وردت عدّه تفاسير مختلفه لهذا السؤال،منها:

قال البعض:إنّهم كانوا ثنويين،و يعتقدون(نعوذ باللّه)أنّ اللّه و الشيطان إخوه، اللّه خالق المحبّه،و الشيطان خالق الشرور.

و هذا التّفسير مستبعد،لأنّ المذهب الثنوي لم يكن معروفا عند العرب،بل كان منتشرا في إيران خلال عهد الساسانيين.

و اعتبر البعض الآخر الجنّ هم نفس الملائكه،لأنّ الجنّ موجودات لا تدركها الأبصار،و الملائكه كذلك،و لذلك أطلقوا كلمه«الجنّ»عليها.إذا،فالمراد من النسبه هي النسبه التي كان يدّعيها عرب الجاهليه من أنّ الملائكه بنات اللّه.

و يرد على هذا التّفسير أنّ ظاهر آيات بحثنا انّها تبحث في موضوعين،إضافه إلى أنّ إطلاق كلمه(الجنّ)على الملائكه غير وارد و خاصّه في القرآن الكريم.

و هناك تفسير ثالث يقول:إنّهم كانوا يعتبرون(الجنّ)زوجات اللّه،فيما

یعتبرون الملائکه بناته.

و هذا التّفسیر مستبعد أیضا،لأنّ إطلاق کلمه«نسب»علی الزوجه غیر وارد.

و التّفسیر الذی یعدّ أنسب من الجمیع،هو أنّ المراد من کلمه(نسب)کلّ أشکال الرابطه و العلاقه،حتّی و لو لم یکن هناک أی صله للقرابه فیها،و کما نعلم فإنّ مجموعه من المشرکین العرب کانوا یعبدون الجنّ و یزعمون أنّها شرکاء للّه،و لهذا کانوا یقولون بوجود علاقه بینها و بین اللّه.

علی أیّه حال،فالقرآن المجید ینفی هذه المعتقدات الخرافیه بشدّه،و یقول:إنّ الجنّ الذین کان المشرکون یعبدونها و یقولون بوجود نسبه بینها و بین اللّه،یعلمون جیّدا أنّ المشرکین سیحضرون فی محکمه العدل الإلهی و سیحاسبون و یجزون وَ لَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّهُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ .

و البعض الآخر احتمل أن یکون تفسیر الآیه بالشکل التالی:إنّ الجنّ الذین یغوون الناس یعلمون أنّهم یوم القیامه سیحضرون فی محکمه العدل الإلهی لیحاسبوا و ینالوا جزاءهم.

و لکن التّفسیر الأوّل یعدّ أنسب (۱) .

و نزّه اللّه تعالی نفسه عمّا قاله أولئک الضالّون فی صفاته تعالی،قائلا: سُبْحانَ اللّهِ عَمّا یَصِفُونَ . و استثنی وصف عباده المخلصین(الذین وصفوه عن علم و معرفه و درایه)حیث وصفوه بما یلیق بذاته المقدّسه،قال تعالی: إِلاّ عِبادَ اللّهِ الْمُخْلَصِینَ .

و بهذا الشکل فإنّ من النادر أن نسمع أناسا عادیین یصفون اللّه سبحانه و تعالی وصفا لائقا،کما یصفه عباده المخلصون،العباد الخالصون من کلّ أشکال الشرک و هوی النفس و الجهل و الضلال،و الذین لا یصفون الباری عزّ و جلّ إلاّ بما سمح

۱- ۱) -الضمیر(هم)یعود فی الحاله الاولی علی المشرکین،و فی الحاله الثانیه علی(الجنّ).

لهم به (۱) .

و حول عباره عِبَادَ اللّهِ الْمُخْلَصِينَ فقد كان لنا بحث فى نهايه الآيه(۱۲۸)من هذه السوره.

نعم،فلمعرفه اللّه لا ينبغى اتّباع الخرافات الوارده عن أقوام الجاهليه التى يخجل الإنسان من ذكرها،بل يجب اتّباع العباد المخلصين الذين يتحدّثون بأحاديث تجعل روح الإنسان محلّقه فى عنان السماء،و تذيبها فى أنوار الوحدانيه،و تطهّر القلب من كلّ شائبه شرك،و تمحو كلّ تجسيم و تشبيه للّه من ذهن الإنسان.

ينبغى لنا مراجعه كلمات الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و خطب أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام،و أدعيه الإمام زين العابدين عليه السّلام فى صحيفته،كى نستنير بضياء وصفهم له جلّ و علا.

فأمير المؤمنين عليه السّلام،يقول فى إحدى كلماته: «لم يطلع العقول على تحديد صفته،و لم يحجبها عن واجب معرفته،فهو الذى تشهد له أعلام الوجود،على إقرار قلب ذى الجحود،تعالى اللّه عمّا يقوله المشبهون و الجاحدون له علوّا كبيرا» (۲) .

و فى مكان آخر يصف اللّه عزّ و جلّ بالقول:

«لا تناله الأوهام فتقدّره،و لا تتوهّمه الفطن فتصوّره،و لا تدركه الحواس فتحسّه،و لا تلمسه الأيدى فتمسّه، و لا يتغيّر بحال،و لا يتبدّل فى الأحوال،و لا تبليه الليالى و الأيّام،و لا يغيّره الضياء و الظلام،و لا يوصف بشىء من الأجزاء،و لا بالجوارح و الأعضاء،و لا بعرض من الأعراض،و لا بالغيريه و الأبعاض،و لا يقال له حدّ و لا نهايه،و لا انقطاع

---

۱ – ۱) -وفقا لهذا التّفسير،فإنّ عباره(إلاّ عباد اللّه)استثناء منقطع من ضمير(يصفون)،و البعض قال:إنّه استثناء منقطع من ضمير(محضرون)كما ذكروا آراء مختلفه اخرى،و لكن الرأى الأوّل أنسب.و على كلّ حال فهو استثناء منقطع.

۲– ۲) -نهج البلاغه،الخطبه ۴۹.

و لا غايه» (۱) .

و فی مکان ثالث یقول:

«و من قال فیم؟فقـد ضـمنه،و من قال علام؟فقد أخلی منه،کائن لا عن حدث،موجود لا عن عدم،مع کلّ شـیء لا بمقارنه، و غیر کلّ شیء لا بمزایله» (۲) .

أمّا

الإمام علی بن الحسین زین العابدین علیه السّلام،فقد قال فی صحیفته السجّادیه:

«الحمد للّه الأوّل بلا أوّل کان قبله،و الآخر بلا آخر یکون بعده،الذی قصرت عن رؤیته أبصار الناظرین و عجزت عن نعته أوهام الواصفین» (۳) .

نعم،فلمعرفه اللّه جیّدا علینا مراجعه نهج هؤلاء(عباد اللّه المخلصین)و دراسه علوم معرفه اللّه فی مدارسهم.

***

۱- ۱) -نهج البلاغه،الخطبه ۱۸۶.

۲- ۲) -نهج البلاغه،الخطبه ۱.

۳- ۳) -الدعاء الأوّل فی الصحیفه السجّادیه.

الآيات [سوره الصافات (٣٧): الآيات ١۶١ الی ١٧٠]

اشاره

فَإِنَّكُمْ وَ مٰا تَعْبُدُونَ (١۶١) مٰا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفٰاتِنِينَ (١۶٢) إِلاّٰ مَنْ هُوَ صٰالِ اَلْجَحِيمِ (١۶٣) وَ مٰا مِنّٰا إِلاّٰ لَهُ مَقٰامٌ مَعْلُومٌ (١۶۴) وَ إِنّٰا لَنَحْنُ اَلصّٰافُّونَ (١۶۵) وَ إِنّٰا لَنَحْنُ اَلْمُسَبِّحُونَ (١۶۶) وَ إِنْ كٰانُوا لَيَقُولُونَ (١۶٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنٰا ذِكْراً مِنَ اَلْأَوَّلِينَ (١۶٨) لَكُنّٰا عِبٰادَ اَللّٰهِ اَلْمُخْلَصِينَ (١۶٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠)

التّفسير

اشاره

الادّعاءات الكاذبه:

الآيات السابقه تحدّثت عن الآلهه المختلفه التی كان المشركون يعبدونها،أمّا الآيات-التی هی مورد بحثنا الآن-فتتابع ذلك الموضوع،حيث توضّح فی كلّ بضع آيات موضوعا يتعلّق بهذا الأمر.

بدايه البحث تؤكّد الآيات على أنّ وساوس عبده الأصنام لا تؤثّر على الطاهرين و المحسنين،و إنّما-قلوبكم المريضه و أرواحكم الخبيثه هی التی تستسلم لتلك الوساوس،قال تعالى: فَإِنَّكُمْ وَ مٰا تَعْبُدُونَ .

نعم،أنتم و ما تعبدون لا تستطيعون خداع أحد بوسائل الفتنه و الفساد عن

الطریق المؤدّی إلی اللّه مٰا أَنْتُمْ عَلَیْهِ بِفٰاتِنِینَ (۱) إلاّ أولئک الذین یریدون أن یحترقوا فی نار جهنّم إِلاّ مَنْ هُوَ صٰالِ الْجَحِیمِ .

هـذه الآیات-خلافا لما یتصوّره أتباع مـذهب الجبر-دلیل ضـدّ هـذا المـذهب، و هی إشاره إلی أنّه لا یعذر أی أحد انحرف عن الطریـق المسـتقیم،مـدّعیا أنّه قـد خـدع،و انحرافه و عبـادته للأوثـان بسـبب هـذه الوسـاوس،و لـذا تقول الآیـات المبـارکه،أنتم-المشرکون-لا قدره لدیکم علی إضلال الأشخاص و خداعهم،إلاّ إذا کان أولئک یتّجهون بإرادتهم نحو صراط الجحیم.

و عباره صٰالِ الْجَحِیمِ شاهد علی الکلام المذکور أعلاه،لأنّ کلمه(صالی) جاءت بصیغه اسم الفاعل،و عند ما تستخدم أی کلمه بصیغه اسم الفاعل بشأن موجود عاقل فإنّها تعطی مفهوم تنفیذ العمل بإرادته و إختیاره،مثل(قاتل)و (جالس)و(ضارب)،إذن فإنّ صٰالِ الْجَحِیمِ تعنی رغبه الشخص فی الاحتراق بنار جهنّم،و بهذا تغلق کافّه طرق الأعذار أمام کلّ المنحرفین.

و الذی یثیر العجب أنّ بعض المفسّرین المعروفین فسّروا الآیه بالمعنی التالی:

(إنّکم لا تستطیعون خداع أحد،إن لم یکن مقدّرا له الاحتراق بنار جهنّم).

إن کـان حقّا هـذا هو معنی الآیه،فلم یبعث الأنبیاء؟و لأی سـبب تنزل الکتب السـماویه؟و ما معنی محاسـبه و لوم و توبیـخ عبـده الأوثـان یوم القیامه التی نصّت علیها الآیات القرآنیه؟و أین ذهب عـدل الباری عزّ و جلّ؟ نعم،یجب قبول هـذه الحقیقه،و هی انّ الإقرار بمبدإ الجبر ضدّ مبدأ الأنبیاء

---

۱ - ۱) -الترکیب النحوی لهـذه الآیه و التی تسبقها و الاخری التی تـأتی بعـدها،و کمـا هو مشـهور کـذلک،(مـا)فی جمله (ما تعبدون)هی(ما)الموصوله معطوفه علی اسم أنّ،و جمله مٰا أَنْتُمْ عَلَیْهِ بِفٰاتِنِینَ خبرها.و(ما)فی(ما أنتم) نافیه،و ضمیر(علیه)یعود علی اللّه سـبحانه و تعـالی،و فی مجموعهـا نحصل علی ما یلی(إنّکم و آلهتکم التی تعبـدونها لا تقـدرون علی إضـلال أحـد علی اللّه بسببها إلاّ من یحترق بنار الجحیم بسوء إختیاره). و البعض الآخر اعتبر الآیه فَإِنَّکُمْ وَ مٰا تَعْبُدُونَ کلاما تامّا مستقلا و تعنی أنّکم و آلهتکم،ثمّ تقول فی الآیه التالیه:ما أنتم بحاملین علی عباده ما تعبدونه إلاّ من هو صالّ الجحیم.

تماما،و يمسخ كلّ المفاهيم التى بعثوا من أجل ترسيخها،و يقضى على كلّ القيم الإلهيه و الإنسانيه.

و من الضرورى الالتفات إلى هذه النقطه و هى أنّ(صالى)مشتقّه من(صلى) و تعنى إشعال النار و الدخول فيها أو الاحتراق بها و(فاتن)اسم فاعل مشتقّه من (فتنه)و تعنى الذى يثير الفتن و الذى يضلّ الآخرين.

بعد انتهاء بحثنا حول الآيات الثلاث السابقه التى وضّحت مسأله إختيار الإنسان فى مقابل فتن و إغراءات عبده الأصنام،نواصل بحثنا حول الآيات الثلاث التاليه و التى تتناول المرتبه العاليه لملائكه اللّه،و تقول مخاطبه عبده الأصنام:إنّ الملائكه التى كنتم تزعمون أنّها بنات اللّه لها مقام معيّن،و الجميل فى هذه العباره أنّ الملائكه هى التى تتحدّث عن نفسها وَ مٰا مِنّٰا إِلاّٰ لَهُ مَقٰامٌ مَعْلُومٌ [(1)](#) .

و تضيف ملائكه الرحمن:و إنّنا جميعا مصطفون عند اللّه فى انتظار أوامره، وَ إِنّٰا لَنَحْنُ الصّٰافُّونَ .

و إنّنا جميعا نسبّحه،و ننزّه عمّا لا يليق بساحه كبريائه وَ إِنّٰا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ .

نعم،نحن عباد اللّه،و قد وضعنا أرواحنا على الأكف بانتظار سماع أوامره،إنّنا لسنا أبناء اللّه،إنّنا ننزّه البارى عزّ و جلّ من تلك المزاعم الكاذبه و القبيحه و إنّنا منزعجين و مشمئزّين من خرافات و أوهام المشركين.

فى الحقيقه،إنّ الآيات المذكوره أعلاه أشارت إلى ثلاث صفات من صفات الملائكه.

الاولى:هى أنّ لكلّ واحد منهم مقام معيّن و مشخّص ليس له أن يتعدّاه.

ص:۴۲۲

۱- ۱) -نقرأ فى بعض الرّوايات التى نقلت عن أهل البيت عليهم السّلام أنّ الأئمّه المعصومين هم المقصودون فى هذه الآيه،و من الممكن أن يكون هذا التّفسير من قبيل تشبيه مقام الأئمّه بالملائكه،أى كما أنّ للملائكه مقاما و تكليفا معيّنا،فإنّ لنا مقاما و تكليفا معيّنا أيضا.

و الثانيه:هی أنّهم مستعدّون دائما لإطاعه أوامر اللّه سبحانه و تعالی و تنفیذها فی عالم الوجود،و هذا الشیء مشابه لما ورد فی الآیتین(۲۶)و(۲۷)من سوره الأنبیاء بَلْ عِبٰادٌ مُکْرَمُونَ لاٰ یَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ یَعْمَلُونَ .

و الثالثه:أنّهم یسبّحون اللّه دائما و ینزّهونه عمّا لا یلیق بساحه کبریائه.

الآیتان إِنّٰا لَنَحْنُ الصّٰافُّونَ وَ إِنّٰا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ تعطیان مفهوم الحصر فی الأدب العربی،و بعض المفسّرین قالوا فی تفسیر هاتین الآیتین:إنّ الملائکه ترید أن تقول:نحن فقط المطیعون لأوامر اللّه و المسبّحون الحقیقیون له،و هذه إشاره إلی أنّ طاعه الإنسان للّه تعالی و تسبیحه یعدّ لا شیء بالنسبه لطاعه و تسبیح الملائکه للّه،و لا یمکن المقارنه بینهما.

و الذی یلفت الانتباه أنّ مجموعه من المفسّرین نقلوا فی نهایه هذه الآیات

حدیثا عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، قال فیه: «ما فی السموات موضع شبر إلاّ و علیه ملک یصلّی و یسبّح» (۱) .

و

جاء فی روایه اخری: «ما فی السماء موضع قدم إلاّ علیه ملک ساجد أو قائم» (۲) .

و

فی روایه ثالثه ورد أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان جالسا مع مجموعه من أصحابه، فقال لهم:«أطت السماء و حقّ لها أن تأط!لیس فیها موضع قدم إلاّ علیه ملک راکع أو ساجد،ثمّ قرأ: وَ إِنّٰا لَنَحْنُ الصّٰافُّونَ وَ إِنّٰا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ » (۳) .

العبارات المختلفه کنایه لطیفه عن أنّ عالم الوجود مکتظّ بالمطیعین لأوامر اللّه و المسبّحین له.

الآیات الأربع الأخیره من هذا البحث تشیر إلی أحد الأعذار الواهیه التی

۱- ۱) -تفسیر القرطبی،المجلّد ۸،الصفحه ۵۸۱.

۲- ۲) -المصدر السابق.

۳- ۳) -(الدرّ المنثور)نقلا عن تفسیر المیزان المجلّد(۱۷)الصفحه ۱۸۸.

تذرّع بها المشركون فيما يخصّ هذه القضيّه و عبادتهم للأصنام،و تجيب عليهم قائله: وَ إِنْ كٰانُوا لَيَقُولُونَ (۱) .

لَوْ أَنَّ عِنْدَنٰا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ

لَكُنّٰا عِبٰادَ اللّٰهِ الْمُخْلَصِينَ

.

يقول المشركون:لا تتحدّثوا كثيرا عن عباد اللّه المخلصين الذين أخلصهم اللّه لنفسه،و عن الأنبياء العظام أمثال نوح و إبراهيم و موسى،لأنّه لو كان اللّه قد شملنا بلطفه و أنزل علينا أحد كتبه السماويه لكنّا فى زمره عباده المخلصين.

و هذا مشابه لما يقوله الطلاب الكسالى الراسبون فى دروسهم،من أجل التغطيه على كسلهم و عدم مثابرتهم،لو كان لدينا معلّم و أستاذ جيّد لكنّا من الطلبه الأوائل.

الآيه التاليه تقول:لقد تحقّق ما كانوا يأملونه،إذ أنزل عليهم القرآن المجيد الذى هو أكبر و أعظم الكتب السماويه،إلّا أنّ هؤلاء الكاذبين فى ادّعاءاتهم كفروا به،و لم يفوا بما قالوا،و اتّخذوا موقفا معاديا إزاءه،فسيعلمون و بال كفرهم فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۲) .

كفاكم كذبا و ادّعاء،و لا تعتقدوا أنّكم أكفّاء للانضمام إلى صفوف عباد اللّه المخلصين،فكذبكم واضح،و ادّعاءاتكم غير صادقه،فليس هناك كتاب خير من القرآن المجيد،و لا يوجد هناك نهج تربوى خير من نهج الإسلام،فكيف كان موقفكم من هذا الكتاب السماوى؟فانتظروا العواقب الأليمه لكفركم و عدم إيمانكم.

***

۱- ۱) -(إنّ)مخفّفه من الثقيله و تقديرها(و إنّهم كانوا ليقولون).

۲- ۲) -فى الكلام حذف تقديره(فلمّا آتاهم الكتاب و هو القرآن كفروا به فسوف يعلمون عاقبه كفرهم).

الآيات [سوره الصافات (۳۷): الآيات ۱۷۱ الی ۱۷۷]

اشاره

وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا اَلْمُرْسَلِينَ (۱۷۱) إِنَّهُمْ لَهُمُ اَلْمَنْصُورُونَ (۱۷۲) وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ اَلْغالِبُونَ (۱۷۳) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتّی حِینٍ (۱۷۴) وَ أَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ یُبْصِرُونَ (۱۷۵) أَ فَبِعَذابِنا یَسْتَعْجِلُونَ (۱۷۶) فَإِذا نَزَلَ بِساحَتِهِمْ فَساءَ صَباحُ اَلْمُنْذَرِینَ (۱۷۷)

التّفسير

اشاره

حزب اللّه هو المنتصر:

اشاره

لا-زلنا نتابع البحث فی آیات هذه السوره المبارکه،و التی شارفت علی الانتهاء،بعد أن استعرضنا فی الأبحاث السابقه جهاد الأنبیاء العظام و المصاعب و العراقیل التی أثارها و أوجدها المشرکون.

ففی آیات بحثنا الحالی سنتطرّق لأهمّ القضایا الوارده فی هذه السوره،و التی تصوّر الخاتمه بأفضل صوره،إذ زفّت البشری للمؤمنین بانتصار جیش الحقّ علی جیش الشیطان،الوعد الإلهی الکبیر هذا إنّما جاء لبعث الأمل فی صفوف المؤمنین فی صدر الإسلام الذین کانوا لحظه نزول هذه الآیات یرزحون تحت ضغوط أعداء الإسلام فی مکّه،و لکلّ المؤمنین و المحرومین فی کلّ زمان و مکان،

و لکی یکون حافزا لهم یدفعهم علی نفض غبار الیأس عنهم،و الاستعداد لجهاد و مقاومه جیوش الباطل وَ لَقَدْ سَبَقَتْ کَلِمَتُنٰا لِعِبٰادِنَا الْمُرْسَلِینَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ .

وَ إِنَّ جُنْدَنٰا لَهُمُ الْغٰالِبُونَ

،إنّها لعباره واضحه و صریحه،و إنّه لوعد یقوّی الروح و یبعث علی الأمل.

نعم،فانتصار جیوش الحقّ علی الباطل،و غلبه جند اللّه،و تقدیم اللّه سبحانه و تعالی العون لعباده المرسلین و المخلصین،هی وعود مسلّم بها و سنن قطعیّه، و ذلک ما أکّدته الآیه المذکوره أعلاه بعنوان سَبَقَتْ کَلِمَتُنٰا أی إنّ هذا الوعد و هذه السنّه کانت موجوده منذ البدایه.

نظائر کثیره لهذا الموضوع وردت فی آیات عدیده اخری من آیات القرآن المجید،إذ جاء فی الآیه (۴۷)من سوره الروم وَ کٰانَ حَقًّا عَلَیْنٰا نَصْرُ الْمُؤْمِنِینَ .

و فی الآیه(۴۰)من سوره الحجّ وَ لَیَنْصُرَنَّ اللّٰهُ مَنْ یَنْصُرُهُ .

و فی الآیه(۵۱)من سوره غافر إِنّٰا لَنَنْصُرُ رُسُلَنٰا وَ الَّذِینَ آمَنُوا فِی الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا وَ یَوْمَ یَقُومُ الْأَشْهٰادُ .

و أخیرا فی الآیه(۲۱)من سوره المجادله کَتَبَ اللّٰهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِی .

و بدیهی أنّ اللّه قادر علی کلّ شیء،و لیس بمخلف للوعود،و لم یکن یوما ما لیخلف وعده،و قادر علی أن یفی بهذا الوعد الکبیر،کما أنزل فی السابق نصره علی المؤمنین به.

الوعد الإلهی من أهمّ الأمور التی ینتظرها السائرون فی طریق الحقّ باشتیاق، حیث یستمدّون منه القوی الروحیه و المعنویه،و یسترفدون منه نشاطا جدیدا کلّما أحسّوا بالکلل،فتسری دماء جدیده فی شرایینهم.

***

سؤال مهمّ:

و هنا يطرح السؤال التالى،و هو:إن كانت مشيئه البارى عزّ و جلّ و إرادته تقضـى بتقديم يد العون للأنبياء و نصـره المؤمنين،فلم نشاهد استشـهاد الأنبياء على طول تأريخ الحوادث البشـريه،و انهزام المؤمنين فى بعض الأحيان؟فإن كانت هذه سنّه إلهيّه لا تقبل الخطأ،فلم هذه الاستثناءات؟ و نجيب على هذا السؤال بالقول:

أوّلا:إنّ الإنتصار له معان واسعه،و لا يعطى فى كلّ الأحيان معنى الإنتصار الظاهرى و الجسـمانى على العـدو،فأحيانا يعنى انتصار المبدأ،و هذا هو أهمّ انتصار،فلو فرضـنا أنّ رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان قد استشهد فى إحدى الغزوات، و شريعته عمّت العالم كلّه،فهل يمكن أن نعبّر عن هذه الشهاده بالهزيمه.

و هناك مثال أوضح و هو الحسـين عليه السّـلام و أصـحابه الكرام حيث استشهدوا على أرض كربلاء،و كان هدفهم العمل على فضح بنى اميّه،الذين ادّعوا أنّهم خلفاء الرّسول،و كانوا فى حقيقه الأمر يعملون و يسـعون إلى إعاده المجتمع الإسلامى إلى عصر الجاهليه،و قـد تحقّق هـذا الهـدف الكبير،و أدّى استشـهادهم إلى توعيه المسـلمين إزاء خطر بنى اميّه و إنقـاذ الإسـلام من خطر السـقوط و الضـياع،فهـل يمكن هنا القول بأنّ الحسـين عليه السّـلام و أصـحابه الكرام خسـروا المعركه فى كربلاء؟ المهمّ هنا أنّ الأنبياء و جنود اللّه-أى المؤمنون-تمكّنوا من نشـر أهـدافهم فى الدنيا و اتّبعهم أناس كثيرون،و ما زالوا يواصـلون نشـر مبادئهم و أفكارهم رغم الجهود المستمرّه و المنسّقه لأعداء الحقّ ضدّهم.

و هناك نوع آخر من الإنتصار،و هو الإنتصار المرحلى على العـدو،و الـذى قـد يتحقّق بعـد قرون من بـدء الصـراع،فأحيانا يدخل جيـل معركه ما و لا يحقّق فيها أى انتصار،فتأتى الأجيال من بعـده و تواصل القتال فتنتصـر،كالانتصار الـذى حقّقه المسـلمون فى النهايه على الصليبيين فى المعارك التى دامت قرابه القرنين،و هذا

النصر يحسب لجميع المسلمين.

ثانيا:يجب أن لا ننسى أنّ وعد اللّه سبحانه و تعالى بنصر المؤمنين وعد مشروط و ليس بمطلق،و أنّ الكثير من الأخطاء مصدرها عدم التوجّه إلى هذه الحقيقه،و كلمات(عبادنا)و(جندنا)التى وردت فى آيات بحثنا،و غيرها من العبارات و الكلمات المشابهه فى هذا المجال فى القرآن الكريم كعباره حِزْبَ اللّهِ و اَلَّذِينَ جٰاهَدُوا فِينٰا و لَيَنْصُرَنَّ اللّٰهُ مَنْ يَنْصُرُهُ و أمثالها،توضّح بسهوله شروط النصر.

نحن لا نريد أن نكون مؤمنين و لا مجاهدين و لا جنودا مخلصين،و نريد أن ننتصر على أعداء الحقّ و العداله و نحن على هذه الحاله! نحن نريد أن نتقدّم إلى الإمام فى مسيرنا إلى اللّه و لكن بأفكار شيطانيه،ثمّ نعجب من انتصار الأعداء علينا،فهل و فينا نحن بوعدنا حتّى نطلب من اللّه سبحانه و تعالى الوفاء بوعوده.

فى معركه احد وعد الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المسلمين بالنصر،و قد انتصروا فعلا فى المرحله الاولى من المعركه،إلاّ أنّ مخالفه البعض لأوامر الرّسول و تركهم لمواقعهم لهثا وراء الغنائم،و سعى البعض الآخر لبثّ الفرقه و النفاق فى صفوف المقاتلين،أدّى بهم إلى الفشل فى الحفاظ على النصر الذى حقّقوه فى المرحله الاولى،و هذا ما أدّى إلى خسرانهم المعركه فى نهايه الأمر.

و بعد انتهاء المعركه جاءت مجموعه إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و خاطبته بلهجه خاصّه:ماذا عن الوعد بالنصر و الغلبه،فأجابهم القرآن الكريم بصوره لطيفه يمكنها أن تكون شاهدا لحديثنا،و هى قوله تعالى فى سوره آل عمران الآيه (۱۵۲): وَ لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّٰهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتّٰى إِذٰا فَشِلْتُمْ وَ تَنٰازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ عَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مٰا أَرٰاكُمْ مٰا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيٰا وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَ لَقَدْ عَفٰا عَنْكُمْ وَ اللّٰهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ .

عبارات(فشلتم)و(تنازعتم)و(عصيتم)التی وردت فی الآیه المذکوره أعلاه، و ضحّت بصوره جیّده أنّ المسلمین فی یوم احد تخلّوا عن شروط النصر الإلهی، لذا فشلوا فی الوصول إلی أهدافهم.

نعم،فالباری عزّ و جلّ لم یعد کلّ من یدّعی الإسلام و أنّه من جند اللّه و حزب اللّه بأن ینصره دائما علی أعدائه.الوعد الإلهی مقطوع لمن یرجو من أعماق قلبه و روحه رضی اللّه سبحانه و تعالی،و یسیر فی النهج الذی وضعه اللّه،و یتحلّی بالتقوی و الأمانه.

و لقد تقدّم نظیر لهذا السؤال فیما یخصّ(الدعاء)و(الوعد الإلهی بالاستجابه) و تطرّقنا للإجابه علیه فیما مضی (۱) .

و لمواساه الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المؤمنین،و للتأکید علی أنّ النصر النهائی سیکون حلیفهم،و فی نفس الوقت لتهدید المشرکین،جاءت الآیه التالیه لتقول:

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتّٰی حِینٍ

.

نعم،إنّه تهدید مفعم بالمعانی و رهیب فی نفس الوقت،و یمکن أن یکون مصدر اطمئنان للمؤمنین فی أنّ النصر النهائی سیکون حلیفهم،خاصّه أنّ عباره حَتّٰی حِینٍ جاءت بصوره غامضه.

فإلی أی مدّه تشیر هذه العباره؟إلی زمان الهجره؟أم إلی حین معرکه بدر؟أم حتّی فتح مکّه؟أم أنّها تشیر إلی الزمان الذی تتوفّر فیه شروط الانتفاضه النهائیه و الواسعه للمسلمین ضدّ الطغاه و المتجبّرین؟ بالضبط لا أحد یدری..

و آیات اخری وردت فی القرآن الکریم تحمل نفس المعنی،کالآیه(۸۱)من سوره النساء التی تقول: فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ تَوَکَّلْ عَلَی اللّٰهِ ،و الآیه(۹۱)من سوره الأنعام،قوله تعالی: قُلِ اللّٰهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِی خَوْضِهِمْ یَلْعَبُونَ .

۱- ۱) -راجع ذیل الآیه(۱۸۶)من سوره البقره.

و يؤكّد القرآن الكريم التهديد الأوّل بتهديد آخر جاء فى الآيه التى تلتها،إذ تقول:انظر إلى لجاجتهم و كذبهم و اعتقادهم بالخرافات،إضافه إلى حمقهم.

فإنّهم سيرون جزاء أعمالهم القبيحه عن قريب وَ أَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ و سوف ترى فى القريب العاجل انتصارك و انتصار المؤمنين و انكسار و هزيمه المشركين المذلّه فى الدنيا.

و عن تكرار أولئك الحمقى لهذا السؤال على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أين العذاب الإلهى الذى واعدتنا به؟و إن كنت صادقا،فلم هذا التأخير؟ يردّ القرآن الكريم عليهم بلهجه شديده مرافقه بالتهديد،قائلا:أولئك الذين يستعجلون العذاب و أحيانا يتساءلون(متى هذا الوعد)و أحيانا اخرى يقولون متسائلين (متى هذا الفتح) أَ فَبِعَذٰابِنٰا يَسْتَعْجِلُونَ ؟ فعند ما ينزل عذابنا عليهم،و نحيل صباحهم إلى ظلام حالك،فإنّهم فى ذلك الوقت سيفهمون كم كان صباح المنذرين سيّئا و خطيرا فَإِذٰا نَزَلَ بِسٰاحَتِهِمْ فَسٰاءَ صَبٰاحُ الْمُنْذَرِينَ (1) .

استخدام عباره(ساحه)و التى تعنى فناء البيت أو الفضاء الموجود فى وسط البيت،جاء ليجسّم لهم نزول العذاب فى وسط حياتهم،و كيف أنّ حياتهم الطبيعيّه ستتحوّل إلى حياه موحشه و مضطربه.

عباره صَبٰاحُ الْمُنْذَرِينَ تشير إلى أنّ العذاب الإلهى سينزل صباحا على هؤلاء القوم اللجوجين و المتجبّرين،كما نزل صباحا على الأقوام السابقه،أو أنّها تعطى هذا المعنى،و هو أنّ كلّ الناس ينتظرون أن يبدأ صباحهم بالخير و الإحسان، إلاّ أنّ هؤلاء ينتظرهم صباح حالك الظلمه.أو أنّها تعنى وقت الاستيقاظ فى الصباح،أى إنّهم يستيقظون فى وقت لم يبق لهم فيه أى طريق للنجاه من العذاب، و أنّ كلّ شىء قد انتهى.

***

۱- ۱) -فى الكلام حذف تقديره(فساء الصباح صباح المنذرين).

الآيات [سوره الصافات (٣٧): الآيات ١٧٨ الى ١٨٢]

اشاره

وَ تَوَلَّ عَنْهُمْ حَتّٰى حِينٍ (١٧٨) وَ أَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحٰانَ رَبِّكَ رَبِّ اَلْعِزَّةِ عَمّٰا يَصِفُونَ (١٨٠) وَ سَلاٰمٌ عَلَى اَلْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ اَلْعٰالَمِينَ (١٨٢)

التّفسير

اشاره

تولّ عنهم!

كما قلنا،فإنّ الآيات الأخيره النازله في هذه السوره جاءت لمواساه الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين الحقيقيين،و لتهديد الكافرين اللجوجين.

الآيتان الأوّليان في بحثنا هذا،تشبهان الآيات التي وردت في البحث السابق، و تكرارها هنا إنّما جاء للتأكيد،إذ تقول بلغه شديده مرفقه بالتهديد:تولّ عنهم و اتركهم في شأنهم لمدّه معيّنه وَ تَوَلَّ عَنْهُمْ حَتّٰى حِينٍ .

و انظر إلى لجاجه أولئك الكافرين و كذبهم و ممارساتهم العدائيه و نكرانهم لوجود اللّه،الذين سينالون جزاء أعمالهم عمّا قريب وَ أَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ .

التكرار-كما قلنا-جاء للتأكيد،و ذلك ليدرك أولئك الكافرون أنّ جزاءهم و هزيمتهم و خيبتهم أمر قطعي لا بدّ منه و سيكون ذلك عمّا قريب،و سيبتلون

ص:٤٣١

بالنتائج المريره لأعمالهم،كما أنّ انتصار المؤمنين هو أمر قطعی و مسلّم به أيضا.

أو أنّه هدّدهم فی المرّه الاولی بالعذاب الدنيوی،و فی المرّه الثانيه بجزاء و عقاب اللّه لهم يوم القيامه.

ثمّ تختتم السوره بثلاثه آيات ذات عمق فی المعنی بشأن(اللّه)و(الرسل)و (العالمين)،إذ تنزّه اللّه ربّ العزّه و القدره من الأوصاف التی يصفه بها المشركون و الجاهلون سُبْحٰانَ رَبِّکَ رَبِّ الْعِزَّهِ عَمّٰا يَصِفُونَ .

فأحيانا يصفون الملائكه بأنّها بنات اللّه،و أحيانا يقولون بوجود نسبه بين اللّه و الجنّ،و أحيانا اخری يجعلون مصنوعات لا قيمه لها من الحجر و الخشب بمرتبه الباری عزّ و جلّ.

و مجیء كلمه(العزّه)-أی ذو القدره المطلقه و الذی لا يمكن التغلّب عليه-هنا تعطی معنی بطلان و عدم فائده كلّ تلك المعبودات المزيّفه و الخرافيه التی يعبدها المشركون.

فآيات سوره الصافات تحدّثت أحيانا عن تسبيح و تنزيه عِبٰادَ اللّٰهِ الْمُخْلَصِينَ و أحيانا عن تسبيح الملائكه،و هنا تتحدّث عن تسبيح و تنزيه الباری عزّ و جلّ لذاته المقدّسه.

و فی الآيه الثانيه شمل الباری عزّ و جلّ كافّه أنبيائه بلطفه غير المحدود،و قال:

وَ سَلاٰمٌ عَلَی الْمُرْسَلِينَ

.السلام الذی يوضّح السلامه و العافيه من كلّ أنواع العذاب و العقاب فی يوم القيامه،السلام الذی هو صمّام الأمان أمام الهزائم و دليل للانتصار علی الأعداء.

و ممّا يذكر أنّ اللّه سبحانه و تعالی أرسل فی آيات هذه السوره سلاما إلی كثير من أنبيائه و بصوره منفصله،قال تعالی فی الآيه(٧٩) سَلاٰمٌ عَلیٰ نُوحٍ فِی الْعٰالَمِينَ ،و فی الآيه(١٠٩) سَلاٰمٌ عَلیٰ إِبْرٰاهِيمَ ،و فی الآيه سَلاٰمٌ عَلیٰ مُوسیٰ وَ هٰارُونَ ،و فی الآيه(١٣٠) سَلاٰمٌ عَلیٰ إِلْ‌يٰاسِينَ .

و قد جمعها هنا فی سلام واحد موجّه لکلّ المرسلین،قال تعالی: وَ سَلاٰمٌ عَلَی الْمُرْسَلِینَ .

و أخیرا اختتمت السوره بآیه تحمد اللّه وَ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِینَ .

الآیـات الثلاث الأخیره یمکن أن تکون إشاره و اسـتعراضا مختصـرا لکلّ القضایا و الأمور الموجوده فی هـذه السوره،لأنّ الجزء الأکبر منها کان بشأن التوحیـد و الجهاد ضـدّ مختلف أنواع الشـرک،فالآیه الاولی تعید ما جاء بشأن تسبیح و تنزیه اللّه عزّ و جلّ عن الصـفات التی وصف بها من قبل المشـرکین،و القسم الآخر من السوره یبیّن جوانب من أوضاع سبع أنبیاء کبار أشارت إلیها هنا الآیه الثانیه.

و الآـیه الثالثه اسـتعرضت جزءا آخر من النعم الإلهیه،و بالخصوص أنواع النعم الموجوده فی الجنّه، و انتصار جنـد اللّه علی جنود الکفر،و الحمد و الثناء الذی جاء فی الآیه الأخیره،فیه إشاره لکلّ تلک الأمور.

المفسّـرون الآـخرون ذکروا تحلیلاـت اخری بخصوص الآیـات الثلاـث الوارده فی آخر هـذه السوره،و قالوا:إنّ من أهمّ واجبات الإنسان العاقل معرفه أحوال ثلاثه:

الاولی:معرفه اللّه تعالی بالمقـدار الممکن للبشـر،و آخر ما یسـتطیعه الإنسان فی هـذا المجال هو ثلاثه امور:تنزیهه و تقـدیسه عن کلّ ما لا یلیق بصفات الالوهیه، و التی وضّحتها لفظه(سبحان).

و وصـفه بکـلّ مـا یلیق بصـفات الالوهیه و الکمال،و کلمه(ربّ)إشاره دالّه علی حکمته و رحمته و مالکیّته لکلّ الأشـیاء و تربیته للموجودات.

و کونه منزّها فی الالوهیه عن الشریک و النظیر،و التی جاءت فی عباره عَمّٰا یَصِفُونَ .

و القضیّه الثانیه المهمّه فی حیاه الإنسان هی تکمیل الإنسان لنواقصه،و الذی

لا یمکن أن یتمّ دون وجود الأنبیاء علیهم السّلام،و جمله سَلاٰمٌ عَلَی الْمُرْسَلِینَ إشاره إلی هذه القضیّه.

و القضیّه الثالثه المهمّه فی حیاه الإنسان هی أن یعرف أنّه کیف یکون حاله بعد الموت؟و الانتباه إلی نعم ربّ العالمین و مقام غناه و رحمته و لطفه یعطی للإنسان نوعا من الاطمئنان وَ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِینَ (۱) .

***

ملاحظه

اشاره

التفکّر فی نهایه کلّ عمل:

جاء فی روایات عدیده عن أئمّه أهل البیت علیهم السّلام «من أراد أن یکتال بالمکیال الأوفی(من الأجر یوم القیامه)فلیکن آخر کلامه فی مجلسه:سبحان ربّک ربّ العزّه عمّا یصفون و سلام علی المرسلین و الحمد للّه ربّ العالمین» (۲) .

نعم،فلنختتم مجالسنا بتنزیه ذات اللّه،و إرسال السلام و التحیّات إلی رسله، و حمد و شکر اللّه علی نعمه،کی تمحی الأعمال غیر الصالحه أو الکلمات المحرّمه التی جاءت فی ذلک المجلس.

و

قد جاء فی کتاب التوحید للشیخ الصدوق، أنّ أحد علماء الشام حضر عند الإمام الباقر علیه السّلام،فقال:جئت أسألک عن مسأله لم أجد أحدا یفسّرها لی،و قد سألت ثلاثه أصناف من الناس،فقال کلّ صنف غیر ما قال الآخر.

فقال أبو جعفر علیه السّلام:«و ما ذلک»؟ فقال:أسألک ما أوّل ما خلق اللّه عزّ و جلّ من خلقه؟فإنّ بعض من سألته قال:

۱- ۱) -تفسیر الفخر الرازی،المجلّد ۲۶،الصفحه ۱۷۳.

۲- ۲) -مجمع البیان،ذیل آیات البحث،و اصول الکافی،و من لا یحضره الفقیه نقلا عن تفسیر نور الثقلین،المجلّد ۴،الصفحه ۴۴۰.

القدره.و قال بعضهم:العلم.و قال بعضهم:الروح؟ فقال أبو جعفر علیه السّلام:«ما قالوا شیئا،أخبرک أنّ اللّه علا ذکره کان و لا شیء غیره، و کان عزیزا و لا عزّ،لأنّه کان قبل عزّه،و ذلک قوله تعالی: سُبْحانَ رَبِّکَ رَبِّ الْعِزَّهِ عَمّا یَصِفُونَ (۱) و کان خالقا و لا مخلوق» و الحدیث طویل أخذنا منه موضع الحاجه(و هو إشاره إلی انّ ما قاله لک أولئک النفر لا یخلو من شرک و هو مشمول لهذه الآیه،فإنّ اللّه عزّ و جلّ کان قادرا و عالما و عزیزا منذ الأزل).

نهایه سوره الصافات ***

۱- ۱) -تفسیر نور الثقلین،المجلّد ۴،الصفحه ۴۴۰.

سوره ص

اشاره

مکيّه و عدد آياتها ثمان و ثمانون آيه

محتویات السوره:

سوره(ص)یمكن اعتبارها مكمّله لسوره الصافات،فمجمل مواضیعها یشابه كثیرا ما ورد فی سوره الصافات،و لكون السوره مكیّه النّزول فإن خصائصها كخصائص بقیّه السور المكیّه التی تبحث فی مجال البدء و المعاد و رساله الرّسول الأكرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،كما أنّها تحتوی علی مواضیع حسّاسه اخری،و فی المجموع بمثابه الدواء الشافی لكلّ الباحثین عن طریق الحقّ.

و یمكن تلخیص محتویات هذه الآیه فی خمس أقسام:

الأوّل:یتحدّث عن مسأله التوحید و الجهاد ضدّ الشرك و المشركین،و مهمّه نبوّه الرّسول الأكرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و عناد و لجاجه الأعداء تجاه الأمرین المذكورین أعلاه.

الثانی:یعكس جوانب من تأریخ تسع من أنبیاء اللّه و من بینهم(داود)و (سلیمان)و(أیّوب)حیث تتحدّث عنهم السوره أكثر من غیرهم،و یعكس-أیضا-المشكلات التی عانوا منها فی حیاتهم و خلال دعوتهم الناس إلی اللّه.و ذلك لكی تكون درسا مفیدا یتّعظ منه المؤمنون الأوائل الذین كانوا فی ذاك الوقت یرزحون تحت أشدّ الضغوط من قبل المشركین.

الثالث:یتطرّق إلی مصیر الكفره الطغاه یوم القیامه و مجادله بعضهم البعض فی جهنّم،و یبیّن للمشركین و للذین لا یؤمنون باللّه إلی أین ستؤدّی بهم أعمالهم.

الرابع:یتناول مسأله خلق الإنسان و علوّ مقامه و سجود الملائكه له،و یكشف

عن الفاصل الكبير الموجود بين سمو الإنسان و انحطاطه،کی یفهم هؤلاء المعاندون قیمه وجودهم،و أن یعیدوا النظر فی نظمهم المنحرفه لیخرجوا من زمره الشیاطین.

القسم الخامس و الأخیر:یتوعّد الأعداء المغرورین بالعذاب،و یواسی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و یبیّن هذه الحقیقه،و هی أنّ النّبی لا یرید جزاء من أحد مقابل دعوته، و لا یرید الشقاء و الأذی لأحد.

فضیله تلاوه سوره(ص)

ورد فی أحد الروایات عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «من قرأ سوره(ص)اعطی من الأجر بوزن کلّ جبل سخّره اللّه لداود حسنات عصمه اللّه أن یصرّ علی ذنب صغیرا أو کبیرا» (۱) .

کما

ورد فی حدیث آخر عن الإمام الباقر علیه السّلام «من قرأ سوره(ص)فی لیله الجمعه اعطی من خیر الدنیا و الآخره ما لم یعط أحد من الناس إلاّ نبی مرسل أو ملک مقرّب،و أدخله اللّه الجنّه و کلّ من أحبّ من أهل بیته حتّی خادمه الذی یخدمه» (۲) فإذا وضعنا محتوی هذه السوره إلی جانب فضلها و ثوابها،یتّضح لنا الارتباط و العلاقه الموجوده بین أجرها و ثوابها مع محتواها،و نؤکّد مرّه اخری علی هذه الحقیقه،و هی أنّ المراد من التلاوه هنا لیست تلک التلاوه الجافّه و الخالیه من الروح،و إنّما التلاوه التی ترافق التفکیر العمیق و التصمیم الجدّی،الذین یدفعان الإنسان إلی العمل بما جاء فی هذه السوره المبارکه.

***

۱- ۱) -مجمع البیان بدء سوره(ص)،المجلّد ۸،الصفحه ۴۶۳.

۲- ۲) -نفس المصدر.

الآيات [سوره ص (٣٨): الآيات ١ الى ٣]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ ص وَ اَلْقُرْآنِ ذِي اَلذِّكْرِ (١) بَلِ اَلَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَ شِقٰاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنٰا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنٰادَوْا وَ لاٰتَ حِينَ مَنٰاصٍ (٣)

أسباب النّزول

وردت فى كتب التّفسير و الحديث أسباب متشابهه لنزول الآيات الاولى من هذه السوره،و سنستعرض أحد هذه الأسباب لكونه مفصّلا و جامعا أكثر من الأسباب الاخرى،

ففى حديث نقله المرحوم العلاّمه الكلينى عن الإمام الباقر عليه السّلام جاء فيه: «أقبل أبو جهل بن هشام و معه قوم من قريش فدخلوا على أبى طالب فقالوا:إنّ ابن أخيك قد آذانا و آذى آلهتنا، فادعه و مره فليكفّ عن آلهتنا و نكفّ عن إلهه.

فبعث أبو طالب إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فدعاه،فلمّا دخل النّبى لم ير فى البيت إلاّ مشركا فقال:(السلام على من اتّبع الهدى)ثمّ جلس فخبّره أبو طالب بما جاؤوا به،فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«أو هل لهم فى كلمه خير لهم من هذا يسودون بها العرب و يطأون أعناقهم»؟

فقال أبو جهل:نعم و ما هذه الكلمه؟ قال:«تقولون:لا إله إلاّ اللّه».

و ما إن سمعوا هذه الكلمات حتّى وضعوا أصابعهم فی آذانهم و خرجوا و هم يقولون:ما سمعنا بهذا فی الملّه الآخره إنّ هذا إلاّ اختلاق،فأنزل اللّه فی قولهم:

ص وَ الْقُرْآنِ ذِی الذِّكْرِ

-إلى قوله- إِلاَّ اخْتِلاٰقٌ (۱) .

التّفسير

اشاره

انقضاء مهله النّجاه:

مرّه اخرى تمرّ علينا سوره تبدأ آياتها الاولى بحروف مقطّعه و هو حرف ص و يطرح نفس السؤال السابق بشأن تفسير هذه الحروف المقطّعه:هل هذه إشاره إلى عظمه القرآن المجيد الذی يتألّف من مثل هذه الحروف المتيسّره فی متناول الجميع كالحروف الهجائيه،و الذی غيّرت محتوياته مجرى حياه الإنسانيه فی هذا العالم...

و أنّ قدره اللّه العظميه هی التی أوجدت من هذه الحروف البسيطه تركيبا رائعا عظيما هو القرآن المجيد كلام اللّه،أم أنّها إشاره إلى رموز و أسرار بين اللّه سبحانه و تعالى و أنبيائه..

أمّ أنّها تعنی أمورا أخرى؟ مجموعه من المفسّرين اعتبرت هنا حرف(ص)رمزا يشير إلى أحد أسماء اللّه،و ذلك لأنّ الكثير من أسمائه تبدأ بحرف الصاد مثل(صادق)،(صمد)،(صانع) أو أنّه إشاره إلى(صدق اللّه)التی اختصرت بحرف واحد.

و لا بدّ أنّكم طالعتم تفسير هذه الحروف المقطّعه بصوره مفصّله فی تفسير بدايات آيات سور(البقره)و(آل عمران)و(الأعراف).

۱- ۱) -اصول الكافی نقلا عن نور الثقلين،المجلّد ۴،الصفحه ۴۴۰.

ثمّ يقسم اللّه تعالى بالقرآن ذى الذكر و الّذى هو حقّا معجزه إلهيّه وَ الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (۱) .

فالقرآن ذكر و يشتمل على الذكر،و الذكر يعنى التذكير و صقل القلوب من صدأ الغفله،تذكّر اللّه،و تذكّر نعمه،و تذكّر محكمته الكبرى يوم القيامه،و تذكّر هدف خلق الإنسان.

نعم،فالنسيان و الغفله هما من أهمّ عوامل تعاسه الإنسان،و القرآن الكريم خير دواء لعلاجهما.

فالقرآن الكريم يقول بشأن المنافقين فى الآيه(۶۷)من سوره التوبه: نَسُوا اللّٰهَ فَنَسِيَهُمْ أى إنّهم نسوا اللّه،و اللّه فى المقابل نسيهم و قطع رحمته عنهم.

و نقرأ فى نفس هذه السوره الآيه(۲۶)عن الضالّين،قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِيدٌ بِمٰا نَسُوا يَوْمَ الْحِسٰابِ .

نعم،فالنسيان هو الابتلاء الكبير الذى ابتلى به الضالّون و المذنبون،حتّى أنّهم نسوا أنفسهم و قيمه وجودها،كما قال القرآن الكريم،كلام اللّه الناطق وَ لاٰ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللّٰهَ فَأَنْسٰاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولٰئِكَ هُمُ الْفٰاسِقُونَ . (۲)

فالقرآن خير وسيله لتمزيق حجب النسيان،و هو نور لإزاله الظلمات و الغفله و النسيان،حيث إنّ آياته تذكّر الإنسان باللّه و بالمعاد،و تعرّف الإنسان قيمه وجوده فى هذه الحياه.

الآيه التاليه تقول لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:إذا رأيت هؤلاء لا يستسلمون لآيات اللّه الواضحه و لقرآنه المجيد،فاعلم أنّ سبب هذا لا يعود إلى أنّ هناك ستارا يغطّى كلام الحقّ،و إنّما هم مبتلون بالتكبّر و الغرور اللذين يمنعان الكافرين من قبول

۱- ۱) -جمله وَ الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ جمله قسم جوابها محذوف،و تقديرها(و القرآن ذى الذكر إنّك صادق و إنّ هذا الكلام معجز).

۲- ۲) -الحشر،۱۹.

الحقّ،كما أنّ عنادهم و عصيانهم-هما أيضا-مانع يحول دون تقبّلهم لدعوتك بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَ شِقٰاقٍ .

«العزّه»كما قال الراغب فى مفرداته،هى حاله تحوّل دون هزيمه الإنسان (حاله الذى لا يقهر)و هى مشتقّه من(عزاز)و تعنى الأرض الصلبه المتينه التى لا ينفذ الماء خلالها،و تعطى معنيين،فأحيانا تعنى(العزّه الممدوحه)المحترمه، كما فى وصف ذات اللّه الطاهر بالعزيز،و أحيانا تعنى(العزّه بالإثم)أى الوقوف بوجه الحقّ و التكبّر عن قبول الواقع،و هذه العزّه مذلّه فى حقيقه الأمر.

«شقاق»مشتقّه من(شقّ)،و معناه واضح،ثمّ استعمل فى معنى المخالفه،لأنّ الاختلاف يسبّب فى أن تقف كلّ مجموعه فى شقّ،أى فى جانب.

القرآن هنا يعدّ مسأله العجرفه و التكبّر و الغرور و طىّ طريق الانفصال و التفرقه من أسباب تعاسه الكافرين،نعم هذه الصفات القبيحه و السيّئه تعمى عين الإنسان و تصمّ آذانه،و تفقده إحساسه،و كم هو مؤلم أن يكون للإنسان عيون تبصر و آذان تسمع و لكنّه يبدو كالأعمى و الأصم.

فالآيه(۲۰۶)من سوره البقره تقول: وَ إِذٰا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّٰهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ الْمِهٰادُ أى عند ما يقال للمنافق:اتّق اللّه،تأخذه العصبيه و الغرور و اللجاجه،و تؤدّى به إلى التوغّل فى الذنب و السقوط فى نار جهنّم و إنّها لبئس المكان.

و لإيقاظ أولئک المغرورين المغفّلين،يرجع بهم القرآن الكريم إلى ماضى تأريخ البشر،ليريهم مصير الأمم المغروره و المتكبّره،كى يتّعظوا و يأخذوا العبر منها و كَمْ أَهْلَكْنٰا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ .

أى إنّ امما كثيره كانت قبلهم قد أهلكناها(بسبب تكذيبها الأنبياء،و إنكارها آيات اللّه،و ظلمها و ارتكابها للذنوب) و كانت تستغيث بصوت عال عند نزول العذاب عليها،و لكن ما الفائده فقد تأخّر الوقت!و لم يبق أمامهم متّسع من الوقت

لإنقاذ أنفسهم فَنٰادَوْا وَ لاٰتَ حِينَ مَنٰاصٍ .

فعند ما كان أنبياء اللّه فى السابق يعظونهم و يحذّرونهم عواقب أعمالهم القبيحه، لم يكتفوا بصمّ آذانهم و عدم الاستماع،و إنّما كانوا يستهزئون و يسخرون من الأنبياء و يعذّبون المؤمنين و يقتلونهم،فبذلك أضاعوا الفرصه و دمّروا كلّ الجسور التى خلفهم،فنزل العذاب الإلهى ليهلكهم جميعا،العذاب الذى رافقه انغلاق باب التوبه و العوده،وفور نزوله تبدأ أصوات الاستغاثه تتعالى،و التى لا تغنى عنهم يومئذ شيئا.

و كلمه(لات)جاءت للنفى،و هى فى الأصل(لا)نافيه أضيفت إليها(تاء) التأنيث،لتعطى معنى التأكيد (١) .

«مناص»من مادّه(نوص)و تعنى الملاذ و الملجأ،و يقال:إنّ العرب عند ما كانت تقع لهم حادثه صعبه و رهيبه،و خاصّه فى الحروب كانوا يكرّرون هذه الكلمه و يقولون(مناص...مناص)أى:أين الملاذ؟أين الملاذ؟و لأنّ هذا المفهوم يتناسب مع معنى الفرار،و أحيانا تأتى بمعنى إلى أين الفرار (٢) .

على أيّه حال،فإنّ أولئك المغرورين المغفّلين لم يستفيدوا من الفرصه التى كانت بأيديهم للجوء إلى أحضان الرحمه و اللطف الإلهى،و عند ما أضاعوا الفرصه و نزل عليهم العذاب الإلهى،أخذوا ينادون و يستغيثون و يبذلون الجهد للعثور على طريق نجاه لهم،و لكن كلّ هذه الجهود تبوء بالفشل،حيث أنّهم مهما بذلوا من جهد و مهما استغاثوا فإنّهم لا يصلون إلى مقصدهم.

هذه كانت سنّه اللّه مع كلّ الأمم السابقه،و ستبقى كذلك،لأنّ سنّه اللّه لا تتغيّر

۱- ۱) -البعض قال:إنّ(التاء)زائده و اعتبرها للمبالغه كما فى كلمه(علامه)كما اعتبر البعض أنّ(لا)هنا(نافيه للجنس)و البعض شبّهها ب(ليس)و على أيّه حال إضافه(التاء)إلى(لا)يوجد أحكاما خاصّه،منها من المؤكّد أنّها تستخدم للزمان،و الاخرى أنّ اسمها أو خبرها محذوف دائما،و تذكر فى الكلام بإحدى الحالتين المذكورتين آنفا،و طبقا لهذا فإنّ عباره(و لات حين مناص)تقديرها(و لات الحين حين مناص).

۲- ۲) -مفردات الراغب،تفسير فخر الرازى،تفسير روح المعانى،كتاب مجمع البحرين مادّه(نوص).

و لا تتبدّل.

و من المؤسف أنّ النـاس-على الأ-غلب-غير مسـتعدّين للاتّعـاظ من تجـارب الآخرين،و كأنّهم راغبون فی تكرار تلك التجارب المرّه،التجارب التی تقع أحيانا مرّه واحده فی طول عمر الإنسان،و لا تتكرّر ثانيه،و بصوره أوضح:إنّها الاولی و الأخيره.

***

الآیات [سوره ص (۳۸): الآیات ۴ الی ۷]

اشاره

وَ عَجِبُوا أَنْ جٰاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَ قٰالَ اَلْكٰافِرُونَ هٰذٰا سٰاحِرٌ كَذّٰابٌ (۴) أَ جَعَلَ اَلْآلِهَةَ إِلٰهاً وٰاحِداً إِنَّ هٰذٰا لَشَيْءٌ عُجٰابٌ (۵) وَ اِنْطَلَقَ اَلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ اِمْشُوا وَ اِصْبِرُوا عَلىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هٰذٰا لَشَيْءٌ يُرٰادُ (۶) مٰا سَمِعْنٰا بِهٰذٰا فِي اَلْمِلَّةِ اَلْآخِرَةِ إِنْ هٰذٰا إِلاَّ اِخْتِلاٰقٌ (۷)

أسباب النّزول

سبب نزول هذه الآیات یشبه سبب نزول الآیات السابقه،و غیر مستبعد أن یکون هناک سبب واحد لنزول کلّ تلک الآیات.

و لکن بما أنّ سبب النّزول المذکور لهذه الآیات یحوی مطالب جدیده،نذکره کما ورد فی تفسیر علی بن إبراهیم،حیث جاء فیه:بعد أن أظهر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الدعوه،اجتمعت قریش إلی أبی طالب فقالوا:یا أبا طالب،إنّ ابن أخیک قد سفه أحلامنا،و سبّ آلهتنا،و أفسد شبابنا،و فرّق جماعتنا،فإن کان الذی یحمله علی ذلک العدم،جمعنا له حالا حتّی یکون أغنی رجل فی قریش،و نملکه علینا.

فأخبر أبو طالب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،فأجابه رسول اللّه قائلا:«لو وضعوا الشمس

فی یمینی و القمر فی یساری ما ترکته،و لکن کلمه یعطونی یملکون بها العرب و تدین بها العجم و یکونون ملوکا فی الجنّه».

فقال لهم أبو طالب ذلک،فقالوا:نعم و عشره کلمات بدلا من واحده،أی کلمه تقصد أنت؟

فقال لهم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «تشهدون أن لا إله إلاّ اللّه و أنّی رسول اللّه».

تضایقوا کثیرا عند سماعهم هذا الجواب،و قالوا:ندع ثلاث مائه و ستّین إلها و نعبد إلها واحدا؟إنّه لأمر عجیب؟نعبد إلها واحدا لا یمکن مشاهدته و رؤیته.

و هنا نزلت هذه الآیات المبارکه بل وَ عَجِبُوا أَنْ جٰاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَ قٰالَ الْکٰافِرُونَ هٰذٰا سٰاحِرٌ کَذّٰابٌ ... إِنْ هٰذٰا إِلاَّ اخْتِلاٰقٌ (1) .

هذا المعنی

ورد أیضا فی تفسیر مجمع البیان مع اختلاف بسیط،إذ ذکر صاحب تفسیر مجمع البیان فی آخر الروایه أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم استعبر بعد أن سمع جواب زعماء قریش و قال:«یا عمّ و اللّه لو وضعت الشمس فی یمینی و القمر فی شمالی ما ترکت هذا القول حتّی أنفذه أو اقتل دونه» فقال له أبو طالب:امض لأمرک، فو اللّه لا أخذلک أبدا (2) .

***

التّفسیر

اشاره

هل یمکن قبول إله واحد بدلا من کلّ تلک الآلهه؟

المغرورون و المتکبّرون لا یعترفون بأمر لا یلائم أفکارهم المحدوده و الناقصه،إذ یعتبرون أفکارهم المحدوده و الناقصه مقیاسا لکلّ القیم.لذا فعند ما رفع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لواء التوحید فی مکّه،و أعلن الانتفاضه ضدّ الأصنام الکبیره

1- 1) -تفسیر علی بن إبراهیم،نقلا عن تفسیر نور الثقلین،المجلّد 4،الصفحه 442 الحدیث 7.

2- 2) -مجمع البیان،المجلّد 8،الصفحه 465.

و الصغيره فى الكعبه،و البالغ عددها(۳۶۰)صنما،تعجّبوا:لماذا جاءهم النذير من بينهم؟ وَ عَجِبُوا أَنْ جٰاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ .

كـان تعجّبهم بسبب أنّ محمّـدا صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم رجـل منهم..فلمـا ذا لم تنزل ملائكه من السـماء بالرسـاله؟..هؤلاء تصوّروا أنّ نقطه القوّه هذه نقطه ضـعف،فالذى يبعث من بين قوم،هو أدرى باحتياجات و آلام قومه، كما أنّه أعرف بمشكلاتهم و تفصـيلات حياتهم،و يمكن أن يكون لهم أسوه و قدوه،إلاّ أنّهم اعتبروا هذا الامتياز الكبير نقطه سـلبيه فى دعوه الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تعجّبوا من أمر بعثته إليهم.

و أحيانا كانوا يجتازون مرحله التعجّب إلى مرحله اتّهام رسول اللّه بالسحر و الكذب وَ قٰالَ الْكٰافِرُونَ هٰذٰا سٰاحِرٌ كَذّٰابٌ .

و قلنا عدّه مرّات:إنّ اتّهامهم الرّسول الأكرم صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم بالسحر،إنّما نتج من جرّاء رؤيتهم لمعجزاته التى لا تقبل الإنكـار و تنفـذ بصوره مـدهشه إلى أفكـار المجتمع، و اتّهامه بالكـذب بسـبب تحـدّثه بأمور تخالف سـنّتهم الخرافيه و أفكارهم الجاهليه التى كانت جزءا من الأمور المسلّم بها فى ذلك المجتمع،و ادّعاء الرساله من اللّه.

و عنـد مـا أظهر رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم دعوته لتوحيـد اللّه،أخـذ أحـدهم ينظر للآخر و يقول له:تعـالى و اسـمع العجب العجاب أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلٰهاً وٰاحِداً إِنَّ هٰذٰا لَشَيْءٌ عُجٰابٌ (۱) .

نعم،فـالغرور و التكبّر إضـافه إلى فسـاد المجتمع،تسـاهم جميعا فى تغيّر بصـيره الإنسان،و جعله متعجّبا من بعض الأمور الواقعيه و الواضحه،فى حين يصرّ بشدّه على التمسّک ببعض الخرافات و الأوهام الواهيه.

و كلمه(عجاب)على وزن(تراب)تعطى معنى المبالغه،و تقال لأمر عجيب مفرط فى العجب.

فالسفهاء من قريش كانوا يعتقدون أنّه كلّما ازدادت عدد آلهتهم إزداد نفوذهم

۱- ۱) -«الجعل»بمعنى التصيير،و هو-كما قيل-تصيير بحسب القول و الإعتقاد و الدعوى لا بحسب الواقع.

و قدرتهم،و لهذا السبب فإنّ وجود إله واحد يعدّ قليلا من وجهه نظرهم،فی حین- کما هو معلوم-أنّ الأشیاء المتعدّده من وجهه النظر الفلسفیه تکون دائما محدوده، و الوجود اللامحدود واحد لا أکثر،و لهذا السبب فإنّ کلّ الدراسات فی معرفه اللّه تنتهی إلی توحیده.

و بعد أن یئس طغاه قریش من توسّط أبی طالب فی الأمر و فقدوا الأمل، خرجوا من بیته،ثمّ انطلقوا و قال بعضهم لبعض،أو قالوا لأتباعهم:اذهبوا و تمسّکوا أکثر بآلهتکم،و اصبروا علی دینکم،و تحمّلوا المشاق لأجله،لأنّ هدف محمّد هو جرّ مجتمعنا إلی الفساد و الضیاع و زوال النعمه الإلهیه عنّا بسبب ترکنا الأصنام،و إنّه یرید أن یترأس علینا وَ انْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَ اصْبِرُوا عَلیٰ آلِهَتِکُمْ إِنَّ هٰذٰا لَشَیْءٌ یُرٰادُ .

«انطلق»مشتقّه من(انطلاق)و تعنی الذهاب بسرعه و التحرّر من عمل سابق، و هنا تشیر إلی ترکهم مجلس أبی طالب و علامات الضجر و الغضب بادیه علیهم.

و(الملأ)إشاره إلی أشراف قریش المعروفین الذین ذهبوا إلی أبی طالب،و بعد خروجهم من بیته تحدّث بعضهم لبعض أو لأتباعهم أن لا تترکوا عباده أصنامکم و أثبتوا علی عباده آلهتکم.

و جمله لَشَیْءٌ یُرٰادُ تعنی أنّ هناک أمرا یراد بنا.و لکونها جمله غامضه بعض الشیء،فقد ذکر المفسّرون لها تفاسیر عدیده،منها:أنّها إشاره إلی دعوه الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،إذ اعتبرت قریش هذه الدعوه مؤامره ضدّها،و قالت:إنّ ظاهرها یدعو إلی اللّه،و باطنها یهدف إلی السیاده و الرئاسه علینا و علی العرب،و ما هذه الدعوه إلاّ ذریعه لتنفیذ ذلک الأمر،أی السیاده و الرئاسه،و دعت الناس إلی التمسّک أکثر بعباده الأصنام،و ترک تحلیل أمر هذه المؤامره إلی زعماء القوم، و هذا الأسلوب طالما لجأ إلیه أئمّه الضلال لإسکات أصوات السائرین فی طریق الحقّ،إذ یطلقون علی الدعوه إلی اللّه لفظه(مؤامره)المؤامره التی یجب أن یتولّی

رجال السیاسه تحلیلها بدقّه لوضع الخطط و البرامج المنظّمه لمواجهتها،و أن یمرّ بها عامه الناس مرّ الکرام من دون أن یعیروا لها أی اهتمام،و أن یتمسّکوا أکثر بما عندهم،أی بأصنامهم.

و نظیر هذا الحدیث ورد فی قصّه نوح،عند ما قال الملأ من قوم نوح لعامّتهم مٰا هٰذٰا إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُکُمْ یُرِیدُ أَنْ یَتَفَضَّلَ عَلَیْکُمْ . (۱)

و ذهب آخرون إلی أنّ المقصود من هذه العباره هو:یا عبده الأصنام أثبتوا و استقیموا علی آلهتکم،لأنّ هذا هو المطلوب منکم.

أمّا البعض الآخر فقد قال:المقصود هو أنّ محمّدا یستهدفنا نحن،و أنّه یرید جرّ مجتمعنا إلی الفساد من خلال ترکنا لآلهتنا،و فی نهایه الأمر ستزال النعم عنّا و ینزل علینا العذاب! فیما احتمل البعض الآخر أنّ المراد هو أنّ محمّدا لن یتوقّف عن دعوته و أنّه مصمّم علی نشرها بعزم راسخ،و لهذا فإنّ المحادثات معه عقیمه،فاذهبوا و تمسّکوا أکثر بعقائدهم.

و أخیرا احتمل بعض المفسّرین أنّ المقصود هو أنّ المصیبه ستحلّ بنا،و علی أیّه حال،علینا أن نتهیّأ لها و أن نتمسّک أکثر بسنّتنا.

و بالطبع،لکون هذه الجمله لها مفهوم عامّ،فإنّ أغلب التفاسیر یمکن أن تعطی المعنی المطلوب،رغم أنّ التّفسیر الأوّل یعدّ أنسب من بقیّه التفاسیر.

و علی أیّه حال،فإنّ زعماء المشرکین أرادوا بهذا القول تقویه المعنویات المنهاره لأتباعهم،و الحیلوله دون تزعزع معتقداتهم أکثر،و لکن کلّ مساعیهم ذهبت أدراج الریاح.

و لخداع عوامّ الناس و إقناع أنفسهم،قال زعماء المشرکین مٰا سَمِعْنٰا بِهٰذٰا فِی الْمِلَّهِ الْآخِرَهِ إِنْ هٰذٰا إِلاَّ اخْتِلاٰقٌ .

۱- ۱) -المؤمنون،۲۴.

فلو كان ادّعاء التوحيد و ترك عباده الأصنام أمرا واقعيّا لكان آباؤنا الذين كانوا بتلك العظمه و الشخصيّه قد أدركوا ذلك،و كنّا قد سمعنا ذلك منهم،لذا فهو مجرّد حديث كاذب و ليست له سابقه.

و عباره اَلْمِلَّهِ الْآخِرَهِ يحتمل أنّها تشير إلى جيل آبائهم باعتباره آخر جيل بالنسبه لهم،و يمكن أن تكون إشاره إلى أهل الكتاب و خاصّه(النصارى)الذين كانوا آخر الملل،و دينهم كان آخر الأديان قبل ظهور نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،أى إنّنا لم نعثر فى كتب النصارى على شيء ممّا يقوله محمّد،و ذلك لأنّ كتب النصارى كانت تقول بالتثليث،أمّا التوحيد الذى دعا إليه محمّد فإنّه أمر جديد.

و لكن يتّضح من آيات القرآن الكريم أنّ عرب الجاهليه لم يكونوا معتمدين على كتب اليهود و النصارى،و إنّما اعتمادهم الأساس كان على سنن و شرائع أجدادهم و آبائهم،و هذا دليل على صحّه التّفسير الأوّل.

«اختلاق»مشتقّه من(خلق)و تعنى إبداء أمر لم تكن له سابقه،كما تطلق هذه الكلمه على الكذب،و ذلك لأنّ الكذّاب غالبا ما يطرح مواضيع لا-وجود لها،و لهذا فإنّ المراد من كلمه(اختلاق)فى الآيه-مورد البحث-أنّ التوحيد الذى دعا إليه هذا النبىّ مجهول بالنسبه لنا و لآبائنا الأوّلين،و هذا دليل على بطلانه.

***

ملاحظه

اشاره

الخوف من الجديد!

الخوف من القضايا و الأمور المستحدثه و الجديده كانت-على طول التاريخ- أحد الأسباب المهمّه التى تقف وراء إصرار الأمم الضالّه على انحرافاتها،و عدم استسلامها لدعوات أنبياء اللّه،إذ أنّهم يخافون من كلّ جديد،و لهذا كانوا ينظرون لشرائع الأنبياء بنظره سيّئه جدّا،و حتّى الآن هناك امم كثيره تحمل آثارا من هذا

التفكير الجاهلى،فى الوقت الذى لم تكن فيه دعوه الرسل للتوحيد أمرا جديدا، و لا يمكن أن تكون حداثه الشىء دليلا على بطلانه،فيجب أن نتّبع المنطق، و نستسلم للحقّ أينما كان و ممّن كان.

و الأمر العجيب أنّ مسأله الخوف من الأمر الجديد-مع شديد الأسف-قد طالت بعض العلماء أيضا-إذ يتّخذون موقفا معارضا للنظريات العلميه الحديثه و يقولون: إِنْ هٰذا إِلَّا اخْتِلاقٌ .

و هذا الأمر شوهد بصوره خاصّه فى تأريخ الكنيسه المسيحيه،إذ أنّهم كانوا يتّخذون مواقف سلبيه تجاه الاكتشافات العلميه لعلماء الطبيعه،و كان أحدهم «غاليلو»إذ تعرّض لأشدّ هجمات الكنيسه على أثر إعلانه عن أنّ الأرض تدور حول الشمس و حول نفسها،حيث كانوا يقولون:إنّ هذا الكلام بدعه.

و أكثر ما يثير العجب أنّ بعض العلماء الكبار،كانوا عند ما يتوصّلون إلى حقائق علميه جديده،يعمدون إلى البحث فى امّهات الكتب لعلّهم يعثرون على علماء سابقين يوافقونهم فى الرأى،و ذلك خوفا من تعرضهم لهجمات المعارضين و بهذا الأسلوب استطاع كثير من العلماء إبداء وجهه نظرهم و كأنّها قديمه و ليست بجديده،و هذا أمر مؤلم جدّا.

و مثال هذا الحديث يمكن مشاهدته فى كتاب(الأسفار)فيما ورد عن النظريه المعروفه ب(الحركه الجوهريه)لصدر المتألهين الشيرازى.

على أيّه حال فإنّ طريقه التعامل مع القضايا الحديثه و الابتكارات الجديده أدّى إلى وقوع خسائر كبيره فى المجتمع الإنسانى و فى عالم العلم و المعرفه، و على أصحاب العلاقه أن يعملوا بجدّ لإصلاح هذا الأمر،و إزاله الرسوبات الجاهليه من أفكار الرأى العامّ.

ص :۴۵۳

إلاّ ـ أنّ هـذا الحـديث لاـ يعنى قبول كـلّ رأى جديـد لكونه جديـدا،حتّى و لو كـان بلا أساس،إذ يصـبح حينئـذ نفس التمسّـك بالجديد بلاء عظيما كعشق القديم، فالاعتدال الإسلامى يدعونا إلى عدم الإفراط أو التفريط فى العمل.

***

ص :۴۵۴

الآیات [سوره ص (۳۸): الآیات ۸ الی ۱۱]

اشاره

أَ أُنْزِلَ عَلَیْهِ اَلذِّکْرُ مِنْ بَیْنِنٰا بَلْ هُمْ فِی شَکٍّ مِنْ ذِکْرِی بَلْ لَمّٰا یَذُوقُوا عَذٰابِ (۸) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزٰائِنُ رَحْمَهِ رَبِّکَ اَلْعَزِیزِ اَلْوَهّٰابِ (۹) أَمْ لَهُمْ مُلْکُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا فَلْیَرْتَقُوا فِی اَلْأَسْبٰابِ (۱۰) جُنْدٌ مٰا هُنٰالِکَ مَهْزُومٌ مِنَ اَلْأَحْزٰابِ (۱۱)

التّفسیر

اشاره

الجیش المهزوم:

الآیات السابقه تحدّثت عن المواقف السلبیه التی اتّخذها المعارضون لنهج التوحید و الإسلام،و نواصل فی هذه الآیات الحدیث عن مواقف المشرکین.

فمشرکو مکّه بعد ما أحسّوا أنّ مصالحهم اللامشروعه باتت فی خطر،و إثر تزاید اشتعال نیران الحقد و الحسد فی قلوبهم،و من أجلّ خداع الناس و إقناع أنفسهم عمدوا إلی مختلف الادّعاءات بمنطق زائف لمحاربه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و منها سؤالهم بتعجّب و إنکار أَ أُنْزِلَ عَلَیْهِ الذِّکْرُ مِنْ بَیْنِنٰا .

ألم یجد اللّه شخصا آخر لینزل علیه قرآنه،غیر محمّد الیتیم و الفقیر-خاصّه

و أنّ فینا الکثیر من الشیبه و کبار السنّ الأثریاء المعروفون.

هـذا المنطق لم یکن منحصـرا بـذلک الزمـان فقـط،و إنّمـا یتعـدّاه إلی کـلّ عصـر و زمان،و حتّی فی زماننا،فإن تولّی شـخص ما مسئولیه مهمّه طفحت قلوب الآخرین بالغیظ و الحسـد،و بدأت ألسـنتهم بالثرثره و توجیه النقد و الطعن:ألم یکن هناک شـخص آخر حتّی توکّل هـذه المهمه بالشـخص الفلانی الـذی هو من عائله فقیره و غیر معروفه؟ نعم،فأهل الکتاب من الیهود و النصاری یشترکون بعض الشـیء مع المسـلمین، و لکن حبّ الدنیا من جهه،و حسدهم من جهه اخری،تسـبّبا فی أنّ یبتعدوا عن الإسـلام و القرآن،و یقولوا إلی عبـده الأصـنام:إنّ الطریق الـذی تسـلکونه أفضـل من الطریق الـذی سـلکه المؤمنون أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ أُوتُوا نَصِیباً مِنَ الْکِتابِ یُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَ الطّاغُوتِ وَ یَقُولُونَ لِلَّذِینَ کَفَرُوا هؤُلاءِ أَهْدی مِنَ الَّذِینَ آمَنُوا سَبِیلًا . (۱)

من البـدیهی أنّ إشـکال التعجّب و الإنکـار المتولّـده عن الخطـأ فی«تحدیـد القیم» إضافه إلی الحسـد و حبّ الـدنیا،لا یمکن أن تکون معیـارا منطقیـا فی القضـاء،فهـل أنّ شخصیّه الإنسان تحـدّد باسـمه أو مقـدار ماله أو مقامه أو حتّی سـنّه؟و هل أنّ الرحمه الإلهیّه تقسّم علی أساس هذا المعیار؟ لهذا فإنّ تتمّه الآیه تقول:إنّ مرض أولئک شـیء آخر،إنّهم فی حقیقه الأمر یشـکّکون فی أمر الوحی و أمر اللّه بَلْ هُمْ فِی شَکٍّ مِنْ ذِکْرِی .

ملاحظاتهم التی لا قیمه لها علی شخصـیّه الرّسول ما هی إلاّ أعذار واهیه، و شـکّهم و تردّدهم فی هذه المسأله لیس بسبب وجود إبهام فی القرآن المجید، و إنّما بسبب أهوائهم النفسیه و حبّ الدنیا و حسدهم.

و فی نهـایه الأمر فإنّ القرآن الکریم یهـدّدهم بهـذه الآیه بَلْ لَمّا یَذُوقُوا عَذابِ أی إنّ هؤلاء لم یـذوقوا العـذاب الإلهی،و لهـذا السبب جسروا علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم

۱- ۱) -النساء،۵۱.

و دخلوا المعركه ضدّ الوحی الإلهی بهذا المنطق الأجوف.

نعم،فهناک مجموعه من الناس لا ینفع معها المنطق و الکلام،و لکن سوط العذاب هو الوحید الذی یحطّ من تکبّرهم و غرورهم،لذا یجب أن یعاقب أولئک بالعقاب الإلهی کی یشفوا من مرضهم.

و یضیف القرآن الکریم فی الردّ علیهم:هل یمتلکون خزائن الرحمه الإلهیّه کی یهبوا أمر النبوّه لمن یرغبون فیه،و یمنعونها عمّن لا یرغبون فیه؟ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَهِ رَبِّکَ الْعَزِیزِ الْوَهّابِ .

فاللّه سبحانه و تعالی بمقتضی کونه(ربّ)هذا الکون و مالکه،و باریء عالم الوجود و عالم الإنسانیه،ینتخب لتحمل رسالته شخصا یستطیع قیاده الأمّه إلی طریق التکامل و التربیه.و بمقتضی کونه(العزیز) فإنّه لا یقع تحت تأثیر الآخرین و یسلّم مقام الرساله إلی أشخاص غیر لائقین،فمقام النبوّه عظیم،و اللّه سبحانه و تعالی هو صاحب القرار فی منحه.و لکونه(الوهّاب)فإنّه ینفذ أیّ شیء یریده، و یمنح مقام النبوّه لکلّ من یری فیه القدره علی تحمّله.

ممّا یذکر أنّ کلمه(الوهّاب)جاءت بصیغه المبالغه،و تعنی کثیر المنح و العطایا، و هی هنا تشیر إلی أنّ النبوّه لیست نعمه واحده،و إنّما هی نعم متعدّده،تتّحد فیما بینها لتمکّن صاحب هذا المقام الرفیع من أداء مهمّته،و هذه النعم تشمل العلم و التقوی و العصمه و الشجاعه و الشهامه.

و نقرأ فی الآیه(۳۲)من سوره الزخرف نظیر هذا الکلام،قال تعالی: أَ هُمْ یَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّکَ أی إنّهم یشکلون علیک بسبب نزول القرآن علیک،فهل أنّهم هم المسؤولون عن تقسیم رحمه ربّ العالمین؟ هذا و یمکن الاستفاده من کلمه(رحمه)هنا فی أنّ النبوّه إنّما هی رحمه و لطف ربّ العالمین بعالم الإنسانیه،و حقّا هی کذلک،فلو لا بعث الأنبیاء لخسر الناس الدنیا و الآخره،کما خسرها أولئک الذین ابتعدوا عن نهج الأنبیاء.

الآیه اللاحقه واصلت تناول نفس الموضوع،و لکن من جانب آخر،حیث قالت: أَمْ لَهُمْ مُلْکُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا فَلْیَرْتَقُوا فِی الْأَسْبٰابِ .

هذا الکلام فی حقیقته یعدّ مکمّلا للبحث السابق،إذ جاء فی الآیه السابقه:إنّکم لا تمتلکون خزائن الرحمه الإلهیه،کی تمنحوها لمن تنسجم أهواؤه مع أهوائکم، و الآن تقول الآیه التالیه لها:بعد أن تبیّن أنّ هذه الخزائن لیست بیدکم،و إنّما هی تحت تصرّف الباریء عزّ و جلّ،إذن فلیس أمامکم غیر طریق واحد،و هو أن ترتقوا إلی السماوات لتمنعوا الوحی أن ینزل علی رسول اللّه و إنّکم تعرفون أنّ تحقیق هذا الأمر شیء محال،و أنتم عاجزون عن تنفیذه.

و علی هذا،فلا«المقتضی»تحت اختیارکم،و لا القدره علی إیجاد«المانع»، فما ذا یمکنکم فعله فی هذا الحال؟إذا،موتوا بغیظکم و حسدکم،و افعلوا ما شئتم..

و بهذا الشکل فإنّ الآیتین لا تکرّران موضوعا واحدا کما توهّمه مجموعه من المفسّرین،بل إنّ کلّ واحده منهما تتناول جانبا من جوانب الموضوع.

الآیه الأخیره فی بحثنا جاءت بمثابه تحقیر لأولئک المغرورین السفهاء،قال تعالی: جُنْدٌ مٰا هُنٰالِکَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزٰابِ (۱) فهؤلاء جنود قلائل مهزومین..

«هنالک»إشاره للبعید،و بسبب وجودها فی الآیه،فقد اعتبر بعض المفسّرین أنّها إشاره إلی هزیمه المشرکین فی معرکه بدر،التی دارت رحاها فی منطقه بعیده بعض الشیء عن مکّه المکرّمه.

و استخدام کلمه(الأحزاب)هنا إشاره حسب الظاهر إلی کلّ المجموعات التی وقفت ضدّ رسل اللّه،و الذین أبادهم الباری عزّ و جلّ،و مجتمع مکّه المشرک هو مجموعه صغیره من تلک المجموعات،و الذی سیبتلی بما ابتلوا به(الشاهد علی

۱- ۱) -(ما)تعدّ زائده فی هذه العباره،إنّما جاءت للتحقیر و التقلیل،و(جند)خبر لمبتدأ محذوف،و(مهزوم)خبر ثان و العباره فی الأصل هی(هم جند ما مهزوم من الأحزاب)و البعض یعتقد بعدم وجود محذوف فی الجمله و (جند)مبتدأ و(مهزوم)خبر،و لکن الرأی الأوّل أنسب.

هذا الحديث هو ما سيرد فی الآیات القادمه التی تتطرّق لهذه المسأله).

و لا ننسی أنّ هذه السوره من السور المکیّه،و نزلت فی وقت کان فیه عدد المسلمین قلیلا جدّا،بحیث کان من الیسیر علی المشرکین أن یبیدوهم بسهوله، قال تعالی: تَخٰافُونَ أَنْ یَتَخَطَّفَکُمُ النّٰاسُ . (1)

و فی ذلک الیوم لم تکن هنالک أیّه دلائل توضّح إمکانیه انتصار المسلمین، حیث لم تکن المعارک قد وقعت،و لا الانتصارات فی بدر و الأحزاب و حنین قد تحقّقت.

و لکن القرآن قال بحزم إنّ هؤلاء الأعداء-الذین هم مجموعه صغیره- سیهزمون فی نهایه المطاف.

و الیوم یبشّر القرآن الکریم مسلمی العالم المحاصرین من کلّ الجهات من قبل القوی المعتدیه و الظالمه بنفس البشائر التی بشّر بها المسلمین قبل(۱۴۰۰)عام، فی أنّ اللّه سبحانه و تعالی سینجز وعده فی هزیمه جند الأحزاب،إن تمسّک مسلمو الیوم بعهودهم تجاه اللّه کما تمسّک بها المسلمون الأوائل.

***

۱- ۱) سوره الأنفال،۲۶.

الآیات [سوره ص (۳۸): الآیات ۱۲ الی ۱۶]

اشاره

کَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عٰادٌ وَ فِرْعَوْنُ ذُو اَلْأَوْتٰادِ (۱۲) وَ ثَمُودُ وَ قَوْمُ لُوطٍ وَ أَصْحٰابُ اَلْأَیْکَهِ أُولٰئِکَ اَلْأَحْزٰابُ (۱۳) إِنْ کُلٌّ إِلاّٰ کَذَّبَ اَلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقٰابِ (۱۴) وَ مٰا یَنْظُرُ هٰؤُلاٰءِ إِلاّٰ صَیْحَهً وٰاحِدَهً مٰا لَهٰا مِنْ فَوٰاقٍ (۱۵) وَ قٰالُوا رَبَّنٰا عَجِّلْ لَنٰا قِطَّنٰا قَبْلَ یَوْمِ اَلْحِسٰابِ (۱۶)

التّفسیر

اشاره

تکفیهم صیحه سماویه واحده:

تتمّه للآیه الآنفه الذکر،التی بشّرت بهزیمه المشرکین مستقبلا، و وصفتهم بأنّهم مجموعه صغیره من الأحزاب،تناولت آیات بحثنا الحالی بعض الأحزاب التی کذّبت رسلها،و بیّنت المصیر الألیم الذی کان بانتظارها.

إذ تقول،إنّ أقوام نوح و عاد و فرعون ذی الأوتاد کانت قد کذّبت قبلهم بآیات اللّه و رسله کَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عٰادٌ وَ فِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتٰادِ .

کذلک أقوام ثمود و لوط و أصحاب الأیکه-أی قوم شعیب-کانت هی الاخری

قد كذّبت رسلهم وَ ثَمُودُ وَ قَوْمُ لُوطٍ وَ أَصْحٰابُ الْأَيْكَهِ أُولٰئِكَ الْأَحْزٰابُ (۱) .

نعم،هذه هی ستّه مجامیع من أحزاب الجهل و عباده الأصنام،التی عملت ضدّ أنبیاء اللّه،و رفضت قبول ما جاؤوا به من عند اللّه.

فقوم نوح واجهوا هذا النّبی العظیم.

و قوم عاد واجهوا نبیّ اللّه«هود».

و فرعون وقف ضدّ«موسی و هارون».

و قوم ثمود وقفوا بوجه«صالح».

و قوم لوط وقفوا بوجه نبی اللّه«لوط».

و أصحاب الأیکه واجهوا نبی اللّه«لوط ۲.

و أصحاب الأیکه واجهوا نبی اللّه«شعیب».

إذ كذّبوا و آذوا أنبیاء اللّه و المؤمنین و بذلوا فی ذلک قصاری جهودهم،و لکن فی نهایه الأمر نزل علیهم العذاب الإلهی و جعلهم کعصف مأکول.

فقوم نوح أبیدوا بالطوفان و سیول الأمطار.

و قوم عاد أبیدوا بالأعاصیر الشدیده.

و فرعون و أتباعه اغرقوا فی نهر النیل.

و قوم ثمود اهلکوا بالصیحه السماویه.

و قوم لوط بالزلزله الرهیبه المقترنه بأمطار الحجاره السماویه.

و قوم شعیب ابیدوا بالصاعقه المهلکه التی نزلت علیهم من السحب الکثیفه التی غطّت سماء المنطقه،و بهذا الشکل فإنّ(الماء)و(الهواء)و(التراب)و(النار)التی تشکّل أسس حیاه الإنسان،کانت السبب فی موت و إباده تلک الأقوام الطائشه و العاصیه،و جعلهم فی طی النسیان،حیث لم یبق لهم أیّ أثر.فعلی مشرکی مکّه

۱- ۱) -عباره(أولئک الأحزاب)مبتدأ و خبر،و(أولئک)إشاره إلی الأقوام السته المذکوره فی هاتین الآیتین،و (أحزاب)إشاره إلی

الأحزاب التى وردت فى الآيتين السابقتين اللتين اعتبرتا مشركى مكّه مجموعه صغيره من تلك المجموعات.

أن يدركوا بأنّهم لا يعدّون سوى مجموعه صغيره بالنسبه إلى تلك الأقوام،فلم لا يصحون من غفلتهم.

وصف(فرعون)ب(ذى الأوتاد)أى(صاحب الأوتاد القويّه)فى الآيات المذكوره أعلاه،و فى الآيه(١٠)من سوره الفجر،كنايه عن قوّه حكم فرعون و الفراعنه و ثباته،و تستعمل هذه الكنايه بكثره،فيقال:الشخص الفلانى أوتاده ثابته،أو إنّ أوتاد هذا العمل ثابته،أو إنّها مثبته بأربعه أوتاد،و ذلك لأنّ الأوتاد دائما تستخدم لتثبيت أركان الخيمه.

و البعض اعتبرها إشاره إلى كثره جيوش فرعون السائره فى الأرض و كثره أوتاد خيامهم.

و البعض الآخر قال:إنّها إشاره إلى التعذيب الوحشى الذى كان الفراعنه يعذّبون به معارضيهم،إذ كانوا يربطون الأشخاص بأربعه أوتاد على الأرض أو على الخشبه أو على الحائط،و كانوا يثبتون و تدين فى الرجلين،و و تدين آخرين فى اليدين و يتركون الشخص يتعذّب حتّى يموت.

و أخيرا،احتمل البعض أنّ الأوتاد تعنى الأهرامات الموجوده فى أرض مصر، و التى تقوم فى الأرض كالأوتاد،و لأنّ الفراعنه هم الذين بنوا الأهرامات،فإنّ هذا الوصف ينحصر بهم فقط.

على أيّه حال فإنّه لا يوجد أىّ اختلاف بين تلك الاحتمالات،و من الممكن جمعها لتعطى مفهوم هذه الكلمه.

أمّا(الأيكه)فإنّها تعنى الشجره،و(أصحاب الأيكه)هم قوم نبى اللّه«شعيب» الذين كانوا يعيشون فى منطقه خضراء بين الحجاز و الشام،و قد تمّ التطرّق إليها بصوره موسّعه فى تفسير الآيه(٧٨)فى سوره الحجرات.

نعم،فكلّ قوم من هذه الأقوام كذّب بما جاء به رسل اللّه،و أنزل العذاب الإلهى

بحقّه إِنْ كُلٌّ إِلاّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقابِ (۱) .

و التأريخ بيّن كيف أنّ كلّ قوم من تلك الأقوام ابيد بشكل من أشكال العذاب، و كيف أنّ مدنهم تحوّلت إلى خرائب و أطلال خلال لحظات،و أصبح ساكنوها أجساد بلا أرواح!! فهل يتوقّع مشركو مكّه أن يكون مصيرهم أفضل من مصير أولئك من جرّاء الأعمال العدائيه التی يقومون بها؟فی حين أنّ أعمالهم هی نفس أعمال أولئک، و سنّه اللّه هی نفس تلک السنّه؟ لذا فإنّ الآيه التاليه تخاطبهم بلغه التهديد الحازمه و القاطعه:ما ينتظر هؤلاء من جرّاء أعمالهم إلاّ صيحه سماويه واحده تقضی عليهم و تهلکهم و ما لهم من رجوع، وَ ما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلاّ صَيْحَهً واحِدَهً ما لَها مِنْ فَواقٍ .

يمکن أن تکون هذه الصيحه مماثله للصيحات السابقه التی نزلت علی الأقوام الماضيه،کأن تکون صاعقه رهيبه أو زلزالا عنيفا يدمّر حياتهم و ينهيها.

و قد تکون إشاره إلی صيحه يوم القيامه،التی عبّر عنها القرآن الکريم ب(النفخه الاولی فی الصور).

اعترض بعض المفسّرين علی التّفسير الأوّل،و اعتبروه مخالفا لما جاء فی الآيه(۳۳)من سوره الأنفال التی تقول: وَ ما کانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ .

أمّا بالنظر إلی أنّ المشرکين کانوا لا يعتقدون برسول الإسلام صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و لا يؤمنون برسالته،بالإضافه إلی کون أعمالهم تشابه أعمال الأقوام السابقه التی أهلکت بالصيحات السماويه،لذا فعليهم أن يتوقّعوا مثل ذلک المصير و فی أیّ لحظه،لأنّ الآيه تتحدّث عن(الانتظار).

کما اعترض آخرون علی التّفسير الثانی بأنّ مشرکی مکّه لن يبقوا أحياء حتّی

---

۱ - ۱) -عباره(فحقّ عقاب)فی الأصل(فحقّ عقابی)،و قد حذفت الياء منها،طبقا للمعمول به،و أبقيت الکسره لتدلّ عليها. (حقّ)فعل و(عقاب)فاعل،يعنی أنّ عقابی وجب عليهم و سيتحقّق.

آخر الزمان کی تشملهم الصیحه.

و لکن هـذا الاـعتراض غیر وارد،لنفس السـبب الـذی ذکرنـاه من قبـل،و هو أنّه لاـ أحـد من الناس یعلم لحظه نهایه العالم و قیام الساعه،و لذا فعلی المشرکین أن یترقّبوا لحظه بلحظه تلک الصیحه (۱) .

علی أیّه حال،فکأنّ أولئک الجهله ینتظرون العـذاب الإلهی جزاء تکذیبهم و إنکارهم لآیات اللّه سـبحانه و تعالی،و تقوّلهم علی الرّسول الأکرم صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم بکلام لا یلیق،و إصـرارهم علی عباده الأصـنام،و الظلم و إشاعه الفساد،العذاب الذی سیحرق حصیله أعمارهم،أو الصیحه التی تنهی کلّ شیء فی العالم،و تؤدّی بأولئک إلی طریق لا رجعه فیه.

«فواق»علی وزن(رواق)و قد ذکر أهل اللغه و التّفسیر عدّه معان لها منها:أنّها الفاصل بین کلّ رضعتین،إذ بعد فتره معیّنه من حلب الثدی بصوره کامله یعود فینزل إلیه اللبن من جدید.

و قال البعض:إنّها الفاصل بین فتح الأصابع عن الثدی بعد حلبه و إعادتها لحلبه مرّه اخری.

و بما أنّ الثدی یستریح قلیلا بعد کلّ حلبه،فکلمه(فواق)یمکن أن تعطی معنی الهدوء و الراحه.

و بمـا أنّ هـذه الفاصـله من أجـل عوده الحلیب مرّه اخری إلی الثـدی فـإنّ هـذه الکلمه تعطی مفهوم العوده و الرجوع،کما یقال للمریض الذی تتحسّن حالته الصـحیّه بأن(أفاق)و ذلک لأنّه اسـتعاد صـحّته و سـلامته،کما یقال لحاله السـکران الذی یصحو من سکرته و للمجنون عند ما یستعید عقله«إفاقه»عند عودتهما إلی

۱- ۱) -أمّا الرأی الذی احتمله بعض المفسّـرین فی أنّ المقصود هنا هو الصـیحه الثانیه،و التی تطلق لإحیاء الموتی و سوقهم إلی محکمه العدل الإلهیّه،فإنّه أمر مستبعد جدّا،لأنّه لا ینسجم مع الآیه التالیه و الآیات السابقه.

الشعور و الإدراک و العقل (۱) .

علی أیّه حال،فالصیحه الرهیبه لیس بعدها رجوع و لا راحه و لا هدوء و لا إفاقه،ففور شروعها تغلق کلّ الأبواب أمام الإنسان، و لا ینفع الندم حینئذ،إذ لا مجال لإصلاح الماضی،و لا مجیب لصراخهم.

الآیه الأخیره فی هذا البحث تشیر إلی کلام آخر للکافرین حیث قالوا باستهزاء و سخریّه:ربّنا عجّل علینا العذاب قبل حلول یوم الحساب، وَ قٰالُوا رَبَّنٰا عَجِّلْ لَنٰا قِطَّنٰا قَبْلَ یَوْمِ الْحِسٰابِ .

فهؤلاء المغرورون بلغ بهم الغرور حتّی إلی الاستهزاء بعذاب اللّه و محکمته العادله،و إلی القول:لم تأخّرت حصّتنا من العذاب؟! لماذا لا یوفّینا اللّه بسرعه حظّنا من العذاب؟ و الأقوام السابقه کانت تضمّ الکثیر من أمثال هؤلاء السفهاء الذین نعقوا کالحیوانات فور نزول العذاب الإلهی علیهم،و لم یهتمّ لنعیقهم أحد.

«قط»علی وزن(جنّ)تعنی قطع الشیء عرضا،فیما تعنی کلمه(قد)و هی علی نفس الوزن السابق،قطع الشیء طولا!و کلمه(قط)هنا تعنی نصیبا أو سهما.

و أحیانا تعنی الورقه التی یرسم علیها،أو تکتب علیها أسماء أشخاص فازوا بالجوائز.

لهذا فإنّ بعض المفسّرین،قالوا فی تفسیر الآیه المذکوره أعلاه:إنّ المقصود منها هو أنّ اللّه سبحانه و تعالی یسلّم عباده صحائف أعمالهم قبل حلول یوم الجزاء،و هذا الکلام قیل بعد نزول آیات قرآنیه تؤکّد علی أنّ هناک مجموعه تعطی صحائفها بالید الیمنی،و مجموعه اخری تستسلم صحائفها بالید الیسری.

ص:۴۶۵

---

۱ – ۱) -بعض اللغویین قالوا بوجود عدّه فروق بین کلمه(فواق)المفتوحه و(فواق)المضمومه،و البعض قال:إنّهما بمعنی واحد،و من یرید توضیحا أکثر علیه مراجعه مفردات الراغب،و تفسیر روح المعانی،و الفخر الرازی، و تفسیر أبی الفتوح،و القرطبی،و مصادر اللغه.

و هنـا قالت مجموعه من مشـركى مكّه و هى تسـتهزئ:ما أجمل أن تسـلّم إلينا الآن صـحف أعمالنا لنقرأها و نشاهـد ماذا عملنا؟ على أيّه حـال،فـإنّ«الجهـل»و«الغرور»صـفتان قبيحتـان مـذمومتان،و لا تنفصـل الواحـده عـن الاخرى،إذ أنّ الجهله مغرورون،و المغرورون جهله،و شواهد هذا الوصف كانت موجوده بكثره عند مشركى عصر الجاهليه.

***

الآیات [سوره ص (۳۸): الآیات ۱۷ الی ۲۰]

اشاره

اِصْبِرْ عَلیٰ مٰا یَقُولُونَ وَ اُذْکُرْ عَبْدَنٰا دٰاوُدَ ذَا اَلْأَیْدِ إِنَّهُ أَوّٰابٌ (۱۷) إِنّٰا سَخَّرْنَا اَلْجِبٰالَ مَعَهُ یُسَبِّحْنَ بِالْعَشِیِّ وَ اَلْإِشْرٰاقِ (۱۸) وَ اَلطَّیْرَ مَحْشُورَهً کُلٌّ لَهُ أَوّٰابٌ (۱۹) وَ شَدَدْنٰا مُلْکَهُ وَ آتَیْنٰاهُ اَلْحِکْمَهَ وَ فَصْلَ اَلْخِطٰابِ (۲۰)

التّفسیر

اشاره

تعلّم من داود:

نبیّ اللّه داود علیه السّلام أحد کبار أنبیاء بنی إسرائیل و حاکما لدوله کبیره،و قد ورد ذکر مقامه العالی فی عدّه آیات بیّنات من القرآن الکریم.

و تتمّه للبحوث السابقه التی استعرضت فیها آیات القرآن أذی المشرکین لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و نسبتهم إلیه ما لا یلیق به.فإنّ القرآن الکریم لمواساه رسول اللّه و أصحابه المؤمنین القلائل،طرح قصّه داود علیه السّلام،داود الذی منحه اللّه قدره واسعه، حتّی أنّ الجبال و الطیور کانت مسخّره له،لیبیّن تبارک و تعالی من خلال هذه القصّه لنبیّه الأکرم أنّ اللطف الإلهی إن شمل أحدا فإنّ عموم الناس لا یستطیعون عمل أی شیء إزاء هذا اللطف.

ص :۴۶۷

فداود-مع هذه القدره العظيمه التى منحها إيّاه ربّ العالمين-لم يسلّم من تجريح الآخرين و بذاءه لسانهم،و فى هذا الكلام مواساه للنبى الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى أنّ هذه المسأله لا تنحصر بك فقط،و إنّما شاركك فيها كبار الأنبياء عليهم السّلام.

ففى البدايه تقول آيات بحثنا: اِصْبِرْ عَلىٰ مٰا يَقُولُونَ وَ اذْكُرْ عَبْدَنٰا دٰاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوّٰابٌ .

«الأيد»بمعنى القدره،و تأتى أيضا بمعنى النعمه.

و قد توفّر المعنيان المذكوران أعلاه فى داود،إذ كان يتمتّع بقوّه جسديه مكّنته من أن يقتل الطاغيه جالوت بضربه قويّه واحده بواسطه حجر رماه من مقلاعه على جالوت،فأسقطه من فرسه مضرّجا بدمه خلال إحدى المعارك.

و قال البعض:إنّ الحجر مزّق صدر جالوت و خرج من ظهره.

أمّا من حيث قدرته السياسيه،فقد كانت حكومته قويّه و مستعدّه دائما لمواجهه الأعداء،بكلّ قوّه و اقتدار،حتّى قيل أنّ الآلاف من جنده كانت تقف على أهبّه الاستعداد من المساء حتّى الصباح فى أطراف محراب عبادته.

و من حيث قدرته الأخلاقيه و المعنويه و العباديه،فإنّه كان يقوم معظم الليل فى عباده اللّه،و يصوم نصف أيّام السنه.

و أمّا من حيث النعم الإلهيّه،فقد أنعم عليه البارئ عزّ و جلّ بالكثير من النعم الظاهريه و الباطنيه.

خلاصه الحديث،إنّ داود كان رجلا ذا قوّه و قدره فى الحروب و العبادات و العلم و المعرفه و فى السياسه،و كان أيضا صاحب نعمه كبيره (1) .

«أوّاب»مشتقّه من(أوب)على وزن(قول)و تعنى العوده الاختياريه إلى أمر ما،و لكون(أوّاب)على صيغه المبالغه،فإنّها تشير إلى أنّه كان كثيرا ما يعود إلى اللّه سبحانه و تعالى،و كان يتوب عن أصغر غفله و ترك للأولى.

1- 1) -(أيد)جمع(يد)،و قد استعملت هنا لكونها مظهر القوّه و النعمه و الملك،و قد حملت كلّ هذه المعانى هنا.

و طبقا لاسلوب القرآن فی الإیجاز و التفصیل فی ذکر القضایا المختلفه،فإنّ الآیات الآنفه بعد أن تطرّقت بصوره موجزه إلی نعم اللّه علی داود،تشرح أنواعا من تلک النعم،قال تعالی: إِنّٰا سَخَّرْنَا الْجِبٰالَ مَعَهُ یُسَبِّحْنَ بِالْعَشِیِّ وَ الْإِشْرٰاقِ (۱) .

کذلک سخّرنا له مجامیع الطیور کی تسبّح اللّه معه وَ الطَّیْرَ مَحْشُورَهً .

فکلّ الطیور و الجبال مسخّره لداود و مطیعه لأوامره،و تسبّح معه الباریٔ عزّ و جلّ،و تعود إلیه، کُلٌّ لَهُ أَوّٰابٌ .

الضمیر(له)یمکن أن یعود علی داود،و طبقا لهذا فإنّ مفهوم الجمله ینطبق مع ما ذکرناه أعلاه،و هناک احتمال وارد أیضا و هو أنّ ضمیر(له)یعود إلی ذات اللّه الطاهره،و یعنی أنّ کلّ ذرّات العالم تعود إلیه و مطیعه لأوامره.

هناک سؤال یطرح،و هو:کیف تردّد الطیور و الجبال صوت التسبیح مع داود؟ اختلف المفسّرون فی الإجابه علی هذا السؤال،و ذکروا عدّه تفاسیر و احتمالات له،منها:

۱-قال البعض:إنّ صوت داود الجذّاب کان یتردّد صداه عند ما تصطدم موجاته الصوتیه بالجبال فیجذب الطیور إلیه(و بالطبع فإنّ هذه لا تعدّ فضیله کی یتطرّق إلیها القرآن المجید و بشیء من العظمه).

۲-و احتمل البعض الآخر أنّ تسبیحها کان توأما مع صوت ظاهری،مرافقا لنوع من الإدراک و الشعور الذی هو فی باطن ذرّات العالم،و طبقا لهذا الاحتمال، فإنّ کلّ موجودات العالم تتمتّع بنوع من العقل و الشعور،و حینما تسمع صوت مناجاه هذا النّبی الکبیر تردّد معه المناجاه،لیمتزج تسبیحها مع تسبیح داود علیه السّلام.

۳-و احتملوا أیضا أنّ هذا التسبیح هو التسبیح التکوینی الذی ینطق به لسان

۱- ۱) -(معه)من الممکن أن تکون متعلّقه بقوله(یسبّحن)و وفقا لهذا فإنّ اقتداء الجبال بداود فی التسبیح یوضّح نفس ما جاء فی الآیه(۱۰)من سوره سبأ یٰا جِبٰالُ أَوِّبِی مَعَهُ و یمکن أن تکون(معه)متعلّقه ب(سخّرنا)و فی هذه الحاله فإنّ مفهوم العباره یکون(إنّا سخّرنا له الجبال)و استخدام کلمه(معه)بدلا من(له)إنّما تمّ لتوضیح اشتراکهما فی التسبیح.

حال كلّ مخلوق،و نظام خلقهم يقول:إنّ اللّه خال من العيوب و النقص،و إنّه مقدّس و منزّه و عالم و قادر،و يمتلك كافّه صفات الكمال.

و لكن هذا المعنى لا يختصّ بداود حتّى يعدّ من مناقبه،و لهذا فإنّ التّفسير الثانى يعدّ أنسب،و ما ذكر فيه غير مستبعد قياسا بقدره اللّه.

فالمناجاه موجوده داخل جميع مخلوقات الكون،و ترانيمها تتردّد على الدوام فى بواطنها،و قد أظهرها اللّه سبحانه و تعالى لداود عليه السّلام،كما فى الحصاه التى كانت تسبّح اللّه و هى فى يد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و تواصل الآيه التاليه استعراض نعم اللّه على داود عليه السّلام،قال تعالى: وَ شَدَدْنا مُلْكَهُ أى ثبّتنا و أحكمنا مملكته،بحيث كان العصاه و الطغاه من أعدائه يحسبون لمملكته ألف حساب لقوّتها.

و إضافه إلى هذا فقد آتيناه الحكمه و العلم و المعرفه وَ آتَيْناهُ الْحِكْمَةَ الحكمه التى يقول بشأنها القرآن المجيد وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً .

(الحكمه)هنا تعنى العلم و المعرفه و حسن تدبير امور البلاد،أو مقام النبوّه،أو جميعها.

و قد تكون«الحكمه»أحيانا ذات جانب علمى و يعبّر عنها ب«المعارف العاليه»،و اخرى لها جانب عملى و يعبّر عنها(بالأخلاق و العمل الصالح)و قد كان لداود فى جميعها باع طويل.

و آخر نعمه إلهيّه أنعمت على داود هى تمكّنه من القضاء و الحكم بصوره صحيحه و عادله وَ فَصْلَ الْخِطابِ .

و قد استخدمت عباره(فصل الخطاب)لأنّ كلمه«الخطاب»تعنى أقوال طرفى النزاع،أمّا(فصل)فإنّها تعنى القطع و الفصل.

و كما هو معروف فإنّ أقوال طرفى النزاع لا تقطع إلاّ إذا حكم بينهم بالعدل، و لهذا فإنّ العباره هذه تعنى قضائه بالعدل.

و هناک احتمال آخر لتفسیر هذه العباره،و هو أنّ اللّه سبحانه و تعالی أعطی داود منطقا قویّا یدلّل علی سمو و عمق تفکیره،و لم یکن هذا خاصّا بالقضاء و حسب،بل فی کلّ أحادیثه.

حقّا،لیس من المفروض أن ییأس أحد من لطف اللّه،اللّه الذی یستطیع أن یعطی الإنسان اللائق و المناسب کلّ تلک القوّه و القدره.و هذه لیست مواساه للنبی الأکرم و المؤمنین فی مکّه الذین کانوا یعیشون فی تلک الأیّام تحت أصعب الظروف و أشدّها، بل مواساه لکلّ المؤمنین المضطهدین فی کلّ مکان و زمان.

***

بحث

اشاره

الصفات العشر لداود علیه السّلام:

ذکر بعض المفسّرین من الآیات محلّ البحث عشر مواهب إلهیّه عظیمه کانت لداود علیه السّلام تعکس مقام هذا النّبی و منزلته العظیمه من جهه،و تعکس خصائص الإنسان الکامل من جهه اخری:

۱-اللّه سبحانه و تعالی یأمر نبی الإسلام و الرحمه محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم رغم مکانته العالیه بأن یتّخذ من داود أسوه له فی تحمّل الصبر اِصْبِرْ عَلیٰ مٰا یَقُولُونَ وَ اذْکُرْ .

۲-القرآن وصف داود بالعبد،و فی الحقیقه أنّ أهمّ خصوصیه لداود هی عبودیته للّه،قال تعالی: عَبْدَنٰا دٰاوُدَ و نقرأ شبیه هذا المعنی بشأن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی مسأله المعراج سُبْحٰانَ الَّذِی أَسْریٰ بِعَبْدِهِ... (الإسراء-۱).

۳-امتلاکه للقدره و القوّه(فی طاعه الباری عزّ و جلّ و الاحتراز عن ارتکاب المعاصی و حسن تدبیره لشؤون مملکته) ذَا الْأَیْدِ و جاءت أیضا بشأن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هُوَ الَّذِی أَیَّدَکَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِینَ . (۱)

۱- ۱) -الأنفال،۶۲.

۴-وصفه بالأوّاب،و تعنی رجوعه المتکرّر و المستمر إلی اللّه سبحانه و تعالی، قال تعالی: إِنَّهُ أَوّابٌ .

۵-تسخیر الجبال معه لتسبّح فی الصباح و المساء،و هذا الأمر یعدّ من مفاخره،قال تعالی: إِنّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ یُسَبِّحْنَ بِالْعَشِیِّ وَ الْإِشْراقِ .

۶-مناجاه الطیور و تسبیحها اللّه مع داود،و هذه من النعم التی أنعمها اللّه علی داود،قال تعالی: وَ الطَّیْرَ مَحْشُورَهً .

۷-استمرار الجبال و الطیور فی التسبیح مع داود،و کلّ مرّه یسبّح فیها تعود و تسبّح معه،قال تعالی: کُلٌّ لَهُ أَوّابٌ .

۸-أعطاه اللّه الملک و الحکومه التی أحکمت أسسها،إضافه إلی وضع کلّ الوسائل المادیّه و المعنویه التی یحتاجها تحت تصرّفه وَ شَدَدْنا مُلْکَهُ .

۹-منحه ثروه مهمّه اخری،و هی العلم و المعرفه التی تفوق الحدّ الطبیعی،العلم و المعرفه التی هی منبع خیر کثیر و مصدر کلّ برکه و إحسان أینما کانت،قال تعالی:

وَ آتَیْناهُ الْحِکْمَهَ

.

۱۰-و أخیرا فقد منّ اللّه علیه بمنطق قوی و حدیث مؤثّر و نافذ،و قدره کبیره علی القضاء و التحکیم بصوره حازمه و عادله،قال تعالی: وَ فَصْلَ الْخِطابِ (۱) .

حقّا إنّ أسس أی حکومه لا یمکن أن تصبح محکمه بدون هذه الصفات،العلم و المنطق و تقوی اللّه،و القدره علی ضبط النفس،و نیل مقام العبودیه للّه.

***

۱- ۱) التفسیر الکبیر للفخر الرازی،ذیل آیات البحث المجلد ۲۶،الصفحه ۱۸۳.

الآيات [سوره ص (٣٨): الآيات ٢١ الى ٢٥]

اشاره

وَ هَلْ أَتٰاکَ نَبَأُ اَلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا اَلْمِحْرٰابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلىٰ دٰاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قٰالُوا لاٰ تَخَفْ خَصْمٰانِ بَغىٰ بَعْضُنٰا عَلىٰ بَعْضٍ فَاحْکُمْ بَيْنَنٰا بِالْحَقِّ وَ لاٰ تُشْطِطْ وَ اِهْدِنٰا إِلىٰ سَوٰاءِ اَلصِّرٰاطِ (٢٢) إِنَّ هٰذٰا أَخِی لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَةً وَ لِیَ نَعْجَةٌ وٰاحِدَةٌ فَقٰالَ أَکْفِلْنِيهٰا وَ عَزَّنِی فِی اَلْخِطٰابِ (٢٣) قٰالَ لَقَدْ ظَلَمَکَ بِسُؤٰالِ نَعْجَتِکَ إِلىٰ نِعٰاجِهِ وَ إِنَّ کَثِيراً مِنَ اَلْخُلَطٰاءِ لَيَبْغِی بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ إِلاَّ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ وَ قَلِيلٌ مٰا هُمْ وَ ظَنَّ دٰاوُدُ أَنَّمٰا فَتَنّٰاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ رٰاکِعاً وَ أَنٰابَ (٢۴) فَغَفَرْنٰا لَهُ ذٰلِکَ وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنٰا لَزُلْفىٰ وَ حُسْنَ مَآبٍ (٢۵)

التّفسير

اشاره

داود و الامتحان الكبير:

طرحت هذه الآيات بحث بسيط و واضح عن قضاء داود،و نتيجه لتحريف و سوء تعبير بعض الجهله فقد أثيرت ضجّه عظيمه فی أوساط المفسّرين،و كانت

أمواج هذه الضجّه من القوّه بحيث جرفت معها بعض المفسّرين،و جعلتهم يحكمون بشىء غير مقبول،و يقولون ما لا يليق بهذا النّبى الكبير.

و فى هذا المجال نحاول بيان مفهوم الآيات دون شرح و تفصيل كى يفهم القارئ الكريم مفهوم الآيات بذهنيه صافيه،و بعد الانتهاء من تفسيرها باختصار نتطرّق إلى الآراء المختلفه التى قيلت بشأنها.و تتمّه للآيات السابقه التى استعرضت الصفات الخاصّه بداود و النعم الإلهيّه التى أنزلها البارى عزّ و جلّ عليه، يبيّن القرآن المجيد أحداث قضيّه عرضت على داود.

ففى البدايه يخاطب القرآن المجيد الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: وَ هَلْ أَتٰاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرٰابَ .

(الخصم)جاءت هنا كمصدر،و أكثر الأحيان تطلق على الطرفين المتنازعين، و تستعمل هذه الكلمه للمفرد و الجمع،و أحيانا تجمع على(خصوم).

(تسوّروا)مشتقّه من(سور)و هو الحائط العالى الذى يبنى حول البيت أو المدينه،و تعنى هذه الكلمه فى الأصل القفز أو الصعود إلى الأعلى.

«محراب»تعنى صدر المجلس أو الغرف العليا،و لأنّها أصبحت محلا للعباده أخذ تدريجيّا يطلق عليها اسم المعبد.و تصطلح اليوم على المكان الذى يقف فيه إمام الجماعه لأداء مراسم صلاه الجماعه،و فى المفردات،نقل عن البعض أنّ سبب إطلاق كلمه«المحراب»على محراب المسجد،هو لكونه مكانا للحرب ضدّ الشيطان و هوى النفس.

على أيّه حال،فرغم أنّ داود عليه السّلام كان محاطا بأعداد كبيره من الجند و الحرس، إلاّ أنّ طرفى النزاع تمكّنا-من طريق غير مألوف-تسوّر جدران المحراب، و الظهور أمام داود عليه السّلام فجأه،ففزع عند رؤيتهما،إذ دخلا عليه بدون استئذان و من دون إعلام مسبق،و ظنّ داود عليه السّلام أنّهم يكنّون له السوء، إِذْ دَخَلُوا عَلىٰ دٰاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ .

إلاّ أنّهما عمدا بسرعه إلی تطییب نفسه و إسکان روعه،و قالا له:لا تخف نحن متخاصمان تجاوز أحدنا علی الآخر قٰالُوا لاٰ تَخَفْ خَصْمٰانِ بَغیٰ بَعْضُنٰا عَلیٰ بَعْضٍ .

فاحکم الآن بیننا و لا تتحیّز فی حکمک و أرشدنا إلی الطریق الصحیح فَاحْکُمْ بَیْنَنٰا بِالْحَقِّ وَ لاٰ تُشْطِطْ وَ اهْدِنٰا إِلیٰ سَوٰاءِ الصِّرٰاطِ .

«تشطط»مشتقّه من(شطط)علی وزن(فقط)،و تعنی البعید جدّا،و لکون الظلم و الطغیان یبعدان الإنسان کثیرا عن الحقّ،فکلمه(شطط)تعنی الابتعاد عن الحقّ، کما تطلق علی الکلام البعید عن الحقیقه.

من المسلّم به أنّ قلق و روع«داود»قلّ بعض الشیء عند ما وضّح الأخوان هدف مجیئهما إلیه،و لکن بقی هناک سؤال واحد فی ذهنه هو،إذا کنتما لا تکنّان السوء،فما هو الهدف من مجیئکما إلیّ عن طریق غیر مألوف؟ و لذلک تقدّم أحدهما و طرح المشکله علی داود،و قال:هذا أخی،یمتلک(٩٩) نعجه،و أنا لا أمتلک إلاّ نعجه واحده،و إنّه یصرّ علیّ أن أعطیه نعجتی لیضمّها إلی بقیّه نعاجه،و قد شدّد علیّ فی القول و أغلظ إِنَّ هٰذٰا أَخِی لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَهً وَ لِیَ نَعْجَهٌ وٰاحِدَهٌ فَقٰالَ أَکْفِلْنِیهٰا وَ عَزَّنِی فِی الْخِطٰابِ .

«النعجه»هی الأنثی من الضأن.و قد تطلق علی أنثی البقر الوحشی و الخراف الجبلیه.

«أکفلنیها»مشتقّه من الکفاله،و هی هنا کنایه عن التخلّی(و معنی الجمله اجعلها لی و فی ملکیتی و کفالتی،أی امنحنی إیّاها).

«عزّنی»مشتقّه من(العزّه)و تعنی التغلّب،و بذا یکون معنی الجمله إنّه تغلّب علیّ.

و هنا التفت داود علیه السّلام إلی المدّعی قبل أن یستمع کلام الآخر(کما یوضّحه ظاهر الآیه)و قال:من البدیهی أنّه ظلمک بطلبه ضمّ نعجتک إلی نعاجه قٰالَ لَقَدْ ظَلَمَکَ

بِسُؤٰالِ نَعْجَتِکَ إِلیٰ نِعٰاجِهِ

.

و هذا الأمر لیس بجدید،إذ أنّ الکثیر من الأصدقاء و المخالطین بعضهم لبعض یبغی علی صاحبه،إلاّ الذین آمنوا و عملوا الصالحات و هم قلّه: وَ إِنَّ کَثِیراً مِنَ الْخُلَطٰاءِ لَیَبْغِی بَعْضُهُمْ عَلیٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ وَ قَلِیلٌ مٰا هُمْ (۱) (۲) .

نعم فالأشخاص الذین یراعون بصوره کامله فی معاشرتهم و صداقتهم الطرف المقابل،و لا یعتدون علیه أدنی اعتداء و یؤدّون حقوق أصدقائهم و معارفهم بصوره کامله قلیلون جدّا،و هم المتزوّدون بالإیمان و العمل الصالح.

علی أیّه حال،فالظاهر أنّ طرفی الخصام اقتنعا بکلام داود علیه السّلام و غادرا المکان.

و لکن داود غرق فی التفکیر بعد مغادرتهما،رغم أنّه کان یعتقد أنّه قضی بالعدل بین المتخاصمین،فلو کان الطرف الثانی مخالفا لادّعاءات الطرف الأوّل-أی المدّعی-لکان قد اعترض علیه،إذن فسکوته هو خیر دلیل علی أنّ القضیّه هی کما طرحها المدّعی.

و لکن آداب مجلس القضاء تفرض علی داود أن یتریّث فی إصدار الأحکام و لا یتعجّل فی إصدارها،و کان علیه أن یسأل الطرف الثانی أیضا ثمّ یحکم بینهما، فلذا ندم کثیرا علی عمله هذا،و ظنّ أنّما فتنه الباری عزّ و جلّ بهذه الحادثه وَ ظَنَّ دٰاوُدُ أَنَّمٰا فَتَنّٰاهُ .

و هنا أدرکته طبیعته،و هی أنّه أوّاب،إذ طلب العفو و المغفره من ربّه و خرّ راکعا

---

۱ - ۱) -«خلطاء»جمع(خلیط)و تعنی الأشخاص أو الأشیاء المخلوطه بعضها مع بعض،کما تطلق علی الصدیق و الشریک و الجار،و رغم أنّ الظلم و الاعتداء لم یختصّ بالخلطاء،إلاّ أنّ ذکر هذه المجموعه بسبب وجود الاتّصالات المتکرّره فیما بینهم،و احتمال حدوث سوء تفاهم فیما بینهم،أو بسبب عدم توقّع حدوث أی ظلم و طغیان من قبل أولئک.

۲- ۲) -ترکیب الجمله هکذا(هم)مبتدأ و(قلیل)خبر إنّ و(ما)زائده وردت هنا للمبالغه فی القلیل.

تائبا إلى اللّه العزيز الحكيم فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ رٰاكِعاً وَ أَنٰابَ .

«خرّ»مشتقّه من(خرير)و تعنی سقوط شیء من علو و يسمع منه الصوت مثل صوت الشلالات،كما أنّها كنايه عن السجود،حيث أنّ الأفراد الساجدين يهوون من حاله الوقوف إلى السجود و يقترن ذلك بالتسبيح.

كلمه(راكعا)التی وردت فی هذه الآيه،إمّا أنّها تعنی السجود كما جاءت فی اللغه،أو لكون الركوع مقدّمه للسجود.

علی أيّه حال،فاللّه سبحانه و تعالی شمل عبده داود بلطفه و عفا عن زلّته من حيث ترك العمل بالأولی،كما توضّحه الآيه التاليه فَغَفَرْنٰا لَهُ ذٰلِكَ .و إنّ له منزله رفيعه عند اللّه وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنٰا لَزُلْفیٰ وَ حُسْنَ مَآبٍ .

«زلفی»تعنی المنزله(و القرب عند اللّه)و(حسن مآب)إشاره إلى الجنّه و نعم الآخره.

***

بحوث

اشاره

١-ما هی حقيقه وقائع قصّه داود؟

الذی وضّحه القرآن المجيد فی هذا الشأن لا يتعدّی أنّ شخصين تسوّرا جدران محراب داود عليه السّلام ليحتكما عنده،و أنّه فزع عند رؤيتهما،ثمّ استمع إلى أقوال المشتكی الذی قال:إنّ لأخيه(٩٩)نعجه و له نعجه واحده،و إنّ أخاه طلب منه ضمّ هذه النعجه إلى بقيّه نعاجه،فأعطی داود عليه السّلام الحقّ للمشتكی،و اعتبر طلب الأخ ذلك من أخيه ظلما و طغيانا،ثمّ ندم علی حكمه هذا،و طلب من اللّه سبحانه و تعالی أن يعفو عنه و يغفر له،فعفا اللّه عنه و غفر له.

و هنا تبرز مسألتان دقيقتان أيضا:الاولی مسأله الامتحان،و الثانيه مسأله الاستغفار.

القرآن الكريم لم يفصّل الحديث بشأن هاتين المسألتين،إلّا أنّ الدلائل الموجوده فى هذه الآيات و الروايات الإسلاميه الوارده بشأن تفسيرها تقول:إنّ داود كان ذا علم واسع و ذا مهاره فائقه فى أمر القضاء،و أراد اللّه سبحانه و تعالى أن يمتحنه،فلذا أوجد له مثل تلك الظروف غير الاعتياديه،كدخول الشخصين عليه من طريق غير اعتيادى و غير مألوف،إذ تسوّرا جدران محرابه،و ابتلائه بالاستعجال فى إصدار الحكم قبل الاستماع إلى أقوال الطرف الثانى،رغم أنّ حكمه كان عادلا.

و رغم أنّه انتبه بسرعه إلى زلّته،و أصلحها قبل مضىّ الوقت،و لكن مهما كان فإنّ العمل الذى قام به لا يليق بمقام النبوّه الرفيع،و لهذا فإنّ استغفاره إنّما جاء لتركه العمل بالأولى،و إنّ اللّه شمله بعفوه و مغفرته.

و الشاهد على هذا التّفسير إضافه إلى ما ذكرناه قبل قليل-هو الآيه التى تأتى مباشره بعد تلك الآيات،و التى تخاطب داود عليه السّلام: يا داوُدُ إِنّا جَعَلْناكَ خَلِيفَهً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاسِ بِالْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ .و هذه الآيه تبيّن أنّ زلّه داود كانت فى كيفيه قضائه و حكمه.

و بهذا الشكل فإنّ الآيات المذكوره أعلاه لا تذكر شيئا يقلّل من شأن و مقام هذا النّبى الكبير.

٢-التوراه و القصص الخرافيه بشأن داود

اشاره

الآن نتصفّح كتاب التوراه لنشاهد ماذا ذكر فيه عن هذه الواقعه،لنعثر على الأساس الذى اعتمد عليه بعض المفسّرين الجهله و غير المطّلعين فى تفسير هذه الآيات.

جاء فى«التوراه»و فى الكتاب الثانى«اشموئيل»الإصحاح الحادى عشر من الجمله الثانيه و حتّى السابعه و العشرين:

«و كان فی وقت المساء،أنّ داود قام عن سريره و تمشّی علی سطح بيت الملک،فرأی من علی السطح امرأه تستحمّ و كانت المرأه جميله المنظر جدّا.

فأرسل داود و سأل عن المرأه فقيل:إنّها(بتشبع) (۱) بنت(اليعام)و زوجه(أوريّا الحتّی) (۲) .

فأرسل داود رسلا و أخذها فدخلت عليه،فاضطجع معها و هی طاهره من طمثها،ثمّ رجعت إلی بيتها،و حبلت المرأه فأرسلت و أخبرت داود بأنّها حبلی.

و بعد علمه بحمل(بتشبع)بعث داود برساله إلی(يوآب) (۳) طلب منه فيها أن يبعث(أوريّا)إليه، فبعث(يوآب)(أوريّا)إليه،وفور وصوله إلی قصر داود، استفسر منه عن سلامه(يوآب)و سلامه الجيش و عن سير المعارک.

و هنا أمر داود(أوريّا)بأن يذهب إلی بيته و يغسل رجليه،فخرج أوريّا من قصر داود،و بعث داود خلفه أنواعا من الطعام،إلاّ أنّ أوريّا نام عند باب قصر داود مع بقيّه عبيد سيّده داود و لم يذهب إلی بيته،و عند ما علم داود أنّ أوريّا لم يذهب إلی بيته،قال داود لأوريا:ألم تكن قد عدت من السفر؟فلما ذا لا تذهب إلی بيتک؟فقال لداود:إنّ الصندوق و إسرائيل و يهودا و سيّدی(يوآب)و عبيد سيّدی يعيشون تحت الخيام فی الصحراء؟فهل يصحّ أن أذهب إلی بيتی لآكل و أشرب و أنام فيه؟أقسم بحياتک أنّی لا أفعل ذلک.

و فی الصباح بعث داود برساله إلی(يوآب)بيد(أوريّا)و كتب فی الرساله يقول:اجعلوا أوريّا فی وجه الحرب الشديده و ارجعوا من ورائه فيضرب و يموت،ففعل به ذلک فقتل و أخبر داود بذلک.

۱- ۱) -(بتشبع)اسم تلک المرأه التی زعم كتاب التوراه أنّ داود رآها عاريه عند ما كان يتمشّی علی سطح بيته و عشقها،و هی بنت(اليعام)أحد المسؤولين حينذاک و الذی كان عبريا.

۲- ۲) -(أوريا)بتشديد الياء،اسم أحد كبار قاده جيش داود و(حتی)بتشديد(الياء)و كسر(الحاء)تنسب إلی (حت)ابن كنعان،و عشيره كانت تسمّی(بنی حت).

۳- ۳) -(يوآب)هو القائد العام لقوّات داود.

فلمّا سمعت امرأه أوريّا أنّه قد مات ندبت بعلها،و لمّا مضت المناحه أرسل داود و ضمّها إلى بيته و صارت له امرأه،و أمّا الأمر الذى فعله داود فقبح فى عينى الربّ» (۱) .

خلاصه هذه القصّه إلى هنا تكون كالآتى:فى إحدى الأيّام صعد داود إلى سطح القصر فوقعت عيناه على البيت المجاور فرأى امرأه عاريه تغتسل،فأحبّها، و تمكّن بإحدى الطرق من جلبها إلى بيته،فاضطجع معها فحملت منه.

و زوج هذه المرأه كان أحد الضبّاط المشهورين فى جيش داود و كان طاهرا نقيّا،قتله داود(نعوذ باللّه من هذا الكلام)بمؤامره جبانه عند ما بعثه إلى منطقه خطره جدّا فى ساحه الحرب،ثمّ تزوّج داود زوجته.

و الآن نواصل سرد بقيّه القصّه على لسان التوراه الحالى إذ جاء فى الإصحاح الثانى عشر من كتاب صموئيل الثانى«أنّ الربّ أرسل(ناثان)أحد أنبياء بنى إسرائيل و مستشار داود فى نفس الوقت،و قال له:كان رجلان فى مدينه واحده، واحد منهما غنى و الآخر فقير،و كان للغنى غنم و بقر كثيره جدّا،و أمّا الفقير فلم يكن له شىء إلاّ نعجه واحده صغيره قد اقتناها و ربّاها،فجاء ضيف إلى الرجل الغنى فأبى أن يأخذ من غنمه و من بقره ليهيّئ للضيف الذى جاء إليه فأخذ نعجه الرجل الفقير و هيّأ لضيفه.

فحمى غضب داود،و قال لناثان،أقسم بالربّ أنّ الشخص الذى ارتكب هذا العمل يستحقّ القتل،و عليه أن يردّ النعجه بأربعه أضعاف.و هنا قال ناثان لداود:

إنّ ذلك الرجل هو أنت! فانتبه داود للعمل غير الصحيح الذى قام به،فدعا اللّه ليتوب عليه،فتاب اللّه عليه،و أنزل فى نفس الوقت ابتلاءات كبيره على داود».

هذا و قد استخدمت التوراه عبارات يجلّ القلم عن ذكرها،لهذا نصرف النظر

۱- ۱) -نقلا عن الإصحاح الحادى عشر من كتاب(صموئيل الثانى)الجمل(۲)إلى(۲۷).

عنها.

و فی هذا الجزء من القصّه التی استعرضتها التوراه یمکن للمتتبع ملاحظه ما یلی:

۱-لم یأت أحد متظلّما و شاکیا إلی داود،و إنّما جاءه أحد أنبیاء بنی إسرائیل، الذی هو مستشار داود فی نفس الوقت،و ذکر له قصّه یستهدف منها وعظ داود، و القصّه هی بشأن شخصین الأوّل غنی و الثانی فقیر،الغنی یملک أعدادا کبیره من الغنم و البقر،أمّا الفقیر فلا یملک سوی نعجه واحده صغیره،و الغنی أخذ نعجه الرجل الفقیر و هیّأها لضیفه.

إلی هذا المقدار من القصّه لا یوجد أی تطرّق لتسوّر جدران المحراب و فزع داود و تخاصم الشخصین عنده،إضافه إلی طلب العفو و المغفره.

۲-داود علیه السّلام اعتبر الغنی طاغیه و یستحقّ القتل لماذا یقتل من أجل نعجه واحده)؟! ۳-لماذا تسرّع داود علیه السّلام فی إصدار الحکم،إذ قال:یجب علی الغنی أن یردّ النعجه بأربعه أضعاف؟ ۴-داود یعترف بذنبه مع زوجه أوریّا.

۵-لماذا یعفو اللّه عزّ و جلّ عنه و بهذه السهوله؟! ۶-اللّه سبحانه و تعالی یذکر عقوبات عجیبه ستطال داود من الأفضل عدم ذکرها هنا.

۷-هذه المرأه(مع ماضیها المشهور)هی امّ سلیمان علیه السّلام! رغم أنّ نقل مثل هذه القصص مؤلم حقّا،و لکن ما العمل،إذ أنّ بعض الجهله غیر المطّلعین من المتأثّرین بالروایات الإسرائیلیّه،أساؤوا إلی تفسیر القرآن الکریم الطاهر،بإقحامهم مثل هذه الروایات فیه،و لا یوجد أمامنا سبیل إلاّ ذکر أجزاء من تلک القصص الفاضحه لردّها.

و الآن نسأل:

۱-هل یمکن اتّهام نبی مدحه الباری عزّ و جلّ فی قرآنه الکریم بعشر صفات عظیمه،و دعا نبیّنا الأکرم محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی أن یستلهم من سیرته،هل یمکن اتّهامه بتلک التهم.

۲-هل تتطابق هذه الأراجیف مع آیات القرآن التالیه: یا داوُدُ إِنّا جَعَلْناکَ خَلِیفَةً فِی الْأَرْضِ .

۳-إذا ارتکب شخص عادی-و لیس أحد الأنبیاء-مثل هذا العمل الإجرامی للاعتداء علی زوجه ضابط وفیّ و طاهر و مؤمن و من خلال عملیه خبیثه،بماذا سیحکم الناس علیه و ما هی عقوبته؟فالفاسق یتنزّه عن هذا العمل الشنیع،فکیف بنبی اللّه داود؟ و ممّا یجدر ذکره أنّ التوراه لا تعتبر داود نبیّا،و إنّما تعتبره ملکا عادلا له مکانه مرموقه،و أنّه مشیّد المعبد الکبیر لبنی إسرائیل.

۴-الطریف فی الأمر أنّ کتاب(مزامیر داود)هو أحد کتب التوراه،و قد جمعت فیه مناجات و أحادیث داود،فهل یمکن درج أحادیث و مناجاه مثل هذا الإنسان فی طیّات الکتب السماویه؟ ۵-لو طرحت هذه القصص علی شخص لا یمتلک سوی القلیل من العقل و الإدراک،لأعترف بأنّ قصص التوراه المحرّفه حالیا ما هی إلاّ خرافات،و أنّ أعداء نهج الأنبیاء أو أشخاص جهله غیر مطّلعین صاغوا مثل هذه الخرافات، فکیف یمکن أن تکون هذه الخرافات معیارا للبحث؟ نعم فعظمه القرآن المجید تبرز من خلال خلوّه من هذه الخرافات.

۳-الأحادیث الإسلامیه و قصّه داود علیه السّلام

اشاره

الرّوایات و الأحادیث الإسلامیّه کذّبت بشدّه تلک القصص الخرافیه و القبیحه

الوارده فی التوراه.

و من جمله تلک الأحادیث،ما

ورد عن أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام یقول فیه: «لا اوتی برجل یزعم أنّ داود تزوّج امرأه أوریّا إلّا جلدته حدّین حدّا للنبوّه و حدّا للإسلام» (۱) .

لماذا،لأنّ المزاعم المذکوره تتّهم من جهه إنسانا مؤمنا بارتکاب عمل محرّم، و من جهه اخری تنتهک حرمه مقام النبوّه،و من هنا حکم الإمام بجلد من یفتری علیه علیه السّلام مرّتین(کلّ مرّه ۸۰ سوطا).

کما

ورد حدیث آخر لأمیر المؤمنین علیه السّلام یعطی نفس المعنی،جاء فیه «من حدّثکم بحدیث داود علی ما یرویه القصّاص جلدته مائه و ستّین» (۲) .

و

فی حدیث آخر نقله الشیخ الصدوق فی کتاب(الأمالی)عن الإمام الصادق علیه السّلام قال: «إنّ رضا الناس لا یملک،و ألسنتهم لا تضبط،ألم ینسبوا داود إلی أنّه اتّبع الطیر حتّی نظر إلی امرأه أوریّا فهواها،و أنّه قدّم زوجها أمام التابوت حتّی قتل ثمّ تزوّج بها!» (۳) .

و أخیرا،

ورد حدیث فی کتاب(عیون الأخبار)فی باب مجلس الرضا عند المأمون مع أصحاب الملل و المقالات قال الرضا علیه السّلام لابن الجهم: «و أمّا داود فما یقول من قبلکم فیه»؟ قال:یقولون:إنّ داود کان یصلّی فی محرابه إذ تصوّر له إبلیس علی هیئه طیر أحسن ما یکون من الطیور،فقطع داود صلاته و قام یأخذ الطیر إلی الدار فخرج فی أثره فطار الطیر إلی السطح فصعد فی طلبه فسقط الطیر فی دار أوریّا بن حیان.

فأطلع داود فی أثر الطیر فإذا بامرأه أوریّا تغتسل؟فلمّا نظر إلیها هواها،و کان

۱- ۱) -مجمع البیان ذیل آیات البحث.

۲- ۲) -تفسیر الفخر الرازی ذیل آیات البحث.

۳- ۳) -الأمالی للشیخ الصدوق طبق ما نقله نور الثقلین،المجلّد ۴،الصفحه ۴۴۶.

قـد أخرج أوريّا فی بعض غزواته فکتب إلی صاحبه أن قـدّم أوريّا أمام التابوت فقدّم فظفر أوريّا بالمشـرکين فصـعب ذلک علی داود،فکتب إليه ثانيه أن قدّمه أمام التابوت فقدّم فقتل أوريّا و تزوج داود بامرأته.

قال:فضـرب الرضا عليه السّـلام يـده علی جبهته و قال:«إنّا للّه و إنّا إليه راجعون،لقد نسـبتم نبيّا من أنبياء اللّه إلی التهاون بصـلاته حتّی خرج فی أثر الطير ثمّ بالفاحشه، ثمّ بالقتل».

فقـال:يا ابن رسول اللّه،ما کانت خطيئته؟ فقال:«ويحک إنّ داود عليه السّـلام إنّما ظنّ أنّه ما خلق اللّه خلقا هو أعلم منه،فبعث اللّه عزّ و جـلّ إليه الملکين فتسوّرا المحراب فقال: خَصْـمٰانِ بَغیٰ بَعْضُـنٰا عَلیٰ بَعْضٍ فَاحْکُمْ بَيْنَنٰا بِالْحَقِّ وَ لاٰ تُشْـطِطْ وَ اهْـدِنٰا إِلیٰ سَوٰاءِ الصِّرٰاطِ، إِنَّ هٰذٰا أَخِی لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَهً وَ لِیَ نَعْجَهٌ وٰاحِدَهٌ فَقٰالَ أَکْفِلْنِيهٰا وَ عَزَّنِی فِی الْخِطٰابِ فعجّل داود علی المدّعی عليه فقـال: لَقَـدْ ظَلَمَـکَ بِسُؤٰالِ نَعْجَتِـکَ إِلیٰ نِعٰاجِهِ و لم يسأل المـدّعی البيّنه علی ذلـک،و لم يقبـل علی المـدّعی عليه فيقول له:ما تقول؟فکان هذا خطيئه رسم الحکم لا ما ذهبتم إليه،ألا تسـمع اللّه عزّ و جلّ يقول: يٰا دٰاوُدُ إِنّٰا جَعَلْنٰاکَ خَلِيفَهً فِی الْأَرْضِ فَاحْکُمْ بَيْنَ النّٰاسِ بِالْحَقِّ إلی آخر الآيه.

فقـال:يا ابن رسول اللّه،فما قصّـته مع أوريّا؟ قال الرضا عليه السّـلام:«إنّ المرأه فی أيّام داود کانت إذا مات بعلها أو قتل لا تتزوّج بعـده أبـدا،فـأوّل من أبـاح اللّه عزّ و جـلّ له أن يتزوّج بـامرأه قتـل بعلهـا داود عليه السّـلام فتزوّج بامرأه أوريّا لمّا قتل و انقضـت عدّتها،فذلک الذی شقّ علی الناس من قتل أوريّا» (۱) .

يستفاد من هذا الحديث أنّ مسأله أوريّا کانت لها جذور حقيقيّه بسيطه،و أنّ داود نفّذ ما جاء فی الرساله الإلهيّه،إلاّ أنّ أعداء اللّه من جهه،و الجهله من جهه

۱- ۱) -عيون الأخبار طبق ما نقله نور الثقلين،المجلّد ۴،الصفحه ۴۴۵.

اخرى،إضافه إلى مؤلّفى القصص الخياليه الذين يكتبون دائما قصص عجيبه و كاذبه من جهه ثالثه،اختلفوا سيقانا و أغصانا و أوراقا لهذه القصّه كى ينفّروا الإنسان من داود.

فأحدهم قال:لا يمكن أن يتمّ هذا الزواج ما لم تكن هنالك مقدّمات له؟ و الآخر قال:يحتمل أنّ بيت أوريّا كان مجاورا لبيت داود! و أخيرا لكى يؤكّدوا أنّ داود عليه السّلام شاهد زوجه(أوريّا)اصطنعوا قصّه الطير، و فى النهايه اتّهموا أحد أنبياء اللّه الكبار بارتكاب مختلف أنواع الذنوب الكبيره و المخزيه،و تناقلتها ألسنه الجهله و البلهاء و لو لا انّها مذكوره فى الكتب المعروفه لكان من الخطأ ذكرها و التعرّض لها.

و بالطبع،فإنّ هذه الروايه لا تختلف عن حديث أمير المؤمنين عليه السّلام،لأنّ حديثه يشير إلى أنّها قصّه كاذبه مزيّفه تنسب ارتكاب الزنا و غيرها من المحرّمات-نعوذ باللّه-إلى أحد الأنبياء الكبار.

آراء المفسّرين

بعض المفسّرين ذكروا آراء اخرى لقصّه داود،رغم أنّها لا تتناسب مع ظاهر آيات القرآن المجيد،فإنّنا نرى من الضرورى الإشاره إلى بعضها لإكمال البحث:

منها:أنّ داود عليه السّلام كان قد قسّم ساعات يومه وفق برنامج منظّم،و لم يكن يسمح لأحد بمراجعته إلاّ فى الساعات المخصّصه للمراجعه،و فى أحد الأيّام تسوّر شخصان المحراب و قد اتّفقا على قتل داود أثناء فتره عبادته للّه سبحانه و تعالى،تسوّرا سور المحراب،و لكن عند ما و صلا بالقرب من سور المحراب شاهدوا الجند و الحرس يحيطون به من كلّ جانب،و خوفا من أن ينكشف أمرهما، اختلقا قضيّه كاذبه،و ادّعيا أنّهما أتيا إلى داود عليه السّلام ليحكم بينهما،و شرحا القصّه التى تطرّق إليها القرآن الكريم،و قد قضى داود عليه السّلام بينهما،و لكون الهدف من هذه

اللعبه كان قتله،فقد غضب و صمّم على الانتقام منهما،و لم يمض إلاّ وقت قصير حتّى ندم داود على تصميمه هذا و استغفر اللّه (۱) .

يقول العلاّمه الطباطبائى فى تفسير الميزان(و أكثر المفسّرين تبعا للروايات إنّ هؤلاء الخصم الداخلين على داود عليه السّلام كانوا ملائكه أرسلهم اللّه سبحانه إليه ليمتحنه،و ستعرف حال الروايات لكن خصوصيات القصّه كتسوّرهم المحراب و دخولهم عليه دخولا غير عادى بحيث أفزعوه،و كذا تنبّهه بأنّه إنّما كان فتنه من اللّه له و ليس واقعه عاديه،و قوله تعالى بعد: فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاسِ بِالْحَقِّ وَ لاٰ تَتَّبِعِ الْهَوىٰ الظاهر فى أنّ اللّه ابتلاه بما ابتلى ليتنبّهه و يسدّده فى خلافته و حكمه بين الناس،كلّ ذلك يؤيّد كونهم من الملائكه و قد تمثّلوا فى صوره رجال من الإنس.

(و المقصود من التمثّل هو عدم وجود هؤلاء الأشخاص واقعا و فى الخارج،بل أنّ ذلك انعكس فى ذهن داود و فى إدراكه).

و على هذا فالواقعه تمثّل فيه الملائكه فى صوره متخاصمين لأحدهما نعجه واحده،يسألها آخر له تسع و تسعون نعجه،و سألوه القضاء فقال لصاحب النعجه الواحده:(لقد ظلمك)إلخ و كان قوله عليه السّلام-لو كان قضاء منجزا-حكما منه فى ظرف التمثّل،كما لو كان رآهم فيما يرى النائم فقال لهم ما قال و حكم فيهم بما حكم،و من المعلوم أن لا تكليف فى ظرف التمثّل،كما لا تكليف فى عالم الرؤيا و إنّما التكليف فى عالمنا المشهود،و هو عالم المادّه،و لم تقع الواقعه فيه،و لا كان هناك متخاصمان و لا نعجه و لا نعاج إلاّ فى ظرف التمثّل،فكانت خطيئه داود عليه السّلام فى هذا الظرف من التمثّل و لا تكليف هناك،كخطيئه آدم عليه السّلام فى الجنّه من أكل الشجره قبل الهبوط إلى الأرض و تشريع الشرائع و جعل التكاليف،و استغفاره و توبته ممّا صدر منه كاستغفار آدم و توبته ممّا صدر منه،و قد صرّح اللّه بخلافته فى

۱- ۱) -تفسير(الفخر الرازى)و(روح المعانى)ذكرا هذا الأمر كتوجيه و إرشاد،فيما وافق(المراغى)فى تفسيره على هذا الأمر.

کلامه کما صرّح بخلافه آدم علیه السّلام فی کلامه) (۱) .

و لکن من المسلّم به أنّ ظاهر الآیات یوضّح أنّ الشکوی و الخصام کان من قبل أفراد حقیقیین لهم وجود ظاهری،و فی هذه الحاله لم یکن قضاء داود ذنبا صادرا عنه،خاصّه بعد أن استمع لأقوال أحدهم و حصل عنده علم و یقین فی إعطاء الحکم،رغم أنّ الآداب المستحبّه فی القضاء توجب علیه أن یتأنّی فی إصدار الحکم و لا یتعجّل،و استغفاره إنّما کان لترکه العمل بالأولی.

و علی أیّه حال،لا توجد أیّه ضروره لاعتبار وقوع حادثه التحکیم هذه فی ظرف التمثّل أو لأجل تنبیه داود علیه السّلام.و الأفضل أن نحافظ علی ظاهر الآیات و تفسیرها بالترتیب الآنف الذکر الذی حفظ ظاهر الآیات دون بروز أیّه مشاکل تمسّ مقام عصمه الأنبیاء.

***

۱- ۱) -تفسیر المیزان،ج ۱۷،ص ۱۹۳-۱۹۴.

الآیات [سوره ص (٣٨): الآیات ٢۶ الی ٢٩]

اشاره

یا داوُدُ إِنّا جَعَلْناکَ خَلِیفَهً فِی اَلْأَرْضِ فَاحْکُمْ بَیْنَ اَلنّاسِ بِالْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعِ اَلْهَوی فَیُضِلَّکَ عَنْ سَبِیلِ اَللّهِ إِنَّ اَلَّذِینَ یَضِلُّونَ عَنْ سَبِیلِ اَللّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِیدٌ بِما نَسُوا یَوْمَ اَلْحِسابِ (٢۶) وَ ما خَلَقْنَا اَلسَّماءَ وَ اَلْأَرْضَ وَ ما بَیْنَهُما باطِلاً ذلِکَ ظَنُّ اَلَّذِینَ کَفَرُوا فَوَیْلٌ لِلَّذِینَ کَفَرُوا مِنَ اَلنّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحاتِ کَالْمُفْسِدِینَ فِی اَلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ اَلْمُتَّقِینَ کَالْفُجّارِ (٢٨) کِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَیْکَ مُبارَکٌ لِیَدَّبَّرُوا آیاتِهِ وَ لِیَتَذَکَّرَ أُولُوا اَلْأَلْبابِ (٢٩)

التّفسیر

اشاره

احکم بالعدل و لا تتّبع هوی النفس:

نواصل استعراض قصّه داود،و نقف هنا علی أعتابها النهائیه،حیث إن آیات بحثنا هذا هی آخر الآیات الوارده فی هذه السوره بشأن داود،إذ تخاطبه بلهجه حازمه و بعبارات مفعمه بالمعانی،شارحه له وظائفه و مسئولیاته الجسیمه بعد أن

وضحت مقامه الرفیع،إذ تقول: یٰا دٰاوُدُ إِنّٰا جَعَلْنٰاکَ خَلِیفَهً فِی الْأَرْضِ فَاحْکَمْ بَیْنَ النّٰاسِ بِالْحَقِّ وَ لاٰ تَتَّبِعِ الْهَویٰ فَیُضِلَّکَ عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ إِنَّ الَّذِینَ یَضِلُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِیدٌ بِمٰا نَسُوا یَوْمَ الْحِسٰابِ .

محتوی هذه الآیه التی تتحدّث عن مقام داود الرفیع و الوظائف المهمّه التی کلّف بها،تبیّن أنّ القصص الخیالیه و الکاذبه التی نسجت بشأن زواج داود من زوجه(أوریا)کلّها کاذبه و لا أساس لها من الصحّه.

فهل یمکن أن ینتخب الباری عزّ و جلّ شخصا ینظر إلی شرف المؤمنین و المقرّبین منه بعین خؤونه و یلوّث یده بدم الأبریاء-خلیفه له فی الأرض، و یمنحه حکم القضاء المطلق؟! هذه الآیه تضمّ خمس جمل کلّ واحده منها تتحدّث عن حقیقه معیّنه:

الاولی:خلافه داود فی الأرض،فهل المقصود منها خلافته للأنبیاء السابقین،أمّ أنّها تعنی خلافه اللّه؟المعنی الثانی أنسب و یتطابق مع ما جاء فی الآیه(۳۰)من سوره البقره: وَ إِذْ قٰالَ رَبُّکَ لِلْمَلاٰئِکَهِ إِنِّی جٰاعِلٌ فِی الْأَرْضِ خَلِیفَهً .

بالطبع فإنّ المعنی الواقعی للخلافه لا یتعلّق باللّه،لأنّه یأتی فی مورد وفاه شخص أو غیابه،و المراد من الخلافه هنا هو أن یکون نائبا للّه بین العباد،و المنفّذ لأوامر اللّه سبحانه و تعالی فی الأرض.هذه الجمله تبیّن أنّ الحکومه فی الأرض یجب أن تستلهم شرعیّتها من الحکومه الإلهیّه،و أی حکومه لا تستلهم شرعیتها من الحکومه الإلهیّه فإنّها حکومه ظالمه و غاصبه.

الجمله الثانیه:تأمر داود قائله:بعد أن منحک اللّه سبحانه و تعالی هذه النعمه الکبیره،أی الخلافه،فإنّک مکلّف بأن تحکم بین الناس بالحقّ فَاحْکُمْ بَیْنَ النّٰاسِ بِالْحَقِّ .

و فی واقع الأمر فإنّ إحدی ثمار خلافه اللّه هی ظهور حکومه تحکّم بالحقّ، و من هذه الجمله یمکن القول أنّ حکومه الحقّ تنشأ-فقط-عن خلافه اللّه،و أنّها

ص:۴۸۹

النتيجه المباشره لها.

أمّا الجمله الثالثه:فإنّها تشير إلى أهمّ خطر يهدّد الحاكم العادل،ألا و هو اتّباع هوى النفس وَ لاٰ تَتَّبِعِ الْهَوىٰ .

نعم،فهوى النفس ستار سميك يغطّى بصيره الإنسان،و يباعد بينه و بين العداله.

لهذا فإنّ الجمله الرابعه تقول: فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ .

فأينما وجد الضلال كان لهوى النفس ضلع فى ذلك،و أينما اتّبع هوى النفس فإنّ عاقبته الضلال.

فالحاكم الذى يتّبع هوى النفس،إنّما يفرّط بمصالح و حقوق الناس لأجل مطامعه،و لهذا السبب فإنّ حكومته تكون مضطربه و مصيرها الانهيار و الزوال.

و من الممكن أن يكون ل(هوى النفس)معانى واسعه،تضمّ فى نفس الوقت هوى نفس الإنسان،و هوى النفس عند كلّ الناس،و هكذا فإنّ القرآن يحكم ببطلان المناهج الوضعيّه التى تستند على أفكار عامّه الناس فى الحكم،لأنّ نتيجه الإثنين هو الضلال و الانحراف عن سبيل اللّه و صراط الحقّ.

و اليوم نشاهد الآثار السيّئه لهذا النوع من التفكير فى عالم يسمّى بالعالم المتطور و الحديث،فأحيانا نرى أشنع و أقبح الأعمال تأخذ شكلا قانونيا نتيجه الأخذ بآراء الناس،و رائحه الفضيحه فى هذا العالم قد أزكمت الأنوف،و القلم يجلّ عن ذكرها.

صحيح أنّ أسس الحكومه مستنده على الجماهير،و أنّ مشاركه الجميع فيها يحفظ أسسها،إلاّ أنّ هذا لا يعنى أنّ رأى الأكثريه هو معيار الحقّ و الباطل فى كلّ شيء و فى كلّ مكان.

فالحكومه يجب أن يكون إطارها الحقّ،و لتطبيق الحقّ لا بأس بالاستعانه بطاقات أفراد المجتمع،و عباره(الجمهوريه الإسلاميه)المتكوّنه من كلمتى (الجمهوريه)و(الإسلاميه)تعطى المعنى السابق،و بعباره اخرى فإنّ أصولها

مستمدّه من نهج الإسلام،و تنفيذ تلك الأصول يتمّ بمشاركه الجماهير.

و أخيرا فإنّ الجمله الخامسه تشير إلى أنّ كلّ ضلال عن سبيل اللّه لا ينفكّ عن نسيان يوم الحساب،و من ينسى يوم الحساب فإنّ عذاب اللّه الشديد ينتظره إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِيدٌ بِمٰا نَسُوا يَوْمَ الْحِسٰابِ .

و من الطبيعى أنّ نسيان يوم القيامه هو مصدر الضلال،و كلّ ضلال مرتبط بالنسيان،و هذا المبدأ يوضّح التأثير التربوى فى الاهتمام بالمعاد فى حياه البشر.

و لقد وردت روايات بهذا الشأن فى المصادر الإسلاميّه،و منها حديث مشهور

عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عن أمير المؤمنين عليه السّلام جاء فيه: «أيّها الناس،إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان:اتّباع الهوى،و طول الأمل،فأمّا اتّباع الهوى فيصدّ عن الحقّ، و أمّا طول الأمل فينسى الآخره» (1) .

أ ليس من الأفضل كتابه هذا الحديث بماء الذهب،و وضعه أمام الجميع خاصّه الحكّام و القضاه و المسؤولين.

و

فى روايه اخرى وردت عن الإمام الباقر عليه السّلام،جاء فيها: «ثلاث موبقات:شحّ مطاع،و هوى متّبع،و إعجاب المرء بنفسه» (2) .

و تتمّه للبحث الذى استعرض حال داود و خلافته فى الأرض،تتطرّق الآيات لأهداف خلق عالم الوجود،كى تشخّص أسباب الحكومه على الأرض التى هى جزء من ذلك العالم،و جاء فى قوله تعالى: وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا بٰاطِلاً ذٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النّٰارِ .

هناك مسأله مهمّه تعدّ مصدرا لكلّ الحقوق،و هى:ما الهدف من وجود الخلق؟ فعند ما ننظر إلى هذا العالم الوسيع،و نوافق على أنّ هذا العالم الوسيع لم يخلقه اللّه عبثا،نتابع الهدف من وراء ذلك الخلق،الهدف الذى يمكن إيجازه فى كلمات

۱- ۱) -نهج البلاغه،الخطبه(۴۲).

۲- ۲) -كتاب«الخصال»نقلا عن نور الثقلين،المجلّد ۴،الصفحه ۴۵۳.

قصیره و عمیقه،و هی(التکامل)و(التعلیم)و(التربیه)و من هنا نستنتج أنّ الحکومات علیها أن تسیر وفق هذا الخطّ،فعلیها أن تثبت أسس التربیه و التعلیم لتکون أساس التکامل المعنوی عند الإنسان.

و بعباره اخری:إنّ الحقّ و العدل هما أساس عالم الوجود،و علی الحکومات أن تعمل وفق موازین الحقّ و العداله.

الجمله الأخیره من الآیه السابقه التی تطرّقت إلی نسیان یوم الجزاء،متطابقه بصوره کامله مع الآیه مورد بحثنا،لأنّ هدف خلق العالم یوجب عدم نسیان یوم الجزاء و الحساب،و کما قلنا فی بحث المعاد(فی آخر سوره یس)لو لم یکن هناک یوم للحساب،فإنّ خلق العالم یعدّ عبثا.

و نهایه هذه الآیه تشیر إلی خطوط واضحه تفصّل بین الإیمان و الکفر،و إعتقاد المذهب الإلحادی بعدم جدوی خلق العالم هو مثال للابتلاءات التی ابتلینا بها الیوم،إذ أنّ اتّباع ذلک المذهب یعلنون بصراحه أنّ خلق العالم لا فائده فیه،و لا هدف یرتجی من ورائه،فمن یفکّر هکذا کیف یتمکّن من تطبیق الحقّ و العداله فی حکومته؟! الحکومه الوحیده التی تستطیع تطبیق الحقّ و العداله،هی الحکومه التی تستلهم أفکارها و معتقداتها من المبادئ الإلهیّه، و التی تقول إنّ الباری عزّ و جلّ لم یخلق العالم عبثا و إنّما خلقه لأهداف و أغراض معیّنه،کی تسیر الحکومات وفق تلک الأهداف،و إذا کان العالم الإلحادی قد وصل الیوم إلی طریق مسدود فی شؤون الحکم و الحرب و السلام و فی الإقتصاد و الثقافه،فالسبب الرئیسی یکمن فی ابتعادهم عن هذا الأمر،و لهذا فإنّ أسس حکوماتهم تقوم علی الظلم و التسلّط،فکم تکون الدنیا موحشه و رهیبه إذا أصبحت تدار وفق هذا النوع من التفکیر العشوائی! علی أیّه حال،فإنّ الباری عزّ و جلّ حکیم،و من غیر الممکن أن یخلق هذا

العالم من دون هدف،فالعالم هذا مقدّمه لعالم آخر أكبر و أوسع من عالمنا هذا، و هو أبدى و خالد يوضّح الأهداف الحقيقيّه وراء خلق عالم الدنيا.

الآيه التاليه تضيف: أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجّارِ (۱) .

كما أنّ عدم وجود هدف من خلق العالم يعدّ أمرا مستحيلا،فمن المستحيل أيضا المساواه بين الصالحين و الطالحين،لأنّ المجموعه الاولى كانت تخطو خطواتها وفق أهداف خلق العالم للوصول إلى الغايه النهائيه،بينما كانت المجموعه الثانيه تسير باتّجاه مخالف لمسير المجموعه الاولى.

الواقع أنّ بحث المعاد بكافّه أبعاده قد تمّ تناوله فى هذه الآيه و الآيه التى سبقتها بشكل مستدلّ.

فمن جهه تقول:إنّ حكمه الخالق تقتضى أن يكون لخلق العالم هدف،و هذا الهدف لا يتحقّق بعدم وجود عالم آخر،لأنّ الأيّام القلائل التى يعيشها الإنسان فى هذه الدنيا لا قيمه لها بالنسبه للهدف الرئيسى الكامن وراء خلق هذا العالم الواسع.

و من جهه اخرى،فإنّ حكمه و عداله البارى عزّ و جلّ تفرض أن لا يتساوى المحسن و المسىء و العادل و الظالم،و لهذا كان البعث و الثواب و العقاب و الجنّه و النار.

و بغضّ النظر عن هذا،فعند ما ننظر إلى ساحه المجتمع الإنسانى فى هذه الدنيا نشاهد الفاجر فى مرتبه المؤمن،و المسىء إلى جانب المحسن،و لربّما فى أكثر الأحيان نرى المفسدين المذنبين يعيشون فى حاله من الرفاه و التنعّم أكثر من غيرهم،فإذا لم يكن هناك عالم آخر بعد عالمنا هذا لتطبيق العداله هناك،فإن

۱- ۱) -بعض المفسّرين قالوا:إنّ(أمّ)هنا تعطى معنى(بل)للاضراب،و هنا احتمال آخر يقول:إنّ(أم)جاءت للعطف على استفهام محذوف،و تقدير الآيه هو(أ خلقنا السموات و الأرض باطلا أم نجعل المتّقين كالفجّار؟).

وضع العالم هذا مخالف«للحكمه»و(للعداله)،و هذا هو دليل آخر على مسأله المعاد.

و بعباره اخرى،فلإثبات مسأله المعاد-أحيانا-يمكن الاستدلال عليها عن طريق برهان(الحكمه)و أحيانا اخرى عن طريق برهان(العداله)،فالآيه السابقه استدلال بالحكمه،و الآيه التى بعدها استدلال بالعداله.

الآيه الأخيره فى بحثنا هذا تشير إلى موضوع يوضّح-فى حقيقه الأمر-الهدف من الخلق،إذ جاء فى الآيه الكريمه: كِتٰابٌ أَنْزَلْنٰاهُ إِلَيْكَ مُبٰارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيٰاتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبٰابِ .

فتعليماته خالده،و أوامره عميقه و أصيله،و نظمه باعثه للحياه و هاديه للإنسان إلى الطريق المؤدّى إلى اكتشاف هدف الخلق.

فالهدف من نزول هذا الكتاب العظيم لم يقتصر-فقط-على تلاوته و تلفّظ اللسان به،بل لكى تكون آياته منبعا للفكر و التفكّر و سببا ليقظه الوجدان،لتبعث بدورها الحركه فى مسير العمل.

كلمه(مبارك)تعنى شيئا ذا خير دائم و مستمر،أمّا فى هذه الآيه فإنّها تشير إلى دوام استفاده المجتمع الإنسانى من تعليماته،و لكونها استعملت هنا بصوره مطلقه، فإنّها تشمل كلّ خير و سعاده فى الدنيا و الآخره.

و خلاصه الأمر،فإنّ كلّ الخير و البركه فى القرآن،بشرط أن نتدبّر فى آياته و نستلهم منها و نعمل بها.

***

ملاحظتان

اشاره

١-التقوى و الفجور أمام بعضهما البعض

فى الآيات المذكوره أعلاه،ورد الفساد فى الأرض فى مقابل الإيمان و العمل

الصالح،و الفجور(الذی یعنی تمزیق حجب الدین)فی مقابل التقوی و الورع.

هل أنّ هذین الإثنین،یوضّحان حقیقه واحده فی عبارتین،أم أنّهما یوضّحان موضوعین؟من غیر المستبعد أن یکون الاثنان تأکیدا لمعنی واحد،لأنّ(المتّقین) هم المؤمنون أصحاب العمل الصالح و(الفجّار)هم المفسدون فی الأرض.

و یحتمل فی أن تکون الجمله الاولی هی إشاره إلی الجوانب العملیه و العقائدیه لکلا الطرفین،إذ تقارن بین أصحاب العقائد الصحیحه و الأعمال الصالحه و بین أصحاب العقائد الفاسده و الأعمال الخبیثه،فی حین أنّ الجمله الثانیه تشیر فقط إلی الجانب العملی.

و یحتمل أیضا أنّ(التقوی و الفجور)شاهدان علی کمال و نقص الإنسان، و العمل الصالح و الفساد فی الأرض شاهدان علی الجوانب الاجتماعیه،و لکن التأکید یعدّ أنسب.

۲-لمن تعنی هذه الآیات؟

جاء فی إحدی الروایات التی تفسّر قوله تعالی: اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ بأنّها إشاره إلی أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام و أنصاره،فی حین أنّ بقیّه الآیه کَالْمُفْسِدِینَ فِی الْأَرْضِ إشاره إلی أعدائه (۱) .

و جاء فی حدیث آخر نقله(ابن عساکر)عن ابن عباس،فی أنّ المقصودین فی الآیه اَلَّذِینَ آمَنُوا «علی»و«حمزه»و«عبیده»الذین واجهوا فی معرکه بدر کلا من«عتبه»و«الولید»و«شیبه»و رموز جیش الکفر و الشرک(و تمکّنوا من قتلهم فی ساحه المعرکه.فبهذا یکون عتبه و الولید و شیبه هم المقصودین فی الآیه

۱- ۱) -تفسیر نور الثقلین،المجلّد الرابع،الصفحه ۴۵۳(الحدیث ۳۷).

كَالْمُفْسِدِينَ فِی الْأَرْضِ

(۱)

.

الواضح من معنی هذه الرّوایات أنّها لا تحصر مفهوم الآیه فی أفراد معینین، و إنّما هی بیان لأسباب النّزول،أو أنّها مصداق واضح و بارز لهذه الآیه.

***

۱- ۱) -تفسیر روح المعانی،المجلّد ۲۳،الصفحه ۱۷۱.

الآیات [سوره ص (۳۸): الآیات ۳۰ الی ۳۳]

اشاره

وَ وَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ اَلْعَبْدُ إِنَّهُ أَوّابٌ (۳۰) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ اَلصّافِناتُ اَلْجِيادُ (۳۱) فَقالَ إِنِّی أَحْبَبْتُ حُبَّ اَلْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّی حَتّی تَوارَتْ بِالْحِجابِ (۳۲) رُدُّوها عَلَیَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ اَلْأَعْناقِ (۳۳)

التّفسیر

اشاره

سلیمان علیه السّلام یستعرض قوّاته القتالیه:

هذه الآیات تواصل البحث السابق بشأن داود علیه السّلام.

فالآیه الاولی تزفّ البشری لداود فی أنّه سیرزق بولد صالح هو سلیمان، و سیتولّی الحکم و أعباء الرساله من بعده،و تقول: وَ وَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوّابٌ .

هذه الجمله تبیّن عظمه مقام سلیمان،و یحتمل کونها ردّا علی الاتّهامات القبیحه و العاریه من الصحّه الوارده فی التوراه المحرّفه عن ولاده سلیمان من زوجه أوریا،و التی کانت شائعه فی المجتمع قبل نزول القرآن.

فعباره(وهبنا)من جهه و(نعم العبد)من جهه اخری،و للتعلیل(إنّه أوّاب)أی

(الشخص المطيع للّه و الممتثل لأوامره،و الـذى يتوب إلى البارى عزّ و جلّ إثر أبسط غفله أو زلّه)من جهه ثالثه،كلّها تـدلّ على عظمه مقام هذا النّبى الكبير.

و عبـاره(إنّه أوّاب)هى نفس العبـاره التى جاءت بحقّ والـده داود فى الآـيه (١٧)من نفس السـوره،و رغم أنّ كلمه(أوّاب)صـيغه مبالغه و تعنى كثير الرجوع و غير محـدوده،فإنّها هنا تعنى العوده لطاعه الأمر الإلهى،العوده إلى الحقّ و العداله،العوده من الغفله و ترك العمل بالأولى.

الآـيه التـاليه تبـدأ بقصّه خيـل سـليمان،الـتى فسّـرت بأشـكال مختلفه،حيث أنّ البعض فسّـرها بصـوره سيّئه و معـارضه لمـوازين العقل،حتّى أنّه لا يمكن إيرادها بشأن إنسان عادى،فكيف ترد بحقّ نبى عظيم كسليمان عليه السّلام.

و لكـن المحقّقيـن بعـد بحثهـم فى الـدلائل العقليّـه و النقليه أغلقـوا الطريـق أمـام أمثـال هـذه التّفسـيرات،و قبـل أن نخـوض فى الاحتمالات المختلفه الوارده،نفسّـر الآيات وفق ظاهرها أو(وفق أقوى احتمال ظاهرى لها)لكى نوضّح أنّ القرآن الكريم خال من مثل هذه الادّعاءات المزيّفه التى فرضت على القرآن من قبل الآخرين.

إذ يقول القرآن: إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصّافِناتُ الْجِيادُ .

«صافنـات»جمع(صـافنه)و قـال معظم اللغويين و المفسّـرين:إنّها تطلق على الجياد التى تقوم على ثلاث قوائم و ترفع أحـد قوائمها الإماميه قليلا ليمسّ الأرض على طرف الحافر،و هـذه الحاله تخصّ الخيول الأصـليه التى هى على أهبّه الاسـتعداد للحركه فى أيّه لحظه (١) .

«الجيـاد»جمع(جواد)و تعنى الخيول السـريعه السـير،و كلمه«جيـاد»مشـتقّه فى الأصـل من(جود)،و الجود عنـد الإنسـان يعنى بـذل المال،و عند الخيول يعنى سرعه سيرها.و بهذا الشكل فإنّ الخيول المذكوره تبدو كأنّها على أهبّه الاستعداد

۱- ۱) -و يرى البعض:إنّ(صافنات)،تستعمل للمذكّر و المؤنث،و لهذا فإنّها لا تختّص بإناث الخيل.

للحركه أثناء حاله توقّفها،و إنّها سريعه السير أثناء عدوها.

و يستشف من الآيه مع القرائن المختلفه المحيطه بها،أنّه فى أحد الأيّام و عند العصر استعرض سليمان عليه السّلام خيوله الأصيله التى كان قد أعدّه الجهاد أعدائه،إذ مرّت تلك الخيول مع فرسانها أمام سليمان عليه السّلام فى استعراض منسّق و مرتّب.و بما أنّ الملك العادل و صاحب النفوذ عليه أن يمتلك جيشا قويّا،و الخيول السريعه إحدى الوسائل المهمّه التى يجب أن تتوفّر لدى ذلك الجيش،فقد جاء هذا الوصف فى القرآن بعد ذكر مقام سليمان باعتباره نموذجا من أعماله.

و لكى يطرد سليمان التصوّر عن أذهان الآخرين فى أنّ حبّه لهذه الخيول القويّه ناتج من حبّه للدنيا،جاء فى قوله تعالى: فَقٰالَ إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى انّى احبّ هذه الخيل من أجل اللّه و تنفيذ أمره،و أريد الاستفاده منها فى جهاد الأعداء.

لقد ورد أنّ العرب تسمّى«الخيل»خيرا،و

فى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال فيه: «الخير معقود بنواصى الخيل إلى يوم القيامه» (۱) .

و استمرّ سليمان عليه السّلام ينظر إلى خيله الأصيله المستعدّه لجهاد أعداء اللّه،و هو يعيش حاله من السرور،حتّى توارت عن أنظاره حَتّٰى تَوٰارَتْ بِالْحِجٰابِ .

كان هذا المشهد جميلا و لطيفا لقائد كبير مثل سليمان،بحيث أمر بإعاده عرض الخيل مرّه اخرى رُدُّوهٰا عَلَيَّ .و عند ما نفّذت أوامره بإعاده الخيل،عمد سليمان عليه السّلام إلى مسح سوقها و أعناقها فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ الْأَعْنٰاقِ .

و بهذا الشكل أشاد بجهود مدربى تلك الخيول،و أعرب لهم عن تقديره لها،لأنّ من الطبيعى لمن أراد أن يعرب عن تقديره للجواد أن يمسح رأس ذلك الجواد و وجهه و رقبته و شعر رقبته،أو يمسح على ساقه.و أبرز فى نفس الوقت تعلّقه

۱- ۱) -مجمع البيان فى ذيل الآيات مورد بحثنا،قال البعض:إنّ(خير)الوارده فى الآيه الآنفه الذكر تعنى المال أو المال الكثير،و هذا التّفسير من الممكن أن يتطابق مع التّفسير السابق،لأنّ مصداق المال هنا هو الخيل.

الشدید بخیله التی تساعده فی تحقیق أهدافه العلیا السامیه،و تعلّق سلیمان الشدید بخیله لیس بأمر یبعث علی العجب.

«طفق»باصطلاح النحویین من أفعال المقاربه،و تأتی بمعنی«شرع».

«سوق»هی جمع(ساق)و(أعناق)جمع(عنق)و معنی الآیه هو أنّ سلیمان شرع بمسح سوق الجیاد و أعناقها.

ما ذکرناه بشأن تفسیر هذه الآیه یتطابق مع ما ذهب إلیه بعض المفسّرین کالفخر الرازی،کما تمّت الاستفاده من بعض ما ورد عن العالم الشیعی الکبیر السیّد المرتضی،إذ قال فی کتابه(تنزیه الأنبیاء)فی باب نفی الادّعاءات الباطله و المحرّمه التی ینسبها بعض المفسّرین و رواه الحدیث إلی سلیمان(إنّ اللّه تعالی ابتدأ الآیه بمدحه و الثناء علیه فقال: نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوّٰابٌ فلا یمکن أن یثنی علیه بهذا الثناء ثمّ یتبعه من غیر فصل بإضافه القبیح إلیه،و أنّه یتلّهی بعرض الخیل عن فعل المفروض علیه من الصلاه،و الذی یقتضیه الظاهر أنّ حبّه للخیل و شغفه بها کان عن إذن ربّه و بأمره و بتذکیره إیّاه،لأنّ اللّه تعالی قد أمرنا بإرباط الخیل و إعدادها لمحاربه الأعداء،فلا ینکر أن یکون سلیمان علیه السّلام مأمورا بمثل ذلک) (1) .

أمّا العلاّمه المجلسی فقد ذکر فی کتابه(بحار الأنوار)فی باب النبوّه،تفسیرا لهذه الآیات یشابه کثیرا ما ذکر أعلاه (2) .

علی أیّه حال-وفق هذا التّفسیر-لم یصدر من سلیمان أی ذنب،و لم یحدث أی خلل فی ترتیب الآیات،و لا تبدو أیّه مشکله حتّی نعمد إلی توضیحها (3) .

و الآن نستعرض تفاسیر اخری لمجموعه من المفسّرین بشأن هذه الآیات و أشهرها،ذلک التّفسیر الذی یعود بالضمیر فی جملتی(توارت)و(ردّوها)إلی

1- 1) -تنزیه الأنبیاء،الصفحه 93.

2- 2) -بحار الأنوار،المجلّد 14،الصفحه 104.

3- 3) -طبقا لهذا التّفسیر فإنّ الضمیر فی عبارتی(توارت)و(ردّوها)یعود علی الخیل الماهره و الحاذقه (الصافنات الجیاد).

(الشمس)التی لم ترد فی تلک الآیات،و لکنّهم استدلّوا علیها من کلمه(العشی) (التی تعنی آخر النهار بعد الزوال)الموجوده فی آیات بحثنا.

و بهذا الشکل فإنّ الآیات تعطی المفهوم التالی،إنّ سلیمان کان غارقا فی مشاهده الخیل و الشمس قد غربت و استترت خلف حجاب الأفق،فغضب سلیمان کثیرا لأنه لم یکن قد صلّی صلاه العصر،فنادی ملائکه اللّه،و دعاها إلی ردّ الشمس،فاستجابت له الملائکه و ردّتها إلیه،أی رجعت فوق الأفق،فتوضّأ سلیمان(المراد بمسح السوق و الأعناق هو أداء الوضوء الذی کان حینذاک یعمل به وفق سنّه سلیمان،و بالطبع فإنّ کلمه(المسح)تأتی أحیانا فی لغه العرب بمعنی الغسل)ثمّ صلّی.

البعض ممّن لیس لدیهم الاطلاع الکافی تحدّثوا بأکثر من هذا،و نسبوا أمورا سیّئه و محرّمه اخری إلی هذا النّبی الکبیر،عند ما قالوا:إنّ المقصود من جمله فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ الْأَعْناقِ هو أنّه أمر بضرب سوق و أعناق الخیل بالسیف، أو أنّه نفّذ هذا الأمر بشخصه،لأنّها شغلته عن ذکر اللّه و الصلاه.

طبیعی أنّ بطلان التّفسیر الأخیر لا یخفی علی أحد،لأنّ الخیول لا ذنب لها کی یقتلها سلیمان بحدّ السیف،فإن کان هناک ذنب فقد ارتکبه هو،لأنّه کان غارقا فی مشاهده خیله،و نسی صلاته.

و أحیانا فإنّ قتل الخیل إسراف إضافه إلی کونه جریمه،فکیف یمکن أن یصدر مثل هذا العمل المحرّم من نبی،أمّا الروایات التی وردت من المصادر الإسلامیّه بشأن هذه الآیه فإنّها تنفی-بشدّه-هذه التهمه الموجّهه إلی سلیمان علیه السّلام.

أمّا التفاسیر السابقه التی قالت بنسیان سلیمان و غفلته عن أداء صلاه العصر، فهی موضع السؤال التالی،هل یمکن لنبی معصوم أن ینسی واجبا مکلّفا به؟رغم أنّ استعراضه للخیول کان واجبا آخر مکلّفا به،إلاّ إذا کانت الصلاه-کما قال

البعض-صلاه مندوبه أو مستحبّه،و نسيانها لا يسبّب أيّه مشاكل،و لكن إن كانت صلاه نافله فلا ضروره إذن لردّ الشمس.

إذا انتهينا من هذا،فهناك إشكالات اخرى وردت بشأن هذا التّفسير.

۱-کلمه(الشمس)لم تأت بصوره صريحه فى الآيات،فى حين أنّ الخيل اَلصّافِنٰاتُ الْجِيٰادُ جاء ذكرها صريحا،و نرى من المناسب أن نعود بالضمير على شیء صرّحت به الآيات.

۲-عباره عَنْ ذِكْرِ رَبِّی ظاهرها يعنى أنّ حبّ هذه الخيل إنّما هو ناشئ من ذكر و طاعه أمر اللّه،فى حين-طبقا للتفسير الأخير-تعطى كلمه(عن)معنى (على)و يكون معنى العباره،إنّى آثرت حبّ الخيل على حبّ ربّى،و هذا المعنى مخالف لظاهر الآيه.

۳-الأعجب من كلّ ذلك هى عباره رُدُّوهٰا عَلَيَّ التى تحمل صفه الأمر،فهل يمكن أن يخاطب سليمان البارى عزّ و جلّ أو ملائكته بصيغه الأمر،أن ردّوا علىّ الشمس،كما يخاطب عبيده أو خدمه.

۴-قضيّه ردّ الشمس،رغم أنّها فى مقابل قدره البارى عزّ و جلّ تعدّ أمرا يسيرا،إلاّ أنّها تواجه بعض الإشكالات بحيث جعلتها أمرا لا يمكن قبوله من دون توفّر أدلّه واضحه عليها.

۵-الآيات المذكوره أعلاه تبدأ بمدح و تمجيد سليمان،فى حين أنّ التّفسير الأخير لها يعطى معنى الذمّ و التحقير.

۶-إذا كانت الصلاه المتروكه واجبه،فتعليلها يعدّ أمرا صعبا،أمّا إذا كانت نافله فلا داعى لردّ الشمس.

السؤال الوحيد المتبقّى هنا،هو أنّ هذا التّفسير ورد فى عدّه روايات فى مصادر الحديث،و إذا دقّقنا جيّدا فى إسناد هذه الأحاديث،يتّضح لنا أنّها جميعا

تفتقد السند الموثوق المعتبر،و أنّ أكثر هذه الروايات موضوعه.

أليس من الأفضل صرف النظر عن تلك الروايات غير الموثوقه،و إرجاع علمها إلى أصحابها،و تقبّل كلّ ما يبيّنه ظاهر الآيات بذهنيه صافيه و متفتّحه، لنريح أنفسنا من عناء الإشكالات الفارغه.

***

الآيات [سوره ص (۳۸): الآيات ۳۴ الی ۴۰]

اشاره

وَ لَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَ أَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ (۳۴) قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِی وَ هَبْ لِی مُلْكاً لا يَنْبَغِی لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِی إِنَّکَ أَنْتَ الْوَهّابُ (۳۵) فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِی بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ (۳۶) وَ الشَّياطِينَ كُلَّ بَنّاءٍ وَ غَوّاصٍ (۳۷) وَ آخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِی الْأَصْفادِ (۳۸) هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِکْ بِغَيْرِ حِسابٍ (۳۹) وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَ حُسْنَ مَآبٍ (۴۰)

التّفسير

اشاره

الامتحان الصعب لسليمان و ملكه الواسع:

هذه الآيات تتحدّث عن أحداث اخرى من قصّه سليمان،و تبيّن أنّ الإنسان مهما امتلک من قوّه و قدره،فإنّها ليست منه،بل إنّ كلّ ما عنده هو من اللّه سبحانه و تعالی،هذا الموضوع يزيل حجب الغرور و الغفله عن عين الإنسان،و يجعله يشعر بصغر حجمه قياسا إلی هذا الكون.

القسم الأوّل من الآيات يتطرّق إلی أحد الامتحانات التی امتحن اللّه بها عبده

ص :۵۰۴

سليمـان،الامتحـان فى ترك العمـل بالأولى،و كيف توجّه بعـدها سـليمان بقلب خاشع إلى اللّه سـبحانه و تعالى طالبا منه العفو و التوبه لتركه العمل بالأولى.

إيجاز محتوى الآيات،سـمح مرّه اخرى لنا سـجى قصـص الخيال أن ينسجوا قصصا خياليه وهميه اخرى،و يلصقوا التّهم بهذا النّبى الكبير ما لا يليق بالنّبوه، و يتنافى مع مقام العصـمه،و يتنافى أساسا مع المنطق و العقل،و هذا بحدّ ذاته إمتحان للمحقّقين فى علوم القرآن،فلو أنّنا اكتفينا بما تطرحه آيات القرآن لما بقيت ثغره لنفوذ الخرافات و الأباطيل.

الآيه الاولى فى بحثنا هذا تقول: وَ لَقَدْ فَتَنّا سُلَيْمانَ وَ أَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ .

«الكرسـى»يعنى الأريكه ذات الأرجل القصـيره،و يبدو أنّه كان للسـلاطين نوعان من الكراسى،الأوّل:له أرجل قصيره يستخدم فى الأوقـات العـاديه، و الثانى:له أرجل أطول يسـتخدمها السـلاطين فى اجتماعاتهم الرسـميه،و يطلق على الأوّل اسم(كرسـى)و على الثانى اسم(عرش).

«الجسد»يعنى الجسم الذى لا روح فيه،و كما يقول الراغب فى مفرداته:إنّ لها مفهوما أكثر محدوديه من مفهوم الجسم،لأنّ كلمه الجسد لا تطلق على غير الإنسان إلاّ نادرا،و لكن كلمه الجسم لها طابع عام.

يسـتفاد من هـذه الآيـات بصوره عـامّه أنّ موضوع إمتحـان سـليمان كان بواسـطه جسـد خال من الروح القى على كرسـيّه و أمام عينيه،أمر لم يكن يتوقّعه،و آماله كانت متعلّقه بشىء آخر،و القرآن لا يعطى تفصيلات اخرى فى هذا المجال.

و قد أورد المفسّرون و المحدّثون تفسيرات متعدّده فى هذا المجال،أفضلها و أوضحها ما يلى:

إنّ سـليمان عليه السّلام كان متزوجا من عدّه نساء،و كان يأمل أن يرزق بأولاد صالحين شجعان ليساعدوه فى إداره شؤون البلاد و جهاد الأعداء،فحدّث نفسه

يوما قائلا:لأطوفنّ على نسائى كى ارزق بعدد من الأولاد لعلّهم يساعدوننى فى تحقيق أهدافى،و لكونه غفل عن قول(إن شاء اللّه)بعد تمام حديثه مع نفسه،تلك العباره التى تبيّن توكّل الإنسان على اللّه سبحانه و تعالى فى كلّ الأمور و الأحوال، فلم يرزق سوى ولد ميّت ناقص الخلقه جيء به و القى على كرسى سليمان عليه السّلام.

سليمان عليه السّلام غرق-هنا-فى تفكير عميق،و تألّم لكونه غفل عن اللّه لحظه واحده و اعتمد على قواه الذاتيه،فتاب إلى اللّه و عاد إليه.

و هناك تفسير آخر يمكن طرحه بعد التّفسير الأوّل و هو:إنّ اللّه سبحانه و تعالى امتحن سليمان بمرض شديد،بحيث طرحه على كرسيه كجسد بلا روح من شدّه المرض،و عباره(جسد بلا روح)مألوفه و دارجه فى اللغه العربيه إذ تطلق على الإنسان الضعيف و العليل.

و فى نهايه الأمر تاب سليمان إلى اللّه،و أعاد اللّه إليه صحّته،و عاد كما كان قبل مرضه(و المراد من(أناب)هنا عوده الصحّه و العافيه إليه).

بالطبع هناك إشكال ورد على هذا التّفسير إذ أنّ عباره(ألقينا)كان يجب أن تأتى بصوره(ألقيناه)حتّى تتناسب مع التّفسير المذكور أعلاه،يعنى أنّا ألقينا سليمان على كرسيّه جسدا بلا روح،فى حين أنّ هذه العباره لم ترد فى الآيه بتلك الصوره،و تقديرها مخالف للظاهر.

عباره(أناب)فى هذا التّفسير جاءت بمعنى عوده الصحّه و العافيه إليه،و هذا أيضا مخالف للظاهر،أمّا إذا اعتبرنا أنّ معنى(أناب)هو التوبه و العوده إلى اللّه، فإنّها لا تلحق أى ضرر بالتّفسير،و لهذا فإنّ الشيء الوحيد المخالف لظاهر الآيه- هنا-هو حذف ضمير عباره(ألقيناه).

القصص الكاذبه و القبيحه التى تحدّثت عن فقدان خاتم سليمان،و عثور أحد الشياطين عليه،و جلوس ذلك الشيطان على عرش سليمان،كما ورد فى بعض الكتب التى لا يستبعد أن يكون مصدرها هو كتاب(التلمود)اليهودى المليء

ص :۵۰۶

بالخرافات الإسرائيليه بما لا يتناسب مع العقل و المنطق.

و هذه القصص-فی حقیقه الأمر-دلیل انحطاط أفكار مبتدعیها،و لهذا فإنّ المحقّقین المسلمین أینما ذكروها أعلنوا بصراحه زیفها و كونها مجرّد اختلاقات، و قالوا:إنّ مقام النبوّه و الحكومه الإلهیه غیر مرتبط بالخاتم،و لم یستردّ الباری عزّ و جلّ النبوّه من أحد أنبیائه بعد أنّ بعثه بها،حتّی یبعث الشیطان بصوره نبی لیجلس مكان سلیمان(۴۰)یوما یحكم فیها بین الناس و یقضی بینهم (۱) .

علی أیّه حال،فإنّ القرآن الكریم-من خلال الآیه التالیه-یكرّر الحدیث بصوره مفصّله حول قضیّه توبه سلیمان التی وردت فی آخر عباره تضمّنتها الآیه السابقه: قٰالَ رَبِّ اغْفِرْ لِی وَ هَبْ لِی مُلْكاً لاٰ یَنْبَغِی لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِی إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهّٰابُ .***

هنا یطرح سؤالان:

اشاره

۱-هل یستشفّ البخل من طلب سلیمان علیه السّلام

ذكر المفسّرون أجوبه كثیره علی هذا السؤال،الكثیر منها لا یتطابق مع ظاهر الآیات،و الجواب الذی یبدو أكثر تناسبا و منطقیه من بقیّه التفاسیر هو أنّ سلیمان طلب من الباری عزّ و جلّ أن یهب له ملكا مع معجزات خاصّه،كی یتمیّز ملكه عن بقیّه الممالك،لأنّنا نعرف أنّ لكلّ نبی معجزه خاصّه به،فموسی علیه السّلام معجزته العصا و الید البیضاء،و معجزه إبراهیم علیه السّلام عدم إحراق النار له بعد أن القی فیها،و معجزه صالح علیه السّلام الناقه الخاصّه به،و معجزه نبیّنا الأكرم محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هو القرآن المجید، و سلیمان كان ملكه مقترنا بالمعجزات الإلهیّه،كتسخیر الریاح و الشیاطین له مع

---

۱ - ۱) -و للإیضاح أكثر فی أنّ كتب الیهود هی مصدر مثل هذه الخرافات،یراجع كتاب(أعلام القرآن)موضوع سلیمان فی القصص الصفحه ۳۹۲.

مميّزات اخرى.

و هـذا الأمر لا يعـدّ عيبا أو نقصا بالنسـبه للأنبياء الـذين يطلبون من اللّه أن يؤيّدهم بمعجزه خاصّه،كى يبرهنوا للناس على صدق نبوّتهم،و لهـذا فلا يوجد أى مانع فى أن يطلب الآخرون ملكا أوسع و أكبر من ملك سـليمان،و لكن لا تتوفّر فيه الخصائص التى أعطيت لسليمان.

و الـدليل على هـذا الكلام الآيات التاليه،و التى هى-فى الحقيقه-تعكس اسـتجابه البارئ عزّ و جلّ لطلب سـليمان،و تتحدّث عن تسخير الرياح و الشياطين لسليمان،و كما هو معروف فإنّ هذا الأمر هو من خصائص ملك سليمان.

و من هنا يتّضح جواب السؤال الثانى الذى يقول،وفقا لعقائدنا نحن المسـلمون، فإنّ ملك المهدى(عجّل اللّه تعالى فرجه)سيكون ملكا عاليا،و بالنتيجه سـيكون أوسع من ملك سـليمان.لأنّ ملك المهـدى(عجّل اللّه تعالى فرجه)مع سـعته و خصائصه التى تميّزه عن بقيّه الممالـك،فـإنّه يبقى من حيث الخصـائص مختلفـا عن ملـك سـليمان،و ملـك سـليمان يبقى خاصّـا به.خلاصه الأمر أنّ الحديث لم يختّص بزياده و نقصان و توسعه ملكه و طلب الإختصاص به،و إنّما اختصّ الحديث بكمال النبوّه و الذى يتمّ بوجود معجزات خصوصيه،لتميّزه عن نبوّه الأنبياء الآخرين،و سليمان كان طلبه منحصرا فى هذا المجال.

و

لقـد ورد فى بعض الرّوايات المنقوله عن الإمام موسـى بن جعفر الكاظم عليه السّـلام فى ردّه على سؤال يقول: إنّ دعوه سـليمان فيها بخل،إذ جاء فى الحديث أنّ أحد المقرّبين عن الإمام الكاظم عليه السّلام و هو على بن يقطين سأل الإمام عليه السّلام قائلا:أ يجوز أن يكون نبى اللّه عزّ و جلّ بخيلا؟ فقال:«لا».

فقلت له:فقول سليمان عليه السّلام: رَبِّ اغْفِرْ لِی وَ هَبْ لِی مُلْکاً لا یَنْبَغِی لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِی ما وجهه و معناه؟

فقـال:«الملـك ملكـان:ملـك مأخوذ بالغلبه و الجور و إجبار الناس،و ملك مأخوذ من قبل اللّه تعالى كملك آل إبراهيم و ملك طالوت و ذى القرنين،فقال سليمان عليه السّلام:

هب لى ملكـا لاـ ينبغى لأحـد من بعـدى أن يقول إنّه مأخوذ بالغلبه و الجور و إجبار النّاس،فسـخّر اللّه عزّ و جلّ له الريـح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب،و جعل غدوّها شـهرا و رواحها شـهرا،و سـخّر اللّه عزّ و جلّ له الشـياطين كلّ بناء و غوّاص، و علّم منطق الطير و مكّن فى الأـرض،فعلم النـاس فى وقته و بعـده أنّ ملكه لاـ يشـبه ملـك الملوك المختـارين من قبـل و المالكين بالغلبه و الجور.

قـال:فقلت له:فقول رسول اللّه:«رحم اللّه أخى سـليمان بن داود ما كان أبخله»؟ فقال:«لقوله عليه السّـلام وجهان:أحـدهما:ما كان أبخله بعرضه و سوء القول فيه، و الوجه الآخر يقول:ما كان أبخله إن كان أراد ما كان يذهب إليه الجهّال» (۱) .

الآيـات التـاليه تبيّن-كمـا قلنـا-موضوع اسـتجابه اللّه سـبحانه و تعـالى لطلب سـليمان و منحه ملكـا يتميّز بامتيـازات خاصّه و نعم كبيره،يمكن إيجازها فى خمسه أقسام:

۱-تسخير الرياح له بعنوان واسطه سريعه السير،كما تقول الآيه: فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِی بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ .

من الطبيعى أنّ الملـك الواسع الكبير يحتـاج إلى واسـطه اتّصـال سـريعه،كى يتمكّن صاحب ذلك الملك من تفقّـد كلّ مناطق مملكته بسرعه فى الأوقات الضروريه،و هذا الامتياز منحه البارى عزّ و جلّ لسليمان عليه السّلام.

أمّا كيف كانت الرياح تطيع أوامره؟ و بأى سـرعه كانت تسير؟ و على أى شىء كان سليمان و أصحابه يركبون أثناء انتقالهم من مكان إلى آخر عبر الرياح؟

۱- ۱) -كتاب علل الشرائع،نقلا عن تفسير نور الثقلين،المجلّد ۴،الصفحه ۴۵۹.

و ما هى العوامل التى كانت تحفظهم من السقوط و من انخفاض و ارتفاع ضغط الهواء،و غيرها من المشاكل.

خلاصه الأمر:ما هى هذه الواسطه السريّه و ذات الأسرار الخفيّه التى كانت موضوعه تحت تصرّف سليمان فى ذلك العصر؟ تفاصيل هذه التساؤلات ليست واضحه بالنسبه لنا،و كلّ ما نعرفه أنّ تلك الأمور الخارقه توضع تحت تصرّف الأنبياء لتسهّل لهم القيام بمهامهم.و هذه القضايا ليست بقضايا عاديه،و إنّما هى نعم خارقه و معجزات،و هذه الأشياء تعدّ شيئا بسيطا فى مقابل قدره البارى عزّ و جلّ،و ما أكثر المسائل التى نعرف أصلها فى الوقت الذى لا نعرف أى شىء عن جزئياتها.

و هنا يطرح سؤال،و هو:كيف يمكن أن تتطابق عباره(رخاء)الوارده فى هذه الآيه،و التى تعنى(اللين)مع عباره(عاصفه)و التى تعنى الرياح الشديده و الوارده فى الآيه(٨١)من سوره الأنبياء: وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها .

لهذا السؤال جوابان:

الأوّل:وصف الرياح بالعاصفه لبيان سرعه حركتها،و وصفها بالرخاء لبيان حركتها الهادئه و الرتيبه،أى إنّ سليمان و أصحابه لم يكونوا يشعرون بأىّ انزعاج من جرّاء حركه الرياح السريعه،فهى كالوسائل السريعه السير الموجوده حاليا، التى يشعر الإنسان معها كأنّه جالس فى إحدى غرف بيته،بينما تسير به تلك الوسيله بسرعه عاليه جدّا.

و قد ذكر بعض المفسّرين جوابا آخر على ذلك السؤال،و هو:إنّ هاتين الآيتين تشيران إلى نوعين من الرياح سخّرهما اللّه سبحانه و تعالى لسليمان،إحداهما كانت سريعه السير،و الثانيه بطيئه.

٢-النعمه الاخرى التى أنعمها البارئ عزّ و جلّ على عبده سليمان عليه السّلام،هى

تسخیر الموجودات المتمرده و وضعها تحت تصرّف سلیمان لتنجز له بعض الأعمال التی یحتاجها وَ الشَّیاطِینَ کُلَّ بَنّاءٍ وَ غَوّاصٍ [(۱)](#).

أی إنّ مجموعه منها منشغله فی البرّ ببناء ما یحتاج إلیه سلیمان من أبنیه، و اخری منشغله بالغوص فی البحر.

و بهذا الشکل فإنّ اللّه وضع تحت تصرّف سلیمان قوّه مستعدّه لتنفیذ ما یحتاج إلیه،فالشیاطین-التی من طبیعتها التمرّد و العصیان-سخّرت لسلیمان لتبنی له، و لتستخرج المواد الثمینه من البحر.

و مسأله تسخیر الشیاطین لسلیمان و تنفیذها لما یحتاج إلیه،لم ترد فی هذه الآیه فقط،و إنّما وردت فی عدّه آیات من آیات القرآن المجید،و لکن فی بعض الآیات-کالآیه التی هی مورد بحثنا و الآیه(۸۲)من سوره الأنبیاء استخدمت کلمه(الشیاطین)فیها،فیما استخدمت کلمه(الجنّ)فی الآیه(۱۲)من سوره سبأ.

و کما قلنا سابقا فإنّ(الجنّ)موجودات مخفیه عن أنظارنا،و لها عقول و شعور و قدره،و بعضها مؤمن و بعضها الآخر کافر،و لا یوجد هناک أی مانع من أن توضع -بأمر من اللّه-تحت تصرّف بعض الأنبیاء،لتنجز له بعض الأعمال.

و هناک احتمال وارد أیضا،و هو أنّ کلمه الشیاطین لها معنی واسع قد یشمل حتّی العصاه من البشر،و قد استخدم هذا المعنی فی الآیه(۱۱۲)من سوره الأنعام، و بهذا الترتیب فإنّ اللّه سبحانه و تعالی منح سلیمان قوّه جعلت حتّی المتمرّدین العصاه ینصاعون لأوامره.

۳-النعمه الاخری التی أنعمها الباری عزّ و جلّ علی سلیمان،هی سیطرته علی مجموعه من القوی التخریبیّه،لأنّ هناک من بین الشیاطین من لا فائده فیه، و لا سبیل أمام سلیمان سوی تکبیلهم بالسلاسل،کی یبقی المجتمع فی أمان من

۱- ۱) -(الشیاطین)معطوفه علی(الریح)و التی هی مفعول(سخّرنا)،و(کلّ بنّاء و غوّاص)بدل من الشیاطین.

شرورهم،كما جاء فی القرآن المجید وَ آخَرِینَ مُقَرَّنِینَ فِی الْأَصْفٰادِ (۱) .

«مقرّنین»مشتقّه من(قرن)و هی تشیر إلی ربط الأیدی و الأرجل أو الرقاب بالسلاسل.

«أصفاد»جمع(صفد)علی وزن(مطر)و تعنی القیود التی تکبّل بها أیدی السجناء.

و قال البعض:إنّ عباره مُقَرَّنِینَ فِی الْأَصْفٰادِ تعنی الجامعه التی تجمع بین الرقبه و الیدین،و هذا المعنی قریب من معنی«مقرنین»اللغوی و أکثر مناسبه له.

و هناک رأی آخر محتمل،و هو أنّ المقصود من هذه العباره هو أنّ کلّ مجموعه منهم مغلوله بسلسله واحده.

و هنا یطرح هذا السؤال:إن کان المراد من الشیاطین هم شیاطین الجنّ،فإنّ أولئک لهم جسم شفّاف لا یتناسب مع استخدام الأغلال و السلاسل و القیود.

لهذا قال البعض:إنّها کنایه عن اعتقال و منع تلک الشیاطین من أداء أی نشاط تخریبی،و إن کان المقصود من الشیاطین هم المتمردون و العصاه من بنی آدم فإنّ الأغلال و القیود تبقی محافظه علی مفهومها الأصلی،أی إنّ استخدامها هنا وارد.

۴-النعمه الرابعه التی أنعمها اللّه سبحانه و تعالی علی نبیّه سلیمان هی إعطاؤه الصلاحیات الواسعه و الکامله فی توزیع العطایا و النعم علی من یرید،و منعها عمّن یرید حسب ما تقتضیه المصلحه، هٰذٰا عَطٰاؤُنٰا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِکْ بِغَیْرِ حِسٰابٍ .

عباره بِغَیْرِ حِسٰابٍ إمّا أن تکون إشاره إلی أنّ البارئ عزّ و جلّ قد أعطی لسلیمان صلاحیات واسعه لن تکون مورد حساب أو مؤاخذه،و ذلک لصفه العداله التی کان یتمتّع بها سلیمان فی مجال استخدام تلک الصلاحیات،أو أنّ العطاء الإلهی لسلیمان کان عظیما بحیث أنّه مهما منح منه فإنّه یبقی عظیما و کثیرا.

و قال بعض المفسّرین:إنّ هذه العباره تخصّ-فقط-الشیاطین المقرنین

۱- ۱) -«آخرین»معطوفه علی(کلّ بنّاء)و هی بمثابه مفعول(سخّرنا)،و(مقرنین)صفه ل(آخرین).

بالأصفاد،و تخاطب سليمان بأنّه يستطيع إطلاق سراح أى منهم(إن رأى فى ذلك صلاحا،و إبقاء من يشاء فى قيوده إن رأى الصلاح فى ذلك.

إلاّ أنّ هذا المعنى مستبعد،لأن لا يتلاءم مع ظاهر كلمه(عطائنا).

۵-و النعمه الخامسه و الأخيره التى منّ اللّه سبحانه و تعالى بها على سليمان، هى المراتب المعنويه اللائقه التى شملته،كما ورد فى آخر آيه من آيات بحثنا وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنٰا لَزُلْفىٰ وَ حُسْنَ مَآبٍ .

هذه الآيه-فى الحقيقه-هى الردّ المناسب على أولئك الذين يدنّسون قدسيه أنبياء اللّه العظام بادّعاءات باطله و واهيه يستقونها من كتاب التوراه الحالى المحرّف،و بهذا الشكل فإنّها تبرئ ساحته من كلّ تلك الاتّهامات الباطله و المزيّفه،و تشيد بمرتبته عند البارئ عزّ و جلّ،حتّى أنّ عباره حُسْنَ مَآبٍ التى تبشّره بحسن العاقبه و المنزله الرفيعه عند اللّه،هى-فى نفس الوقت-إشاره إلى زيف الادّعاءات المحرّفه التى نسبتها كتب التوراه إليه،و التى تدّعى أنّ سليمان انجرّ فى نهايه الأمر إلى عباده الأصنام إثر زواجه من امرأه تعبد الأصنام، و عمد إلى بناء معبد للأصنام،إلاّ أنّ القرآن الكريم ينفى و يدحض كلّ تلك البدع و الخرافات.

***

ملاحظتان

اشاره

۱-الحقائق التى تبيّنها لنا قصّه سليمان

من دون أىّ شكّ،إنّ القرآن الكريم يهدف من ذكر تاريخ الأنبياء إتمام برامج التربيه من خلال عكس عين الحقائق فى هذه القصص.

و من جمله الأمور التى رسمتها قصّه سليمان،ما يلى:

أ:إنّ إمساكه بزمام امور مملكه قويّه ذات إمكانيات ماديّه و اقتصاديّه واسعه

و حضاره ساطعه لا تتنافى مع المقامات المعنويه و القيم الإلهيه و الإنسانيه، كما ذكرت ذلك الآيات المذكوره أعلاه بعد انتهائها من سرد النعم الماديّه التى أجزلها اللّه على سليمان،إذ يقول القرآن المجيد: وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنٰا لَزُلْفىٰ وَ حُسْنَ مَآبٍ .

و

فى حديث ورد عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،قال فيه: «أرأيتم ما اعطى سليمان بن داود من ملكه؟فإنّ ذلك لم يزده إلّا تخشعا،ما كان يرفع بصره إلى السماء تخشعا لربّه» (۱) ! ب:لإداره شؤون مملكته كبيره مترامية الأطراف،يجب توفّر وسيله سريعه للاتّصال،كما ينبغى الاستفاده من الطاقات المختلفه،و الحيلوله دون نفوذ القوى المخرّبه،و الاهتمام بالقضايا العمرانيه،و الحصول على الأموال عن طريق استخراج الثروات من البرّ و البحر،و وضع الإمكانات تحت تصرّف الولاه و العمّال المناسبين و الجديرين بتسلّم المناصب،كلّ هذه الأمور عكستها قصّه سليمان بصوره واضحه.

ج:الاستفاده من القوى البشريه بأقصى حدّ ممكن،بل و يمكن الاستفاده حتّى من الشياطين،إذ يمكن توجيهها و إرشادها للطريق الصحيح،و غلّ و تصفيد المتبقّى منها الذى لا يستفاد منه.

۲-سليمان فى القرآن و التوراه

القرآن المجيد وصف نبى اللّه سليمان فى الآيات المذكوره أعلاه بأنّه إنسان طاهر و صاحب قيم و مدبّر و عادل.

فى حين وصفه كتاب التوراه الحالى المحرّف(و العياذ باللّه)بأنّه رجل فاجر مطيع لهوى نفسه و ذو نقاط ضعف كثيره.و العجيب فى الأمر أنّه استعرض إلى جانب هذه الصفات الكاذبه و المزيّفه مناجاه سليمان لربّه و أشعاره الدينيّه و أمثاله

۱- ۱) -روح البيان،المجلّد ۸،الصفحه ۳۹.

و حكمه،و التى تشهد على أنّه رجل حكيم و حرّ،و هذا تناقض عجيب يشاهد فى كتاب التوراه المحرّف الحالى.

و لمن يريـد الاطلاع أكثر بهذا الشأن يمكنه مراجعه تفسـير الآيات ۱۲ و ۱۳ و ۱۴ من سوره سـبأ،و الذى جاء تحت عنوان(صور سليمان فى القرآن و كتاب التوراه الحالى المحرّف).

الآيات [سوره ص (۳۸): الآيات ۴۱ الی ۴۴]

اشاره

وَ اُذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ اَلشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ (۴۱) اُرْكُضْ بِرِجْلِكَ هٰذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَ شَرابٌ (۴۲) وَ وَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنّا وَ ذِكْرىٰ لِأُولِي اَلْأَلْبابِ (۴۳) وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَ لا تَحْنَثْ إِنّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ اَلْعَبْدُ إِنَّهُ أَوّابٌ (۴۴)

التّفسير

اشاره

حياه أيّوب المليئه بالحوادث و العبر:

الآيات السابقه تحدّثت عن سليمان عليه السّلام و عن القدره التى منحها إيّاه البارئ عزّ و جلّ،و التى كانت بمثابه البشرى لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لمسلمى مكّه الذين كانوا يعيشون تحت ضغوط صعبه.

آيات بحثنا هذا تتحدّث عن أيّوب الذى كان أنموذجا حيّا للصبر و الاستقامه، و ذلك لتعطى درسا لمسلمى ذلك اليوم و يومنا الحاضر و غدا،درسا فى مقاومه مشاكل و صعاب الحياه،و لتدعوهم إلى الاتّحاد و التعاون،كما وضّحت العاقبه المحموده للصبر و الصابرين.

و أيّوب هو ثالث نبى من أنبياء اللّه تستعرض هـذه السوره(سوره ص)جوانب من حياته،و هى بذلك تدعو رسولنا الأكرم صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى تـذكّر هـذه القصّه،و حكايتها للمسـلمين،كى يصبروا على المشاكل الصـعبه التى كانت تواجههم،و لا ييأسوا من لطف و رحمه اللّه.

اسم«أيّوب»أو قصّـته وردت فى عـدّه سور من سور القرآن المجيـد،منها الآيه (۱۶۳)فى سوره النساء،و الآيه(۸۴)فى سوره الأنعام الـتى ذكرت اسـمه فى قـائمه أنبيـاء اللّه الآـخرين،و بيّنت و أثبتت مقـام نبوّته،بخلاـف كتـاب التوراه الحـالى الـذى لم يعتبره من الأنبياء،و إنّما اعتبره أحد عباد اللّه المحسنين و الأثرياء و ذا عيال كثيرين.

كما أنّ الآيات(۸۳)و(۸۴)فى سوره الأنبياء اسـتعرضت بصوره مختصـره جوانب من حياه أيّوب عليه السّـلام،أمّا آيات بحثنا هـذه فإنّها تستعرض حياته بصوره مفصّله أكثر من أىّ سوره اخرى من خلال أربعه آيات:

فالاولى تقول: وَ اذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادىٰ رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ .

«نصب»على وزن(عسر)،و(نصب)على وزن(حسد)،و كلاهما بمعنى البلاء و الشرّ.

هـذه الآـيه تبيّن أوّلاـ علوّ مقـام أيّوب عنـد البارى عزّ و جلّ،و ذلك من خلال كلمه «عبـدنا»،و ثانيا فإنّها تشير بصوره خفيّه إلى الابتلاءات الشديده التى لا تطاق، و إلى الألم و العذاب الذى مسّ أيّوب عليه السّلام.

و لم يرد فى القرآن الكريم شـرحا مفصّـلا لمـا جرى على أيّوب عليه السّـلام،و إنّمـا نقرأ فى كتب الحـديث المعروفه و التفاسـير تفاصيل هذه القصّه.

ففى تفسـير نور الثقلين نقرأ أنّ أبـا بصـير سأل الإمام الصادق عن بليّه أيّوب التى ابتلى بها فى الـدنيا لأىّ علّه كانت؟(لعلّ السائل كان يظنّ أنّ أيّوب ابتلى بما ابتلى

به لمعصیه ارتکبها)فأجاب علیه السّلام

بقوله: «لنعمه أنعم اللّه عزّ و جلّ علیه بها فی الدنیا و أدّی شکرها،و کان فی ذلک الزمان لا یحجب إبلیس دون العرش،فلمّا صعد و رأی شکر نعمه أیّوب علیه السّلام حسده إبلیس،فقال:یا ربّ،إنّ أیّوب لم یؤدّ إلیک شکر هذه النعمه إلاّ بما أعطیته من الدنیا،و لو حرمته دنیاه ما أدّی إلیه شکر نعمه أبدا، فسلّطنی علی دنیاه حتّی تعلم أنّه لم یؤدّ إلیک شکر نعمه أبدا».

(و لکی یوضّح البارئ عزّ و جلّ إخلاص أیّوب للجمیع،و یجعله نموذجا حیّا للعالمین حتّی یشکروه حین النعمه و یصبروا حین البلاء،سمح الباری عزّ و جلّ للشیطان فی أن یتسلّط علی دنیا أیّوب).

«فقال له الباری عزّ و جلّ:قد سلّطتک علی ماله و ولده،قال:فانحدر إبلیس فلم یبق له مالا و لا ولدا إلاّ أعطبه(أی أهلکه)فازداد أیّوب للّه شکرا و حمدا.قال:

فسلّطنی علی زرعه یا ربّ،قال:قد فعلت،فجاء مع شیاطینه فنفخ فیه فاحترق، فازداد أیّوب للّه شکرا و حمدا،فقال:یا ربّ سلّطنی علی غنمه،فسلّطه علی غنمه فأهلکها،فازداد أیّوب للّه شکرا و حمدا،فقال:یا ربّ سلّطنی علی بدنه فسلّطه علی بدنه ما خلا عقله و عینیه،فنفخ فیه إبلیس فصار قرحه واحده من قرنه إلی قدمه، فبقی فی ذلک دهرا طویلا یحمد اللّه و یشکره».

(و لکن وقعت حادثه کسرت قلبه و جرحت روحه جرحا عمیقا،و ذلک عند ما زارته مجموعه من رهبان بنی إسرائیل).

«و قالوا له:یا أیّوب لو أخبرتنا بذنبک لعلّ اللّه کان یهلکنا إذا سألناه،و ما نری ابتلاک بهذا الابتلاء الذی لم یبتل به أحد إلاّ من أمر کنت تستره؟فقال أیّوب علیه السّلام:

و عزّه ربّی لم أرتکب أی ذنب،و ما أکلت طعاما إلاّ و یتیم أو ضعیف یأکل معی» (1) .

ص:518

---

1 - 1) -هذه الروایه وردت فی تفسیر نور الثقلین نقلا عن تفسیر علی بن إبراهیم،و نفس المضمون ورد فی (تفسیر القرطبی)و(الفخر الرازی)و(الصافی)و غیرها مع اختلاف بسیط.

حقّا إنّ شماته أصحابه كانت أكثر ألما عليه من أيّه مصيبه اخرى حلّت به، و رغم هذا لم يفقد أيّوب صبره،و لم يلوّث شكره الصافى كالماء الزلال بالكفر، و إنّما توجّه إلى البارئ عزّ و جلّ و ذكر العباره التى ذكرناها آنفا،أى قوله تعالى:

أَنِّی مَسَّنِیَ الشَّیْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ

و لكونه خرج من الامتحان الإلهى بنتيجه جيّده،فتح البارى عزّ و جلّ-مرّه اخرى-أبواب رحمته على عبده الصابر المتحمّل أيّوب،و أعاد عليه النعم التى افتقدها الواحده تلو الاخرى،لا بل أكثر ممّا كان يمتلك من المال و الزرع و الغنم و الأولاد،و ذلك كى يفهم الجميع العاقبه الحسنه للصبر و التحمّل و الشكر.

بعض كبار المفسّرين،احتملوا أنّ الوساوس التى وسوس بها الشيطان فى قلب أيّوب هى المقصوده من أذى و عذاب الشيطان لأيّوب،إذ كان يقول له أحيانا:لقد طالت فتره مرضك،و يبدو أنّ ربّك قد نسيك! و أحيانا كان يقول له:ما زلت تشكر اللّه رغم أنّه أخذ منك النعم العظيمه و السلامه و القوّه و القدره! يحتمل أنّهم ذكروا هذا التّفسير لكونهم يستبعدون إمكانيه تسلّط الشيطان على الأنبياء كأيّوب،و لكن مع الانتباه إلى أنّ هذه السلطه:أوّلا:كانت بأمر من اللّه.

و ثانيا:محدوده و مؤقته.و ثالثا:لامتحان هذا النّبى الكبير و رفع شأنه،فلا إشكال فى ذلك.

على أيّه حال،قيل:إنّ فتره ألمه و عذابه و مرضه كانت سبع سنين،و فى روايه اخرى قيل:إنّها كانت(١٨)سنه،و حالته و صلت إلى حدّ بحيث تركه أصحابه و حتّى أقرب المقربين إليه،عدا زوجته التى صمدت معه و أظهرت وفاءها له.و هذا شاهد على وفاء بعض الزوجات! و أشدّ ما آذى و آلم روح أيّوب عليه السّلام من بين ذلك الأذى و العذاب الذى مرّ به، هو شماته أعدائه،لذا فقد جاء فى إحدى الروايات أنّ أيّوب عليه السّلام سئل بعد ما عافاه

اللّه،أيّ شیء کان أشدّ علیک ممّا مرّ؟فقال:شماته الأعداء.

فی النهـایه خرج أیّوب علیه السّلام سالما من بودقه الامتحان الإلهی،و نزول الرحمه الإلهیّه علیه یبـدأ من هنا،إذ صـدر إلیه الأمر اُرْکُضْ بِرِجْلِکَ هٰذٰا مُغْتَسَلٌ بٰارِدٌ وَ شَرٰابٌ .

«ارکض»مشتقّه من(رکض)علی وزن(فقر و تعنی دکّ الأرض بالرجل، و أحیانا تأتی بمعنی الرکض،و هنا تعطی المعنی الأوّل.

فاللّه الذی فجّر عین زمزم فی صحراء یابسه و حارقه تحت أقدام الطفل الرضیع إسماعیل، هو الذی أصدر أمرا بتفجّر عین بارده لأیّوب لیشرب منها و یغتسل بمائها للشفاء من کافّه الأمراض التی أصابته(الظاهریه و الباطنیه).

و یری البعض أنّ تلک العین عباره عن ماء معـدنی صالـح للشـرب،و فیه شـفاء لکلّ الأمراض،و مهما کان فإنّه من لطف اللّه و رحمته النازله علی نبیّه الصابر المقاوم أیّوب علیه السّلام.

(مغتسل)یعنی الماء الذی یغسل به،و قال البعض:إنّها تعنی محل الغسل،لکنّ المعنی الأوّل أصحّ.

و علی أیّه حـال،فـإنّ وصف ذلـک المـاء بالبـارد،قـد یکون إشـاره إلی التـأثیرات الخـاصّه التی یترکهـا المـاء البارد علی سـلامه الجسم،و ذلک ما أثبته الطبّ الحـدیث الیوم.إضافه إلی أنّه إشاره لطیفه إلی أنّ کمال ماء الغسل یتمّ إن کان طاهرا و نظیفا کماء الشرب.

و الشاهد علی هذا ما جاء فی الروایات من استحباب شرب جرعه من الماء قبل الاستحمام به (۱) .

النعمه المهمّه الاولی التی أعیـدت علی أیّوب هی العافیه و الشـفاء و السـلامه،أمّا بقیّه النعم التی أعیدت علیه،فاستعرضـها القرآن المجید

۱- ۱) -وسائل الشیعه،المجلد الأول،الباب الثالث عشر من أبواب آداب الحمام الحدیث ۱۳.

وَ وَهَبْنٰا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنّٰا وَ ذِكْرىٰ لِأُولِي الْأَلْبٰابِ

.

و عن كيفيه عوده عائلته إليه؟وردت تفاسير متعدّده،أشهرها يقول:إنّهم كانوا أمواتا فأحياهم اللّه مرّه اخرى.

و لكن البعض قال:إنّهم كانوا قد تفرّقوا عنه أيّام ابتلائه بالمرض،فجمعهم اللّه إليه بعد برئه.

و يحتمل أنّ جميعهم أو بعضهم ابتلى بمختلف أنواع الأمراض،و قد شملتهم الرحمه الإلهيه و عادت إليهم صحّتهم و عافيتهم،ليجتمعوا مرّه اخرى حول أيّوب.

أمّا قوله تعالى: وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ،فإنّها إشاره إلى تناسلهم و زياده عددهم إلى الضعف،و بهذا إزداد عدد أبناء أيّوب إلى الضعف.

و رغم أنّ الآيات لا تتطرّق إلى إعاده أموال أيّوب إليه،و لكن الدلائل كلّها تبيّن أنّ البارئ عزّ و جلّ أعاد إليه أمواله و أكثر من السابق.

الذى يلفت النظر فى آخر الآيه-محلّ البحث-أنّ هدف إعاده النعم الإلهيّه على أيّوب تحدّد بأمرين:

الأوّل:(رحمه منّا)و التى كان لها صبغه فرديه،و فى الحقيقه إنّها مكافأه و جائزه من البارئ عزّ و جلّ لعبده الصابر المقاوم أيّوب.

و الثّانى:إعطاء درس لكلّ أصحاب العقول و الفكر على طول التأريخ لأخذ العبر من أيّوب،كى لا يفقدوا صبرهم و تحمّلهم عند تعرّضهم للمشاكل و الحوادث الصعبه،و أن لا ييأسوا من رحمه اللّه،بل يزيدوا من أملهم و تعلّقهم به.

المشكله الوحيده التى بقيت لأيّوب عليه السّلام هى قسمه بضرب زوجته،إذ كان قد أقسم أيّام مرضه لئن برىء من مرضه ليجلدنّ امرأته مائه جلده أو أقل لأمر أنكره عليها،و لكن بعد ما برىء من مرضه رغب أيّوب فى العفو عنها احتراما و تقديرا لوفائها و لخدماتها التى قدّمتها إليه أيّام مرضه،و لكن مسأله القسم باللّه كانت تحول دون ذلك.

ص:521

و هنا شمل البارئ عزّ و جلّ أيّوب عليه السّلام مرّه اخرى بألطافه و رحمته،و ذلک عند ما أوجد حلاّ لهذه المشکله المستعصیه علی أيّوب وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَ لاٰ تَحْنَثْ .

«ضغث»تعنی ملء الکفّ من الأعواد الرقیقه،کسیقان الحنطه و الشعیر أو الورد و ما شابهها.

و عن الأمر الذی أنکرته زوجه أیّوب علی زوجها و التی تدعی(لیا)بنت یعقوب،فقد اختلف المفسّرون فی تفسیره...

فقد نقل عن(ابن عبّاس)أنّ الشیطان ظهر بصورته الطبیعیه لزوجه أیّوب، و قال لها:إنّی أعالج زوجک بشرط أن تقولی حینما یتعافی:إنّی الوحید الذی کنت السبب فی معافاته،و لا أرید أیّ اجره علی معالجته...الزوجه التی کانت متألّمه و متأثّره بشدّه لاستمرار مرض زوجها وافقت علی الاقتراح،و عرضته علی زوجها أیّوب فیما بعد،فتأثّر أیّوب کثیرا لوقوع زوجته فی شرک الشیطان،و حلف أن یعاقب زوجته.

و قال البعض إنّ أیّوب بعث زوجته لمتابعه عمل ما،فتأخّرت فی العوده إلیه، فتأثّر أیّوب الذی کان یعانی من آلام المرض،و حلف أن یعاقب زوجته.

علی أیّه حال،فإنّ زوجته کانت تستحقّ الجزاء من هذا الجانب،أمّا من جانب وفائها و خدمتها أیّوب طوال فتره مرضه فإنّه یجعلها تستحقّ العفو أیضا.

حقّا إنّ ضربها بمجموعه من سیقان الحنطه أو الشعیر لا تعطی مصداقا واقعیا لحلفه،و لکنّه نفّذ هذا الأمر لحفظ احترام اسم اللّه، و الحیلوله دون إشاعه مسأله انتهاک القوانین،و هذا الأمر ینفّذ فقط بشأن الطرف الذی یستحقّ العفو،و فی الموارد الاخری التی لا تستحقّ العفو لا یجوز لأحد القیام بمثل هذا العمل [1] .

۱- ۱) -نظیر هذا المعنی ورد فی باب الحدود الإسلامیه و تنفیذها بحقّ المرضی المذنبین(کتاب الحدود أبواب حدّ الزنا).

الآیه الأخیره فی بحثنا هذا-التی هی بمثابه عصاره القصّه من أوّلها حتّی آخرها-تقول: إِنّٰا وَجَدْنٰاهُ صٰابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوّٰابٌ .

و من الواضح أنّ دعاء أیّوب الباریٔ عزّ و جلّ،و طلبه دفع الوساوس الشیطانیه عنه،و رفع البلاء و المرض عنه،کلّ هذه لا تتنافی مع مقام صبره و تحمّله،ذلک الصبر و التحمّل الذی استمرّ لمدّه سبع سنین،و فی روایات اخری لمدّه ثمانیه عشر عاما-للأوجاع و الأمراض و الفقر و العسر و استمرار الشکر.

الذی یلفت النظر فی هذه الآیه أنها أعطت ثلاثه أوصاف لأیّوب،کلّ واحد منها إن توفّر فی أی إنسان فهو إنسان کامل.

أوّلا:مقام عبودیته.

ثانیا:صبره و تحمّله و ثباته.

ثالثا:إنابته المتکرّره إلی اللّه.

***

بحوث

اشاره

۱-دروس مهمّه فی قصّه أیّوب

رغم أنّ قصه هذا النّبی الصابر أدرجت فی أربع آیات فی هذه السوره،إلاّ أنّها وضّحت حقائق مهمّه،منها:

أ-الامتحان الإلهی واسع و کبیر جدّا و یشمل حتّی الأنبیاء الکبار،إذ یکون امتحانهم أشدّ و أصعب من الآخرین،لأنّ طبیعه الحیاه فی هذه الدنیا بنیت علی هذا الأساس،و من دون هذا الامتحان فإنّ الإمکانیات و الطاقات الکامنه فی الإنسان لا تتفجّر.

ب-الفرج بعد الشدّه نقطه اخری تمکن فی مجریات هذه القصّه،فعند ما تشتدّ أمواج الحوادث و البلاء علی الإنسان و تحیط به من کلّ جانب،علیه أن لا ییأس

و يفقد الأمل،و إنّما عليه أن يدرك أنّها بدايه تفتح أبواب الرحمه الإلهيه عليه،كما

يقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام: «عند تناهى الشدّه تكون الفرجه، و عند تضايق حلق البلاء يكون الرخاء» (۱)
.

ج-مجريات هذه القصّه توضّح بصوره جيّده بعض غايات البلاء و الحوادث الصعبه فى الحياه،و تجيب على من يرى فى وجود الآفات و البلايا تناقضا مع برهان النظم فى بحوث التوحيد،لأنّ وجود مثل هذه الحوادث الصعبه و الشديده فى حياه الإنسان-من أنبياء اللّه الكبار و حتّى عموم الناس-يعدّ أمرا ضروريا، فالامتحان-كما ذكرنا-يفجّر طاقات الإنسان الكامنه،و يوصله فى آخر الأمر إلى التكامل فى وجوده.

لذا

فقد ورد فى الروايات الإسلاميه عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إنّ أشد الناس بلاء الأنبياء،ثمّ الذين يلونهم،الأمثل فالأمثل» (۲)
.

كما

ورد عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إنّ فى الجنّه منزله لا يبلغها عبد إلّا بالابتلاء» (۳) .

د-أحداث هذه القصّه تعطى درسا فى الصبر لكلّ المؤمنين الواقعيين الرساليين،الصبر و التحمّل الذى يعقبه الظفر و الإنتصار فى كلّ المجالات،و نيل المقام المحمود و المنزله الرفيعه عند البارئ عزّ و جلّ.

ه-أحيانا يكون إمتحان شخص ما،هو إمتحان فى نفس الوقت لأصدقائه و للمحيطين به،كى يعرف حجم صداقتهم و محبّتهم إيّاه،و مقدار وفائهم له،فعند ما فقد أيّوب أمواله و ثرواته و صحّته تفرّق عنه أصحابه،و لم يكتفوا بالابتعاد عنه، و إنّما اتّحدت ألسنتهم مع ألسنه أعدائه فى الشماته به و إلقاء اللائمه عليه،و كشفوا

۱- ۱) -نهج البلاغه،قصار الكلمات،الكلمه ۳۵۱.

۲- ۲) -سفينه البحار مادّه(بلاء)المجلّد الأوّل،الصفحه ۱۰۵.

۳- ۳) -المصدر السابق.

بفعلتهم هذه عن حقيقه أنفسهم،و كما لاحظنا فإنّ أيّوب كان يتألّم من جراح ألسنتهم أكثر من تألّمه من مرضه،و الشعر المعروف يقول:

جراحات السنان لها التيام

و لا يلتام ما جرح اللسان

جراح الكلام ليس لها التئام.

و-أحبّاء اللّه ليسوا من يذكر اللّه عند الرخاء،و إنّما أحبّاء اللّه الواقعيون هم أولئك الذين يذكرون اللّه دائما فى السرّاء و الضرّاء،و فى البلاء و النعمه،و فى المرض و العافيه،و فى الفقر و الغنى،و إنّ تأثيرات الحياه الماديّه لا تترك على إيمانهم و أفكارهم أدنى أثر.

قال أمير المؤمنين عليه السّلام فى خطبته الخاصّه بوصف المتّقين التى بيّنها لصاحبه المخلص«همام»و استعرض فيها أكثر من(١٠٠)صفه للمتّقين،قال فى إحدى تلك الصفات:

«نزلت أنفسهم منهم فى البلاء كالتى نزلت فى الرخاء».

ز-هذه القصّه أكّدت مرّه اخرى حقيقه أنّ فقدان الإمكانات الماديّه،و نزول المصائب،و حلول المشاكل و الفقر،لا تعنى عدم شمول الإنسان بلطف البارئ عزّ و جلّ،كما أنّ امتلاك الإمكانات الماديّه ليس دليلا على بعد الإنسان عن اللّه سبحانه و تعالى، و إنّما يمكن أن يكون الإنسان عبدا مقرّبا للّه مع امتلاكه للكثير من الإمكانات الماديّه،بشرط أن لا يكون عبدا لأمواله و أولاده و مقامه الدنيوى،و إنّ فقدها لا يفقد الصبر معها.

٢-أيّوب عليه السّلام فى القرآن و التوراه

رغم أنّ البارئ عزّ و جلّ أشاد بالروح الكبيره لهذا النّبى الكبير الذى هو مظهر الصبر و التحمّل فى قرآنه المجيد فى أوّل القصّه الخاصه به و فى آخرها.فإنّ قصّه هذا النّبى الكبير-ممّا يؤسف له-لم تحفظ من أيدى الجهله و الأعداء،حيث دسّوا فيها خرافات تافهه لا تليق بمقامه المحمود المنزّه عنها و المطهّر منها،و من تلك

الخرافات القول بأنّ الدود غطّى بدنه أثناء فتره مرضه،و تعفّن جسده،بحيث أنّ أهل قريته ضاقوا به ذرعا و أخرجوه من قريتهم.

و دون أدنى شكّ،فإنّ مثل هـذه الروايات مزيّفه رغم ورودها فى طيّات كتب الحـديث،لأنّ رساله الأنبياء تفرض أن يكون النّبى المرسـل-فى أى زمـان-بعيـدا عن مثل تلك التقوّلات،كى ينجـذب إليه الناس برغبه و شوق،و أن لا تتوفّر فيه أشـياء تكون سـببا لتنفّرهم فيه و ابتعادهم عنه،كالأمراض و العيوب الجسديه و الأخلاق السـيّئه،لأنّها تتناقض مع فلسفه الرساله،فالقرآن المجيد يقول بشـأن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فى الآيه(۱۵۹)من سـوره عمران: فَبِمَا رَحْمَهٍ مِنَ اللّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .

و هـذه الآـيه دليـل على أنّ النّبى يجب أن لاـ يكون بحـاله تجعـل المحيطين به يتفرّقون عنه. و لكن ورد فى التوراه جزء خـاص بـأيّوب و قبل موضوع(مزامير داود)و هـذا الجزء يشـتمل على(۴۲)فصـلا،كلّ فصل يشـرح مواضيع مختلفه،و قد وردت فى بعض الفصول مواضـيع سـيّئه و قبيحه،و منهـا ما ورد فى الفصل الثالث و الـذى يقول:إنّ أيّوب كان كثير الشـكوى،فى حين أنّ القرآن الكريم كان يعظّم و يشيّد بمقام صبره و تحمّله.

۳-إطلاق صفه(أوّاب)على الأنبياء الكبار

ثلاثه أنبياء كبار أطلقت عليهم صـفه(أوّاب)فى هـذه السوره،و هم:داود و سـليمان و أيّوب،و فى سوره(ق)فى الآيه(۳۲)اطلق هذا الوصف على كلّ أهل الجنّه،قوله تعالى: هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ .

هـذه العبارات تبيّن أنّ مقامه فى المقام الأعلى،و عنـد ما نرجع إلى مصادر اللغه نشاهـد أنّ كلمه(أوّاب)مشـتقّه من كلمه(أوب)و تعنى الرجوع و العوده.

و هذا الرجوع و العوده(خاصّه و أنّ كلمه(أوّاب)هى اسم مبالغه تعنى كثره

ص :۵۲۶

الرجوع و تکراره)یشیر إلی أنّ الأوّابین حسّاسون جدّا تجاه الأسباب و العوامل التی تبعدهم عن اللّه،کالرزق و بریق الزخارف الدنیویه فی أعینهم،و وساوس النفس و الشیطان،و إن ابتعدوا لحظه واحده عن اللّه عادوا إلیه بسرعه،و إن غفلوا عنه لحظه تذکروه و سعوا فی جبرانها.

هذه العوده یمکن أن تکون بمعنی العوده إلی طاعه أوامر اللّه و اجتناب نواهیه، أی أنّ أوامره هی مرجعهم و سندهم أینما کانوا.

و کلمه(أوّاب)التی جاءت فی الآیه العاشره من سوره سبأ یٰا جِبٰالُ أَوِّبِی مَعَهُ وَ الطَّیْرَ و الخاصّه بداود-أیضا-تعطی معنا آخر،و هو تردید الصوت،إذ أنّ الأوامر صدرت إلی الجبال و الطیور أن ردّدی الصوت مع داود،و لهذا فإنّ(أوّاب) تعنی کلّ من یردّد الأوامر الإلهیّه و التسبیح و الحمد الذی تردّده کلّ موجودات الکون حسب قوانین الخلقه،و ممّا یذکر أنّ أحد معانی کلمه(أیّوب)هی(أوّاب).

***

الآيات [سوره ص (٣٨): الآيات ۴۵ الی ۴۸]

اشاره

وَ اُذْكُرْ عِبٰادَنٰا إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْحٰاقَ وَ يَعْقُوبَ أُولِي اَلْأَيْدِي وَ اَلْأَبْصٰارِ (۴۵) إِنّٰا أَخْلَصْنٰاهُمْ بِخٰالِصَةٍ ذِكْرَى اَلدّٰارِ (۴۶) وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنٰا لَمِنَ اَلْمُصْطَفَيْنَ اَلْأَخْيٰارِ (۴۷) وَ اُذْكُرْ إِسْمٰاعِيلَ وَ اَلْيَسَعَ وَ ذَا اَلْكِفْلِ وَ كُلٌّ مِنَ اَلْأَخْيٰارِ (۴۸)

التّفسير

اشاره

الأنبياء السّته:

متابعه للآيات السابقه التی تطرّقت باختصار إلی حیاه(داود)و(سليمان) و بصوره أكثر اختصارا لحیاه(أيّوب)إذ بيّنت أهم النقاط البارزه فی حیاه هذا النّبی الكبير، و تستعرض آيات بحثنا هذا أسماء ستّه من أنبياء اللّه،و توضّح بصوره مختصره بعض صفاتهم البارزه التی یمكن أن تكون أنموذجا حيّا لكلّ بنی الإنسان.

و الذی یلفت الانتباه،هو أنّ هذه الآيات استعرضت ستّ صفات مختلفه لأولئك الأنبياء السته،و لكلّ صفه معناها و مفهومها الخاصّ بها.

ففی البدايه تخاطب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وَ اذْكُرْ عِبٰادَنٰا إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْحٰاقَ

وَ يَعْقُوبَ

.

مقام العبوديه هو أوّل ميزه لأولئک الأنبياء،و حقّا فإنّ كلّ شـيء جمع فی هذه الصفه فالعبوديه للّه تعنی التبعيه المطلقه له،و تعنی الاستسلام الكامل لإرادته، و الاستعداد لتنفيذ أوامره فی كلّ الأحوال.

العبوديه للّه تعنی عـدم الاحتيـاج لغيره،و عـدم التوجّه لسواه،و التكفير بلطفه و رحمته فقط،هـذا هو أوج تكامل الإنسان و أفضـل شرف له.

ثمّ تضيف الآيه: أُولِی الْأَيْدِی وَ الْأَبْصارِ .

إنّه لتعبير مثير للعجب؟أصحاب الأيدی و الأبصار! «أيدی»جمع(يد)،و(أبصار)جمع(بصر).

الإنسـان يحتـاج إلی قـوّتين لتحقيق أهـدافه،الاـولی قوّه الإـدراک و التشـخيص، و الثـانيه حسن الأـداء.و بعبـاره اخری:يجب عليه الاستفاده من(العلم)و(القدره) للوصول إلی أهدافه.

و قد وصف البارئ عزّ و جلّ أنبياءه بأنّهم ذوو إدراک و تشخيص و بصيره قويّه، و ذوو قوّه و قدره كافيه لإنجاز أعمالهم.

إنّ هؤلاء الأنبياء علی مستوی عال من المعرفه،و أنّ مستوی علمهم بشريعه اللّه و أسرار الخلق و خفايا الحياه لا يمكن تحديده.

أمّا من حيث الإراده و التصميم و حسن الأداء،فإنّهم غير كسولين أو عاجزين أو ضعفاء،بل هم أشخاص ذوو إراده قويّه و تصميم راسخ،إنّهم قدوه لكلّ السائرين فی طريق الحقّ،فبعد مقام العبوديه الكامل للّه تعالی،لتسلّحوا بهذين السلاحين القاطعين.

و ممّا يستنتج من هذا الحديث أنّه ليس المراد من اليد و العين أعضاء الحسّ التی يمتلكها غالبيه الناس،لأنّ هناک الكثيرين ممّن يمتلكون هذين العضوين لكنّهم لا يمتلكون الإدراک و الشعور الكافی،و لا القدره علی التصميم،و لا حسن

الأداء فی العمل،و إنّما هی کنایه عن صفتین هما(العلم و القدره).

أمّا الصفه الرابعه لهم فیقول القرآن بشأنها: إِنّٰا أَخْلَصْنٰاهُمْ بِخٰالِصَهٍ ذِکْرَی الدّٰارِ (۱) .

نعم،إنّهم یتطلّعون إلی عالم آخر،و أفق نظرهم لا ینتهی عند الحیاه الدنیا و لذّاتها المحدوده،بل یتطّلعون إلی ما وراءها من حیاه أبدیه و نعیم دائم،و لهذا یبذلون الجهد و یسعون غایه السعی لنیلها.

و علی هذا فإنّ المراد من کلمه(الدار)هی الدار الآخره،لأنّه لا توجد دار غیرها،و إن وجدت فما هی إلاّ جسر أو ممرّ یؤدّی إلی الآخره فی نهایه الأمر.

بعض المفسّرین احتملوا أن یکون المراد من الدار هنا دار الدنیا،و عباره ذِکْرَی الدّٰارِ إشاره إلی الذکر الحسن الباقی لأولئک الأنبیاء فی هذه الدنیا،و هذا الاحتمال مستبعد جدّا،و خاصّه أنّ کلمه(الدار)جاءت بشکل مطلق،و کذلک لا تتناسب مع کلمه(ذکری).

و البعض الآخر احتمل أنّ المراد هو ذکرهم الحسن و الجمیل فی دار الآخره، و هذا مستبعد أیضا.

و علی أیّه حال،فلعلّ الإنسان یتذکّر الآخره بین حین و آخر،خاصّه عند وفاه أحد أصدقائه أو مشارکته فی مراسم التشییع أو مجالس الفاتحه،و هذا الذکر لیس خالصا و إنّما هو مشوب بذکر الدنیا،أمّا عباد اللّه المخلصون فإنّ لهم توجّها خالصا و عمیقا و مستمرا بالنسبه للدار الآخره،فهی علی الدوام تتراءی أمام أعینهم، و عباره(خالصه)فی الآیه إشاره إلی هذا المعنی.

الصفتان الخامسه و السادسه جاءتا فی الآیه التالیه وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنٰا لَمِنَ الْمُصْطَفَیْنَ الْأَخْیٰارِ

۱- ۱) -(ذکری الدار)من الممکن أن تکون خبرا لمبتدأ محذوف،و تقدیر العباره(هی ذکر الدار)،و من الممکن أن تکون بدلا من(خالصه).

(۱)

.

إنّ إيمانهم و عملهم الصالح كانا السبب فى اصطفاء البارئ عزّ و جلّ لهم من بين الناس لأداء مهام النبوّه و حمل الرساله،و عملهم الصالح وصل إلى درجه.

استحقّوا بحقّ إطلاق كلمه(الأخيار)عليهم،فأفكارهم سليمه،و أخلاقهم رفيعه، و تصرفاتهم و أعمالهم طوال حياتهم متّزنه،و لهذا السبب فإنّ بعض المفسّرين يستفيدون من هذه العباره و أنّ اللّه سبحانه و تعالى اعتبر أولئك أخيارا من دون أى قيد و شرط،كدليل على عصمه الأنبياء،لأنّه متى ما كان وجود الإنسان كلّه خيرا، فمن المؤكّد أنّه معصوم (۲) .

عباره(عندنا)مليئه بالمعانى العميقه،و تشير إلى أنّ اصطفاءهم و اعتبارهم من الأخيار لم يتمّ وفق تقييم الناس لهم،التقييم الذى لا يخلو من التهاون و غضّ النظر عن كثير من الأمور،و إنّما تمّ بعد التحقّق من كونهم أهلا لذلك و بعد تقييمهم ظاهريا و باطنيا.

و بعد أن أشارت الآيه السابقه إلى مقام ثلاثه أنبياء بارزين،تشير الآيه التاليه، إلى ثلاثه آخرين،إذ تقول: وَ اذْكُرْ إِسْمٰاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ وَ كُلٌّ مِنَ الْأَخْيٰارِ .

فكلّ واحد منهم كان مثالا و أسوه فى الصبر و الاستقامه و طاعه أوامر البارئ عزّ و جلّ،خاصّه«إسماعيل»الذى كان على استعداد كامل للتضحيه بروحه فى سبيل اللّه،و لهذا السبب اطلق عليه لقب(ذبيح اللّه)و هو الذى ساهم مع والده إبراهيم عليه السّلام فى بناء الكعبه الشريفه و تثبيت أسس التجمّع العظيم الذى يتمّ فى موسم الحجّ كلّ عام.

و استعراض آيات القرآن الكريم لحياه أولئك العظام ليستلهم منها

۱- ۱) -(مصطفين)(بفتح الفاء)جمع مصطفى،و فى الأصل كانت(مصطفيين)حذفت ياؤها الاولى فأصبحت (مصطفين).

۲- ۲) -تفسير الفخر الرازى،المجلّد ۲۶،الصفحه ۲۱۷.

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كلّ المسلمين العبر،و مطالعه حياه أمثال هؤلاء الرجال العظام توجّه حياه الإنسان،و تبعث فيه روح التقوى و التضحيه و الإيثار،و تجعله فى نفس الوقت صابرا صامدا أمام المشاكل و الحوادث الصعبه.

عباره كُلٌّ مِنَ الْأَخْيٰارِ تشير إلى أنّ الأنبياء الثلاثه(إسماعيل،و اليسع،و ذو الكفل)تنطبق عليهم كافّه الصفات التى وصف بها الأنبياء الثلاثه السابقون (إبراهيم،و إسحاق،و يعقوب)الذين أطلقت عليهم الآيه السابقه صفه(الأخيار)، كما أنّ(الخير المطلق)له معان واسعه تشمل(النبوّه)و(الدار الآخره)و(مقام العبوديّه)و(العلم و القدره).

أمّا(اليسع)فقد ورد اسمه مرتين فى القرآن المجيد،إحداها فى هذه السوره، و الاخرى فى الآيه(٨۶)من سوره الأنعام،و ما جاء فى القرآن الكريم يوضّح أنّه من الأنبياء الكبار و من الذين يقول عنهم القرآن فى آياته: وَ كلاًّ فَضَّلْنٰا عَلَى الْعٰالَمِينَ . (١)

البعض يعتقد أنّ(اليسع)هو(يوشع بن نون)أحد أنبياء بنى إسرائيل المعروفين،و قد دخلت الألف و اللام على اسمه كما أبدلت الشين بالسين،و دخول الألف و اللام على الاسم غير العربى(و هذا اسم عبرى)أمر غير جديد،فمثلها مثل (إسكندر)التى تلفظ و تكتب بالعربيه(الإسكندر)إذ هو نوع من التقريب.

فى حين أنّ البعض يعتبرها كلمه عربيه مشتقّه من(يسع)و التى هى فعل مضارع مشتقّ من(وسعت)و لتحويله إلى اسم أضيف إليه الألف و اللام.

الآيه(٨۶)من سوره الأنعام بيّنت أنّه من ذريّه إبراهيم،و لكن لم تبيّن إن كان من أنبياء بنى إسرائيل،أم لا؟ أمّا فصل الملوك فى كتاب التوراه فقد جاء فيه أنّ اسمه(اليشع)بن(شافات)، و معنى(اليشع)فى اللغه العبريه هو(الناجى)فيما تعنى(الشافات)(القاضى).

١- ١) -الأنعام-٨۶.

و قد اعتبر قسم آخر أنّه(الخضر)و لم يتوفّر بعد أيّ دليل واضح على هذا القول.

و اعتبر قسم آخر أنّه(ذو الكفل)و هذا الكلام مخالف بوضوح لما جاء فى الآيه مورد بحثنا،لأنّ ذا الكفل معطوفا على اليسع.

و على أيّه حال،فإنّ اليسع هو نبى له مقام رفيع و ذو استقامه،و ما ذكرناه بشأنه كاف للاستلهام منه.

و أمّا(ذو الكفل)فهو أيضا معروف بأنّه أحد أنبياء اللّه،و ذكره ورد مع أنبياء آخرين فى الآيه(٨٥)من سوره الأنبياء،و جاء بالضبط بعد اسم إسماعيل و إدريس. و البعض يعتقد أنّه من أنبياء بنى إسرائيل،و أنّه من أبناء أيّوب و اسمه الحقيقى(بشر)أو(بشير)أو(شرف)و البعض يرى أنّه(حزقيل)و ذو الكفل هو لقب اطلق عليه (١) .

و حول تسميه(ذى الكفل)بهذا الاسم(الكفل يعنى النصيب)و يعنى(الكفاله و التعهّد)وردت عدّه تفاسير،منها:

قال البعض:إنّه سمّى بذى الكفل لأنّ اللّه سبحانه و تعالى أنزل عليه نصيبا وافرا من الثواب و شمله برحمته الواسعه.

و قال بعضهم:لأنّه التزم بتعهّده بقيام الليل بالعباده،و صيام النهار،و عدم السخط من قضاء اللّه،و بهذا اطلق عليه هذا اللقب.

و بعض آخر قال:سمّى بذى الكفل لأنّه تكفّل بمجموعه من أنبياء بنى إسرائيل، و أنقذهم من ملوك زمانهم الجبّارين.

و على أيّه حال،فإنّ ما فى حوزتنا اليوم من معلومات عن نبى اللّه ذى الكفل

١- ١) -أعلام القرآن و تفسير القرطبى و تفسير روح البيان و تفسير الميزان،كلّ منها أشارت إلى جزء من الموضوع المذكور أعلاه.

یدلّ علی استقامته فی طریق طاعه و عباده اللّه،و مقاومه الجبابره،و أنّه نموذج بارز لیومنا الحاضر و ما بعده،رغم أنّ البعد الزمنی بیننا و بینهم یحول دون المعرفه الدقیقه لتفاصیل أحوالهم.

***

ص :۵۳۴

الآیات [سوره ص (۳۸): الآیات ۴۹ الی ۵۴]

اشاره

هٰذٰا ذِکْرٌ وَ إِنَّ لِلْمُتَّقِینَ لَحُسْنَ مَآبٍ (۴۹) جَنّٰاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَهً لَهُمُ اَلْأَبْوٰابُ (۵۰) مُتَّکِئِینَ فِیهٰا یَدْعُونَ فِیهٰا بِفٰاکِهَهٍ کَثِیرَهٍ وَ شَرٰابٍ (۵۱) وَ عِنْدَهُمْ قٰاصِرٰاتُ اَلطَّرْفِ أَتْرٰابٌ (۵۲) هٰذٰا مٰا تُوعَدُونَ لِیَوْمِ اَلْحِسٰابِ (۵۳) إِنَّ هٰذٰا لَرِزْقُنٰا مٰا لَهُ مِنْ نَفٰادٍ (۵۴)

التّفسیر

اشاره

هذا ما وعد به المتّقون:

آیات هـذه السوره انتقلت بنا إلی شـکل آخر من الحدیث،إذ أخذت تقارن بین المتّقین و العصاه المتجبّرین،و تشـرح مصیر کلّ منهما یوم القیامه،و هی بصوره عامّه تکمل بحوث الآیات السابقه.

فی البدایه،و کخلاصه لشرح حال الأنبیاء السابقین و النقاط المضیئه فی حیاتهم،تقول الآیه: هٰذٰا ذِکْرٌ (۱) .

نعـم،لم یکن الهـدف من بیـان مقـاطع من تأریـخ أولئـک الأنبیـاء الرائع و المـثیر سـرد بعض القصـص،و إنّمـا الهـدف الـذکر و التذکّر،کما أکّدت علیه بدایه هذه السوره

ص:۵۳۵

۱- ۱) -قال بعض المفسرین فی تفسیر هذه العباره:إن المراد من الذکر الجمیل هم الأنبیاء السابقون.

ص وَ الْقُرْآنِ ذِی الذِّکْرِ .

فالهدف هو إیقاظ الأفکار،و رفع المستوی العلمی،و زیاده قوّه المقاومه و الصمود لدی المسلمین الذی نزلت إلیهم هذه الآیات .(۱)

ثمّ أخرجت الأمور من طابعها الخاصّ و بیان أوضاع و أحوال الأنبیاء،إلی طابعها العامّ،لتشرح بصوره عامّه مصیر المتّقین،إذ تقول: وَ إِنَّ لِلْمُتَّقِینَ لَحُسْنَ مَآبٍ (۲) .

بعد هذه الآیه القصیره ذات المعانی الخفیّه و التی توضّح تماما حال المتّقین بصوره مختصره،یعمد القرآن المجید مجدّدا إلی اتّباع أسلوبه الخاص،و هو أسلوب الإیجاز و التفصیل،لیشرح ما فاز به المتّقون جَنّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَهً لَهُمُ الْأَبْوابُ (۳) .

«جنّات»إشاره إلی حدائق الجنّه،و(عدن)تعنی الاستقرار و الثبات،و لهذا اطلق علی المنجم الذی تحوی أعماقه أنواع الفلزات و المواد الثمینه کلمه(معدن).

و علی أیّه حال فالعباره هنا تشیر إلی خلود حدائق الجنّه.

و عباره مُفَتَّحَهً لَهُمُ الْأَبْوابُ إشاره إلی أنّهم لا یتکلّفون حتّی بفتح أبواب الجنّه،إذ أنّها تنفتح بدون عناء لاستقبال أهل الجنّه،إذ أنّ الجنّه بانتظارهم،و عند ما تراهم تفتح لهم أبوابها و تدعوهم للدخول إلیها.

ثمّ تبیّن الهدوء و السکینه التی تحیط بأهل الجنّه،إذ تقول: مُتَّکِئِینَ فِیها یَدْعُونَ فِیها بِفاکِهَهٍ کَثِیرَهٍ وَ شَرابٍ (۴) .أی إنّهم متکئون علی سرر فیها،و قد هیّئت

۱- ۱) -مجموعه من المفسّرین اعتبرت(هذا ذکر)إشاره إلی أنّ کلّ ما قیل بشأن الأنبیاء من ذکر خیر و ثناء جمیل کان إشاره إلی أولئک،فیما تستعرض الآیات التالیه مرتبتهم فی الآخره،و لکن هذا المعنی مستبعد،و ظاهر الآیات لا یتناسب مع ما ذکرناه أعلاه.

۲- ۲) -«مآب»تعنی المرجع،و إضافه(حسن)إلی(مآب)من قبیل إضافه الصفه إلی الموصوف.

۳- ۳) -«جنّات عدن»بدل أو عطف بیان(مآب).

۴- ۴) -الضمیر(فیها)یعود فی کلا الحالتین علی(جنّات عدن)و وصف الفاکهه بأنّها کثیره دلیل علی وصف (الشراب)بهذا الوصف.(متکئین)حال للضمیر(لهم).

لهم مختلف أنواع الفاكهه و الأشربه،و إنّهم متى ما طلبوها فإنّها تأتيهم فى الحال.

و هنا يطرح سؤال هو:هل أنّ هناك من يحمل تلك الفاكهه،و الأشربه و يقدّمها لأهل الجنّه،أم أنّها تأتيهم من دون أن يحملها أحد إليهم؟ كلا الاحتمالين واردان.

و التأكيد على«الفاكهه»و«الشراب»لعلّه إشاره إلى أنّ الفاكهه هى أكثر غذاء أهل الجنّه رغم وجود أنواع اخرى من الغذاء ذكر فى بعض آيات القرآن المجيد، كما هو الحال فى عالم الدنيا إذ أنّ الفاكهه تشكّل أفضل و أسلم غذاء للإنسان.

صفه(كثيره)تشير إلى وجود أنواع مختلفه من الفاكهه،و أنواع متعدّده أيضا من الشراب الطاهر الذى يتوفّر فى الجنّه،و ذلك ما أشارت إليه أيضا آيات مختلفه فى القرآن المجيد.

بعد هذا تتطرّق الآيات للزوجات الصالحات فى الجنّه،إذ تقول: وَ عِنْدَهُمْ قٰاصِرٰاتُ الطَّرْفِ أَتْرٰابٌ .

«الطرف»جفن العين،و أحيانا يأتى بمعنى النظر،و وصف آخر نساء الجنّه بقاصرات الطرف(أى ذوات النظرات القصيره)يشير إلى اقتصار نظرهنّ على أزواجهنّ فقط،و حبّهن و عشقهنّ لهم و عدم تفكيرهم بسواهم،و هذه من أفضل مزايا و حسنات الزوجات.

و قال مفسّرون آخرون:إنّها تعنى التغطيه بالخمار الذى يضفى على العين جمالا.

و لا يوجد مانع يحول بين جمع المعنيين.

كلمه(أتراب)تعنى(الأقران)،و هو وصف لنساء الجنّه،فاقتران عمر الزوج و الزوجه-أى تساويهما-يضاعف من المحبّه بين الزوجين،أو أنّه صفه لنساء أهل الجنّه،و إنّهنّ جميعا شابات و فى عمر واحد (۱) .

۱- ۱) -(أتراب)جمع(ترب)على وزن(شعر).

الآیه الأخیره فی هذا البحث تشیر إلی النعم السبع التی یغدقها البارئ عزّ و جلّ علی أهل الجنّه،و التی وردت فی الآیات السابقه،قال تعالی: هٰذٰا مٰا تُوعَدُونَ لِیَوْمِ الْحِسٰابِ .

وعد لا یخلف،و یبعث فی نفس الوقت علی النشاط لمضاعفه الجهد،نعم إنّه وعد من اللّه العظیم.

و للتأکید علی خلود هذه النعم،جاء فی قوله تعالی: إِنَّ هٰذٰا لَرِزْقُنٰا مٰا لَهُ مِنْ نَفٰادٍ (1) .

أی أنّ النعم فی الجنان خالده و لا تنفد و لا تزول کما فی الحیاه الدنیا،و أنّها تزداد دائما من خزائن اللّه المملوءه و غیر المحدوده،و لا یظهر علیها أی نقص، لأنّ اللّه أراد ذلک.

***

1- 1) -(نفاد)تعنی(فناء)و إباده،و(اللام)فی(لرزقنا)جاءت للتأکید.

الآیات [سوره ص (۳۸): الآیات ۵۵ الی ۶۱]

اشاره

هذا وَ إِنَّ لِلطّاغِینَ لَشَرَّ مَآبٍ (۵۵) جَهَنَّمَ یَصْلَوْنَها فَبِئْسَ اَلْمِهادُ (۵۶) هذا فَلْیَذُوقُوهُ حَمِیمٌ وَ غَسّاقٌ (۵۷) وَ آخَرُ مِنْ شَکْلِهِ أَزْواجٌ (۵۸) هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَکُمْ لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صالُوا اَلنّارِ (۵۹) قالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِکُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا فَبِئْسَ اَلْقَرارُ (۶۰) قالُوا رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِی اَلنّارِ (۶۱)

التّفسیر

اشاره

و هذه هی عاقبه الطغاه!

الآیات السابقه استعرضت النعم السبع و غیرها من النعم التی یغدقها الباریء عزّ و جلّ علی عباده المتّقین،أمّا آیات بحثنا فإنّها تستخدم أسلوب المقارنه الذی کثیرا ما استخدمه القرآن الکریم،لتوضیح المصیر المشؤوم و العقوبات المختلفه التی ستنال الطغاه و العاصین،قال تعالی: هذا وَ إِنَّ لِلطّاغِینَ لَشَرَّ مَآبٍ (۱) .

۱- ۱) -کلمه(هذا)مبتدأ و خبرها محذوف،و تقدیرها هو(هذا الذی ذکرناه للمتّقین).

فالمتّقون لهم(حسن مآب)،و لهؤلاء العاصين الطغاه(شرّ مآب).

ثمّ تعمد آيات القرآن المجيد إلى الاستفاده من أسلوب الإيجاز و التفصيل،إذ تقول: جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهٰا فَبِئْسَ الْمِهٰادُ (۱) .أی إنّ جهنّم هی المکان المشؤوم الذی سیردونه،و إنّهم سیحترقون بنیرانها،فیا لها من فراش سیء.

و الظاهر أنّ عباره(یصلونها)(أی یدخلون فی جهنّم و یحترقون بنیرانها)یراد منها بیان أن لا یتصوّر أحدهم أنّه سیری جهنّم من مسافه بعیده،أو أنّه سیستقرّ بالقرب منها،کلاّ،بل إنّه سیرد إلی داخلها،و لا یتصوّر أحدهم أنّه سیعتاد علی نار جهنّم و من ثمّ یستأنس بها،کلاّ،فإنّه یحترق فیها علی الدوام.

«مهاد»کما قلنا من قبل،تعنی الفراش المهیّأ للنوم و الاستراحه،کما تطلق علی سریر الطفل.

و بالطبع فإنّ الفراش هو مکان استراحه،و یجب أن یکون مناسبا-فی کلّ الأحوال-لوضع الشخص و ملائما لرغبته،و لکن کیف سیکون حال الذین خصّصت لهم نار جهنّم فراشا؟! ثمّ تتطرّق الآیات إلی أنواع اخری من العذاب الإلهی،إذ تقول: هٰذٰا فَلْیَذُوقُوهُ حَمِیمٌ وَ غَسّٰاقٌ (۲) .أی یجب علیهم أن یشربوا الحمیم و الغسّاق.

«الحمیم»هو الماء الحارّ الشدید الحراره،و الذی هو أحد أنواع أشربه أهل جهنّم،و یقابل(الشراب الطهور)الذی ذکرته الآیات السابقه المخصّص لأهل الجنّه.

و کلمه(غسّاق)من(غسق)علی وزن(رمق)و تعنی شدّه ظلمات اللیل.أمّا ابن عبّاس فقد فسّرها بأنّها شراب بارد جدّا(بحیث إنّ برودته تحرق و تجرح أحشاء

۱- ۱) -(جهنّم)عطف بیان أو بدل من(شرّ مآب)،و(یصلونها)حال لها.

۲- ۲) -هذه الجمله فی الأصل کانت هکذا(هذا حمیم و غسّاق فلیذوقوه)،و للتأکید وضعت عباره(فلیذوقوه) بین المبتدأ و الخبر.بعض المفسّرین احتملوا أنّ(هذا)خبر لمبتدأ محذوف کما أنّ(حمیم و غسّاق)کذلک،و لکن یبدو أنّ الاحتمال الأوّل أدقّ و ألطف.

الإنسـان)و لكن ليس هنـاك فى مفهوم هـذه الكلمه مـا يـدلّ على هـذا المعنى،غير مقارنتهـا بـالحميم و هو المـاء الحارّ الشـديد الحراره،و هذه المقارنه قد تكون منشأ هذا الاستنباط.

و قال الراغب فى مفرداته:إنّ(غسّاق)تعنى القيح الذى يسيل من جلود أهل جهنّم و من الجراحات الموجوده فى أجسامهم.

و لاـ بـدّ أن يكون لونه الغـامق هو السبب فى إطلاـق هـذه الكلمه عليه،لأـنّ الـذى يحترق فى نار جهنّم لا يبقى منه سوى هيكل محروق وقيح أسود اللون.

على أيّه حال،فإنّ ما يستشفّ من بعض الكلمات هو أنّ(غسّاق)تعنى الرائحه الكريهه النتنه التى تزعج الآخرين.

و فسّره البعض الآخر بأنّه أحـد أنواع العـذاب الذى لم يطلع عليه أحد سوى اللّه، و ذلك لأنّهم ارتكبوا ذنوبا و مظالم شديده لم يطلع عليها أحـد سوى اللّه،فلذلك جعل عقوبتهم سـريّه و غير معروفه،مثلما وعد البارئ عزّ و جلّ المتّقين بنعم لم يكشف عنها و أخفاها عنهم،لإخفائهم أعمالا صالحه كانوا يقومون بها فى الحياه الـدنيا،و ذلك ما ورد فى الآيه(١٧)من سوره السجده: فَلاٰ تَعْلَمُ نَفْسٌ مٰا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّهِ أَعْيُنٍ .

آيـات بحثنا تشـير مرّه اخرى إلى نوع آخر من أنواع العـذاب الأليم وَ آخَرُ مِنْ شَـكْلِهِ أَزْوٰاجٌ (١) .أى أنّ هناك عـذاب آخر غير ذلك العذاب.

«أزواج»تعنى الأـنواع و الأقسام،و هـذه إشـاره موجزه إلى أنواع اخرى من العـذاب لاـ تختلف عن أنواع العـذاب السـابقه،و لكن آيات القرآن لم تفصح هنا عن أنواعها و قد لا يستطيع أحد فى هذه الدنيا فهمها و إدراكها.

و فى الحقيقه فإنّ هذه تقابل عباره بِفٰاكِهَهٍ كَثِيرَهٍ الوارده فى الآيات السابقه،

۱- ۱) -(آخر)هى صفه لموصوف محذوف يكون مبتدأ و(أزواج)مبتدأ ثان،و(من شكله)خبرها،و تقديرها (و عذاب آخر أزواج من شكله).

التی تشیر إلی أنواع مختلفه من النعم و فواکه الجنّه.و یمکن أن یکون هذا التشابه فی الشدّه و الألم،أو من جمیع الجهات.

و آخر عذاب لهم أنّ جلساءهم فی جهنّم ذوو ألسنه بذیئه لا تنطق إلاّ بالقبیح من الکلام،فعند ما یرد رؤساء الضلال النار،و یرون بأعینهم تابعیهم یساقون نحو جهنّم یخاطب بعضهم البعض و یقول له: هٰذٰا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَکُمْ (۱) .

فیجیبونهم لاٰ مَرْحَباً بِهِمْ .

ثمّ یضیفون إِنَّهُمْ صٰالُوا النّٰارِ .

و عباره هٰذٰا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَکُمْ مقترنه بالآیات التالیه،و تنقل أحادیث أئمّه الضلال،إذ یخاطب بعضهم البعض فور ما یرون أتباعهم یساقون إلی جهنّم، بالقول:أولئک سیحشرون معکم.

بعض المفسّرین قال:إنّه خطاب توجّهه الملائکه إلی أئمّه الکفر و الضلال.

إلاّ أنّ المعنی الأوّل یعدّ أکثر تناسبا.

«مرحبا»کلمه ترحیب للضیف،و ضدها«لا مرحبا»و مصدر هذه الکلمه «رحب»-علی وزن محو-بمعنی المکان الواسع،و المراد هو:ادخل فالمکان وسیع و مناسب.

«مقتحم»من(اقتحام)و تعنی الدخول فی شیء بمشقّه و بصعوبه و خوف، و غالبا ما تعطی معنی الدخول فی شیء من دون أی اطلاع و علم مسبق.

و توضّح هذه العباره أنّ متّبعی سبیل الضلال یردون نار جهنّم الرهیبه نتیجه ترکهم البحث و التفکیر،و اتّباعهم لأهوائهم،إضافه إلی تقلیدهم الأعمی لآبائهم الأوّلین.

و علی أیّه حال،فإنّ الصوت یصل إلی مسامع الأتباع الذین یغضبون من کلام أئمّه الضلال،و یلتفتون إلیهم قائلین: قٰالُوا بَلْ أَنْتُمْ لاٰ مَرْحَباً بِکُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنٰا فَبِئْسَ الْقَرٰارُ .

۱- ۱) -هنا یوجد محذوف تقدیره:(یقول رؤساء الضلال بعضهم لبعض هذا فوج مقتحم معکم).

الجمله الأخيره فَبِئْسَ الْقَرارُ تقابل جَنّاتِ عَدْنٍ الوارده بحقّ المتّقين، و هى إشاره إلى المصاب العظيم الذى حلّ بهم،و هو أنّ جهنّم ليست بمكان مؤقت لهم،و إنّما هى مقرّ دائم.و أراد الأتباع من جوابهم القول:بأنّ من حسن الحظّ أنّكم (أى أئمّه الضلال و الشرك)مشتركون معنا فى هذا الأمر.و هذا يشفى غليل قلوبنا (و كأنّهم شامتون بأئمّتهم)أو هى إشاره إلى أنّ جريمتكم بحقّنا جريمه عظيمه،لأنّ جهنّم ستكون مقرّا دائما لنا و ليست مكانا مؤقتا.

لكن الأتباع لا يكتفون بهذا المقدار من الكلام،لأنّ أئمّه الضلال هم الذين كانوا السبب المباشر لارتكابهم الذنوب،و لذا فإنّهم يعتبرونهم أصحاب الجريمه الحقيقيين،و هنا يلتفتون إلى البارئ عزّ و جلّ قائلين: قالُوا رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النّارِ .

العذاب الأوّل لأنّهم أضلّوا أنفسهم،و الثانى لأنّهم أضلّونا.

ما ورد فى هذه الآيه مشابه لما ورد فى الآيه(٣٨)من سوره الأعراف التى تقول: رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النّارِ رغم أنّ تتمّه هذه الآيه أى الآيه(٣٨)من سوره الأعراف تقول:إنّ لكليهما عذابا مضاعفا(لأنّ الأتباع هم الأداه التنفيذيه لأئمّه الضلال،و هم الذين هيّئوا الأرضيه لنشر الفساد و الضلال).

على أيّه حال،لا يوجد شكّ فى أنّ عذاب أئمّه الضلال أكبر بكثير من عذاب الآخرين،رغم أنّ للجميع عذابا مضاعفا.

نعم،هذه هى نهايه كلّ من عقد الصداقه مع المنحرفين و بايعهم على السير فى طرق الضلال و الانحراف،فانّهم عند ما يرون نتائج أعمالهم الوخيمه يلعن بعضهم بعضا و يتخاصمون فيما بينهم.

و الملفت للنظر هنا أنّ الآيات التى تذكر النعم التى يغدقها البارئ عزّ و جلّ

على المتّقين كـانت أكـثر تنوّعـا من الآيـات التى اسـتعرضت عـذاب الطغـاه المتجبّرين.إذ أشـارت آيـات القسم الأـول إلى سـبع نعم،بينما أشارت آيات القسم الثانى إلى خمسه أنواع من العذاب،يحتمل أن يكون السبب هو سبق رحمه الله لغضبه«يا من سبقت رحمته غضبه».

***

ص :544

الآيات [سوره ص (٣٨): الآيات ۶٢ الى ۶۴]

اشاره

وَ قالُوا ما لَنا لا نَرىٰ رِجالاً كُنّا نَعُدُّهُمْ مِنَ اَلْأَشْرارِ (۶٢) أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ اَلْأَبْصارُ (۶٣) إِنَّ ذٰلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ اَلنّارِ (۶۴)

التّفسير

اشاره

تخاصم أهل النّار:

آيات بحثنا تواصل استعراض الجدال الدائر بين أهل جهنّم،الذى كان بعضه قد ورد فى الآيات السابقه،و تتحدّث عن مجادلات اخرى فيما بينهم ينكشف من خلالها أسفهم العميق و تألّمهم الشديد و حسرتهم.

تقول اولى تلك الآيات: وَ قالُوا ما لَنا لا نَرىٰ رِجالاً كُنّا نَعُدُّهُمْ مِنَ اَلْأَشْرارِ .

نعم،فعند ما يبحث أفراد اتّبعوا أئمّه الضلال،أمثال أبى جهل و أبى لهب،عن أشخاص آخرين مثل عمّار بن ياسر و خباب و صهيب و بلال،فى نار جهنّم يرجعون إلى ذاتهن متسائلين،و يستفسرون من الآخرين:أين أولئك الأشخاص؟ إذ كنّا نعتبرهم مجموعه من الفوضويين و الأشرار و المفسدين فى الأرض،يسعون إلى الإخلال بأمن و هدوء المجتمع و القضاء على مفاخر الأوّلين،يبدو أنّ اتّهامنا

إيّاهم كان باطلا.

و تضيف الآيات نقلا عن أهل جهنّم: أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ .

نعم،إنّنا كنّا نسخر من هؤلاء الرجال العظماء ذوى المقام الرفيع،و نصفهم بالأشرار،و أحيانا نصفهم بأوصاف أدنى من ذلك،و نعتبرهم أناسا حقراء لا يستحقّون أن ننظر إليهم،و لكن اتّضح لنا الآن أنّ جهلنا و غرورنا و أهواءنا هى التى أسدلت على أعيننا ستائر حجبت الحقيقه عنّا،فهؤلاء كانوا من المقربين للّه و مكانهم الآن فى الجنّه.

مجموعه من المفسّرين ذكروا تفسيرا آخر لهذه الآيه،إذ قالوا:إنّ مسأله سخريتهم إشاره إلى أحوالهم فى عالم الدنيا،و جمله أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ إشاره إلى أحوالهم فى جهنّم،و تعنى هنا أنّ أبصارنا فى هذا المكان و بين هذه النيران و الدخان لا يمكنها رؤيتهم.و لكن المعنى الأوّل أصحّ.

و من الضرورى الالتفات إلى أنّ أحد أسباب عدم إدراك الحقائق هو عدم أخذها بطابع الجدّ إضافه إلى الاستهزاء بها،إذ يجب على الدوام مناقشه الحقائق بشكل جدّى للوصول إليها.

ثمّ تخرج الآيه الأخيره بالنتيجه التى تمخّض عنها الجدال بين أهل جهنّم، و تؤكّد على ما مضى بالقول: إِنَّ ذٰلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النّارِ (١) .

فأهل جهنّم مبتلون فى هذه الدنيا بالخصام و النزاع و الحروب.فالنزاع و الجدال يتحكّم بهم،و فى كلّ يوم يتخاصمون مع هذا و ذاك.

و فى يوم القيامه،ذلك اليوم الذى تبرز فيه الأسرار و ما تخفيه الصدور،تراهم يتنازعون فيما بينهم فى جهنّم،فأصدقاء الأمس أعداء اليوم،و التابعون فى الأمس صاروا معارضين اليوم،و يبقى-فقط-خطّ التوحيد و الإيمان،خطّ

ص:۵۴۶

۱- ۱) -(تخاصم أهل النار)بيان ل(ذلك).

الوحده و الصفاء فی هذا العالم و ذاک.

الجدیر بالذکر أنّ أهل الجنّه متکئون علی الأسرّه،و یتحدّثون فیما بینهم بکلام ملؤه المحبّه و الصدق،کما ورد فی آیات مختلفه من آیات القرآن الحکیم،بینما تجد أهل النار یعیشون حاله من الصراع و الجدال،إذن فتلک نعمه کبیره،و هذا عذاب ألیم! ***

ملاحظه

ورد فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال لأبی بصیر «یا أبا محمّد،لقد ذکرکم اللّه إذ حکی عن عدوّکم فی النار بقوله: وَ قالُوا ما لَنا لا نَری رِجالاً کُنّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ. أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِیًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ .و اللّه ما عنی و لا أراد بهذا غیرکم،صرتم عند أهل هذا العالم شرار الناس،و أنتم و اللّه فی الجنّه تحبرون و فی النار تطلبون» (۱) .

***

۱- ۱) -روضه الکافی،نقلا عن تفسیر نور الثقلین،المجلّد ۴،الصفحه ۴۶۷.

الآيات [سوره ص (۳۸): الآيات ۶۵ الی ۷۰]

اشاره

قُلْ إِنَّمٰا أَنَا مُنْذِرٌ وَ مٰا مِنْ إِلٰهٍ إِلاَّ اَللّٰهُ اَلْوٰاحِدُ اَلْقَهّٰارُ (۶۵) رَبُّ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمَا اَلْعَزِيزُ اَلْغَفّٰارُ (۶۶) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (۶۷) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (۶۸) مٰا كٰانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ اَلْأَعْلىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (۶۹) إِنْ يُوحىٰ إِلَيَّ إِلاّٰ أَنَّمٰا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (۷۰)

التّفسير

اشاره

إنّما أنا نذيرا:

البحوث السابقه التی تناولت موضوع العقاب الألیم الذی سینال أهل جهنّم، و الاخری التی استعرضت العذاب و العقاب الدنیوی الذی نزل بالأمم الظالمه البائده،کلّها کانت تحمل طابع إنذار و تهدید للمشرکین و العاصین و الظالمین.

أمّا آیات بحثنا فتتابع ذلک البحث،إذ جاء فی اولی آیاتها قُلْ إِنَّمٰا أَنَا مُنْذِرٌ .

صحیح أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مبشّر أیضا،و أنّ القرآن الکریم یحوی کلا الأمرین، أی الإنذار و البشری،و لکن بما أنّ البشری تخصّ المؤمنین فإنّ الإنذار یخصّ المشرکین و المفسدین،و الحدیث هنا یخصّ المجموعه الأخیره،و اعتمد فیه علی

الإنذار.

ثمّ يضيف وَ مٰا مِنْ إِلٰهٍ إِلاَّ اللّٰهُ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ .

كلمه(القهّار)وردت فى هذه العباره،كى لا يغترّ أحد بلطف اللّه،و يظنّ أنّه يعيش فى مأمن من قهر اللّه،و لكى لا يغرق فى مستنقع الكفر و ارتكاب الذنب.

و تطرح دلائل توحيد الخالق جلّ و علا فى الالوهيّه و العبوديّه بشكل مباشر، و تضيف رَبُّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفّٰارُ .

فى الواقع هناك ثلاث صفات من صفات البارئ عزّ و جلّ ذكرت فى هذه الآيه،و كلّ واحده منها جاءت لإثبات مفهوم ما.الاولى«ربوبيته»لعالم الوجود، و مالكيته لكلّ هذا العالم،المالك المدبّر لشؤون عالم الوجود،فهو الوحيد الذى يستحقّ العباده و الأصنام لا تملك من أمورها شيئا و لو بمقدار ذرّه.

و الصفه الثانيه(عزّته)و كما هو معروف فإنّ كلمه(العزيز)تطلق فى اللغه على من لا يغلب،و على من بإمكانه فعل ما يشاء،و بعباره اخرى:هو الغالب الذى لا يمكن لأحد التغلّب عليه.

فمن يمتلك مثل هذه القدره كيف يمكن الفرار من قبضه قدرته؟!و كيف يمكن النجاه من عذابه؟! الصفه الثالثه هى(غفّار)و كثير الرحمه،بحيث أنّ أبواب رحمته مفتوحه أمام المذنبين،كى لا يتصوّروا أنّ كلمتى(القهّار و العزيز)تعطيان مفهوم غلق أبواب الرحمه و التوبه أمام عباده.إذ أنّ إحداهما جاءت لبيان(الخوف)و الثانيه لبيان (الرجاء)،و انعدام حاله التوازن بين الحالتين السابقتين(أى الخوف و الرجاء) يؤدّى إلى عدم تكامل الإنسان،و ابتلائه بالغرور و الغفله و الغرق فى دوّامه اليأس و فقدان الأمل.

و بعباره اخرى فإنّ وصف البارى عزّ و جلّ ب(العزيز)و(الغفّار)دليل آخر على توحّده تعالى فى الالوهيه،لأنّه الوحيد الذى يستحقّ العباده و الطاعه،

ص :۵۴۹

و إضافه إلى ربوبيته فإنّه يمتلك القدره على المعاقبه،و إضافه إلى امتلاكه للقدره على المعاقبه،فإنّ أبواب رحمته و مغفرته مفتوحه للجميع.

ثمّ يخاطب البارئ عزّ و جلّ نبيّه الأكرم فى عباره قصيره و قويّه قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ .

فما هو هذا النبأ الذى أشارت إليه الآيه و وصفته بأنّه عظيم؟ هل هو القرآن المجيد؟ أم أنّه رساله النبىّ؟ أم هو يوم القيامه و مصير المؤمنين و الكافرين؟ أم هو توحيد اللّه؟ أم كلّ هذه الأمور؟ و لكون القرآن مشتملا على كلّ تلك الأمور،و هو الجامع بينها،و أنّ المشركين أعرضوا عنه،لذا فإنّ المعنى الأوّل أنسب.

نعم،فهذا الكتاب السماوى العظيم هو نبأ عظيم،و عظمته كعظمه الكون،و هو نازل من قبل خالق هذا الكون،أى من اللّه الخالق العزيز الغفّار و الواحد القهّار.

النبأ الذى لم يتقبّل عظمته الكثير من الناس حين نزوله،فمجموعه سخرت منه و استهزأت به،و اخرى اعتبرته سحرا،و مجموعه ثالثه اعتبرته شعرا،و لكن لم يمض بعض الوقت حتّى كشف هذا النبأ العظيم عن أسراره،ليغيّر مسيره التأريخ البشرى،و يظلّ العالم بظلّه،و ليوجد حضاره عظيمه و مضيئه فى كلّ المجالات، و ممّا يسترعى الانتباه أنّ الإعلان عن«النبأ العظيم»تمّ فى هذه السوره المكيّه فى وقت كان فيه المسلمون-على ما يبدو-فى أشدّ حالات الضعف و العجز،و كأنّ أبواب النصر و النجاه مغلقه أمامهم.

و ممّا ينبغى ذكره أنّ عظمه هذا النبأ العظيم ليست واضحه حتّى يومنا هذا للعالم بصوره عامّه،و للمسلمين بصوره خاصّه،و المستقبل سيوضّح تلك العظمه.

ص:۵۵۰

و قوله تعالی: أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ما زال صادقا حتّی یومنا الحاضر، فإعراض المسلمین عنه تسبّب فی عدم ارتوائهم من هذا المنبع العذب الذی یطفح بالفیض الإلهی الکامل،و إلی عدم التقدّم علی الآخرین بالاستفاده من أنواره المشعّه،و إلی عدم الرقی إلی قمم الفخر و الشرف.

ثمّ تقول الآیه،مقدّمه لسرد قصّه خلق آدم،و المکانه الرفیعه التی یحتلّها الإنسان الذی سجدت له کافّه الملائکه: مٰا کٰانَ لِی مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلیٰ إِذْ یَخْتَصِمُونَ .

أی لا علم لی بالمناقشات التی دارت بین الملأ الأعلی و ملائکه العالم العلوی بخصوص خلق الإنسان،حیث أنّ العلم یأتینی عن طریق الوحی،و الشیء الوحید الذی یوحی إلیّ هو أنّنی نذیر مبین إِنْ یُوحیٰ إِلَیَّ إِلاّٰ أَنَّمٰا أَنَا نَذِیرٌ مُبِینٌ .

و رغم أنّ الملائکه لم تناقش و تجادل الباریٔ عزّ و جلّ،و لکنّ ذلک المقدار من الکلام الذی قالوه عند ما أخبرهم الباریٔ عزّ و جلّ بأنّه سیجعل فی الأرض خلیفه، فقالوا:أ تخلق فیها من یفسد فیها و یسفک الدماء؟فأجابهم قائلا:إنّی أعلم ما لا تعلمون: وَ إِذْ قٰالَ رَبُّکَ لِلْمَلاٰئِکَهِ إِنِّی جٰاعِلٌ فِی الْأَرْضِ خَلِیفَهً قٰالُوا أَ تَجْعَلُ فِیهٰا مَنْ یُفْسِدُ فِیهٰا وَ یَسْفِکُ الدِّمٰاءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِکَ وَ نُقَدِّسُ لَکَ قٰالَ إِنِّی أَعْلَمُ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ ، (۱) مثل هذا النقاش أطلق علیه اسم(التخاصم)و هی تسمیه مجازیه،و قد کانت هذه مقدّمه للآیات التالیه التی تتحدّث عن خلق آدم.

و ثمّه احتمال وارد أیضا هو أنّ عباره بِالْمَلَإِ الْأَعْلیٰ لها مفهوم أوسع یشمل حتّی الشیطان،لأنّ الشیطان کان حینئذ فی زمره الملائکه،و نتیجه تخاصمه مع الباریٔ عزّ و جلّ و اعتراضه علی إراده اللّه طرد إلی الأبد من رحمه اللّه.

و قد وردت روایات متعدّده فی کتب الشیعه و السنّه بهذا الخصوص،جاء فی إحداها أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم سأل أحد أصحابه:«أ تدری فیما یختصم الملأ الأعلی؟

۱- ۱) -البقره،۳۰.

فقال:كلاّ،

فأجاب رسول اللّه «اختصموا فی الکفّارات و الدرجات،فأمّا الکفّارات فإسباغ الوضوء فی السبرات،و نقل الأقدام إلی الجماعات،و انتظار الصلاه بعد الصلاه،و أمّا الدرجات فإنشاء السلام،و إطعام الطعام،و الصلاه فی اللیل و الناس نیام» (1) .

و بالطبع فإنّ هذا الحدیث لم یذکر أنّه ناظر إلی تفسیر الآیه المذکوره أعلاه، رغم تشابه بعض عباراته مع عبارات الآیه،و علی أیّه حال،یستفاد من الحدیث أنّ المراد من(اختصموا)هو أنّهم تباحثوا و تناقشوا،و لا یعنی الجدال فی الحدیث ..فهم تباحثوا و تناقشوا بشأن أعمال الإنسان و الأعمال التی تکون کفّاره لذنوبهم و تزید من درجات الإنسان و ترفع من شأنه،و یمکن أن یکون بحثهم حول عدد من الأعمال التی تعدّ مصدرا لتلک الفضائل،أو بشأن تعیین حدّ و میزان للدرجات الناتجه عن تطبیق الإنسان لتلک الأعمال،و بهذا الشکل یکون الحدیث تفسیرا ثالثا للآیه،و هو مناسب من عدّه جوانب،و لکنّه لا یتناسب مع الآیات التالیه،إذ ربّما کان المقصود هو بحث و مناقشات الملائکه فی موارد اخری،و لیس ذلک المتعلّق بالآیه.

و الجدیر بالذکر أنّ معنی عدم علم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هو أنّی لم أکن أعلم ذلک من نفسی،لأنّ علمی لیس من قبل نفسی و إنّما ینزل علیّ عن طریق الوحی.

***

۱- ۱) -«مجمع البیان»فی ذیل آیات البحث،کما ورد هذا الحدیث فی تفسیر الدرّ المنثور نقلا عن مجموعه کبیره من صحابه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مع بعض الاختلافات.

الآیات [سوره ص (٣٨): الآیات ٧١ الی ٨٣]

اشاره

إِذْ قٰالَ رَبُّکَ لِلْمَلاٰئِکَهِ إِنِّی خٰالِقٌ بَشَراً مِنْ طِینٍ (٧١) فَإِذٰا سَوَّیْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِیهِ مِنْ رُوحِی فَقَعُوا لَهُ سٰاجِدِینَ (٧٢) فَسَجَدَ اَلْمَلاٰئِکَهُ کُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاّٰ إِبْلِیسَ اِسْتَکْبَرَ وَ کٰانَ مِنَ اَلْکٰافِرِینَ (٧۴) قٰالَ یٰا إِبْلِیسُ مٰا مَنَعَکَ أَنْ تَسْجُدَ لِمٰا خَلَقْتُ بِیَدَیَّ أَسْتَکْبَرْتَ أَمْ کُنْتَ مِنَ اَلْعٰالِینَ (٧۵) قٰالَ أَنَا خَیْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِی مِنْ نٰارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِینٍ (٧۶) قٰالَ فَاخْرُجْ مِنْهٰا فَإِنَّکَ رَجِیمٌ (٧٧) وَ إِنَّ عَلَیْکَ لَعْنَتِی إِلیٰ یَوْمِ اَلدِّینِ (٧٨) قٰالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِی إِلیٰ یَوْمِ یُبْعَثُونَ (٧٩) قٰالَ فَإِنَّکَ مِنَ اَلْمُنْظَرِینَ (٨٠) إِلیٰ یَوْمِ اَلْوَقْتِ اَلْمَعْلُومِ (٨١) قٰالَ فَبِعِزَّتِکَ لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ (٨٢) إِلاّٰ عِبٰادَکَ مِنْهُمُ اَلْمُخْلَصِینَ (٨٣)

التّفسیر

اشاره

تکبّر الشیطان و طرده من رحمه اللّه!

هذه الآیات-کما قلنا-توضیح لاختصام(الملأ الأعلی)و(إبلیس)و بحث

ص:۵۵۳

حول مسأله خلق آدم علیه السّلام،و بصوره عامّه فإنّ الهدف من توضیح هاتین المسألتین:

أوّلا:تذکیر الإنسان بقیمه وجوده،و سجود کلّ الملائکه لجدّه آدم،فکیف بالإنسان الذی کرّمه الباریٔ عزّ و جلّ کلّ هذا التکریم یقع أسیرا فی حبائل الشیطان و هوی النفس؟و کیف ینسی قیمه وجوده،أو یسجد لأصنام صنعها من الحجر و الخشب؟! من المعروف أنّ أحد الأسالیب المؤثّره فی التربیه،هو إعطاء شخصیه للأفراد الذین یتلقّون التربیه.و بعباره أصحّ:تذکیرهم بشخصیتهم الرفیعه و قیمه وجودهم، فإن تذکّروا هذا الأمر،أحسّوا بأنّ الذلّه و الحقاره لا تلقیان بهم،فیتجنبوهما تلقائیا.

ثانیا:إنّ عناد الشیطان و غروره و تکبره و حسده تسبّبت فی سقوطه من مقامه الشامخ الرفیع إلی الحضیض،و غرقه بوحل اللعنه و إلی الأبد،و یمکن أن یکون هذا المثال عبره لکلّ لجوج و مغرور لیعتبر و یترک ممارسات الشیطان.

ثالثا:تعریف بنی آدم بعدوّهم الکبیر الذی أقسم الشیطان علی إغوائهم،کی یکونوا جمیعا علی حذر منه و یجتنبوا السقوط فی حبائل أسره.

کلّ هذه الأمور،هی تکمله للأبحاث السابقه،و علی أیّه حال فإنّ الآیه الاولی تذکر بإخبار اللّه عزّ و جلّ ملائکته بأنّه سیخلق بشرا من الطین:و إِذْ قٰالَ رَبُّکَ لِلْمَلاٰئِکَهِ إِنِّی خٰالِقٌ بَشَراً مِنْ طِینٍ .

و لکی لا یتصوّر البعض أنّ أصل خلق الإنسان هو ذلک الطین و حسب أضافت الآیه التالیه: فَإِذٰا سَوَّیْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِیهِ مِنْ رُوحِی فَقَعُوا لَهُ سٰاجِدِینَ .

و بهذا الشکل انتهت عملیه خلق الإنسان،و ذلک بعد امتزاج روح الباریٔ عزّ و جلّ الطاهره مع التراب.فخلق موجود عجیب لم یسبق له مثیل،و لم توضع لرقیّه و انحطاطه أیّه حدود.الموجود الذی زوّده الباریٔ عزّ و جلّ باستعدادات

خارقه تجعله لائقا لخلافه اللّه،و الذی سجدت له الملائکه بأجمعها فور اکتمال عملیه خلقه فَسَجَدَ الْمَلاٰئِکَهُ کُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ .

إلاّ أنّ إبلیس کان الوحید الذی أبی أن یسجد لآدم لتکبّره و تمرّده و طغیانه، و لهذا السبب أنزل من مقامه الرفیع إلی صفوف الکافرین: إِلاّٰ إِبْلِیسَ اسْتَکْبَرَ وَ کٰانَ مِنَ الْکٰافِرِینَ .

نعم،فالتکبّر و الغرور من أقبح الأمور التی یبتلی بها الإنسان،إذ أنّهما یسدلان الستار علی عینه و بصیرته،و یحرماه من إدراک الحقائق و فهمها،و یؤدّیان به إلی التمرّد و العصیان،و یخرجانه أیضا من صفوف المؤمنین المطیعین للّه إلی صفّ الکافرین الباغین و الطاغین،ذلک الصفّ الذی یترأسه إبلیس و یقف فی مقدّمته.

و هنا استجوب الباریء عزّ و جلّ إبلیس: قٰالَ یٰا إِبْلِیسُ مٰا مَنَعَکَ أَنْ تَسْجُدَ لِمٰا خَلَقْتُ بِیَدَیَّ من البدیهی أنّ عباره(یدی)لا تعنی الأیدی الحقیقیّه المحسوسه، لأنّ الباریء عزّ و جلّ منزّه عن کافّه أشکال الجسم و التجسیم،و إنّما«الید»هنا کنایه عن القدره،و من الطبیعی أنّ الإنسان یستعمل یدیه لیظهر قدرته علی إنجاز العمل،و کثیرا ما تستخدم الید بهذا المعنی فی محادثاتنا الیومیه،إذ یقال:إنّ البلد الفلانی بید المجموعه الفلانیه،أو إنّ المسجد الفلانی بنی علی ید الشخص الفلانی، و أحیانا یقال:إنّ یدی قصیره،أو إنّ یدک مملوءه،الید فی کلّ تلک الجمل لیس المقصود منها الید الحقیقیه التی هی أحد أعضاء الجسم،بل کنایه عن القدره و السلطه و التمکّن.

و من هنا فإنّ الإنسان ینفّذ أعماله المهمّه بکلتا یدیه،و استخدامه کلتا یدیه یبیّن اهتمامه و تعلّقه بذلک العمل،و مجیء هذه العباره فی الآیه المذکوره أعلاه إنّما هو کنایه عن الاهتمام الخاصّ الذی أولاه الباریء عزّ و جلّ لعملیه خلق الإنسان.

ثمّ تضیف الآیه: أَسْتَکْبَرْتَ أَمْ کُنْتَ مِنَ الْعٰالِینَ أی أ کان عدم سجودک لأنّک استکبرت،أم کنت من الذین یعلو قدرهم عن أن یؤمروا بالسجود؟!

و من دون أى شكّ فإنّه لا أحد يستطيع أن يدّعى أنّ قدرته و منزلته أكبر من أن يسجد للّه(أو لآدم بأمر من اللّه)و بهذا فإنّ الاحتمال الوحيد المتبقّى هو الثانى،أى التكبّر.

و قال بعض المفسّرين:إنّ كلمه(عالين)تعنى-هنا-الأشخاص الذين يسيرون دوما فى طريق الغرور و التكبّر،و طبقا لهذا فإنّ معنى الآيه يكون:هل أنّك استكبرت الآن،أم كنت دائما هكذا؟! و لكن المعنى الأوّل أنسب.

إلاّ أنّ إبليس اختار-بكلّ تعجّب-الشقّ الثانى،و كان يعتقد بأنّه أعلى من أن يؤمر بذلك،لذلك قال-بكلّ وقاحه-أثناء تبيانه أسباب معارضته لأوامر البارئ عزّ و جلّ: قٰالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نٰارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ .

و علّل إبليس عدم سجوده لآدم و عصيانه أمر اللّه بالمقدّمات التاليه:

أوّلا:إنّنى خلقت من نار،أمّا هو فقد خلق من طين،و هذه حقيقه صرّح بها القرآن المجيد فى الآيتين ۱۴ و ۱۵ من سوره الرحمن: خَلَقَ الْإِنْسٰانَ مِنْ صَلْصٰالٍ كَالْفَخّٰارِ وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مٰارِجٍ مِنْ نٰارٍ .

ثانيا:إنّ الشىء المخلوق من النار أفضل من الشىء المخلوق من التراب،لأنّ النار أشرف من التراب.

ثالثا:لا يحقّ لأحد أن يأمر مخلوقا بالسجود لمخلوق آخر دنى منه.

و خطأ إبليس يكمن فى المقدّمتين الأخيرتين،و ذلك من عدّه وجوه:

أوّلا:لأنّ آدم لم يكن ترابا فقط،و إنّما نفخت فيه الروح الإلهيه،و هذا هو سبب عظمته،و إلاّ فأين التراب من كلّ هذا الفخر و الاستعداد و التكامل؟ ثانيا:التراب ليس بأدنى من النار،و إنّما هو أفضل منها بكثير،لأنّ كلّ الحياه أصلها من التراب،فالنباتات و كلّ الموجودات الحيّه بأجمعها تستمدّ غذاءها و مصدر حياتها من التراب،و كلّ المعادن الثمينه مخفيه فى وسط التراب، خلاصه

الأمر أنّ التراب هو مصدر كلّ أنواع البركه،و النار رغم أهميّتها الكبرى فى الحياه فإنّها لا تبلغ أبدا أهميّه التراب،و إنّما يستفاد منها فى الوسائل الترابيه،و قد تكون أداه خطره و مدمّره.و الأهمّ من ذلك أنّ المواد التى يستفاد منها لإشعال النيران كالحطب و الفحم و النفط هى من بركه الأرض.

ثالثا:المسأله،هى مسأله إطاعه أوامر اللّه سبحانه و تعالى و تنفيذها،لأنّه خالقنا و نحن عبيده و يجب أن نطبّق أوامره.

و على أيّه حال،لو أمعنا النظر فى أدلّه إبليس لرأينا فيها كفرا عجيبا،لأنّه بكلامه أراد نفى حكمه اللّه،و التقليل من شأن أوامره(نعوذ باللّه)،و هذا الموقف المخزى لإبليس دليل على جهله التامّ،لأنّه لو كان قد اعترف بأنّ عدم سجوده إنّما كان لهوى هو هوى النفس،أو أنّ غروره و تكبره حالا بينه و بين السجود لآدم،و ما إلى ذلك لكان الأمر أهون،إذ أنّه يكون هنا قد أقرّ بارتكاب ذنب واحد،إلاّ أنّه بكلامه هذا و لتبرير عصيانه،عمد إلى نفى حكمه البارئ عزّ و جلّ و علمه و معرفته،و هذا يوضّح سقوطه إلى أدنى درجات الكفر و الانحطاط.

المخلوق مقابل خالقه يفتقد الاستقلال،إذ أنّ كلّ ما لديه هو من خالقه،و لهجه كلام إبليس توضّح أنّه كان يريد استقلالا و حكما فى مقابل حكم البارئ عزّ و جلّ،و هذا مصدر آخر من مصادر الكفر.

و يمكن القول أنّ أسباب ضلال الشيطان،تعود إلى عدّه امور منها الغرور و التكبّر و الجهل و الحسد،و هذه الصفات القبيحه اتّحدت و أسقطته إلى الحضيض بعد سنين طوال من مرافقه الملائكه،و كأنّه كان معلّما لهم..أسقطته من أوج الفخر إلى أدنى الحضيض،و ما أخطر هذه الصفات القبيحه أينما وجدت!! و كما

قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام فى إحدى خطبه فى نهج البلاغه: «فاعتبروا بما كان من فعل اللّه بإبليس إذ أحبط عمله الطويل و جهده الجهيد و كان قد عبد اللّه ستّه آلاف سنه...عن كبر ساعه واحده فمن ذا بعد إبليس

يسلم على اللّه بمثل معصيته» (۱) .

نعم،فعمليّه بناء قصر عظيم قد تستغرق سنوات عديده،و لكن عمليه تدميره قد لا تستغرق سوى لحظات بتفجير قنبله قويّه.

و هنا وجب إخراج هذا الموجود الخبيث من صفوف الملأ الأعلى و ملائكه العالم العلوى،فخاطبه البارئ عزّ و جلّ بالقول: قٰالَ فَاخْرُجْ مِنْهٰا فَإِنَّکَ رَجِيمٌ .

الضمير(منها)فى عباره فَاخْرُجْ مِنْهٰا إمّا أنّه إشاره إلى صفوف الملائكه،أو إلى العوالم العلويّه،أو إلى الجنّه،أو إلى رحمه اللّه.

نعم،فيجب إخراج هذا الخبيث من هنا،فهذا المكان مكان الطاهرين و المقرّبين،و ليس بمكان المذنبين و العاصين ذوى القلوب المظلمه.

«رجيم»من(رجم)،و بما أنّ لازمها الطرد،فقد وردت بهذا المعنى هنا.

ثمّ أضاف البارئ عزّ و جلّ: وَ إِنَّ عَلَيْکَ لَعْنَتِي إِلىٰ يَوْمِ الدِّينِ فأنت خارج و مطرود من رحمتى إلى الأبد.

المهمّ انّ الإنسان عند ما يرى النتائج الوخيمه لأعماله السيّئه عليه أن يستيقظ من غفلته،و أن يفكّر فى كيفيه إصلاح ذلک الخطأ،و لا شيء أخطر من بقاءه راكبا لموج الغرور و اللجاجه و استمراره فى السير نحو حافّه الهاويه،لأنّه فى كلّ لحظه يبتعد أكثر عن الصراط المستقيم،و هذا هو نفس المصير المشؤوم الذى وصل إليه إبليس.

و هنا تحوّل(الحسد)إلى(عداء)،العداء الشديد و المتأصّل،كما قال القرآن:

قٰالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ

.

هذه الآيه تبيّن أنّ الشيطان طلب من اللّه سبحانه و تعالى أن يمهله،فهل طلب أن يمهله ليسكب عبرات الحسره و الندامه على ما فعله من قبل،أم أنّه طلب مهله لإصلاح عصيانه القبيح؟

۱- ۱) -نهج البلاغه،الخطبه ۱۹۲(الخطبه القاصعه).

كلاّ،إنّه طلب من البارئ عزّ و جلّ أن يمهله إلى يوم يبعثون كى ينتقم من أبناء آدم عليه السّلام و يدفعهم جميعا إلى طريق الضلال،رغم علمه بأنّ إضلاله لكلّ إنسان سوف يضيف لذنوبه حملا ثقيلا جديدا من الذنوب،و يغرقه فى مستنقع الكفر و العصيان،كلّ ذلك بسبب اللجاجه و التكبّر و الغرور و الحسد،فما أكثر المصائب التى تتولّد للإنسان من هذه الصفات الذميمه.

و فى الحقيقه،إنّه كان يريد الاستمرار فى إغواء بنى آدم حتّى آخر فرصه متاحه له،لأنّ فى يوم البعث تسقط التكاليف عن الإنسان،و لا معنى هناك للوساوس و الإغواءات،إضافه إلى هذا فقد طلب من اللّه عزّ و جلّ أن يبقيه حيّا إلى يوم القيامه،رغم أنّ كلّ الموجودين فى العالم يموتون فى هذه الدنيا.

و هنا اقتضت مشيئه اللّه سبحانه-بدلائل سنشير إليها-أن يستجيب اللّه لطلب إبليس،و لكن هذه الاستجابه كانت مشروطه و ليست مطلقه،كما توضّحه الآيه التاليه: قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ .

و لكن ليس إلى يوم البعث الذى تبعث فيه الخلائق،و إنّما إلى زمان معلوم،قال تعالى: إِلىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ .

و هنا أعطى المفسّرون آراء مختلفه بشأن تفسير يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ حيث قال البعض:إنّه يوم نهايه العالم،لأنّ كلّ الموجودات الحيّه من ذلك اليوم تموت، و تبقى ذات اللّه المقدّسه فقط،كما ورد فى الآيه(٨٨)من سوره القصص: كُلُّ شَيْءٍ هٰالِكٌ إِلاّ وَجْهَهُ و بهذا الشكل فقد استجيب لجزء من مطالب إبليس.

و البعض الآخر قال:إنّ ذلك اليوم هو يوم القيامه،و لكن هذا الاحتمال لا يتلاءم مع ظاهر آيات بحثنا التى يتّضح منها أنّ البارئ عزّ و جلّ لم يستجب لكلّ مطاليبه،كما أنّ هذا الاحتمال لا يتلاءم حتّى مع بقيّه آيات القرآن الكريم التى تتحدّث عن موت الجميع مع نهايه هذا العالم.

و قال البعض:إنّ هذه الآيه يحتمل أنّها تشير إلى زمان لا يعرفه أحد سوى اللّه

سبحانه و تعالی.

و لکن التّفسیر الأوّل أنسب من بقیّه التفاسیر،و قد وردت روایه فی تفسیر البرهان نقلا عن الإمام الصادق علیه السّلام،و تقول بأنّ إبلیس یموت فی الفتره ما بین النفخه الاولی و الثانیه (۱) .

هنا کشف إبلیس عمّا کان یضمره فی داخله،و عن الهدف الحقیقی لطلبه البقاء خالدا إلی زمن معیّن إذ: قٰالَ فَبِعِزَّتِکَ لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ .

القسم بالعزّه یراد منه الاستناد علی القدره و الاستطاعه،و التأکیدات المتتالیه فی الآیه(القسم من جهه،و نون التوکید الثقیله من جهه اخری،و کلمه أجمعین من جهه ثالثه)تبیّن أنّه مصمّم بصوره جدیّه علی المضی فی عمله،و أنّه سیبقی إلی آخر لحظه من عمره ثابتا علی عهده بإغواء بنی آدم.

و بعد قسمه انتبه إبلیس إلی هذه الحقیقه،و هی أنّ هناک مجموعه من عباد اللّه المخلصین لا یمکن کسبهم بأی طریقه إلی داخل منطقه نفوذه،لذلک أجبر علی الاعتراف بعجزه فی کسب أولئک فقال: إِلاّٰ عِبٰادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِینَ .

أولئک الذین یسیرون فی طریق المعرفه و العبودیه لک بصدق و إخلاص و صفاء،إنّک دعوتهم إلیک،و أخلصتهم لک،و جعلتهم فی منطقه أمنک،و هذه هی المجموعه الوحیده التی لا أتمکّن من الوصول إلیها،أمّا البقیّه فإنّ بإمکانی إیقاعهم فی شباکی.

حدس و ظنّ إبلیس کان صحیحا،إذ أنّه أوجد العراقیل لکلّ واحد من بنی آدم عدا المخلصین الذین نجوا من فخاخه و ذلک ما أکّده القرآن المجید فی الآیه(۲۰) من سوره سبأ: وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَیْهِمْ إِبْلِیسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاّٰ فَرِیقاً مِنَ الْمُؤْمِنِینَ .

***

۱- ۱) -تفسیر البرهان،المجلّد ۲،الصفحه ۳۴۲.

بحثان

اشاره

١-فلسفه وجود الشيطان

هناك مسائل مهمّه تطرح بشأن الآيات المذكوره أعلاه،منها مسأله خلق الشيطان،و سبب سجود الملائكه لآدم،و سبب تفضيل آدم على الملائكه، و الشيطان على من سيتسلّط،و ما هى نتيجه التكبر و الغرور،و ما المقصود من الطين و روح اللّه،و مسأله خلق آدم و خلقه المستقل فى مقابل فرضيات تكامل الأنواع؟و مسائل اخرى من هذا القبيل تمّ تناولها و بصوره مفصّله فى التّفسير الأمثل فى ذيل الآيه(٣۴)من سوره البقره،و فى ذيل الآيه(٢۶)من سوره الحجر،و فى ذيل الآيه(١١)من سوره الأعراف.

نعود مرّه اخرى إلى السؤال الأوّل الخاصّ بشأن فلسفه خلق الشيطان،فالكثير يتساءل إن كان الإنسان خلق من أجل التكامل و نيل السعاده عن طريق عبوديته للّه،فما هى أسباب وجود الشيطان الذى هو موجود مدمّر يعمل ضدّ تكامل الإنسان؟و هو فى نفس الوقت موجود ذكى،مكّار،يثير العداوه و البغضاء.إلاّ أنّنا لو تفكّرنا قليلا فسوف ندرك أنّ وجود هذا العدو عامل مساعد لدفع التكامل الإنسانى إلى الإمام و تقدّمه.

لا نذهب بعيدا،فقوّات المقاومه التى تدافع دائما و بشدّه ضدّ العدوّ تزداد قوّه يوما بعد آخر..

و القاده و الجنود المدرّبون الأقوياء هم الأشخاص الذين يقاتلون الأعداء بعنف فى المعارك الكبيره.

و السياسى المحنّك القوى هو الذى يتمكّن فى الأزمات السياسيّه الشديده أن يتصدّى للأعداء الأقوياء و يتغلّب عليهم.

و أبطال المصارعه الكبار هم الذين نازلوا مصارعين أقوياء أشدّاء،إذن فلم العجب من أنّ عباد اللّه الكبار بجهادهم المستمر المرير ضدّ الشيطان،يصبحون

أقویاء یوما بعد آخر.

فعلماء الیوم قالوا بشأن فلسفه وجود المیکروبات:لو لا وجود هذه المیکروبات لکان جسم الإنسان ضعیفا عدیم الإحساس،و یحتمل أیضا توقّف نمو الإنسان بسرعه بحیث لا یتجاوز طوله الثمانین سنتیمترا،و لکان جمیع البشر علی شکل أقزام صغار،و بهذا الشکل فإنّ مبارزه جسم الإنسان للمیکروبات المهاجمه تعطیه قوّه و قدره علی النمو.

و کذلک الحال بالنسبه إلی روح الإنسان فی جهادها ضدّ الشیطان و هوی النفس.

و هذا لا یعنی أنّ الشیطان مکلّف بإغواء عباد اللّه،فالشیطان کان طاهرا فی بدایه خلقه،کبقیّه الموجودات،و لکن الانحراف و الانحطاط و التعاسه التی أصیب بها إنّما کان برغبته و إرادته،و بهذا فإنّ الباریٔ عزّ و جلّ لم یخلق إبلیس منذ الیوم الأوّل شیطانا،و إنّما إبلیس هو الذی أراد أن یکون شیطانا،و فی نفس الوقت فإنّ ممارساته الشیطانیه لا تجلب الضرر لعباد اللّه المخلصین إطلاقا،بل قد تکون سلّما لرقیّهم و سموّهم.

و فی النهایه یبقی هذا السؤال:لماذا تمّت الموافقه علی طلبه فی البقاء حیّا، و لماذا لم یهلک فی تلک اللحظه؟ جواب هذا السؤال هو ما ذکرناه أعلاه،و بعباره اخری:

إنّ عالم الدنیا هذا هو ساحه للاختبار و الامتحان(الاختبار الذی هو وسیله لتربیه و تکامل الإنسان)و کما هو معروف فإنّ الاختبار لا یتمّ من دون مواجهه عدو شرس و مجابهه مختلف أنواع الأعاصیر و المشاکل.

و بالطبع،إن لم یکن هناک شیطان،فإنّ هوی النفس و وساوسها هی التی تضع الإنسان فی بودقه الاختبار،و لکن حراره هذه البودقه تزداد بوجود الشیطان،لأنّ الشیطان سیکون فی هذه الحاله العامل الخارجی المؤثّر علی الإنسان،و هوی النفس و الوساوس ستکون العامل الداخلی.

۲-نیران الأنانیه و الغرور تحرق رأسمال الوجود

من الأمور الحسّاسه جدّا التی تلفت النظر فی قضیّه طرد إبلیس من رحمه اللّه، هو مدی تأثیر عاملی الأنانیه و الغرور علی سقوط و تعاسه الإنسان،إذ یمکن القول بأنّهما من أهمّ و أخطر عوامل الانحراف.و قد تسبّبا-فی لحظه واحده-فی هدم عباده ستّه آلاف سنه،و إنّهما کانا السبب وراء تدنّی موجود کان فی صفّ ملائکه السماء الکبار إلی أدنی درجات الشقاء،و یستحقّ لعنه اللّه الأبدیه.

الأنانیه و الغرور یحجبان الحقیقه عن بصر الإنسان،فالأنانیه مصدر الحسد، و الحسد مصدر العداوه و البغضاء،و العداوه و البغضاء سبب إراقه الدماء و ارتکاب الجرائم.

الأنانیه تدفع الإنسان إلی الاستمرار فی ارتکاب الخطأ،و تحبط-فی نفس الوقت-مفعول أیّ عامل للصحوه من الغفله،أی تحوّل بین ذلک العامل و بین الإنسان.

الأنانیه و العناد یسلبان فرصه التوبه و إصلاح الذات من الإنسان،و یغلقان أمامه کلّ أبواب النجاه،و خلاصه الأمر فإنّ کلّ ما نقوله حول خطر هذه الصفات القبیحه و المذمومه یعدّ قلیلا.

و کم هو جمیل

قول أمیر المؤمنین علیه السّلام: «فعدو اللّه إمام المتعصّبین،و سلف المستکبرین،الذی وضع أساس العصبیه،و نازع اللّه رداء الجبریه،و ادّرع لباس التعزّز،و خلع قناع التذلّل ألا ترون کیف صغّره اللّه بتکبّره؟و وضعه بترفّعه؟فجعله فی الدنیا مدحورا،و أعدّ له فی الآخره سعیرا». (۱)

***

۱- ۱) -نهج البلاغه،الخطبه ۱۹۲ المعروفه بالقاصعه.

الآيات [سوره ص (۳۸): الآيات ۸۴ الى ۸۸]

اشاره

قَالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ (۸۴) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (۸۵) قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (۸۶) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (۸۷) وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (۸۸)

التّفسير

اشاره

آخر حديث بشأن إبليس!

آيات بحثنا هى آخر آيات سوره(ص)،و فى الحقيقه هى خلاصه لكلّ محتوى هذه السوره،و نتيجه للأبحاث المختلفه التى تناولتها السوره.

فى البدايه ردّا على تهديد إبليس فى إغواء كلّ بنى آدم عدا المخلصين منهم- يجيبه البارئ عزّ و جلّ بالقول: قَالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ (۱) أقسم بالحقّ،و لا أقول إلاّ الحقّ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ .

ص: ۵۶۴

۱- ۱) -تركيب هذه الجمله له عدّه احتمالات،فمن الممكن أن تكون(الحقّ)مبتدأ و(قسمى)خبر محذوف للمبتدأ،و من الممكن أن يكون(قولى)خبره(فالحقّ قولى)و يوجد احتمال آخر هو أنّ(الحقّ)خبر مبتدأ محذوف و التقدير(هذا هو الحقّ)أو(أنا الحقّ).

فما ورد فی بدایه السوره إلی هنا حقّ،و الذی ورد بشأن أحوال الأنبیاء الکبار فی هذه السوره بسبب حروبهم و جهادهم حقّ،و الحدیث فی هذه السوره عن القیامه و العذاب الألیم الذی سینزل بالطغاه و النعم التی سیغدقها الباریء عزّ و جلّ علی أهل الجنّه حقّ،و نهایه السوره حقّ،و اللّه سبحانه یقسم بالحقّ و یقول الحقّ بأنّه سیملأ جهنّم بالشیطان و أتباعه،و ذلک جواب قاطع علی کلام إبلیس بشأن إغوائه بنی الإنسان،و بهذا وضّح البارئ عزّ و جلّ تکلیف الجمیع.

علی أیّه حال،فإنّ هاتین الجملتین تشتملان علی الکثیر من التأکید،فتؤکّدان مرتین علی مسأله(الحقّ)و تقسمان بها،و عباره(لأملأنّ)رافقتها نون التوکید الثقیله و(أجمعین)تأکید مجدّد علی کلّ ذلک،لکی لا یبقی لأحد أدنی شکّ و تردید بهذا الشأن،إذ لا سبیل لنجاه الشیطان و أتباعه،و الاستمرار بالسیر علی خطاه یؤدّی إلی جهنّم.

و فی نهایه هذا البحث یشیر البارئ عزّ و جلّ إلی أربعه امور فی عدّه عبارات قصیره و واضحه؟ ففی المرحله الاولی یقول: قُلْ مٰا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ .

و بهذا وضع النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حدّا لذرائع المتذرّعین،و بیّن أنّه لا یبتغی من وراء ذلک سوی نجاه و سعاده البشر،و أنّه لا یرید منهم أیّ جزاء مادّی أو معنوی، و لا استحسان و لا شکر،و لا مقام و لا حکومه،و إنّما أجری علی اللّه،کما ذکرت ذلک آیات اخری فی القرآن المجید کالآیه(۴۷)من سوره سبأ،و التی تقول: إِنْ أَجْرِیَ إِلاّٰ عَلَی اللّٰهِ .

و هذه هی إحدی دلائل صدق رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،لأنّ الداعیه الکذّاب إنّما یدعو للوصول إلی أطماع شخصیّه،و هذه الأطماع تظهر بشکل أو بآخر من خلال حدیثه،و العکس ما نراه فی شخصیّه رسولنا الکریم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و فی المرحله الثانیه یقول:أنا لست من المتکلّفین،فکلامی مستند علی الأدلّه

و المنطق،و لا يوجد فيه أى تكلّف،و عباراتى واضحه و كلامى خال من الغموض و اللفّ و الدوران وَ مٰا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ .

و فى الواقع فإنّ المرحله الاولى تتناول أوصاف الداعيه،و المرحله الثانيه تتطرّق لسبل الدعوه و محتواها.

أمّا المرحله الثالثه فتبيّن الهدف الأصلى من هذه الدعوه الكبيره من نزول هذا الكتاب السماوى إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِكْرٌ لِلْعٰالَمِينَ .

نعم،المهمّ هو أن يوقظ الناس من غفلتهم و يجعلهم يتعمّقون فى التفكير، لأنّ الطريق واضح،و علاماته ظاهره،و الفطره السليمه فى داخل الإنسان تمثّل دافعا قويّا تدفع الإنسان إلى سبيل التوحيد و التقوى،فالمهمّ هو الصحوه،و هذه هى الرساله الرئيسيّه للأنبياء و لكتبهم السماويه.

هذه العباره وردت مرّات عديده فى القرآن،و كلّها تبيّن أنّ محتوى دعوه الأنبياء فى كلّ المراحل يتناسب مع الفطره التى فطرنا عليها البارئ عزّ و جلّ، و أنّ الإثنين يسيران معا إلى الأمام.

و أمّا فى المرحله الرابعه و الأخيره،فإنّه يهدّد المعارضين و المخالفين بعباره قصيره غزيره المعنى: وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ .

يقول:من الممكن أن لا تأخذوا هذا الكلام مأخذ الجدّ،و تمرّون به مرّ الكرام، إلاّ أنّه سيثبت لكم عاجلا صدق كلامى،سيثبت فى هذا العالم فى ساحات قتال الإسلام ضدّ الكفر،و فى ساحات العمل الاجتماعى و الفكرى،و فى العالم الآخر بواسطه العذاب الإلهى الأليم الذى ستعذّبون به،خلاصه الأمر أنّ السوط الإلهى مهيّأ للنزول على المستكبرين و الظالمين.***

ملاحظه

اشاره

من هو المتكلّف؟

قرأنـا فى الآيـات المـذكوره أعلاـه أنّ إحـدى مفـاخر رسولنا الأكرم صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أنّه غير متكلّف،و فى الروايات الإسلاميّه المزيد من الأبحاث التى توضّح علامات المتصنّع و المتظاهر بما ليس فيه،و منها:

ورد حـديث فى(جوامع الجـامع)عن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم،قـال فيه: «المتكلّف ثلاـث علامات:ينازع من فوقه،و يتعاطى ما لا ينال،و يقول ما لا يعلم» (۱) ! و روى مثله فى الخصال عن الصادق عليه السّلام عن لقمان فى وصيته لابنه.

كما

ورد حـديث آخر و هـو من وصايـا الرّسـول الأـكرم صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم لأـمير المـؤمنين عليه السّـلام «للمتكلّـف ثلاـث علامات:يتملّق إذا حضر،و يغتاب إذا غاب،و يشمت بالمصيبه» (۲) .

إضافه إلى ذلك

روى حـديث عن الإمـام الصـادق عليه السّـلام،جاء فيه: «المتكلّف مخطئ و إن أصاب،و المتكلّف لا يسـتجلب فى عاقبه أمره إلاّ الهوان،و فى الوقت إلاّـ التعب و العنـاء و الشـقاء،و المتكلّف ظـاهره رياء و باطنه نفاق،و هما جناحان بهما يطير المتكلّف،و ليس فى الجمله من أخلاق الصالحين،و لا من شعار المتّقين المتكلّف فى أى باب،كما قال اللّه تعالى لنبيّه قل ما أسألكم عليه من أجر و ما أنا من المتكلّفين» (۳) .

من مجموع هـذه الرّوايات يتّضـح-بصوره جيّـده-أنّ المتكلّفين خارجون عن جادّه الحقّ و العـداله و الصـدق و الأمانه،و أنّهم لا يرون الحقائق أمام أعينهم، و يتشبّثون بالأوهام و الخيال،يتبّئون بأمور ليسوا على اطّلاع بها،و يتدخّلون

۱- ۱) -جوامع الجامع نقلا عن تفسير الميزان،المجلّد ۱۷،الصفحه ۲۴۳.

۲- ۲) -نور الثّقلين،المجلّد ۴،الصفحه ۴۷۳.

۳- ۳) -المصدر السابق.

بأمور لا يعرفونها،لهم ظاهر و باطن،و حضورهم و غيابهم متضادّ،يتعبون أنفسهم و يجهدونها،و لكنّهم لا يحصدون سوى الخيبه و الخسران،أمّا المتّقون و الصالحون فإنّهم مطهّرون من هذه الصفه و منزّهون عنها.

إلهى!وفّقنا لتطهير أنفسنا من كلّ آثار التكلّف و النفاق و التمرّد و الطغيان.

إلهى!اجعلنا فى صفوف المخلصين الذين يستظلّون بظلّ حمايتك و حفظك، و الذين يئس الشيطان منهم.

إلهى!ارزقنا اليقظه و الذكاء،كى نسارع فى إحياء محتوى هذا القرآن الكبير، و تعبئه كافّه القوى الإسلاميه فى أنحاء العالم، و نسير فى طريقك بقلب و لسان واحد،لكسر شوكه أعداء الحقّ و الحقيقه.

آمين يا ربّ العالمين.

*** «انتهت سوره(ص)» «و انتهاء المجلد الرابع عشر»

ص :

ص :

ص :

ص :

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم
هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
الزمر: ۹

المقدمة:
تأسّس مركز القائمیة للدراسات الکمبیوتریة فی أصفهان بإشراف آیة الله الحاج السید حسن فقیه الإمامی عام ۱۴۲۶ الهجری فی المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين فی الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:
نظراً لقلة المراكز القائمة بتوفير المصادر فی العلوم الإسلامية وتبعثرها فی أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمیة للدراسات الکمبیوتریة فی أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين فی العلوم الإسلامية وتقدم المؤسسة مجاناً مجموعة الكترونية من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهی منظمة فی برامج إلکترونية وجاهزة فی مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها.
وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدة على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوی تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:
نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبیّ عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصا الشباب على دراسة أدقّ فی المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة فی الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين فی الحوازت العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها فی ملفات الكترونية

السياسات:
مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتينية وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمی البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ فی نشر المعلومات

من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات فی مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما فی الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمية الانترنتی بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمی لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة ((sms

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فی البحث والدراسة وتطبيقها فی أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

١.JAVA

٢.ANDROID

٣.EPUB

٤.CHM

٥.PDF

٦.HTML

٧.CHM

٨.GHB

إعداد ۴ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمية ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

١.ANDROID

٢.IOS

٣.WINDOWS PHONE

۴.WINDOWS

وتقدّم مجاناً فی الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقـدم بكلمـة الشـكر والتقـدير إلى مكاتب مراجع التقليـد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسـسات، الكتّاب وكل من قدّم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.
عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اى، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ ـ ٠٢١

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.